فوستيل دى كولانج
Fustel de Coulanges

المدينة العتيقة

LA CITÉ ANTIQUE

دراسة لعبادة الإغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم

ترجمه
عباس بيومى بك
رئيس أمناء
المتحف المصرى

راجعه للوزارة
عبد الحميد الدواخلى
الأستاذ المساعد للأدب العربى
بجامعة فؤاد الأول



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها: حسن ويوسف محمد واخوتهما
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة



كلمة للمترجم

ولد المؤلف نوما-دينى فوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges (Numa - Denis) فى باريس سنة ١٨٣٠ وتوفى فى ماسى سنة ١٨٨٩ . وبعد أن اشتغل مدرسا فى عدة مدارس ثانوية فى فرنسا نال شهادة الدكتورا فى سنة ١٨٥٨ وعين استاذا فى جامعة استراسبورج ثم فى جامعة باريس ثم مديرا لمدرسة النورمال وقد انتخب عضوا بالأكاديمية سنة ١٨٧٥ . وقد ألف هذا الكتاب فى سنة ١٨٦٤ بعنوان :

La Cité Antique, Étude sur le culte, le droit, les institutions de la Grèce et de Rome.

وقد أرجع المؤلف كل أنظمة العنصر الآرى القديمة سواء لدى الهنود أو الإغريق أو الرومان إلى الدين . ولا شك أن كل مذهب من هذا القبيل لايخلو من شيء من المغالاة فى بعض التفاصيل إلا أن نظرية فوستيل دى كولانج كانت ولازالت صحيحة فى جوهرها بل إن الدراسات الحديثة قد عادت من جديد إلى الآراء التى عرضها المؤلف واعتنقتها بشغف كبير . وقد زاد فى قيمة هذا الكتاب ما امتاز به المؤلف من قوة فى التعبير مع سلاسة الأسلوب .

ولعل الصعوبة الكبرى التى صادفتنا فى هذه الترجمة هى نقل أسماء الأعلام من أشخاص ومؤلفات إذ أن اللغات الحديثة تختلف فى تحريفها للأسماء الإغريقية واللاتينية ولهذا قد عملنا جهد الطاقة على إعادة هذه الأسماء إلى صورتها فى لغتها الأصلية عدا ما اشتهر منها كسقراط وأفلاطون وهيرودوت . وقد ترددنا فى ترجمة أسماء المراجع القديمة لكنا آثرنا هذه الترجمة لأن المؤلف كان يورد أسماء هذه المؤلفات تارة باللغة اللاتينية وتارة

باللغة الفرنسية ، وجمهور المثقفين فى مصر أكثر معرفة بالإنجليزية منه بالفرنسية ؛ وفى تعريب هذه الأسماء توحيد لها فضلا عما فيه من سهولة فى الطباعة . وربما وجد البعض أن ترجمة كلمة *Fastes* ،مثلا، بأعياد لا تؤدى كل معانى الكلمة اللاتينية وعذرنا أننا لو حاولنا أن نحيط بكل معانيها لاستعملنا جملة طويلة فى حين أن الإيجاز واجب فى ذكر أسماء المراجع كما فضلنا أن نترك بعض الأسماء كما هى مثل الإنييد وساتورناليا و *odes* لخفتها فى النطق وجريها على ألسنة المشتغلين بالدراسات القديمة وعدم وجود فائدة كبيرة فى محاولة تعريبها . وفى هذه الحالات كنا نذكر الاسم بالإفرنجية فى المرات الأولى التى يرد فيها ذلك الاسم حتى لا يضل القارىء .

وإنا لنعتذر لحضرات القراء عن نقطة ضعف لا حيلة للمترجم فيها وهى عدم استعمال حروف الباء والجيم والفاء ذات النقط الثلاث فى الحواشى لمقابلة الحروف الإفرنجية .V. J. P لعدم وجودها بالمطبعة فى « البنط الصغير » مع ضرورتها لضبط أسماء الأعلام ولقد حاولنا ، فيما عدا الأسماء المألوفة ، أن نسد هذا النقص بذكر الاسم بالحروف الإفرنجية بجوار الكتابة العربية مرة على الأقل .

القاهرة فى ٢٥ مارس سنة ١٩٥٠

عباس بيومى

مقدمة

ضرورة دراسة أقدم عقائد القدماء

لمعرفة أنظمتهم

نعتزم أن نبين هنا وفقاً لأى المبادىء وطبقاً لأى القواعد كان يحكم المجتمع الإغريقى والمجتمع الرومانى . وإنا لنجمع الرومان والإغريق فى نفس الدراسة لأن هذين الشعبين ، وهما فرعان لجنس واحد ، كانا يتكلمان لهجتين مشتقتين من لغة واحدة ، ولهما أيضاً ذخيرة من الأنظمة المشتركة ومرا بسلسلة من الانقلابات المتشابهة .

وسنلتزم على الأخص أن نبين الفروق الأساسية والجوهرية التى تميز الشعوب القديمة عن الشعوب الحديثة تمييزاً كلياً ، لأن طريقتنا فى التربية التى تجعلنا نعيش منذ الطفولة بين الإغريق والرومان تعودنا أن نقارنهم بنا بدون انقطاع وأن نحكم على تاريخهم طبقاً لتاريخنا وأن نفسر ثوراتنا بثوراتهم . فإن ما تلقيناه عنهم وما خلفوه لنا يجعلنا نعتقد أنهم كانوا يشبهوننا ، ويصعب علينا أن نعتبرهم شعوباً غريبة عنا ؛ ونكاد دائماً نرى أنفسنا فيهم . ومن هنا وقعت أخطاء عدة . ولا نكاد نخلو من ضلال بشأن هذه الشعوب القديمة عند ما نرمقهم خلال آراء زماننا ووقائعه .

هذا والأغلاط فى هذه المادة لا تخلو من خطر . فإن الفكرة التى كونها الناس عن بلاد الإغريق وروما كثيراً ما بلبلت أفكار أجيالنا . لقد أساء البعض ملاحظة أنظمة المدينة العتيقة فتوهموا أن يحيوها عندنا . خدعوا أنفسهم فى فهم الحرية عند الأقدمين وبهذا وحده تعرضت الحرية للخطر عند المحدثين . وقد

أظهرت الثمانون عاماً الأخيرة من عصرنا فى وضوح (١) أن إحدى الصعوبات الكبيرة التى تعترض سير المجتمع الحديث هى ما اعتاده هذا المجتمع من وضع الآثار القديمة الإغريقية والرومانية نصب عينيه .

ولمعرفة حقيقة هذه الشعوب الماضية تقضى الحكمة بدراستها دون أن نفكر فى أنفسنا، كما لو كانت غريبة عنا تماماً وبنفس عدم التحيز وحرية الفكر كما لو كنا ندرس الهند القديمة أو بلاد العرب .

فإذا لاحظنا الإغريق وروما على هذا النحو ظهرا لنا فى صورة لا يمكن تقليدها على الإطلاق ، إذ ما من شىء يشبههما فى العصر الحديث وما من شىء يمكن أن يشبههما فى المستقبل . وسنحاول أن نرى على أية قواعد كانت تحكم هذه المجتمعات وسنتبين بسهولة أنه لم يعد فى قدرة هذه القواعد نفسها أن تسيطر على الإنسانية .

أنى أتى هذا ؟ ولماذا لم تعد ظروف حكومة البشر كما كانت عليه فى الماضى ؟ إن التغييرات الكبيرة التى تلوح من وقت لآخر فى بناء المجتمعات لا يمكن أن تكون أثراً للمصادفة أو للقوة وحدها ، لا بد أن يكون السبب الذى يحدثها قوياً ، وهذا السبب لا بد أن يكون مقيما فى الإنسان. فإذا كانت قوانين الاجتماع البشرى لم تعد هى بذاتها كما كانت فى الماضى فمرجع ذلك أن شيئاً ما قد تغير فى الإنسان . والواقع أن جزءاً من كياننا يتغير من قرن إلى قرن ، ذلك هو إدراكنا . فهو دائماً فى حركة ، ويكاد يكون دائماً فى تقدم ، وبسببه كانت أنظمتنا وقوانيننا عرضة للتبديل . فإن الإنسان لم يعد يفكر اليوم كما كان يفكر منذ خمسة وعشرين قرناً ؛ ولهذا السبب لم يعد يحكم نفسه اليوم كما كان يحكم وقتذاك.

وتاريخ الإغريق وروما دليل ومثل من أمثلة العلاقة الوثيقة القائمة دائماً بين آراء التصور الإنسانى والحالة الاجتماعية لشعب من الشعوب . تأمل أنظمة الأقدمين دون أن تفكر فى معتقداتهم تجدها غامضة ، شاذة، غريبة ، لا تفسر.

---

(١) وضع المؤلف هذا الكتاب فى سنة ١٨٦٤ — المعرب

لماذا وجد البطارقة (patriciens) والسوقة (plébéiens) ، الأولياء (patrons) والموالى (clients) ، النسباء (Eupatrides) والوضعاء (Thètes) ، ومن أين أتت هذه الفوارق التى تولد مع الناس ولا تمحى ، تلك التى نجدها بين هذه الطبقات ؟ ماذا تعنى هذه الأنظمة اللاقيديمونية التى تبدو لنا منافية للطبيعة كل هذه المنافاة ؟ كيف تفسر هذه الغرائب المجحفة فى القانون الخاص القديم : لم حرم على الإنسان بيع أرضه فى قورنته وثيبه (Thèbes) ؟ ولم فرق فى الميراث بين الأخ وأخته فى أثينا وروما ؟ وماذا كان يعنى الفقهاء بكلمتى *agnatio* و *gens* ؟ لماذا هذه الانقلابات فى الشرع وهذه الانقلابات فى السياسة ؟ ما هذه الوطنية الغريبة التى كانت تقضى فى بعض الأحيان على كل العواطف الطبيعية ؟ وماذا كان يراد بهذه الحرية التى كانوا يتكلمون عنها دائماً ؟ وكيف حدث أن أنظمة تبعد كل البعد عن كل ما نفهمه اليوم استطاعت أن تظل قائمة وأن تسيطر زمناً طويلا ؟ وما هو المبدأ الأعلى الذى جعلها تسيطر على نفوس الناس ؟

ولكن لنضع المعتقدات قبالة هذه الأنظمة وهذه القوانين فسرعان ما تصبح الوقائع أكثر جلاء ويعرض تفسيرها من تلقاء نفسه . إنا إذا ما ارتقينا إلى العصور الأولى لهذا الجنس أى إلى الزمن الذى أسس فيه أنظمته ولاحظنا الفكرة التى كونها لنفسه عن الكائن البشرى ، عن الحياة ، وعن الموت ، وعن الحياة الأخرى ، وعن الجوهر الإلهى فإننا نلحظ صلة وثيقة بين هذه الآراء وبين قواعد القانون الخاص العتيقة ، بين الشعائر المشتقة من هذه العقائد وبين الأنظمة السياسية .

وترينا مقارنة العقائد بالقوانين أن دينا قديماً كون الأسرة الإغريقية والرومانية وأقام الزواج والسلطة الأبوية وحدد درجات القرابة وقدس حق الملكية وحق الإرث ، وهذا الدين ذاته بعد أن وسع الأسرة ومدها كون جماعة أكبر منها هى المدينة وسيطر عليها كما سيطر على الأسرة . ومن الدين جاءت كل الأنظمة عند الأقدمين كما جاء القانون الخاص . ومنه تلقت المدينة مبادئها وقواعدها وعاداتها ومناصب الدولة فيها . لكن العقائد القديمة

قد تبدلت مع الزمن أو زالت ، وتبدل معها القانون الخاص والأنظمة السياسية . وعندئذ تتابعت سلسلة الانقلابات وأخذت التحولات الاجتماعية تتبع تحولات الإدراك العقلي بانتظام .

لذا يجدر قبل كل شيء أن ندرس عقائد هذه الشعوب.وأقدم هذه العقائد هي التي تهمنا معرفتها أكثر من سواها . إذ أن الأنظمة والعقائد التي نجدها في الحقبات الزاهرة من تاريخ الإغريق وروما ما هي إلا تطور للعقائد والأنظمة السالفة ويجب البحث عن أصولها في الماضي السحيق ، فإن الشعوب الإغريقية والإيطالية أقدم من رومولوس وهوميروس قدماً لا حد له ، وإن العقائد قد تكونت والأنظمة أقيمت أو أعدت في عصر أقدم منهما ، في عصر عتيق لا تاريخ له .

ولكن أي أمل لدينا في الوصول إلى معرفة هذا الماضي السحيق ؟ منذا الذي يخبرنا بما كان يفكر فيه الناس قبل الميلاد المسيحي بعشرة قرون أو بخمسة عشر قرناً ؟ أمن المستطاع العثور على شيء بالغ هذا الحد من الشرود عن الإدراك ، والهروب منه ، كالعقائد والآراء؟ إنا لنعرف ما كان يفكر فيه آريو الشرق منذ خمسة وثلاثين قرناً ؛ نعرفه عن طريق أناشيد الفيدا (Védas) ، ومن المؤكد أنها عتيقة جداً ، وعن طريق قوانين مانو وهي أقل قدما لكن يمكن أن نميز فيها فقرات من عصر يبعد عنها للغاية . ولكن أين هي أناشيد الإغريق القديمة ؟ لقد كانت لهم كما كانت للإيطاليين أغان عتيقة وكتب مقدسة قديمة ولكن لم يصل إلينا أي شيء من ذلك كله ؛ وأية ذكرى يمكن أن تبقى لنا عن تلك الأجيال التي لم تخلف لنا نصاً واحداً مكتوباً ؟ .

من حسن الحظ أن الماضي لا يموت إطلاقاً موتاً تاماً بالنسبة للإنسان . فقد يستطيع الإنسان أن ينساه لكنه يحتفظ به دائماً في نفسه . إذ أنه ، مثله هو ذاته في كل عصر ، ما هو إلا حاصل الحقبات السالفة وملخص لها . فإذا ما هبط إلى قرارة روحه فإنه يستطيع أن يعثر فيها على هذه الحقبات المختلفة وأن يميزها بما خلفته فيه كل واحدة منها .

فلنلاحظ الإغريق فى عصر پريكليس والرومان فى عصرسيسرون ؛ إنهم يحملون فى أنفسهم السمات الصحيحة والآثار المؤكدة لأبعد العصور . فإن معاصر سيسرون (أتكلم خاصةعن رجل العامة) له خيال ملىء بالأساطير ؛ وهذه الأساطير تنحدرإليه من عصر عتيق جداً وفيها الشهادة على طريقة تفكير ذلك العهد . ويستخدم معاصر سيسرون لغة قديمة الأصول إلى أبعد الحدود وقد تشكلت هذه اللغة ، بحكم تعبيرها عن أفكار العصور القديمة ، بأشكال هذه الأفكار واحتفظت بطابعها تنقله من قرن إلى قرن . فإن المعنى الملازم لأحد هذه الأصول يستطيع أن يكشف أحيانا عن رأى قديم أو عادة قديمة ؛ تغيرت الأفكار وتبخرت الذكريات لكن الألفاظ ظلت باقية شواهد لاتتزعزع على العقائد التى بادت . فمعاصر سيسرون يزاول شعائر فى الأضاحى وفى الجنازات وفى حفلة الزواج : هذه الشعائر أقدم منه ، والدليل على ذلك أنها لم تعد تستجيب لعقائده . ولكن لنتأمل عن قرب الشعائر التى لا يزال يؤديها أو الصيغ التى لايزال يتلوها فإناسنجد فيها عندئذ أثر ما كان يعتقده الناس قبله بخمسة عشر أو عشرين قرناً .

الكتاب الأول

العقائد العتيقة

الفصل الأول

عقائد عن الروح وعن الموت

لا زلنا نبصر لدى العامة حتى الأزمنة الأخيرة من تاريخ الإغريق وروما بقاء مجموعة من الأفكار والعادات ترجع بكل تأكيد إلى عصر سحيق جداً، ومنها نستطيع أن نعلم ما هى الآراء التى كونها الإنسان فى البدء عن طبيعة ذاته وعن روحه : عن سر الموت .

مهما ارتقينا فى تاريخ الجنس الهندوأوربى (١) الذى من فروعه الشعوب الأغريقية والإيطالية فإننا نرى أن هذا الجنس لم يفكر مطلقاً فى أن كل شىء قد ينتهى بالنسبة للإنسان بعد هذه الحياة القصيرة. فإن أقدم الأجيال قد اعتقدت، قبل أن يوجد الفلاسفة بزمن بعيد، فى حياة أخرى بعد هذه الحياة ولم تواجه الموت باعتباره انحلالا للكائن بل باعتباره تبديلا يسيراً للحياة .

ولكن فى أى مكان وعلى أية حال كان يسير ذلك الوجود الثانى ؟ أكانوا يعتقدون أن الروح الخالد كان يذهب بمجرد خلاصه من جسد ليحيي جسداً آخر؟ كلا ؛ فإن الاعتقاد فى تناسخ الأرواح لم يستطع قط أن يتأصل فى أذهان

---

(١) لاحظ علماء اللغات اتفاقاً فى الألفاظ والقواعد بين اللغات الأوربية الحديثة المشتقة من اللغة اللاتينية وبين الإغريقية والجرمانية والسلافية وبين لغة الهنود القديمة المسماة بالسنسكريتية ولغات أخرى كاللغة الفارسية ، لا تفترق إحداها عن الأخرى إلا بفروق يسيرة فأجمعوا على أنها كانت فى الأصل لهجات لقبائل كانت تنتمى إلى جنس واحد . وقد أطلق العلماء الألمان على هذا الجنس اسم الجنس الهندوجرمانى . فلما اتسعت المقارنة بين اللغات أطلق العلماء عليه اسم الجنس الهندوأوربى ثم اخيرا الجنس الآرى . المعرب .

الشعوب الإغريقية والإيطالية . كما أنه ليس أقدم رأى عندأريا الشرق(١) إذ أن أناشيد الفيدا (٢) تتعارض معه . أتراهم كانوا يعتقدون أن الروح كان يصعد نحو السماء ، نحو منطقة الضياء ؟ كذلك كلا ؟ فإن الاعتقاد بأن الأرواح كانت تدخل فى مقر سماوى يرجع فى الغرب إلى عصر حديث نسبياً ولم يكن المقر السماوى ليعد إلا ثواباً لبعض عظماء الرجال وذوى الفضل على البشر . لم تكن الروح فى أقدم عقائد الإيطاليين والإغريق لتذهب إلى عالم غريب عن هذا العالم لكى تمضى فيه وجودها الثانى بل كانت تبقى قريباً من الناس وتستمر تعيش تحت الأرض (٣) . بل اعتقدوا دهراً طويلا أن الروح كانت تبقى مرتبطة بالجسم فى ذلك الوجود الثانى : ولدت معه فلا يفصلها الموت عنه ، بل كانت تحبس نفسها فى القبر معه .

مهما بلغت هذه الآراء من القدم فقد بقيت لنا منها شواهد صحيحة . هذه الشواهد هى شعائر الدفن التى عاشت زمناً طويلا بعد هذه العقائد البدائية لكن من المؤكد أنها ولدت معها وتستطيع أن تفهمنا إياها .

---

(١) أريا إقليم تذكر الكتب الدينية الهندية أن أجداد الهنود وفدوا منه وتشير إلى أن موقعه فى الشمال الغربى من الهند أى فى مكان ما من هضبة إيران الحالية أو المنطقة المجاورة لبحر قزوين . وقد اعتبره بعض العلماء الموطن الأصلى للجنس الذى أطلقوا عليه اسم آرى اشتقاقاً من اسم هذا المكان ولو أن بعضاً آخر من العلماء يجعل موطنهم الأصلى على ضفاف بحر البلطيق . وقد انقسم العنصر منذ القرن الثلاثين أو العشرين قبل المسيح إلى شعبتين رئيسيتين الشعبة الشرقية (الهند و إيران) والشعبة الغربية (أوربا) ـ المعرب .

(٢) كتاب مقدس من كتب الهنود وهو من أقدم الكتب الدينية التى خلفها العنصر الهندوأوربى وقد جمع فصوله راهب هندى يدعى فيازا *Vya'sa* . ويعتبر مرجعا هاما لأقدم حضارة الهنود والجنس الهندوأوربى ـ المعرب

(٣) سيسرون : الأسئلة التسكلانية ١ : ١٦

Sub terra consevant reliquam vitam agi mortuorum

ويضيف سيسرون أن هذه العقيدة كانت من القوة بحيث أنه حتى عندما استقرت عادة إحراق الأجساد استمروا يعتقدون أن الموتى يعيشون تحت الثرى — انظر أوربيديس : الكيستيس ١٦٣ وهيكابه فى سواضع متفرقة .

ترينا شعائر الدفن بوضوح أنهم عندما كانوا يضعون جسما فى القبر كانوا يعتقدون فى نفس الوقت أنهم يضعون فيه شيئاً حياً. فإن ڤرجيليوس الذى يصف دائماً الاحتفالات الدينية بمنتهى الدقة والأمانة ختم روايته عن جنازة پوليدوروس بهذه الكلمات : «إنا نحبس الروح فى القبر». ونفس هذه العبارة موجودة، فى أوڤيديوس وپلينيوس الأصغر ؛ ولم يكن السبب فى ذلك أنها كانت تعبر عن آراء هؤلاء الكتاب عن الروح ، بل إنها خلدت فى اللغة منذ عهد متناه فى القدم شاهدة على عقائد عتيقة وعامية (١) .

كانت العادة عند نهاية الاحتفال الجنازى أن تدعى روح الميت ثلاث مرات بالاسم الذى كان يحمله . وكانوا يتمنون لها أن تعيش سعيدة تحت الثرى . ثلاث مرات يقولون لها : «كونى بعافية» ويضيفون قائلين «ليكن الثرى خفيفاً عليك(٢)» إلى هذا الحد كانوا يعتقدون أن الكائن سيستمر يعيش تحت هذه الأرض وأنه سيحتفظ بشعور الرضا والألم وكانوا يكتبون على القبر إن الإنسان يستريح هناك ؛ وقد بقى التعبير بعد هذه العقائد وظل ينتقل من قرن إلى قرن حتى وصل إلينا . ولا زلنا نستعمله ، بيد أنه ما من أحد يفكر اليوم أن كائناً خالداً يستريح فى قبر . لكنهم فى الزمن القديم كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن إنساناً

---

(١) Virgile, *En.*, III, 67 : *Animaque sepulcro condimus* – Ovide, *Fast.*, V, 451: *Tumulo fraternas condidit umbras* — Pline. Ep., VII, 27: *Manes rita conditi.*

يشير وصف فرجيليوس إلى عادة استعمال الأضرحة الرمزية ؛ فقد كان من المقبول أنه فى حالة عدم امكان العثور على جسم قريب أن يعمل له احتفال تحاكى فيه بالضبط جميع شعائر الدفن ؛ وكانو يعتقدون بذلك أنهم عند انعدام الجسد يحبسون الروح فى القبر : أوريبيديس : هيلينه ١٠٦١ ، ١٢٤٠ ؛ شارح بنداروس : البيثيات ٤ : ٢٣٤ ؛ فرجيليوس ٦ : ٥٠٥ ؛ ١٢ ، ٢١٤ .

(٢) *Iliade* XXIII, 221. Euripide, *Alceste*, 479: *Κούφα σοι χθὼν ἐπάνωθεν πέσοι.* Pausanias, II, 7, 2, *Ave atque vale*, Catulle C. 10. Servius, *ad Aeneid.*; II, 640, III,68; XI, 97. Ovide, *Fast.* IV, 852. *Métam.*, X, 62 — *Sit tibi terra levis*; *tenuem et sine pondere terram*; Juvénal, VII, 207, Martial, I, 89; V, 35; IX, 30,

يعيش هناك ولم يفتهم قط أن يدفنوا معـه الأشياء التى كانوا يفترضون أنه يحتاج إليها من ملابس وأوان وأسلحة (١). كانوا يريقون على قبره خمرا ليرووه من عطش ويضعون فيه أغذية ليشبعوه من جوع (٢) وكانوا يذبحون خيلا وعبيداً اعتقاداً منهم بأن هذه الكائنات إذا ما حبست مع الميت قامت بخدمته فى القبر كما كانت تخدمه فى حياته (٣) : بعد أن استولى الإغريق على طروادة هموا بالعودة إلى بلادهم واستصحب كل منهم سبيته الجميلة لكن أخيليا (أشيل) وهو تحت الثرى يطالب أيضاً بسبية فأعطوه «پوليكسن» . polyxène (٤)

وقد احتفظ لنا بيت من شعر پنداروس بأثر غريب من أفكار هذه الأجيال القديمة فقد اضطر فريكسس Phryxos أن يهجر بلاد الإغريق ويفر إلى بلاد خلشيس Cholchide (٥) ومات فى تلك البلاد . لكنه بالرغم من موته كان يريد العودة إلى بلاد الإغريق فتراءى لپلياس Pélias وأوصاه أن يذهب إلى خلشيس ليجاب روحه منها . ولا ريب أن هذه الروح كانت تأسى على أرض الوطن

---

(١) أوريبيديس : الكستيس ٦٣٧ ؛ ٦٣٨ ؛ أورستيس ١٤١٦ - ١٤١٨ . فرجيليوس : الإنييد ٦ : ٢٢١ ؛ ١١ : ١٩١ - ١٩٦ . والعادة القديمة فى إحضار الهدايا للموتى يشهدبها ثوقيديديس ٢ : ٣٤ . *εἰσφέρει τῷ ἑαυτοῦ ἕκαστος* وقد حرم قانون صولون أن يدفن مع الميت أكثرمن ثلاثة أثواب (بلوتارخوس : صولون ٢١) . ولا يزال لوقيانوس (Lucien) يتكلم عن هذه العادة «كم من الملابس والزينة أحرق أودفن مع الموتى كما لو كانوا سيستعملونها تحت الأرض ! » - وقد روعيت العادة العتيقة فى جنازة ، قيصر فى عصر تسود فيه الخرافة: حملوا إلى الحطب المتقد ال *munera* الملابس والأسلحة والمصاغ (سويتونيوس : قيصر ٣٤) أنظر أيضاً تاسيتوس : حوليات ٣ : ٣ .

(٢) أوريبيديس : إفيغينه فى التوريد ١٦٣ . فرجيليوس : الإنييد ٥ : ٧٦-٨٠ ٦ : ٢٢٥ .

(٣) الالياذه ، ٢١ : ٢٧ - ٢٨ ؛ ٢٣ : ١٦٥ - ١٧٦ . فرجيليوس: الإنييد ١٠ : ٥١٩ - ٥٢٠ ؛ ١١ : ٨٠ - ٨٤ ؛ ١٩٧ - نفس العادة فى بلاد الغال (قيصر : حرب الغال ٥ : ١٧) .

(٤) أوريبيديس : هيكابه ٤٠ - ٤١ ؛ ١٠٧ - ١١٣ ؛ ٦٣٧ - ٦٣٨ .

(٥) بلاد خولشيس منطقة بجوار البحر الأسود من الشرق - المعرب

وعلى قبر الأسرة . لكنها وهى مرتبطة ببقايا الجثة لم يكن فى استطاعتها أن تغادر خلشيس بدونها . (١)

من هذه العقيدة القديمة تفرعت الحاجة إلى الدفن . فلكى تستقر الروح فى هذا المسكن السفلى الذى يوافقها فى حياتها الأخرى ، كان لا بد أن يكون الجسم الذى بقيت مرتبطة به مغطى بالثرى . والروح التى لا قبر لها لا مقر لها ، فهى روح هائمة وعبثاً كانت تتطلع للراحة التى لا بد أنها كانت تهواها بعد اضطرابات هذه الحياة ونصبها . فكان حتماً عليها أن تهيم دائماً فى صورة شبح *Larva* دون أن تتوقف قط ودون أن تتلقى إطلاقاً القربان والأغذية التى تحتاج إليها . وبما أنها كانت تعسة فسرعان ما تصبح شريرة تعذب الأحياء وترسل عليهم الأمراض وتتلف محاصيلهم وتثير الذعر فيهم بظهورها بمظاهر مقبضة منذرة إياهم أن يمنحوا الدفن لجسدها ولها هى ذاتها . ومن هنا جاء الاعتقاد فى الأشباح . (٢) . فقد اقتنع جميع أهل الأزمنة القديمة أنه بدون الدفن تكون الروح بائسة ، وبالدفن تصبح سعيدة إلى الأبد . فلم يكن قيامهم بالاحتفال الجنازى لإعلان الألم بل لراحة الميت وإسعاده (٣) .

ولنلاحظ جيداً أنه لم يكن يكفى أن يوضع الجسد فى الأرض . بل كان لا بد من مراعاة شعائر تقليدية والنطق بصيغ معروفة . وتوجد فى پلاوتوس (Plaute) قصة شبح (٤) ؛ إنها روح مجبرة على التجول لأن جسدها دفن دون مراعاة للشعائر . ويروى سويتونيوس (Suetone) أنه لما دفن كاليغولا دون القيام بالاحتفال الجنازى نتج عن ذلك أن روحه بقيت هائمة وأنها ظلت تظهر

---

(١) بنداروس : البيثيات ٦ : ٢٨٤ (طبعة Heyne) ؛ أنظر شارح بنداروس .

(٢) سيسرون : الموضوعات التسكولانية ١ : ١٦ . أوريبيدس : الطرواديات ١٠٨٥ . هيرودوت ٥ : ٩٢ . فرجيليوس ٦ : ٣٧١ ٣٧٩ . هوراسيوس : Odes, 1,23 أوفيديوس *Fast.* V,483 : بلينيوس ؛ الرسائل ٧ : ٢٧ . سويتونيوس : كاليغولا ٥٩ . سرفيوس *ad Aen.* III, 63

(٣) الالياذة : ٢٢ : ٣٥٨ ؛ الاوذيسه ١١ : ٧٣

(٤) بلاوتوس : الأشباح *Mostellaria* ٣ : ٢

للأحياء إلى اليوم الذى تقرر فيه أن يخرج الجسد وأن يدفن طبقاً للقواعد (١) .
ويرى هذان المثلان بجلاء أى أثر كانوا ينسبون لشعائر الاحتفال الدينى ولصيغه.
وحيث إنه بدون هذه الشعائر كانت الأرواح تبقى هائمة وتتراءى للأحياء ، فهى
إذن التى كانت تقرها فى قبورها وتحبسها فيها ، وكما أنه كانت هناك صيغ
لها هذه الخاصية فقد كانت لدى الأقدمين صيغ أخرى لها الخاصية المضادة ،
خاصية استحضار الأرواح وإخراجها موقتاً من مدفنها .

ويمكن أن نرى لدى الكتاب الأقدمين إلى أى مدى كان خوف الإنسان من
عدم مراعاة الشعائر نحوه بعد موته مصدر عذاب له . لقد كان ذلك مصدر
قلق مضن له(٢)فقد كانت خشية الموت أقل من خشية الحرمان من الدفن الذى
كان يعد فقداناً للراحة والسعادة الأبدية ؛ فلا تغلبنا الدهشة إذن عندما
نرى الأثينيين يعدمون القواد الذين أهملوا دفن موتاهم بعد انتصار بحرى .
ومن المحتمل أن هؤلاء القواد ، وهم من تلاميذ الفلاسفة ، كانوا يفرقون بين
الروح والجسد ؛ وبما أنهم لا يؤمنون بأن مصير أحدهما مرتبط بمصير الآخر
فقد بدا لهم أنه لا يهم الجثة كثيراً أن تتحلل فى الأرض أو فى الماء . فلم يعرضوا
أنفسهم للعاصفة من أجل إجراء لا جدوى فيه كالتقاط الموتى ودفنهم . لكن

(١) Suétone, *Caligula*, 59: *Satis constat, priusquam id fieret, hortorum custodes umbris inquietatos. . . . nullam noctem sine aliquo terrore transactam.*

(٢) أنظر فى الإلياذه (٢٢ : ٣٣٨-٣٤٤) هكتور يلتمس من قاهره ألا يحرمه من الدفن : أتوسل إليك بركبتيك ، بحياتك ، بوالديك ، ألا تترك جسمى للكلاب بجوار سفن الإغريق . تقبل الذهب الذى سيمنحه لك والدى بسعة ورد إليه جسدى لكى يؤدى إلى الطرواديون والطرواديات نصيبى من تكريم حرق الجثة . » - وكذلك فى صفوكليس Sophoclés تواجه أنتيغونه الموت كى لا يبقى أخوها بلا دفن » (صفوكليس : أنتيغونه ٤٦٧) . - ونفس العاطفة فى فرجيليوس ٩ : ٢١٣ هوراسيوس *Odes*, I, 18, v. 24-35 أوفيديوس: نشيد الأبطال ١٠ : ١١٩ - ١٢٣ ؛ الحزينات ٣ : ٣ ، ٤٥ - وكذلك فى اللعنات أفظع ما يتمناه المرء لعدوه هو أن يموت بدون دفن (فرجيليوس : الإنييد ٤ : ٦٢٠) .

الجمهور الذى بقى متمسكاً بالاعتقادات القديمة حتى فى أثينا اتهم قواده بالكفر وأعدمهم . لقد أنقذوا أثينا بانتصارهم لكنهم أضاعوا آلافاً من الأرواح بإهمالهم ، فجاء أقارب الموتى إلى المحكمة فى ملابس الحداد وهم يفكرون فى العذاب الطويل الذى سيحيق بهذه الأرواح وطالبوا بالانتقام من هؤلاء القواد (١) .

كان القانون فى المدن القديمة ينزل بكبار المذنبين عقاباً اشتهر بفظاعته ، وهو الحرمان من الدفن (٢) . فقد كانوا بذلك يعاقبون الروح ذاتها ويصبون عليها عذاباً يكاد يكون سرمدياً .

يجب أن نلاحظ أنه قد استقر عند القدماء رأى آخر عن إقامة الموتى فقد توهموا إقليما سفلياً أيضاً ، لكنه أوسع بكثير من القبر ، تعيش فيه الأرواح مجتمعة بعيدة عن أجسامها وفيه يوزع العقاب والثواب طبقاً للسيرة التى سار عليها الإنسان أثناء حياته لكن شعائر الدفن كما وصفناها الآن تتعارض مع هذه العقائد معارضة واضحة وهذا دليل قاطع على أنه فى العصر الذى أقيمت فيه هذه الشعائر لم يكونوا يعتقدون بعد لا فى الهاوية (الترتار Tartare) ولا فى حقول النعيم (الجنة) Champs Élysées وقد كان الرأى الأول لدى هذه الأجيال القديمة أن الكائن البشرى يعيش فى القبر وأن الروح لا تنفصل عن الجسد بل تبقى ثابتة فى ذلك الجزء من الثرى الذى كانت العظام مدفونة فيه . هذا ولم يكن على الإنسان حساب يؤديه عن حياته السالفة . ومادام قد وضع فى القبر فلم يكن عليه أن ينتظر ثواباً ولا عذاباً . فكرة جافية بلا ريب لكنها طفولة فكرة الحياة الأخرى .

لم يكن الكائن الذى يعيش تحت الثرى قد تخلص من بشريته بالقدر الذى يجعله

---

(١) اكسينوفون : الهلينيات ١ : ٧

(٢) ايسخيلوس : السبعة ضد ثيبه ١٠١٣ . صوفوكليس : أنتيغونه ١٩٨ ؛ أوريبيديس ، الفينيقيات ١٦٢٧ - ١٦٣٢ - أنظر ليسياس Lysias, *Epitaph.*, 7 — 9 . كل المدن القديمة كانت تضيف إلى تعذيب كبار المجرمين الحرمان من الدفن .

فى غير حاجة للغـذاء . ولذلك كانوا يحملون وجبـة من الطعام لـكل قبر فى أيام معينة من العام (١) .

وقد أعطانا أوفيديوس وفرجيليوس وصفاً لهذه الحفلة التى بقيت عادتها محتفظاً بها كما هى حتى عصرهما وإن كانت العقائد قد تغيرت . فيريانا أنهم كانوا يحيطون القبر بأكاليل هائلة من الأعشاب والزهور وأنهم كانوا يضعون فيه كعكاً وفاكهة وملحاً وأنهم كانوا يريقون عليه لبناً وخمراً وفى بعض الأحيان دم ضحية (٢) .

وإن الإنسان ليضل كثيراً إذا اعتقد أن هذه الوجبة الجنازية لم تكن إلا نوعاً من الذكرى ، فإن الغذاء الذى تحضره الأسرة كان للميت حقيقة، وله وحده

(١) وهذا هو ما كان يسمى باللاتينية *inferias ferre, parentare, ferre solemnia* Cicéron, *De legibus*, II. 21: *Majores nostri mortuis parentari voluerunt.* Lucrèce, III, 52: *Parentant et nigras mactant pecudes et Manibus divis inferias mittunt.* Virgile, *En.*, VI, 380: *Tumulo solemnia mittent;* IX, 214: *Absenti ferat inferias decoretque sepulcro.* Ovide, *Amor*, I, 13,3: *Annua solemni caede parentat avis.*— هذه القرابين التى كان للأموات حق فيها كانت تسمى *Manium jura* ، انظر سيسرون : القوانين ٢ : ٢١ ويلمح إليها سيسرون فى دفاعه عن فلاكوس ٣٨ وفى خطبته الفلبية الأولى . وكانت هذه العادات لا تزال مرعية فى عصر تاسيتوس (تاريخ ٢ : ٩٥) ويهاجمها ترتيليانوس (Tertullien) باعتبارها لا تزال على عهده فى كامل قوتها .

Defunctis parentant, quos escam desiderare praesumant (De resurr. carnis, I); Defunctos vocas securos, si quando extra portam cum obsoniis et matteis parentans ad busta recedis (De testim. animae 4).

(٢) Solemnes tum forte dapes et tristia dona
libabat cineri Andromache manesque vocabat
Hectoreum ad tumulum

(Virgile, *En.*, III, 301-303)

— Hic duo rite mero libans carchesia Baccho
Fundit humi, duo lacte novo, duo sanguine sacro
Purpureisque jacit flores ac talia fatur:
Salve, sancte parens, animaeque umbraeque paternae

(Virgile, *En.*, V. 77-81)

Est honor et tumulis; animas placate paternas.
.... Et sparsae fruges parcaque mica salis
Inque mero mollita ceres violaeque solutae

(Ovide, *Fast.*, II, 535-542).

دون سواه. والدليل على ذلك أن اللبن والخمر كانا يراقان على ثرى القبر وأن شقاً كان يحفر لإيصال الأغذية الصلبة حتى مضجع الميت وأنهم إذا ضحوا بضحية فإن جميع لحمها كان يحرق حتى لا يحصل أى حى على نصيب منها، وأنهم كانوا يتلون صيغا مقدسة معينة لدعوة الميت للطعام والشراب، وأنه إذا حضرت الأسرة بكاملها هذه الأكلة فإنها لم تكن تمس هذه الأغذية إطلاقاً؛ وأخيراً عند العودة كانوا يعنون عناية كبرى بترك قليل من اللبن وبعض الكعك فى أوان؛ ولقد كانت من الكبائر أن يمس أحد الأحياء هذه المؤونة الضئيلة المخصصة لحاجات الميت.

دامت هذه العقائد زمناً طويلا ولا زلنا نعثر على التعبير الذى يدل عليها باقياً لدى كبار كتاب الإغريق فتقول إيفيغنيا (Iphigénie) فى أوريبيديس «أسكب على ثرى القبر اللبن والعسل والخمر إذ أنه بهذا يدخل السرور على الموتى» (١). ويقول نيوپتوليموس Néoptolème «يابن پيليوس Pélée تلق هذا المشروب الذى يلذ للموتى، تعال واشرب هذا الدم» (٢). وتسكب إليكترا السوائل وتقول «لقد نفذ الشراب فى الأرض فتلقاه والدى» (٣). تأملوا صلاة أورستيس لأبيه المتوفى: «أى أبى، إذا أنا عشت فإنك ستحصل على مآدب حافلة لكن إذا أنا مت فإنك لن تنال نصيبك من الأغذية المتصاعد دخانها والتى يتغذى منها الموتى» (٤). وتشهد تهكمات لوقيانوس بأن هذه العادات كانت لا تزال باقية فى عهده: «يتوهم الناس أن الأرواح تأتى من أسفل نحو الأغذية التى يحضرونها

(١) أوريبيديس: ايفيغنيا فى الطوريد ١٥٧ - ١٦٣.

(٢) أوريبيديس، هيكابه ٥٣٦؛ إليكترا ٥٠٥ وما بعدها.

(٣) ايسخيلوس: حاملات السوائل (Choéphores) ١٦٢.

(٤) ايسخيلوس: حاملات السوائل ٤٣٢—٤٨٤—يعزو ايسخيلوس لأتوسا Atossa فى الفرس آراء الإغريق: «أحضر لزوجى هذه الأطعمة التى تدخل السرور على الموتى: اللبن والعسل العسجدى وثمرة الكرم؛ فلندع روح داراً ولنسكب هذه المشروبات التى ستشربها الأرض والتى ستنفذ عند الآلهة السفليين» (الفرس ٦١٠ — ٦٢٠). — عندما كانت الضحايا تقدم لآلهة السماء كان الناس يأكلون لحمها لكن عندما كانت تقدم للموتى فان اللحم كان يحرق بأكمله (بوسانياس ٢ : ١٠).

لهم وأنهم يتمتعون بقتار اللحوم وأنهم يشربون الخمر المراق على القبور » (١) وكان يوجد عند الإغريق أمام كل قبر موضع مخصص لتضحية الضحايا وطهى لحمها (٢) . وكذلك كان للقبر الرومانى ما يسمى *culina* وهو يشبه مطبخاً من طراز خاص ومقصوراً فقط على استعمال المتوفى (٣) . ويروى پلوتارخوس أنه بعد معركة پلاتيا لما دفن المحاربون المتوفون فى مكان القتال تعهد الپلاتيون أن يقدموا لهم الوجبة الجنازية كل عام ، وعلى هذا فقد كانوا يتوجهون يوم الذكرى فى موكب كبير يقودهم رجال الدولة نحو الكثيب الذى يرقد تحته الموتى ، فيقدمون لهم لبناً وخمراً وزيتاً وعطوراً ويضحون بضحية . وعندما كانت توضع الأغذية على القبر كان يرتل الپلاتيون صيغة يدعون بها الموتى لتناول هذا الغذاء . وما برح هذا الاحتفال يقام فى عصر پلوتارخوس الذى استطاع أن يشهد إحياء ذكراه للمرة ختام السمائة (٤) . وقد بين لنا لوقيانوس الفكرة التى أنتجت كل هذه العادات فقد كتب «يتغذى الموتى من الأطعمة التى نضعها على قبورهم ويشربون الخمر الذى نسكبه فيها ؛ فالميت الذى لا يقدم له شىء ما محكوم عليه بالجوع الأبدى.» (٥) .

تلك عقائد بالغة فى القدم وتبدوا لنا على درجة كبيرة من الخطأ ومثيرة للسخرية . ومع ذلك فقد كان لها سلطان على الإنسان خلال عدد كبير من الأجيال ، فسيطرت على النفوس ، بل سنرى قريباً أنها سيطرت على الجماعات وأن معظم أنظمة القدماء العائلية والاجتماعية إنما أتت من هذا المنبع

---

(١) لوقيانوس ، خارون ٢٢ - Ovide, *Fastes*, 11, 566: *Posito pascitur umbra cibo*

(٢) لوقيانوس : خارون ٢٢ «يحفرون حفراً بجوار القبر وينضجون فيها أطعمة للموتى » .

(٣) Festus, V° *Culina: Culina vocatur locus in quo epulae in funere comburuntur.*

(٤) Plutarque, *Aristide*, 21: *Παρακαλεῖ τοὺς ἀποθανόντας ἐπὶ τὸ δεῖπνον καὶ τὴν αἱμοκουρίαν*

(٥) لوقيانس: الحداد (*De Luctu*) ٩

الفصل الثانى

عبادة الموتى

لم تلبث هذه العقائد أن أنتجت فى وقت مبكر قواعد للسلوك ، فقد أدركوا أنه ما دام الميت فى حاجة لغذاء وشراب فإن الواجب يفرض على الأحياء قضاء هذه الحاجة ؛ فلم تترك العناية بتقديم أغذية الموتى لهوى الناس وعواطفهم المتقلبة ، بل أصبحت فرضاً لازماً . وبذلك نشأت حول الموت ديانة كاملة من الجائز أن قواعدها قد زالت فى زمن مبكر لكن شعائرها استمرت إلى أن انتصرت المسيحية .

كانت الموتى فى اعتقادهم كائنات مقدسة (١) . وقد خلع القدماء عليهم ما كانوا يجدونه أكثر الألقاب احتراماً ؛ فكانوا يسمونهم الطيبين والقديسين والسعداء (٢) وكانوا يكنون لهم كل التبجيل الذى يستطيع الإنسان أن يكنه للمعبود الذى يحبه ويخشاه . كان كل ميت فى فكرهم إله (٣) .

---

(٣) Plutarque, *Solon*, 21: *Ὅσιον τοὺς μεθεστῶτας ἱεροὺς νομίζειν*

(٤) *Χρῆστοι, μάκαρες* أرسطو اقتبسه بلوتارخوس فى المسائل الرومانية ٥٢ والمسائل الإغريقية ٥ — *Μάκαρες χθόνιοι* ، ايسخيلوس ، حاملات السوائل Choéph. ٤٧٥ .

(٥) Euripide, *Phénic.*, 1321: *Τοῖς θανοῦσι χρὴ τὸν οὐ τεθνηκότα τιμὰς διδοντα χθόνιον εὖ σέβειν θεόν.* — Odyssée X, 526: *Εὐχῇσ λίσῃ κλυτὰ ἔθνεα νεκρῶν,*

ايسخيلوس ، حاملات السوائل ٤٧٥ : « أيها السعداء القاطنون تحت الثرى اسمعوا دعائى ؛ هلموا إلى نجدة أبنائكم وامنحوهم النصر » — واستنادا إلى هذه الفكرة يدعو إينياس Enée أباه المتوفى *Sancte parens, divinus parens* فرجيليوس الإنييد ٥: ٨٠ ؛ ٥ : ٤٧ .

Plutarque, *Quest, rom.* 14: *Θεὸν γεγονέναι τὸν τεθνηκότα λέγουσι.* Cornelius Nepos, *Fragm.*, XII: *Parentabis mihi et invocabis deum parentem.*

هذا النوع من التألية لم يكن امتيازاً مقصوراً على عظماء الرجال ؛ إذ أنه لم يكن هناك تمييز بين الأموات . يقول سيسرون : «أراد أسلافنا أن يحسب الناس الذين غادروا هذه الحياة فى عـداد الآلهـة (١) » . بل لم يكن من الضرورى أن يكون المرء من ذوى الفضيلة ؛ فكان الخبيث يصبح إلها على قدم المساواة مع أهل الخير وإنما يحتفظ فى ذلك الوجود الآخر بكل ميول الشر التى كانت نصيبه فى الحياة الأولى (٢) .

وكان يطيب للإغريق أن يطلقوا على الموتى اسم الآلهة السفليين . فى إحدى روايات ايسخيلوس يدعو ابن أباه المتوفى هكذا «أنت الذى هو إله تحت الأرض ويقول أوريپيديس عند الكلام على الكستيس (Alceste) : «بالقرب من قبرها يقف المار ويقول : هذه هى الآن معبودة سعيدة .» (٣) وكان الرومان يطلقون على الموتى اسم الآلهة مانيس (Mânes) فيقول سيسرون : «أعطوا الآلهة مانيس ما هو لهم ؛ إنهم أناس هجروا الحياة ؛ اعتبروهم كائنات إلهية .» (٤)

كانت القبور معابد هذه المعبودات . ولهذا كانت تكتب عليها هذه الكتابة المقدسة «إلى الآلهة مانيس» *Dis Manibus* وبالإغريقية «إلى الآلهة السفليين *θεοῖς χθονίοις* . هناك كان يعيش الإله مدفونا *Manesque sepulti* كما يقول ڤرجيليوس (٥) . وكان أمام القبر مذبح للضحايا كما هى الحال أمام معابد الآلهة (٦) .

---

(١) سيسرون ؛ القوانين ٢ : ٢٢

(٢) القديس اغسطينوس: مدينة الله ٨ : ٢٦ ؛ ٩ : ١١ .

(٣) Euripide, *Alceste*, 1015: ***Nῦν*** *δ᾽ἐστὶ μάκαιρα δαίμων᾽χαῖρ᾽, ὦ πότνι᾽, εὖ δὲ δοίης*

(٤) سيسرون القوانين ٢ : ٩ . فارون Varron فى القديس اغسطينوس مدينة الله ٨ : ٢٦ .

(٥) فرجيليوس ،الإنييد ٤ : ٣٤ .

(٦) Euripide, *Troyennes*, 96: *Τύμβους θ᾽ἱερὰ τῶν κεκμηκότων*, *Electre*, 505-510—Virgile, *En.*, VI, 177:*Aramque sepulcri*; III, 63:

وإنا لنجد عبادة الموتى هذه عند الإغريق وعند اللاتينيين (١) والأتروسك كما نجدها أيضاً عند الأريا القاطنين فى الهند إذ ورد ذكرها فى أناشيد الريغ ڤيدا Rig-Véda. ويتحدث كتاب قوانين مانو عن هذه العبادة باعتبارها من أقدم العبادات لدى الناس. وإنا لنرى فى هذا الكتاب أن فكرة تناسخ الأرواح قد سرت منذ ذلك الوقت فوق هذه العقيدة القديمة، بل نرى أن عبادة براهما قد استقرت قبل ذلك التاريخ، ومع هذا فإن ديانة أرواح الأسلاف لاتزال باقية حية تحت عبادة براهما وتحت مذهب التناسخ لا يقوى عليها البلى وقد فرضت على محرر قوانين مانو أن يحسب لها حساباً وأن يقبل فرائضها فى الكتاب المقدس. وليس أقل ما ينفرد به هذا الكتاب البالغ حد الغرابة أنه حافظ على القواعد الخاصة بهذه العقائد العتيقة بينما يبدو واضحاً أنه حرر فى عصر تغلبت فيه عقائد مناقضة لها كل التناقض. وفى هذا دليل على أنه إذا كان تبدل العقائد الإنسانية فى حاجة لوقت طويل فإن تغيير الشعائر الخارجية والقوانين يحتاج لوقت أطول. وحتى فى يومنا هذا، بعد هذا القدر من القرون والانقلابات، ما فتىء الهنود يقدمون قرابينهم للأسلاف. فهذه الآراء وهذه الشعائر هى أقدم ما فى الجنس الهندوأوربى وهى أيضاً أثبت ما فيه.

---

(١) Varron, *De lingua lat.*, V, 74

Stant Manibus arae; III, 305: *Et germinas, causam lacrimis, sacraverat aras;* V, 48: *Divini ossa parentis condidimus terra moestasque sacravimus aras.*

يقول النحوى نونيوس مارسيلوس Nonius Marcellus إن القبر كان يسمى عند الأقدمين معبداً. والواقع أن فرجيليوس يستعمل كلمة *Templum* ليدل على القبر أو الضريح الرمزى الذى أقامته ديدو لزوجها (الإنييد ٤ : ٤٥٧).

Plutarque, *Quest.*, rom., 14: Ἐπὶ τῶν τάφων ἐπιστρέφονται, καθάπερ θεῶν ἱερὰ τιμῶντες τὰ τῶν πατέρων μνήματα

وقد استمروا يسمون *ara* الحجر المنصوب على القبر (سويتونيوس: نيرون ٥٠)

وهذه الكلمة مستعملة فى الكتابات الجنازية Orelli, nos. 4521, 4522, 4826

هذا النوع من التألية لم يكن امتيازاً مقصوراً على عظماء الرجال ، إذ أنه لم يكن هناك تمييز بين الأموات . يقول سيسرون : «أراد أسلافنا أن يحسب الناس الذين غادروا هذه الحياة فى عـداد الآلهـة (١) » . بل لم يكن من الضرورى أن يكون المرء من ذوى الفضيلة ، فكان الخبيث يصبح إلها على قدم المساواة مع أهل الخير وإنما يحتفظ فى ذلك الوجود الآخر بكل ميول الشر التى كانت نصيبه فى الحياة الأولى (٢) .

وكان يطيب للإغريق أن يطلقوا على الموتى اسم الآلهة السفليين . فى إحدى روايات ايسخيلوس يدعو ابن أباه المتوفى هكذا «أنت الذى هو إله تحت الأرض ويقول أوريبيديس عند الكلام على الكستيس (Alceste) : «بالقرب من قبرها يقف المار ويقول : هذه هى الآن معبودة سعيدة .» (٣) وكان الرومان يطلقون على الموتى اسم الآلهة مانيس (Mânes) فيقول سيسرون : »أعطوا الآلهة مانيس ما هو لهم ، إنهم أناس هجروا الحياة ، اعتبروهم كائنات إلهية .» (٤)

كانت القبور معابد هذه المعبودات . ولهذا كانت تكتب عليها هذه الكتابة المقدسة «إلى الآلهة مانيس» *Dis Manibus* وبالإغريقية «إلى الآلهة السفليين *θεοῖς χθονίοις* . هناك كان يعيش الإله مدفونا *Manesque sepulti* كما يقول ڤرجيليوس (٥) . وكان أمام القبر مذبح للضحايا كما هى الحال أمام معابد الآلهة (٦) .

---

(١) سيسرون ، القوانين ٢ : ٢٢

(٢) القديس اغسطينوس: مدينة الله ٨ : ٢٦ ، ٩ : ١١ .

(٣) Euripide, *Alceste*, 1015: ***Ν***ῦν *δ'ἐστὶ μάκαιρα δαίμων'χαῖρ', ὦ πότνι', εὖ δὲ δοίης*

(٤) سيسرون القوانين ٢ : ٩ . فارون Varron فى القديس اغسطينوس مدينة الله ٨ : ٢٦ .

(٥) فرجيليوس ، الإنييد ٤ : ٣٤ .

(٦) Euripide, *Troyennes*, 96: *Τύμβους θ'ἱερὰ τῶν κεκμηκότων*, *Electre*, 505-510—Virgile, *En.*, VI, 177:*Aramque sepulcri;* III, 63:

وإنا لنجد عبادة الموتى هذه عند الإغريق وعند اللاتينيين (١) والأتروسك كما نجدها أيضاً عند الأريا القاطنين فى الهند إذ ورد ذكرها فى أناشيد الريغ ڤيدا Rig-Véda. ويتحدث كتاب قوانين مانو عن هذه العبادة باعتبارها من أقدم العبادات لدى الناس. وإنا لنرى فى هذا الكتاب أن فكرة تناسخ الأرواح قد سرت منذ ذلك الوقت فوق هذه العقيدة القديمة، بل نرى أن عبادة براهما قد استقرت قبل ذلك التاريخ، ومع هذا فإن ديانة أرواح الأسلاف لاتزال باقية حية تحت عبادة براهما وتحت مذهب التناسخ لا يقوى عليها البلى وقد فرضت على محرر قوانين مانو أن يحسب لها حساباً وأن يقبل فرائضها فى الكتاب المقدس. وليس أقل ما ينفرد به هذا الكتاب البالغ حد الغرابة أنه حافظ على القواعد الخاصة بهذه العقائد العتيقة بينما يبدو واضحاً أنه حرر فى عصر تغلبت فيه عقائد مناقضة لها كل التناقض. وفى هذا دليل على أنه إذا كان تبدل العقائد الإنسانية فى حاجة لوقت طويل فإن تغيير الشعائر الخارجية والقوانين يحتاج لوقت أطول. وحتى فى يومنا هذا، بعد هذا القدر من القرون والانقلابات، ما فتىء الهنود يقدمون قرابينهم للأسلاف. فهذه الآراء وهذه الشعائر هى أقدم ما فى الجنس الهندوأوربى وهى أيضاً أثبت ما فيه.

Stant Manibus arae; III, 305: *Et germinas, causam lacrimis, sacraverat aras;* V, 48: *Divini ossa parentis condidimus terra moestasque sacravimus aras.*

يقول النحوى نونيوس مارسيلوس Nonius Marcellus إن القبر كان يسمى عند الأقدمين معبداً. والواقع أن فرجيليوس يستعمل كلمة *Templum* ليدل على القبر أو الضريح الرمزى الذى أقامته ديدو لزوجها (الإنييد ٤ : ٤٥٧).

Plutarque, *Quest.*, rom., 14: Ἐπὶ τῶν τάφων ἐπιστρέφονται, καθάπερ θεῶν ἱερὰ τιμῶντες τὰ τῶν πατέρων μνήματα

وقد استمروا يسمون *ara* الحجر المنصوب على القبر (سويتونيوس: نيرون ٥٠)

وهذه الكلمة مستعملة فى الكتابات الجنازية Orelli, nos. 4521, 4522, 4826

(١) Varron, *De lingua lat.*, V, 74

دعه يعد إلى هذه البلاد ؛ اسمع دعائى يا أبتى ؛ تقبل رجائى وأنت تتلقى ما أقدمه من السوائل المهراقة ». ولا تقتصر هذه الآلهة القوية على منح المنافع المادية إذ أن إلكترا تضيف : «هب لى قلباً أعف من قلب أمى ويدين أطهر من يديها» (١) . وكذلك يطلب الهندى من الأرواح «أن يزداد عدد الصالحين فى أسرته وأن يكثر لديه ما يعطيه».

هذه الأرواح البشرية التى ألهها الموت هى مايسميه الإغريق بالجن (démons) أو الأبطال (héros) (٢) وما يطلق عليه اللاتينيون اسم لاريس ، مانيس ، چينى Lares, Mânes, génies فيقول أپوليوس Apulée (٣) «اعتقد أسلافنا أن المانيس إذا كانت شريرة يجب أن تسمى لارڤى *larvae* ، ويسمونها لاريس (مفردها لار) إذا كانت خيرة وعطوفة » (٤) . ونقرأ فى مكان آخر «الچني

---

(١) ايسخيلوس : حاملات السوائل ١٢٢ - ١٤٥ .

(٢) من الجائز أن يكون المعنى الأصلى لكلمة ἥρως هو متوفى . فى بعض الأحيان كانت لغة النقوش ، وهى لغة العامة ، كما أنها هى التى يبقى فيها المعنى القديم للكلمات أكثر مما يبقى فى سواها ، تستعمل كلمة ἥρως بالمعنى الساذج الذى نعطيه لكلمة متوفى :
ἥρως χρῆστε, χαῖρε, Boeckh, *Corp. inscr.* nos 1629, 1723, 1781, 1782, 1784, 1786, 1789,3398; Ph. Lelas, *Morum. de Morée*, p. 205 أنظر ثيوغنيس طبعه ولكر البيت ٥١٣ وبوسانياس ٦:٦ : ٩ . وكان لدى الثيبيين مصطلح قديم معناه يموت ἥρωα γένεσθαι (Aristote, fragments, ėd. Heitz, t. IV, P. 260; Cf. Plutarque, *Proverb. quibus Alex. usi sunt*, C. 47 وكان يطلق الإغريق على روح الميت اسم δαίμων أيضاً (أوريبيدس : الكستيس . ١١٤ وشارحه Δαίμονα Δαρεῖον (ايسخيلوس الفرس . ٦٢) و δαίμων ἀνθρώπου (بوسانياس ٦:٦)

(٣) *Manes Virginiae* (تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٨) *Manes conjugis* (فرجيليوس ٦ : ١١٩) . و *Patris Anchisae Manes* (شرحه ١٠ : ٥٣٤) و *Manes Hectoris* (شرحه ٣ : ٣٠٣) و *Dis Manibus Martialis, Dis Manibus Acutiae* (أورلى : الأرقام ٤٤٤٠ ، ٤٤٤١ ، ٤٤٤٧ ، ٤٤٥٩ الخ .) و *Valerii deos manes* (تيتوس ليفيوس ٣ : ١٩) .

(٤) Apulée, *De deo Socratis*. Servius, *ad Aeneid*., III., 63

واللار ما هما إلا كائن واحد ، هكذا كان يعتقد أسلافنا » (١) ؛ وفى سيسرون « إن هؤلاء الذين يسميهم الإغريق دايمون نسميهم نحن لاريس.» (٢) .

ويبدو أن ديانة الموتى هذه هى أقدم ديانة . فقد عبد الإنسان الموتى قبل أن يتصور إندرا (Indra) أوزوس (Zeus) ويعبدهما، وخاف منهم ووجه إليهم صلواته ، ويلوح أن العاطفة الدينية بدأت من هنا . ومن الجائز أنه عندما رأى الموت شعر لأول مرة بفكرة ما فوق الطبيعة وأراد أن يأمل وراء ما يراه. لقد كان الموت أول الأسرار، وهو الذى وضع الإنسان فى طريق الأسرار الأخرى ورفع فكره من المرئى إلى الخفى ، ومن الطارىء إلى الخالد ، ومن البشرى إلى الإلهى .

---

(١) Censorinus, *De die natali*, 3

(٢) Ciceron, *Timée*, 11. - ترجم ديونيسيوس الهاليكارناسى *Lar familiaris* بعبارة κατ' οἰκίαν ἥρως (تاريخ الرومان العتيق *Antiq. rom.* ٤ : ٢) .

الفصل الثالث

النار المقدسة

يحوى بيت الإغريقى أو الرومانى مذبحاً ؛ وكان لا بد أن يوجد على هذا المذبح قليل من الرماد وفحم متقد (١) . ولقد كان التزاماً مقدساً على رب كل منزل أن يعنى بالنار ليل نهار ، والويل للمنزل الذى تخمد ناره . فى كل مساء كانوا يغطون النار بالرماد لكى يحولوا دون احتراقها احتراقاً كاملا ؛ وعند القيام من النوم كان أول ما يعنون به هو إحياء هذه النار وتغذيتها ببعض الغصون . ولا تنقطع النار عن التوهج على المذبح إلا عند ما تفنى الأسرة بأكملها. فكانت عبارتا نار خابية وأسرة فانية مصطلحين مترادفين عند الأقدمين (٢) .

ومن الجلى أن هذا التعود على الاحتفاظ دائماً بنار على مذبح يرجع إلى عقيدة عتيقة . وتبين القواعد والشعائر التى كانوا يراعونها فى هذا الشأن أنها لم تكن عادة تافهة فلم يكن مسموحاً بتغذية هذه النار بأى نوع من الخشب بل كانت الديانة تميز من بين الأشجار الأنواع التى يمكن أن تستعمل فى هذا الأمر .

---

(١) وكان الإغريق يسمون هذا المذبح بأسماء مختلفة *βῶμος. ἐσχάρα, ἑστία* وهذا الأخير (إستيا) هو الذى ساد استعماله فى النهاية وأصبح اللفظ الذى أطلق فيما بعد على الإلهة وستا Vesta ، وكان اللاتينيون يسمون نفس المذبح Vesta, ara, focus *In primis ingressibus domorum vestae, id est arae et foci, solent haberi* (Nonius Marcellus, éd. Quicherat, p. 53)

(٢) الأناشيد الهوميرية ٢٩ ، الأناشيد الأورفية ٨٤ . ديوان هسيودوس ٦٧٩ ايسخيلوس : أغاممنون ١٠٥٦ . أوريبيديس : هرا كليس الهائج ٥٠٣ ، ٥٩٩ . ثوقيديديس ١ : ١٣٦ . ارسطوفانيس : بلوتوس ٧٩٥ . كاتون : الفلاحة ١٤٣ . سيسرون : *pro domo,* 40 . تيبولوس ١ : ١ ، ٤ . هوراسيوس *Epod.*, II, 43 أوفيديوس : فن الغرام .A.A ١ : ٦٣٧ . فرجيليوس : الإنييد ٢ : ٥١٢ .

وتلك التى كان استعمالها يعد رجساً (١) . وتقول الديانة كذلك إنه لا بد أن تبقى هذه النار طاهرة على الدوام (٢) . والمقصود بذلك طبقاً للمعنى الحرفى أنه يجب ألا يلقى فى النار بأى شىء قذر ، وطبقاً للمعنى المجازى أنه يجب ألا يرتكب أى إثم فى حضرتها . وكان فى السنة يوم ، هو عند الرومان أول مارس ، يجب فيه على كل أسرة أن تطفىء نارها المقدسة وأن توقد أخرى فوراً (٣) . لكن للحصول على النار الجديدة كانت هناك شعائر لا بد من مراعاتها بتحرج . فيجب على الأخص الاحتراز من استعمال حصاة وقدحها بالحديد . وكانت الوسائل الوحيدة المسموح بها هى تركيز حرارة أشعة الشمس على نقطة ما أوحك قطعتين من الخشب من نوع معين حكاً سريعاً لتخرج منهما الشرارة (٤) . وتدل هذه القواعد المختلفة دلالة كافية على أنه فى رأى الأقدمين لم يكن الأمر متعلقاً بإحداث عنصر نافع ومقبول أو المحافظة عليه فحسب بل إن هؤلاء القوم كانوا يرون شيئاً آخر فى النار التى كانت تشتعل فوق مذابحهم .

لقد كانت هذه النار شيئاً إلهياً ، فكانوا يعبدونها ويؤدون لها شعائر حقة وكانوا يتقربون إليها بكل ما كانوا يعتقدون أنه يمكن أن يكون مقبولا عند إله من الآلهة : زهور وفواكه وبخور وخمر (٥) . وكانوا يلتمسون حمايتها ، ويعتقدون أنها قوية ، ويوجهون لها أدعية حماسية لكى يحصلوا منها على تلك الأغراض الأبدية للرغبات البشرية : الصحة ، الثروة ، السعادة . وإحدى هذه

---

(١) فرجيليوس ٧ : ٧١ *Castis taedis* . فستوس : تحت لفظ *Felicis* ؛ الموتارخوس : نوما ٩ .

(٢) أوريبيدس : هراكليس الهائج ٧١٥ . كاتون : الفلاحة ١٤٣ . أوفيديوس *Faste.*, III, 698

(٣) Marcobe, *Saturn.*, I, 12

(٤) بلوتارخوس : نوما ٩ ؛ فستوس طبعة ميلر ص ١٠٦ .

(٥) Ovide, *A.A.*, I, 637: *Dentur in antiquos thura merumque focos.*

بلاوتوس : الأسرى ٢ : ٣٩ - ٤٠ ؛ مركاتور ٥ : ١ ، ٥ . تيبولوس ١ : ٣ ، ٣٤ هوراسيوس *Odes* ٢ : ٢٣ ، ١ — ٤ . كاتون: الفلاحة ١٤٣ . بلاوتوس *Aululaire* المدخل .

الدعوات التى احتفظت لنا بها مجموعة الأناشيد الأورفيه تجرى على هذا النحو «اجعلنا دائماً فى حالة يسر ، دائماً سعداء ، أيها الموقد ، أنت يا من هو خالد وجميل وفتى على الدوام ؛ أنت الذى تغذى ؛ أنت الغنى ، تقبل بقلب راض قرابيننا وهب لنا بدلا منها السعادة والصحة التى ما أحلاها» ، (١) وهكذا كانوا يرون فى الموقد إلها خيراً يقوم على حياة الإنسان ، إلها ثرياً يغذيه بهباته ، إلها قوياً يحمى المنزل والأسرة . وعند ما يواجههم خطر كانوا يبحثون عن ملاذ بالقرب منه . ولما اقتحم العدو قصر برياموس جذبت هيكابه الملك الشيخ إلى جوار الموقد وقالت له : « إن أسلحتك لن تستطيع عنك دفاعاً ؛ ولكن هذا الموقد يحمينا جميعاً .» (٢) .

أنظر إلى الكستيس وهى توشك أن تموت مضحية بحياتها لتنقذ زوجها . إنها تقترب من الموقد وتدعوه بهذه العبارات : « أيتها المعبودة ، ربة هذا البيت هذه آخر مرة أنحنى فيها أمامك وأوجه لك دعواتى إذ أننى سأهبط إلى حيث يوجد الموتى . اسهرى على أطفالى الذين لن تكون لهم أم ، وامنحى ابنى زوجة رقيقة وابنتى زوجاً نبيلا واجعليهما لا يموتان مثلى قبل الأوان بل يقضيان حياة طويلة بين أحضان السعادة .» (٣) إن الموقد هو الذى يمد الأسرة بالثراء ويمثله بلاوتوس فى إحدى ملاهيه وهو يمنح هباته بقدر العبادة التى تودى له (٤) . يسميه الإغريق إله الثراء κτήσιος (٥) . فكان الوالد يدعوه لأولاده ويطلب

---

(١) الأناشيد الأورفية ٨٤ .

(٢) فرجيليوس : الإنييد ٢ : ٥٢٣ . هوراسيوس : الرسائل ١ : ٥ . أوفيديوس : الحزينات ٤ : ٨ ، ٢٢ .

(٣) أوريبيدس : الكستيس ١٦٢ - ١٦٨ .

(٤) بلاوتوس *Aululaire* المدخل .

(٥) Eustathe, *in Odyss.*, p. 175 & 1814 *Θεός κτήσιος* . والإله *Ζεύς κτήσιος* الذى كثيراً ما يذكر هو إله منزلى : إنه الموقد

منه أن «يهبهم الصحة والوفرة فى الثراء»(١) وإذا نزل بالمرء مكروه لام موقده ووجه له العتاب وإذا أصابه خير قدم له الحمد والثناء . فالجندى الذى عاد من الحرب يشكره لأنه أنقذه من المهالك. يمثل لنا أيسخيلوس أغاممنون عائداً من طروادة سعيداً مجللا بالمجد لكنه لا يقدم الشكر لجوپيتر ولا يظهر اغتباطه واعترافه بالجميل فى معبد بل يقدم أضحية الشكر للموقد الذى فى منزله (٢). ولا يخرج المرء من منزله قط دون أن يصلى لموقده ، وعند عودته ، قبل أن يرى زوجته ويقبل أولاده ، لا بد من أن ينحنى أمام الموقد ويدعوه (٣) .

فنار الموقد إذن هى العناية الإلهية للأسرة . وكانت عبادتها جد بسيطة . فالقاعدة الأولى هى أن تكون على المذبح كمية من الفحم المتوهج على الدوام فإذا خمدت النار فمعناه أن إلهًا لم يعد له وجود . وفى بعض ساعات من النهار كانوا يضعون على الموقد أعشاباً جافة وخشباً ؛ وعندئذ يتجلى الإله فى شكل لهيب وهاج (٤) ، وكانوا يقدمون لها الأضاحى ؛ وجوهر كل تضحية هو الإبقاء على هذه النار المقدسة وإحياؤها ، أى تغذية جسد الإله وتنميته . ولهذا السبب كانوا يعطونها الخشب قبل كل شىء . ولهذا أيضاً كانوا بعد ذلك يسكبون على المذبح خمر بلاد الإغريق الحارق والزيت والبخور ودهن الضحايا . وكان الإله يتلقى هذه الأشياء ويلتهمها ويقوم على المذبح

---

(١) Isée, *De Cironis hered.*, 16: *Ηὔχετο ἡμῖν ὑγίειαν διδόναι καὶ κτῆσιν ἀγαθήν.*

(٢) ايسخيلوس : اغاممنون ٨٥١ - ٨٥٣ .

(٣) كاتون : الفلاحة ٢ . أوريبيديس : هراكليس الهائج ٥٢٣ .

(٤) Virgile, *En.*, I, 704: *flammis adolere Penates.*

Virgile, *Georg.*, IV, 383-385:

راضياً متهللا ويلقى ضوء أشعته على عابده (١). تلك كانت اللحظة التى يدعى فيها فيخرج نشيد الدعاء من قلب الإنسان .

كان الغذاء هو العمل الدينى الذى يفوق ما عداه . وكان يرأسه الإله فهو الذى أنضج الخبز وأعـد الأغذية (٢) . لذا كان عليهم أن يصلوا له فى بدء الأكلة وفى نهايتها ، وقبل الأكل كانوا يضعون على المذبح باكورة الغذاء وقبل الشرب كانوا يريقون الخمر . ذلك هو نصيب الإله . مامن أحد يشك فى أنه حاضر وأنه يأكل ويشرب ؛ وفى الواقع ، ألم يكونوا يرون اللهيب يكبر كما لو كان يتغذى من الأطعمة المقدمة ؟ وبذلك كان الغذاء قسمة بين الإنسان والإله : كان احتفالا مقدساً بواسطته يتصل كل منهما بالآخر (٣) . عقائد عتيقة اختفت من الأذهان مع طول الزمن لكنها خلفت عادات وشعائر وصيغا لغوية عاشت زمناً طويلا ولم يستطع حتى غير المؤمنين بها أن يتخلصوا منها

---

(١) Ter liquido ardentem perfudit nectare vestam
Ter flamma ad summum tecti subjecta reluxit.

وهكذا يفسر سرفيوس هذين البيتين .

Id est, in ignem vinum purissimum fudit, post quod quia magis flamma convaluit bonum omen ostendit.

(٢) Ovide, *Fast.*, VI, 315.

(٣) Plutarque, *Quest, rom.*, 64: *Ἱερὸν τι ἡ τράπεζα.* Id. *Symposiaca,* VII, 4,7: *Τράπεζα ὑπ' ἐνίων ἑστία καλεῖται.* Id., *ibid.*, VII, 4,4: *Ἀπαρχὰς τῷ πύρι ἀποδίδοντας.* — Ovide, *Fastes*, VI, 300: *Et mensae credere adesse deos*, VI, 630. *In ornatum fundere / vina focum;* II, 634: *Nutriat incinctos mixta patella Lares.*

أنظر بلاوتوس : *(Aulularia)* : ٢ : ٧ ، ١٦ ؛ هوراسيوس *Odes* ٣ : ٢٣ ؛
ساتورناليا ٢ : ٣ ؛ ١٦٦ ؛ جوفينال ١٢ : ٨٧-٩٠ ؛ بلوتارخوس *De Fort. Rom.*, 10
قارن النشيد الهوميرى ٢٩ : ٦ ؛ بلوتارخوس : قطع : التعليق على هسيودوس ٤٤ .

Servius, *in Aeneida*, I, 730: *Apud Romanos, cena edita, silentium fieri solebat quoad ea quae de cena libata fuerant ad focum ferrentur et igni darentur ac puer deos propitios nuntiasset.*

فما زال هوراسيوس وأوڤيديوس وجوڤينال يتعشون أمام مواقدهم ويريقون السوائل ويصلون (١) .

لم تكن عبادة النار المقدسة هذه مقصورة على أهالى بلاد الإغريق وإيطاليا فإنا نعثر عليها فى الشرق إذ ترينا قوانين مانو ، فى الصورة التى وصلت إلينا منها ، ديانة براهما مستقرة تمام الاستقرار بل وتميل إلى الهبوط . لكن هذه القوانين احتفظت بآثار وبقايا من ديانة أقدم منها هى ديانة الموقد التى أخرتها عبادة براهما إلى المرتبة الثانية لكنها لم تستطع أن تقضى عليها . وعند البرهمانى موقده الذى تجب عليه رعايته ليلا ونهارا ؛ ففى كل صباح وكل مساء يعطيه غذاءه من الخشب ، ولكن ، كما هو الأمر عند الإغريق ، لا يمكن أن يكون الخشب إلا من أنواع من الأشجار يعينها الدين . وكما أن الإغريق والإيطاليين يقدمون له الخمر فإن الهندى يسكب له الشراب المخمر الذى يقال له سوما soma . والأكل أيضاً عمل دينى وشعائره موصوفة بدقة وتحرج فى قوانين مانو . فيوجهون للموقد أدعية كما كانوا يفعلون فى بلاد الإغريق ويقدمون له بواكير الأكلة : الأرز والزبد والعسل . وفيها «أنه يجب على البرهمانى ألا يأكل أرزاً من المحصول الجديد قبل تقديم البواكير للموقد إذ أن النار المقدسة بها نهم للحبوب وإذا لم تكرَّم فإنها تأتى على وجود البرهمانى المهمل» . وكان الهنود كالإغريق والرومان يتوهمون الآلهة نهمة لا للتبجيل والاحترام فحسب بل للشراب والغذاء كذلك . فكان يعتقد الإنسان أنه ملزم بإشباع جوعهم وعطشهم إذا ما أراد أن يتجنب غضبهم .

ومعبود النار هذا كثيراً ما كان يسمى عند الهنود *Agni* أغنى . وتحوى الريغ ڤيدا (Rig-Véda) عدداً كبيراً من الأناشيد الموجهة إليه . يقولون فى إحداها «يا أغنى ! أنت الحياة . أنت حامى الإنسان . . . هب رب الأسرة الذى يدعوك المجد والثراء ثمنا لمدائحنا ..... أغنى ، أنت

---

(١) *Ante larem proprium vescor vernasque procaces Pasco libatis dapibus* (Horace, *Sat.*, II, 6,66). — Ovide, *Fastes*, II, 631-633.—Juvénal, XII, 83-90.—Pétrone, *Satir.*, c. 60.

مدافع كيس وأب ؛ لك ندين بالحياة . نحن أسرتك » . وبذلك تكون نار الموقد كما فى بلاد الإغريق قوة حامية يطلب إليها الإنسان السعة : « اجعل الأرض كريمة دائماً نحونا . » ويطلب منها الصحة : « واجعلنى أتمتع بالضوء زمناً طويلا وأصل إلى الشيخوخة كما تصل الشمس إلى مغربها . » بل يلتمس منها الحكمة « أى أغنى ؛ إنك تهدى إلى الصراط السوى من كان فى طريق الضلال ... اغفر لنا إن أخطأنا أو كنا قد سرنا بعيداً عنك » . كانت نار الموقد هذه كما كانت فى بلاد الإغريق طاهرة طهارة جوهرية فكان من المحرم بتاتاً على البرهمانى أن يلقى فيها بأى شىء قذر بل أن يدفىء فيها قدميه (١) . وكما كان يحدث فى بلاد الإغريق لم يكن يستطيع الرجل المذنب أن يقترب من موقده قبل أن يتطهر من دنسه .

وإنه لدليل كبير على قدم هذه العقائد وهذه الشعائر أن نجدها فى آن واحد لدى أهل شواطىء البحر المتوسط وأهل شبه الجزيرة الهندية على السواء . من المؤكد أن الإغريق لم يستعيروا هذه الديانة من الهنود ولا الهنود من الإغريق بل إن الإغريق والإيطاليين والهنود ينتمون إلى نفس الجنس وقد عاش أسلافهم معاً فى آسيا الوسطى فى فترة سحيقة جداً ؛ وهناك أولا أوجدوا هذه العقائد وأقاموا هذه الشعائر . فيجب إذن أن نرجع ديانة النار المقدسة إلى تلك الحقبة البعيدة الغامضة التى لم يكن فيها إغريق ولا إيطاليون ولا هنود والتى لم يكن فيها إلا الأريا . وعند ما انفصلت القبائل بعضها عن بعض استصحب بعض منها هذه العبادة إلى ضفاف نهر الغانج والبعض الآخر إلى شواطىء البحر المتوسط ؛ ثم إن بعض هذه القبائل المنفصلة ، والتى لم تعد بينها أية صلة ، عبد براهما وبعضها عبد زوس والبعض الآخر چانوس ، اتخذت كل جماعة آلهتها لكنها احتفظت جميعاً ، كتراث قديم ، بالديانة الأولى التى تصورتها ومارستها فى المهد المشترك بين جنسها .

---

(١) نفس الفرائض فى الديانة الرومانية :

Pedem in focum non imponere, Varron dans Nonius, p. 479, éd. Quicherat, p. 557.

إذا لم يكن وجود هذه العبادة لدى جميع الشعوب الهندوأوربية دليلا كافيا على توغلها فى القدم فإنا نجد أدلة أخرى فى شعائر الإغريق والرومان الدينية؛ ففى جميع الأضاحى، حتى ما كان يقدم منها تمجيداً لزوس وأثينايا، كان يوجه الدعاء الأول للموقد دائماً (١)، فكل صلاة لإله أيا كان يجب أن تبدأ وأن تنتهى بصلاة للموقد (٢). وفى أولمپيا كانت أول تضحية يقدمها الإغريق مجتمعين للموقد، والثانية لزوس (٣). كذلك فى روما كانت أول عبادة دائماً لڤستا التى لم تكن سوى الموقد (٤). ويقول أوڤيديوس عن هذه المعبودة إنها تحتل المكان الأول فى شعائر الإنسان الدينية. لذلك نقرأ فى أناشيد الريغ ڤيدا «قبل جميع الآلهة الآخرين تجب دعوة أغنى؛ سنتلفظ باسمه المبجل قبل أسماء جميع الخالدين الآخرين. أى أغنى! مهما يكن الإله الذى نكرمه بضحيتنا، إليك دائماً تتجه الضحية المحرقة». من المؤكد إذن أنه فى روما فى زمن أوڤيديوس وفى الهند فى زمن البرهمانيين كانت نار الموقد تتقدم على كل الآلهة الآخرين. وليس ذلك لأن چوپيتر وبراهما لم ينالا فى ديانة الناس أهمية أكبر من تلك بكثير بل لأنهم كانوا يتذكرون أن نار الموقد أقدم بكثير من هؤلاء الآلهة، وكانت قد اتخذت المكان الأول فى العبادة منذ عدد من القرون وعجزت الآلهة الأحدث والأكبر منها عن انتزاعه من يدها.

وقد تغيرت رموز هذه الديانة حسب العصور. فعندما تعودت شعوب بلاد الإغريق وإيطاليا أن تتصور آلهتها كأشخاص، وأعطت لكل واحد منهم اسما علماً وشكلا آدمياً، خضعت عبادة الموقد القديم للقانون المشترك الذى فرضه الإدراك الإنسانى فى تلك الحقبة على كل ديانة. فاعتبروا مذبح

---

(١) Porphyre, *De abstin.*, II, p. 106; Plutarque, *De frigido*, 8

(٢) الأناشيد الهوميرية ٢٩؛ وكذلك ٣ البيت ٣٣. أفلاطون: قراتيل (Cratyle) ١٨؛ Hésychius, *ἀφ᾽ ἑστίας*. ديودوروس ٦: ٢؛ ارسطوفانيس: الطيور ٨٦٥

(٣) بوسانياس ٥: ١٤.

(٤) سيسرون: طبيعة الآلهة ٢: ٢٧. أوفيديوس *Fast.* ٦: ٣٠٤

النار المقدسة شخصاً وسموه «إستيا» *ἑστία* «ڤستا» Vesta . وكان الاسم هو بذاته فى اللاتينية والإغريقية فضلا عن أنه لم يكن شيئاً آخر غير الكلمة التى كانت تدل على المذبح فى اللغة المشتركة الأولى . وبطريقة مألوفة جعلوا من اسم الذات علماً وتكونت أسطورة رويداً رويداً . فتصوروا هذا المعبود فى شكل امرأة لأن الكلمة التى كانت تدل على المذبح كانت مؤنثة . بل إنهم ذهبوا إلى حد تمثيل هذه الإلهة بتماثيل لكنهم لم يستطيعوا قط أن يمحوا أثر العقيدة البدائية التى بمقتضاها كانت هذه المعبودة نار المذبح فقط . وحتى أوڤيديوس ذاته كان مضطراً إلى الموافقـــة على أن ڤستا لم تكن شيئاً غير «لهب متأجج» (١) .

فإذا قربنا عبادة النار المقدسة هذه من عبادة الموتى التى تكلمنا عنها منذ قليل تبدت لنا بينهما صلة وثيقة .

فلنلاحظ أولا أن هذه النار التى كانت تؤجج على الموقد لم تكن فى ذهن الناس نار الطبيعة المادية ، وما يرونه فيها لم يكن العنصر الطبيعى المحض الذى يدفىء أو يحرق والذى يحول الأجسام ويصهر المعـــادن ويجعل من نفسه الأداة القوية للصناعة البشرية . فإن نار المذبح من طبيعة مغايرة تماماً . إنها لنار طاهرة لا يمكن إحداثها إلا بمعونة شعائر معينة ولا يمكن تغذيتها إلا بأنواع معينة من الخشب . إنها لنار عفة يجب أن يقصى الاتصال الجنسى بعيداً عن حضرتها (٢) . لم يكونوا يطلبون منها الثراء والصحة فحسب بل يدعونها أيضاً لينالوا منها طهارة القلب والاعتدال فى الشهوات والحكمة إذ تقول أنشودة أورفية : « اجعلينا أثرياء وذوى ميسرة ، واجعلينا أيضاً حكماء أعفاء . » فنار الموقد إذن تشبه كائناً معنوياً . حقاً إنها لتتوهج وتدفىء وإنها لتنضج الغذاء المقدس لكنها فى نفس الوقت لها فكر ، لها وعى ، إنها لتدرك الواجبات وتحرص على أن تؤدى ، حتى لنكاد نقول إنها إنسان ، فلها من الإنسان طبيعته المزدوجة : جسمانيا ، تلمع وتتحرك

---

(١) أوفيديوس : الأعياد .Fast ٦ : ٢٩١ .

(٢) هسيودوس : ديوان ٦٧٨ — ٦٨٠ ؛ بلوتارخوس : تعليقات على هسيودوس ، القطعة ٤٨ .

وتعيش وتجلب السعة وتحضر الغذاء وتغذى الجسم ، ومعنوياً ، لها عواطف وإحساسات فتمنح الإنسان الطهارة وتأمر بالشىء الجميل والحسن وتغذى الروح . ويمكن القول بأنها تقوم على الحياة البشرية فى سلسلة مظاهرها المزدوجة فهى منبع الثراء والصحة والفضيلة فى آن واحد . إنها حقاً إله الطبيعة البشرية . وفيما بعد، عندما دفع برهما وزوس هذه العبادة إلى الصف الثانى ، بقيت نار الموقد أقرب شىء للإنسان فى النطاق الإلهى ؛ فكانت وسيطته لدى آلهة الطبيعة المادية، وهى التى تكفلت بحمل صلاة الإنسان وقربانه إلى السماء وبجلب التعطفات الإلهية للإنسان . ثم بعد ذلك عندما خلقوا من أسطورة النار المقدسة فستا العظيمة أصبحت فستا الإلهة العذراء ؛ إنها لم تكن تمثل فى العالم الخصوبة ولا القوة بل كانت هى النظام ؛ لم تكن النظام الدقيق، المعنوى ، الحسابى ، القانون اللازب الذى لا مفر منه *ἀνάγκη* والذى لوحظ فى وقت مبكر بين ظواهر الطبيعة المادية ، بل كانت النظام الخلقى ، فقد تصوروها على شكل روح عامة تنظم حركات العوالم المختلفة ، كما تضع الروح البشرية النظام بين أعضائنا .

وهكذا تتراءى لنا فكرة الأجيال البدائية : إن جوهر هذه العبادة خارج عن الطبيعة المادية ومستقر فى العالم الصغير الخفى ألا وهو الإنسان .

يعيدنا ذلك إلى عبادة الوثن . فهما متساويتان فى القدم وكانتا مرتبطتين برباط وثيق بحيث أن عقيدة الأولين لم تجعل منهما سوى ديانة واحدة . فالموقد والجن (الدايمون) والبطل (الهيرو) والآلهة اللاريس كل ذلك كان مختلطاً بعضه ببعض . نرى من فقرتين من پلاوتوس وكولوملا (Columelle) أنهم كانوا يستعملون فى اللغة العادية كلمتى موقد أو لار منزلى بلا فارق بينهما ، كما نرى من سيسرون أنهم لم يكونوا يميزون الموقد من الپناتس (Pénates) ولا الپناتس من الآلهة لاريس (٢) فنقرأ فى سرفيوس *Servius* : « يقصد الأقدمون بالمواقد الآلهة

---

(١) تيبولوس ٢ : ٢ . هوراسيوس *Odes* ٤ : ١١ : ٦ . أوفيديوس : الحزينات ٣ : ١٣ ؛ ٥ : ٥ . كان الإغريق ينعتون آلهتهم المنزلية أو الهيروى بكلمة *ἐφέστιοι* أو *ἑστιοῦχοι*

(٢) Plaute, *Aulul.*, II, 7,16: *In foco nostro Lari.* Columelle, XI, 1,9: *Larem focumque familiarum*, Ciceron, *Pro domo*, 41; *Pro Quintio*, 27, 28.

لاريس لذلك استطاع ڤرجيليوس أن يضع أحيانا لفظ موقد بدلا من پناتس وأحياناً پناتس بدلا من موقد بلا فارق بينهما » (١) . وفى فقرة أخرى يدعو إينياس نفس هؤلاء الآلهة ويسميهم پناتس، لاريس، ڤستا فى آن واحد(٢)

هذا وقد رأينا أن أولئك الذين يسميهم القدماء لاريس أو هيروى لم يكونوا سوى أرواح الموتى الذين كان ينسب إليهم الإنسان سلطة إلهية فوق سلطة البشر. وكانت ذكرى كل من هؤلاء الموتى المقدسين مرتبطة دائماً بالموقد فلم يكن من المستطاع عند عبادة أحدهما أن ينسى الآخر بل كان يجمع بينهما فى احترام الناس وفى صلواتهم ؛ فعندما تتكلم الذرية عن الموقد كانت تتذكر طواعية اسم السلف ؛ يقول أورستيس لهلينا : «غادرى هذا المكان وتقدمى نحو موقد پيلوپس العتيق لكى تسمعى كلماتى»(٣) . وكذلك إينياس عند ما كان يتكلم عن الموقد الذى كان ينقله عبر البحار كان يطلق عليه اسم لار اساراكوس (Lare d'Assarcus) كما لو كان يرى فى هذا الموقد روح سلفه .

يقول النحوى سرڤيوس الذى كان على علم كبير بالتاريخ القديم للإغريق والرومان (وقد كانوا يدرسونه فى أيامه أكثر مما كانوا يفعلون فى زمن سيسرون) إنها لعادة قديمة جداً أن يدفن الموتى فى المنازل ويضيف : «وفى المنازل أيضاً كانوا يمجدون اللاريس والپناتس تبعاً لهذه العادة» (٤) . تقرر هذه الجملة بوضوح صلة عتيقة بين عبادة الموتى وبين الموقد . وبناء عليه نستطيع أن نظن أن الموقد المنزلى لم يكن فى الأصل إلا رمزاً لعبادة الموتى وأنه تحت حجر الموقد هذا كان يرقد أحد الأسلاف وأن النار إنما كانت توقد فيه لتمجيده وأنه كان يلوح أن هذه النار كانت تعمل على بقاء الحياة فيه أو أنها تمثل روحه الساهرة دائماً.

وما ذلك إلا فرض من الفروض تنقصنا الأدلة عليه . لكن المؤكد أن عبادة الموتى والموقد كانت موجودة لدى أقدم الأجيال من الجنس الذى خرج منه

---

(١) Servius, *in Aen.*, III, 134.

(٢) فرجيليوس : الإنييد ٢ : ٢٩٧ ؛ ٩ : ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ ٥ : ٧٤٤ .

(٣) أوربيدس : أورستيس ١٤٢٠ - ١٤٢٢ .

(٤) Servius, *in Aen.*, V, 64; VI, 152.

أنظر أفلاطون : مينوس ص ٣١٥ Ἔθαπτον ἐν τῇ οἰκίᾳ τοὺς ἀποθανόντας

الإغريق والرومان ، وهى ديانة لا تتخذ آلهتها من الطبيعة المادية ولـكن من الإنسان ذاته ، وكان موضع عبادتها هو الـكائن الخفى الذى فينا أى القوة المعنوية والمفكرة التى تحرك جسمنا وتحكمه .

لم يكن سلطان هذه الديانة على الروح متساوياً على الدوام فقد تضاءل رويداً لـكنه لم يختف تماماً . وحيث أنها كانت معاصرة للعصور الأولى للجنس الآرى فقد تغلغلت إلى عمق بالغ فى آحشاء هذا الجنس بحيث أن ديانة الأولمپ المتألقة لم تكن كافية لاستئصال شأفتها وكان لا بد من المسيحية .

وسنرى قريباً أى أثر قوى كان لهذه الديانة على أنظمة القدماء المنزلية والاجتماعية فقد تصوروها وأقاموها فى تلك الحقبة السحيقة التى كان هذا العنصر يبحث فيها عن أنظمته وقد حددت الطريق الذى سارت فيه الشعوب منذ ذاك الوقت .

الفصل الرابع

الديانة المنزلية

يجب ألا نتصور هذه الديانة العتيقة على نمط تلك التى نشأت فيما بعد فى الجماعات الأكثر منها تقدماً . فمنذ عدد من القرون لم يعد الجنس البشرى يتقبل مذهباً دينياً إلا بشرطين : أحدهما أن ينادى المذهب بإله واحد ؛ والآخر أن يتجه المذهب لجميع الناس وأن يكون فى متناول الجميع دون أن يقصى أية طبقة أو أى جنس إقصاء منظما . لكن ديانة الأزمنة الأولى لم تكن تحقق أى شرط من هذين الشرطين . فإنها لم تكن تقدم لعبادة البشر إلهاً واحداً ، وفوق هذا لم تكن آلهتها تقبل العبادة من جميع الناس. لم يتقدموا كآلهة للجنس البشرى بل لم يكونوا يشبهون براهما الذى كان على الأقل إلهاً لطبقة كبيرة بأسرها ، ولازوس بانهلينيوس **Zeus Panhellénien** الذى كان إله أمة بأكملها . ففى هذه الديانة البدائية لم يكن فى استطاعة أى إله أن يكون معبوداً لغير أسرة واحدة . فكانت الديانة منزلية محضة .

لا بد من إيضاح هذه النقطة الهامة ، إذ لا يمكن بدون ذلك أن نفهم الصلة الوثيقة جداً التى قامت بين هذه العقائد وبين تكوين الأسرة الإغريقية والرومانية.

لم تكن عبادة الموتى تشبه بأى وجه كان عبادة المسيحيين للقديسيين . فإن إحدى قواعدها الأولى كانت تقضى بأنه لايمكن لأية أسرة أن تؤديها إلا للموتى الذين ينتسبون إليها عن طريق الدم . ولا يمكن طبقاً لهذه الديانة أن يقوم بالجنازة إلا أقرب الأقربين للمتوفى . أما عن الأكلة الجنازية التى كانت تتجدد فيما بعد فى فترات معينة فإن الأسرة وحدها هى التى كان لها حق الاشتراك فيها ، وكل غريب كان يقصى عنها بعنف (١) فكانوا يعتقدون أن الميت لا يقبل

---

(١) يحرم قانون صولون السير باكيا وراء نعش شخص من غير الأقرباء (بلوتارخوس ، صولون ٢١) . ولم يكن يسمح للنساء بمصاحبة الميت إلا لدرجة بنات العم *ἐντὸς ἀνεψιαδῶν* (Demosthène, *In Macartatum*, 61-63). Cf. Ciceron, *De legibus*, II, 26. Varron, *L.L.*, VI, 13: *ferunt epulas ad sepulcrum quibus jus ibi parentare*. Gaius, II, 5,6: *Si modo mortui funus ad nos pertineat.*

القربان إلا من أيدى أهله ولا يقبل عبادة إلا من ذريته . وحضور رجل من غير الأسرة كان يقلق راحة الأرواح لذلك كان يحرم القانون على الغريب أن يقترب من أحد القبور(١)؛وكان لمسه مدفناً بالقدم ، ولو سهواً، عملا غير صالح يتحتم على الغريب أن يسترضى الميت من أجله وأن يتطهر هو ذاته . والكلمة التى كان يطلقها الأقدمون على عبادة الموتى تعد معبرة فى حد ذاتها ، فكان الإغريق يقولون *Πατριάζειν* (٢) واللاتينيون يقولون *parentare* إذ لم يكن أحد يوجه الصلاة والقربان إلا إلى آبائه (٣) . فعبادة الموتى كانت فى الحقيقة عبادة الأسلاف (٤).وبالرغم من استهزاء لوقيانوس بآراء العامة فإنه يفسرها لنا بوضوح عندما يقول : « إن الميت الذى لم يترك ولداً لا يتلقى قرباناً وهو معرض لجوع أبدى .» (٥) .

وفى الهند كما فى بلاد الإغريق لا يمكن أن يقدم قربان لميت إلا من هؤلاء الذين تحدروا منه فكان قانون الهنود كالقانون الأثينى يحرم أن يقبل أجنبى فى فى الأكلة الجنازية حتى ولو كان صديقاً . كان من المحتم أن تقدم هذه الوجبات من لدن ذرية الميت لا من آخرين.وكان يظن أن الأرواح فى مقرها كانت تتفوه

---

(١) قانون صولون فى بلوتارخوس : صولون ٢١ : *Οὐκ ἔξεστιν ἐπ' ἀλλότρια μνήματα βαδίζειν*

Cicéron, *De legibus*, II, 26: *Pittacus omnino accedere quemquam vetat in funus aliorum.*

(٢) بوليدوكيس (بو لليكس) ٣ : ١٠

(٣) ولذا نقرأ فى إيسايوس (Isée) : سيراث منيكليس ٤٦ « إذا لم يكن لمنكليس أطفال فان القرابين المنزلية لن تقدم له وما من أحد يحمل القربان السنوى إلى قبره » . وترى فقرات أخرى من نفس الخطيب أن الابن هو الذى يجب أن يحمل المشروبات إلى القبر دائماً (ميراث فيلكتيمون ٥١ و ٦٥ ؛ وميراث أبولودوروس ٣٠) .

(٤) فى الأصل على الأقل إذ أنه فيما بعد أصبح للمدن أبطالها (هيروى) المحليون والقوميون كما سنرى فيما بعد . وسنرى أيضاً أن التبنى كان يخلق قرابة مفتعلة ويعطى الحق فى تكريم سلسلة من الأسلاف .

(٥) لوقيانوس : الحداد *(De Luctu)*

بهذه الأمنية : « ألا ليته يولد من سلالتنا أبناء على التوالى يقدمون لنا على مر الزمان الأرز المسلوق فى اللبن والعسل والزبد المصفى (١) . » .

وينتج من هذا أنه كان واجباً على الابن فى بلاد الإغريق وفى روما كما فى الهند أن يريق السوائل وأن يقدم القرابين لروح والده وأرواح جميع أجداده(٢). والتقصير فى هذا الواجب هو أخطر وزر يمكن ارتكابه ما دام قطع العبادة من شأنه أن يسقط سلسلة من الموتى ويقضى على سعادتهم . مثل هذا الإهمال لم يكن سوى قتل حقيقى للأب يتكرر عدداً من المرات بقدر ما للأسرة من من أسلاف .

أما إذا كانت الأضاحى تقدم دائماً طبقاً للشعائر ، والأطعمة تحمل إلى القبر فى الأيام المحددة فإن السلف يصبح إلها حاميا ؛ إنه عدو لكل من لم يتحدر من صلبه ، يصدهم بعيداً عن قبره ويصيبهم بالأمراض إذا مااقتربوا منه ، إلا أنه رفيق بذويه مغيث لهم .

فكان هناك تبادل خدمات دائم بين الأحياء والموتى من كل أسرة. كان السلف يتلقى من ذريته سلسلة من الوجبات الجنازية وهى المتع الوحيدة التى كان يستطيع الحصول عليها فى حياته الثانية ؛ ويتلقى الخلف من السلف العون والقوة اللتين كان يحتاج إليهما فى هذه الحياة . فلم يكن فى استطاعة الحى أن يستغنى عن الميت ولا الميت عن الحى . ومن هنا قام رباط وثيق بين جميع الأجيال من أبناء الأسرة الواحدة وجعل منها هيئة متماسكة إلى الأبد .

وكان لكل أسرة قبرها الذى يجىء أمواتها ليرقدوا فيه الواحد بعد الآخر دائماً معاً ، فإن جميع الذين تربطهم سوياً رابطة الدم يجب أن يدفنوا فيه ، ولا

---

(١) قوانين مانو ٣ : ١٣٨ ؛ ٣ : ٢٧٤ .

(٢) وما تسميه اللغة الإغريقية *Ποιεῖν τὰ νομιζόμενα* ايسخينيس (إشين) ضد تيمارخوس . ٤ ؛ دينارخوس : ضد أرسطوغيتون ١٨ . أنظر (بلوتارخوس : كاتون) *Χρὴ τοῖς γονεῦσιν ἐναγίζειν*
انظر ديناراخوس يتهم أرسطوغيتون بأنه لم يقدم الضحية السنوية لوالده الذى مات فى إرتريا (Erétrie) ديناراخوس : ضد أرسطوغيتون ١٨ .

يمكن أن يقبل فيه أى رجل من أسرة أخرى (١) . وهناك تقام الحفلات وأعياد الذكرى ، وتعتقد كل أسرة أنها ترى هناك أسلافها المقدسين . وفى الزمن المتناهى فى القدم ، كان القبر فى ممتلكات الأسرة ذاتها ، وسط المسكن غير بعيد عن الباب ، وذلك (كما يقول أحد القدماء) كى يقابل الأبناء آباءهم كل مرة

---

(١) العادة القديمة ، عادة قبر الأسرة مشهود بها بأثبت وجه فان الكلمات *Τάφος πατρῷος, μνῆμα πατρῷον, μνῆμα τῶν προγόνων* تتردد بلاانقطاع عند الأغريق كالألفاظ *tumulis patrius, monumentum gentis* عند اللاتينيين Démosthène, *In Eubulidem*, 28: *Τὰ πατρῷα μνήματα ὧν κοινωνοῦσιν ὅσοιπερ εἰσὶ τοῦ γένους* وكان قانون صولون يحرم أن يدفن فى القبر رجل من أسرة أخرى : سيسيرون : القوانين ٢ : ٢٦ *ne alienum inferat* ويصف ديموسثينيس (ضد ماكارتاتوس ٧٩) القبر « الذى يرقد فيه كل أولئك الذين يتحدرون من بوسيلوس Bousélos ؛ يسمونه أثر آل بوسيلوس ، وهو موضع كبير يحيط به حائط طبقاً للعادة القديمة » . وقبر اللاكياديين (Lakiades) (المسمى *Κιμώνια μνήματα*) ذكره ماركيلينوس (Marcellinus) مؤلف ترجمة ثوقيديديس كما ذكره بلوتارخوس : كيمون ٤ . وهناك حكاية قديمة تثبت إلى أى حد كانوا يعتقدون أنه من الضرورى أن يدفن كل بيت فى قبر أسرته . يروى أن اللاقيديمونيين (Lacédémoniens) وهم يوشكون أن يدخلوا المعركة مع السينيين ربط كل واحد منهم على ذراعه الأيمن علامة خاصة تحمل اسمه واسم أبيه لكى يمكن التعرف على جسمه فى حالة الوفاة ونقله إلى قبر آبائه ؛ هذه النبذة من الأخلاق القديمة حفظها لنا جوستينوس ٣ : ٥ . ويلمح ايسخيلوس لنفس العادة عند ما يقول عند الكلام على المحاربين الذين على وشك الهلاك أنهم سينقلون إلى قبور آبائهم *Τάφων πατρῴων λαχαὶ* (السبعة ضد ثيبه ٥ : ٩١٤) - وكانت للرومان أيضاً مقابر عائلية . Cicéron, De offic., I, 17:

Sanguinis conjunctio, eadem habere monumenta majorum, iisdem uti sacris, sepulcra habere communia.

كان من المحرم كما فى بلاد الاغريق أن يدفن فيها رجل من أسرة أخرى
Cicéron, *De legib.*, II, 22: *Mortuum exttra gentem inferri fas negant.*

أنظر أوفيديوس الحزينات ٤ : ٣ : ٤٥ ؛ فيليوس ٢ : ١١٩ ؛ سويتونيوس : نيرون ٥٠ ، طيبريوس ١ . سيسرون : المسائل التوسكلانية ١ : ٧ ؛ الديجست ١١ : ٧ ؛ ٤٧ : ١٢ : ٥

يدخلون فيها المسكن أو يخرجون منه؛ وحتى يوجهوا الدعوات إليهم فى كل مرة (١).

وهكذا يرقد السلف بين ذويه: إنه خفى لكنه حاضر على الدوام، إنه لا يزال عضواً فى الأسرة ورباً لها. وباعتباره خالداً سعيداً ومقدساً، فإنه كان يهتم بكل فانٍ تركه على الأرض؛ يعرف حاجاته ويدعم ضعفه. أما ذلك الذى لا يزال يعيش ولا يزال يعمل، ذلك الذى لم يستوف بعد وجوده كما يقول القدماء، فله بجواره نصحاء وأعوان: ألا وهم آباؤه. فإذا أحاطت به المصاعب لجأ إلى حكمتهم القديمة، واستمد منهم العزاء فى أحزانه، والتمس منهم العون وقت الخطر، وإذا ارتكب وزرا طلب منهم المغفرة.

حقاً إنه ليصعب علينا اليوم كثيراً أن ندرك أن الرجل يستطيع أن يعبد أباه أو سلفه، فإن تأليه إنسان يبدو لنا مناقضاً للدين. إن فهم العقائد القديمة لأولئك الناس يكاد يصعب علينا بقدر ما كان يصعب عليهم تصور عقائدنا. ولكن لنتخيل أنه لم يكن لدى الأقدمين فكرة الخلق فعندئذ يصبح سر التناسل بالنسبة لهم كسر الخلق بالنسبة لنا. كان المنسل يبدو لهم كائنا إلهياً فكانوا يعبدون سلفهم. ولا بد أن هذا الشعور كان طبيعياً جداً وقوياً جداً فإنه يبدو كمبدأ جوهرى لديانة وجدت فى أصل الجماعات البشرية بأسرها تقريبا إذ نجده لدى الصينيين وعند قدماء الغيت (Gètes) والسكيثيين (Scythes) ولدى شعوب أفريقيا كما نجده عند شعوب العالم الجديد. (٢)

كما كان من الصفات الجوهرية للنار المقدسة، التى كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعبادة الموتى، أنها كانت تعد ملكاً خالصاً لكل أسرة. فهى تمثل الأسلاف (٣)

---

(١) أوريبيديس: هيلينا ١١٦٣ - ١١٦٨.

(٢) كان من عادة الأتروسك والرومان أن تحتفظ كل أسرة دينية بصور أسلافها مصفوفة حول ساحة المنزل *atrium* فهل كانت هذه الصور مجرد صور أم أوثان؟

(٣) *Focus patrius* , *Ἑστία πατρῴα* وكذلك فى الفيدا فان المعبود أغنى ما زال يدعى أحياناً كأنه إله منزلى.

وكانت هى العناية الآلهية لأسرة من الأسر وليس هناك شىء مشترك بينها وبين نار الأسرة المجاورة التى كانت تعد بدورها عناية إلهية أخرى. فكل موقد يحمى ذويه.

كل هذه الديانة كانت مكنونة داخل نطاق المنزل، فلم تكن العبادة علنية بل على العكس كانت جميع الاحتفالات تجرى فى وسط الأسرة دون سواها (١) فلم يكن الموقد يوضع فى خارج المنزل إطلاقاً بل ولا على مقربة من الباب الخارجى حيث يستطيع الغريب أن يشاهده تماماً. وكان الإغريق يضعونه دائماً داخل نطاق (٢) يحميه من لمس غير المأذون لهم بل حتى من النظر إليه. وكان الرومان يخفونه وسط منازلهم. كل هذه الآلهة (موقد، لاريس، مانيس) كانوا يسمونها الآلهة المستترة أو الآلهة الداخلية (٣). فقد كانت السرية لازمة لكل شعائر هذه الديانة: *Sacrificia occulta* كما يقول سيسرون (٤). وإذا لمح أجنبى إحدى هذه الحفلات فإنها تضطرب وتتلوث بمجرد هذه النظرة وحدها.

لم تكن لتلك الديانة المنزلية قواعد موحدة ولا شعائر مشتركة فقد كان لكل أسرة استقلالها التام وما كان لأية سلطة خارجة الحق فى تنظيم عبادتها وعقيدتها. لم يكن هناك كاهن غير الأب، وباعتباره كاهناً لم يكن يعترف بأية رئاسة أخرى فوق رئاسته. لقد كان فى استطاعة حبر روما أو أرخون أثينا أن يتأكد من أن رب الأسرة يقوم بكل شعائره الدينية ولكنه لم يكن له الحق فى أن يملى عليه أقل تغيير فيها فإن القاعدة المطلقة هى (٥) *Suo quisque ritu sacrificium faciat*

(١) إيسايوس: ميراث كيرون ١٥ — ١٨

(٢) كان يسمى هذا السور ἕρκος

(٣) *Θεοὶ μύχιοι, dii Penates.* Cicéron, *De nat. Deor.*, II, 27: *Penates, quod penitus insident.* Servius, *in Aen.*, III, 12: *Penates ideo appellantur quod in penetralibus aedium coli solebant.*

(٤) Cicéron, *De Arusp. resp.*, 17.

(٥) فارون: اللسان اللاتينى ٧: ٨٨.

وقد كان لكل أسرة احتفالاتها الخاصة بها وأعيادها الخاصة وصيغ أدعيتها وأناشيدها (١) ؛والوالد، وهو المفسر الأوحد لديانتها، وحبرها الأوحد، كانت له وحده سلطة تعليمها ولم يكن يستطيع تعليمها إلا لابنه . وكانت الشعائر وعبارات الدعاء والأغاني ، التى كانت جزءا جوهرياً من هـذه الديانة المنزلية، ميراثاً وملكاً مقدساً لم تكن الأسرة تشرك أحداً فيه بل لقد كان محرماً عليها الكشف عنه للأجانب .كذلك كان فى الهند إذ يقول البرهمانى : « إنى لقوى على أعدائى بالأغانى التى تلقيتها عن أسرتى والتى نقلها إلى والدى (٢)» .

وهكذا لم تكن الديانة مستقرة فى المعابد بل فى المنزل . فكان لكل واحد آلهته ، ولم يكن كل إله يحمى غير أسرة واحدة. ولم يكن إلها إلا فى منزل واحد. ولا يمكن فى حدود المعقول أن نفترض أن ديانة بهذه الصفة قد أوحى بها للناس خيال قوى لواحد منهم أو علمها لهم طائفة من الكهنة بل إنها ولدت من تلقاء نفسها فى الروح البشرية . فكانت الأسرة مهدها ، وكل أسرة صنعت آلهتها لنفسها .

مثل هذه الديانة لا تستطيع أن تنتشر إلا عن طريق التوالد . فعندما يمنح أب الحياة لابنه يمنحه فى نفس الوقت عقيدته وعبادته والحق فى رعاية الموقد وتقديم الأكلة الجنازية وترتيل صيغ الدعاء . فالتوالد يقيم صلة سرية بين الطفل الذى يولد للحياة وبين جميع آلهة الأسرة . هؤلاء الآلهة هم أسرته ذاتها *Θεοὶ ἐγγενεῖς* وهم دمه *Θεοὶ σύναιμοι*(٣) . وإذن فقد كان الطفل يحمل

---

(١) هسيودوس ديوانه ٧٠١ . ماكروبوس : ساتورناليا ١ : ١٦ . سيسرون : القوانين ٢ : ١١ : *Ritus familiae patrumque servare*

(٢) ريغ فيدا ترجمة لانغلوا Langlois الجزء الأول صفحة ١١٣ . كثيراً ما تذكر قوانين مانو الشعائر الخاصة بكل أسرة ٨ : ٣ ؛ ٩ : ٧ .

(٣) صوفوكليس : انتيغون ١٩٩ ؛ شرحه ٦٥٩ . قارن *Πατρῷοὶ Θεοὶ* فى ارسطوفانيس : الذنابير ٣٨٨ ؛ ايسخيلوس : الفرس ٤٠٤ ؛ صوفوكليس: اليكترا ٤١١ ؛ *Θεοὶ γενέθλιοι* أفلاطون : القوانين ٥ صفحة ٧٢٩ ؛ *Di generis* أوفيديوس : الأعياد ٢ . ٦٣١

معه عند مولده الحق فى عبادتهم وتقديم الأضحية لهم . كما أنه يجب أن يعد بدوره بين آلهة الأسرة هؤلاء عندما يؤلهه الموت هو نفسه فيما بعد .

لكن يجب ملاحظة هذه الخاصية وهى أن الديانة المنزلية لم تكن تنتشر إلا من ذكر إلى ذكر ولا ريب أن العلة فى ذلك هى ما كان يظنه الناس فى التوالد(١) . فقد كانت عقيدة العصور الأولى كما نجدها فى الفيدا أو كما نرى من آثار منها فى جميع الشرع الإغريقى الرومانى هى أن القدرة على الإنتاج كانت مستقرة فى الوالد دون سواه . فالوالد دون سواه هو الذى يحوز الجوهر الخفى للكائن وينقل قبس الحياة . وقد نتج عن هذه الفكرة القديمة أن القاعدة هى أن العبادة المنزلية كانت تنتقل دائماً من ذكر إلى ذكر وأن المرأة لم تكن تساهم فيها إلا عن طريق أبيها أو زوجها؛ وعلى الجملة ، لم يكن للمرأة بعد وفاتها نفس النصيب الذى كان للرجل فى العبادة وفى حفلات الغذاء الجنازى . وقد نتجت عن ذلك نتائج أخرى جد خطيرة فى القانون الخاص وفى تكوين الأسرة مما سنعرض له فيما بعد .

(١) تدعو الفيدا النار المقدسة مصدر الذرية المذكورة ، المتاكخارا (Mitakchara) ترجمة أوريان (Orianne) ص ١٣٩

[illegible]

[illegible] لنفسها .

على هذه الديانة لا تستطيع أن تنتشر إلا عن طريق التوالد — فعندما يمنح الأب الحياة لابنه يمنحه في نفس الوقت عقيدته وعبادته والحق في رعاية الموقد وتقديم الأكلة الجنازية وترتيل صيغ الدعاء . فالتوالد يقيم صلة سرية بين الطفل الذي يولد للحياة وبين جميع آلهة الأسرة . هؤلاء الآلهة هم أسرته ذاتها θεοὶ ἐγγενεῖς وهم دمه sanguinis mei (٣) . ولهذا فقد كان الطفل يحمل

---

(١) هيسيودس ، ديوانه [illegible] ، كاتوليوس ، [illegible] ، شيشرون ، القوانين ٢ ، ١١ ، ٢٧ : Ritus familiae patrumque servare .

(٢) راجع فيما ترجمة لانجلوا Langlois الجزء الأول صفحة ٢١٠ . [illegible] للشعائر الخاصة بكل أسرة [illegible] ٣٤٩ ، ٧ .

(٣) سوفوكليس ، انتيغون [illegible] ؛ [illegible] . Πατρῷοι θεοί في [illegible] ارسطوفانيس ، الدبابير ٣٨٨ ؛ ايسخيلوس ، الفرس [illegible] ؛ سوفوكليس ، اليكترا [illegible] [illegible] ، الأعياد ٢ ، [illegible]

الكتاب الثاني

الأسرة

الفصل الأول

كانت الديانة هى المبدأ الأساسى للأسرة القديمة

إذا ما انتقلنا بالفكر إلى وسط هذه الأجيال القديمة من الناس فإنا نجد فى كل منزل مذبحاً وحوله نرى الأسرة مجتمعة . فتجتمع كل صباح لتوجه للموقد أدعيتها الأولى وكل مساء لتدعوه مرة أخيرة. وفى أثناء النهار تجتمع أيضاً بالقرب منه للغذاء الذى يوزع بعد الصلاة وإراقة السوائل والذى تتناوله الأسرة فى خشوع ، وفى كل هذه الأعمال الدينية ترتل الأسرة أناشيد خلفها لها آباؤها .

وفى خارج المنزل وعلى مقربة منه فى الحقل المجاور نجد قبراً ، ذلك هو المسكن الثانى لهذه الأسرة ، هناك ترقد معا عدة أجيال من الأسلاف لم يفرق الموت بينهم بل ظلوا مجتمعين فى ذلك الوجود الثانى واستمروا يؤلفون أسرة لا انفصام لها .

ولا توجد بين الأحياء والأموات من الأسرة من مسافة غير هذه الخطوات المعدودة التى تفصل البيت عن القبر . وفى أيام معينة تحددها لكل واحد ديانته المنزلية يجتمع الأحياء بجوار الأسلاف ويحملون إليهم الغذاء الجنازى ويسكبون لهم اللبن والخمر ويضعون الحلوى والفواكه أو يحرقون لهم لحوم الأضاحى . وفى مقابل هذه القرابين يلتمسون منهم الحماية ، ويدعونهم آلهتهم ويطلبون منهم أن يجعلوا الحقل خصباً والبيت زاهراً والقلوب عامرة بالفضائل

لم يكن أساس الأسرة العتيقة هو المولد دون سواه . والدليل على ذلك أن الأخت لم تكن فى الأسرة فى مقام الأخ ، ذلك لأن الابن المحرر أو البنت المتزوجة لم تكن تعد إطلاقاً جزءاً منها . وفى النهاية توجد عدة نصوص هامة فى القوانين الإغريقية والرومانية ستتاح لنا فيما بعد فرصة فحصها .

كذلك لم يكن أساس الأسرة هو العطف الطبيعى . إذ أن القانون الإغريقى والقانون الرومانى لا يقيمان لهذه العاطفة وزناً . فهى تستطيع أن توجد فى قرار القلوب لكنها ليست شيئاً مذكوراً فى الشرع . وفى استطاعة الأب أن يدلل ابنته لكنه لا يستطيع أن يخلف لها ما يملك ؛ فإن قوانين التوارث ، وهى أشد القوانين صدقا فى الشهادة على الأفكار التى تصورها الناس عن الأسرة ، تتناقض تناقضاً سافراً مع نظام المواليد أو مع العطف الطبيعى على السواء (١)

عندما لاحظ مؤرخو الشريعة الرومانية بحق أن أساس الأسرة الرومانية لم يكن المولد ولا العطف ظنوا أن هذا الأساس لا بد وأنه كان موجوداً فى السلطة الأبوية أو الزوجية ، فجعلوا من هذه السلطة نوعاً من النظام الأزلى لكنهم لم يفسروا كيف نشأت هذه السلطة اللهم إلا أن يكون ذلك عن طريق تفوق قوة الزوج على الزوجة وقوة الأب على الأبناء ، لكنه من الخطأ أن نضع القوة هكذا كأصل للتشريع وسنرى فيما بعد أن السلطة الأبوية أو الزوجية لم تكن سبباً رئيسياً بل كانت هى ذاتها نتيجة لسواها فهى مشتقة من الديانة ، والديانة هى التى أقامتها فلم تكن هى إذن الأساس الذى قامت عليه الأسرة .

إن ما كان يجمع أعضاء الأسرة العتيقة لهو شىء أقوى من المولد ومن العاطفة ومن القوة الجسمانية ، ألا وهو ديانة الموقد والأسلاف . تلك التى جعلت من الأسرة هيئة متماسكة فى هذه الحياة وفى الحياة الأخرى . فالأسرة العتيقة هى رابطة دينية أكثر منها رابطة طبيعية ،لهذا سنرى فيما بعد أن المرأة لم تكن تحسب منها على وجه الحقيقة إلا إذا لقنتها حفلة الزواج المقدسة العبادة ، وأن الابن لم يكن بعد منها إذا تخلى عن العبادة أو إذا حرر ، بينما على العكس يصبح المتبنى ابناً حقيقياً فيها لأنه إذا لم يكن حائزاً لرباط الدم فإنه سيكون له شىء خير منه وهو المشاركة فى العبادة ؛ وسنرى أن الموصى له إذا رفض أن يتخذ عبادة هذه الأسرة فإنه لا يحصل على الميراث ، وفى الختام أن القرابة وحق الإرث

---

(١) مفهوم أننا نتكلم هنا عن أقدم الشرائع وسنرى فيما بعد أن هذه القوانين القديمة قد عدلت .

لم يكونا ينظهان طبقاً للمولد بل تبعاً لحقوق المساهمة فى العبادة كما أقامتها الديانة . ومما لا ريب فيه أن الديانة لم تكن هى التى خلقت الأسرة ولكن من المؤكد أنها هى التى منحتها قواعدها ، ومن هنا نتج أن الأسرة القديمة كانت تتكون تكويناً مخالفاً كل المخالفة لما كانت تكون عليه لو أن العواطف الطبيعية كانت وحدها المؤسسة لها .

وكانت اللغة الإغريقية القديمة تستعمل كلمة ذات دلالة واضحة تطلقها على الأسرة ، فكانوا يقولون *ἐπίστιον* ومعناها الحرفى : المجاور للموقد . فالأسرة كانت مجموعة من الأشخاص تسمح لهم الديانة أن يوجهوا أدعيتهم لنفس الموقد وأن يقدموا الأكلة الجنازية لنفس الأسلاف (١) .

---

(١) لكى يقول هيرودوت (٥:٧٣) ٧٠٠ أسرة يستعمل التعبير *ἑπτακόσια ἐπιστία* وفى مكان آخر (١ : ١٧٦) لكى يدل على ٨٠ أسرة يقول *ὀγδώκοντα ἑστίαι*. نفس التعبير فى بلوتارخوس : رومولوس ٩ .

الفصل الثانى

الزواج

كان أول نظام أقامته الديانة المنزلية على الأرجح هو الزواج .

يجدر ملاحظة أن هذه الديانة ، ديانة الموقد والأسلاف ، التى كانت تنتقل من ذكر إلى ذكر ، لم تكن مقصورة على الرجل وحده بل كان للمرأة نصيبها من العبادة . فقد كانت وهى عذراء تحضر شعائر أبيها الدينية ، وإذا ما تزوجت حضرت شعائر زوجها .

وإنا لنحس من هذا وحده الطابع الجوهرى للرباط الزوجى لدى القدماء . أسرتان تعيشان إحداهما بجوار الأخرى لكن لهما آلهة مختلفة . فى إحداهما تساهم فتاة منذ طفولتها فى ديانة أبيها وتدعو موقده وتقدم له كل يوم سوائل وتحيطه فى أيام الأعياد بزهور وقلائد من الزهر وتلتمس حمايته وتشكره على آلائه . هذا الموقد الأبوى هو إلهها . فاذا ما طلبها شاب من الأسرة المجاورة زوجاً له فإن الأمر يصبح بالنسبة لها شيئاً آخر غير مجرد الانتقال من منزل إلى منزل آخر ؛ إنها تهجر الموقد الأبوى لتدعو منذ الآن موقد الزوج ، فهو تغيير للدين وقيام بشعائر أخرى وتلاوة لصلوات أخرى ، فالمسألة هى إذن ترك إله طفولتها لتضع نفسها تحت سلطان إله لا تعرفه ولا أمل لها أن تبقى موالية لأحدهما بينما هى تكرِّم الآخر ، إذ أن فى هذه الديانة مبدأ لا يتغير وهو أن الشخص الواحد لا يستطيع أن يدعو موقدين ولا سلسلتين من الأجداد وفى ذلك يقول أحد القدماء «ابتداء من الزواج لا يبقى للزوجة أية علاقة بديانة آبائها المنزلية ؛ إنها لتضحى لموقد الزوج » (١)

فالزواج إذن عمل خطير بالنسبة للفتاة وليس أقل خطورة بالنسبة للزوج إذ أن تلك الديانة تقتضى أن يولد الشخص بجوار الموقد لكى يكون له الحق فى

---

(١) ديكاى ارخوس (Dicearque) مقتبسا فى اصطفان (إتيين) البيزنطى تحت لفظ *Πάτρα*

التضحية له ، وها هو ذا يهم بإدخال أجنبية بالقرب من موقده ، وبرفقتها سيقوم باحتفالات ديانته الخفية ، ويكشف لها عن الشعائر والصيغ التى هى تراث أسرته وما من شىء لديه أثمن من هذا التراث فإن هذه الآلهة وهذه الشعائر والأناشيد التى تلقاها عن آبائه هى التى تحميه فى الحياة وهى التى تعده بالثراء والسعادة والفضيلة . لكنه بدلا من أن يحتفظ لنفسه بهذه السلطة الواقية له، كما يحتفظ الهمجى بصنمه أو بتميمته ، فإنه سيسمح لامرأة أن تقتسمها معه .

وهكذا عندما ننفذ فى أفكار هؤلاء الناس القدماء نرى مقدار أهمية الارتباط الزوجى عندهم وكم كان تدخل الديانة لازما له . ألم يكن من الضرورى إذن أن تلقن الفتاة فى احتفال مقدس العبادة التى توشك أن تتبعها منذ الآن ؟ ولكى تصبح كاهنة لهذا الموقد الذى لم يكن يربطها به مولدها ألم يكن يلزمها نوع من التنصيب الدينى أو التبنى ؟

كان الزواج هو الاحتفال المقدس الذى يتطلب منه إحداث هذه الآثار العظيمة. وقد اعتاد الكتاب اللاتينيون والإغريق أن يطلقوا على الزواج كلمات تدل على عمل دينى (١) ، فيقول پوليدوكيس Pollux الذى كان يعيش فى عهد الأنطونيين ، ولكن كانت فى حيازته مجموعة كاملة من الأدب القديم لم تعد لدينا الآن ، إنهم فى الأزمنة القديمة بدلا من أن يطلقوا على الزواج اسمه الخاص *γάμος* كانوا يطلقون عليه كلمة *Τέλος* فقط ومعناها الاحتفال المقدس (٢) كما لو كان الزواج فى تلك الأزمنة القديمة قد أصبح الاحتفال الذى فاق سواه قداسة .

هذا وإن الديانة التى كان يعمل الزواج بمقتضاها لم تكن ديانة چوپيتر وچونون وآلهة الأولمپ الآخرين ، ولم يكن الزواج فى معبد بل كان فى المنزل وكان الإله المنزلى هو الذى يشرف عليه . والحق أنه عندما تغلبت ديانة آلهة

---

(١) *Θύειν γάμον, sacrum nuptiale*

(٢) بوليدوكيس ٣ : ٣ : ٣٨ .

السماء لم يستطع الناس أن يمتنعوا عن التوسل إليهم أيضاً فى صلوات الزواج ؛ بل لقد تعودوا أن يذهبوا أولا إلى المعابد وأن يقدموا لهؤلاء الآلهة قرابين يسمونها مقدمات الزواج (١) . لكن الجزء الرئيسى الجوهرى من الاحتفال كان يتم دائماً أمام الموقد المنزلى .

يمكن القول إن احتفال الزواج كان يتكون عند الإغريق من ثلاثة فصول يحدث الأول منها أمام موقد الوالد الزوجة *ἐγγύησις* والثالث عند موقد الزوج *Τέλος* والثانى هو الانتقال من أحدهما إلى الآخر *Πομπὴ*

١ — فى المنزل الأبوى وبحضور طالب الزواج يقدم الوالد ضحية وهو محاط عادة بأسرته ، وعند انتهاء التضحية يعلن وهو يتلو صيغة مخصصة لذلك أنه يعطى ابنته للشاب . وهذا الإعلان لازم كل اللزوم للزواج ، إذ أن الفتاة لا يمكن أن تذهب تواً لعبادة موقد الزوج إلا إذا فصلها والدها مقدماً من الموقد الأبوى : فلكى تدخل فى ديانتها الجديدة يجب أن تتخلص من كل رباط ومن كل صلة بديانتها الأولى (٢) .

٢ — تنتقل الفتاة إلى منزل الزوج ، والزوج فى بعض الأحيان هو الذى يقودها بنفسه (٣). وفى بعض المدن كان عبء قيادة الفتاة يقع على أحد أولئك الرجال الذين كانت لهم عند الإغريق صفة كهنوتية والذين كانوا يسمونهم المنادين (hérauts) (٤) وكانت الفتاة فى العادة توضع فوق مركبة (٥) وتغطى وجهها بلثام وتحمل تاجاً على رأسها ، والتاج كما سنرى فى كثير من المناسبات كان يستعمل فى جميع احتفالات العبادة ، ورداؤها أبيض ،وكان البياض هو لون

---

(١) *Προτέλεια, προγάμια.* Pollux, III, 38

(٢) هيرودوت ٦ : ١٣٠ وإيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ١٤ .يعطى ديموشينيس بعض ألفاظ الصيغة المستعملة : *Ἐγγυῶ ἐπὶ δικαίοις δάμαρτα εἶναι* (من أجل التاج ٢ : ١٨) وهذا الجزء من عملية الزواج كان يسمى أيضاً *traditio* أنظر بوليدوكيس ٣ : ٣٥ : ديموشينيس : الدفاع عن فورميون ٣٢ .

(٣) بوليدوكيس (بوللكس) ٣ : ٤١ .

(٤) بلوتارخوس : المسائل الإغريقية ٢٧ .

(٥) Plutarque, *Quest. rom., 29,* Photius, *Lex.* p. 52:
Παραλαβόντες αὐτὴν ἐκ τῆς πατρῴας ἑστίας ἐπὶ τὴν ἁμάξαν ἄγουσιν εἰς τὴν τοῦ γαμοῦντος

الملابس فى جميع الشعائر الدينية ، ويتقدمونها وهم يحملون شعلة ؛ تلك هى الشعلة الزوجية (١) وعلى طول سير الموكب يرتلون حولها نشيداً دينياً يتكرر فيه الرد ὦ ὑμήν, ὦ ὑμέναιε وكانو يسمون هذا النشيد الهمينايوس hyménée وقد كان لهذا الغناء المقدس من الأهمية ماجعلهم يطلقون اسمه على الاحتفال بأكمله (٢) .

ولم تكن الفتاة تدخل منزلها الجديدمن نفسها بل يجب أن يخطفها زوجها وأن يمثل معها عملية الاغتصاب وأن تصرخ هى بضع صرخات وأن يتظاهر النساء اللواتى يصحبنها بالدفاع عنها. لماذا هذه الشعيرة الدينية ؟هل هى رمز على حياء الفتاة ؟ إن ذلك قليل الاحتمال لأن ساعة الخفر لم تأت بعد وإن الذى سيعمل أولا فى هذا المنزل ما هو إلا حفلة دينية . ألم يكن الأولى بالقصد أنهم أرادو أن يبينوا أن المرأة التى ستضحى لهذا الموقد ليس لها أى حق من تلقاء ذاتها وأنها لا تقترب منه بدافع من إرادتها وأنه لابدمن أن يقدمها له رب المكان ورب الإله بعمل يستمده من سلطته ؟ ومهما يكن من أمر فإن الزوج كان يرفعها بين ذراعيه بعد معركة صورية ، ويتخطى بها الباب مع الاحتراز التام من أن تمس قدماه عتبة الدار (٣) .

وهذا الذى سبق ما هو إلا إعداد للحفلة ومقدمة لها . أما العمل المقدس فسيبدأ فى المنزل

---

(١) الإلياذة : ١٨ : ٤٩٢ . هسيوديوس : الترس ٢٧٥ . أوريبيديس: إيفيغنيا فى الأوليس ٧٣٢ ، الفينيقيات ٣٤٤ ، هيلينا ٧٢٢ — ٧٢٥ . بوليدوكيس (بولليكس) ٣ : ٤١ . لوقيانوس : أئتيون Aetion ٥

(٢) الإليادة ١٨ : ٤٩٥ . هسيودوس : الترس ٢٨٠ . ارسطوفانيس : الطيور؛ بوليدوكيس ١٧٢٠ ؛ السلم ١٣٣٢ . بوليدوكيس ٣:٣٧ ؛ ٤ : ٨٠ . فوتيوس : خزانةالكتب C. 239

(٣) Plutarque, *Lycurgue*, 15: Ἐγάμουν δι' ἁρπαγῆς. Denys d'Halicarnasse: Οὐκ ἐφ' ὕβρει τῆς ἁρπαγῆς, ἀλλ' ἐπὶ γάμῳ γενομένης, ἑλληνικὸν καὶ ἀρχαῖον τὸ ἔθος καὶ τρόπον συμπάνων καθ' οὓς συνάπτονται γάμοι ταῖς γυναῖξιν ἐπιφανέστατον.

٣ — يقتربون من الموقد وتوضع الزوجة في حضرة المعبود المنزلى وينثرون عليها ماء النثار وتمس النار المقدسة (١) وتقال الأدعية ثم يقتسم الزوجان كعكة وخبزاً وبعض الفاكهة (٢).

وهذا النوع من الوجبة الخفيفة الذى يبدأ وينتهى بإراقة السوائل والدعاء، هذا الاقتسام للغذاء أمام الموقد، يربط بين الزوجين برباط دينى ويصلهما بالآلهة المنزليين (٣).

والزواج الرومانى كثير الشبه بالزواج الإغريقى ويشمل مثله ثلاث مراحل التسليم ***traditio*** ، الزفاف ***deductio in domum*** واقتسام الدقيق ***Confarreatio***

١ — تغادر الفتاة الموقد الأبوى. وحيث أنها لم تكن مرتبطة بهذا الموقد بمقتضى حق خالص لها بل عن طريق رب الأسرة فقط فإنه ما من شيء يستطيع أن يفصلها عنه إلا سلطة الأب فعملية التسليم ***traditio***، إجراء لا مفر منه (٤).

٢ — تقاد الفتاة إلى منزل الزوج. وكما هي الحال فى بلاد الإغريق تكون ملثمة

---

(١) *Ignem undamque jugalem* (Valer. Flaccus, *Argonaut.*, VIII, 245).

(٢) بلوتارخوس : صولون. ٢٠ ؛ عن الزواج ١ ونفس العادة عند المقدونيين ؛ Quinte-Curce, VIII, 16: *Jussit afferri patrio more panem; hoc erat apud Macedones sanctissimum coeuntum pignus; quem divisum gladio uterque libabat.*

(٣) ومن هنا هذا الاصطلاح الذى استعمله أفلاطون (القوانين ٨ ص ٢٤١) *Ταῖς μετὰ θεῶν καὶ ἱερῶν γάμων ἐλθούσαις εἰς τὴν οἰκίαν.*
وهذا التعبير الآخر من بلوتارخوس (حياة تيسيوس ١٠) :
εἰς κοινωνίαν γένους ἐλθεῖν τὰ μέγιστα καὶ τιμιώτατα. λαμβάνοντας καὶ διδόντας ويقول نفس المؤلف فى مكان آخر أنه لا توجد صلة أقدس من صلة الزواج *οὐκ ἔστι ἱερωτέρα κατάζευξις* (*Amatorius*, 4)

(٤) عن الأشكال الفذة للتسليم traditio والخطوبة sponsio فى القانون الرومانى انظر النص الغريب المنقول عن سرفيوس سولبيسيوس (Servius Sulpicius) فى أولوس جيليوس (*Aulu-Gelle*) ٤ : ٤ - انظر Plaute, *Aululaire*, II, 2, 41-49; II, 3, 4; *Trinummus*, V, 4; Cicéron, *Ad Atticum*, I, 3,

وتحمل تاجاً ،وتسبق الموكب شعلة الزوجية (١) ، ويرتلون حولها نشيداً دينياً قديماً . وربما تكون عبارات هذا النشيد قد تغيرت مع الزمن لـكى تتفق مع تطورات العقائد أو اللغة لـكن الرد المقدس من النشيد بقى دائماً دون أن يلحق به تغيير وهو لفظ *Talassie* ، لفظ لم يكن الرومان فى زمن هوراسيوس يفهمون معناه أكثر مما كان الإغريق يفهمون معنى كلمة *ὑμέναιε* ويحتمل أنه كان بقية مقدسة لصيغة عتيقة لا يمسها أحد بسوء (٢) .

يقف الموكب أمام منزل الزوج . وهناك يقدمون للفتاة النار والماء ؛ فالنار هى رمز المعبود المنزلى والماء هو ماء النثار الذى تستخدمه الأسرة فى كل الأعمال الدينية (٣) ، ولـكى تدخل الفتاة المنزل لابد من تمثيل الاغتصاب (٤)،كما كانوا يفعلون فى بلاد الإغريق ، ويجب على الزوج أن يرفعها بين ذراعيه وأن يحملها فوق العتبة دون أن تمسها قدماه .

٣ — تقاد الزوجة أمام الموقد حيث توجد الپناتس وحيث يجتمع جميع الآلهة المنزليين وصور الأسلاف حول النار المقدسة ويقدم الزوجان قرباناً كما فى بلاد الإغريق ويريقان السوائل ويتلوان بعض الصلوات ويأكلان معاً كعكة من خالص الدقيق *panis farreus* (٥) .

---

(١) أوفيديوس : الأعياد ٢ : ٥٥٨ - ٥٦١ .

(٢) بلوتارخوس : رومولوس ١٥ .

(٣) فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ٦١ . بلوتارخوس : مسائل رومانية ١ . سرفيوس على الإنييد ٤ : ١٦٧ .

(٤) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٢٩ ؛ رومولوس ١٥ . ماكروبوس : ساتورناليا ١ : ١٥ . فستوس تحت لفظ *rapi*

(٥) Pline, *Hist. nat.*, XVIII, 3,10: *In sacris nihil religiosius confarreationis vinculo erat, novaeque nuptae farreum praeferebant.* Denys d'Halicarn., II, 25; Ἐκάλουν τοὺς ἱεροὺς γάμους φαρράκια ἀπὸ τῆς κοινωνίας τοῦ φαρρός

تاسيتوس : حوليات ٤ : ١٦ ؛ ١١ : ٢٦ - ٢٧ ؛ جوفيناليس : ٣٢٩ - ٣٣٦ . سرفيوس على الإنييد ٤ : ١٠٣ ؛ *ad Georg.*, 1,31 ؛ غايوس ١ : ١١٠ - ١١٢ . اولبيانوس ٩ ، الديجيست ٢٣ : ٢ : ١ . وعند الأتروسك أيضاً كان يتم الزواج بضحية (فارون ، الفلاحة ٢ : ٤) - ونفس العادة عند قدماء الهنود قوانين مانو ٣ : ٢٧ - ٣٠ ، ١٧٢ ؛ ٥ : ١٥٢ ؛ ٨ : ٢٢٧ ؛ ٩ : ١٩٤ ، متاكخارا ترجمةأوريان *(Orianne)* ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٣٦) .

وهذه الكعكة التى تؤكل وسط تلاوة الصلوات ، بحضرة معبودات الأسرة وعلى مشهد منهم ، هى التى تخلق الارتباط المقدس بين الزوج والزوجة (١) فهما مرتبطان منذئذ بنفس العبادة ويصبح للمرأة نفس الآلهة ونفس الشعائر ونفس الصلوات ونفس الأعياد التى لزوجها . ومن هنا هذا التعريف القديم للزواج الذى حفظه لنا الفقهاء *Nuptiae sunt divini juris et humani communicatio* وهـذا التعريف الآخر *Uxor socia humanae rei atque divinae* (٢) ذلك بأن المرأة دخلت شريكة للزوج فى ديانته ، تلك المرأة التى أدخلها الآلهة أنفسهم فى المنزل كما يقول أفلاطون .

وللمرأة التى تزوجت بهذه الطريقة حق عبادة الموتى أيضاً ؛ لكنها لا تحمل الأكلة الجنازية إلى أسلافها هى إذ أنه لم يعد لها حق فى ذلك فإن الزواج قد فصلها تماماً من أسرة أبيها وفصم صلاتها الدينية معها ؛ وإنما تحمل القربان لأسلاف زوجها *filiae loco* كما يقول الفقهاء. وليس فى استطاعة أحد أن ينتمى إلى أسرتين ولا إلى ديانتين منزليتين. فالمرأة بأسرها لأسرة زوجها وديانته. وسنرى عواقب هذه القاعدة فى قانون الميراث .

لا بد أن يكون نظام الزواج المقدس قديماً فى الجنس الهندوأوربى قدم الديانة المنزلية . إذ أن أحدهما لا يسير بدون الآخر . وقد علمت هذه الديانة الإنسان أن الارتباط الزوجى شىء آخر غير الصلة الجنسية والعاطفة الطارئة وربطت بين زوجين بالرباط الوثيق المستمد من عبادة واحدة وعقائد واحدة . فضلا عن أن حفلة الزواج كانت جد رائعة وكانت تحدث من الآثار الخطيرة

---

(١) وسنتكلم فيما بعد عن اشكال الزواج الأخرى التى كانت تستعمل عند الرومان والتى لم تكن الديانة تتدخل فيها وإنما يكفينا أن نقول هنا أن الزواج المقدس يبدو لنا أنه أقدمها إذ أنه يطابق أقدم العقائد ولم يختف إلا متمشياً مع ضعفها .

(٢) ديجست : ٢ . مجموعة قوانين يوستينيانوس ٩ : ٣٢ : ٤ . ديونيسيوس الهاليكارناسى ٢ : ٢٥ : *Κοινὸς χρημάτων καὶ ἱερῶν*

ما لا ندهش معه من أن نرى هؤلاء الناس يعتقدون أنه غير مسموح ولا مستطاع إقامة هذه الحفلة إلا لامرأة واحدة فى كل منزل . إنه لا يمكن لمثل هذه الديانة أن تسمح بتعدد الزوجات .

بل إننا لندرك أن مثل هذا الارتباط لم يكن قابلا للحل وأن الطلاق يكاد يكون مستحيلا (١) . كان القانون الرومانى يسمح بسهولة بحل الزواج الذى تم بطريق الشراء *coemptio* أو المتعة *usus* لكن حل الزواج الدينى كان شديد الصعوبة. فكان لابد لهذا الانفصام من حفلة مقدسة جديدة إذ أن الدين وحده يستطيع أن يفرق ما جمعه الدين . فلا يستطيع أن يمحو أثر الـ *confarreatio* إلا الـ *diffarreatio* فيظهر الزوجان اللذان يريدان الانفصال أمام الموقد المشترك للمرة الأخيرة ويحضرهما كاهن وشهود وتقدم للزوجين ، كما حدث فى يوم الزواج ، كعكة من خلاصة الدقيق (٢) . لكن من المحتمل أنهما بدلا من اقتسامها كان يدفعانها عنهما ثم إنهما بدلا من الصلوات كانا يتلوان صيغا «غريبة الطابع ، قاسية ، تنطوى على البغض ، مخيفة»(٣) ، وهى نوع من الملاعنة تتنازل به المرأة عن عبادة الزوج وآلهته . ومنذ ذاك يصبح الرباط الدينى مفصوماً . وبانقطاع المشاركة فى العبادة تنقطع كل مشاركة أخرى من تلقاء نفسها ويصبح الزواج منحلا .

---

(١) على الأقل فى الأصل . يقول ديونيسيوس الهاليكارناسى (٢ : ٢٥) بصراحة إنه ما من شئ كان يستطيع أن يحل مثل هذا الزواج .
يبدو أن الحق فى القدرة على الطلاق أدخل مبكر جداً فى القانون الأتيكى .

(٢) فستوس تحت لفظ *Diffarreatio* ، بوليدوكيس ٣ *Ἀποπομπὴ*
ونقرأ فى إحدى الكتابات (أورلى رقم ٦٤٨)
Sacerdos confarreationum et diffarreationum

(٣) بلوتارخوس ـ مسائل رومانية ٥٠ . *Φρικώδη, ἀλλόκοτα, σκυθρωπὰ*

الفصل الثالث

استمرار الأسرة . العزوبة محرمة . الطلاق فى حالة العقم
عدم المساواة بين الابن والبنت

إن العقائد الخاصة بالموتى ، والعبادة التى كان يجب إقامتها لهم ، هى التى كونت الأسرة القديمة ومنحتها معظم قواعدها .

وقد رأينا آنفاً أن الإنسان كان يعد بعد الموت كائناً سعيداً إلهياً ولكن بشرط أن يقدم له الأحياء الأكلة الجنازية دائماً . فإذا حدث أن انقطعت القرابين فإن فى ذلك انحطاطاً للميت يسقط به إلى مرتبة شيطان تعس شرير إذ أن هذه الأجيال القديمة لم تكن قد فكرت فى الثواب والعقاب فى الفترة التى ابتدأت تتصور فيها الحياة الأخرى . كانوا يعتقدون أن سعادة الميت لم تكن متوقفة على السلوك الذى سلكه فى حياته بل على ما تسلكه سلالته نحوه . لذا كان كل والد ينتظر من ذريته سلسلة الأكلات الجنازية التى من شأنها أن تضمن لروحه الراحة والسعادة .

كانت هذه الفكرة هى المبدأ الأساسى للشرع المنزلى عند القدماء . فاشتقت منها أولاهذه القاعدة وهى أن على كل أسرة أن تبقى إلى الأبد فقد كان الموتى فى فى حاجة إلى ألا تبيد سلالتهم ولم يكن لهم فى القبر الذى يعيشون فيه موضوع قلق سواه . وكانت فكرتهم الوحيدة كما كان همهم الوحيد أن يكون هناك على الدوام رجل من دمهم يحضر القرابين إلى القبر . لذلك كان يعتقد الهندى أن هؤلاء الموتى كانوا يكررون بلا انقطاع «ليته يولد دائماً فى سلالتنا أبناء يحضرون لنا الأرز واللبن والعسل» . وكان الهندى يقول أيضاً «إن زوال أسرة يؤدى إلى

القضاء على ديانة تلك الأسرة ، والأسلاف المحرومون من قربان الكعك يهوون إلى مقر التعساء » (١) .

فكر الناس طويلا فى إيطاليا وفى بلاد الإغريق مثل هذا التفكير . وإذا كانوا لم يخلفوا لنا فى كتاباتهم تعبيراً واضحاً عن عقائدهم كالذى نجده فى كتب الشرق القديمة فإن قوانينهم على الأقل لا زالت باقية تشهدعلى عقائدهم العتيقة. فى أثينا كان القانون يكلف رجل الدولة الأول أن يسهر على ألا تنقرض أسرة ما (٢).وكذلك كان القانون الرومانى متنبهاً إلى عدم سقوط أية عبادة منزلية(٣). وإنا لنقرأ فى خطبة لخطيب أثينى : «ما من رجل يعلم أنه سوف يموت وتبلغ قلة اهتمامه بذاته حد الرغبة فى ترك أسرته بلا ذرية ؛ إذ أنه لن يكون هناك أحد يؤدى له العبادة الواجبة للموتى» (٤) . فكانت لكل واحد مصلحة قوية فى ترك ابن بعده لاقتناعه بأن الأمر متعلق بخلوده السعيد . بل لقد كان ذلك واجباً نحو الأسلاف ما دامت سعادتهم كانت لا تدوم إلا بقدر ما تدوم الأسرة لذلك كانت قوانين مانو تسمى الابن الأكبر «المولود للقيام بالواجب» .

وإنا لنلمس هنا صفة من أجدر صفات الأسرة القديمة بالملاحظة . فإن الديانة التى كونت هذه الأسرة كانت تفرض حتما عدم فنائها . إن أسرة تنطفىء لهى عبادة تموت . ولا بد أن نتصور هذه الأسرات فى الحقبة التى لم تكن العقائد قد تغيرت فيها : لكل واحدة منها ديانة وآلهة ، وديعة ثمينة لا بد أن تسهر عليها ، وإن أكبر مصيبة يخشاها برها لهى انقطاع سلالتها فإن ديانتها تختفى عندئذ من الأرض وينطفىء موقدها وتهوى كل سلسلة موتاها فى النسيان والشقاء الأبدى . لقد كانت أكبر مصلحة للحياة البشرية هى فى استمرار الذرية لكى تستمر العبادة .

---

(١) بهاغافاد - غيتا (Bhagavad-Gita) ١ : ٤٠ .

(٢) إيسايوس : ميراث ابولودوروس ٣٠ ؛ ديموسثينيس : ضد ما كارتاتوس ٧٥

(٣) Cicéron, *De legibus*, II, 19: Perpetua sint sacra. Denys, IX, 22
Ἵνα μὴ ἱερὰ ἐκλείφθῃ πατρῷα.

(٤) إيسايوس ٧ : ميراث ابولودوروس ٣٠ . Cf. Stobée, *Serm.*, LXVII, 25:
Εἰ γὰρ ἐκλίποι τὸ γένος, τίς τοῖς θεοῖς θύσει;

وطبقاً لهذه الآراء كان لا بد أن تكون العزوبة إثماً خطيراً ومصيبة معاً . إثماً لأن الأعزب كان يعرض سعادة أرواح أسرته للخطر ، ومصيبة لأنه لن يتلقى هو ذاته أية عبادة بعد موته ولن يعرف «ما يبهج الأرواح» وفى ذلك نوع من اللعنة له ولأسلافه معاً .

من الممكن أن نظن أن هذه العقائد الدينية ظلت زمناً طويلا كافية فى غيبة القوانين لمنع العزوبة ، لكنه يبدو زيادة على ذلك أن القوانين قد نصت ، بمجرد ما وجدت ، على أن العزوبة شىء ردىء ، معاقب عليه ؛ يقول ديونيسيوس الهاليكارناسى الذى فتش فى حوليات روما القديمة أنه رأى فيها قانوناً قديماً يجبر الشبان على الزواج (١) وتحتوى رسالة سيسرون فى القوانين ، وهى الرسالة التى تنقل دائماً تقريباً قوانين روما القديمة فى شكل فلسفى ، على قانون يحرم العزوبة (٢) ؛ وفى اسپرطة كانت شريعة ليكورغ تعاقب الرجل الذى لا يتزوج عقاباً شديداً (٣) . ونعرف من عدة قصص أنه لما بطل تحريم العزوبة عن طريق القوانين كانت لا تزال محرمة عن طريق الأخلاق . وأخيراً يبدو من فقرة من پوليدوكيس أن القانون فى كثير من المدن الإغريقية كان يعاقب على العزوبة باعتبارها جناية (٤) ؛ كان ذلك مطابقاً للعقائد ، فإن الإنسان لم يكن لنفسه بل كان للأسرة . كان عضواً فى مجموعة متعاقبة وكان لا بد ألا تنتهى المجموعة عنده . إنه لم يولد من باب المصادفة وإنما أدخلوه فى الحياة لكى يواصل عبادة ما وكان عليه ألا يغادر الحياة دون أن يتأكد أن هذه العبادة ستستمر بعده .

---

(١) ديونيسيوس الهاليكارناسى ٩ : ٢٢

(٢) سيسرون : القوانين ٣ : ٢

(٣) بلوتارخوس : ليكورغ ١٥ ؛ حكم (apohhtégmes) اللاكيديمونين . أنظر حياة ليساندروس ٣٠ . Ἀγαμίου δικη

(٤) بوليدوكيس ٣ : ٤٨ .

لـكنه لم يكن يكفى أن يخلف ابناً بل لا بد أن يكون الابن ، الذى عليه أن يواصل الديانة المنزلية ، ثمرة زواج دينى . أما النغل ، الابن غير الشرعى ، الذى كان الإغريق يسمونه *νόθος* واللاتينيون spurius فلم يكن باستطاعته أن يقوم بالدور الذى تعينه الديانة للابن . والواقع أن صلة الدم لم تكن لتنشىء الأسرة من تلقاء ذاتها بل كان لا بد من رباط العبادة أيضاً . هذا ولم يكن فى استطاعة الابن المولود من امرأة لم يشركها احتفال الزواج فى عبـادة الزوج أن يساهم هوذاته فى العبادة (١) . فلم يكن له الحق فى تقديم الأكلة الجنازية ولم تكن الأسرة لتستمر عن طريقه . وسنرى فيما بعد أنه لم يكن له الحق فى الميراث لنفس السبب .

وإذن فقد كان الزواج إلزامياً ولم يكن يهدف للذة ولم يكن غرضه الأساسى اتحاد كائنين يوافق كل منهما الآخر ويريدان المشاركة فى سعادة الحياة ومتاعبها . بل كان أثر الزواج فى نظر الديانة والقوانين هو ربط كائنين فى نفس الديانة المنزلية لـكى يولد منهما ثالث جدير باستمرار هذه العبادة على يديه . ويتبين ذلك جيداً من الصيغة المقدسة التى كانت تتلى فى عقد الزواج ؛ كان الرومان يقولون : *Ducere uxorem liberum quaerendorum causa* (٢) ويقول الإغريق *παίδων ἐπ᾽ ἀρότῳ γνησίων* (٣)

ما دام الزواج لم يعقـد إلا لاستـمرار الأسرة فإنه يبدو من العـدل إمكان فصمه إذا كانت المرأة عاقراً . فكان الطلاق فى مثل هذه الحال شرعياً دائماً عند القدماء ومن الجائز أنه كان إجبارياً . فى الهند كانت تحتم الديانة « أن

---

(١) ايسايوس ٦ ، ميراث فيلوكتيمون ٤٧ . ديموستينيس : ضدما كارتاتوس ٥١

(٢) يعنى يتخـذ زوجة طلباً للذرية — العرب .

(٣) ميناندرييوس : القطعة ١٨٥ . ديموستينيس : ضد نيأيرا (Neaera) ١٢٢ . لوقيانوس : تيمون ؛ ايسخيلوس : أغاممنون ١٢٠٧ .

يستبدل بالمرأة العاقر سواها فى نهاية ثمان سنوات» (١) . أما أن هذا الواجب كان كذلك فى بلاد الإغريق فهو شىء لايثبته أى نص صريح. بيد أن هيرودوت يذكر ملكين من ملوك اسپرطة أجبرا على تطليق زوجتيهما لأنهما كانتا عاقرين (٢) . أما فيما يختص بروما، فإن قصة كارڤيليوس روغا (Carvilius Ruga) الذى كان طلاقه أول طلاق ذكرته الحوليات الرومانية ، معروفة بما فيه الكفاية . يقول أولوس جيليوس «انفصل كارڤيليوس روغا ، وهو رجل من أسرة كبيرة ، من زوجته بالطلاق لأنه لم يكن فى استطاعته أن ينجب أولاداً منها . كان يحبها حباً وودداً ، ولم يكن له إلا أن يهنىء نفسه على سلوكها ، لكنه ضحى بحبه فى سبيل ديانة القسم لأنه أقسم (فى صيغة الزواج) أن يتخذها زوجة ليكون له أطفال» (٣) .

كانت الديانة تقول إن الأسرة يجب ألا تنقرض ؛ وعلى كل عاطفة وكل حق طبيعى أن يتراجع أمام هذه القاعدة المطلقة . فإذا كان زواج ما عقيما من ناحية الزوج فلا بد مع ذلك من استمرار الأسرة . وكان لا بد إذن أن يحل محل الزوج أخ له أو قريب . وكان لزاماً على المرأة أن تستسلم لهذا الرجل والطفل الذى يولد من ذلك كان يعتبر ابنا للزوج ويستمر فى عبادته . تلك كانت القواعد المرعية عند قدماء الهنود وسنجدها مرة أخرى فى قوانين أثينا واسپرطه (٤) . إلى هذا الحد بلغ سلطان هذه الديانة . وإلى هذا الحد تقدم الواجب الدينى على جميع الواجبات الأخرى .

ومن باب أولى كانت التشريعات القديمة تفرض زواج الأرملة بأدنى أقارب زوجها إذا لم يكن لها أولاد ، والولد الذى يولد يشهر بأنه ابن المتوفى (٥) .

---

(١) قوانين مانو ٩ : ٨١

(٢) هيرودوت ٥ : ٣٩ ؛ ٦ : ٦١

(٣) أولوس جيليوس ٤ : ٣ . فاليريوس ماكسيموس ٢ : ١ : ٤ . ديونيسيوس ٢ : ٢٥ .

(٤) بلوتارخوس : صولون ٢٠ . هكذا يجب أن نفهم ما يقوله اكسينوفون وبلوتارخوس عن اسپرطه : اكسينوفون : جمهورية اللاكيديمونين ١ ؛ بلوتارخوس: ليكورغ ١٥ — أنظر قوانين مانو ٩ : ١٢١ .

(٥) قوانين مانو ٩ : ٦٩ ، ١٤٦ . وكذلك عند العبرانيين : سفر تثنية التشريع ٢٥

لم يكن مولد البنت يقوم بالغرض من الزواج . والواقع أن الفتاة لا تستطيع أن تستمر فى العبادة إذ أنها منذ اليوم الذى تتزوج فيه تتنازل عن أسرة أبيها وعن عبادته وتنتمى إلى أسرة زوجها وديانته . فإن الأسرة ، كالديانة ، لم تكن لتستمر إلا بطريق الذكور ؛ وهذه حقيقة رئيسية سنرى عواقبها فيما بعد .

فالابن إذن هو الذى كان منتظراً وكان لازماً . إنه هو الذى كانت تتطلبه الأسرة والأسلاف والموقد ، وكما كانت تقول قوانين الهنود القديمة «به يسدد الأب دينه نحو أرواح أسلافه ويضمن لنفسه الخلود» . ولم يكن هذا الولد أقل مقداراً فى نظر الإغريق إذ أنه هو الذى سيعمل الأضحية فيما بعد ويقدم الأكلة الجنازية ويحافظ بعبادته على الديانة المنزلية . لذلك كان يسمى الابن فى مؤلفات ايسخيلوس القديم منقذ الموقد الأبوى (١) .

كان يعلن عن دخول هذا الابن فى الأسرة بإجراء دينى . كان لا بد أولا أن يتقبله الأب . ويجب على هذا الأخير ، باعتباره رب الموقد وحارسه مدى الحياة وممثل الأسلاف ، أن يقرر ما إذا كان المولود الجديد من الأسرة أو ليس منها . إذ أن المولد لم يكن إلا الرباط الطبيعى أما إعلان الوالد فكان الرباط الخلقى والدينى . كان هذا الإجراء إجبارياً كذلك سواء فى روما أو فى بلاد الإغريق أو فى الهند .

وكان لا بد للابن من نوع من التلقين كما رأينا بالنسبة للمرأة . وكان يحدث ذلك بعد المولد بفترة وجيزة : اليوم التاسع فى روما ، والعاشر فى بلاد الإغريق ، والعاشر أو الثانى عشر فى الهند (٢) . ففى ذلك اليوم يجمع الوالد الأسرة ويدعو الشهود ويضحى لموقده ويقدم الطفل للآلهة المنزليين . فكانت تحمله

---

(١) ايسخيلوس : حاملات السوائل ٢٦٤ (٢٦٢) . ـ وكذلك فى أوريبيديس (الفينيقيات ١٦) يطلب لايوس إلى ابولون أن يهبه أطفالا ذكوراً

Παίδων ἀρσένων κοινωνίαν

(٢) ارسطوفانيس : الطيور ٩٢٢ . ديموشينيس *In Baeot. de dote*, 28 . ماكروبوس ساتورناليا ١ : ١٧ . قوانين مانو ٢ : ٣٠ .

امرأة بين ذراعيها وتطوف به وهى تجرى حول النار المقدسة عدة مرات (١). وكان الغرض المزدوج من هذا الاحتفال هو أولا تطهير الطفل (٢) أى أن يماط عنه الدنس الذى كان يظن القدماء أنه قد لحقه بمجرد عملية الحمل، ثم تلقينه العبادة المنزلية. وابتداء من تلك اللحظة يصبح الطفل مقبولا فى هذا النوع من الجماعة المقدسة والملة الصغيرة التى كانوا يسمونها الأسرة. إذ أصبح حائزاً لديانتها وقائماً بشعائرها وأهلا لتلاوة أدعيتها؛ كان يكرم الأسلاف ولا بد من أن يصبح هو ذاته، فيما بعد، سلفاً مكرماً.

---

(١) أفلاطون ثيأتيتوس *(Thééthète)*. ليسياس استشهد به هاربوقراتيون تحت لفظ *Ἀμφιδρόμια*

(٢) *Puer lustratur* ماكروبوس: ساتورناليا ١: ١٧

الفصل الرابع

التبنى والتحرير

كان واجب الإبقاء على العبادة المنزلية هو مبدأ شريعة التبنى عند الأقدمين فإن نفس الديانة التى كانت تجبر الإنسان على الزواج ،والتى كانت تقرر الطلاق فى حالة العقم ،والتى كانت تقيم مقام الزوج أحد أقربائه فى حالة العجز الجنسى أو الموت المبكر ، كانت كذلك تقدم للأسرة وسيلة أخيرة لتجنب شقاء الانقراض الذى كانوا يخشونه أشد خشية : تلك الوسيلة هى حق التبنى .

«من لم تهبه الطبيعة ابناً يستطع أن يتبنى ولداً كيلا تنقطع الاحتفالات الجنازية » هكذا يتكلم مشرع الهنود القديم (١) . ولدينا دفاع غريب من خطيب أثينى فى قضية كانوا ينازعون فيها ابنا متبنى فى شرعية تبنيه . يرينا المدافع أولا لأى سبب كانوا يتبنون ابنا فيقول :«لم ير منكليس (Méneclès) أن يموت من غير أطفال ؛ فكان متمسكاً بأن يترك من بعده واحدا ليدفنه وليقوم له فيما بعد باحتفالات العبادة الجنازية» . يبين بعد ذلك ما سوف يحدث إذا ألغت المحكمة تبنيه ، لا ما سيحدث له هو ذاته ؛بل ما يحدث لذلك الذى تبناه ؛مات منكليس لكن مصلحة منكليس هى التى فى خطر . «إذا ما أبطلتم تبنـِّى فإنكم تكونون قد جعلتم منكليس يموت دون أن يخلف ابناً من بعده وبالتالى لن يضحى أحد تكريماً له ولن يقدم له أحد الأكلات الجنازية وعلى الجملة فسيصبح من غير عبادة » (٢) .

---

(١) قوانين مانو ٩ : ١٠ .

(٢) إيسيايوس :ميراث منكليس ١٠ : ٤٦ ، ويرى نفس الخطيب فى الدفاع عن ميراث استفيلوس Astyphilos, C 7 رجلا تبنى ابنا قبل موته لكى *ἐπὶ τοὺς βωμοὺς τοὺς πατρῴους βαδιεῖται καὶ τελευτήσαντι αὐτῷ καὶ τοῖς ἐκείνου προγόνοις τὰ νομιζόμενα ποιήσει.*

فالتبنى معناه إذن السهر على دوام العبادة المنزلية وعلى سلامة الموقد واستمرار القرابين الجنازية . لم يكن هناك سبب للتبنى إلا ضرورة توقى انقراض العبادة ، وقد نتج عن ذلك أنه لم يكن مسموحاً به إلا لمن لا ولد له : وقانون الهنود صريح فى هذا الشأن (١) . وقانون أثينا ليس أقل صراحة ، وكل دفاع ديموسثينيس ضد ليوخارس Léocharès دليل على ذلك (٢) . ليس لدينا نص واضح يثبت أن الأمر كان كذلك فى القانون الرومانى القديم . نعرف أنه كان فى استطاعة نفس الرجل فى زمن غايوس أن يكون له أبناء بالطبيعة وأبناء بالتبنى . لكنه يبدو أن هذا الوضع لم يكن مسموحاً به فى القانون فى عصر سيسرون إذ أن الخطيب فى إحدى مرافعاته يتكلم هكذا : « ما هو القانون الذى ينظم التبنى ؟ أليس من اللازم أن يكون المتبنى فى سن لم تعد تسمح له بالحصول على أطفال ، وأن يحاول أن يكون له أطفال قبل التبنى ؟ فالتبنى معناه أن يطلب الإنسان إلى الديانة وإلى القانون ما عجز عن الحصول عليه من الطبيعة (٣) يهاجم سيسرون تبنى كلوديوس معتمداً على أن الرجل الذى تبناه له ابن من قبل وينادى بأن هذا التبنى ضد الشريعة الدينية .

عندما يتبنى الانسان ولداً يجب عليه قبل كل شىء أن يلقنه عبادته ، « أن يدخله فى ديانته المنزلية وأن يقربه من آلهتـه المنزلية (پناتس) » (٤) لذلك كان يعمل التبنى باحتفال مقدس يلوح أنه كان شبيهاً بعض الشبه بالاحتفـال

---

(١) قوانين مانو ٩ : ١٦٨ ، ١٧٤ . داتا كا ساندريكا *Dattaca-sandrica* ترجمة أوريان ص ٢٦٠ .

(٢) أنظر أيضاً إيسايوس : ميراث منكليس ١١ — ١٤ .

(٣) سيسرون: من أجل منزله ١٣ : ١٤ . قارن ما يقوله أولوس جيليوس بخصوص الـ *adrogatio* الذى كان عبارة عن تبنى رجل *homo sui juris* أى رجل له حقوقه الذاتية *arrogationes non temere nec inexplicate committuntur; nam comitia arbitris pontificibus, praebentur; aetasque ejus qui arrogare vult an liberis gignendis idonea sit consideratur* (Aulu-Gelle, V, 19).

(٤) *Ἐπὶ τὰ ἱερὰ ἄγειν* Isée, *De apollod. her.*, 1. *Venire in sacra,* Cicéron, *Pro domo,* 13; *In penates adsciscere,* Tacite, *Hist.*, I, 15.

الذى كان يشهر به مولد الابن . وبذلك كان المولود الجديد يقبل لدى الموقد ويشرك فى الديانة . فالآلهة والأشياء المقدسة والشعائر والأدعية ، كل ذلك يصبح مشتركاً بينه وبين أبيه بالتبنى فيقولون إنه انتقل إلى عبادة أسرته الجديدة *in sacra transiit* (١) .

وبهذا الإجراء ذاته كان يتنازل عن عبادة الأسرة القديمة (٢) . والواقع أننا رأينا أنه طبقاً لهذه العقائد القديمة لم يكن فى استطاعة رجل أن يضحى لموقدين ولا أن يمجد سلسلتين من الأسلاف إذ بقبوله فى بيت جديد يصبح بيت أبيه غريباً عنه . إنه لم يعد هناك شىء مشترك بينه وبين الموقد الذى رآه يولد ولم يعد يستطيع أن يقدم الأكلة الجنازية لأسلافه هو . لقد انقطعت صلة المولد وتغلبت الصلة الجديدة المستمدة من العبادة (٣) . أصبح الرجل غريباً عن أسرته القديمة بحيث أنه إذا مات لا يكلف والده الطبيعى بجنازته والسير أمام موكب دفنه . ولا يستطيع الابن المتبنى أن يعود إلى أسرته القديمة . وقد يسمح له القانون بذلك ، على أكثر تقدير ، إذا كان له ابن وخلفه مكانه فى الأسرة المتبنية إذ كانوا يعتبرون أنه ما دام بقاء هذه الأسرة قد أصبح بذلك مضموناً فإن فى استطاعته الخروج منها . لـكنه فى هذه الحال يفصم كل صلة مع ابنه الذى من دمه(٤).

ويقابل التبنى التحرر كمتعلق به . لـكى يستطيع ابن أن يدخل فى أسرة جديدة كان لابد له بحكم الضرورة أن يستطيع الخروج من أسرته القديمة أى أن

---

(١) فاليريوس ماكسيموس ٧ : ٧ . سيسرون : من أجل منزله ١٣ : *Est heres sacrorum*

(٢) *Amissis sacris paternis,* Cicéron, *Pro domo.*

(٣) Tite-Live, XLV, 40: *Duo filii quos, duobus aliis datis in adoptionem, solos sacrorum heredes retinuerat domi.*

(٤) إيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ٤٥ : ميرات أرسطارخوس ١١ . ديموسثينيس : ضد ليوخاريس ٦٨ . انتيفون القطعة ١٥ . هاربوقراتيون طبعة بكر Bekker ص ١٤٠ — قارن قوانين مانو ٩ : ١٤٢

يكون قد تحرر من ديانتها (١) . كان الأثر الأساسى للتحرير هو التنازل عن عبادة الأسرة التى ولد فيها . وكان الرومان يطلقون على هـــذه العملية اسما ذا دلالة : *sacrorum detestatio* (٢) وعندئذ لا يعد الابن المحرر عضواً فى الأسرة لا من ناحية الديانة ولا من ناحية القانون .

---

(١) *Consuetudo apud antiquos fuit ut qui in familiam transiret prius se abdicaret ab ea in qua natus fuerat*. Servius, *ad Aen.*, II, 156.

(٢) . أولوس جيليوس ١٥ ٢٧ . قارن ما كان يسميه الإغريق : ἀποκήρυξις
أفلاطون : القوانين ١١ ص ٩٢٨ : Ὑπὸ κήρυκος ἐναντίον ἁπάντων ἀπειπεῖν υἱὸν κατὰ νόμον μηκέτι εἶναι
أنظر لوقيانوس ٢٩ : الابن المحروم من الميراث . بوليدوكيس ٤٤ : ٩٣ . هيسيخيوس (Hésychius) تحت لفظ Ἀποκηρυκτὸς

الفصل الخامس

القرابة – ما كان يسميه الرومان أغناسيو (Agnatio) (العصبية)

قال افلاطون إن القرابة هى المشاركة فى نفس الآلهة المنزليين (١). ويقول بلوتارخوس أيضاً أن الأخوين هما الرجلان اللذان يجب عليهما أن يقدما نفس الأضحية وتكون لهما نفس الآلهة الموروثة عن الآباء ويقتسما نفس القبر (٢). وعندما يريد ديموستينيس أن يثبت أن شخصين قريبان يبين أنهما يمارسان نفس العبادة ويقدمان الأكلة الجنازية لنفس القبر. و الواقع أن الديانة المنزلية هى التى تنشىء القرابة. يستطيع رجلان أن يقولا إنهما قريبان إذا كانت لهما نفس الآلهة ونفس الموقد ونفس الأكلة الجنازية.

هذا وقد لاحظنا فيما سبق أن حق تقديم الأضحية للموقد لم يكن ينتقل إلا من ذكر إلى ذكر وكذلك عبادة الموتى لم تكن تؤدى إلا للأصول حسب الذكور. نتج عن هذه القاعدة الدينية أنه لا يمكن أن تكون القرابة عن طريق النساء فقد كان فى رأى هذه الأجيال القديمة أن المرأة لا تنقل الوجود ولا العبادة بل كان الابن يتلقى كل شىء عن الوالد. هذا ولم يكن من المستطاع أن ينتمى الشخص إلى أسرتين وأن يدعو موقدين. فلم يكن الابن إذن من ديانة غير ديانة الأب، أو أسرة غير أسرته (٣). كيف يمكن أن تكون له أسرة من ناحية الأم ؟ إن أمه نفسها قد تنازلت، منذ اليوم الذى تمت فيه شعائر الزواج المقدسة، عن أسرتها الأصلية بصفة قاطعة. ومنذ ذلك الوقت وهى تقدم الأكلة الجنازية إلى أسلاف الزوج كما لو كانت قد أصبحت ابنتهم ولم تعد تقدمها لأسلافها هى

---

(١) افلاطون: القوانين ٥ ص ٧٢٩ : *Ξυγγένεια ὁμογνίων θεῶν κοινωνία*

(٢) بلوتارخوس: الحب ٧

(٣) *Patris, non matris familiam sequitur* ديجست: السفر ٥ . الباب ١٤ الفقرة ١٩٦ .

لأنها لم تعد تعتبر منحدرة منهم . إنها لم تعد تحتفظ بصلة دينية ولا بصلة شرعية مع الأسرة التي ولدت فيها ؛ وبالأولى ، لم يكن هناك شيء مشترك بين ابنها وبين هذه الأسرة .

لم تكن عملية المولد المادية هي مبدأ القرابة بل كان هذا المبدأ قائماً على العبادة . ويرى هذا واضحاً في الهند : هناك يقدم رئيس الأسرة الأكلة الجنازية مرتين في الشهر فيقدم كعكة لروح والده وأخرى لجده لأبيه وثالثة لجد والده ، ولا يقدم إطلاقاً للذين ينحدر منهم عن طريق النساء . ثم يصعد في سلسلة النسب ، ولكن دائماً في نفس الاتجاه ، فيقدم قرباناً لأجداده الرابع والخامس والسادس ، غير أن القربان لهؤلاء أخف مما كان عليه للسابقين فهو مجرد إراقة الماء وبضع حبات من الأرز : تلك هي الأكلة الجنازية . ولا تعد القرابة إلا من واقع القيام بهذه الشعائر . فإذا استطاع رجلان ، يقوم كل منهما بالأكلات الجنازية على حدة ، أن يجدا ، عندما يصعد كل منهما في سلسلة أسلافه الستة ، واحداً منهم مشتركاً بينهما فإن هذين الرجلين قريبان ، ويتسميان ساماتوداكاس *samanodacas* إذا كان السلف المشترك بينهما من أولئك الذين لا يقدم لهم غير إراقة الماء وساپنداس *sapindas* إذا كان ممن يقدم لهم الكعك(١) فإذا حسبنا طبقاً لعاداتنا ، فإن القرابة بين الساپنداس تذهب إلى الطبقة السابعة وبين السمانوداكاس إلى الرابعة عشرة (٢) . وتعرف القرابة في هذه الحال أو تلك من تقديم القربان لنفس السلف . وهكذا نرى أنه لا يمكن في هذا النظام قبول القرابة عن طريق النساء .

وكذلك كان في الغرب : وقد كثر النقاش فيما كان يقصده الفقهاء الرومانيون بكلمة أغناسيو *agnatio* لكن المعضلة تصبح هينة الحل إذا ما قارنا الأغناسيو *agnatio* بالديانة المنزلية . فما دامت الديانة لا تنتقل إلا من ذكر

---

(١) قوانين مانو ٥ : ٦٠ . ميتا كخارا ترجمة أوريان ص ٢١٣ .

(٢) يقصد الطريقة المنصوص عنها في المادة ٣٣٨ من القانون المدني الفرنسي ونصها كالآتي في الحواشي تحسب الطبقات بالأجيال من أحد الأقرباء حتى الأصل المشترك ودون أن يحسب هذا الأخير وابتداء من هذا الأخير إلى القريب الآخر فيكون الأخوان في الطبقة الثانية ، والعم وابن الأخ في الطبقة الثالثة ، وأبناء العم الأولون في الرابعة وهكذا – المعرب .

إلى ذكر فإنه لن يستطيع رجلان ، بإقرار جميع الفقهاء القدماء ، أن يكونا أغناسيين فيما بينهما إلا إذا وجدا ، وهما يصعدان فى عمود النسب ذكراً عن ذكر ، أسلافاً مشتركين بينهما (١) . فالقاعدة إذن فيما يختص بالأغناسيو هى نفس القاعدة الخاصة بالعبادة . كانت هناك صلة واضحة بين الموضوعين ولم تكن الأغناسيو شيئاً سوى القرابة كما أقرتها الديانة فى الأصل (٢) .

ولكى نجعل هذه الحقيقة أكثر وضوحاً يجدر أن نرسم جدولا لأسرة رومانية

لوقيوس قورنيليوس سقيپيو (مات حوالى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد)

پوبليوس قورنيليوس سقيپيو — غنيوس قورنيليوس سقيپيو

پوبليوس قورنيليوس سقيپيو أفريقانوس — لوقيوس قورنيليوس سقيپيو — پوبليوس قورنيليوس سقيپيو نازيقا

پوبليوس قورنيليوس سقيپيو — قورنيليا تزوجت سمپرونيوس غراقخوس — لوقيوس قورنيليوس سقيپيو أسياتيقوس — پوبليوس قورنيليوس سقيپيو نازيقا قورقولوم

پوبليوس قورنيليوس سقيپيو إيميليانوس (ولد فى أسرة إيميليا ودخل بطريق التبنى فى أسرة قورنيليا) — طيبريوس وغايوس غراقخوس — لوقيوس قورنيلوس سقيپيو أسياتيقوس — پوبليوس قورنيليوس سقيپيو نازيقا سيراپيو

(١) Gaius I, 156: *Sunt agnati per virilis sexus personas cognatione juncti, veluti frater ex eodem patre natus, fratris filius, neposve ex eo, item patruus et patrui filius et nepos ex eo*. Id., III, 10. Ulpien. XXVI *Institutes de Justinien*, III, 2.

(٢) القرابة عن طريق الذكور *agnatio* هى العصبية فى اللغة العربية ويقال عن الرجل عاصب وجمعها عصبة . أما ما يسمى *cognatio* فهى القرابة الطبيعية قرابة الدم وسنستعمل هذه الألفاظ فى التعريب بدلا من الألفاظ اللاتينية . المعرب .

فى هذا الجدول أربعــة أشخاص يمثلون الجيــل الخامس الذى كان يعيش حوالى سنة ١٤٠ قبل الميلاد . فهل كانوا جميعاً أقارب فيما بينهم . كانوا كذلك طبقاً لآرائنا الحديثة ، لـكنهم لم يكونوا جميعاً أقرباء فى رأى الرومان. فلنبحث إذن فيما إذا كانت لهم نفس الديانة المنزلية أى فيما إذا كانوا يقربون القرابين لنفس الأسـلاف . لنفرض أن سقيبيو أسياتيقوس الثالث الذى بقى وحده من فرعه يقدم الأكلة الجنازية فى اليوم المعين ؛ فإذا صعد عمود النسب من ذكر إلى ذكر وجد أن سلفه الثالث هو پوبليوس سقيپيو . وكذلك سقيپيو إميليانوس بينما يقدم ضحية يجد فى سلسلة أسلافه نفس پوبليوس سقيپيو هذا . فيكون سقيپيو أسياتيقوس وسقيپيو إيميليانوس قريبين فيما بينهما . ولو كانا عند الهنود لسموهما *sapindas*

ومن ناحية أخرى ، السلف الرابع لسقيپيو سيراپيو هو لوقيوس قورنيليوس سقيپيو وهو أيضاً السلف الرابع لسقيپيو إيميليانوس فهما إذن قريبان فيما بينهما ولو كانا عند الهنود لسموهما *samanodacas* . فى لغة روما الشرعية والدينية هؤلاء السقيپيو يسمون أغناسين (عصبة) فالأولان أغناسيان (عاصبان) فيما بينهما للدرجة السادسة ، والثالث أغناسى (عاصب) معهما فى الدرجة الثامنة .

وليس الأمر كذلك فيما يختص بطيبريوس غراقخوس فإن هذا الرجل الذى يعد طبقاً لعادتنا الحديثة أقرب الأقربين لسقيپبو إيميليـانوس لم يكن حتى من أقربائه الأبعدين فى الدرجة . والواقع أنه لا يهم طيبريوس إلا قليلا أن يكون ابن قورنيليا ابنة آل سقيپيو ؛ فلا هو ولا قورنيليا ذاتها ينتمى إلى هذه الأسرة عن طريق الدين . فليس له أسلاف غير آل سمبرونيوس . فسقيپيو إيمليانوس وطيبريوس غراقخوس ليساعاصبين أذن ، لأن صلة الدم لا تكفى لإقرار هذه القرابة إذ لا بد من صلة العبادة .

ومن هذا نفهم لماذا كان الأخوان لأب عاصبين فى نظر القانون الرومانى ولم يكن كذلك الأخوان لأم . بل لا يقولن أحد أن التناسل عن طريق الذكور كان هو المبدأ الثابت الذى تأسست عليه القرابة . فإن التعرف الحقيقى على العصبة لم يكن عن طريق المولد بل عن طريق العبادة. والواقع أن الابن الذى فصله التحرر

عن العبادة لا يعود عاصباً مع أبيه ؛ والغريب الذى تبنوه أى قبلوه فى العبادة يصبح عاصباً مع من تبناه ومع أسرته كلها : إلى هذه القدر كان صحيحاً أن الديانة هى التى تعين القرابة .

لا ريب أنه جاء على الهند وبلاد الإغريق ، كما جاء على روما ، زمن لم تكن فيه القرابة عن طريق العبادة هى القرابة الوحيدة المقبولة . فإنه كلما ضعفت هذه الديانة القديمة كلما ارتفع صوت الدم وأصبحت القرابة عن طريق الدم معترفاً بها ، وكان الرومان يسمون كوغناسيو *cognatio* هذا النوع من القرابة الذى كان مستقلا تمام الاستقلال عن قواعد الديانة المنزلية . عندما نقرأ الفقهاء منذ سيسرون إلى جوستينيانوس نرى طريقتى القرابة تتنافسان وتتنازعان ميدان الشريعة . ولـكن فى زمن اللوحات الإثنتى عشرة كانت القرابة الوحيدة المعروفة هى الأغناسيو (العصبية) وهى دون سواها التى تمنح الحق فى الميراث . وسنرى فيما بعد أنه كان كذلك عند الإغريق .

الفصل السادس

حق التملك

ها هوذا نظام من أنظمة القدماء يجب ألا نتصوره طبقاً لما نراه حولنا فقد أسس القدماء حق التملك على مبادىء لم يعد معمولا بها فى الأجيال الحاضرة ونتج عن ذلك أن القوانين التى جعلوها ضماناً له كانت تختلف اختلافاً محسوسا عما لدينا.

من المعروف أن هناك أجناساً لم تصل قط إلى إقامة الملكية الخاصة لديها وأخرى وصلت إلى ذلك مع مضى الزمن وبعناء. والواقع أنه ليس بالأمر الهين أن نعرف ما إذا كان فى استطاعة الفرد عند نشأة المجتمع أن يتملك الأرض وأن يقيم صلة قوية بين شخصه وبين جزء من الأرض بحيث يستطيع أن يقول: هذه الأرض لى، هذه الأرض بمثابة جزء منى. فالتتار يتصورون حق التملك حينما يتعلق بالقطعان ثم لا يفهمونه عندما يتعلق بالأرض.

وعند قدماء الجرمان، تبعاً لبعض المؤلفين، لم تكن الأرض ملكاً لأحد ففى كل عام كانت تعين القبيلة لكل واحد من أعضائها نصيباً يزرعه ويبدلون الأنصبة فى العام التالى. فكان الجرمانى مالكاً للمحصول ولم يكن مالكاً للأرض. ولا يزال الأمر كذلك لدى جزء من الجنس السامى ولدى بعض الشعوب الصقلبية (السلافية).

وعلى عكس ذلك شعوب بلاد الإغريق وإيطاليا فقد عرفت التملك الفردى ومارسته دائماً منذ أقدم العصور. ولم تبق أية ذكرى تاريخية عن عصر كانت الأرض فيه مشاعاً (١). كما أننا لانرى لديهم شيئا يشبه تلك القسمة السنوية للحقول التى أشير

(١) أبدى بعض المؤرخين رأيا مفاده أن الملكية فى روما كانت فى البدء عامة ولم تصبح خاصة إلا فى حكم نوما. ومصدر هذه الغلطة تفسير خاطىء لثلاثة نصوص فى بلوتارخوس (نوما ١٦) وسيسرون (الجمهورية ٢ : ١٤) وديونيسيوس (٢ : ٤ ٧). والواقع أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة يقولون إن نوما وزع بعض الأراضى على المواطنين لكنهم يبينون بوضوح جداً أنه لم يقم بهذا التقسيم إلا بالنسبة للأراضى التى أضافتها فتوحات سلفه الأخيرة إلى الأراضى الرومانية الأولى *agri quos bello Romulus ceperat* أما الـ *ager Romanus* أى الأرض التى تحيط بروما على بعد خمسة أميال (استرابون ٥ : ٣ : ٢) فكانت ملكا خاصاً منذ نشأة المدينة. أنظر ديونيسيوس ٢ : ٧ ؛ فارون : الفلاحة ١ : ١٠ ؛ نونيوس ماركيلوس طبعة Quicherat ص ٦١

إليها عند الجرمان . بل إن هناك حدثاً جديراً بالملاحظة . فبينما الأجناس التى لا تمنح الفرد تملك الأرض تمنحه على الأقل تملك ثمار عمله أى محصولها كان الأمر على العكس عند الإغريق، فى بعض المدن كان يفرض على المواطنين أن يجعلوا محصولهم أو على الأقل الجزء الأكبر منه مشاعاً ويتحتم عليهم أن يستهلكوه بالمشاركة (١) ، لم يكن الفرد إذن سيداً مطلقاً على القمح الذى حصده لكنه فى نفس الوقت ، وفى هذا تناقض جد جدير بالملاحظة ، كان له التملك المطلق على الأرض . كانت الأرض ملكاً له أكثر من المحصول . ويلوح أن فكرة حق التملك قد سلكت لدى الإغريق مسلكاً مضاداً كل التضاد للمسلك الذى يبدو طبيعياً . فإن هذا الحق لم يطبق أولا على المحصول ثم على الأرض بعد ذلك بل اتبع فى ذلك الترتيب العكسى .

هناك ثلاثة أشياء نجدها ، منذ أقدم العصور ، موسسة وثيقة القرار فى هذه الجماعات الإغريقية والإيطالية : الديانة المنزلية والأسرة وحق التملك . ثلاثة أشياء كان بينها منذ البدء علاقة بينه ويبدو أنها كانت غير قابلة للانفصال .

كانت فكرة الملكية الخاصة فى جوهر الديانة ، فكان لكل أسرة موقدها وأسلافها ولا يمكن لسواها أن يعبد هذه الآلهة، وهى أيضا لا تحمى سواها فقد كانت ملكاً لها .

هذا وكان الناس فى العصور القديمة يرون بين هذه الآلهة وبين الأرض صلة خفية . فلنأخذ الموقد أولا : هذا المذبح هو رمز الحياة المستقرة . واسمه وحده يدل على ذلك (٢) . ويجب أن يوضع على الأرض ، ومتى وضع لا يمكن أن ينقل من موضعه فإن إله الأسرة يريد أن يكون له سكن ثابت . فمن الناحية

---

(١) وهكذا كان كل واحد فى اقريطيش (كريت) يعطى للأكلات المشتركة عشر محصول أرضه (أثينايوس Athénée ٤ : ٢٢) . وكذلك فى اسبرطه كان على كل فرد أن يقدم من ماله الخاص كمية معينة من الدقيق والخمر والثمار لنفقات المائدة المشتركة (أرسطو : السياسة ٢ : ٧ طبعة ديدو ص ٥١٥ ؛ بلوتارخوس : ليكورغ ١٢ ؛ ديكاى أرخوس Dicearque فى أثينايوس ٤ : ١٠) .

(٢) *Ἑστία, ἵστημι, stare* . أنظر بلوتارخوس *De primo frigido*, 21 ماكروبوس ١ : ٢٣ أوفيديوس : الأعياد ٦ : ٢٩٩

المادية كان يصعب نقل الحجر الذى يتأجج فوقه . أما من الناحية الدينية فإن نقله أصعب من ذلك بكثير وليس مسموحاً به للإنسان إلا إذا اضطرته الحاجة القاسية، إذا طرده عدو أو إذا لم تستطع الأرض أن تغذيه . عندما يوضع الموقد فإنما يوضع مع الاعتقاد والرجاء بأنه سيبقى دائماً فى نفس هذا المكان . فيقيم الإله هناك لا ليوم ولا لمدى حياة رجل فحسب بل لكل الزمن الذى تبقى فيه هذه الأسرة وما بقى أحد لكى يحافظ على لهيبه بالضحية . وهكذا يتملك الموقد الأرض . إنه يجعل هذه البقعة من الأرض له . إنها ملك له .

والأسرة التى تبقى على الدوام مجتمعة حول مذبحها بحكم الواجب وبحكم الدين تثبت فى الأرض كالمذبح ذاته. وتجىء فكرة المسكن المستقر مجيئاً طبيعياً : فالأسرة مرتبطة بالموقد والموقد مرتبط بالأرض وبذلك تستقر صلة وثيقة بين الأرض وبين الأسرة : هناك يجب أن يكون مسكنها الدائم الذى لن تفكر فى تركه إلا إذا أجبرتها على ذلك قوة عليا. فهى كالموقد تحتل هذا المكان على الدوام إن هذا المكان لها . إنه ملكها . وليس ملك لرجل بمفرده بل لأسرة يجب أن يأتى أعضاؤها المختلفون الواحد تلو الآخر يولدون ويموتون فى هذا المكان.

لنتتبع آراء القدماء . فإن موقدين يمثلان آلهة متباينة لا تتحد ولا تختلط أبداً وإن ذلك لمن الحقيقة حتى أن الزواج بين أسرتين لا يقيم تحالفاً بين آلهتهما . يجب أن يكون الموقد منعزلا أى منفصلا انفصالا بيناً عن كل ما عداه يجب ألا يقترب منه الأجنبى فى اللحظة التى تقام فيها احتفالات العبادة بل ألا يلقى نظرة عليه . لذلك يسمون هؤلاء الآلهة بالآلهة الخفية *μύχια* أو الآلهة الداخلية penates . ولكى تنفذ هذه القاعدة الدينية تنفيذاً حسناً يجب أن يكون هناك سور حول الموقد على مسافة معينة . وليس بذى بال أن يكون حاجزاً من الشجيرات أو حاجزاً من الخشب أو حائطاً من الحجر مهما يكن فإنه يبين الحد الذى يفصل منطقة موقد عن منطقة موقد آخر . هذا السور

يعد مقدساً (١) . ومن الإثم أن يتخطاه أحد . فإن الإله يسهر عليه ويضعه تحت حراسته . ولذا ينعتون هذا الاله ἑρκεῖος (٢).هذا السور الذى ترسمه الديانة وتحميه هو أضمن رمز لحق التملك ودليله الذى لا يرد .

ولننتقل إلى العصور الأولى للجنس الآرى . الحرم المقدس الذى يسميه الأغريق ἕρκος هو الحوز الممتد إلى حد ما الذى فيه بيت الأسرة وقطعانها والحقل الصغير الذى تزرعه ، وفى الوسط يقوم الموقد الحامى. ولنهبط إلى العصور التالية : وصلت الشعوب إلى بلاد الإغريق وإيطاليا وبنت مدناً . واقتربت المساكن متلاصقة . ولا يزال السور المقدس موجوداً لكنه على نسب أقل فيقتصر فى كثير من الأحيان على حائط صغير أو على حفرة أو على خط مشقوق أو على مجرد نطاق من الأرض يبلغ عرضه بضعة أقدام . وفى جميع الأحوال لا يجوز لمسكنين أن يتماسا فالحائط المشترك يعتبر شيئاً مستحيلا إذ لا يمكن أن يكون نفس الجدار مشتركاً بين منزلين لأنه فى هذه الحال يختفى سور الآلهة المنزلية المقدس . فى روما يحدد القانون عرض المسافة الحرة التى يجب أن تفصل دائماً بين منزلين بقدمين ونصف ، وهذه المسافة مخصصة « لإله السور» (٣) .

---

(١) Ἕρκος ἱερὸν Sophocle, *Trachin.* 606

(٢) فى العصر الذى كادت الديانة الأكثر بهاء ، وهى ديانة زوس ، أن تمحو فيه هذه العبادة والذى جمعوا فيه بين زوس وبين معبود الموقد اتخذ الإله الجديد لنفسه صفة ἑρκεῖος . ولا يقلل هذا من صحة أن الحامى الحقيقى للسور فى الأصل كان هو الإله المنزلى . يشهد بذلك ديونيسيوس الهاليكارناسى (١ : ٦٧) عند ما يقول إن الـ Θεοὶ ἑρκεῖοι هم بذاتهم البناتس . هذا ويتبين ذلك من مقارنة فقرة من بوسانياس (٤ : ١٧) وفقرة من أوريبيدس (الطرواديات ١٧)وفقرة من فرجيليوس (الإنييد :٢ ٥١٤) ؛ فهذه الفقرات الثلاث تشير إلى نفس الحقيقة وترى أن Ζεὺς ἑρκεῖος ما هو إلا الموقد المنزلى .

(٣) فستوس : تحت لفظ *Ambitus* ، فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ٢٢ . سرفيوس تعليقات على الإنييد ٢ : ٤٦٩ .

نتج عن هذه القواعد الدينية القديمة أن الحياة فى المشاع لم تستطع أن تستقر قط . فإن مسكن العشيرة المشتركة (phalanstère) لم يعرف فيها قط . وحتى فيثاغورس لم ينجح فى إقامة أنظمة كانت تقاومها ديانة الناس الباطنية كما أننا لا نجد فى أية فترة من حياة القدماء شيئاً يشبه معيشة المخالطة فى القرية التى كانت عامة فى فى فرنسا فى القرن الثانى عشر . فما دام لكل أسرة آلهتها وعبادتها فلابد أنه كان لها أيضاً مكانها الخاص على الأرض ومسكنها المنعزل أى ملكها .

كان الإغريق يقولون إن الموقد علم الإنسان أن يبنى المنازل (١) . والواقع أن الرجل الذى أثبتته ديانته فى مكان ما يعتقد أنه يتحتم عليه ألا يفارقه قط وسرعان ما فكر فى إقامة بنـــاء ثابت فى ذلك المكان . فالخيمة توافق العربى أما الأسرة التى لها موقد منزلى فلا بد لها من مسكن باق . وسرعان ما حل المنزل المبنى من الحجر محل الكوخ المبنى من الطين أو الخشب . إنهم لم يبنوا لحياة رجل فحسب بل للأسرة التى كان لا بد أن تتعاقب أجيالها فى نفس المسكن .

كان المنزل دائماً بداخل السور المقدس فعند الإغريق كانوا يقسمون المربع الذى يحيط به هذا السور إلى قسمين : فالقسم الأول هو الفناء ، والمنزل يحتل القسم الثانى . وبذلك يكون الموقد، الموضوع فى وسط الحيز الذى يحيطه السور الشامل للجميع ، فى نهاية الفناء وبالقرب من مدخل المنزل . أما فى روما فكان الترتيب مختلفاً لكن المبدأ هو بذاته. فقد بقى الموقد موضوعاً وسط حيز السور لكن المبانى تقوم حوله من الجهات الأربع بحيث يكون محصوراً وسط فناء صغير. ونتبين فى وضوح الفكرة التى أوحت بهذه الطريقة فى البناء . فقد قامت الجدران حول الموقد لتعزله وتحميه . ويمكن القول ، كما كان الإغريق يقولون ، إن الديانة علمت بناء المنزل .

---

(١) ديودوروس ٥ : ٦٨ . روى هذه العقيدة أوستاثيس (Eustathe) الذى يقول إن المنزل خرج من الموقد (أوستاثيس : تعليقات على الأوديسه ١٤ : البيت ١٥٨ ؛ ١٨ : البيت ١٥٦) .

الأسرة فى هذا المنزل هى المهيمنة والمالكة ومعبودها المنزلى هو الذى يضمن حقها؛ والمنزل يقدسه حضور الآلهة الأبدى . أنه المعبد الذى يحفظهم . يقول سيسرون «أى شىء أكثر قداسة من مسكن الإنسان ؛ إن فيه المذبح ؛ وهناك تتوهج النار المقدسة ، وفيه الأقداس والديانة (١) » والدخول إلى هذا المنزل بقصد سىء من الرجس. فقد كان المسكن مصونا لا يمس . وفى إثارة رومانية أن الإله المنزلى كان يصد اللص ويبعد العدو (٢) .

ولننتقل إلى شىء آخر كان كذلك موضعاً للعبادة وهو القبر لكى نرى أن نفس الآراء كانت تلازمه ؛ فقد كانت للقبر أهمية عظيمة فى ديانة القدماء ، إذ من ناحية كان عليهم أن يؤدوا عبادة للسلف ومن ناحية أخرى كان يجب أن تقوم الحفلة الرئيسية فى هذه العبادة ، أى الأكلة الجنازية ، فى نفس المكان الذى يرقد فيه الأسلاف (٣) . لذلك كان للأسرة قبر مشترك لا بد أن يأتى أعضاؤها ليرقدوا فيه الواحد تلو الآخر. وكانت القاعدة فيما يختص بهذا القبر هى نفس القاعدة التى تراعى فيما يختص بالموقد فلم يكن مسموحاً الجمع بين أسرتين فى نفس المدفن كما أنه لم يكن مسموحاً الجمع بين موقدين منزلين فى بيت واحد . وسيان فى الإثم دفن ميت خارج قبر أسرته أو وضع جثمان غريب فى ذلك القبر (٤) . فقد كانت الديانة المنزلية تعزل كل أسرة عن جميع الأسرات الأخرى سواء فى الحياة أو فى الممات . وتقصى بشدة كل مظهر من مظاهر المشاركة . فكما أنه

---

(١) سيسرون : من أجل منزله ٤١ .

(٢) أوفيديوس : الأعياد ٥ : ١٤١ .

(٣) تلك كانت القاعدة القديمة ، على الأقل عند ما كانوا يعتقدون أن الأكلة الجنازية غذاء للميت . أنظر أوريبيدس : الطرواديات ٣٨١ (٣٨٩) .

(٤) سيسرون : القوانين ٢:٢٢ ؛ ٢:٢٦ . غايوس : القواعد *(Instit.)* ٢:٦ ، الديجيست السفر ٤٧ الباب ١٢ . يجب أن نلاحظ كماسنرى فيما بعد أن العبد والمولى كانا جزءاً من الأسرة ويدفنان فى القبر المشترك . وكانوا يخرجون عن القاعدة ، التى تفرض أن يدفن كل شخص فى قبر أسرته ، فى حالة ما إذا منحت المدينة ذاتها الجنازة العامة لأحد الأفراد .

لايجوز أن تتجاور المنازل فإنه لا يجـوز أن تتماس القبور . فكان لـكل واحد منها ، كما كان للمنازل ، نوع من السور العازل .

إلى أى حد كانت صفة الملك الخاص واضحة فى كل ذلك . فالموتى آلهة تتبع أسرة بالذات ولهذه الأسرة وحدها الحق فى دعوتهم . هؤلاء الموتى قد تملـكوا الأرض وهم يعيشون تحت هذا الـكثيب الصغير وما من أحد يستطيع أن يفكر فى الاختـلاط بهم إلا إذا كان من الأسرة . هذا وليس لأحـد الحق فى أن يجردهم من ملـكية الأرض التى يشغلونها . فالقبر عند القدماء لا يمكن أن يهدم ولا أن ينقل . (١) وتحرم ذلك أشد القوانين قسوة . فها هو ذا إذن جزء من الأرض يصبح باسم الدين ملـكاً خالداً لـكل أسرة . لقد تملـكت الأسرة هذه الأرض بوضع موتاها فيها واستقرت هنـاك إلى الأبد : وفى استطاعة الفرع الحى من هذه الأسرة أن يقول من الناحية الشرعية إن هذه الأرض لى : إنها له بحيث لايمكن فصلها عنه ولا حق له فى التنازل عنها . فالأرض التى يرقد فيها الموتى لايمكن التنازل عنها ولا وضع اليد عليها . يحتم القانون الرومانى أنه إذا باعت أسرة الحقل الذى فيه قبرها فإنها تبقى مالـكة لهذا القبر على الأقل ، وتحتفظ إلى الأبد بالحق فى اختراق الحقل لـكى تقوم باحتفالات عبادتها (٢) .

ولم تكن العادة القديمة أن يدفن الموتى فى الجبانات أو على حافتى طريق بل فى حقل كل أسرة . يشهد بهذه العادة ، التى كانت متبعة فى العصور القديمة ، قانون لصولون وعدة فقرات من پلوتارخوس (٣) . نرى فى دفاع لديموسثينيس أنه فى عصره أيضاً كانت كل أسرة تدفن موتاها فى حقلها وعند ما كانوا يشترون ملـكاً فى أتيكا كانوا يجدون فيه مدفن أصحابه الأقدمين (٤) . وفى

---

(١) ليكورغ : ضد ليوقراتيس ٢٥ . كان لا بد لنقل القبر . فى روما ، من تصريح من الأحبار ، بلينيوس : رسائل ١٠ : ٧٣ .

(٢) سيسرون : القوانين ٢ : ٢٤ . ديجيست : السفر ١٨ الباب ١ : ٦ .

(٣) قانون صولون ذكره غايوس فى ديجست ١٠ : ١ : ١٣ . بلوتارخوس : أرستيديس ١ ؛ كيمون ١٩ ؛ ماركيلينوس : حياة ثوقيديديس فقرة ١٧ .

(٤) ديموسثينيس : ضد كاليكليس ١٣ ، ١٤ . وقد وصف ديموسثينيس فى مكان آخر قبر البوسيليين Busélides « كثيب على كل شىء من ، الامتداد وسور حسب العادات القديمة حيث يرقد معا جميع الذين تحدروا من بوسيلوس (ديموسثينيس ، ضد ماكارتاتوس :٧٩)

إيطاليا يشهد بهذه العادة ذاتها قانون اللوحات الإثنتى عشرة ونصوص إثنين من الفقهاء وعبارة لسيقولوس فلاكوس Siculus Flaccus : «كانت هناك فى القديم طريقتان لوضع القبر فكان يضعه بعضهم على حدود الحقل والبعض الآخر فى حوالى منتصفه» (١) .

ومن هذه العادة ندرك أن فكرة التملك قد امتدت بسهولة من الكثيب الصغير الذى كانت ترقد فيه الموتى إلى الحقل الذى يحيط به الكثيب . ونستطيع أن نقرأ فى كتاب كاتون الأكبر صيغة كان يتوسل بها الأكار الإيطالى للأرواح لكى تسهر على حقلة وتحرسه من اللصوص وتجعله ينتج محصولا طيباً . وهكذا كانت أرواح الموتى تمد أثر حمايتها إلى أطراف الأرض المستحوز عليها ، ومع الحماية حق التملك. وهى التى كانت تجعل الأسرة المسيطر الوحيد على هذا الحقل وهكذا أنشأ القبر الارتباط الذى لا ينفصم بين الأسرة والأرض، ألا وهو التملك.

الديانة هى التى أقامت حق التملك لدى معظم الشعوب البدائية . فى التوراة يقول الله لإبراهيم : «أنا الرب الذى أخرجتك من أور الكلدانيين لكى أعطيك هذه الأرض ». ولموسى «سأدخلكم فى الأرض التى أقسمت أن أعطيها لإبراهيم وسأعطيها لكم ميراثاً» . فالله ، وهو المالك الأصلى بحق الخلق ، يفوض للإنسان حق التملك لجزء من الأرض (٢) . ولقد كان هناك شىء مماثل لذلك لدى الشعوب الإغريقية والإيطالية القديمة ا. حقاً إنها لم تكن ديانة چوپيتر التى أسست هذا الحق وقد يكون ذلك لأنها لم تكن قد وجدت

---

(١) سيقولوس فلاكوس طبعة غيز (Goez) ض ٤، ٥ .أنظر القطع الإضافية (طبعة غيز ص ١٤٧ : بومبونيوس فى الديجست السفر ٤٧ الباب ١٢ : ٥ .بولص فى الديجست ٨ : ١ : ١٤ . ديجست ١٩ : ١ : ٥٣ : *si vendidisti, fundum in quo sepulcrum habuisti* ١١ : ٧ : ٢ فقرة ٩ ؛ ١١ : ٧ : ٤٣ و ٤٦

(٢) نفس الإثارة عند الأتروسك :

Cum Jupiter terram Etruriae sibi vindicavit, consituit jussitque metiri campos signarique agros." *Auctores rei agrariae* فى القطعة التى عنوانها *Idem Vegoiae Arrunti* طبعة لاخمان (Lachmann) ص ٣٥٠ .

بعد . إن الآلهة التى منحت كل أسرة حقها على الأرض لهى الآلهة المنزلية والموقد والمانيس . فإن الديانة التى كانت لها السلطان على أرواحهم أولا هى الديانة التى كونت الملكية عندهم .

ومن الواضح وضوحاً بيناً أن التملك الخاص كان نظاماً لا تستطيع الديانة المنزلية أن تستغنى عنه . كانت هذه الديانة تفرض عزل المسكن وعزل المدفن أيضاً . وإذن فقد كانت المشاركة الجماعية فى المعيشة مستحيلة . وكانت نفس الديانة تأمر بأن يكون الموقد ثابتاً فى الأرض وألا يهدم القبر أو ينقل . احذف التملك يصبح الموقد لا مستقر له وتختلط الأسرات ويترك الموتى لا عبادة لهم . فقد تملكت الأسرة الأرض عن طريق الموقد الذى لا يتزحزح والمدفن الدائم . وأنه ليجوز القول بأن الأرض قد تشربت ديانة الموقد والأسلاف وتشبعت بها . وإذن فلم يكن الرجل فى العصور القديمة مكلفاً بحل معضلات تتجاوز الحد فى الصعوبة . لقد وصل دفعة واحدة ، من غير جهد ، وبدون أدنى تردد ، وبفضل عقائده فقط ، إلى فكرة حق التملك ، هذا الحق الذى تخرج منه كل حضارة ؛ إذ عن طريقه يصلح الإنسان الأرض ويصبح هو ذاته أحسن مما كان .

لم تكن القوانين هى التى ضمنت حق الملك أولا وإنما كانت هى الديانة . فكان كل ملك تحت إشراف معبودات منزلية كانت تسهر عليه (١) . وكان يجب أن يحاط كل حقل بسور يفصله فصلا واضحاً عن أملاك الأسرات الأخرى كما رأينا فيما يختص بالمنزل . هذا السور لم يكن حائطاً من الحجر بل كان شريطاً من الأرض يبلغ عرضه بضعة أقدام كان يجب أن يبقى من غير زرع وألا يمسه المحراث ، هذه المساحة كانت مقدسة ويعلن القانون الرومانى أنها غير قابلة لوضع اليد (٢) . إنها للديانة . وفى أيام معينة من الشهر

---

(١) *Lares agri custodes*, Tibulle, I, 1, 23. *Religio Larum posita in fundi villaeque conspectu.* Cicéron, *De legib.*, II, 11.

(٢) سيسرون : القوانين ١ : ٢١ .

أو السنة كان رب الأسرة يطوف بحقله متتبعاً هذا الخط . كان يدفع أمامه الضحية ويغنى الأناشيد ويقدم القرابين (١) . كان يعتقد أنه قد أيقظ بهذا الاحتفال عطف آلهته على حقله وعلى منزله وأبرز ، على الأخص ، حقه فى التملك بالطواف بعبادته المنزلية حول حقله ؛ فالطريق الذى سارت فيه الأضاحى وترتلت فيه الصلوات هو حد الملك الذى لا تمس حرمته .

كانوا يضعون على طول هذا الخط ، وعلى مسافات ، بعضاً من الأحجار الكبيرة أو بعضاً من جذوع الأشجار يسمونها تخوم *termes* . وفى الاستطاعة أن نتبين ماهية هذه التخوم وماهى الأفكار التى كانت تتعلق بها ، من الطريقة التى كانت تقوى الناس تضعها بها فى الأرض . يقول صيقولوس فلاكوس «هاك ما كان يفعله أسلافنا : كانوا يبدأون بحفر حفرة صغيرة ويوقفون التخم على الحافة ويتوجونه بقلائد من العشب والزهر ؛ ثم يقدمون قرباناً . وعند ما يذبحون الأضحية يجعلون دمها يسيل فى الحفرة ويلقون فيها فحماً مشتعلا (من المحتمل أنهم كانوا يوقدونه من النار المقدسة فى الموقد) وحبوباً وكعكاً وفاكهة وقليلا من الخمر والعسل وعندما يحترق كل ذلك فى الحفرة يغرسون الحجر أو قطعة الخشب فى الرماد وهو لا يزال ساخناً .» (٢) ونرى بوضوح أن الغرض من هذا الاحتفال هو جعل التخم كما لو كان ممثلا مقدساً للعبادة المنزلية ، ولكى تستمر هذه الصفة ملازمة له كانوا يجددون العملية المقدسة فى كل عام بسكب السوائل عليه وتلاوة الأدعية : فإن وضع التخم فى الأرض هو بمثابة أن الديانة المنزلية قد غرست فى الأرض لكى تبين أن هذه الأرض أضحت ملكاً للأسرة إلى الأبد . وقد ساعد الشعر على اعتبار التخم ، فيما بعد ، إلها متميزاً عن غيره وله كيانه .

ويبدو أن استعمال التخوم أو الحدود المقدسة للحقول كان عاماً فى الجنس الهندوأوربى . فقد كان موجوداً عند الهنود فى زمن سحيق فى القدم . وكانت

---

(١) كاتون : الفلاحة ١٤١ . *Script. rei agrar.* طبعة غيز Goez ص ٣٠٨ ديونيسيوس الهاليكارناسى ٢ : ٧٤ . أوفيديوس : الأعياد ٢ : ٦٣٩ . استرابون ٥ : ٣

(٢) **Siculus Flaccus,** ***De conditione agrorum,*** **édit. Lachmann, 141; édit. Goez, p. 5.**

بين احتفالات التحديد المقدسة عندهم وبين تلك التى وصفها صيقولوس فى إيطاليا مشابهة كبيرة (١) . وقبل روما نجد التخم عند السابينيين (٢) ونجده أيضاً عند الأتروسك.وكانت الإغريق أيضاً تخوم مقدسة يسمونها ὅροι, θεοὶ ὅροι (٣)

وعندما يوضع التخم طبقاً للشعائر لا تستطيع أية سلطة فى العالم أن تنقله من مكانه . بل لا بد أن يبقى فى نفس المكان على جميع الآباد . وهذا المبدأ الدينى كانو يعبرون عنه فى روماً بالأسطورة التالية: عندما أراد چوپيتر أن يجعل لنفسه مكاناً على جبل الكاپيتول ليتخذ فيه معبداً لم يستطع أن يجرد إله التخم (الحد) من ملكه . وهذه الرواية ترى إلى أى حد كانت الملكية مقدسة ؛ إذ أن التخم الذى لا يمكن أن يزحزح لا يدل على شىء إلا على الملكية التى لا تمس بسوء .

والواقع أن التخم كان يحمى حد الحقل ويسهر عليه ولم يكن يستطيع الجار أن يقترب منه كل الاقتراب : « إذ عندئذ ، كما يقول أوڤيديوس ، يشعر الإله بصدمة سكة المحراث أو الفأس ويصيح : قف هذا حقلى وذاك حقلك ».(٤) ولكى يعتدى امرؤ على حقل أسرة كان لا بد له من قلب التخم أو نقله . وهذا التخم إله ، فالخطيئة فظيعة والعقاب شديد : يقول القانون الرومانى القديم « إذا ما مس الإنسان التخم بسكة محراثه فإن الرجل وثيرانه يكونون للآلهة السفليين نذراً» (٥) ومعنى ذلك أنه كان يضحى بالرجل والثيران عقاباً لهم. وكان القانون الأتروسكى يقول وهو يتكلم باسم الدين: تحكم الآلهة على من يمس التخم أو ينقله . يزول منزله وتنقرض سلالته ، ولن تنتج أرضه ثماراً

---

(١) قوانين مانو ٨ : ٢٤٥ . فريهاسباتى (Vrihaspati) اقتبسه Sicé, *Legislat. hindoue* p. 159

(٢) فاورن : اللسان اللاتينى ٥ : ٧٤ .

(٣) بوليدوكيس ٩ : ٩ . هيسيخيوس ὅρος . أفلاطون: القوانين ٨ ص ٨٤٢ . ترجم بلوتارخوس وديونيسيوس كلمة *terminus* بكلمة ὅρος . هذا وقد كانت الكلمة موجودة فى اللغة الإغريقية أيضاً *Τέρμων* (أوريبيديس : : اليكترا ٩٦) .

(٤) أوفيديوس : الإعياد ٢ : ٦٧٧ .

(٥) Festus, V°. *Terminus*, éd. Müller, p. 363; *Qui terminum exarasset, et ipsum et boves sacros esse.*

ويبيد البرد والصدأ ونيران القيظ محصوله ، وأعضاء جسم المذنب تغطيها القروح وتتآكل حتى تتساقط (١) .

ليس لدينا نص القانون الأثيني عن نفس الموضوع ولم يبق لدينا منه سوى ثلاث كلمات معناها « لا تتجاوز الحد » لكن يلوح أن أفلاطون يكمل فكرة المشرع عندما يقول « يجب أن يكون أول قوانيننا هو ذا : يجب ألا يلمس أحد الحد الذى يفصل بين حقله وحقل جاره إذ لا بد من بقائه ثابتاً ، يجب ألا يفكر أحد فى زحزحة الحجر الصغير الذى يفصل بين الصداقة والعداوة ، ذلك الحجر الذى أقسم الإنسان أن يتركه فى مكانه . » (٢) .

من جميع هذه العادات ومن مجموعة هذه القوانين ينتج بجلاء أن الديانة المنزلية هى التى علمت الإنسان أن يتملك الأرض وهى التى ضمنت له حقه عليها .

ولا يصعب علينا أن نفهم أن حق التملك وقد فهموه هم على هذا الوضع وأقاموه عليه ، كان أكمل فى آثاره وأكثر إطلاقاً مما يمكن أن يكون عليه فى مجتمعاتنا الحديثة التى يقوم فيها على مبادىء أخرى . كان التملك ملازماً للديانة المنزلية إلى حد أنه لم يكن فى استطاعة الأسرة أن تتنازل عن ملكها إلا إذا تنازلت عن دينها ، فكان المنزل أو الحقل بمثابة المندمجين فيها ولم يكن فى استطاعتها أن تفقدهما أو تتنازل عنهما . لم يدع أفلاطون فى رسالته عن القوانين أن يقدم جديداً عندما حرم على المالك أن يبيع حقله : وكل ما عمله أنه كان يذكر بقانون قديم . كل شىء يحمل على الاعتقاد بأن الملك لم يكن قابلا للتنازل فى الأزمنة القديمة . ومن المعروف معرفة واضحة أنه كان محرماً فى اسپرطة بصفة قاطعة أن يبيع الإنسان أرضه (٣) . وكان نفس التحريم مكتوباً فى قوانين لوكر Locres ولوكاديا (Leucade) (٤) . وكان

---

(١) *Script. rei agrar.* édit. Goez, p. 258; éd. Lachmann, p. 351

(٢) أفلاطون : القوانين ٨ ص ٨٤٢ .

(٣) أرسطو : السياسة ٢ : ٦ : ١٠ (طبعة ديدو ص ٥١٢) . هيراقليديس البنطى : قطع من المؤرخين الأغريق (طبعه ديدو ج ٢ ص ٢١١) . بلوتارخوس : الأنظمة اللاكونية ٢٢ .

(٤) أرسطو : السياسة ٢ : ٤ : ٤ .

فيدون القورنثى من مشرعى القرن التاسع يأمر بأن يبقى عدد الأسرات والأملاك لا يلحقه تغيير (١) . وهذا أمر لا يمكن مراعاته إلا إذا كان محرماً على كل أسرة أن تبيع أرضها أو حتى أن تقسمها . أما قانون صولون وهو متأخر عن قانون فيدون القورنثى بسبعة أجيال أو ثمانية فلم يعد يحرم على الانسان أن يبيع ملكه لكنه كان يفرض على البائع عقاباً صارماً ألا وهو فقدان حقوق المواطنين (٢) وأخيراً يخبرنا أرسطو بصفة عامة أن التشريعات القديمة فى كثير من المدن كانت تحرم بيع الأراضى (٣) .

قوانين كهذه يجب ألا تثير الدهشة فى نفوسنا . فلنؤسس التملك على حق العمل وعندئذ يستطيع الإنسان أن يتنازل عنه . ثم لنؤسسه على الديانة إنه لن يستطيع ذلك ، إذ أن صلة أقوى من إرادة الإنسان تجمع بينه وبين الأرض . فضلا عن أن هذا الحقل الذى يحتوى على القبر الذى يعيش فيه الأسلاف المؤلهون والذى يجب على الأسرة أن تقوم فيه بعبادة إلى الأبد، هذا الحقل ليس ملكاً للفرد وحده بل للأسرة بأكملها . ليس الفرد الذى يعيش الآن هو الذى مكن حقه فى هذه الأرض

---

(١) أرسطو : السياسة ٢ : ٣ : ٧ . لم يكن هذا القانون من جانب الشارع القديم يرمى إلى المساواة فى المال ، إذ أن أرسطو يضيف : «ولو أن الأملاك لم تكن متساوية» ، بل كان يرمى فقط إلى المحافظة على الملك فى الأسرة . وفى ثيبه أيضاً كان عدد الأملاك ثابتاً . أرسطو : السياسة ٢ : ٩ : ٧ .

(٢) كان يعاقب الرجل الذى تنازل عن ملكه الموروث *ὁ τὰ πατρῷα κατεδηδοκὼς* بعقوبة التجريد من الحقوق *ἀτιμία* أيسخينيس (Eschine) ضد تيمارخوس ٣٠ ؛ ديوجينيس لاإرتيوس (Laerce) : صولون ١ : ٥٥ . ومن المؤكد أن هذا القانون لم يكن مرعيا فى عصر ايسخينوس لكنه كان قائماً من حيث الشكل كأثر من القاعدة القديمة . فكانت هناك دائماً *δίκη κατεδηδοκέναι τὰ πατρῷα* (Bekker, *Anecdota* p. 199 et 310).

(٣) Aristote, *Polit.* VI, 2, 5: *Ἦν τὸ γ᾽ἀρχαῖον ἐν πολλαῖς πόλεσι νενομοθετημένον μὴ πωλεῖν ἐξεῖναι τοὺς πατρῴους*(alias *πρώτους*)*κλήρους*.

إن الإله المنزلى هو الذى فعل ذلك وليست الأرض فى يد الفرد إلا وديعة ؛ إنها ملك لأولئك الذين ماتوا وللذين سيولدون. إنها متصلة أوثق اتصال بهذه الأسرة ولم يعد فى الاستطاعة أن تفصل عنها . فإن فصل الواحدة عن الأخرى معناه تغيير العبادة وإغضاب الدين . كما أن التملك عند الهنود كان مؤسساً على العبادة وكان بدوره غير قابل للتنازل (١) .

إنا لا نعرف القانون الرومانى إلا ابتداء من اللوحات الإثنى عشرة ؛ ومن الواضح أن بيع الملك كان مسموحاً به فى تلك الفترة . ولكن هناك أسباباً تدعو إلى الاعتقاد بأن الأرض فى الزمن الأول لروما، وفى إيطاليا قبل وجود روما ، لم تكن قابلة للتنازل عنها ؛ وذلك كما كانت عليه الحال فى بلاد الإغريق. ولو أنه لم يبق أى شاهد على هذا القانون القديم إلا أننا نستطيع على الأقل أن نميز أوجه التيسير التى أدخلت عليه شيئاً فشيئاً. فإن قانون اللوحات الإثنى عشرة عند ما ترك للقبر ميزة عدم التنازل جرد الحقل منها . ثم سمحوا فيما بعد بتقسيم الملك إذا كان هناك عدة أخوة ولكن على شرط القيام باحتفال دينى جديد : فإن الديانة وحدها هى التى تستطيع أن تقسم ما قررت الديانة فيما سبق أنه غير قابل للقسمة . وأخيراً سمحوا ببيع الملك . لكن كان لا بد لذلك من إجراءات ذات صبغة دينية . لم يكن من المستطاع أن يقع البيع إلا فى حضور الـ *libripens* (٢) ومع القيام بجميع شعائر الـ *mancipatio* (٣) الرمزية. ويرى شىء شبيه

---

(١) سيتا كخارا ترجمة أوريان ص ٥٠ . اختفت هذه القاعدة شيئاً فشيئاً عند ما تغلبت البراهمانية .

(٢) معناها الوزان . وهو من يمسك الميزان فى البيوع الصورية ويتظاهر بأنه يزن النحاس الذى يمثل ثمن الشىء المبيع تمثيلا صورياً - المعرب .

(٣) هو وضع الشخص يده على الشىء بحضور خمسة شهود ليحصل على حق الملك على ذلك الشىء وفى نفس الوقت يضرب الميزان الذى يقبض عليه الوزان بقطعة من العملة . وهو من الإجراءات الرمزية فى القانون الرومانى — المعرب

بذلك فى بلاد الإغريق فقد كان بيع منزل أو عقار يصحبه قربان للآلهة (١). ويلوح أن كل نقل للملكية كان لابد أن يكون مسموحا به من الدين.

إذا لم يكن فى استطاعة المرء أن يتنازل عن أرضه أو لم يكن يستطيعه إلا بصعوبة فمن باب أولى لم يكن بمستطاع أن يجرد منها بالرغم منه. فكان نزع الملكية بسبب المنفعة العامة مجهولا عند الأقدمين. ولم تكن المصادرة معمولا بها إلا كنتيجة لحكم بالنفى (٢)، أى عند ما يجرد الإنسان من لقبه كمواطن فلا يستطيع أن يزاول أى حق على أرض المدينة. وكذلك نزع الملكية من أجل الديون فإننا لا نصادفه قط فى الشرع القديم للمدن (٣). حقاً إن قانون اللوحات الإثنتى عشرة لا يترفق بالمدين ومع ذلك لم يكن يسمح بمصادرة ملكه لمصلحة الدائن. فجسم الرجل هو الذى يقابل دينه وليست أرضه، إذ أن الأرض لا تنفصل عن الأسرة. فكان أسهل أن يسترق الإنسان من أن ينتزع منه حق التملك الذى كان يتبع أسرته أكثر مما كان يتبعه؛ كان المدين يوضع فى يد دائنه والأرض تتبعه فى عبوديته بطريقة ما. والسيد الذى كان يستغل

---

(١) قطعة من ثيوفراطوس رواها ستوبايوس. Stobée, *Serm.*, 42

(٢) اختفت هذه القاعدة فى عصر الديمقراطيات فى المدن.

(٣) كان لدى الإليين *(Eléens)* قانون يحرم رهن الأرض (أرسطو : السياسة ٧ : ٢). وكان الرهن مجهولا فى القانون القديم فى روما. وما يقال عن الرهن فى القانون الأثينى قبل صولون يعتمد على كلمة من بلوتارخوس فهمت خطأ. فان المصطلح ὅρος الذى يدل فيما بعد على الحد الرهنى كان يدل فى عصر صولون على التخم المقدس الذى كان شارة على حق الملك. أنظر أدناه الكتاب الرابع الفصل السادس. ولم يظهر الرهن فى الشرع الأثينى إلا فيما بعد، وفى صورة البيع الوفائى بشرط الشراء من جديد فقط.

قوى الرجـل الجسمانية لمصلحتـه كان يتمتع كذلك بثمار الأرض لـكنه لا يصبح مالـكاً لها . إلى هذا الحـد كان حق التملك فوق كل شىء ، مصـاناً لا يمس بسوء (١)

(١) نقرأ فى المـادة الخـاصة بالمدين العـاجز عن الوفاء فى قانون الوحات الإثنتى عشرة *Si volet suo vivito* و إذن لا يزال المدين محتفظاً لنفسه ببعض الشئ بعد أن كاد يصبح عبـداً . فملـكه ، إذا كان له ملك ، لم ينزع منه . والترتيبات المعروفة فى القانون الرومانى باسم *mancipation avec fiducie* والمعروفة باسم **pignus** كانت قبل الدعوى السرفية *action servienne* وسائل ملتوية تضمن للدائن دفع دينه ، وتدل بطريق غير مباشر على أن نزع الملـكية من أجل الديون لم يكن موجوداً . وكان لابد فيما بعد ، عند ما أبطلوا الإلزام الجسمانى من إيجاد وسيلة لوضع اليد على أملاك المدين ولم يـكن ذلك بالأمر اليسير . لـكن التمييز الذى كانوا يميزونه بين التملك والحيازة كان يمدهم بوسيلة . فقد حصـل الدائن من الـ préteur على حق بيع ما للمدين *bona* وليس بيع الملك *dominium*. وعندئذ فقط فقد المدين التمتع بملكه عن طريق نزع الملـكية المستتر .

......نظام *mancipation avec fiducie* هو أن ينقل المرء حق ملـكه على شىء ما بطريق الـ mancipatio وتعهد المشترى برد الشىء عند الوفاء بالدين المضمون به (بيع الوفاء) - الـ *pignus* هو أن ينقل صاحب الشئ لصاحب الدين حيازة الشىء دون الملكية. الدعوى السرفية هى دعوى من الدعاوى العينية تمكن مؤجر الأطيان العقارية من الحصول على إيجار أطيانه باعطائه حق الرهن على منقولات المؤجر له إذا لم تكن هذه المنقولات قد سلمت له من قبل على سبيل الرهن - المعرب

الفصل السابع

حق الإرث

١ – طبيعة حق الإرث عند الأقدمين والمبدأ الذى قام عليه

حيث إن حق الملك إنما أنشىء للقيام بعبادة متوارثة فلم يكن من الجائز أن يندثر هذا الحق بعد الحياة القصيرة التى يحياها الفرد . فإن الإنسان يموت وتبقى العبادة ، إذ يجب ألا ينطفىء الموقد أو يهجر القبر . وما دامت الديانة المنزلية قائمة فإنه يجب أن يستمر معها حق الملك .

هناك شيئان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً فى عقائد الأقدمين كما هى فى قوانينهم ألا وهما : عبادة الأسرة وملك الأسرة . لذلك كانت فى القانون الإغريقى ، كما فى القانون الرومانى ، قاعدة لا استثناء فيها وهى أنه لا يمكن الحصول على الملك بدون العبادة ولا القيام بالعبادة بدون الملك . يقول سيسرون : «تفرض الديانة أن تكون ممتلكات كل أسرة غير قابلة للانفصال عن عبادتها وأن تكون العناية بالقرابين من نصيب من يعود إليه الميراث دائماً» (١) . أما فى أثينا فها هى ذى العبارات التى يستعملها صاحب الدعوى للمطالبة بميراث «تدبروا جيدا أيها القضاة وقولوا أيهما يجب أن يرث أملاك فيلوكتيمون Philoctémon وأن يقدم

(١) سيسرون : القوانين ٢ : ١٩ – ٢٠ . لقد بلغ من أهمية الأشياء المقدسة *sacra* أن كتب الفقيه غايوس هذه الفقرة الغربية :
Quare autem tam improba possessio et usucapio concessa sit, illa ratio est quod voluerunt veteres maturius hereditates adiri, ut essent qui sacra facerent, quorum illis temporibus summa observatio fuit (Gaius, II, 55).—Festus, v° *Everriator* (éd. Müller, p. 77). *Everriator vocatur qui, accepta hereditate, justa facere defuncto debet: Si non fecerit, suo capite luat.*

القرابين على قبره، أهو خصمى أم أنا؟» (١). فهل يمكن القول بطريقة أوضح من هذه بأن العناية بالعبادة لا يمكن أن تنفصل عن الميراث . وكذلك الحال فى الهند : « أيا كان الشخص الذى يرث فهو مكلف بتقديم القرابين للقبر » . (٢)

من هذا المبدأ جاءت كل قواعد حق الإرث عند القدماء . والقاعدة الأولى أنه ما دامت الديانة المنزلية وراثية ، كما رأينا ، من ذكر إلى ذكر فإن الملك يكون كذلك أيضاً . وكما أن الابن هو الذى يستمر فى العبادة طبيعياً وإلزامياً فهو الذى يرث الأموال أيضاً . ومن هنا وجدت قاعدة الوراثة ؛ وهى ليست نتيجة لمجرد اتفاق تم بين الناس بل مشتقة من عقائدهم ، من ديانتهم ، مما له أكبر سلطان على أرواحهم ، فليست إرادة الأب الشخصية هى التى تجعل الابن يرث . لم يكن الوالد فى حاجة لأن يوصى بل كان الابن يرث بمقتضى حقه المطلق أو كما يقول الفقيه *ipso jure heres exsistit* بل إنه وارث الزاماً *heres necessarius* (٣) وليس له أن يقبل الميراث أو يرفضه . فقد كان الاستمرار فى الملك كالاستمرار فى العبادة التزاماً بقدر ما كان حقاً . وسواء أراد أم لم يرد فإن التركة مفروضة عليه مهما كانت حالتها ، مفروضة عليه حتى باعبائها وديونها . فإن الميراث بعد تصفية التركة (sous bénéfice d'inventaire) وحق التنازل عن التركة لم يكن مسموحاً بهما للابن فى القانون الإغريقى ولم يدخلا فى القانون الرومانى إلا فى زمن متأخر جداً .

تنعت اللغة القانونية فى روما الابن بأنه *eres suus* كما لو قيل *heres sui ipsius* والواقع أنه لا يرث إلا من تلقاء نفسه فليس بين الأب وبينه هبة أو وصية أو انتقال ملكية بل مجرد استمرار *parentis continuatur dominium*

---

(١) إيسايوس ٦ : ٥١ . يطلق أفلاطون على الوارث *διάδοχος θεῶν* (القوانين ٥ ص . ٧٤٠) .

(٢) قوانين مانو ٩ : ١٨٦ .

(٣) ديجست : السفر ٣٨ الباب ١٦ : ١٤ .

بل كان الابن فى حياة الوالد شريكاً فى تملك الحقل أو المنزل :
vivo quoque patre dominus existimatur (١)

ولكى نكوِّن فكرة صحيحة عن التوارث عند القدماء يجب ألا نتصور ثروة تنتقل من يد إلى أخرى . فالثروة ثابتة كالموقد أو القبر المرتبطة بهما . إن الإنسان هو الذى يزول . إن الانسان هو الذى يصل ، كلما تسلسلت أجيال الأسرة ، فى الساعة المعينة ، لكى يستمر فى العبادة ويعنى بالملك .

٢ — يرث الابن ولا ترث البنت

هنا لأول وهلة تبدوا القوانين القديمة غريبة ظالمة. وإن الإنسان ليعروه شيء من الدهشة عند ما يرى أن البنت ، فى القانون الرومانى ، لا ترث الأب إذا كانت متزوجة ، ولا ترث فى القانون الإغريقى على أية حال . أما ما يخص الإخوة وأبناءهم فإنه يظهر لأول وهلة أكثر بعداً عن الطبيعة والعدالة . ذلك بأن هذه القوانين جميعاً ليست مستمدة من المنطق ولا من العقل ولا من الإحساس بالعدالة بل من العقائد ومن الديانة التى كانت تسيطر على النفوس .

القاعدة فى العبادة أنها تنتقل من ذكر إلى ذكر ؛ والقاعدة فى الميراث أنه يتبع العبادة ، والبنت ليست أهلا للاستمرار فى الديانة الأبوية مادامت تتزوج وبزواجها تتنازل عن عبادة الأب لتتخذ عبادة الزوج . فليس لها إذن أى حق فى الميراث وإذا حدث أن والداً ترك أملاكه لابنته فإن الملك يصبح منفصلا عن العبادة ، وهو أمر غير مقبول . بل إن البنت لا تستطيع حتى القيام بأول واجب من واجبات الوارث وهو الاستمرار فى سلسلة الأكلات الجنازية حيث إنها تقدم القرابين إلى أسلاف زوجها : ولذا حرمت عليها الديانة أن ترث أباها .

ذلك هو المبدأ العتيق . وقد فرض نفسه على مشرعى الهنود وعلى مشرعى الإغريق والرومان سواء بسواء . كانت للشعوب الثلاثة نفس القوانين لا لأن بعضها قد استعارها من البعض الآخر بل لأنها استمدت قوانينها من نفس العقائد

(١) القواعد *(Institutes)* ٣ : ١ : ٣ ؛ ٣ : ٩ : ٧ ؛ ٣ : ١٩ : ٢ .

يقول قانون مانو «ليقتسم الإخوة بعد موت والدهم الميراث فيما بينهم» ويضيف الشارع أنه يوصى الإخوة بأن يعطوا بائنة لأخواتهم، مما يكمل إقامة الدليل على أنه لم يكن لهن أى حق فى التركة الأبوية .

والأمر كذلك فى أثينا ؛ فكثيراً ماسنحت الفرصة للخطباء الأثينيين فى مرافعاتهم لكى يدللوا على أن البنات لم يكن ليرثن (١) . وديموستينيس هو ذاته مثال لتطبيق هذه القاعدة إذ كانت له أخت ، ونعرف من كتاباته هو ذاته أنه كان الوارث الوحيد للميراث ، وإنما احتفظ والده بسبع الميراث فقط كبائنة لابنته .

أما فيما يختص بروما فإن فرائض الشرع البدائى معروفة لنا معرفة ناقصة جداً فليس لدينا أى نص من تلك العصور القديمة يتعلق بحق البنت فى الإرث ، وليس لدينا أى مستند شبيه بمرافعات أثينا . ونحن مجبرون فى النهاية على البحث عن الآثار الضئيلة التى خلفها الشرع البدائى فى تشريع متأخر جداً ومختلف جداً ؛ فما زال غايوس وقواعد چوستينيانوس (Institutes) تذكر أن البنت لا تعد من الورثة الطبيعيين إلا إذا كانت لا تزال تحت سلطة الأب حين وفاته (٢) ؛ وهى لا تكون تحت سلطته إذا كانت قد تزوجت طبقاً للشعائر الدينية . فإذا فرضنا أنه كان فى استطاعتها قبل زواجها أن تشاطر أخاها فى الميراث فإنه من المحتم أنها لم تكن لتستطيع ذلك بمجرد أن أخرجها الـ *confarreatio* من الأسرة الأبوية ليربطها بأسرة الزوج . حقاً إن نص القانون لا يحرمها وهى غير متزوجة من نصيبها فى الميراث ، لكن لا بد من التساؤل عما إذا كانت تستطيع من الناحية العملية أن تكون وريثة حقاً . هذا ويجب ألا نغفل أن تلك البنت كانت

---

(١) نرى فى إيسايوس (ضد اكسينأينيتوس ٤) والدا يترك ابنا وابنتين وابنا آخر محرراً ، والابن الأول وحده هو الذى يرث . ونرى فى ليسياس (الدفاع عن مانتيثيوس . ١) أخوين يتقاسمان الميراث ويكتفيان باعطاء بائنة لأختيهما . فضلا عن أن البائنة لم تكن فى عادات أثينا إلا جزءاً صغيراً من الميراث الأبوى . ويرى ديموستنيس أيضاً (*In Baeotum, de dote,* 22-24) أن البنات لاترث ؛ وأخيراً يرى أرسطوفانيس) الطيور ١٦٥٣ — ١٦٥٤) بشكل واضح أن البنت لا ترث إذا كان لها إخوة .

(٢) غايوس ٣ : ١—٢ ؛ قواعد *(Institutes)* جوستينيانوس ٢ : ١٩ : ٢ .

موضوعة تحت وصاية أخيها أو عصبتها وأنها كانت تبقى كذلك طول حياتها وأن الوصاية فى القانون القديم إنما أقيمت لمصلحة الأملاك لا لمصلحة البنت وأن الغرض منها كان المحافظة على الأملاك فى الأسرة (١) ، وأخيراً أنه لم يكن فى استطاعة البنت فى أية سن أن تتزوج أو أن تغير أسرتها بدون إذن الوصى عليها . تسمح هذه الحقائق الموثوق بها بالاعتقاد بأنه كانت هناك، إن لم تكن فى القوانين فعلى الأقل من الناحية العملية ووفقاً للعادات ، سلسلة من الصعوبات تحول دون أن تكون البنت مالكة لنصيبها من الميراث ملكاً تاماً كما كان ملك الابن لنصيبه . وليس لدينا دليل على أن البنت كانت محرومة من الميراث لكنا على ثقة من أنها لم تكن ترث والدها وهى متزوجة، ولم تكن تستطيع وهى غير متزوجة أن تتصرف فيما ورثته قط . فإن كانت ترث ، فإنها ما كانت تفعل ذلك إلا موقتاً وبشرط ، ويكاد يكون إرثها هو مجرد حق الانتفاع بالثمار . ولم يكن لها الحق فى أن توصى أو تتنازل بدون إذن من ذلك الأخ أو من أولئك العصبة الذين كان لهم أن يرثوا أملاكها بعد موتها والذين كانوا حفظة عليها فى حياتها. (٢)

وهناك ملحوظة أخرى يجدر ألا نغفلها . تذكرنا قواعد چوستينيانوس بالمبدأ القديم ، الذى لم يعد معمولا به حينئذ لكنه لم يكن قد نسى ، وهو المبدأ الذى يأمر بانتقال الإرث إلى الذكور دائماً (٣) ، ولا ريب أن إحدى ذكريات هذه القاعدة أن المرأة فى القانون المدنى لم تكن لتستطيع أن تعين وارثة إطلاقاً . وكلما صعدنا من عصر چوستينيانوس نحو العصور القديمة كلما اقتربنا من قاعدة تحرم الإرث على النساء . وفى عصر سيسرون لا يستطيع الأب إذا ترك ابنا وابنة أن يوصى لابنته إلا بثلث ماله ، وإذا لم يكن له إلا ابنة وحيدة فإنها لم تكن تستطيع أن تنال غير النصف . هذا ويجب أن نلاحظ أنه لكى تحصل هذه البنت على ثلث المال أو نصفه، كان لا بد أن يكون الوالد قد أوصى بوصية

---

(١) وقد أحسن المسيو جيد (Gide) فى التدليل على ذلك فى كتابة :
Etude sur la condition de la femme, **p. 114.**

(٢) غايوس ١ : ١٩٢ .

(٣) القواعد ٣ : ١ : ١٥ ؛ ٣ : ٢ : ٣ : *Ita jura constitui ut plerumque hereditates ad masculos confluerent.*

لصالحها فليس للبنت شيء عن طريق الشرع (١) . وأخيراً قبل سيسرون بقرن ونصف عندما أراد كاتون أن يحيي العادة القديمة عمل على إصدار القانون ڤوكونيا (Voconia) الذى كان يحرم : أولا ، إقامة امرأة وارثة حتى لو كانت وحيدة ، متزوجة أوغير متزوجة ؛ ثانياً ، أن يوصى للنساء بأكثر من نصف المال (٢).ولم يعمل القانون ڤوكونيا سوى أن جدد قوانين أقدم منه إذ لا يمكن الظن بأن معاصرى آل سقيپيو كانوا يقبلون هذا القانون لو لم يعتمد على مبادىء عتيقة كانت لا تزال محترمة. فكان القصد منه إقامة ما غيّره الزمن ؛ هذا وأغرب ما فى هذا القانون ڤوكونيا أنه لا ينص على شيء ما بخصوص الميراث الطبيعى (Ab intestat) لكن سكوتا كهذا لا يمكن أن يدل على أن البنت كانت فى هذه الحال وارثة شرعية ، إذ ليس مقبولا أن يحرّم القانون على البنت أن ترث أباها بوصية لو أنها كانت فى الأصل وارثة شرعاً بدون وصية . بل الأولى أن يدل هذا السكوت على أنه لم يكن لدى الشارع شيء يقوله عن الإرث الطبيعى (Ab intestat) إذ أن القواعد القديمة فيما يختص بهذه النقطة قد حوفظ عليها خير مما حوفظ على سواها .

لذلك ، ولو أننا لا نستطيع أن نؤكد أن البنت كانت محرومة من الميراث حرماناً بيّناً إلا أنه من المؤكد على الأقل أن القانون الرومانى العتيق وكذلك القانون الإغريقى كانا يعطيان للبنت مركزاً أقل بكثير من مركز الابن . وكان ذلك هو النتيجة الطبيعية التى لا مفر منها للمبادىء التى نقشتها الديانة فى جميع الأذهان .

حقا إن الناس قد وجدوا منذ فترة مبكرة حيلة يوفقون بها بين القاعدة الدينية التى كانت تحرم على البنت أن ترث وبين الشعور الطبيعى الذى يرمى

---

(١) سيسرون : الجمهورية ٣ : ٧ .

(٢) سيسرون ؛ ضد فريس (Verres) ٢ : ١ : ٤٢ *Ne quis heredem virginem faceret. Id., 43: Si plus legarit quam ad heredes perveniat, non licet* أنظر تيتوس ليفيوس : الموجز ٤١ ؛ غايوس ٢ : ٢٢٦ و ٢٧٤ ؛ القديس أوغسطينوس : مدينة الله ٣ : ٢١

إلى تمكينها من التمتع بثروة أبيها . وهذا بيّن تماماً، على الأخص فى القانون الإغريقى .

كان التشريع الأثينى يرمى بشكل واضح إلى أن تتزوج الفتاة على الأقل بالوارث ما دامت محرومة من الميراث . فإذا ترك المتوفى ابناً وبنتاً مثلا كان القانون يسمح بالزواج بين الأخ وأخته على شرط ألا يكونا مولودين من أم واحدة . وكان للأخ وهو الوارث الوحيد الخيار فى الزواج من أخته أو إعطائها بائنة (١)

وإذا لم يكن للأب غير بنت واحدة فقد كان فى استطاعته أن يتبنى ابنا ويزوجه ابنته ، كما كان يستطيع أن يقيم وارثاً بوصية ويتزوج الوارث ابنته(٢). فإذا مات والد الابنة الوحيدة ولم يتبنّ ولم يوص فإن القانون القديم كان يجعل من أقرب أقربائه وارثاً له (٣) لكن هذا الوارث كان ملزماً بزواج الابنة ، وبمقتضى هذا المبدأ أجيز زواج العم بابنة أخيه، بل كان القانون

---

(١) ديموسثينيس: ضد إوبوليديس *(In Eubuliden)*. ٢. بلوتارخوس: ثيميستوكليس ٣٢ . قورنيليوس نيبوس: كيمون ١ . يجب ملاحظة أن القانون لم يكن يسمح بالزواج من الأخ من أم ولا من الأخ المحرر. فلا يمكن الزواج إلا من أخ من أب لأن هذا الأخير هو وحده وارث الأب .

(٢) إيسايوس : ميراث بيرهوس *De Pyrrhi heriditate* ٦٨ .

(٣) لم يعد هذا الوضع من الشرع الأتيكى القديم مسيطراً تماماً فى القرن الرابع . بيد أننا نجد أثراً واضحاً منه فى مرافعة إيسايوس : ميراث قيرون . موضوع القضية هو الآتى : مات قيرون (Ciron) ولم يترك غير بنت فطالب أخ قيرون بميراثه . وترافع إيسايوس عن البنت . ولم تصل إلينا مرافعة الخصم الذى دفع، بالبداهة باسم المبدأ القديم ، بأنه ليس للبنت أى حق . لكن مؤلف الـ ὑποθέσις الموضوع فى رأس خطبة إيسايوس يخطر أن هذا المحامى الماهر جداً كان يدافع هنا عن قضية سيئة فيقول إن نظريته كانت تتفق مع الإنصاف الطبيعى لكنها مناقضة للقانون .

يحتمه(١) وكان هناك ما هو أكثر من ذلك: إذا تصادف أن كانت هذه البنت متزوجة من قبل فإنه يتحتم عليها أن تترك زوجها لتتزوج وارث أبيها (٢). ومن الجائز أن يكون الوارث متزوجاً هو أيضاً من قبل فيجب عليه أن يطلق زوجته ليتزوج من قريبته (٣). وإنا لنرى هنا إلى أى حد تنكر الشرع العتيق للطبيعة لكى ينسجم مع الديانة (٤).

وقد أدت بهم ضرورة إرضاء الديانة، متحدة مع الرغبة فى إنقاذ مصالح البنت الوحيدة، الى إيجاد حيلة أخرى. وفى هذه النقطة يلتقى الشرع الهندى والشرع الأثينى لقاء عجيباً. فنقرأ فى قوانين مانو «من ليس له ابن ذكر يستطيع أن يكلف ابنته بأن تعطيه ابناً يصبح ابنه ويقوم بالاحتفال الجنازى تكريماً له» ولهذا يجب على الوالد أن يخطر الزوج الذى يعطيه ابنته بتلاوة هذه الصيغة: «أعطيك هذه البنت التى لا أخ لها مزينة بالجواهر والولد الذى يولد منها يكون ابنى ويحتفل بجنازتى (٥)». وكذلك كانت العادة فى أثينا إذ يستطيع

---

(١) إيسايوس: ميراث بيرهوس ٦٤، ٧٢ - ٧٥؛ إيسايوس: ميراث اريسطارخوس ٥؛ ديموسثينيس: ضد ليوخارس ١. كان يطلق على البنت الوحيدة كلمة ἐπίκληρος ويترجمونها خطأ بالوارثة. لكن المعنى الأصلى للكلمة والمستمد من جوهرها هو «التى بجوار الميراث» أى التى «تؤخذ معه» ففى حدود الشرع الصحيحة لم تكن البنت وارثة إذ أن الوارث يأخذ الميراث σὺναυτῇ كما يقول القانون المشار إليه فى مرافعة ديموسثينيس: ضد ماكارتاتوس ٥١: إنظر إيسايوس ٣: ٤٢: ميراث ارسطارخوس ١٣. لم تكن حالة الـ ἐπίκληρος وقفاً على القانون الأثينى بل نعثر عليها فى اسبرطه (هيرودوت ٦: ٥٧ وأرسطو: السياسة ٢: ٦: ١١) وفى ثورى (Thurii) (ديودوروس ١٢: ١٨).

(٢) إيسايوس: ميراث بيرهوس؛ ميراث ارسطارخوس ١٩.

(٣) ديموسثينيس: ضد إوبوليديس ٤١؛ ضد أونيتور (الخلاصة).

(٤) خفت كل هذه الالتزامات شيئاً فشيئاً. والواقع إن فى عصر إيسايوس وديموسثينيس كان أقرب الأقربين يستطيع أن يتخلص من الزواج بالوارثة الوحيدة على شرط أن يتنازل عن التركة وأن يقدم بائنة لقريبته (ديموسثينيس: ضد ماكارتاتوس ٥٤؛ إيسايوس: ميراث كليونيموس ٣٩).

(٥) قوانين مانو ٩: ١٢٧، ١٣٦. فاسيشتا Vasishta ١٧: ١٦.

الأب أن يديم سلالته عن طريق ابنته بتقديمها لزوج على هذا الشرط الخاص. والولد الذى يولد من مثل هذا الزواج يعتبر ابناً لأب المرأة ويتبع عبادته ويشهد إجراءاته الدينية ويعنى بقبره بعد ذلك (١) . كان هذا الولد فى الشرع الهندى يرث جده كما لو كان ابنه . وكذلك كان الأمر تماماً فى أثينا . فعندما يزوج والد ابنته الوحيدة بالطريقة التى رويناها فإن وارثه لا يكون ابنته ولا صهره بل ابن البنت (٢) . وبمجرد أن يبلغ هذا الأخير سن الرشد يتملك ميراث جده لأمه بالرغم من أن أباه و أمه لا يزالان على قيد الحياة (٣)

هذا التساهل الغريب من جانب الديانة والقانون يؤيد القاعدة التى بينّاها من قبل . فإن البنت لم تكن أهلا لأن ترث ولكن تيسيراً طبيعياً جداً لصرامة هذا المبدأ أدى إلى اعتبار البنت الوحيدة كوسيط يمكن الأسرة من الاستمرار عن طريقه . إنها لم تكن ترث لكن العبادة والميراث كانا ينتقلان عن طريقها .

٣ — توارث الحواشى

إذا مات رجل من غير عقب وأريد معرفة الوارث لأمواله فإنه كان يكفى البحث عمن يجب أن يستمر فى عبادته .

كانت الديانة المنزلية تنتقل بطريق الدم من الذكور إلى الذكور . فكان التناسل فى عمود النسب المذكر هو الذى يقرر دون سواه الصلة الدينية بين رجلين ، تلك الصلة التى تسمح لأحدهما بالاستمرار فى عبادة الآخر . وما كانوا يسمونه القرابة لم يكن ، كما رأينا أعلاه ، سوى التعبير عن هذه الصلة . كانوا أقرباء لأنه كانت لهم نفس العبادة ونفس الموقد فى الأصل ونفس الأسلاف . لكنهم لم يكونوا أقرباء لأنهم خرجوا من بطن أم واحدة

---

(١) إيسايوس : ميراث قيرون ١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ .

(٢) لم يكونوا يسمونه حفيدا بل كانوا يطلقون عليه الاسم الخاص θυγατριδοῦς

(٣) إيسايوس : ميراث قيرون ٣١ ؛ ميراث ارسطارخوس ١٢ . ديموسثينيس : قضية التاج ٢ : ٢٠ .

فإن الديانة لم تكن تسمح بقرابة عن طريق النساء ولم تكن هناك أية صلة بين أبناء أختين أوأبناءأخت وأخ ولم يكونوا ينتمون لنفس الديانة المنزلية ولا لنفس الأسرة .

كانت هذه المبادىء تنظم ترتيب التوارث . فإذا فقد رجل ابنه وابنته ولم يترك وراءه غير أحفاد فإن الذى يرث هو ابن ابنه وليس ابن ابنته . وعند انعدام الذرية كان يرثه أخوه لا أخته . وعند انعدام الأخوة وأبناء الأخوة كان لابد من الصعود فى سلسلة أجداد المتوفى ، فى عمود النسب المذكر دائماً ، إلى أن يعثروا على فرع يخرج من الأسرة عن طريق الذكور ثم ينحدرون فى ذلك الفرع من ذكر إلى ذكر إلى أن يجدوا رجلا حياً : ذلك هو الوارث .

كانت هذه القواعد مرعية عند الهنود والإغريق والرومان على السواء . فى الهند كان «الميراث يتبع أقرب ساپندا وعند انعدام الساپندا يتبع السمانوداكا»(١) وقد رأينا أن القرابة التى تعبر عنها هاتان الكلمتان هى القرابة الدينية أوالقرابة عن طريق الذكور وكانت تقابل العصبية (الأغناسيو) الرومانية .

وها هو ذا الآن قانون أثينا : «إذا مات رجل من غير عقب فإن الوارث هو أخ المتوفى ما دام له أخ من أبيه فإذا لم يوجد فابن الأخ : إذ أن الإرث ينتقل دائماً للذكور ولذرية الذكور .»(٣) وكانوا فى زمان ديموسثينيس لا يزالون يذكرون هذا القانون القديم ولو أنه كان قد لحقه التبديل وابتدأوا فى ذلك العصر يقبلون القرابة عن طريق النساء .

وكانت اللوحات الإثنتا عشرة تقرر كذلك أنه إذا مات رجل دون وارث تلقائى héritier sien فإن الميراث يتبع أقرب عاصب له . وقد رأينا أنه لا يمكن لأى انسان أن يكون عاصباً عن طريق النساء . فكان القانون الرومانى القديم يحدد أيضاً أن ابن الأخ يرث العم *patruus* أى أخ الأب ولا يرث الخال *avunculus*

---

(١) قوانين مانو ٩ : ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) ديموسثينيس : ضد ماكارتاتوس ٥١ ؛ ضد ليوخاريس . إيسايوس ٧ : ٢٠ .

أي أخ الأم (١) . فاذا ما عدنا إلى الجدول الذى رسمناه لأسرة سقيپيو لاحظنا أن سقيپيو إيميليانوس مات دون ذرية فلا يمكن أن ينتقل ميراثه الى قورنيليا عمته ولا إلى غايوس غراقخوس الذى يعتبر فى آرائنا الحديثة ابن عمته لحاً بل إلى سقيپيو أسياتيقوس الذى كان فى شرع القدماء أقرب اقربائه .

لم يعد الشارع فى عهد چوستينيانوس يفهم هذه القوانين القديمة فكانت تبدو له مجحفة . وكان يتهم بالصرامة الزائدة قانون اللوحات الإثنتى عشرة «الذى كان يؤثر الذرية المذكرة دائماً ويحرم من الميراث أولئك الذين لا يرتبطون بالمتوفى إلا عن طريق النساء» . (٢) شرع مجحف ، إذا شئنا ، إذ أنه لم يكن يحسب حساباً للطبيعة ؛ لـكنه شرع منطقى إلى أبعد الحدود إذ أن نقطة ابتدائه هى أن الارث مرتبط بالعبادة وقد كان يقصى عن الميراث أولئك الذين لم تكن الديانة تسمح لهم بالاستمرار فى العبادة .

٤ — آثار التحرير والتبنى

سبق أن رأينا أن التحرير والتبنى كان يحدثان تبديلا فى عبادة الإنسان ، فالأول منهما ينتزعه من العبادة الأبوية والثانى يلقنه ديانة أسرة أخرى . وهنا أيضاً كان الشرع القديم على اتفاق مع القواعد الدينية فالابن الذى أخرجه التحرير من العبادة الأبوية كان يقصى عن الميراث أيضاً (٣) . وعلى العكس فإن الأجنبى الذى اشترك بالتبنى فى عبادة أسرة ما كان يصبح ابنا فيها ، ويستمر فى عبادتها ، ويرث أموالها . وفى الحالين كان الشرع القديم يحسب للرباط الدينى حساباً أكبر مما كان يحسبه لرباط المولد .

وحيث أنه كان مناقضاً للدين أن يكون لرجل بذاته عبادتان منزليتان فإنه لم يكن باستطاعته أيضاً أن يرث من أسرتين . ولذا كان الابن المتبنى ،

---

(١) قواعد (Institutes) ٣ : ٢ : ٤

(٢) شرحه ٣ : ٣ .

(٣) إيسايوس : ميراث أرسطارخوس ٤٥ و١١ ؛ ميراث أستفيلوس ٣٣ .

الذى كان يرث من الأسرة المتبنية ، لا يرث من أسرته الطبيعية . وقد كان الشرع الأثينى صريحاً جداً فى هذا الموضوع : فكثيراً ما ترينا مرافعات الخطباء الأثينيين رجالا تبنتهم أسرة ويريدون أن يرثوا من الأسرات التى ولدوا فيها لكن القانون كان يحول دون ذلك. لأن الابن المتبنى لا يستطيع أن يرث من أسرته الأصلية إلا إذا عاد إليها ولا يستطيع أن يعود إليها إلا إذا تنازل عن الأسرة المتبنية ؛ ولا يستطيع الخروج من هذه إلا بشرطين : أحدهما أن يترك ميراث هذه الأسرة ؛ والآخر ألا تنقطع ، بخروجه منها ، العبادة المنزلية التى تبنى للاستمرار فيها ، ولهذا يجب أن يترك فى هذه الأسرة ابنا يحل محله (١) . وهذا الابن يعنى بالعبادة ويضع يده على الأملاك ، وعندئذ يستطيع الوالد أن يعود إلى الأسرة التى ولد فيها وأن يرث منها . لكن هذا الأب وهذا الابن لا يستطيعان أن يتوارثا : أنهما ليسا من نفس الأسرة ، أنهما ليسا قريبين .

إنا لنتبين جيداً فكرة الشارع القديم عندما قرر هذه القواعد البالغة فى الدقة . لم ير إمكان الجمع بين ميراثين لشخص واحد إذ أنه ليس فى استطاعة نفس اليد أن تخدم ديانتين منزليتين .

٥ — لم تكن الوصية معروفة فى الأصل

كان حق الوصية ، أى تصرف المرء فى أملاكه بعد الوفاة لكى تنتقل إلى غير الوارث الطبيعى ، يتعارض مع العقائد الدينية التى كانت أساس حق التملك وحق الإرث . وهل كان فى الاستطاعة التفكير فى الوصية بينما كان التملك ملازماً للعبادة ، والعبادة وراثية ؟ هذا ولم يكن الملك تابعاً للفرد بل للأسرة لأن الإنسان لم يحصل عليه بحق العمل بل عن طريق العبادة المنزلية . وباعتباره مرتبطاً بالأسرة كان ينتقل من الميت للحى لا بإرادة الميت واختياره بل بمقتضى القواعد العليا التى أقرتها الديانة .

---

(١) هاربو قراتيون : تحت لفظ "Οτοι οἱ ποιητοὶ" . ديموسثينيس : ضد ليوخاريس ٦٦ — ٦٨ .

لم يكن الشرع الهندى القديم يعرف الوصية وكان الشرع الأثينى لغاية صولون يحرمها (١) . ولم يسمح بها صولون ذاته إلا لمن لم يخلف عقباً (٢) وقد كانت الوصية محرمة أو مجهولة زمناً طويلا فى اسپرطه ولم يصرح بها إلا بعد حرب الپيلوپونيز (٣). وكانوا يذكرون عصراً كان فية الأمر كذلك فى قورنثه وثيبه (٤) ومن المؤكد أن حق المرء فى الوصية بأملاكه طوع هواه لم يكن معترفاً به فى البدء كحق طبيعى ، بل كان المبدأ الثابت فى العصور القديمة أن كل ملك يجب أن يبقى فى الأسرة التى ربطته الديانة بها .

يفسر أفلاطون فكرة المشرعين القدماء تفسيراً واضحاً فى رسالته عن القوانين ، وما هى فى جزئها الأكبر إلا تعليق على القوانين الأثينية ، فيفرض أن رجلا يطالب وهو على سرير الموت بحقه فى التوصية ويصيح : « أيتها الآلهة : أليس من القسوة كل القسوة ألا استطيع التصرف فى ملكى كما أريد ، ولمصلحة من أشاء ، تاركاً نصيباً أوفى لهذا ونصيباً أقل لذاك طبقاً لما أبدوه لى من المودة ؟ » . لكن الشارع يجيب هذا الرجل « أنت الذى لاتستطيع أن تمنى نفسك بأكثر من يوم . أنت الذى لا تفعل أكثر من أن تعبر الحياة الدنيا . هل لك أنت أن تقرر مثل هذه المسائل ؟ لست أنت السيد على أملاكك ولا على نفسك ، إنما أنت وأموالك على السواء ملك للأسرة أى لأسلافك وذريتك » (٥) .

الشرع القديم فى روما غامض جداً بالنسبة لنا ؛ وقد كان كذلك بالنسبة لسيسرون . إن ما نعرفه عنه لا يرقى إلى ما وراء اللوحات الإثنتى عشرة ومن المؤكد أنها لم تكن الشرع القديم فى روما ، هذا ولم يبق لنا منها إلا بعض بقايا . يصرح هذا القانون بالوصية ، إلا أن القطعة الخاصة بهذا الموضوع قصيرة جداً ومن الواضح أنها ناقصة جداً بحيث لا نستطيع أن نهنئ أنفسنا بأننا

(١) بلوتارخوس : صولون ٢١ .
(٢) إيسايوس: ميراث بيرهوس ٦٨ . ديموسثينيس : قضية التاج ٢ : ١٤ .
(٣) بلوتارخوس : أغيس ٥ .
(٤) أرسطو : السياسة ٢ : ٣ : ٤ .
(٥) أفلاطون: القوانين ١١ .

نعرف الترتيبات الحقيقية التى رتبها المشرع فى هذا الموضوع ؛وإنا لاندرى ما هى التحفظات ولا ما هى الشروط التى استطاع أن يضعها عندما منح الحق فى الوصية (١) . وليس لدينا قبل اللوحات الإثنتى عشرة أى نص قانونى يحرم الوصية أو يسمح بها. لـكن اللغة تحتفظ بذكرى زمن لم تكن الوصية معروفة فيه إذ أنها تسمى الابن وارثاً من تلقاء ذاته وضرورياً (٢) ، وهذه الصيغة التى لازال يستعملها غايوس وچوستينيانوس ، مع أنها لم تكن على وفاق مع تشريع زمانهما ، لاريب فى أنها آتية من عصر بعيد لم يكن فى الإمكان أن يحرم الإبن فيه من الميراث أو أن يرفضه . لم تكن للوالد إذن حرية التصرف فى ثروته ، ولم تكن الوصية مجهولة جهلا مطلقاً بل كانت صعبة جداً . فكان لا بد لذلك من إجراءات عظيمة . أولا ، لم تكن السرية ممنوحة للموصى فى حياته لأن الرجل الذى يحرم أسرته من الميراث ويتعدى القانون الذى أقامته الديانة يجب أن يفعل ذلك بصفة علنية وفى وضح النهار ، وأن يتحمل فى حياته كل البغضاء التى تلازم عملا كهذا . ولم يكن ذلك كل شىء . إذ كان لا بد أن تلقى إرادة الموصى موافقة السلطة العليا أى الشعب مجتمعاً فى ندوات (curies) تحت رئاسة الحبر (٣) . ويجب ألا نعتقد أن ذلك لم يكن سوى إجراء أجوف وعلى الأخص فى القرون الأولى . هذه الحشود (comices) المجتمعة فى ندوات

---

(١) *Uti legassit, ita jus esto* . لو لم يكن لدينا من قانون صولون إلا الألفاظ *διάθεσται ὅπως ἄν ἐθέλῃ* لكنا نظن أيضاً أن الوصية كان مسموحاً بها فى جميع الأحوال الممكنة . لكن القانون يضيف *ἄν μὴ παῖδες ὦσι*

(٢) المصطلح اللاتينى لما عربناه بالوارث من تلقاء ذاته هو ***heres suus*** ومعناه من يرث ذاته لأنه يعتبر مالكاً من الأصل بخلاف المصطلح ***heres ejus*** الذى يدل على من يرث سواه — المعرب .

(٣) ألبيانوس ٢ : ٢ . غايوس ١ : ١٠٢ ، ١١٩ . أولوس جيليوس ١٥ : ٢٧ . لا ريب أن الوصية *calatis comitiis* أقدمها استعمالا ؛ وهى لم تعد معروفة فى عصر سيسرون (الخطيب ١ : ٥٣) .

كانت أحفل الاجتماعات فى المدينة الرومانية . وأنه لرأى صبيانى أن نقول إنهم كانوا يدعون الشعب تحت رئاسة زعيمه الدينى لكى يحضر قراءة وصية كمجرد شاهد . ويمكن الاعتقاد بأن الشعب كان يصوت بل إن ذلك كان ضرورياً كل الضرورة لو تأملنا فيه . فقد كان هناك قانون عام يرتب نظام التوارث بطريقة دقيقة ولكى يبدل هذا النظام فى حالة خاصة كان لابد من قانون آخر : ذلك القانون الاستثنائى هو الوصية . وإذن لم يكن حق الوصية معترفاً به تماماً للإنسان ، ولم يكن بمستطاع أن يُعترف به ما بقى المجتمع تحت سيطرة الديانة القديمة فإن الرجل الحى لم يكن فى عقائد هذه العصور القديمة إلا ممثلا ، ولبضع سنوات ، لكائن ثابت خالد هو الأسرة : لم تكن العبادة والتملك إلا وديعة لديه وينتهى حقه عليهما بانتهاء حياته .

٦ — عدم قسمة الميراث فى الزمن القديم

يجب أن نعود إلى ما وراء الأزمنة التى احتفظ التاريخ بذكراها ، إلى تلك القرون البعيدة التى استقرت فيها الأنظمة المنزلية وأعدت فيها الأنظمة الاجتماعية . لم يبق من ذلك العصر ولا يمكن أن يبقى أى أثر مكتوب ، لكن القوانين التى كانت تتحكم عندئذ فى الناس تركت بعض آثار فى شرع العصور التالية .

نميز فى تلك العصور السحيقة نظاماً لابد وأنه قد ساد زمناً طويلا وكان له أثر عظيم فى تكوين الجماعات فى المستقبل وبدونه لا يمكن تفسير هذه الجماعات : ذلك هو عدم قسمة الميراث مع نوع من حق البكورة .

كانت الديانة القديمة تقيم فارقاً بين الابن الأكبر والابن الأصغر إذ يقول الأريا القدماء أن « الابن الأكبر ولد للقيام بالواجب نحو الأسلاف وولد الآخرون من الحب » ، وبمقتضى هذا التفوق الأزلى كان للابن الأكبر الامتياز بأن يرأس جميع حفلات العبادة المنزلية بعد موت أبيه . فهو الذى كان يقدم الأكلات الجنازية وهو الذى كان يتلو صيغ الدعاء : « إذ أن حق تلاوة الأدعية يتبع الابن الذى جاء إلى العالم أولا » فكان الابن الأكبر هو الوارث للأناشيد والمواصل للعبادة ، وهو الرئيس الدينى للأسرة . من هذه العقيدة خرجت إحدى

قواعد الشرع : الابن الأكبر فقط يرث الأموال . كذلك يقول نص قديم أدخله آخر محرر لقوانين مانو فى قانونه : «يستحوز الابن الأكبر على الميراث بأكمله ويعيش الأخوة الآخرون تحت سلطته كما كانوا يعيشون تحت سلطة والدهم . يسدد الابن الأكبر الدين للأسلاف وإذن يجب أن يكون له كل شيء» (١).

جاء القانون الإغريقى من نفس العقائد الدينية التى جاء منها الشرع الهندى فليس من المستغرب إذن أن نجد فيه أيضاً فى البدء حق البكورة . ففى اسپرطه كانت أنصبة الملك المقررة فى البدء غير قابلة للقسمة ولم يكن للابن الأصغر أى نصيب . وكذلك كان فى كثير من التشريعات القديمة التى درسها أرسطو إذ أنه يعلمنا أن تشريع ثيبه كان يفرض بصفة قاطعة أن يبقى عددالأنصبة من الأرض ثابتاً ، وكان ذلك يقضى حتما بعدم القسم بين الإخوة . كما أن قانوناً قديماً فى قورنثه كان يريد أن يبقى عدد الأسرات بلا تغيير مما لا يمكن حصوله إلا إذا حال حق البكورة دون تمزيق الأسرات فى كل جيل (٢) .

أما عند الأثينيين فيجب ألا نتوقع أن نجد هذا النظام القديم نافذاً فى عصر ديموسثينيس . لكن الذى كان لا يزال قائماً فى ذلك العصر هو ما كان يسمى امتياز الابن الأكبر (٣). وفحواه ، فيما يلوح ، هى المحافظة على المنزل الأبوى خارج القسمة ؛ وهى ميزة هائلة من الناحية المادية ، وأعظم منها من الناحية الدينية ، إذ أن المنزل الأبوى كان يحوى موقد الأسرة القديم . فبينما كان الابن الأصغر فى عهد ديموسثينيس يذهب ليوقد موقداً جديداً ، كان الأكبر وهو الوارث الحقيقى يبقى حائزاً للموقد الأبوى ولقبر الأسلاف . وكان هو وحده أيضاً يحتفظ باسم الأسرة (٤) . تلك بقايا عصر كان هو فيه صاحب الميراث الوحيد

---

(١) قوانين مانو ٩: ١٠٥-١٠٧، ١٢٦ . تغيرت هذه القاعدة القديمة كلما ضعفت الديانة القديمة. وتوجد فى مجموعة قوانين مانو سواد تجيز تقسيم التركة بل وتوصى بذلك.

(٢) أرسطو : السياسة ٢ : ٩ : ٧ ؛ ٢ : ٣ : ٧ ؛ ٢ : ٤ : ٤ .

(٣) *Πρεσβεία* ديموسثينيس : الدفاع عن فورميون ٣٤ . لم تكن الـ *Πρεσβεία* فى عصر ديموسثينيس إلا كلمة لا معنى لها وكانت التركة تقسم منذ زمن بعد أقساماً متساوية بين الأخوة .

(٤) ديموسثينيس : Demosthène. *In Boeotum, de nomine*

ويمكن أن نلاحظ أن الإجحاف الذى يخلقه حق البكورة فضلا عن أنه لم يثر الدهشة فى الأذهان التى كان للديانة عليها سلطان كبير، فإنه كان يلطفه الكثير من عادات القدماء. فأحياناً كانت تتبنى الابن الأصغر أسرة أخرى يرث منها وأحياناً يتزوج ابنة وحيدة، وأخيراً كان يتلقى بعض الأحيان نصيب الأرض الذى كان لأسرة انقرضت فإذا عدمت كل هذه الوسائل أرسل الأبناء الصغار إلى إحدى المستعمرات.

أما فيما يختص بروما فإنا لا نجد فيها أى قانون يتعلق بحق البكورة. ولكن يجب ألا نستخلص من هذا أنه كان مجهولا فى إيطاليا العتيقة فمن الجائز أنه اختفى وأمحت ذكراه. ومما يسمح بالاعتقاد بأنه كان نافذاً فيما وراء الزمن المعروف لنا أنه لا يمكن بدونه تفسير وجود الفصيلة *gens* الرومانية والسابينية. كيف كانت أسرة تستطيع الوصول إلى أن تشمل عدة آلاف من الأفراد الأحرار، كالأسرة كلوديا، أو عدة مئات من المحاربين كلهم من الأشراف كالأسرة فابيا، إذا لم يحافظ حق البكورة على وحدتها خلال سلسلة طويلة من الأجيال، ولم ميزد عددها من قرن إلى قرن بوقوفه حائلا دون تمزيقها؛ إن حق البكورة القديم هذا ليدل على وجوده بعواقبه، أو، كما نقول، بأعماله.

هذا ويجب أن نفهم أن حق البكورة لم يكن معناه سلب صغار الأسرة لمصلحة الابن الأكبر. وتفسر مجموعة قوانين مانو معناه عندما تقول: «ليحب الأخ الأكبر إخوته الصغار بعطف الأب لأبنائه، وعلى هؤلاء بدورهم أن يحترموه كوالد». ففى فكر العصور القديمة كان حق البكورة يتضمن دائماً الحياة المشتركة، فلم يكن فى جوهره إلا تمتع جميع الأخوة بالأملاك تمتعاً مشتركاً بزعامة الأخ الأكبر. فكان يمثل عدم قسمة الميراث كما كان يمثل عدم قسمة الأسرة. ومن هذه الناحية نستطيع أن نعتقد أنه كان نافذاً فى أقدم شرع فى روما أو على الأقل فى عاداتها وأنه كان مصدر الفصيلة (*gens*) الرومانية (١).

---

(١) احتفظت اللغة اللاتينية القديمة ببقية من عدم القسمة هذا تستحق الاشارة إليها مهما كانت ضعيفة. فكانوا يطلقون كلمة *sors* على النصيب من الأرض، ملك الأسرة. فيقول فستوس *sors patrimonium significat* فكانت كلمة *consortes* تطلق إذن على الذين لم يكونوا سوى شركاء فى نصيب من الأرض ويعيشون على نفس الملك. وكانت اللغة القديمة تطلق هذه الكلمة على الإخوة بل وعلى الأقارب من درجة بعيدة نوعاً، شهادة من زمن كان الميراث والأسرة فيه غير قابلين للقسمة (فستوس تحت لفظ *sors*. سيسرون: ضد فريس ٢ : ٣ : ٢٣ تيتوس ليفيوس ٤١ : ٢٧. فليوس (Velleius) ١ : ١٠. لوكرسيوس (Lucrèce) ٣ : ٧٧٢؛ ٦ : ١٢٨٠

الفصل الثامن

السلطة فى الأسرة

١ — مبدأ السلطة الأبوية عند القدماء وطبيعتها

لم تتلق الأسرة قوانينها عن المدينة. فلو كانت المدينة هى التى أقامت القانون الخاص لكان من المحتمل أن تضعه بطريقة تختلف اختلافاً كلياً عما رأيناه، ولنظمت حق الملكية وحق الإرث طبقاً لمبادىء أخرى. إذ أنه لم يكن من مصلحتها أن تكون الأرض غير قابلة للتنازل، والميراث غير قابل للقسمة. فالقانون الذى يسمح للوالد أن يبيع ابنه، بل أن يقتله، وهو قانون نجده فى بلاد الإغريق كما نجده فى روما، لم يكن مما تخيلته المدينة بل كان الأولى أن تقول للوالد: «إن حياة زوجتك وطفلك وحريتهما ليستا ملكاً لك، وأنا أحميهما حتى منك انت، فلست أنت الذى تحاكمهما والذى تقتلهما إذا ما زلا، وسأكون أنا قاضيهما الوحيد». فإذا كانت المدينة لا تتكلم على هذا النحو فمن الظاهر أنها لم تكن تستطيع ذلك لأن القانون الخاص كان موجوداً قبلها وعندما أخذت تدون قوانينها وجدت هذا الشرع قائماً من قبل، حياً، ممتدة جذوره فى العادات، يشد أزره اتفاق عام، فقبلته إذ لم تكن تستطيع غير هذا. ولم تجرؤ على تعديله إلا مع الزمن الطويل. لم يكن الشرع القديم من عمل مشرع بل بالعكس كان مفروضاً على الشارع؛ لقد ولد فى الأسرة، خرج من تلقاء نفسه وتكون بأكمله من المبادىء العتيقة التى كونتها. لقد انبثق من العقائد الدينية، التى كانت مقبولة من الجميع فى العصر البدائى لهذه الشعوب، والتى كان لها السلطان على عقول الناس وإرادتهم.

تتكون الأسرة من أب وأم وأطفال وأرقاء. ولا بد أن يكون لهذه المجموعة نظامها مهما كانت صغيرة، فلمن إذن السلطة الأولى؟ أللوالد؟ كلا. ففى كل منزل شىء هو فوق الوالد ذاته: ألا وهو الديانة المنزلية، ألا وهو ذلك الإله

الذى يسميه الإغريق ، الموقد السيد *ἑστία δέσποινα* ويسميه اللاتينيون *Lar familiae Pater* (١) . هـذا المعبود الداخلى ، أو بعبارة أخرى الاعتقاد الـكائن فى النفس البشرية ، ذلك هو السلطة التى يقلّ الجدل فيها عن سواها ، وهى التى ستعين المراتب فى الأسرة .

الأب هو الأول بجوار الموقد ، فهو الذى يوقده ويرعاه وهو حبره الأعظم وهو الذى يشغل أعلا الوظائف فى جميع الأعمال الدينية . فهو الذى يذبح الأضحية . وفمه يتلو صيغة الدعاء الذى يجلب له ولذريته حماية الآلهة . وبه تستمر الأسرة والعبادة . وهو وحده الذى يمثل سلسلة الذرية كلها وعليه تعتمد العبادة المنزلية ، ويكاد يستطيع أن يقول كما يقول الهندى : إننى أنا الإله . وعندما يوافيه الموت يصبح كائناً إلهيا تضرع له ذريته .

لم تضع الديانة المرأة فى منزلة لها مثل هذا السمو . حقاً إنها تساهم فى الأعمال الدينية لـكنها ليست ربة الموقد لأنها لم تتلق ديانتها من مولدها وإنما لقنها الزواج إياها . لقد تعلمت من زوجها الدعاء الذى تتلوه . وهى لا تمثل الأسلاف لأنها لم تنحدر منهم ولن تصبح هى ذاتها سلفاً . وعند ما توضع فى القبر لا تتلقى عبادة خاصة ، فهى فى الموت كما كانت فى الحياة لاتعد إلاعضواً من زوجها .

وتتفق الشرائع الإغريقية والرومانية والهندية على اعتبار المرأة قاصراً على الدوام فهى لا تستطيع أبداً أن يكون لها موقد ، ولا تكون رئيسة للعبادة قط . تعطى فى روما لقب أم الأسرة *materfamilias* لـكنها تفقده إذا مات زوجها(٢) وحيث أنه ليس لها موقد خاص بهـا إطلاقاً فليس لها شىء مما يعطى السلطة فى المنزل . إنها لا تأمر أبداً ، بل إنها ليست حرة ولا سيدة على نفسها *sui juris* على الإطلاق . إنها دائماً بجوار موقد شخص آخر وتكرر دعاء شخص آخر ، وفى جميع أعمال الحياة الدينية لا بد لها من رئيس ، وفى جميع إجراءات الحياة المدنية لا بد لها من وصى .

---

(١) بلاوتوس : التاجر *Mercator* ٥ : ١ : ٥ *Dii Penates familiaeque Lar Pater* المعنى الأصلى لـكلمة *Lar* هو رب ، أمير ، سيد . أنظر *Lar Porsenna, Lar Tolumnius*

(٢) Festus, éd. Müller, p. 125: *Materfamiliae non ante dicebatur quam vir ejus paterfamiliae dictus esset . . . Nec vidua hoc nomine appellari potest.*

يقول قانون مانو «تعتمد المرأة أثناء طفولتها على أبيها وأثناء شبابها على زوجها وعندما يموت زوجها تعتمد على أبنائها . وإذا لم يكن لها ابن فعلى أقرب أقرباء زوجها ، إذ أنه لا بد ألا تحكم نفسها مطلقاً وفق هواها (١) » . وتقول القوانين الإغريقية والرومانية نفس القول . تخضع لأبيها وهى بنت ، فإذا مات الأب خضعت لأخوتها ولعصبتها (agnats) (٢) . وتكون وهى متزوجة تحت وصاية زوجها ، فإذا مات الزوج لا تعود لأسرتها الأصلية إذ أنها بزواجها المقدس قد تنازلت عنها إلى الأبد (٣) ؛ فتبقى الأرملة خاضعة لولاية عصبة زوجها أى لأبنائها هى إن وجدوا (٤) أو لأقرب أقربائه إذا عدم الأبناء (٥) . ولزوجها من السلطة عليها ما يمكنه من تعيين وصى عليها قبل موته بل من أن يختار لها زوجاً آخر (٦) .

ولكى يبين الرومان سلطة الزوج على المرأة كان لهم تعبير قديم جداً احتفظ به فقهاؤهم ذلك هو لفظ *manus* . وليس من اليسير الكشف عن معناه الأصلى . وقد جعل الشراح منه تعبيراً عن القوة المادية كما لو كانت المرأة موضوعة تحت يد الزوج العنيفة . وهناك شبهة كبيرة فى أنهم كانوا واهمين . فإن سلطة الرجل على المرأة لم تكن ناتجة اطلاقاً عن زيادة قوة الرجل ، بل كانت مشتقة ككل القانون الخاص من العقائد الدينية التى كانت تضع الرجل فوق المرأة . ومما يدل على ذلك أن المرأة التى لم تتزوج طبقاً للشعائر المقدسة ، والتى لم تشترك تبعاً لذلك فى العبادة ، لم تكن خاضعة لسلطة الزوج (٧) . لقد كان الزواج هو

---

(١) قوانين مانو ٥ : ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) ديموستينيس : ضد أونيتور ١ : ٧ ؛ ***In Boeotum, de dote*** ؛ ضد إوبوليديس ٤٠ - إيسايوس : ميراث مينكليس ٢ و٣ . ديموستينيس : قضية التاج ٢ : ١٨ .

(٣) تعود إليها فى حالة الطلاق : ديموستينيس : ضد إوبوليديس ٤١ .

(٤) ديموستينيس : قضية التاج ٢ : ٢٠ ؛ ضد فاينيبوس ٢٧ ؛ ضدما كارتاتوس ٧٥ . إيسايوس : ميراث بيرهوس ٥٠ - أنظر الأوذيسه ٢١ : ٣٥٠ - ٣٥٣ .

(٥) غايوس ١ : ١٤٥ - ١٤٧ ، ١٩٠ ؛ ٦ : ١١٨ ؛ أولبيانوس ١١ : ١ و٢٧ .

(٦) ديموستينيس : ضد أفوبوس ؛ الدفاع عن فورسيون ٨ .

(٧) سيسرون الجدل (topica طوبيقا) ١٤ ؛ تاسيتوس الحوليات ٤ : ١٦ ؛ أولوس جيليوس ١٨ : ٦ . وسنرى فيما بعد أنه فى فترة معينة ولأسباب سنقولها تصوروا أشكالا جديدة للزواج وجعلوها تنتج نفس الآثار القانونية التى كان ينتجها الزواج المقدس .

الذى يخلق خضوع المرأة وكرامتها فى آن واحد، إلى هذا الحد كان صحيحاً أن الأسرة لم تكن تنشأ من حق الأقوى !

ولننتقل إلى الطفل . هنا تتحدث الطبيعة عن نفسها بصوت مرتفع ، فهى تريد أن يكون للطفل حارس ، مرشد ، وأستاذ . فالديانة على وفاق مع الطبيعة إذ تقول إن الوالد هو الذى سيكون رئيس العبادة ، وعلى الابن فقط أن يعاونه فى مهامه المقدسة . لكن الطبيعة لا تتطلب هذا الخضوع إلا العدد معين من السنين ، أما الديانة فإنها تتطلب أكثر من ذلك ؛ تجعل الطبيعة للابن سنا للرشد لكن الديانة لا تمنحه شيئاً من ذلك . فطبقاً للمبادىء العتيقة كان الموقد غير قابل للقسمة والملك غير قابل لها كذلك . ولا ينفصل الإخوة عند موت والدهم ، ومن باب أولى لا يمكن أن ينفصلوا عنه أثناء حياته . كانت صرامة الشرع القديم تبقى الأبناء مرتبطين بموقد أبيهم وبناء عليه خاضعين لسلطانه، وما دام حياً فإنهم قاصرون .

وإنا لندرك أن هذه القاعدة ما كانت لتستطيع أن تستمر إلا ما بقيت الديانة المنزلية فى عنفوان قوتها . وهذا الخضوع الذى لا نهاية له من جانب الابن للأب قد اختفى مبكراً فى أثينا . أما فى روما فإن القاعدة قد حوفظ عليها محافظة المتحرج فلم يستطع الابن إطلاقاً أن يقوم على موقد خاص فى حياة أبيه . بل كان دائماً تحت سلطة أبيه حتى وإن تزوج ، حتى وإن أنجب أبناء (١) .

---

(١) عندما يقول غايوس عن السلطة الأبوية *Jus proprium est civium Romanorum* يجب أن نفهم أنه فى زمن غايوس لم يكن الشرع الرومانى يعترف بهذه السلطة إلا عند المواطن الرومانى . وليس معنى ذلك أنها لم تكن موجودة قبل ذلك فى مكان آخر أنه لم يكن معترفاً بها فى شرع المدن الأخرى . وسيتضح ذلك مما سنقوله عن المركز القانونى للرعايا تحت حكم روما . وكان الوالد فى الشرع الأثينى السابق على صولون يستطيع أن يبيع أبناءه (بلوتارخوس : صولون ١٣و٢٣)

هذا وقد كان الأمر فى السلطة الأبوية كما كان فى السلطة الزوجية . فكان مبدؤها وشرط وجودها هو العبادة المنزلية فالابن المولود من سُرِّيَّة لم يكن تحت سلطة الأب ، ولم يكن بين الأب وبينه مشاركة فى الديانة ؛ فلم يكن هناك إذن ما يمنح لأحدهما السلطة ويفرض على الآخر الطاعة . فالأبوة وحدها لا تعطى أى حق للأب .

وبفضل الديانة المنزلية كانت الأسرة هيئة صغيرة منظمة ، جماعة صغيرة لها رئيسها وحكومتها. وليس فى مجتمعنا الحديث شىء ما يستطيع أن يعطينا فكرة عن هذه السلطة الأبوية . فإن الوالد فى ذلك الزمن العتيق لم يكن يقتصر على أن يكون الرجل القوى الذى يحمى ، والذى بيده السلطة لكى يجعل نفسه مطاعاً ، بل كان الكاهن ووارث الموقد والمتمم لأجداده وأرومة سلالته ، ومستودع الشعائر الخفية للعبادة والصيغ السرية للدعاء . كانت الديانة مستقرة كلها فيه

ونفس الاسم الذى يطلق عليه ، *pater* ، يحمل فى ذاته معلومات غريبة. واللفظ هو بذاته فى اللغات الإغريقية واللاتينية والسنسكريتية . ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن هذا اللفظ يرجع إلى عصر كان أسلاف الإغريق والإيطاليين والهنود لازالوا يعيشون فيه معا فى آسيا الوسطى . فماذا كان معناه ؟ وأية فكرة كان يمثلها عندئذ فى ذهن الناس ؟ من الممكن أن نعرف ذلك إذ أنه احتفظ بهذا المعنى الأول فى صيغ اللغة الدينية وفى صيغ اللغة القضائية ، فعندما كان القدماء يدعون چوپيتر ويسمونه *pater hominum Deorumque* لم يكونوا يريدون أن يقولوا إن چوپيتر كان والد الآلهة والناس إذ أنهم لم يعتبروه كذلك أبداً ، بل على العكس كانوا يعتقدون أن الجنس البشرى كان موجوداً قبله . وكان يطلق نفس اللقب على نيپتون وأپولون وباكخوس وڤولكان وپلوتون ومن المؤكد أن الناس لم يكونوا يعتبرونهم أباء لهم (١) . وكذلك كان يطلق لقب *mater* على

---

(١) Aulu-Gelle, V, 12: *Jupiter. . . . Sic et Neptunuspater conjuncte dictus est et Saturnuspater et Marspater*. Lactance, *Instit.*, IV, 3: *Juipter a precantibus pater vocatur, et Saturnus et Janus et Liber et ceteri* . وكان بلوتون يسمى *Dis Pater* (فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ٦٦ ؛ سيسرون: طبيعة الآلهة ٢ : ٢٦). وكان يستعمل نفس اللفظ للاله التيبر فى الأدعية *Tiberine Pater, te, Sancte, precor* (تيتوس ليفيوس ٢ : ١٠) ويسمى فرجيليوس الإله فولكان *Pater Lemnius* إله لمنوس .

مينرفا وديانا وڤستا اللواتى اشتهرن بأنهن آلهات عذارى . وكذلك فى اللغة القضائية كان يمكن أن يعطى لقب *pater* أو *paterfamilias* لرجل ليس له أولاد وليس متزوجاً بل وفى سن لا تسمح بالزواج (١) . إذن لم تكن فكرة الأبوة مرتبطة بهذا اللفظ وكان فى اللغة القديمة لفظ آخر يدل على الوالد دلالة صحيحة وهو قديم مثل لفظ *pater* ولذلك يوجد له مثيل فى لغات الإغريق ، *γεννητήρ* ، والرومان ، *genitor* ، والهنود ، *gânitar* . وكان لكلمة *pater* معنى آخر يطبق فى اللغة الدينية على جميع الآلهة وفى لغة القانون على كل رجل لا يتبع أى شخص آخر وله سلطة على أسرة وعلى ملك *paterfamilias* . ويرينا الشعراء أنهم كانوا يستعملونه لجميع من كانوا يريدون تكريمهم : فكان العبد والمولى يطلقه على سيده وكان مرادفاً للألفاظ *rex, ἄναξ, βασιλεὺς* ولم يكن يتضمن معنى الأبوة بل يتضمن معنى القوة والسيادة والرتبة الرفيعة .

إن اطلاق لفظ كهذا على والد الأسرة بحيث استطاع أن يصبح بالتدريج أكثر أسمائه شيوعاً لهو بكل تأكيد حدث ذو دلالة بينة ويبدو خطيراً لمن يريد أن يعرف الأنظمة العتيقة . ويكفى تاريخ هذا اللفظ لكى يعطينا فكرة عن السلطة التى باشرها الأب فى الأسرة زمناً طويلا وعن الشعور المنطوى على التوقير الذى لازمه كحبر أعظم وكسلطان .

٢ — تعداد الحقوق التى كانت تتكون منها السلطة الأبوية

كانت القوانين الإغريقية الرومانية تعترف للأب بتلك السلطة التى لا حد لها والتى خلعتها الديانة عليه من قبل . ويمكن إدراج الحقوق العديدة جداً والمتباينة جداً التى منحته إياها فى ثلاث فئات بحسب ما إذا اعتبرنا أب الأسرة رئيساً دينياً أو صاحب ملك أو قاضياً .

١ — الأب هو الرئيس الأعلى للديانة المنزلية ؛ وهو الذى ينظم كل احتفالات العبادة كما يبدو له ، أو ، على الأصح ، كما رأى والده يقوم بها . وليس فى

---

(١) البيانوس فى الديجست ، ١ : ٦ : ٤ : *Patres familiarum sunt qui sunt suae potestatis, sive puberes, sive impuberes.*

الأسرة من ينازعه فى سيادته الكهنوتية ، ولا تستطيع المدينة ذاتها ولا أحبارها أن يغيروا شيئاً ما فى عبادته . وباعتباره كاهنا للموقد لا يعترف بأى رئيس .

وهو المسؤول باعتباره رئيساً دينياً عن دوام العبادة وبالتالى عن دوام الأسرة وهو الذى يتعلق به دون سواه كل ما يتصل بهذا الدوام ، الذى يعد أول ما يعنى به وأول واجب فرض عليه . ومن هنا جاءت سلسلة بأسرها من الحقوق :

حق الاعتراف بالطفل عند مولده أو إنكاره . هذا الحق تعطيه القوانين الإغريقية للأب (١) كما تعطيه له القوانين الرومانية . وبالرغم مما فيه من همجية فإنه لا يناقض المبادىء التى تقوم عليها الأسرة . فإن المولد لا يكفى للدخول فى الدائرة المقدسة للأسرة حتى ولوكان خالياً من النزاع بل لابد من قبول الرئيس وتلقين العبادة . طالما أن الطفل لم يشرك فى العبادة المنزلية فإنه لا يعد شيئاً بالنسبة للوالد .

حق طلاق الزوجة ، سواء فى حالة العقم ،إذ يجب ألا تنقرض الأسرة ،أو فى حالة الزنا ، إذ لا بد أن تكون الأسرة والذرية نقية من كل فساد .

حق تزويج البنت أى التنازل لآخر عن السلطة التى له عليها ،وحق تزويج الابن لأن زواج الابن يهم دوام الأسرة .

حق التحرير ، أى إقصاء ابن عن الأسرة وعن العبادة . وحق التبنى ،أى إدخال أجنبى بجوار الموقد المنزلى .

حق تعيين وصى لزوجته ولأولاده عند موته .

ولابد من ملاحظة أن جميع هذه الحقوق كانت من حق الوالد وحده دون جميع أعضاء الأسرة الآخرين . ولم يكن للمرأة الحق فى الطلاق ، على الأقل فى العصور القديمة . ولم تكن تستطيع حتى وهى أرملة أن تحرر أو تتبنى . ولم تكن إطلاقاً وصية حتى على أبنائها . وفى حالة الطلاق كان الأولاد يبقون مع الوالد حتى البنات منهم . ولم يكن أبناؤها تحت سلطتها إطلاقاً . وعند زواج ابنتها لم تكن موافقتها مطلوبة . (٢)

---

(١) هيرودوت ١ : ٥٩ . بلوتارخوس : الكيبيادیس ٢٣ ؛ اغيسيلاوس ٣

(٢) ديموسثينيس : ضد إوبوليديس ٤٠ و٤٣ . غايوس ١ : ١٥٥ . أولبيانوس ٨ : ٨ . القواعد ١ : ٩ . ديجست الكتاب الأول ، الباب ١ : ١١

٢ — رأينا فيماسبق أنهم لم يكونوا يتصورون التملك فى الأصل كحق فردى ، بل كحق للأسرة . فكانت الثروة تتبع الأسلاف والذرية كما يقول أفلاطون صراحة وكما يقول جميع الشارعين القدماء ضمناً ، ولم يكن هذا الملك يقتسم بحكم طبيعته نفسها . فلم يكن بمستطاع أن يوجد فى كل أسرة غير مالك واحد ، وهو الأسرة ذاتها ، وغير منتفع واحد بالثمار ألا وهو الوالد . وهذا المبدأ يفسر عدة نظم فى الشرع القديم .

حيث أن الملك غير قابل للقسمة ويقوم بأكمله على الوالد فلا المرأة ولا الولد يملكان شيئاً خاصاً بهما . فقد كان نظام البائنة عندئذ مجهولا ولا يمكن العمل به . فكانت بائنة المرأة ملكاً للزوج من غير تحفظ وله على أملاك البائنة حقوق المالك لا حقوق المدبر لها فحسب . وكل ما تستطيع المرأة أن تحصل عليه أثناء الزواج يسقط فى يد الزوج بل إنها لا تسترد بائنتها عندما تصبح أرملة (١) .

وكان الابن فى نفس الحالة التى كانت عليها المرأة : فلم يكن يملك شيئاً . وأية هبة يعطيها لم تكن نافذة بسبب أنه لم يكن لديه شىء خاص به . ولم يكن يستطيع أن يكتسب شيئاً ، فكانت ثمار عمله وأرباح تجارته لأبيه . فإذا ما أوصى له أجنبى بشىء فإن أباه هو الذى يتلقى الشىء الموصى به وليس هو . وهذا يفسر نص القانون الرومانى الذى يحرم كل عقد بيع بين الأب والابن . فلو أن الوالد باع لابنه لكان بائعاً لنفسه ما دام الولد لا يكتسب إلا لأبيه (٢) .

نرى فى الشرع الرومانى ، ويوجد أيضاً فى قوانين أثينا ، أن الوالد كان يستطيع أن يبيع ابنه (٣) ذلك لأن الأب كان يستطيع أن يتصرف فى جميع

---

(١) غايوس ٢ : ٩٨ . كل هذه القواعد من الشرع الأقدم قد غيرها الشرع البريتورى — وكذلك فى أثينا فى عصر إيسايوس وديموستينيس كانت تعاد البائنة فى حالة انحلال الزواج . ولا نقصد أن نتكلم فى هذا الفصل إلا عن الشرع الأقدم .

(٢) سيسرون : القوانين ١ : ٢٠ . غايوس ٢ : ٨٧ . ديجست : الكتاب ١٨ الباب ١ : ٢

(٣) بلوتارخوس : صولون ١٣ . ديونيسيوس الهاليكارنسى ٢ : ٢٦ . غايوس ١ : ١١٧ ، ١٣٢ ؛ ٦ : ٧٩ . ألبيانوس ١٠ : ١ . تيتوس ليفيوس ٤١ : ٨ . فستوس تحت لفظ *Deminutus*

الملك الذى كان فى الأسرة وأن الولد ذاته كان يمكن اعتباره ملكاً مادام عمله وذراعاه مورد دخل . فكان للوالد الخيار فى أن يحتفظ لنفسه بهذه الأداة من أدوات العمل أو أن يتنازل عنها لسواه . والتنازل عنها هو ما كان يسمونه بيع الابن . والنصوص التى لدينا من الشرع الرومانى لاتدلنا دلالة واضحة على طبيعة هذا العقد من عقود البيع ولا التحفظات التى كان يمكن أن يحتويها . ويبدو مؤكداً أن الابن الذى يباع هكذا لم يكن يصبح تماماً عبداً للمشترى ، بل كان فى استطاعة الوالد أن يشترط بيع الابن له من جديد . وحينئذ كان يحتفظ بسلطته عليه ، وبعد أن يسترده يستطيع أن يبيعه مرة أخرى (١) . وقد سمح قانون اللوحات الإثنتى عشرة بهذه العملية لثلاث مرات ، لكنه أعلن أنه بعد هذا البيع ثلاثا يحرر الابن فى النهاية من السلطة الأبوية (٢) . ويمكن أن نحكم من ذلك كم كانت سلطة الأب مطلقة فى الشرع العتيق (٣) .

٣ — نعلم من بلوتارخوس أن النساء فى روما لم يكنّ يستطعن الظهور فى ساحة العدل ولو كشاهدات (٤) . ونقرأ فى الفقيه غايوس: «يجب أن نعلم أنه لا يمكن فى التقاضى التنازل عن شىء للأشخاص الذين هم تحت السلطة أى المرأة والابن والعبد . إذ أنه ما دام هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون أن يكون لهم شىء ما خاصاً بهم فقد استنتجوا بحق أنهم لا يستطيعون كذلك أن يطالبوا بشىء ما بطريق التقاضى . فإذا ارتكب ابنك الخاضع لسلطتك جناية فإن القضية ترفع عليك . والجريمة التى يرتكبها الابن ضد والده لا ينشأ عنها أى

---

(١) Gaïus, I, 140: *Quem pater ea lege vendidit ut sibi remancipa-retur, tunc pater potestatem propriam reservare sibi videtur.*

(٢) *Si pater filium ter venumduit, filius a patre liber esto* (apud Ulpian., *fragm.*, X, 1).

(٣) إذا ارتكب الابن جريمة كان فى استطاعة الأب أن يتخلص من مسؤوليته بتسليمه كتعويض للشخص المجنى عليه: Gaïns. 1, 140; *Quem pater ex noxali causa mancipio dedit, velut qui furti nomine damnatus est et eum mancipio actori dedit. . . hunc actor pro pecunia habet.*

فى هذه الحالة يفقد الوالد سلطته (انظر سيسرون: الدفاع عن كيكينا (Caecina) ٣٤؛ الخطيب ١ : ٤٠

(٤) بلوتارخوس : بوبليكولا (Publicola) ٨

تقاض»(١). من كل هذا ينتج بوضوح أن المرأة والولد لايستطيعان أن يكونا مدعيين أو مدعى عليهما ولا متهمين ولا شاهدين. فمن بين جميع الأسرة لا يستطيع أن يظهر أمام محكمة المدينة سوى الوالد. لأن العدالة العامة غير موجودة إلا له، ولذلك كان مسئولا عن الجنايات التى يرتكبها ذووه.

وإذا كانت العدالة بالنسبة للولد وللزوجة غير موجودة فى المدينة فما ذلك إلا لأنها كانت فى المنزل. وقاضيهما هو رئيس الأسرة، وهو يجلس كما لو كان فى محكمة بمقتضى سلطته الزوجية أو الأبوية، باسم الأسرة وبمرأى من الآلهة المنزليين (٢).

يروى تيتوس ليڤيوس أن مجلس الشيوخ عندما أراد أن يستأصل احتفالات باكخوس (Bacchanales) من روما قرر عقوبة الموت على من ساهموا فيها. وقد نفذ المرسوم بسهولة فى المواطنين، ولكن فيما يختص بالنساء، ولم يكنّ أقل الجميع خطيئة، اعترضت صعوبة خطيرة: فالنساء لم يكنّ خاضعات لقضاء المدينة، والأسرة فقط هى صاحبة الحق فى محاكمتهن. وقد احترم مجلس الشيوخ هذا المبدأ القديم وترك للأزواج والآباء عبء الحكم على النساء بالإعدام (٣).

وهذا الحق فى المقاضاة الذى كان يباشره رئيس الأسرة فى منزله كان كاملا وغير قابل للاستئناف، فكان يستطيع أن يحكم بالإعدام كما كان يفعل القاضى فى المدينة وليس لأية سلطة أن تعدل فى قراراته. يقول كاتون الأكبر «الزوج هو قاضى زوجته وليس لسلطته حد فهو يستطيع ما يريد: فإذا ارتكبت خطأ عاقبها، وإذا شربت خمراً حكم عليها، وإذا اتصلت برجل آخر قتلها». وكذلك كان الشرع فيما يختص بالأبناء. يذكر ڤالريوس ماكسيموس شخصاً يدعى اتيليوس (Atilius) قتل ابنته التى أتت بفاحشة. ويعرف الجميع ذلك

(١) غايوس: ٢: ٩٦؛ ٤: ٧٧، ٧٨.

(٢) جاء وقت غيرت فيه العادات هذه المحكمة فاستشار الوالد جميع الأسرة وأقامها محكمة برئاسته: تاسيتوس: الحوليات ١٣: ٣٢. ديجست: السفر ٢٣ الباب ٤، ٥. أفلاطون: القوانين ٩.

(٣) تيتوس ليفيوس ٣٩: ١٨.

الوالد الذى قتل ابنه شريك كاتيلينا . » (١)

والحوادث التى من هذا القبيل متعددة فى التاريخ الرومانى. وإنها لفكرة خاطئة أن نعتقد أنه كان للوالد الحق المطلق فى قتل زوجته وأولاده، فقد كان قاضيهم وإذا حكم عليهم بالموت فما ذلك إلا بمقتضى حقه فى القضاء. وحيث أن والد الأسرة كان هو الوحيد الخاضع لقضاء المدينة فإنه لم يكن باستطاعة المرأة ولا الابن أن يجدا قاضياً سواه إذ كان هو فى أسرته القاضى الوحيد .

هذا ولا بد من ملاحظة أن السلطة الأبوية لم تكن سلطة تحكمية كما تكون السلطة المستمدة من حق الأقوى بل كان مبدؤها فى العقائد التى كانت فى قرارة النفوس وكانت تجد حدودها فى نفس هذه العقائد . فكان للوالد الحق مثلا فى إقصاء الابن من أسرته لكنه كان يعلم جيداً أنه إذا فعل ذلك تعرضت الأسرة لخطر الانقراض وتعرضت أرواح هذه الأسرة لأن تهوى فى نسيان أبدى . كان من حقه أن يتبنى الأجنبى لكن الديانة كانت تحرم عليه أن يفعل ذلك إذا كان له ابن . كان الوالد هو المالك الوحيد للأملاك، لكن لم يكن من حقه، فى البدء على الأقل، أن يتخلى عنها . كان يستطيع أن يطلق زوجته لكنه لكى يفعل ذلك كان يتحتم عليه أن يجرؤ على تحطيم الرباط الدينى الذى أقام الزواج. وهكذا كانت الديانة تفرض على الوالد التزامات بقدر ما كانت تخلعه عليه من حقوق .

ظلت الأسرة العتيقة على هذا المنوال زمناً طويلا . وقد كانت العقائد التى تنطوى عليها النفوس كافية ، بدون حاجة إلى حق القوة أو إلى نفوذ سلطة اجتماعية ، لتكوينها تكويناً منتظماً ومنحها نظاماً وحكومة وعدلا ، ولتثبيت القانون الخاص بكل تفاصيله .

---

(١) كاتون فى أولوس جيليوس ١٠ : ٢٣ ؛ فالريوس ماكسيموس ٦ : ١، ٣-٦ . وكذلك كان يسمح القانون الإغريقى للزوج أن يقتل زوجته الزانية (Schol. *ad Horat.*, *Sat.*, II, 7, 62)
ويسمح للوالد ان يبيع بيع الرقيق ابنته الملوثة الشرف (بلوتارخوس : صولون ٢٣) . — المقصود بهذا أولوس فولفيوس Fulvius وهو ابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ وقد قبض عليه أبوه وهو ذاهب ينضم لكاتيلينا وأعدمه (سالوستيوس: كاتيلينا ٣٩) - المعرب

الفصل التاسع

الأخلاق العتيقة في الأسرة

لا يقتصر التاريخ على دراسة الأحداث المادية والأنظمة . فهدف دراسته الحقيقى هو النفس البشرية ؛ وعليه أن يتطلع إلى معرفة ما كانت تؤمن به هذه النفس وتفكر فيه وتشعر به فى مختلف عصور حياة الجنس البشرى .

وقد عرضنا فى أول هذا الكتاب عقائد عتيقة كوّنها الإنسان عن مصيره بعد الموت . ثم قلنا كيف انتجت هذه العقائد الأنظمة المنزلية والقانون الخاص. بقى أن نبحث فى أثر هذه العقائد فى الأخلاق فى الجماعات البدائية . ومن غير أن نزعم أن هذه الديانة القديمة قد خلقت الإحساسات الخلقية فى قلب الإنسان يمكن أن نعتقد على الأقل أنها اشتركت معها فقوتها وأعطتها سلطة أكبر ووطدت سلطانها على سلوك الإنسان وحقها فى توجيهه ، وفى بعض الأحيان أيضاً ضللتها.

كانت ديانة هذه العصور الأولى منزلية خالصة ، وكذلك كانت الأخلاق فلم تكن الديانة تقول للرجل وهى تشير إلى رجل آخر : ها هو ذا أخوك . بل كانت تقول له : هاك أجنبياً ، إنه لا يستطيع أن يساهم فى إجراءات موقدك الدينية ولا يستطيع أن يقترب من قبر أسرتك ، إن له آلهة أخرى غير آلهتك . ولا يستطيع أن يرتبط بك بدعاء مشترك ، فإن آلهتك ترفض عبادته وتعتبره عدواً لها ، فهو عدو لك أيضاً .

فى ديانة الموقد هذه لا يدعو الرجل المعبود لصالح قوم آخرين قط . فلا يدعوه إلا لنفسه أو لذويه . وقد بقى مثل إغريقى كذكرى وكبقية لهذه العزلة القديمة من جانب الإنسان فى الصلاة فكانوا فى عصر پلوتارخوس يقولون للرجل

الأنانى : أنت تضحى للموقد (١) . يقصدون بذلك : أنت تبتعد عن مواطنيك وليس لك أصدقاء وليس اشباهك بشىء عندك . أنت لا تعيش إلا لنفسك وذويك . كان هذا المثل علامة على زمن كانت فيه كل ديانة حول الموقد ولم يكن أفق الأخلاق والعاطفة يتجاوز دائرة الأسرة الضيقة .

ومن الطبيعى أنه كان للفكرة الخلقية ابتداؤها ومراحل تقدمها كما كان للفكرة الدينية ، فكان إله الأجيال الأولى من هذا الجنس صغيراً جداً . ثم جعله الناس أكبر شيئاً فشيئاً . كذلك الأخلاق كانت فى البدء جد ضيقة وناقصة نقصاً كبيراً ثم اتسعت اتساعاً غير محسوس إلى أن وصلت ، من تقدم إلى تقدم ، إلى إعلان واجب المحبة نحو جميع الناس . كانت نقطة ابتدائها هى الأسرة فإن الواجبات قد ظهرت لأنظار الناس لأول مرة تحت فعل عقائد الديانة المنزلية .

ولنتصور ديانة الموقد والقبر هذه وهى فى عنفوان شبابها . يرى الإنسان المعبود على مقربة منه ؛ وهو ، كالضمير ذاته ، يشهد أتفه أعماله . كان هذا الكائن المستضعف واقعاً تحت أنظار شاهد لا يفارقه فهو لا يشعر إطلاقاً بأنه وحيد فإن له بجواره ، فى منزله وفى حقله ، حماة يعينونه على مشاق الحياة ، وقضاة يجازونه على السىء من أعماله . يقول الرومان « إن اللاريس (*Lares*) آلهة يخشى جانبها مكلفة بعقاب بنى البشر والسهر على كل ما يجرى بداخل المنزل » . — ويقولون أيضاً « البِناتيس (*Penates*) هم الآلهة الذين يجعلوننا نعيش ، يغذون أجسامنا ، وينظمون أرواحنا . » (٢)

وكانوا يحبون أن ينعتوا الموقد بالعفيف (٣) . وكانوا يعتقدون أنه كان يأمر الناس بالعفة ويجب ألا يرتكب بمشهد منه أى دنس سواء كانت دناسته مادية أو معنوية .

ويبدو أن الأفكار الأولى عن الخطيئة والعقاب والتكفير إنما جاءت من هنا فالرجل الذى يشعر بأنه مذنب لا يستطيع أن يقترب من موقده بعد ذلك . فإن

(١) *Παροιμία τῇ ἑστίᾳ θύομεν ἐφ' ὧν οὐκ ἔστι μεταδοῦναι οὐδὲ ἐξενέγκειν.*
Ἑστίᾳ θύσεις, Pseudo-Plutarch., édit. Duebner, V. 167.
Eustathe, *in Odyss., VII, 247:*

(٢) بلوتارخوس : المسائل الرومانية ٥١ . ماكروبوس : ساتورناليا ٣ : ٤

(٣) *Ἁγνοῖς ἑστίας βάθροις* أوريبيديس : هراكليوس الهائج ٧٠٥ .

إلهه يصده . فلن يسمح لسافك دم بتقديم قربان ولا إراقة سوائل ولا صلاة ولا أكلة مقدسة . لقد كان الإله من الصرامة بحيث لا يقبل أى عذر . إنه لا يميز بين قتل غير متعمد وبين جريمة مع الاصرار فاليد الملوثة بالدم لن تستطيع أن تمس الأشياء المقدسة (١) . ولكى يستطيع الإنسان أن يعود إلى عبادته ويسترد إلهه كان لا بد له من التطهر بحفلة تكفيرية على الأقل (٢) . إن هذه الديانة تعرف الرحمة . ولها شعائر لمسح أدناس النفس . ومهما كانت ضيقة وجافية فإنها كانت تعرف كيف تعزى الإنسان عن أخطائه ذاتها .

وإذا كانت تجهل واجبات الإحسان جهلا مطلقاً فإنها كانت ترسم للإنسان على الأقل واجباته نحو الأسرة بوضوح يدعو إلى الاعجاب . كانت تجعل الزواج إلزامياً فإن العزوبة جريمة فى نظر ديانة تجعل من دوام الأسرة أول الواجبات وأكثرها قداسة . لكن القران الذى تفرضه كان لا يمكن أن يتم إلا بمشهد من المعبودات المنزلية . ذلك هو القران الدينى بين الزوج والزوجة، القران المقدس الذى لافكاك منه . وعلى الإنسان ألا يعتقد أنه مسموح له أن ينبذ الشعائر وأن يجعل من الزواج مجرد عقد برضى الطرفين كما كان الأمر فى أواخر عهد المجتمعين الإغريقى والرومانى . فإن هذه الديانة العتيقة تحرم عليه ذلك . وإذا تجاسر على فعله عاقبته عليه . إذ أن الولد الذى قد يولد من مثل هذا القران يعتبر نغلا ، أى كائناً لا مكان له بجوار الموقد ، ولا حق له فى القيام بأى عمل مقدس : إنه لا يستطيع أن يصلى (٣) .

وتسهر نفس هذه الديانة على طهارة الأسرة فأكبر جريمة يمكن أن ترتكب فى نظرها هى جريمة الزنا . إذ أن القاعدة الأولى فى العبادة هى أن الموقد ينتقل

---

(١) هيرودوت ١ : ٣٥ . فرجيليوس : الإنييد ٢ : ٧١٩ . بلوتارخوس: ثيسييوس ١٢

(٢) هيرودوت ١ : ٣٥ . أيسخيلوس : حملات السوائل ٩٦ . وقد وصف ابولونيوس الروديسى الاحتفال (Apollonius de Rhode, IV, 704-707)

(٣) إيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ٤٧ . ديموسثينيس : ضد ماكارتاتوس ٥١ :
Νόθῳ δὲ μὴ εἶναι ἀγχιστείαν μήθ' ἱερῶν μηθ' ὁσίων
وكانت ديانة العصور المتأخرة تحرم على ال *νόθος* أن يقوم بالشعائر ككاهن انظر Ross, *Inscr. gr.*, III, 52

من الأب إلى الابن ، والزنا يدخل الاضطراب فى نظام المولد . والقاعدة الأخرى أن القبر لا يحوى غير أعضاء الأسرة ، وابن الزنا يعد غريباً يدفن فى القبر . إنه اعتداء على كل مبادىء الديانة : فالعبادة دنست والموقد أصبح نجساً وكل قربان أصبح إثماً ، بل هناك ما هو أدهى من ذلك : يحطم الزنا سلسلة الذرية ، فالأسرة قد انقرضت حتى دون أن يعلم الأحياء بذلك ، ولم تعد هناك سعادة إلهية للأسلاف لذا يقول الهندى : «فى هذه الحياة وفى الأخرى يبيد ابن الزنا القرابين المقدمة للأرواح . » (١) .

تلك إذن هى العلة فى أن قوانين الإغريق وروما كانت تعطى للوالد الحق فى إنكار الطفل الوليد . وتلك هى العلة أيضاً فى أنها كانت فى هذه الدرجة من الصرامة وهذه الدرجة من القسوة على الزنا . ففى أثينا كان يسمح للزوج بقتل المذنب ، وفى روما كان الزوج باعتباره قاضى الزوجة يحكم عليها بالإعدام . وكانت هذه الديانة من الشدة بحيث لم يكن للإنسان حتى الحق فى العفو التام . بل كان مضطراً أن يطلق زوجته على الأقل (٢) .

ها هى إذن القوانين الأولى للأخلاق المنزلية قد وجدت ووضع لها جزاؤها . ها هى ذى ، علاوة على العاطفة الطبيعية ، ديانة آمرة تقول للرجل والمرأة إنهما ارتبطا إلى الأبد ، وإنه تنشأ من هذا القران واجبات دقيقة يجلب نسيانها أخطر العواقب فى هذه الحياة وفى الحياة الأخرى . ومن هنا أتت جدية الارتباط الزوجى عند القدماء وقداسته ، والطهارة التى احتفظت بها الأسرة زمناً طويلا .

---

(١) قوانين مانو ٣ : ١٧٥ .

(٢) ديموستينيس : ضد نيأيرا ٨٦ . من الحق أنه إذا كانت هذه الأخلاق البدائية تحرم الزنا فانها لم تكن تنهى عن زواج المحرمات : فكانت الديانة تسمح بذلك . كان التحريم الخاص بالزواج على عكس المتبع لدينا . فكان من المحمود أن يتزوج الانسان بأخته (قورنيليوس نيبوس : الاستهلال *(prooemium)* ؛ حياة كيمون c. 1 . منوقيوس فليكس (Minucius Felix) ؛ أوكتافيوس ٣٠) . لكن الزواج من امرأة من بلدة أخرى كان محرماً من حيث المبدأ .

تفرض هذه الأخلاق المنزلية واجبات أخرى فتقول للزوجة إن عليها أن تطيع ، وللزوج إن له أن يأمر ، وتعلم الإثنين أن يحترم كل منهما الآخر. للزوجة حقوقها إذ أن لها مكانها بجوار الموقد . فهى المكلفة بالسهر على ألا ينطفىء وهى على الأخص التى يجب عليها أن تكون متنبهة إلى بقائه طاهراً . وهى تدعوه وتقدم له القرابين(١). فلها إذن سدانته . وحيث لا توجد الزوجة تكون العبادة المنزلية ناقصة وغير وافية ، إنها لمصيبة كبرى للإغريق أن يكون له «موقد محروم من الزوجة» (٢) . وعند الرومان كان حضور الزوجة فى القرابين واجباً إلى حد أن الكاهن كان يفقد كهونته إذا ما أصبح أرملا (٣) .

ويمكن الاعتقاد بأن أم الأسرة كانت مدينة لهذه القسمة فى الكهنوت المنزلى بالتبجيل الذى لم ينقطعوا إطلاقاً عن إحاطتها به فى المجتمعين الإغريقى والرومانى. ومن هنا جاء أن المرأة كانت تحمل فى الأسرة نفس اللقب الذى كان يحمله زوجها . يقول اللاتينيون *paterfamilia, materfamilia* والإغريق *οἰκοδεσπότης, οἰκοδέσποινα* والهنود grihapatni, grihapati . ومن هنا جاءت أيضاً هذه الصيغة التى كانت تتلوها المرأة فى الزواج الرومانى *Ubi tu Caius, ego Caia* ، وهى صيغة تحدثنا بأنه إذا لم تكن فى المنزل مساواة فى السلطة فقد كانت فيه على الأقل مساواة فى الكرامة . (٤)

---

(١) Caton, *De re rust.*, 143: *Rem divinam faciat . . . Focum purum habeat*. Macrobe, I, 15, *in fine: Nupta in domo viri rem facit divinam*. قارن ديونيسيوس الهاليكارناسى ٢ : ٢٢ .

(٢) اكسينوفون : حكومة اللاقيديمونيين ٩ : ٥ : *Γυναικὸς κενὴν ἑστίαν*

(٣) بلوتارخوس : مسائل رومانية . ٥ انظر ديونيسيوس الهاليكارناسى ٢ : ٢٢

(٤) لذلك يخطىء الإنسان كثيراً إذا تكلم عن خضوع المرأة الرومانية المحزن *in manu mariti* فان كلمة manus لا تتضمن فكرة القوة البهيمية بل السلطة ، وتنطبق على سلطة الوالد على البنت أو سلطة الأخ على الأخت كما تنطبق على سلطة الزوج على المرأة . تيتوس ليفيوس ٣٤ : ٢ : *Feminas in manu esse parentum, fratrum, virorum* كانت المرأة المتزوجة سيدة المنزل طبقاً للشعائر؛ ماكروبوس ١ : ١٥ نهاية الفقرة : *Nupta in domo viri DOMINIUM adipiscitur* ويعبر ديونيسيوس الهاليكارناسى (٢ : ٢٥) عن مركز المرأة تعبيراً جلياً : « باطاعتها زوجها فى كل شىء كانت سيدة المنزل مثله » .

أما الابن فقد رأيناه خاضعاً لسلطة والد يستطيع أن يبيعه وأن يحكم عليه بالإعدام . لـكن هذا الابن له دوره فى العبادة أيضاً . فله وظيفة يقوم بها فى الاحتفالات الدينية ؛ وحضوره فى بعض الأيام من الضرورة بحيث كان الرومانى الذى لا ابن له مضطراً أن يتبنى بصفة صورية ، ولتلك الأيام ، ابنا للقيام بالشعائر (١) . انظر أية رابطة قوية تقيمها الديانة بين الأب والابن ! كانوا يعتقدون فى حياة أخرى فى القبر ، حياة سعيدة وهادئة إذا ما قدمت الأكلات الجنازية بانتظام . وهكذا كان الوالد مقتنعاً بأن مصيره بعد هذه الحياة يتوقف على عناية ابنه بقبره ، وكان الابن مقتنعاً من ناحيته أن أباه المتوفى سيصبح يوماً ما إلها وأنه سيضرع إليه .

ويمكن أن نحزر كل ما كانت هذه العقائد تضعه فى الأسرة من الاحترام والعطف المتبادل . كان القدماء يطلقون على الفضائل المنزلية اسم البر (*pietas*) فكان من البر طاعة الابن لأبيه وحبه لأمه *pietas erga parentes*. وكان من البر كذلك ملازمة الأب لابنه وعطف الأم *pietas erga liberos* . كان كل شىء فى الأسرة مقدساً : فالشعور بالواجب والمودة الطبيعية والفكرة الدينية ، كل ذلك كان يمتزج بعضه ببعض ولا يكوّن إلا شيئاً واحداً ، وتعبر عنه كلمة واحدة .

وقد يبدو غريباً جداً أن يعد حب المنزل بين الفضائل . لـكنه كان واحدة منها عند القدماء . كان هذا الإحساس عميقاً وقوياً فى نفوسهم . تأملوا أنخيسيس (Anchise) الذى يرى طروادة وهى تحترق ومع ذلك لا يريد أن يغادر مسكنه القديم . تأملوا أوديسيوس (Ulysse) ، الذى تعرض عليه جميع الـكنوز بل الخلود وهو لا يريد إلا أن يرى لهيب موقده من جديد . ولنتقدم إلى سيسرون ؛ فليس الذى يتكلم هنا شاعراً بل رجلا من رجال الدولة : «هنا ديانتى ، هنا أرومتى ، هنا آثار آبائى ؛ لا أدرى أى سحر هنا يتغلغل فى قلبى وحـواسى .»(٢) يجب أن نعود بفكرنا إلى أقدم الأجيال لكى ندرك إلى أى حد كانت حادة وقوية هذه المشاعر ،

---

(١) ديونيسيوس الهاليكارناسى ٢ : ٢٠ ، ٢٢ .
(٢) سيسرون : القوانين ٢ : ١ ؛ من أجل المنزل ٤١ .

التى كانت قد ضعفت فى زمن سيسرون . فالمنزل عندنا ما هو إلا مسكن ، إلا ملجأ ، نهجره وننساه من غير كبير عناء ، وإذا تمسكنا به فما ذلك إلا بقوة العادات والذكريات ، فعندنا أن الديانة ليست هناك . إلهنا إله الكون ، نجده فى كل مكان . لكنه كان غير ذلك عند القدماء . فإنهم كانوا يجدون داخل منازلهم معبودهم الرئيسى وملاذهم الذى كان يحميهم فرداً فرداً ويسمع دعاءهم ويستجيب إلى توسلاتهم . أما خارج منزله فلا يشعر المرء بإله ما . وكان إله الجار إلها عدواً. فكان الإنسان وقتذاك يحب منزله كما يحب المرء اليوم كنيسته (١) .

وهكذا لم تكن عقائد العصور الأولى بمعزل عن التطور الأخلاقى لهذا الجزء من الإنسانية . فقد كانت هذه الآلهة تفرض الطهارة وتحرم سفك الدماء . فإذا كانت فكرة العدالة لم تولد من هذه العقيدة فإنها على الأقل قد استمدت القوة منها . كانت هذه الآلهة تابعة بالمشاع لجميع أعضاء أسرة بذاتها . وهكذا وجدت الأسرة نفسها متحدة برباط قوى وتعلم كل أعضائها أن يتحابوا وأن يحترم بعضهم بعضا . كانت هذه الآلهة تعيش داخل كل منزل . فكان الإنسان يحب منزله، مسكنه الثابت الدائم ، الذى تلقاه عن أجداده ويخلفه لأبنائه كقدس من الأقداس .

كانت الأخلاق العتيقة التى نظمتها هذه العقائد تجهل الإحسان لكنها علمت الفضائل المنزلية على الأقل . كانت عزلة الأسرة عند هذا الجنس ابتداء الأخلاق . هنا ظهرت الواجبات واضحة محددة ملزمة لكنها محصورة فى دائرة محدودة . ويجب أن نتذكر ، فيما يتلو من هذا الكتاب ، صفة الضيق هذه فى الأخلاق الأولى : إذ أن المجتمع المدنى الذى تأسس فيما بعد على نفس المبادىء اكتسى بنفس الطابع ؛ وكثير من النواحى الغريبة فى السياسة القديمة تجد تفسيرها هنا(٢).

---

(١) من هنا قداسة المسكن الذى اعتبره القدماء دائماً مما لا يمكن الاعتداء عليه : ديموسثينيس ضد اندروتيون ٥٢ ؛ ضد إيفرغوس (Evergos) ٦٠. ديجست *De in jus voc.*, II, 4

(٢) هل هناك حاجة للقول بأننا حاولنا فى هذا الفصل أن نضع يدنا على أقدم أخلاق الشعوب التى أصبحت فيما بعد الإغريق والرومان ؛ وهل هناك حاجة لكى نضيف أن هذه الأخلاق قد تغيرت فيما بعد مع الزمن على الأخص عند الاغريق ؟ إننا لنجد حتى فى الالياذة عواطف جديدة وأخلاقاً أخرى ؛ سيبينها ما يتلو من هذا الكتاب .

الفصل العاشر

الفصيلة (Gens) فى روما وفى بلاد الأغريق

نجد عند فقهاء الرومان وكتاب الإغريق آثاراً من نظام عتيق يبدو أنه كان فى شدة عنفوانه فى العصر الأول من المجتمعات الإغريقية والإيطالية ، لكنه ضعف رويداً رويداً ولم يترك غير بقايا لا يكاد يدركها الحس فى الجزء الأخير من تاريخها . نريد أن نتكلم عما كان اللاتينيون يسمونه *gens* والإغريق *γένος*

كثيراً ما جادلوا فى طبيعة الفصيلة (*gens*) وتكوينها ؛ وقد لا يخلو من الفائدة أن نتكلم أولا عن الأصل فى صعوبة هذه المعضلة .

كانت الفصيلة (*gens*) ، كما سنرى فيما بعد ، تكوّن هيئة قائمة على نظام متشبع بروح السراة (الأرستقراطية) ، وبفضل نظامها الداخلى استطاع البطارقة (patriciens) فى روما والنسباء (Eupatrides) فى أثينا أن يبقوا على امتيازاتهم زمناً طويلا . وبمجرد أن تغلب الحزب الشعبى لم يتهاون فى محاربة هذا النظام القديم بكل قواه . ولو أنه استطاع أن يقضى عليه قضاء تاماً لكان من المحتمل ألا تبقى لنا منه أقل ذكرى . لكنه كان شديد الحيوية ومتأصلا فى الأخلاق بدرجة فذة فلم يكن ليزال إزالة تامة . واكتفوا بتعديله ، بأن نزعوا منه ما كان ميزته الجوهرية ، ولم يتركوا منه إلا أشكاله الخارجية التى لم تكن تضايق النظام الجديد فى شىء . وهكذا تصور السوقة فى روما أن يكونوا فصائل (*gentes*) تقليداً للبطارقة . أما فى أثينا فقد حاولوا أن يقلبوا الفصائل *γένη* رأساً على عقب وأن يدمجوها معاً ويستبدلوا بها الأحياء (dèmes) التى أقاموها على نمطها ؛ وسنفسر هذه الأحداث عندما نتكلم عن الثورات . ويكفى أن نلاحظ هنا أن من شأن هذا التعديل العميق ، الذى أدخلته حكومة العامة (الديمقراطية) فى نظام الفصيلة أن يضلل من يريد أن يعرف التكوين الأصلى . إذ أن كل المعلومات التى وصلت

إلينا عنها ترجع إلى العصر الذى كانت قد تحولت فيه ، فهى لا ترينا إلا ما تركته الثورات باقياً منها .

لنفرض أنه فى بحر عشرين قرناً قد اختفت كل معرفة بالعصور الوسطى وأنه لم تبق أية وثيقة عما سبق ثورة ١٧٨٩ ، ومع هذا أراد مؤرخ من ذلك العصر أن يكوّن لنفسه فكرة عن الأنظمة السابقة فإن الوثائق الوحيدة التى تحت يده ستريه أشراف القرن التاسع عشر ، أعنى شيئاً يختلف اختلافاً جسيما عن نظام الإقطاعيات . لكنه يتذكر أن ثورة كبيرة وقعت فى الفترة بينهما ، ويستنتج من ذلك بحق أنه لا بد أن هذا النظام قد تغير ككل الأنظمة الأخرى . وهذه الطبقة من الأشراف ، التى تريها له نصوصه ، لن تكون فى نظره إلا ظلا ، أو صورة متغيرة جداً ، لطبقة أخرى من الأشراف كانت أقوى منها قوة لا نظير لها . ثم إذا هو فحص بانتباه البقايا الضئيلة من هذا الأثر العتيق (بعض تغيرات باقية فى اللغة ، وبعض مصطلحات مرقت من القانون ، وبعض ذكريات غامضة أو حسرات عقيمة) فلربما استطاع أن يحزر شيئاً من نظام الإقطاعيات وأن يكون لنفسه فكرة عن القرون الوسطى لا تبعد كثيراً عن الحقيقة . حقاً إن الصعوبة ستكون كبيرة ، وهى ليست أقل بالنسبة لمؤرخ اليوم الذى يريد أن يعرف الفصيلة العتيقة إذ ليست لديه عنها بيانات أخرى غير تلك التى ترجع إلى زمن لم تكن فيه إلا خيالا لما كانت عليه .

سنبدأ بتحليل كل ما يقوله لنا الكتاب القدماء عن الفصيلة ، أى ما تبقى منها فى العصر الذى كانت قد تغيرت فيه ، وبمساعدة هذه البقايا سنحاول أن نستشف النظام الحقيقى للفصيلة *(gens)* العتيقة .

١ — ما نعلمه عن الفصيلة *(gens)* من الكتاب الأقدمين

إذا فتحنا التاريخ الرومانى فى عصر الحروب البونية وجدنا ثلاثة أشخاص يسمون : كلوديوس پولخر Claudius Pulcher وكلوديوس نيرو Claudius Nero وكلوديوس كنتو Claudius Centho وينتمى الثلاثة جميعاً إلى فصيلة *gens* واحدة هى الفصيلة كلوديا *gens* Claudia

يقدم ديموستينيس فى إحدى مرافعاته سبعة شهود يشهدون بأنهم من *γένος* واحدة وهى فصيلة البريتيين (Brytides) . والجدير بالملاحظة أن هؤلاء الأشخاص السبعة ، المذكورين كأعضاء من نفس الفصيلة ، كانوا مقيدين فى ستة أحياء (dèmes) مختلفة . وفى هذا دليل على أن الفصيلة لا تقابل الحى بالضبط ، ولم تكن مثله مجرد قسم إدارى (١) .

ها هو ذا الحدث الأول قد تثبتنا منه : كانت هناك فصائل *(Gentes)* فى روما وفى أثينا . ويمكن أن نذكر أمثلة خاصة بعدد كبير من المدن الأخرى من بلاد الإغريق وإيطاليا وأن نستنتج منها بطريق الترجيح أن هذا النظام كان عاماً عند هذه الشعوب القديمة .

كان لكل فصيلة عبادة خاصة . فى بلاد الإغريق كانوا يعرفون أعضاء الفصيلة *(Gens)* الواحدة من «أنهم كانوا يقدمون القرابين معاً منذ عصر بعيد جداً » (٢). ويذكر بلوتارخوس المكان الذى كان يقدم فيه الليقوميديين (Lycomèdes) أضاحيهم ، ويتكلم أيسخينيس عن مذبح البوتيين (Butades) (٣).

وفى روما أيضاً كان لكل فصيلة إجراءات دينية تقوم بها . وتحدد ديانتها الخاصة اليوم والمكان والشعائر (٤). هاهم أولاء الغاليون يحاصرون الكابيتوليوم وها هو ذا أحد أفراد أسرة فابيوس يخرج منه ويخترق خطوط الأعداء مرتدياً الملابس الدينية ويحمل فى يده الأشياء المقدسة ويذهب لتقديم القربان على مذبح فصيلته الواقع على الكويرناليس. وفى الحرب البونية الثانية كان فابيوس آخر، وهو الملقب بترس روما ، يصمد فى وجه هانيبال ؛ ومن المؤكد أن الجمهورية كانت فى شديد الحاجة إلى عدم تركه جيشها ومع ذلك فقد تركه فى يد مينوقيوس

---

(١) ديموستينيش : ضد نيأيرا ٧١ . أنظر بلوتارخوس : ثيميستوكليس . ايسخينيس : قضية السفارة ١٤٧ Hésychiuns : Boeckh, *Corp. inscr.*, no 385. Ross, *Demi Attici*, 24 وكثيراً ما تسمى الفصيلة عند الإغريق *Πάτρα* انظر بنداروس فى مواضع متفرقة .

(٢) Harpocration *Γεννῆται : ʽΕκάστη τῶν φρατριῶν διήρητο εἰς γένη Τριάκοντα ἐξ ὧν αἱ ἱερωσύναι αἱ ἑκάστοις προσήκουσαι ἐκληροῦντο.*
Hésychius : *Γεννῆται, οἱ τοῦ αὐτοῦ γένος μετέχοντες κα᾽ ἄνωθεν ἀπ᾽ ἀρχῆς ἔχοντες κοινὰ ἱερά.*

(٣) بلوتارخوس : ثيميستوكليس . أيسخينيس : قضية السفارة (*De falsa legat.*, 147)

(٤) Cicéron, *De Arusp. resp.*, 15 . ديونيسيوس الهاليكارناسى ١١ : ١٤ . فستوس تحت لفظ *propudi* طبعة ميلر ٢٣٨

(Minucius) الأهوج . ذلك لأن عيد تقديم القربان عند فصيلته قد حان وكان لا بد له من الإسراع إلى روما ليقوم بالعمل المقدس (١).

وكان لا مفر من أن تستمر هذه العبادة من جيل إلى جيل ، وكان من الواجب أن يترك المرء أبناء من بعده لكى يستمروا فيها . ترك كلوديوس وهو خصم شخصى لسيسرون فصيلته لكى يدخل فى أسرة سوقية فقال له سيسرون : «لماذا تترك ديانة فصيلة كلوديا تنقرض بسبب سوء تصرفك ؟ .» (٢).

ولم يكن آلهة الفصيلة *Dii gentiles* يشعرون بسواها أو يريدون أن يدعوهم غيرها . وما من غريب يستطيع أن يقبل فى حفلاتها الدينية . فكانوا يعتقدون أنه إذا حصل أجنبى على جزء من الأضحية بل إذا حضر القربان فقط فإن آلهة الفصيلة تغضب ويصبح جميع أعضاء الفصيلة تحت وزر إثم خطير .

وكما كان لكل فصيلة عبادتها وأعيادها الدينية ، فقد كان لها أيضاً قبرها المشترك . فنقرأ فى مرافعة لديموسثينيس : «عندما فقد هذا الرجل أبناءه دفنهم فى قبر آبائه ، فى هذا القبر المشترك بين جميع أهل فصيلته » ؛ ويدل سياق المرافعه على أنه ما من أجنبى يمكن أن يدفن فى هذا القبر . وفى خطبة أخرى يتكلم نفس الخطيب عن القبر الذى تدفن فيه طائفة البوسيليين (Busélides) أعضاءها والذى تقدم فيه كل عام قرباناً جنازياً : «مكان الدفن هذا حقل على شىء من السعة يحيط به سور حسب العادة القديمة.» (٣).

وكذلك كانت الحال عند الرومان. فيتكلم فيلييوس (Velléius) عن قبر الفصيلة كوينتيليا (gens Quintilia) ويخبرنا سويتونيوس بأن قبر فصيلة كلوديا (gens Claudia) كان على سفح أكمة الكابيتوليوم (٤) .

يعتبر شرع روما القديم أن أعضاء الفصيلة أهل لأن يرث بعضهم بعضاً . وتقضى اللوحات الإثنتا عشرة أنه فى حالة انعدام الأبناء والعصبة (agnats) ، يصبح

---

(١) تيتوس ليفيوس ٥ : ٤٦ ؛ ١٨:٢٢ . فاليريوس ماكسيموس ١:١:١١ . بوليبيوس ٣ : ٩٤ . بلينيوس ٣٤ : ١٣ . ماكروبوس ٣ : ٥ .

(٢) سيسرون : من أجل المنزل ١٣

(٣) ديموسثينيس : ضد ماكارتاتوس ٧٩ ؛ ضد إوبوليديس ٢٨ .

(٤) سويتونيوس : طيبريوس ١ ، ١ فيلييوس (Velléius ، ٢ : ١١٩

عضو الفصيلة (*gentilis*) وارثاً طبيعياً : فعضو الفصيلة فى هذا الشرع هو أقرب من القريب عن طريق الدم (cognat) أى أقرب من الأقرباء عن طريق النساء (١).

ما من شىء أكثر ارتباطاً بعضه ببعض من أعضاء الفصيلة ، فهم متحدون فى القيام بنفس الاحتفالات المقدسة ويتعاونون فى كل مطالب حاجات الحياة. فالفصيلة بأكملها ضامنة لدين الفرد من أعضائها ؛ تفتدى الأسير وتدفع غرامة المحكوم عليه وإذا أصبح أحد ذويها من أصحاب المناصب تكتتب لدفع النفقات التى يتطلبها منصبه (٢).

يصحب المتهم كل أعضاء فصيلته إلى المحكمة : وتلك علامة على التضامن الذى يقيمه القانون بين الرجل والهيئة التى ينتمى إليها . وإنه لعمل مناف للديانة أن يقاضى المرء رجلا من فصيلته ، بل أن يشهد عليه . كان رجل يدعى كلوديوس شخصية هائلة وخصما شخصياً لأپيوس كلوديوس (Appius Claudius) أحد أعضاء مجلس العشرة (decemvir). فلما حوكم هذا الأخير وهدد بالموت تقدم كلوديوس ليدافع عنه واستعطف الشعب له ، بيد أنه لم يفته التنبيه إلى أنه إذا كان قد قام بهذا المسعى «فإن ذلك لم يكن من باب المحبة بل من باب الواجب» (٣).

إذا لم يكن لعضو من الفصيلة الحق فى استدعاء عضو آخر أمام قضاء المدينة فما ذلك إلا لأنه كان له قضاء آخر فى الفصيلة ذاتها . فقد كان لكل واحدة منها عميد هو قاضيها وكاهنها وقائدها الحربى معاً (٤) . وإنا لنعرف أنه عندما جاءت أسرة كلوديوس السابينية لتقيم فى روما كان الثلاثة آلاف شخص الذين كانت تتكون منهم يطيعون رئيساً واحداً . ونرى فيما بعد، عندما تكفل آل فابيوس بالقيام بالحرب وحدهم ضد سكان ڤييس (Véies) ، أنه كان لهذه الفصيلة رئيس

---

(١) غايوس ٣ : ١٧ . ديجست ٣ : ٣ : ١

(٢) تيتوس ليفيوس ٥ : ٣٢ . ديونيسيوس الهاليكارناس : القطعة ١٣ : ٥ . أبيانوس : هانيبال ٢٨ .

(٣) تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٨ ، ديونيسيوس الهاليكارناسى ١١ : ١٤ .

(٤) ديونيسيوس الهاليكارناس ٢ : ٧

يتكلم باسمها أمام مجلس الشيوخ ويقودها لملاقاة العدو (١) .

وفى بلاد الإغريق أيضاً كان لكل فصيلة عميد . تشهد بذلك النقوش المكتوبة ، وترينا أن هـذا العميد كان يحمل بصفة عامة لقب زعيم (archonte) (٢). وأخيراً كان للفصيلة مجامعها فى روما كما فى بلاد الإغريق وكانت تصدر مراسيم يتحتم على أعضائها الخضوع لها وتحترمها المدينة ذاتها (٣) .

تلك كانت مجموعة العادات والقوانين التى لا نزال نجدها نافذة فى العصور التى كانت الفصيلة قد ضعفت فيها وتكاد أن تستبدل بطبيعتها طبيعة أخرى . تلك هى بقايا هذا النظام العتيق (٤) .

٢ — مناقشة بعض الآراء التى أبديت لتفسير الفصيلة *gens* الرومانية

اقترحت عدة مذاهب فى هذا الموضوع المعروض لمجادلات العلماء منذ زمن طويل . يقول البعض إن الفصيلة ما هى إلا تماثل فى الأسماء ؛ وعند آخرين أن الفصيلة ما هى إلا تعبير عن الصلة بين أسرة لها الولاية وأسرة أخرى موالية لها . وكل من هذين الرأيين يتضمن جزءاً من الحقيقة لكنه ما من واحد منهما يقابل كل سلسلة الوقائع والقوانين والعادات التى عددناها آنفاً .

---

(١) ديوينسيوس الهاليكارناسى ٩ : ٥

(٢) Boeckh, *Corp. inscr.*, nos 397, 399. Ross, *Demi Attici*, 24

(٣) تيتوس ليفيوس ٦ : ٢٠ . سويتونيوس : طيبريوس Ross, *Demi Attici*, 24

(٤) حاول سيسرون أن يعرف الفصيلة: *Gentiles sunt qui inter se eodem nomine sunt, qui ab ingenuis oriundi sunt, quorum majorum nemo servitutem servivit* (Cic., *Topiques* 6). هذا التعريف ناقص، فهو يشير إلى بعض علامات خارجية أكثر مما يشير إلى صفات جوهرية. ويبدو أنه كانت لسيسرون، الذى كان من طبقة السوقه ، آراء مبهمة جداً عن الفصيلة فى العصور العتيقة فيقول (Tusculanes, I, 16) إن الملك سرفيوس تيليوس كان *gentilis* معه : *(meo regnante gentili)*. وأن شخصاً يدعى فروكينوس (Varrucinus) يكاد يكون *gentilis* مع فريس (Verrès) (ضد فريس ٢ : ٧٧) .

وفى نظرية أخرى تدل كلمة فصيلة على نوع من القرابة المصطنعة : فالفصيلة هى مجموع سياسى من عدة أسرات كانت فى الأصل غريبة بعضها عن بعض. ولما كانت صلة الدم مفقودة فقد أقامت المدينة بينها اتحاداً وهمياً وقرابة مصطلحاً عليها .

وأول اعتراض على ذلك هو أنه إذا لم تكن الفصيلة سوى اجتماع مصطنع فكيف نفسر أنه كان لأعضائها حق التوارث فيما بينهم . ولماذا يفضل عضو الفصيلة (*gentilis*) على القريب عن طريق الدم (*cognatus*) ؟ لقد رأينا فيما سبق قواعد الإرث وبينا أية صلة وثيقة وضرورية كانت تقيمها الديانة بين حق الارث وبين القرابة عن طريق الذكور . فهل يجوز الظن بأن القانون القديم كان يبتعد عن هذا المبدأ إلى حد أن يمنح التركة لأعضاء الفصيلة لو أن هؤلاء كانوا غرباء بعضهم عن بعض .

أبرز مميزات الفصيلة ، والمحقق منه أكثر من سواه ، هو أن للفصيلة عبادة فى ذاتها كما كان للأسرة عبادتها . فإذا بحثنا فيما هو الإله الذى كانت تعبده كل واحدة منها لاحظنا أنه دائما سلف مؤله ، وأن المذبح الذى كانت تحمل إليه القرابين ما هو إلا قبر . فى أثينا يبجل الإيمولپيون (Eumolpides) إيمولپوس (Eumolpos) أرومة جنسهم ، ويعبد الفيتاليون (Phytalides) فيتالوس (Phytalos) ، والبوتيون بوتس (Butès) ، والبوسيليون بوسيلوس (Busélos) ، واللاكيائيون (Lakiades) لاكيوس (Lakios) ، والأميناندريون (Amynandrides) كِكروپس (Cecrops) (١) . وفى روما ينحدر آل كلوديوس من كلوسوس (Clausus) ، ويمجد الكيكيليون (Caecilius) البطل كيكولوس (Caeculus) باعتباره رأس جنسهم ، والكالپورنيون (Calpurnius) من يدعى كالپوس (Calpus) ، واليوليون (Julius) شخصاً يدعى يولوس (Julus) ، والكليليون (Cloelius) من يدعى كليلوس (Cloelus) (٢) .

---

(١) ديموسثينيس : ضد ماكارتاتوس ٧٩ . بوسانياس ١ : ٣٧ . نقش الأميناندريين اقتبسه روس Ross ص ٢٤ .

(٢) فستوس تحت الألفاظ : *Caeculus, Calpurnii, Cloelia*

حقاً إنه مسموح لنا أن نعتقد أن الـكثير من سلاسل الأنساب هذه قد اختلقت فيما بعد . لـكنه يجب الاعتراف بأن هذه الخدعة ما كانت تجد مبرراً لو لم تكن العادة الثابتة لدى الفصيلة الحقيقية أن تعترف بسلف مشترك وأن تؤدى له العبادة . فإن الـكذب يسعى دائماً لتقليد الحقيقة .

هذا ولم يكن ارتكاب الخدعة هيناً كما يبدو لنا . فإن هـذه العبادة لم تكن صيغة جوفاء للتظاهر . فقد كانت هناك قاعدة من أكثر قواعد الديانة صرامة تحتم ألا يمجد كسلف إلا أولئك الذين يتحدر المرء منهم حقيقة . وكان تقديم هذه العبادة لأجنبى إثما خطيراً . فإذا عبدت الفصيلة سلفاً مشتركاً فما ذلك إلا لأنها كانت تعتقد بإخلاص أنها متحدرة منه . أما تقليد القبر وتزييف الأعياد والأكلات الجنازية فمعناه إدخال الـكذب فى أقدس ما لديهم والاستهزاء بالدين. مثل هذا الاختلاق كان ممكناً فى عصر قيصر عند ما أصبحت ديانة الأسرات القديمة لا تحرك ساكناً فى أحد . لـكنا إذا انتقلنا إلى الزمن الذى كانت هذه العقائد قوية فيه فإننا لا نستطيع أن نتصور أن عدة أسرات قد اتحدت فى مخادعة واحدة وقالت لنفسها : سنتظاهر بأن لنا سلفا واحداً ونقيم له قبراً ونقدم له أكلات جنازية وتعبده ذريتنا فى جميع العصور التالية . مثل هذه الفكرة لم يكن يجوز أن تعرض للأذهان أو كان يجب أقصاؤها كفكرة خاطئة .

فى المعضلات الصعبة التى كثيراً ما يجود بها التاريخ يستحسن أن نتلمس فى مصطلحات اللغة كل المعلومات التى تستطيع أن تعطيها ، فقد يفسر اللفظ كنه المنظمة التى كان يطلق عليها . ولفظ *gens* هو بالضبط لفظ *genus* إلى درجة أنه كان من المستطاع استعمال الواحد بدل الآخر وأن يقال *gens Fabia* و *genus Fabium,* بلا فارق بينهما . (١) وكلاهما يقابل الفعل *gignere* والاسم *genitor* مقابلة تامة كما أن *γένος* تقابل *γενναι* و *γονεὺς* وكل هذه الألفاظ تحمل فى ذاتها فكرة البنوة . كما أن الإغريق كانوا يطلقون على أعضاء الفصيلة لفظ *ὁμογάλακτες* ومعناه الراضعون من نفس اللبن (٢) . فلنقارن بجميع هـذه الألفاظ تلك

---

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٤٦ : *Genus Fabium*

(٢) *Γεννῆται,* Philochore, dans les *Fragm. hist. graec.*, t. I. p. 399: *οἱ ἐκ τοῦ αὐτοῦ τῶν τριάκοντα γένων, οὕς καὶ πρότερόν φησι φιλόχορος ὁμογάλακτας καλεῖσθαι.* - Pollux VIII, 11 : *Οἱ μετέχοντες τοῦ γένους γεννῆται καὶ ὁμογάλακτες.*

التى تعودنا أن نترجمها بكلمة أسرة : فى اللاتينية *familia* وفى الإغريقية *Oἶκος* ، لاهذه ولا تلك تحمل فى ذاتها معنى التناسل أو القرابة. فإن معنى *familia* الحقيقى هو المِلك . فهى تدل على الحقل ، المنزل ، المال ، الأقرباء . ولهذا تقول اللوحات الإثنتاعشرة عند الكلام على الوارث : *familiam nancitor* ليأخذ التركة . أما *Oἶκος* فمن الواضح أنها لا تعرض فى الذهن أية فكرة غير فكرة الملك أو المنزل ومع ذلك فإن هذه الألفاظ هى التى نترجمها عادة بكلمة أسرة . فهل من المقبول أن ألفاظاً معناها الذاتى مسكن أو ملك قد استطاعت أن تستعمل فى كثير من الأحيان للدلالة على الأسرة بينما كلمات أخرى معناها الذاتى بنوة ومولد وأبوة لم تكن تدل إطلاقاً إلا على تجمع مصطنع ؟ من المجزوم به أن ذلك لا يتفق مع وضوح اللغات القديمة ودقتها . ولا ريب أن الإغريق والرومان كانوا يعلقون على الألفاظ *gens* و *γένος* فكرة أصل مشترك ، ويجوز أن تكون هذه الفكرة قد محيت عندما تغيرت الفصيلة لكن الكلمة ظلت باقية لتكون شاهداً عليها .

فالمذهب الذى يمثل الفصيلة كتجمع مصطنع يجد ضده : أولا ، التشريع القديم الذى يعطى لعضو الفصيلة *(gentilis)* حق الإرث ؛ ثانياً، العقائد الدينية التى لا تريد مشاركة فى العبادة إلا حيث توجد مشاركة فى المولد ؛ ثالثاً ، مصطلحات اللغة التى تدل على أن فى الفصيلة أصلا مشتركاً . وفى هذا المذهب عيب آخر وهو افتراضه أن الجماعات البشرية قد استطاعت أن تبدأ كنتيجة لاتفاق أو لحيلة وهو ما لا يستطيع علم التاريخ أن يقبله كشىء صحيح .

٣ — الفصيلة gens هى الأسرة عندما كانت لا تزال حافظة لنظامها الأصلى ووحدتها . كل شىء يعرض الفصيلة علينا كما لو كان يجمع بينها رباط المولد . فلنستفت اللغة مرة أخرى : أسماء الفصائل فى بلاد الإغريق كما فى روما موضوعة فى الصيغة المستعملة فى اللغتين لأسماء الأبوة : كلوديوس Claudius معناه ابن كلوسوس (Clausus) وبوتاديس ابن بوتس Butès

يبدأ أولئك الذين يعتقدون أنهم يرون فى الفصيلة تجمعاً مصطنعاً من نقطة خاطئة فهم يظنون أن الفصيلة تشمل دائماً عدة أسرات لها أسماء مختلفة ويؤثرون

التمثل بالفصيلة قورنيليا (Cornélia) التى كانت تشمل فى الحقيقة آل سقيپيو (Scipio) وآل لنتولوس (Lentulus) وآل قوسوس (Cossus) وآل سيلا Sylla. لكن الأمر أبعد من أن يكون كذلك دائماً. إذ يبدو أنه لم يكن للفصيلة ماركيا Marcia غير فرع واحد على الدوام. ولا نرى إلا فرعاً واحداً فقط فى الفصيلة لوكريتيا (gens Lucrétia) والفصيلة كوينتيليا (gens Quintilia) لزمن طويل. ومن الصعب جداً بكل تأكيد أن نقول ما هى الأسرات التى كونت فصيلة فابيا (gens Fabia)؛ إذ من الجلى أن جميع آل فابيوس المعروفين فى التاريخ كانو ينتمون لطبقة واحدة؛ فى البدء كانوا يحملون جميعاً نفس اللقب ڤيبولانوس (Vibulanus) ثم استبدلوا به جميعاً لقب امبوستوس (Ambustus) ثم استعملوا بدله فيما بعد لقب ماكسيموس (Maximus) أو دورسو (Dorso).

من المعروف أن العادة فى روما هى أن يحمل كل بطريق ثلاثة أسماء. فكان أحدهم مثلا يتسمى پوبليوس قورنيليوس سقيپيو (Publius Cornélius Scipio) وليس من العبث أن نبحث أى هذه الأسماء الثلاثة كان يعتبر الاسم الحقيقى. لم يكن پوبليوس سوى اسم وضع فى المقدمة *praenomen*، وسقيپيو اسم مضاف *agnomen*، والاسم الحقيقى *nomen* هو قورنيليوس. وهذا الاسم هو فى نفس الوقت اسم الفصيلة (*gens*) بأكملها. فلو لم يكن لدينا غير هذا البيان الوحيد عن الفصيلة العتيقة لكان كافياً لكى نؤكد أنه كان هناك أشخاص باسم قورنيليوس قبل أن يوجد أشخاص اسمهم سقيپيو، وليس كما يقال أحياناً أن أسرة سقيپيو انضمت لأسرات أخرى لكى تكون الفصيلة قورنيليا.

والواقع أننا نرى من التاريخ أن الفصيلة قورنيليا ظلت زمناً طويلا غير منقسمة وأن كل أعضائها كانوا يحملون اللقب (*cognomen*) مالوغيننسيس (Maluginensis) واللقب قوسوس (Cossos). وفى عصر الدكتاتور كاميلوس Camille فقط اتخذ أحد فروعها لقب سقيپيو. وبعد ذلك بقليل اتخذ فرع آخر لقب روفوس (Rufus) الذى استبدل به

فيما بعد لقب سيلا (Sylla) . ولم يظهر آل لنتولوس (Lentulus) إلا فى زمن الحروب السامنية وآل كيثيغوس (Cethégus) إلا فى الحرب البونية الثانية. وكذلك كان الحال فى الفصيلة كلوديا . ظل آل كلوديوس متحدين زمناً طويلا فى أسرة واحدة ويحملون جميعاً لقب سابينوس (Sabinus) أو ريغيلنسيس (Regillensis) علامة على أصلهم. ويمكن أن نتتبعهم خلال سبعة أجيال دون أن نتبين فروعاً فى هذه الأسرة الكثيرة العدد . وإنما فى الجيل الثامن فقط ، أى فى عصر الحرب البونية الأولى ، نرى ثلاثة فروع ينفصل بعضها عن بعضها وتتخذ ثلاثة ألقاب تصبح وراثية فيها : أولئك هم آل كلوديوس پولخر (Claudius Pulcher) الذين استمروا خلال قرنين من الزمان ، وآل كلوديوس كنثو (Claudius Centho) الذين لم يلبثوا أن انقرضوا ، وآل كلوديوس نيرو (Claudius Nero) الذين استمروا إلى زمن الإمبراطورية .

يتبين من كل هذا أن الفصيلة لم تكن تجمع أسرات بل كانت هى الأسرة ذاتها وكان فى استطاعتها على السواء ألا تحوى غير سلسلة نسب واحدة أو أن تنتج عدة فروع . فما هى إلا أسرة واحدة على الدوام .

هذا ومن السهل أن نتبين تكوين الفصيلة العتيقة وطبيعتها إذا مارجعنا إلى العقائد القديمة والأنظمة القديمة التى لاحظناها أعلاه . بل إن الإنسان ليعترف أن الفصيلة مشتقة اشتقاقاً طبيعياً من الديانة المنزلية ومن القانون الخاص فى الأزمنة القديمة . وفى الواقع ماذا تقرر هذه الديانة الأولى؟ تمجيد السلف ، أى الرجل الذى كان أول من دفن فى القبر ، تمجيداً أبدياً كإله ، واجتماع الذرية كل عام بجوار المكان المقدس الذى يرقد فيه ليقدموا له الأكلة الجنازية . هذا الموقد المشتعل على الدوام ، هذا القبر الذى يمجد دواماً بالعبادة ، ذلك هو المركز الذى تأتى جميع الأجيال لتعيش حوله والذى به تبقى كل فروع الأسرة ، مهما كان عددها ، مجتمعة فى شرذمة واحدة . ثم ما ذا يقول القانون الخاص فى تلك العصور القديمة ؟ رأينا ، بينما نحن نلاحظ ما كانت عليه السلطة فى الأسرة القديمة ، أن الابن لم يكن ينفصل عن الوالد ؛ ولاحظنا ، عند دراسة قواعد انتقال

الميراث ، أن الإخوة الصغار لم يكونوا ينفصلون عن الأخ الأكبر بفضل مبدأ المشاركة فى الملك . فالموقد والقبر والميراث ، كل ذلك كان غير قابل للقسمة فى الأصل . وكذلك كانت الأسرة بالتبعية ؛ لم يكن الزمن ليمزقها . تلك الأسرة غير القابلة للقسمة ، والتى كانت تمتد على مدى العصور مخلدة عبادتها واسمها من قرن إلى قرن ، تلك هى الفصيلة العتيقة . كانت الفصيلة هى الأسرة ، لكنها الأسرة التى احتفظت بالوحدة التى تأمرها بها ديانتها ، والتى بلغت كل كل التطور الذى سمح لها القانون الخاص القديم ببلوغه (١) .

إذا ما قبلنا هذه الحقيقة فإن كل ما يقوله لنا الكتاب القدماء عن الفصيلة يصبح واضحاً . ولن يكون فى ذلك التضامن الوثيق الذى لاحظناه بين أعضائها منذ هنيهة ما يدعو إلى العجب : فهم أقرباء من حيث المولد ، والعبادة التى

---

(١) لا حاجة إلى العودة إلى ماقلناه أعلاه (الكتاب الثانى الفصل الخامس) عن العصبية *(agnatio)* ؛ وقد استطعنا أن نرى أن العصبية وعضوية الفصيلة *(gentilitas)* تصدران عن نفس المبادىء ، وهما قرابة من نفس القبيل . والفقرة من قانون اللوحات الإثنتى عشرة التى تجعل الميراث من نصيب أعضاء الفصيلة عند انعدام العصبة قد حيرت الفقهاء وجعلتهم يظنون أن هناك فارقاً جوهرياً بين هذين النوعين من القرابة ولكن هذا الفارق لا يرى فى أى نص . فكان الانسان عاصباً *(agnatus)* كما كان عضوا فى الفصيلة *(gentilis)* عن طريق الذرية المذكرة والروابط الدينية . ولم يكن بين الاثنين فارق إلا فى الدرجة وقد أصبح واضحاً على الأخص ابتداء من الفترة التى انفصلت فيها فروع الفصيلة الواحدة بعضها عن بعض . فكان العاصب عضواً من الفرع ، وعضو الفصيلة عضوا من الفصيلة . وعندئذ تقرر بين مصطلحى عضو الفصيلة والعاصب نفس الفرق الذى كان بين لفظى فصيلة *(gens)* وأسرة *(familia)* . يقول أولبيانس (أولبيانوس ، فى ديجيست السفر ٥ الباب ١ الفقرة ١٩٥) : familiam dicimus omnium agnatorum . فاذا كان المرء عاصباً بالنسبة لرجل ما فانه من باب أولى يكون عضو فصيلة (جنتيليا) معه . لكنه من المستطاع أن يكون المرء عضواً وفصيلة من غير أن يكون عاصباً . وكان قانون اللوحات الإثنتى عشرة يعطى الإرث عند انعدام العصبة لمن لم يكونوا إلا أعضاء فصيلة (جنتليين) بالنسبة للمتوفى أى لأولئك الذين كانوا من نفس الفصيلة التى يتمى إليها دون أن يكونوا من فرعه أو أسرته . وسنرى فيما بعد أنه قد دخل فى الفصيلة عنصر أقل مرتبة وهم الموالى : من هنا تكونت رابطة قانونية بين الفصيلة وبين المولى . وهذه الرابطة الدينية تسمت أيضا *gentilitas* فعند سيسرون مثلا (الخطيب ١ : ٣٩) يدل التعبير *jus gentilitatis* على الصلة بين الفصيلة والمولى . وبذلك دل نفس اللفظ على شيئين يجب ألا نخلط بينهما .

يشتركون فى القيام بها ليست خيالا بل أتت إليهم من أسلافهم . وبما أنهم من أسرة واحدة فإن لهم مدفناً مشتركاً . ولنفس السبب يعلن قانون اللوحات الإثنى عشرة أنهم أهل لأن يتوارثوا فيما بينهم . وبما أنه كان لهم جميعاً فى الأصل ميراث واحد غير قابل للقسمة فقد كانت العادة بل الضرورة تقضى أن تكفل الفصيلة بأكملها دين الواحد من أعضائها وأن تدفع فدية الأسير أو غرامة المحكوم عليه . كل هذه القواعد قامت من تلقاء نفسها عندما كانت الفصيلة لا تزال محتفظة بوحدتها . فلما تمزقت الفصيلة لم تستطع هذه القواعد أن تختفى تماماً . وقد بقيت من هذه الوحدة العتيقة المقدسة بين أفراد هذه الأسرة سمات لا تزول ، فى القربان السنوى الذى كان يجمع أعضاءها المشتتين ، وفى التشريع الذى كان يعترف لهم بحق الإرث ، وفى الأخلاق التى كانت توصيهم بالتعاون فيما بينهم .

كان من الطبيعى أن يتسمى أعضاء الفصيلة الواحدة بنفس الأسم وهو أيضاً ما حدث . فاستعمال الاسم الأبوى للأسرة يرجع إلى هذه الفترة السحيقة ويرتبط بشكل ظاهر بهذه الديانة القديمة . فكانت كل فصيلة تتداول اسم السلف من جيل إلى جيل وتبقى عليه بنفس العناية التى تبقى بها على عبادته . فما يسميه الرومان **nomen** ، أى الاسم بالمعنى الصحيح ، إنما هو اسم السلف الذى كان على كل الذرية وعلى كل أعضاء الفصيلة أن يتسموا به . ثم جاء يوم استقل فيه كل فرع من بعض النواحى وميَّز تفرُّدَه باتخاذه لقباً *(cognomen)* . هذا ولما كان على كل شخص أن يمتاز بتسمية خاصة فقد أصبح لكل واحد اسمه المضاف *(agnomen)* مثل غايوس **(Caius)** وكوينتوس (Quintus) . لكن الاسم الحقيقى هو اسم الفصيلة ، وهو الذى كانو يتسمون به بصفة رسمية ؛ وهذا الاسم كان مقدساً ، وهو الذى كان يرتقى إلى أول سلف معروف ولذا كان لا بد أن يبقى ما بقيت الأسرة وآلهتها . — وكذلك كانت الحال فى بلاد الإغريق . فالرومان والإغريق متشابهون فى هذه النقطة أيضاً ، فقد كان لكل إغريقى ؛ على الأقل إذا انتمى إلى أسرة قديمة وذات نشأة منتظمة ، ثلاثة أسماء ؛ مثله فى هذا مثل البطريق فى روما . كان أحد هذه الأسماء خاصاً به ، والآخر اسم أبيه ، وبما أن هذين الاسمين

كانا يتتابعان عادة فيما بينهما فإن مجموع الإثنين كان يساوى اللقب (cognomen) الوراثى الذى كان يطلق فى روما على أحد فروع الفصيلة ؛ وأخيراً الاسم الثالث وهو اسم الفصيلة بأكملها . وبذلك كانوا يقولون كيمون بن ملتياديس اللاكيادى، *Κιμῶν Μιλτιάδου Λακιάδης* وكان اللاكياديون يؤلفون فصيلة *γένος* كما كان القورنيليون يؤلفون فصيلة *gens* ، وكذلك كان البوتيون Butades والفيتاليون Phylatides والبريتيون Brytides والامينانديون Amynandrides وهلم جرا . ويمكن ملاحظة أن پنداروس لا يمدح أبطاله دون أن يذكر اسم الفصيلة التى ينتمون إليها . وكان ينتهى هذا الاسم فى العادة عند الإغريق بالمقطع *ιδης* و *αδης* وبذلك كانت له صيغة الصفة . وكذلك كان اسم الفصيلة عند الرومان ينتهى بالمقطع ius على الدوام . ولا يمنع هذا من أنه كان الاسم الحقيقى . فى اللغة اليومية كان يمكن أن يشار إلى الشخص بلقبه الفردى لكن فى اللغة الرسمية السياسية ، أو الدينية ، كان لابد من إعطاء الشخص تسمية كاملة ويتحتم ، على الأخص ، ألا ينسى اسم الفصيلة *γένος* (١) . ومما هو جدير بالملاحظة أن تاريخ الأسماء عند القدماء قد سلك مسلكاً يختلف اختلافاً كلياً عما سلكه فى الجماعات المسيحية . كان الاسم الحقيقى فى القرون الوسطى لغاية القرن الثانى عشر هو اسم المعمودية أو الاسم الفردى ولم تأت أسماء العائلات إلا فيما بعد باعتبارها أسماء أراض أو ألقاب . ولقد كان الأمر على العكس تماماً عند القدماء . وهذا الاختلاف إذا ما تنبهنا إليه يعود إلى اختلاف الديانتين . فى اعتبار الديانة المنزلية القديمة كانت الأسرة هى الهيئة الحقيقية والكائن الحقيقى الذى لم يكن الفرد إلا عضواً منه لا يمكن انفصاله : لذا كان اسم الأسرة هو الأول من حيث التاريخ والأول من حيث الأهمية . وعلى العكس كانت الديانة الجديدة تعترف للفرد بحياة خاصة وحرية تامة واستقلال شخصى محض ولم تكن تستنكف قط من عزله عن الأسرة لذلك كان اسم المعمودية هو الاسم الأول وبقى الاسم الوحيد زمناً مديداً .

---

(١) حقاً إن حكم العامة (الديموقراطية) قد أحل اسم الحى محل اسم الفصيلة *γένος* وقد كان ذلك نوعاً من التقليد للقاعدة العتيقة والاستحواذ عليها .

٤ — امتداد الأسرة : الرق والولاء

إن ما رأيناه من الأسرة ، ومن ديانتها المنزلية ، ومن الآلهة الذين اصطنعتهم والقوانين التى منحتها لنفسها ، وحق البكورة الذى قامت على أساسه ، ووحدتها ، وتطورها من عصر إلى عصر إلى أن كونت الفصيلة *gens* ، وقضائها ، وكهونتها وحكومتها الداخلية ، كل ذلك يوجه أذهاننا ، بالرغم منا ، نحو فترة أولى كانت الأسرة فيها مستقلة عن كل سلطة عليا ولما تكن المدينة قد وجدت فيها .

فلنتأمل هذه الديانة المنزلية : هذه الآلهة التى لم تكن تنتمى إلا لأسرة واحدة ولم تكن تقوم بدور العناية الآلهية إلا فى داخل منزل ، وهذه العبادة التى كانت سرية ، هذه الديانة التى لم تكن ترغب فى الانتشار ، وهذه الأخلاق العتيقة التى كانت تفرض عزلة الأسرات : إنه لمن الجلى أن عقائد من هذا القبيل لا يمكن أن تنشأ فى أذهان الناس إلا فى فترة لم تكن المجتمعات الكبيرة قد تكونت فيها بعد . فإذا كانت العاطفة الدينية قد قنعت فيما يختص بالإلهيات بفكرة بالغة هذا المبلغ من الضيق فما ذلك إلا لأن المجتمع الإنسانى كان عندئذ متناسباً معها فى الضيق . فإن الزمن الذى لم يكن الإنسان يعتقد فيه إلا فى الآلهة المنزليين هو أيضاً الزمن الذى لم تكن توجد فيه غير الأسرات . ومن الحق البيِّن أن هذه العقائد كانت تستطيع أن تبقى بعد أن تكونت المدن والأمم ، ولزمن مديد ، لأن الانسان لا يتحرر بسهولة من الآراء التى تسلطت عليه يوماً من الأيام . وإذن فقد استطاعت هذه العقائد أن تستمر ولو أنها كانت عندئذ مناقضة للحالة الاجتماعية. وفى الواقع ، أى شىء أكثر تناقضاً من أن يعيش الناس فى مجتمع مدنى بينما لكل أسرة آلهتها الخاصة ؟ ألا إنه من الواضح أن هذا التناقض لم يكن موجوداً على الدوام وإن هذه العقائد كانت تطابق حالة الناس الاجتماعية مطابقة دقيقة فى الوقت الذى استقرت فيه فى الأذهان وبلغت فيه من القوة ما يجعلها ديانة . هذا والحالة الاجتماعية الوحيدة التى يمكن أن تتفق معها هى تلك التى كانت تعيش فيها الأسرة مستقلة منعزلة .

هذه هى الحال التى يبدو أن الجنس الآرى قد عاش فيها زمناً طويلا . تشهد بذلك أناشيد الفيدا فيما يختص بالفرع الذى أنتج الهنود . وتشهد به العقائد القديمة والقانون الخاص القديم عند أولئك الذين أصبحوا فيما بعد الإغريق والرومان .

إذا قارنا الأنظمة السياسية لأريا الشرق مع أنظمة أريا الغرب فإننا لا نكاد نجد أى تشابه . أما إذا قارنا الأنظمة المنزلية لهذه الشعوب المتباينة فإنه يتراءى لنا أن الأسرة كانت مكونة وفقاً لنفس المبادىء فى بلاد الإغريق وفى الهند على السواء . هذا وقد كانت تلك النتائج ، كما لا حظنا أعلاه ، فذة فى طبيعتها بحيث لا نستطيع الظن بأن هذه المشابهة كانت وليدة المصادفة . وأخيراً لا تقتصر الحالة على تشابه هذه الأنظمة بجلاء بل يغلب أن تكون الألفاظ التى تدل عليها هى بذاتها فى اللغات المختلفة التى كان يتكلمها هذا الجنس من نهر الكانج إلى نهر التيبر . ويمكن أن نستخلص من ذلك خلاصتين : إحداهما أن نشأة الأنظمة المنزلية فى هذا الجنس كانت سابقة للفترة التى انفصلت فيها الفروع المختلفة ، والأخرى أن نشأة الأنظمة السياسية كانت على العكس متأخرة عن هذا الانفصال ؛ فقد تحددت الأولى منذ الزمن الذى كان الجنس لا يزال يعيش فيه فى مهده العتيق فى آسيا الوسطى ، وتكونت الثانية رويداً رويداً فى الأقاليم المختلفة التى قادتها الهجرة إليها .

يمكن إذن أن تتراءى لنا فترة طويلة لم يعرف الناس فيها أى نظام للمجتمع غير الأسرة . وفى ذلك الوقت نشأت الديانة المنزلية التى لم يكن فى الاستطاعة أن تولد فى مجتمع قائم على نظام آخر ، بل التى لا بد أنها كانت عقبة فى طريق التطور الاجتماعى زمنا طويلا . وفى ذلك الوقت أيضاً تكوّن القانون الخاص القديم الذى وجد نفسه فيما بعد غير متفق مع مصالح مجتمع على شىء من السعة لكنه كان منسجماً كل الانسجام مع الحالة الاجتماعية التى ولد فيها .

لنضع أنفسنا فكرياً وسط هذه الأجيال العتيقة التى لم تستطع ذكراها أن تبيد إبادة تامة ، تلك التى خلفت عقائدها وقوانينها للأجيال القادمة . كان لكل أسرة ديانتها وآلهتها وكهنوتها ؛ كانت العزلة الدينية قانونها ؛ وكانت

عبادتها سرية . لم تكن الأسرات يختلط بعضها ببعض حتى فى الموت أو فى الوجود الذى يعقب الموت . كانت كل منها تستمر تعيش على حدة فى قبرها الذى يقصى عنه الأجنبى . وكان لكل أسرة ملكها أى نصيبها من الأرض الذى تربطها به ديانتها ارتباطاً لا انفصام له : فآلهة التخوم (Termes) تحرس سوره، وأرواحها تسهر عليه . وكان عزل الملكية إلزامياً إلى حد أنه لم يكن فى الإمكان أن يكون للملكين حدود مشتركة بل يجب أن يترك بينهما نطاق من الأرض يكون محايداً ويبقى معصوماً من الاعتداء . وأخيراً كان لكل أسرة رئيسها كما يكون للأمة مليكها ، ولها قوانينها التى لا ريب فى أنها لم تكن مكتوبة لكن العقيدة الدينية كانت تنقشها فى قلب كل رجل ؛ ولها قضاؤها الداخلى الذى ليس فوقه قضاء يمكن الاستئناف أمامه . كانت الأسرة تملك فى ذاتها كل ما يحتاج إليه الإنسان احتياجاً شديداً لحياته المادية أو لحياته المعنوية فلا حاجة بها لشىء من الخارج ، إنها دولة منظمة ومجتمع يكفى نفسه .

لكن أسرة العصور القديمة هذه لم تكن محدودة بالنسبة التى عليها الأسرة الحديثة . فإن الأسرة تتمزق وتصغر فى المجتمعات الكبيرة ؛ لكنها ، عند انعدام أية جماعة أخرى ، تمتد وتتطور وتتفرع دون أن تنقسم ، ويبقى الكثير من الفروع الصغرى مجتمعاً حول فرع أكبر بالقرب من الموقد الوحيد والقبر المشترك .

وهناك عنصر آخر يدخل أيضاً فى تكوين هذه الأسرة العتيقة . فإن الحاجة المتبادلة ، حاجة الفقير للغنى وحاجة الغنى للفقير قد خلقت الخدم . لكن الخدم والعبيد ، فى هذا النوع من الأنظمة الأبوية ، سيان . وإن الإنسان ليدرك ، فى الحقيقة ، أن مبدأ الخدمة الحرة المبنية على الرضا ، والتى تستطيع أن تنقطع على هوى الخادم ، لا يمكن أن تتفق مع حالة اجتماعية تعيش فيها الأسرة منعزلة . فضلا عن أن الديانة المنزلية لا تسمح بقبول أجنبى فى الأسرة . فلا بد إذن من أن يصبح الخادم بطريقة ما عضواً أو جزءاً متمماً لتلك الأسرة ، وهو ما يمكن الوصول إليه بنوع من تلقين العبادة المنزلية للوافد الجديد .

وترينا عادة غريبة دامت زمناً طويلا فى البيوت الأثينية كيف كان يدخل العبد فى الأسرة . كانوا يجعلونه يقترب من الموقد ، يضعونه فى حضرة المعبود

المنزلى ، ويسكبون ماء النثار على رأسه ، ويقتسم مع الأسرة بعض الكعك والفواكه (١) . وفى هذا الاحتفال ما يشبه احتفال الزواج أو احتفال التبنى . ولا ريب أنه كان يعنى أن الوافد الجديد الذى كان غريباً بالأمس قد أصبح من الآن عضوا فى الأسرة وسيتدين بديانتها . لذلك كان العبد يشهد الأدعية ويشارك فى الأعياد (٢) . فالموقد يحميه وديانة الآلهة اللاريس أصبحت له كما هى لسيده (٣) ، ولهذا كان من الواجب دفن العبد فى مدفن الأسرة .

لكن مجرد حصول الخادم على العبادة والحق فى الدعاء كان يفقده حريته فقد كانت الديانة غلا يقيده ، وكان يرتبط بالأسرة طول حياته وحتى على مدى الزمن الذى يتلو الموت .

كان فى استطاعة سيده أن يخرجه من الخدمة الوضيعة ويعامله كرجل حر . لكن الخادم لم يكن ليترك الأسرة لذلك . فإنه لم يكن فى مقدوره ما دام مرتبطاً بها برباط العبادة أن ينفصل عنها دون أن يرتكب إثماً .لهذا كان يستمر ، تحت اسم العتيق أو المولى ، فى الاعتراف بسلطة الرئيس أو الولى ولا تنقطع التزاماته نحوه ، إنه لا يتزوج إلا بموافقة السيد ، والأطفال الذين

---

(١) ديموستينيس: قضية التاج ١: ٧٤. ارسطوفانيس: بلوتوس *Plutus* ٧٦٨. يشير هذان الكاتبان إشارة جلية إلى احتفال ما لكنهما لا يصفانه . ويضيف شارح أرسطوفانيس بضع تفاصيل. انظر فى أيسخيلوس كيف تستقبل كليتمنسترا (Clytemnestre) أمة جديدة : « ادخلى هذا المنزل ما دام جوبيتر يريد أن تشاركى فى إراقة ماء النثار مع عبيدى الآخرين بجوار موقدى المنزلى (أيسخيلوس : أغاممنون ١٠٣٥ - ١٠٣٨) .

(٢) أرسطو : السياسة ١: ٥: « أنه يجب القيام بالقرابين والأعياد للعبيد أكثر مما يجب للأحرار». ويقول سيسرون: القوانين ٢: ٨: *Ferias in famulis habento* وكان محرما جعل العبيد يعملون فى أيام الأعياد (سيسرون: القوانين ٢ : ١٢) .

(٣) سيسرون : القوانين ٢: ١١ *Neque ea, quae a majoribus prodita est cum dominis tum famulis religio Larum, repudianda est.* بل كان فى استطاعة العبد أن يقوم بالعملية الدينية باسم سيده (كاتون: الفلاحة ٨٣) .

يولدون منه يستمرون فى الطاعة (١) .

وهكذا كان يتكون فى باطن الأسرة الكبيرة عدد معين من الأسرات الصغيرة الموالية أو التابعة . وكان الرومان ينسبون نظام الولاء إلى رومولوس كما لو كان فى الإمكان أن يكون نظام من هذا القبيل من عمل رجل واحد . نظام الولاء أقدم من رومولوس ، فضلا عن أنه كان موجوداً فى كل مكان فى بلاد الإغريق وفى إيطاليا أيضاً (٢) . وليست المدن هى التى أقامته ونظمته بل على العكس سنرى فيما بعد أنها انقصته شيئاً فشيئاً ودمرته . فإن نظام الولاء من أنظمة القانون المنزلى ، وقد وجد فى الأسرات قبل أن توجد المدن .

يجب ألا نحكم على نظام الولاء فى الأزمنة العتيقة من حال الموالى الذين نراهم فى زمن هوراسيوس . فمن الواضح أنه أتى على المولى دهر طويل كان فيه خادماً ملحقاً بالولى . لكن كان هناك شىء عندئذ يحفظ له كرامته : لقد كان له نصيب فى العبادة ، وكان مشتركاً فى ديانة الأسرة . كان له نفس الموقد ونفس الأعياد ونفس الأشياء المقدسة *(sacra)* التى كانت لوليه . وفى روما كان يتخذ اسم الأسرة علامة على هذه المشاركة الدينية . فكان يعتبر عضواً فيها عن طريق التبنى . ومن هنا رباط وثيق وتبادل فى الواجبات بين الولى والمولى . أصغوا إلى القانون الرومانى القديم : «إذا ألحق الولى أذى بمولاه فعليه اللعنة *(sacer esto)*

---

(١) عن التزامات العتقاء فى القانون الرومانى انظر **Digeste, XXXVII, 14,** ***De jure patronatus;*** **XII, 15.** ***De obsequiis parentibus et patronis praestandis;*** **XIII, 1,** ***De operis libertorum*** كان الشرع الإغريقى فيما يختص بالعتق والولاء أكثر تبكيرا فى التبدل من الشرع الرومانى . لذلك لم يبق لنا إلا القليل جدا من المعلومات عن الحالة القديمة لهذه الطبقات من الناس . مع ذلك انظر ليسياس **Lysias** فى هاربوقراتيون **(Harpocration)** تحت لفظ *'Αποστασίου* ، وخريسيبوس **(Chrysippe)** فى أثينايوس **(Athénée)** ٦ : ٩٣ ، وفقرة غريبة فى أفلاطون : القوانين ١١ ص ٩١٥ . يتبين من ذلك أنه كان على المعتق دائماً واجبات نحو سيده السابق .

(٢) عن الولاء عند السابينيين : تيتوس ليفيوس ٢ : ١٦ ؛ ديونيسيوس ٥ : ٤٠ ؛ وعند الأتروسك : ديونيسيوس ٩ : ٥ ؛ وعند الإغريق *"Εθος ἑλληνικὸν καὶ ἀρχαῖον* ديونيسيوس ٢ : ٩)

وليمت» (١) . كان على الولى أن يحمى مولاه بكل الوسائل وكل القوى التى تحت تصرفه : بدعائه كـكاهن ، وبرمحه كمحارب ، وبقانونه كقاض. وفيما بعد عندما أصبح قضاء المدينة يستدعى المولى أمامه كان على الولى أن يدافع عنه ، كان عليه أن يكشف له عن صيغ القانون الخفية التى تجعله يكسب قضيته (٢) . كان فى استطاعة المرء أن يشهد أمام القضاء على قريبه عن طريق الدم (cognatus) لـكنه لا يستطيع ذلك مع المولى (٣) . وقد استمروا بعد ذلك يعتبرون الواجبات نحو الموالى أعلى بكثير من الواجبات نحو أقارب الدم (٤) . لماذا ؟ ذلك لأن قريب الدم كان مرتبطاً عن طريق النساء فقط فلم يكن قريباً ولم يكن له نصيب فى ديانة الأسرة . والمولى على العكس من ذلك ، كانت له المشاركة فى العبادة فكان على الرغم من كل ضعته صاحب القرابة الحقيقية التى تتكون حسب تعبير أفلاطون من عبادة نفس الآلهة المنزلية .

الولاء رباط مقدس كونته الديانة وما من شىء يستطيع أن يفصمه . وبمجرد ما يصير المرء مولى لأسرة فإنه لا يستطيع أن يخلع نفسه منها لأن ولاء تلك الأزمنة الأولى لم يكن صلة اختيارية وطارئة بين رجلين ، بل صلة وراثية ، فالإنسان مولى بحكم الواجب من أب إلى ابن (٥) .

---

(١) قانون اللوحات الإثنى عشرة اقتبس منه سرفيوس ad Aen., VI, 609 انظر فرجيليوس Aut fraus innexa clienti. عن واجبات الأولياء انظر ديونيسيوس ٢ : ١٠

(٢) Clienti promere jura هوراسيوس: رسائل ٢ : ١ : ١٠٤ . سيسرون: الخطيب ٣ : ٣٣

(٣) Caton, dans Aulu - Celle, V, 3; XXI, 1: *Adversus cognatos pro cliente testatur: testimonium adversus clientem nemo dicit.*

(٤) Aulu - Gelle, XX, 1: *clientem tuendum esse contra cognatos.*

(٥) فى رأينا أن هذه الحقيقة تبرز بروزاً تاماً من روايتين نقلتا إلينا: إحداهما نقلها بلوتارخوس والأخرى نقلها سيسرون عندما ادعى غ . هرينيوس C. Herennius ليشهد ضد ماريوس احتج بانه مناقض للقواعد العتيقة أن يشهد الولى على مولاه . ولما ظهرت عليهم الدهشة لوصفه ماريوس بالمولى وهو الذى كان فيما سبق عريفاً للشعب (tribun) أضاف بأن الحقيقة أن «ماريوس وأسرته كانا منذ أقدم الأزمنة موالى

نرى من كل ذلك أنه كان فى استطاعة الأسرة ، فى أقدم الأزمنة ، بفرعها الأكبر وفروعها الصغرى وخدمها ومواليها، أن تكوّن مجموعة من الرجال كثيرى العدد . وعلى مر الزمن، كانت تصل الأسرة إلى تكوين جماعة على جانب كبير من الاتساع ولها رئيسها الوراثى ، وذلك بفضل ديانتها التى كانت تحفظ وحدتها وبفضل قانونها الخاص الذى جعلها غير قابلة للقسمة وبفضل قوانين الولاء التى تمسك بخدمها . ويبدو أن الجنس الآرى كان يتكون ، خلال سلسلة طويلة من القرون ، من عدد لا حد له من جماعات من هذا القبيل . وهذه الآلاف من المجموعات الصغيرة كانت تعيش منعزلة لا يربط بعضها ببعض إلا القليل من الصلات ، وليس ببعضها أدنى حاجة إلى البعض الآخر إذ لا يربط بينها أى رابط دينى أو سياسى ، لكل منها ملكها وحكومتها الداخلية وآلهتها .

لأسرة هرنيوس.» وقد قبل القضاة العذر ، لكن ماريوس الذى لم يكن تواقا لأن ينزل إلى هذا الوضع أجاب أنه قد تحرر من الولاء منذ اليوم الذى انتخب فيه لأحد المناصب ، ويضيف المؤلف «أن ذلك لم يكن صحيحاً بالمرة فليس كل منصب يحرر من حالة الولاء وليس هناك غير المناصب الندوية (magistratures curules) التى لها هذه الميزة» (بلوتارخوس : حياة ماريوس ٥) . فكان الولاء إذن ، فيما عدا هذا الاستثناء الوحيد ، إجبارياً ووراثياً ؛ نسى ماريوس ذلك ، لكن آل هرينيوس كانوا يتذكرون . — يذكر سيسرون قضية تقاضى فيها فى زمانه آل كلوديوس وآل ماركيلوس (Marcellus) . اعتمد الأولون على الشرع القديم وادعوا باعتبارهم رؤساء للفصيلة كلوديا (*gens* Claudia) أن آل ماركيلوس كانوا موالى لهم ؛ ولا جدوى من أن هؤلاء كانوا منذ قرنين فى الصف الأول فى الدولة . فقد استمر آل كلوديوس فى الدفاع بأن رابطة الولاء لا يمكن أن تكون قد انفصمت . — يسمح لنا هذان الحدثان اللذان بقيا بمنجاة من النسيان بأن نحكم على ما كان عليه الولاء فى العصور الأولى .

الكتاب الثالث

المدينة

الفصل الأول

الأخوية (Phratrie) والندوة (Curie) القبيلة (Tribu)

لم نقدم للآن أى تاريخ ولا نزال عاجزين عن تقديم أى تاريخ . فإنه أيسر لنا، فى تاريخ هذه المجتمعات العتيقة، أن نسم العصور بتوالى الآراء والأنظمة من أن نسمها بتوالى السنين .

لقد جعلتنا دراسة القواعد القديمة فى القانون الخاص نستشف، فيما وراء الأزمنة التى نسميها تاريخية، فترة من قرون كانت فيها الأسرة هى الصورة الوحيدة للمجتمع . وعندئذ كانت تستطيع الأسرة أن تضم فى نطاقها الواسع عدة آلاف من الكائنات البشرية، لكن الجماعة البشرية فى هذه الحدود كانت لا تزال مفرطة فى الضيق . مفرطة فى الضيق بالنسبة للحاجات المادية إذ كان من العسير على هذه الأسرة أن تكفى نفسها فى مواجهة كل فرص الحياة ؛ مفرطة فى الضيق بالنسبة للحاجات المعنوية التى تتطلبها طبيعتها فقد رأينا كم كان إدراك الإلهيات فى هذا العالم الصغير غير كاف وكم كانت الأخلاق غير كاملة .

وصغر هذا المجتمع البدائى كان يتفق مع ضآلة الفكرة التى كونوها لأنفسهم عن المعبود . فكان لكل أسرة آلهتها ولم يكن الإنسان ليتصور أو ليعبد إلا آلهات منزلية . لكنه لم يكن ليقنع زمناً طويلا بهذه الآلهة التى هى دون ما يستطيع أن يصل إليه إدراكه بكثير ؛ وإذا كان لا بد له من قرون كثيرة أخرى لكى يصل إلى تصور الله ذاتاً واحدة لا كفء لها ولا نهاية فقد كان عليه أن يقترب من هذا المثل الأعلى اقتراباً غير محسوس فى تدرجه، وذلك بتوسيع إدراكه من عصر إلى عصر وبإبعاده تدريجياً للأفق الذى يفصل حده

فى نظره ما بين الذات الآلهة وأشياء هذه الحياة الدنيا .

وإذن فقد كانت الفكرة الدينية والجماعة البشرية تكبران فى وقت واحد .

كانت الديانة المنزلية تحرم أن تختلط أسرتان وأن تمتزجا معاً . ولـكن كان من الجائز أن تجتمع عدة أسرات ، دون أن تضحى بدياناتها الخاصة ، لـكى تحتفل على الأقل بعبادة أخرى مشتركة فيما بينها.وهذاهو ما حدث . فقد كوّن عدد معين من الأسرات مجموعة تسميها اللغة الإغريقية أخوية hratrie واللغة اللاتينية ندوة curie (١) فهل كانت هناك صـلة مولد بين الأسرات التى تنتمى لنفس المجمـوعة ؟ من المستحيل أن نؤكد ذلك . أما الموثوق به فهو أن هـذا التجمع الجديد لم يتم إلا بتوسيع الفكرة الدينيـة إلى حدٍ ما . فى اللحظة التى اتحدت فيها هذه الأسرات تصورت معبوداً أعلى من معبوداتها المنزلية ومشـتركاً فيما بينهـا جميعاً ويسهر على المجموع بأكمله ، وأقاموا له مذبحاً ، وأوقـدوا ناراً مقدسـة ، ونظموا

---

(١) هذا النمط فى نشأة الأخويه سبين بوضوح فى قطعة غريبة من ديـكاى أرخوس (Dicéarque, dans *Fragm. hist. gr.*, éd. Didot, t. II, p. 238) فبعد أن تـكلم عن عبادة الأسرة التى لم تكن تنتقل من أسرة لأخرى حتى بالزواج أضاف : *Ἑτέρα τις ἐτέθη ἱερῶν κοινωνικὴ σύνοδος ἣν φρατρίαν ὠνόμαζον* ويشار إلى الأخوية فى هوميروس باعتبارها نظاماً شائعاً عند الاغريق : الإلياذة ٢ : ٣٦٢ : *Κρῖν᾽ ἄνδρας κατὰ φῦλα, κατὰ φρήτρας, Ἀγάμεμνον, ὡς* *φρήτρη φρήτρηφιν ἀρήγῃ, φῦλα δὲ φύλοις·* بوليدوكيس ٣ : ٥٢ *Φρατρίαι* *ἦσαν δυοκαίδεκα καὶ ἐν ἑκάστῃ γένη τριάκοντα·* ديموسثينيس: ضدما كارتاتوس ١٤ إيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ١٠ . كانت هناك أخويات فى ثيبه (شارح بنداروس البرزخيات (*Isthm*) ٦ : ١٨) وفى قورنثه (شرحه : الأولمبيات ١٣ : ١٢٧) وتساليا (شرحه : البرزخيات ١٠ : ٨٥) وفى نيابوليس (استرابون : ٥ ص ٢٤٦) وفى أقريطييس (كريت) (Boeckh, *Corp. inscr.* no 2555) ويظن بعض المؤرخين أن ال *ὦβαι* فى اسبرطه تقابل الأخويات فى أثينا — كان اللفظان أخوية وندوة يعتبران مترادفين ويترجم ديونيسوس الهاليكارناسى (٢ : ٨٥) وديون كاسيوس (القطعة ١٤) الواحد بالآخر .

عبادة (١).

لم تكن هناك ندوة ولا أخوية إلا وكان لها مذبحها وإلهها الحارس لها. وكانت الأعمال الدينية فيها من نفس طبيعة الأعمال الدينية فى الأسرة وتتكون فى جوهرها من أكلة مشتركة؛ وكان الغذاء يجهز على المذبح ذاته ولذا كان، مقدساً وكانوا يأكلونه وهم يتلون بعض الأدعية؛ وكان المعبود حاضراً، يتلقى نصيبه من الأغذية والأشربة (٢).

بقيت أكلات الندوة الدينية هذه زمنا طويلا فى روما. فقد ذكرها سيسرون ووصفها أوڤيديوس (٣). وفى عصر أغسطس كانت لا تزال تحتفظ بكل أشكالها العتيقة. يقول مؤرخ من ذلك العصر «رأيت فى هذه الأماكن المقدسة الغذاء وهو يوضع أمام الإله. كانت الموائد من الخشب حسب عادة الأسلاف والآنيـة من الفخار. وكانت الأغـذية خبزاً وكعكاً ودقيق الحـوّارَى وبعض فاكهة. رأيتهم يريقون السوائل ولم تكن تراق من أقداح من الذهب أو الفضة بل من أوان من الصلصال. لقد أعجبت بأهل هذه الأيام الذين ظلوا مخلصين إلى هذا الحد لشعائر آبائنا وعاداتهم» (٤). فى أثينا، فى أيام الأعياد مثل الأپاتوريا (Apaturies) والثارغليا (Thargélies)، كانت كل أخوية تجتمع حول مذبحها، وتُذبح ضحية وتُطهى على النار ويوزع لحمها على جميع أعضاء

---

(١) يذكر ديموسثينيس (ضد ماكارتاتوس ١٤) وإيسايوس (ميراث أبولودوروس) مذبح الأخوية والضحية التى كانت تقدم عليه. ويتكلم قراتينوس (Cratinus) (فى أثينايوس ١١: ٣ص ٤٦٠) عن الاله الذى يرأس الأخوية، *Ζεὺς φράτριος*. بوليدوكيس ٣ : ٥٢ : *Θεοὶ φράτριοι. Τὸ ἱερὸν ἐν ᾧ συνῄεσαν φράτορες, φράτριον ἐκαλεῖτο, φράτριος αἴξ, ἡ θυομένη τοῖς φράτορσι.*

(٢) *Φρατριακὰ δεῖπνα* (أثينايوس ٥: ٢)؛ *Curiales mensae* (فستوس ص ٦٤)

(٣) سيسرون: الخطيب ١: ٧: *Dies curiae, convivium*. أوفيديوس: الأعياد ٦: ٥. ٣. ديونيسيوس ٢: ٦٥

(٤) ديونيسيوس ٢: ٢٣. مهما يكن فقد أدخلت بعض تغييرات. ولم تعد أكلات الندوة سوى إجراء أجوف صالح للكهنة. وكان أعضاء الندوة يؤثرون أن يتخلصوا منها وأدخلت عادة توزيع الأغذية والنقود بدلا من الأكلة المشتركة. **Plaute**: *Aululaire*, v, 69 et 137.

الأخوية ، وكانوا يحرصون حرصاً كبيراً على ألا ينال أى أجنبى نصيباً منها(١)

هنالك عادات دامت حتى الأزمنة المتأخرة من التاريخ الإغريقى وتلقى شعاعاً على طبيعة الأخوية العتيقة . ومنها نرى أنه لـكى يكون الإنسان عضواً فى أخوية ، فى عصر ديموستينيس ، كان لا بد أن يكون مولوداً من زواج شرعى فى إحدى الأسرات التى تتكون منها الأخوية . إذ أن ديانة الأخوية كديانة الأسرة لم تكن تنتقل إلا عن طريق الدم ، فكان الأثينى الصغير يقدمه والده للأخوية ويحلف أنه ابنه . وكان يتم القبول بشكل دينى ، فكانت الأخوية تذبح ضحية وتطهى لحمها على المذبح . وكان يحضر جميع الأعضاء فإذا رفضوا قبول الوافد الجديد عندما يداخلهم الشك فى شرعية مولده ، وقد كان ذلك من حقهم ، كان عليهم أن ينزعوا اللحم من على المذبح . فإذا لم يفعلوا واقتسموا لحم الضحية مع الصغير بعد الطهى فإن الشاب يعد مقبولا ويصبح عضواً فى الجماعة لا رجوع فى ذلك (٢) ومما يفسر هذه العادات أن القدماء كانو يعتقدون أن كل غذاء يجهز على مذبح ويقتسمه عدة أشخاص يقيم فيما بينهم رابطة لا انفصام لها واتحاداً مقدساً لا ينقطع إلا بانقطاع الحياة (٣)

(١) يصف إيسايوس (ميراث أبولودوروس ١٥ - ١٧) إحدى هذه الأكلات ويتكلم فى مكان آخر (ميراث أستيفيلوس ٣٣) عن رجل خرج من أخويته كنتيجة لتبنيه فأصبح يعتبر غريباً عنها ، وكان يتقدم عبثاً فى كل أكلة مقدسة فلايعطونه أى نصيب من لحوم الضحية ، أنظر ليسياس القطعة ١ (طبعة ديدو ج ٢ ص ٢٥٥) : «إذا وغل رجل مولود من أبوين أجنبيين فى أخوية فان كل أثينى يستطيع أن يقاضيه» .

(٢) ديموستينيس : ضد ما كارتاتوس ١٣-١٥ . إيسايوس : ميراث فيلوكتيمون ٢١ - ٢٢ ؛ ميراث قيرون ١٨ . ولنذكر أن التبنى المنتظم كان يحدث دائماً نفس النتائج التى كانت تحدثها البنوة الشرعية ويقوم مقامها .

(٣) نفس هذا الرأى هو المبدأ الذى قامت عليه الضيافة العتيقة . وليس من موضوعنا أن نصف هذا النظام الغريب . ولنقل فقط إنه كان للديانة نصيب كبير فيه فالرجل الذى نجح فى الوصول إلى الموقد لا يمكن اعتباره غريباً فقد أصبح ἐφέστιος (صوفوكليس التراخيات (*trach.*) ؛ أوريبيديس : يون ٦٥٤ ؛ أيسخيلوس : الإومنيين ٥٧٧ ؛ ثوقيديديس ١ : ١٣٧) فمن شارك فى الأكلة الجنازية أصبح إلى الأبد فى مشاركة دينية مع مضيفه ولهذا يقول إيفاندروس (Evandre) إلى أهل طروادة ***Communem vocate Deum*** (فرجيليوس

كان لـكل أخوية أو ندوة رئيس، كوريون (Curion) أو فراتريارخوس (Phratriarque) ،وظيفته الأساسيةأن يترأس القرابين ،وربما كانت اختصاصاته فى الأصل أكثر سعة من ذلك . وكانت للأخوية مجامعها ومناقشاتها وتستطيع أن تصدر قرارات (١) ؛ وفيها ، كما كان فى الأسرة ، إله وعبادةو كهنوت وقضاء وحكومة . لقد كانت مجتمعا صغيراً على نمط الأسرة تماماً .

وقد استمرت الجماعة تكبر طبعاً ، وعلى نفس هذا النمط . وتجمعت عدة ندوات وأخويات وكونت قبيلة ، وقد كان لهذه الجماعة الجديدة ديانتها أيضاً فكان فى كل قبيلة مذبح ومعبود يحميها (٢) .

وكان إله القبيلة فى العادة من نفس طبيعة إله الأخوية وإله الأسرة . فقد كان رجلا مؤلها ، ومنه كانت تستمد القبيلة اسمها ولذا كان يسميه الإغريق البطل المسمى باسمه (héros éponyme) ، وكان له يوم عيد سنوى ؛ وكان الجزء الأساسى من الاحتفال الدينى أكلة تشترك فيها القبيلة بأكملها (٣) .

الإنييد ٧:٢٧٥) .—نرى هنا مثلا مما يوجد دائما فى النفس البشرية من منافاة حكيمة للمنطق : فالديانة المنزلية لم تعمل للاجنبى ؛ إنها تصده ؛ لكن هذا السبب ذاته يجعل الأجنبى الذى يقبل فيها مرة يزداد قداسة . فبمجرد أن يلمس الموقد يصبح محتماً عليه أن يكف عن أن يكون أجنبياً. فنفس المبدأ الذى كان يقصيه بالأمس يتطلب أن يكون اليوم و إلى الأبد عضوا فى الأسرة .

(١) عن الكوريون *curio* وحاكم الندوة (*magister curiae*) أنظر ديونيسيوس ٢ : ٦٤ ؛ فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ٨٣ ؛ فستوس ص١٢٦ وقد ذكر الفراتريارخوس فى ديموسثينيس : ضد إوبولوس ٢٣ . والمناقشة والتصويت مذكوران فى ديموسثينيس : ضد ماكارتاتوس ٨٢ .وتحتوى عدة كتابات على قرارات أصدرتها الأخويات . أنظر *Corpus inscr. attic.* t. II, éd. Kohler, nos 598, 599, 600.

(٢) *Φυλίων θεῶν ἱερὰ.* (Pollux, VIII, 110)

(٣) *Φυλετικὰ δεῖπνα* (أثينايوس ٥ : ٢ بوليدوكيس ٣:٦٧ ؛ ديموسثينيس *In Boeot., de nom.*, 7 . عن قبائل أثينا الأربع القديمة وعن صلاتها بالأخويات وبالفصائل *γένη* ، انظر بوليدوكيس ٨:٩١٠-١١١ وهاربوقراتيون تحت لفظ *τριττύς* نقلاعن أرسطو . وجود القبائل القديمة ، وعددها ثلاث أو أربع ، حدث مشترك بين جميع المدن الإغريقية دورية أو يونانية : الإلياذه ٢ : ٣٦٢ و٦٦٨ . الأوديسه ١٩ : ١٧٧ ؛ هيرودوت ٤:١٦١ ؛ ٥:٦٨و٦٩ . انظر Otf Müller, *Dorier*, t. II, p. 75. ويجب التمييز بين

كان للقبيلة كما كان للأخوية مجامع ، وكانت تصدر قرارات يجب على كل أعضائها أن يخضعوا لها ، وكانت لها محكمة ولها حق محاكمة أعضائها . وكان لها رئيس *φυλοβασιλεύς* ,*tribunus* (١) . نرى مما تبقى لنا من أنظمة القبيلة أنها كونت فى الأصل لتكون مجتمعاً مستقلا ، وكما لو لم تكن هناك أية سلطة اجتماعية فوقها (٢).

بين القبائل الدينية فى الأزمنة الأولى والقبائل التى هى مجرد أقسام محلية فى الأزمنة المتأخرة ، وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد . والأولى فقط لها صلة بالأخويات والفصائل (*γένη*)

(١) بوليدوكيس ٨ : ١١١ :
Οἱ φυλοβασιλεῖς, ἐξ Εὐπατριδῶν ὄντες μάλιστα τῶν ἱερῶν ἐπεμελοῦντο أنظر أرسطو فى الطقعة التى اقتبسها فوتيوس (Photius) تحت لفظ *Ναυκραρία*.

(٢) لم يترك التنظيم السياسى والدينى للقبائل الثلاث الأصلية فى روما إلا آثارا قليلة فى الوثائق وكل ما نعلمه هو أنها كانت مكونة من ندوات وفصائل وكان لكل واحدة منها عريف (*tribunus*). وقد حوفظ لنا على أسمائها رامنيس وتيتيس ولوكيريس (*Ramnes, Tities, Luceres*) وكذلك على بعض احتفالات من عبادتها. فضلا عن أن هذه القبائل كانت هيئات هائلة جداً بحيث لم يكن يسع المدينة إلا أن تعمل على إضعافها ونزع استقلالها . وقد عمل السوقة أيضاً على إزالتها .

الفصل الثانى

عقائد دينية جديدة

آلهة الطبيعة المادية

قبل الانتقال من تكوين القبائل إلى نشأة المدن يجدر بنا أن نذكر عنصراً هاماً من عناصر الحياة الذهنية فى هذه الشعوب العتيقة .

عندما بحثنا فى أقدم عقائد هذه الشعوب وجدنا ديانة موضوعها الأسلاف ورمزها الأساسى الموقد وهى التى كونت الأسرة وأقامت القوانين الأولى. لكنه كان لهذا الجنس فى جميع فروعه ديانة أخرى ، وهى التى كانت شخصياتها الرئيسية زوس (Zeus) وهيرا (Hera) وأثينايا (Athéné) (١) وجونون (Junon) ، ديانة الأولمپوس الإغريقى والكاپيتوليوم الرومانى .

وكانت الأولى من هاتين الديانتين تتخذ آلهتها من النفس البشرية ؛ والثانية تتخذ آلهتها من الطبيعة المادية . إذا كان الإحساس بالقوة الحية وبالشعور الذى يحمله الإنسان فى نفسه قد ألهمه الفكرة الأولى عن الإلهيات فإن رؤية هذه اللانهاية التى تحيط به وتسحقه قد رسمت لشعوره الدينى مسلكاً آخر .

كان الإنسان فى العصور الأولى فى مواجهة الطبيعة بلا انقطاع . ولما تكن عادات الحياة المتحضرة قد ضربت بينهما ستاراً حاجزاً . فكان ذلك الجمال يسحر بصره وتلك العظمة تبهره . كان يستمتع بالضوء ويفزع من الليل، وعندما يرى عودة «ضياء السموات المقدس» (٢) كان يشعر بالعرفان بالجميل.

---

(١) الاسم الذى يطلق على بلدة أثينا فى اللغة الإغريقية هى أثيناى وقد تعودنا أن نسميها بالعربية أثينا . واسم الآلهة باللغة الإغريقية أثينا مما يجعله يختلط فى اللغة العربية باسم المدينة لذلك استعملنا للالهة لفظ أثينايا وهو أقدم صورة لاسمها باللغة الإغريقية واحتفظنا للبلدة باسمها الدارج على السنتا أثينا - المعرب .

(٢) صوفوكليس : انتيغونه : البيت ٨٧٩ . وكثيراً ما تعبر الفيدا عن نفس الفكرة

كانت حياته فى يد الطبيعة فكان ينتظر السحاب المحسن الذى يتوقف عليه محصوله ويخشى العاصفة التى تستطيع أن تحبط عمله وأمل عام بأكمله . كان يشعر فى كل لحظة بضعفه وبقوة ما يحيط به قوة لانظير لها . كان يحس على الدوام بمزيج من التبجيل والمحبة والفزع نحو هذه الطبيعة الجبارة .

لم ينته به هذا الشعور فوراً إلى إدراك إله واحد يدبر الكون ، إذ لم تكن لديه عندئذ فكرة الكون . لم يكن يعلم أن الأرض والشمس والكواكب أجزاء من مجموع واحد. ولم ترد على ذهنه فكرة أنه يمكن أن يهيمن عليها كائن واحد. فعندما ألقى الإنسان أول نظرة على العالم الخارجى تصوره على شكل جمهورية مشوشة تتحارب فيها قوات متنافسة . ولما كان حكمه على الأشياء الخارجية على حسب حاله هو ، وكان يشعر فى نفسه بأنه شخص حر ، فقد رأى كذلك فى كل جزء من الخليقة ، فى الأرض ، وفى الشجرة ، وفى السحابة ، وفى ماء النهر ، وفى الشمس ، أشخاصاً يشبهون شخصيته . فنسب إليهم الفكر والإرادة واختيار الأفعال ؛ ولما كان يشعر بأنهم أقوياء وأنه خاضع لسيطرتهم فقد اعترف بتبعيته لهم ، وتضرع إليهم ، وعبدهم ، وجعل منهم آلهة .

وهكذا عرضت الفكرة الدينية لهذا الجيل من البشر فى شكلين جد مختلفين. فمن ناحية نسب الإنسان الصفة الإلهية للمبدأ الخفى ، للإدراك ، لما تراءى له من روحه ، لما شعر أنه مقدس من ذاته. ومن ناحية أخرى طبق فكرته عن الشىء الإلهى على الأشياء الخارجية التى كان يتأمل فيها ويحبها ويخشاها ، على العوامل الطبيعية التى كانت المهيمنة على سعادته وحياته .

نتج عن هذين النوعين من العقائد ديانتان نراهما مستمرتين ما دام المجتمعان الإغريقى والرومانى . لم تحارب إحداهما الأخرى بل عاشتا فى شىء من حسن التفاهم وتقاسمتا السيطرة على الإنسان ، لكنهما لم تختلط أحداهما بالأخرى ، لقد كانت لها دائما تعاليم منفصلة كل الانفصال ، وفى الغالب متناقضة ، واحتفالات وشعائر مختلفة اختلافاً مطلقاً . فلم يكن هناك شىء ما قط مشتركاً بين عبادة آلهة الأولمپوس وعبادة الأبطال والأرواح . أما أى هاتين الديانتين كانت الأولى فى التاريخ فهو شىء لا نستطيع أن نقوله. بل لن نستطيع

أن نجزم أن إحداهما كانت سابقة الأخرى . إنما المؤكد أن إحداهما وهى عبادة الموتى ، بعد أن ثبتت فى عصر بعيد جداً ، بقيت راسخة على الدوام فى شعائرها بينما كانت قواعد مذهبها تزول شيئاً فشيئاً . أما الأخرى ، وهى عبادة الطبيعة المادية ، فقد كانت أكثر ميلا للتقدم وتطورت بحرية خلال العصور بينما كانت تغير أساطيرها ومذاهبها شيئاً فشيئاً وتزيد بلا انقطاع فى سيطرتها على الإنسان .

٢ · الصلة بين هذه الديانة وتطور المجتمع الإنسانى

يمكن الاعتقاد بأن العناصر الأولى لديانة الطبيعة هذه عتيقة جداً . وربما كانت تضاهى عبادة الأسلاف فى القدم . ولكن بما أنها كانت تقابل أفكاراً أعم وأسمى من هذه ، فقد كان لا بد لها من وقت أطول لكى تثبت فى صورة مذهب واضح (١) ، ومن المحقق أنها لم توجد فى العالم فى يوم واحد وأنها لم تخرج تامة الخلق من عقل رجل واحد . بل ولدت فى العقليات المختلفة بأثر من قوتها الطبيعية فتصورتها كل عقلية على طريقتها . وقد كانت هناك أوجه شبه بين جميع هذه الآلهة التى خرجت من أذهان مختلفة لأن الأفكار كانت تتكون فى الإنسان على طريقة تجرى على وتيرة واحدة تقريباً . ولكن كان هناك تنوع كبير أيضاً إذ أن كل عقلية كانت تصنع آلهتها . فنتج عن ذلك أن بقيت هذه الديانة مشوشة لمدة طويلة وأن كانت آلهتها لا عداد لها .

بيد أن العناصر التى كان يمكن تأليهها لم تكن كثيرة العدد . فالشمس التى

---

(١) أمن الضرورى أن نذكر كل الروايات المأثورة عند الإغريق وشعوب إيطاليا والتى كانت تجعل من ديانة جوبيتر ديانة شابة وحديثة نسبياً ؛ لقد احتفظت بلاد الإغريق وإيطاليا بذكرى زمن كانت فيه المجتمعات البشرية موجودة من قبل ولم تكن هذه الديانة قد تكونت فيه بعد . أوفيديوس : الأعياد ٢ : ٢٨٩ ؛ فرجيليوس : *Géorg.* I, 126 ؛ أيسخيلوس *Euménides* ؛ بوسانياس ٨ : ٨ . هناك ظواهر على أن البتريس (*Pitris*) عند الهنود سابقون على الديفاس (*Dévas*)

تخصب والأرض التى تغذى والسحاب الذى ينعم مرة وينكب مرة أخرى تلك كانت القوى الرئيسية التى كان فى الاستطاعة اتخاذ آلهة منها . غير أن كل واحد من هذه العناصر ولدت منه آلاف من الآلهة ، ذلك لأن الناس قد لحوا نفس العامل الطبيعى فى مظاهر مختلفة فخلعوا عليه أسماء مختلفة . فالشمس مثلا سميت هنا هيرا كليس (المجيد) وهناك فويبوس (Phoebos) (الساطع) وفى مكان آخر أپولون (Apollon) (طارد الليل أو طارد السوء) ؛ هذا يسميها الكائن العلى (هيپريون Hyperion) والآخر المغيث (الكسيكاكوس Alexicacos) ومع طول الزمن لم تتبين المجموعات من الناس التى أطلقت هذه الأسماء المختلفة على الكوكب الساطع أنها تعبد نفس الإله .

والواقع أن كل رجل لم يكن يعبد إلا عدداً محدوداً جداً من المعبودات ، لكن آلهة الواحد لم يكن يبدو عليها أنها آلهة الآخر ، وفى الحق أنه كان فى الإمكان أن تتشابه الأسماء ؛ فمن الجائز أن كثيراً من الناس قد أطلقوا على آلهتهم اسم أپولون أو اسم هيراكليس إذ أن هذه الألفاظ كانت تنتمى إلى لغة الاستعمال اليومى ولم تكن غير نعوت تدل على الذات الإلهية بصفة أو بأخرى من أكثر صفاتها بروزاً . لكنه لم يكن فى استطاعة المجموعات المختلفة من البشر أن تعتقد أن هذا الاسم ذاته لم يكن ينطوى إلا على إله واحد فكانوا يعدون إذن آلافاً مختلفة من الإله چوپيتر وكانت هناك جمهرة من الإلهات مينرڤا وديانا وچونون قل أن تتشابه فيما بينها . وحيث أن كل واحدة من هذه التصورات قد كونها الجهد الحر الذى بذلته كل عقلية على حدة وكانت إلى حدما ملكاً لها فقد حدث أن بقيت هذه الآلهة مستقلة بعضها عن البعض الآخر زمناً طويلا وأن كان لكل واحد منها أسطورته الخاصة وعبادته (١) .

---

(١) إذا كان يحدث فى كثير من الأحوال أن عدة أسماء كانت تمثل نفس المعبود أو نفس الفكرة من أفكار الذهن فانه كثيراً ما كان يحدث أيضاً أن نفس الاسم كان يخفى معبودات مختلفة جدا : فقد كان أمثال بوسيدون هيپيوس وبوسيدون فيتالميوس وبوسيدون إريختيوس وبوسيدون الإيجى وبوسيدون الهيليكونى Poseidon Hippios, Poseidon Phytalmios, Poseidon Erechthée, Poseidon Aegéen, Poseidon Héliconien آلهة مختلفة لم تكن لها نفس الصفات ولا نفس العباد .

وحيث أن أول ظهور لهـذه العقائد كان فى عصر لا زال الناس يعيشون فيه طبقاً لنظام الأسرة ، فقد كان لهـذه الآلهة الجدد طابع المعبودات المنزلية كما كان للجن (دايمون) والأبطال واللاريس . لقد اتخذت كل أسرة آلهتها لذاتها واحتفظت بهـا كل منهـا لنفسها باعتبار هـذه الآلهة حماة لها لا تريد أن يشاركها الأغراب فيما تدره عليها من نعم . وهى فكرة كثيراً ما تظهر فى أناشيد الفيدا ولا ريب أنها كانت ماثلة فى ذهن أريا الغرب أيضاً لأنها تركت آثاراً واضحة فى ديانتهم . فكلما خلقت أسرة إلهها بتمثلها الشخصية فى أحد العوامل الطبيعية كانت تشركه فى موقدها وتعده بين آلهتها المنزلية (پناتس) وتضيف له بضع كلمات فى صيغة دعائها . ولهذا السبب كثيراً ما نقابل عند القدماء تعبيرات كهذه : الآلهة الجالسة بجوار موقدى ، چوپيتر موقدى ، أپولون أبائى (١). تقول تكميسا(Tecmesse) إلى أياس (أچاكس Ajax) : «استحلفك باسم چوپيتر الجالس بجوار موقدك» . وتقول ميديا(Medée) الساحرة فى أوريپيديس : «أحلف بهيكاتى (Hécate) ، إلهتى وسيدتى التى أجـلُّها ، والتى تسكن معبد موقدى» . وعند ما يصف ڤرجيليوس أقدم ما فى ديانة روما يُرى هيراكليس مشتركاً مع موقد إيڤاندروس (Evandre) الذى يعبد هيراكليس كمعبود منزلى .

من هنا أتت آلاف من العبادات المحلية التى لم تستطع الوحدانية أن تستقربينها ومن هنا هذه المناضلات بين الآلهة التى تملأ عهد تعدد الآلهة والتى تمثل منازعات الأسرات والنواحى والمدن . ومن هنا أخيراً هذا الجمهور الذى لا حصر له من الآلهة والآلهات الذى لا نعرف منه حتما غير الجزء الأصغر ؛ إذ أن كثيراً منها قد هلك دون أن يترك حتى اسمه ، لأن الأسرات التى كانت تعبدها قد انقرضت أو أن المدن التى خصتها بعبادة قد دمرت .

كان لا بد من انقضاء زمن طويل قبل أن تخرج هذه الآلهة من أحضان الأسرات

---

(١) Ἑστιοῦχοι, ἐφέστιοι, πατρῷοι ὁ ἐμὸς Ζεὺς أوريبيديس : هيكابه ٣٤٥ : أوريبيديس : ميديا ٣٩٥ . صوفوكليس : أياس (Ajax) ٣٩٢ . فرجيليوس ٨ : ٥٤٣ . هيرودوت ١ : ٤٤ .

التى تصورتها والتى كانت تعتبرها ميراثاً لها . بل إن كثيراً منها لم تتخلص إطلاقاً من هذا النوع من الصلة المنزلية . فقد بقيت ديميتر التى كانت تعبد فى إليسيس (Déméter d'Eleusis) معبودة خاصة لأسرة إيمولپوس (Eumolpides) ؛ وأثينايا التى كانت تعبد فى رابية أثينا كانت تابعة لأسرة بوتس (Butades). وكان لآل پوتيتوس (Potitii) فى روما هيراكليس ولآل نوتيوس (Nautii) مينرڤا (١) وهناك شبهة كبيرة فى أن عبادة ڤينوس بقيت زمناً طويلة محصورة فى أسرة يوليوس وأنه لم يكن لهذه الإلهة عبادة عامة فى روما .

وقد حدث مع طول الزمن أن نال معبود إحدى الأسرات سلطاناً كبيراً على خيال الناس وبدا قوياً بنسبة ازدهار هذه الأسرة فرغبت مدينة بأكملها أن تتخذه لنفسها وأن تؤدى له عبادة عامة لتنال بركاته . وهو ما حدث لديميتر معبودة آل إيمولپوس وأثينايا معبودة آل بوتس وهراكليس معبود آل پوتيتوس ولكن عند ما تقبل أسرة أن يقتسم إلهها هكذا فإنها كانت تحتفظ على الأقل بكهنوته. ويمكن أن نلاحظ أن كهنوت أى إله قد ظل وراثياً زمناً طويلا ولم يستطع الخروج من أسرة معينة (٢) . تلك بقية من زمن كان فيه الإله ذاته ملكاً لهذه الأسرة ولم يكن يحمى غيرها ولا يريد أن يخدمه سواها .

لقد حق لنا إذن أن نقول إن هذه الديانة الثانية كانت فى البدء على وفاق مع حالة الناس الاجتماعية وكانت كل أسرة مهداً لها وبقيت زمناً طويلا محبوسة

---

(١) Tite—Live, IX, 29: *Potitii, gens cujus familiare fuerat sacerdotium Herculis*
ديونيسيوس ٢ : ٦٩ . وكذلك آل أوريليوس *Aurellii* كانت عبادتهم المنزلية هى عبادة الشمس . فستوس تحت لفظ .... *Aureliam* طبعة ميلر ص ٢٣

(٢) هيرودوت: ٥ : ٦٤ ، ٦٥ ؛ ٧ : ١٥٣ ؛ ٩ : ٢٧. بنداروس: البرزخيات ٧ : ١٨ اكسينوفون الهلينيات ٧ : ٨ . أفلاطون : القوانين ٦ ص ٧٥٩ ، المائدة ص ٤٠ ؛ بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٣ ؛ حياة الخطباء العشرة ، ليكورغ c. 11 . فيلوخوروس القطعة ١٥٨ ص ٤١١. ديودوروس ٥ : ٥٨. بوسانياس ١ : ٣٧ ؛ ٤ : ١٥ ؛ ٦ : ١٧ ؛ ١٠ : ١ . أبولودوروس ٣ : ١٣ : جوستينوس : ١٨ : ٥ : هاربوقراتيون : الالفاظ *Ἐτεοβουτάδαι*, *Εὐνεῖδαι* سيسرون : التكهن *(De devinatione)* ١ : ٤١. استرابون ٩ص ٤٢١ ؛ ١٤ ص ، ٦٣٤. تاسيتوس : الحوليات ٢ : ٥٤ .

فى هذا الأفق الضيق . لـكنها كانت أكثر ملاءمة من عبادة الموتى لتقدم الجماعة المقبل إذ أن الأسلاف والأبطال والأرواح (mânes) كانت آلهة لا يمكن أن يعبدها بحكم جوهرها ذاته إلا نفر قليل من الناس ، وكانت تقيم إلى الأبد حدوداً بين الأسرات لا يمكن تخطيها ، أما ديانة آلهة الطبيعة فكانت أوسع نطاقاً ، فلم يكن هناك أى قانون صارم يحول دون انتشار أية واحدة من هذه العبادات . ولم يكن فى الطبيعة الباطنية لهذه الآلهة ألاتعبدها إلا أسرة واحدة وأن تقصى الأجنبى عنها . وفى النهاية كان على الناس أن يصلوا تدريجياً إلى إدراك أن چوپيتر الخاص بأسرة ما كان فى جوهر الأمر نفس الـكائن أو نفس الفكرة التى تتصور فى چوپيتر آخر ، وهو أمر لم يكونوا يستطيعون اعتقاده أبداً فى اثنين من اللاريس أو الأسلاف أو المواقد .

ولنضف إلى ذلك أنه كان لهذه الديانة الجديدة ناحية أخلاقية أخرى . فإنها لم تكن تقتصر على تعليم الإنسان واجبات الأسرة . فكان چوپيتر إله الضيافة ومن طرفه يأتى الأجانب والمتوسلون « المعـدِمون المبجلون » ، أولئك الذين كان يجب أن يعاملوا « كإخوة » . وكانت جميع هذه الآلهة كثيراً ما تتخذ الصورة البشرية وتتراءى للناس ، وكان ذلك أحياناً لتحضر معاركهم وتساهم فى قتالهم ؛ وفى الغالب أيضاً لتوصيهم بالوفاق وتعلمهم التعاون فيما بينهم .

وكلما تطورت هذه الديانة الثانية اتسع المجتمع بنفس القدر . هذا ومن الجلى أن هذه الديانة التى كانت ضعيفة فى أول الأمر قد اتسعت فيما بعد اتساعاً عظيما . فقد كانت فى الأصل تشبه أن تكون فى ظل الأسرات تحت حماية الموقد المنزلى . فهناك حصل الإله الجديد على مكان صغير ، صومعة (*cella*) ضيقة بمرأى من الموقد المبجل وبجواره لـكى ينال الإله نصيباً من احترام الناس للموقد . فلما زادت سلطة الإله على النفوس رغب شيئاً فشيئاً عن هذا النوع من الوصاية ، وهجر الموقد المنزلى ، وأصبح له منزل لشخصه وقرابين خاصة ؛ هذا وقد بنى هذا المسكن (*ναὸς* من *ναίω* يسكن) على صورة المحراب الأصلى . فكان كما كان أولا ، صومعة (*cella*) أمام موقد . لـكن الصومعة اتسعت وتجملت وأصبحت معبداً . وبقى الموقد فى مدخل بيت الإله ، لـكنه . بدا بجواره

أصغر حجما . كان هو الأساس فى الأصل لـكنه لم يعد إلا شيئاً ملحقاً . لم يصبح هو الإله بعـد ذلك ونزل إلى مرتبة المذبح للإله والآلة للقربان . لقد صار مكلفاً بحرق لحم الأضحية وبحمل القربان مع دعاء الإنسان إلى ذلك المعبود ذى الجلال الذى يقيم صنمه فى المعبد .

وعند ما نرى هذه المعابد تقام وتفتح أبوابها لجمهور العابدين يمكن أن نطمئن إلى أن الإدراك البشرى وإلى أن المجتمع قد اتسعا منذ زمن بعيد.

الفصل الثالث

المدينة تتكون

تكونت القبيلة، كما تكونت الأسرة والأخوية، لكى تكون هيئة مستقلة إذ أنه كانت لها عبادة خاصة يقصى عنها الأجنبى. وإذا ما تكونت لم يعد فى استطاعة أية أسرة جديدة أن تقبل فيها. وكذلك لم يكن فى استطاعة قبيلتين أن تندمجا فى قبيلة واحدة لأن ديانتيهما تعارضان فى ذلك. ولكن كما اتحدت عدة أخويات فى قبيلة واحدة فإن عدة قبائل قد استطاعت أن تتحد فيما بينها على شرط أن تُحترم ديانة كل منها. واليوم الذى وجد فيه ذلك الحلف وجدت فيه المدينة.

ومما هو قليل الأهمية أن نبحث عن السبب الذى دعا عدة قبائل متجاورة للاتحاد، فأحيانا يكون الاتحاد اختيارياً، وأحياناً تفرضه قوة عليا من جانب قبيلة أو إرادة قوية من جانب رجل. أما المؤكد فهو أن رباط الجماعة القديمة كان هو الديانة أيضاً، إذ أنه لم يكن يفوت القبائل التى تجمعت لتكوين مدينة ما أن توقد ناراً مقدسة وأن تتخذ ديانة مشتركة.

وهكذا لم يتسع المجتمع البشرى فى هذا الجنس على شكل دائرة تتسع شيئاً فشيئاً وتدرك الأقرب فالقريب. بل كانت على العكس جماعات صغيرة تكونت قبل ذلك بزمن طويل وانضم بعضها لبعض. فتكونت الأخوية من عدة أسرات وتكونت القبيلة من عدة أخويات وتكونت المدينة من عدة قبائل. فضلا عن أن الأسرة والأخوية والقبيلة والمدينة ما هى إلا مجتمعات تتشابه فيما بينها تشابهاً دقيقاً وولدت إحداها من الأخرى عن طريق سلسلة من المحالفات.

بل يجدر أن نلاحظ أنه عندما كانت تنضم هذه المجموعات المختلفة بعضها لبعض لم تكن تفقد الواحدة منها شخصيتها أو استقلالها. وبالرغم من أن عدة

أسرات قد اتحدت فى أخوية فإن كل واحدة منها بقيت مكونة كما كانت فى مدة عزلتها ، لم يتغير فيها شىء ، لا عبادتها ولا كهونتها ولا حق ملكيتها ولا قضاؤها الداخلى . ثم اتحدت بعض الندوات فيما بعد لكن كل منها قد حافظت على عبادتها واجتماعاتها وأعيادها ورئيسها . ومن القبيلة انتقلوا إلى المدينة لكن القبائل لم تنحل لذلك واستمرت كل واحدة منها تؤلف هيئة كما لو كانت المدينة غير موجودة تقريباً . وفى الديانة بقيت جمهرة من العبادات الصغيرة قامت فوقها عبادة مشتركة ، وفى السياسة استمرت جمهرة من الحكومات الصغيرة فى وظائفها وقامت فوقها حكومة مشتركة .

كانت المدينة حلفاً . ولذلك ظلت عدة قرون على الأقل مضطرة إلى احترام الاستقلال الدينى والمدنى للقبائل والندوات والأسرات ؛ ولم يكن لها فى البدء حق التدخل فى الشؤون الخاصة بأية واحدة من هذه الهيئات الصغيرة ، لم يكن لها شأن فى داخل أسرة ما ولم تكن قاضياً فيما يجرى فيها بل تركت للأب الحق أو الواجب فى محاكمة زوجته وابنته ومولاه . ولهذا السبب استطاع القانون الخاص الذى ثبت فى عصر عزلة الأسرات أن يبقى فى المدن ولم يعدل إلا فى وقت متأخر جداً .

هذه الطريقة فى نشأة المدن القديمة تشهد بها عادات دامت زمناً طويلا جداً فإنا إذا تأملنا جيش المدينة فى العصور الأولى وجدنا أنه كان موزعاً على قبائل وندوات وأسرات (١) « بحيث يكون جار المحارب فى القتال هو ذات الشخص الذى يريق معه السوائل فى زمن السلم ويقدم القرابين على نفس المذبح » كما يقول أحد القدماء (٢). وإذا تأملنا الشعب

---

(١) هوميروس : الإلياذه ٢ : ٣٦٢ . فارون: اللسان ٥ : ٨٩ . بقيت العادة فى أثينا أن يرتب العساكر حسب القبائل والأحياء (dèmes): هيرودوت ٦ : ١١١ ؛ إيسايوس : ميراث منكليس ٤٢ ؛ ليسياس : الدفاع عن مانتيثيوس ١٥ .

(٢) ديونيسيوس الهاليكارناسى ٢ : ٢٣ .

مجتمعاً فى القرون الأولى لروما فإنه كان يصـــوت مجتمعاً فى ندوات أو فصائل (١). وإذا ما تأملنا العبادة رأينا فى روما ستا من سادنات النار (ڤستالس Vestales) إثنتين لـكل قبيلة ؛ وفى أثينا يقوم الأرخون (archonte) بمعظم القرابين باسم المدينة بأكملها ، لـكن لا تزال باقية بعض الاحتفالات الدينية التى يجب أن يشترك رؤساء القبائل فى القيام بها (٢) .

وبذلك لم تكن المدينة تجمعاً من الأفراد . وإنما كانت حلفاً من عدة مجموعات كانت قد تكونت قبلها وتركها باقية . ونرى فى الخطباء الأثينيين أن كل أثينى كان عضواً فى أربع جماعات متباينة ؛ فهو عضو فى أسرة وفى أخوية وفى قبيلة وفى مدينة . إنه لا يدخل فى الأربعة جميعاً فى وقت واحد وفى يوم واحد كما يفعل الفرنسى الذى ينتمى منذ مولده إلى أسرة وقرية ومديرية ووطن. فإن الأخوية والقبيلة لم تكن أقساماً إدارية ، كان يدخل الإنسان فى هذه الجماعات الأربع فى فترات مختلفة وكأنه يرقى من الواحدة إلى الأخرى . فيقبل الطفل أولا فى الأسرة بطريق الاحتفال الدينى الذى يقام بعد مولده بعشرة أيام . وبعد ذلك ببضع سنوات يدخل فى الأخوية باحتفال آخر سبق أن وصفناه . وأخيراً فى سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة يتقدم ليقبل فى المدينة . وفى ذلك اليوم ، على مشهد من المذبح وأمام أضحية يتصاعد الدخان من لحمها ، يتلو قسما يتعهد فيه ، مع العهود التى يقطعها على نفسه ، أن يحترم ديانة المدينة على الدوام (٣) . وابتداء من ذلك اليوم يكون على علم بالعبادة العامة ويصبح مواطناً (٤) . فلنلاحظ هذا الشاب الأثينى وهو يرقى درجة فدرجة ، من عبادة إلى عبادة ، وعندئذ تكون لدينا صورة للدرجات التى مرت بها الجماعة البشرية فيما مضى . فالمسلك الذى يتحتم على هذا الشاب أن يتبعه هو الذى اتبعه المجتمع فى البداية

---

(١) أولوس جيليوس : ١٥ : ٢٧ .

(٢) بوليدوكيس ٨ : ١١١ .

(٣) بوليدوكيس ١٠٥ - ١٠٦ *Ἀμυνῶ ὑπὲρ ἱερῶν καὶ ὁσίων... καὶ ἱερὰ τὰ πάτρια τιμήσω*

(٤) إيسايوس: ميراث قيرون ١٩ ؛ الدفاع عن أوفيليتوس *Pro Euphileto* ٣ . ديموسثينيس: ضد إوبوليديس ٤٦ . تتبين ضرورة القيد فى أخوية قبل أن يكون الانسان عضوا فى المدينة ، فى الأزمنة العتيقة على الأقل ، من قانون ذكره دينارخوس (Dinarque, *Oratores attici*, coll. Didot, t. II, p. 462, fr. 82)

هاك مثلا يجعل هذه الحقيقة أكثر وضوحاً ، لقد بقى لنا من الأثارات والذكريات عن العصور العتيقة فى أثينا ما يكفى لـكى نستطيع أن نرى بشىء من الجلاء كيف تكونت المدينة الأثينية . يقول پلوتارخوس كانت أتيكا مقسمة فى الأصل إلى أسرات (١) . وقد استمرت بعض هذه الأسرات التى هى من العصر البدائى كالإيمولپيين (Eumolpides) والككروپيين (Cécropides) والغفيريين (Géphyréens) والفيتاليين (Phytalides) واللاكياديين (Lakiades) قائمة حتى العصور التالية . لم تكن المدينة الأثينية موجودة عندئذ بل كانت كل أسرة ، تحيط بها فروعها الصغرى ومواليها ، تحتل ناحية وتعيش فيها مستقلة استقلالا مطلقاً . وكان لـكل منها ديانتها الخاصة : فالإيمولپيون المقيمون فى إليسيس (Eleusis) يعبدون ديميتر ؛ والككروپيون الذين كانوا يسكنون الصخرة التى وجدت عليها أثينا فيما بعد كانت معبوداتهم الحامية پوسيدون وأثينايا (Athéné) . وبجوارها على أكمة الأريوپاغوس الصغيرة كان الإله الحامى هو أريس (Arès) ، وفى ماراثون هراكليس ، وفى پراسيس (Prasies) إله يحمل اسم أپولون ، وكان هناك أپولون آخر فى فلييس (Phlyes) ، والديوسقوران (Dioscures) فى كيفالى (Céphale) وهكذا كانت الحال فى جميع المقاطعات الأخرى (٢) .

ولما كان لكل أسرة إلهها ومذبحها فقد كان لها رئيسها أيضاً . لما زار پوسانياس أتيكا وجد فى البلدان الصغيرة أثارات عتيقة استمرت مع العبادة ، وقد علمته هذه الأثارات أنه كان لكل قريه ملك قبل الوقت الذى حكم فيه ككروپس فى أثينا (٣) . ألم تكن هذه ذكرى عصر بعيد كان فيه لـكل واحدة من هذه الأسرات الأبوية الـكبيرة ، الشبيهة بالعشائر الـكلتية ، رئيسها الوراثى الذى كان فى نفس الوقت كاهناً وقاضياً ؟ كانت هناك إذن مجتمعات صغيرة حوالى المائة تعيش منعزلة فى البلاد لا تعرف فيما بينها رباطاً دينياً ولا

---

(١) *Κατὰ γένη* بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٤ ؛ شرحه ١٣

(٢) بوسانياس ١ : ١٥ ؛ ١ : ٣١ ؛ ١ : ٣٧ ؛ ٢ : ١٨

(٣) بوسانياس ١ : ٣١ : *Τῶν ἐν τοῖς δήμοις φάναι πολλοὺς ὡς καὶ πρὸ τῆς ἀρχῆς τῆς Κέκροπος ἐβασιλεύοντο.*

رباطاً سياسياً ، لكل منها منطقتها وكثيراً ما يحارب بعضها بعضاً ، وأخيراً كانت منفصلة الواحدة عن الأخرى إلى حد أن الزواج فيما بينها لم يكن يسمح به دائماً (١) .

لكن الحاجات أو العواطف قد قربت بينها فاتحدت تدريجياً فى مجموعات صغيرة من أربع أو ست . وهكذا نجد فى التقاليد أن البلاد الأربع فى سهل ماراثون قد تجمعت لتعبد سوياً أپولون الدلفى (Apollon Delphinien). وتجمع ، من ناحية أخرى ، أهالى پيرايوس (الپيريه Pirée) وفاليرون (Phalère) ومحلتين أخريين متجاورتين وبنوا معاً معبدا لهراكليس (٢) . وبمضى الزمن اختزلت هذه المائة من الدويلات الصغيرة إلى حوالى إثنى عشر اتحاداً ، وقد نسبت الأسطورة إلى جهود ككروپس هذا التغيير الذى انتقل به شعب أتيكا من حالة الأسرة الأبوية إلى مجتمع أكثر منها اتساعاً بقليل . وما يجب أن نفهمه من هذا هو أن ذلك التغيير لم يتم إلا فى الفترة التى وضعوا فيها حكم ذلك الشخص أى حوالى القرن السادس عشر قبل الميلاد . فضلا عن أننا نرى أن ككروپس هذا لم يكن يحكم إلا واحدة من الجماعات الإثنتى عشرة وهى التى أصبحت أثينا فيما بعد ؛ وكانت الإحدى عشرة الأخرى مستقلة تماماً ؛ وكان لكل واحدة منها إلهها الحامى ، ومذبحها ، ونارها المقدسة ورئيسها (٣) .

وقد مضت عدة أجيال حصلت خلالها مجموعة الككروپيين (Cécropides) تدريجياً على أهمية أكبر من تلك . وقد تبقى لنا من هذه الحقبة ذكرى نضال دموى قاموا به ضد الإيمولپيين فى إليسيس (Eleusis) وكانت نتيجته أن خضع

---

(١) بلوتارخوس : ثيسيوس ١٣

(٢) بلوتارخوس : ثيسيوس ١٤ بوليدوكيس ٦ : ١٠٥. اسطفان البيزنطى تحت لفظ *'Εχελίδαι*

(٣) Philochore, cité par Strabon, IX, p. 609: *Κέκροπα πρῶτον ἐς δώδεκα πόλεις σύνοικῖσαι τὸ πλῆθος*. Thucydide, II, 15: *'Επι Κέκροπος ἐς Θησέα ἀει ἡ 'Αττικὴ κατὰ πόλεις ωκεῖτο πρυτανεία τε ἔχουσα καὶ ἄρχοντας... αὐτοὶ ἕκαστοι ἐπολιτεύοντο καὶ ἐβουλεύοντο, καί τινες καὶ επολέμησάν ποτε αὐτῶν*. — Cf: Pollux, VIII, 111.

هؤلاء لهم مع تحفظ واحد فقط ألا وهو احتفاظهم بكهنوت معبودهم الوراثى(١). ويمكن الاعتقاد بأنه كانت هناك حروب أخرى لم تحفظ ذكراها ، وقد حصلت صخرة الـكـكروپيين ، التى تطورت فيهـا عبادة أثينايا شيئاً فشيئاً ، والتى انتهت بأن اتخذت اسم إلهتها الرئيسية ، على السيادة على الاحدى عشرة دولة الأخرى . عندئذ ظهر ثيسيوس (Thesée) وارث الككروپيين . وتتفق كل الأثارات فى القول بأنه جمع المجموعات الإثنتى عشرة فى مدينة واحدة . والواقع أنه نجح فى جعلهم يتخذون فى جميع أتيكا عبادة أثينايا پولياس (أثينايا المدنية) بحيث اشترك كل الأقليم منذ ذلك فى الاحتفال بقربان الپاناثينايا (Panathénées). أما قبل عهده فقد كان لكل قرية نارها المقدسة وبيت نارها (پريتانيون Prytanée) وقد أراد أن يكون بيت نار أثينا هو المركز الدينى لـكل أتيكا (٢) . وعندئذ تأسست الوحدة الأثينية ؛ فمن الناحية الدينية ، احتفظت كل ناحية بعبادتهـا القديمة لـكنها اتخذت جميعاً عبادة مشتركة ؛ ومن الناحية السياسية ، احتفظت كل واحدة بروؤسائها وقضاتها وحقها فى الاجتماع ؛ ولـكن فوق هذه الحكومات المحلية وجدت حكومة المدينة المركزية (٣) .

---

(١) بوسانياس ١ : ٣٨

(٢) Thucydide, II, 15: *Ὁ Θησεὺς καταλύσας τῶν ἄλλων πόλεων τὰ βουλευτήρια καὶ τὰς ἀρχὰς,.. ἓν βουλευτήριον αποδείξας καὶ πρυτανεῖον...* Plutarque, *Thésée*, 24: *Ἓν ποιήσας ἅπασι κοινὸν πρυτανεῖον... καὶ Παναθήναια θυσίαν ἐποίησε κοινήν. ἔθυσι δὲ καὶ Μετοίκια, ἣν ἔτι καὶ νῦν θύουσι.* Cf. Pausanias, VIII, 2, 1.

(٣) يقول بلوتارخوس وثوقديديس أن ثيسيوس (Thésée) حل بيت النار (بيريتانيون) المحلى وأبطل مناصب القرى. وعلى كل حال فهو إن كان قد حاول ذلك فانه لم ينجح إذ أننا لازلنا نجد العبادات المحلية والمجتمعات وملوك القبائل بعده بزمن كبير : Boekh, *Corp. inscr.*, 82, 85. ؛ ديموستينيس : ضد ثيوكرينيس ؛ بوليدوكيس ٨ : ١١١ . — وقد تركنا جانباً أسطورة يون (Ion) التى يلوح لنا أن عدداً كبيراً من المؤرخين المحترمين قد أعطاها أهمية أكبر مما يلزم بتقديمها كمظهر لغزو أجنبى فى أتيكا . لـكن هذا الغزو لا تشير إليه أية وثيقة . فلو أن يونيى البيلوبونيز استولوا على أتيكا لما كان من المحتمل أن يحافظ الأثينيون محافظة شديدة على أسمائهم : آل كـكروبس وآل

يبدو لنا أن حقيقتين جليتين على حد سواء تبرزان من هـذه الذكريات والأثارات الدقيقة التى حرصت أثينا عليها حرص المتحرجين : الأولى ، أن المدينة كانت حلفا من مجموعات تـكونت قبلها ؛ والأخرى ، أن المجتمع لم يتطور إلا متدرجا مع اتساع الديانة . وليس فى الاستطاعـة البت فيما إذا كان التقدم الدينى هو الذى جلب التقدم الاجتماعى . انما المحقق هو أن الإثنين قـد حدثا فى وقت واحد وفى اتفاق عجيب .

ولا بد من التفكير فى الصعوبة الزائدة التى كانت تعانيها الشعوب البدائية فى تأسيس مجتمعات منظمة فليس من الهين إقامة الرباط الاجتماعى بين هذه الـكائنات البشرية الـكثيرة التباين والحرية والتقلب . إذ أن إعطاءهم قواعد مشتركة ، وإنشاء القيادة ، وجعلهم يقبلون الطاعة ، وإخضاع الشهوة للعقل ، والعقل الفردى للعقل العام ، كل ذلك كان يتطلب شيئاً أشد من القوة المادية ، شيئاً أكثر احتراماً من المنفعة وأكثر ضماناً من نظرية فلسفية وأكثر رسوخاً من مجرد اتفاق شيئاً هو أيضاً فى قرارة القلوب جميعاً ويقيم فيها بسلطان عظيم .

ذلك الشىء هو العقيدة ؛ وما من شىء أقوى سلطاناً على النفس منها . فالعقيدة من صنع فكرنا لـكننا لسنا أحراراً فى تعديلها كما نهوى . إنها من خـلقنا لـكننا لا نعرف ذلك ؛ إنها من البشر ونحن نؤمن بأنها إلهية ؛ إنها أثر من آثار قوتنا غير أنها أقوى منا ؛ إنها فينا ولا تتركنا ؛ إنها تخاطبنا فى كل لحظة فإن قالت لنا أطيعوا أطعنا ، وأن رسمت لنا واجبات خضعنا . إن الإنسان ليستطيع أن يقهر الطبيعة لـكنه مستعبد لفكره .

أرخثيوس بل لا عتبروا اسم اليونيين سبة (هيرودوت ١ : ١٤٣) ، ويمكن الرد إيضاً على أولئك الذين يعتقدون فى غزو اليونيين ويضيفون أن طبقة الأشراف النسباء (Eupatrides) أتت من هنا بأن معظم الأسرات الأثينية الكبيرة ترجع إلى عصر سابق بكثير للعصر الذى يضعون فيه وصول يون فى أتيكا ، هل معنى هذا أن الأثينيين ليسوا يونيين فى سوادهم الأعظم ؟ من المؤكد أنهم ينتمون لذلك الفرع من الجنس الإغريقى . يخبرنا استرابون أن أتيكا كانت تسمى فى أقدم العصور يونيا وياس . ولـكن من الخطأ أن نجعل من ابن اكسيثوس (Xuthos) ، من بطل الأسطورة فى أوربيديس ، أرومة هؤلاء اليونيين فانهم أقدم من يون قدماً سحيقاً ، وربما كان اسمهم اقدم بكثير من اسم الهلينيين . ومن الخطأ جعل كل النسباء من سلالة يون هذا وتقديم هذه الطبقة من الناس كشعب فاتح قهر بالقوة شعباً مغلوباً فان هذا الرأى معه لا يعتمد على أى دليل قديم .

كانت العقيدة العتيقة تأمر الإنسان أن يمجد أسلافه ؛ فعبادة السلف هى التى جمعت الأسرة حول المذبح . ومن هنا جاءت الديانة الأولى ، والصلوات الأولى ، والفكرة الأولى عن الواجب ، والأخلاق الأولى . ومن هنا أيضاً قامت الملكية وثبت نظام الإرث . ومن هنا أخيراً جاء كل القانون الخاص وكل قواعد التنظيم المنزلى . ثم كبرت العقيدة والجماعة فى آن واحد . وكلما شعر الناس بأن لهم آلهة مشتركة اتحدوا فى جماعات أوسع . ونفس هذه القواعد التى وجدت واستقرت فى الأسرة تنطبق على الأخوية والقبيلة والمدينة على التوالى .

ولنلق نظرة شاملة على الطريق الذى قطعه الناس . عاشت الأسرة فى البدء منعزلة ولم يعرف الإنسان إلا آلهته المنزلية *Θεοὶ πάτρῳοι, dii gentiles* . ثم تكونت الأخوية بآلهتها *Θεὸς φράτριος, Juno* curialis فوق الأسرة. ثم أتت القبيلة وإله القبيلة *Θεὸς φύλιος* . وأخيراً وصلوا إلى المدينة وتصوروا إلهاً تشمل نعماؤه المدينة كلها *Θεὸς πολιεύς, penates publici* . درجات بعضها فوق بعض ، درجات من العقائد ودرجات من الجماعات . كانت الفكرة الدينية عند القدماء هى النسمة الملهمة والمنظمة للمجتمع .

تروى أثارات الهنود والإغريق والرومان أن الآلهة كشفوا للإنسان عن القوانين الاجتماعية . وهناك حقيقة تحت هذه الصورة الأسطورية . فإن القوانين الاجتماعية كانت من عمل الآلهة لكن هذه الآلهة القوية المنيعمة لم تكن غير عقائد الناس .

تلك كانت طريقة نشأة الدول عند القدماء . وكانت هذه الدراسة ضرورية لكى نقف بعد قليل على طبيعة المدينة وأنظمتها . ولكن لا بد هنا من تحفظ فإنه إذا كانت المدن الأولى قد تكونت من حلف من المجتمعات الصغيرة التى تكونت من قبل فليس معنى هذا أن كل المدن المعروفة لنا قد تكونت بنفس الطريقة . إذ أنه بمجرد أن وجد النظام البلدى لم تعد هناك ضرورة لأن يأتنفوا نفس الطريق الطويل العسير لكل مدينة جديدة . بل كان يحدث فى كثير من الأحيان أن يتبعوا نظاماً عكسياً . فعندما كان يخرج رئيس من مدينة تكونت

من قبل ويذهب لتأسيس مدينة أخرى لم يكن يستصحب فى العادة إلا عدداً قليلا من مواطنيه ويضم إليهم كثيراً من الناس الآخرين الذين يأتون من أماكن متعددة بل من المحتمل أنهم كانوا ينتمون إلى أجناس متعددة . ولم يكن يفوت هذا الرئيس مطلقاً أن ينشىء الدولة الجديدة على صورة المدينة التى غادرها . وبناء عليه كان يقسم شعبه إلى قبائل وأخويات . وكان لكل واحدة من هذه الجماعات الصغيرة موقد وقرابين وأعياد ؛ بل إن كل واحدة منها كانت تتصور بطلا قديماً تكرمه بعبادة ما ، ثم وصلت مع الزمن إلى الاعتقاد بأنها من نسله .

هذا وكثيراً ما كان يحدث أن يعيش أهالى بعض البلاد بلا قوانين أو نظام إما لأن النظام الاجتماعى لم ينجح فى الاستقرار كما فى أركاديا أو لأن ثورات عنيفة مفاجئة قد أفسدته وحلته كما فى قرينه (Cyrène) وثورى (Thurii) . فإذا ما حاول مشرع أن يضع نظاماً لهؤلاء الناس فإنه لم يكن يفته أن يبدأ بتوزيعهم فى قبائل وأخويات كما لو لم يكن هناك طراز آخر للمجتمع غير هذا . وكان يقيم فى كل واحد من هذه النطاقات بطلا يُتسمى به (éponyme) ، ويقر قرابين ، ويفتتح أثارات . من هنا كانوا يبدؤون دائماً عند ما كانوا يريدون تأسيس جماعة منظمة (١) . وهكذا فعل أفلاطون نفسه عند ما تخيل مدينة نموذجية .

---

(١) هيرودوت ٤ : ١٦١ . انظر أفلاطون : القوانين ٥ : ٧٨٨ ؛ ٦ : ٧٧١ . وهكذا كان عندما أصلح ليكورغ مدينة اسبرطه وجددها فان أول شىء عمله هو أنه بنى معبداً . والثانى أنه قسم المواطنين إلى φῦλαι أو ὠβαὶ ؛ أما قوانينه السياسية فقد أتت بعد ذلك (بلوتارخوس : ليكورغ ٦)

الفصل الرابع

البلدة

لم يكن لفظا مدينة وبلدة مترادفين عند القدماء. فالمدينة كانت تجمعاً دينياً وسياسياً بين الأسرات والقبائل . وكانت البلدة مكان الاجتماع ومقر الجماعة وعلى الأخص مكانها المقدس .

ويجدر بنا ألا نتصور المدينة القديمة كما نتصور المدن التي نراها تقوم في أيامنا : نبنى بضعة بيوت فإذا هى قرية ، ويزداد عدد البيوت تدريجياً فاذا هى بلدة ؛ وننتهى إذا لزم الأمر بإحاطتها بخندق وسور . لكن البلدة عند القدماء لم تكن تتكون مع مرور الزمن عن طريق الازدياد البطىء فى عدد الناس والمبانى . بل كانوا يؤسسون البلدة دفعة واحدة ، تؤسس كلها فى يوم واحد .

لكن كان لا بد من وجود المدينة أولا ؛ وكان ذلك هو العمل الأشق والأطول . فإذا ما اتفقت الأسرات ، والأخويات والقبائل على الاتحاد وعلى أن يكون لها نفس العبادة فإنهم كانوا يؤسسون البلدة فوراً لكى تكون مقدساً لهذه العبادة المشتركة . ولذا كان تأسيس مدينة ما عملا دينياً على الدوام .

سنتخذ من روما ذاتها مثلا أول بالرغم مما هو مألوف من عدم تصديق هذا التاريخ القديم . كثيراً ما رددوا أن رومولوس كان رئيساً لعصابة من المغامرين وأنه كون لنفسه شعباً باستدعائه الصعاليك واللصوص إليه وأن جميع هؤلاء الناس الذين جمعهم من غير اختيار بنوا مصادفة بضعة أكواخ ليحفظوا فيها غنيمتهم . لكن الكتاب الأقدمين يقدمون لنا الوقائع بطريقة تختلف عن ذلك كل الاختلاف . ويلوح لنا أنه إذا أريد معرفة الزمن العتيق فإنه يجب أن تكون القاعدة الأولى هى الاعتماد على الشواهد التى تأتينا

منه . حقاً إن هؤلاء الـكتاب يتكلمون عن ملجأ أى عن حائط مقدس قبل فيه رومولوس كل أولئك الذين تقدموا إليه . وهو فى هذا قد اتبع المثل الذى أعطاه له الـكثيرون من مؤسسى البلدان (١) . لـكن هذا الملجأ لم يكن البلدة بل إنه لم يفتح إلا بعد أن أسست البلدة وتم بناؤها (٢) . فكان ذلك ملحقاً مضافاً إلى روما ولم يكن روما نفسها . بل إنه لم يكن جزءاً من بلدة رومولوس إذ أنه كان واقعاً على أكمة الـكابيتوليوم بينما كانت البلدة تحتل هضبة البلاتيوم (Palatin) (٣) . ومن المهم تمييز العنصر المزدوج فى أهالى روما تمييزاً جيداً . ففى الملجأ كان المغامرون الذين لا نار لهم ولا مكان . وعلى البلاتيوم القوم الذين أتو من ألبا (Albe) أى الذين كانوا منظمين فى مجتمع من قبل وهم موزعون على فصائل (*gentes*) وندوات (*curiae*) ولهم عبادات منزلية وقوانين . أما الملجأ فلم يكن إلا كمحلة أو ضاحية كانت الأكواخ تبنى فيها مصادفة وعلى غير قاعدة ؛ وعلى البلاتيوم كانت تقوم مدينة دينية مقدسة .

---

(١) Tite—Live, I, 8: *Vetere consilio condentium urbes.*

(٢) تيتوس ليفيوس ١:٨ . بعد أن روى تيتوس ليفيوس تأسيس البلدة على البلاتيوم وبعد أن تـكلم عن أنظمتها الأولى أضاف *Deinde asylum aperit*

(٣) كانت البلدة (*urbs*) تحتل البلاتيوم وهو مايثبته بصفة قاطعة ديونيسيوس ٢ : ٦٩ ؛ بلوتارخوس : رومولوس ٩ ؛ تيتوس ليفيوس ١ : ٧ و٣٣ ؛ فارون : اللسان اللاتينى ٦ : ٣٤ ؛ فستوس تحت لفظ *Quadrata* ص ٢٥٨ ؛ أولوس جيليوس ١٣ : ١٤ . ويعطى تاسيتوس (Tacite) (الحوليات ١٢ : ٢٤) خط هذا السور الأول الذى لم يكن الـكابيتوليوم (الكابيتول) محصوراً فيه . — وبالعكس كان الملجأ (asylum) واقعاً على سفح الـكابيتوليوم : تيتوس ليفيوس ١ : ٨ ؛ استرابون ٥ : ٣ : ٢ ؛ تاسيتوس : التواريخ ٣ : ٧١ ؛ ديونيسيوس ٢ : ١٥ . فضلا عن أنه كان مجرد *Lucus* (غابه مقدسة) أو ἱερὸν ἄσυλον (ملجأ مقدس) كما كان يوجد فى كل مكان فى إيطاليا وفى بلاد الاغريق .

أما عن الطريقة التى أسست بها هذه البلدة فإن الزمن القديم يفيض بالمعلومات. فنجد منها فى ديونيسيوس الهاليكارناسى الذى كان يستمدها من مؤلفين أقدم منه . ونجد منها فى پلوتارخوس وفى شعر أوڤيديوس عن الأعياد (Fastes) ، وفى تاسيتوس ، وفى كاتون الأكبر الذى تصفح الحوليات القديمة ، وفى كاتبين آخرين يجب أن يدخلا فى نفوسنا ثقة خاصة وهما العالم ڤارون (Varron) والعالم ڤريوس فلاكوس (Verrius Flaccus) الذى احتفظ لنا فستوس بجزء من مؤلفاته ، وكل من هذين العالمين على معرفة كبيرة بآثار روما القديمة ، كلاهما محب للحقيقة ، وغير مصدّق لكل ما يقال ، وعارف بقواعد النقد التاريخى معرفة لا بأس بها . نقل إلينا هؤلاء الكتاب جميعاً ذكرى الاحتفال الدينى الذى اتسم به تأسيس روما ولا يحق لنا أن نرفض مثل هذا العدد من الشهادات .

ليس من النادر أن تصادفنا لدى القدماء وقائع تثير فينا العجب . فهل فى ذلك ما يبرر القول بأنها خزعبلات ، وعلى الأخص ، إذا كانت هذه الوقائع ، التى تبتعد كثيراً عن الأفكار الحديثة ، تتفق تماماً مع آراء الأقدمين . لقد رأينا فى حياتهم الخاصة ديانة تنظم كل أعمالهم . ثم رأينا أن هذه الديانة قد نظمتهم فى مجتمع : فأى عجب بعد هذا فى أن يكون تأسيس بلدة ما عملا مقدساً كذلك ، وأن يقوم رومولوس نفسه بهذه الشعائر التى كانت تراعى فى كل مكان ؟

أول ما كان يهتم به المؤسس هو اختيار موضع للبلدة الجديدة . لكن هذا الاختيار ، وهو شىء خطير لاعتقادهم أن مصير الشعب متوقف عليه ، كان متروكاً دائماً لما تقرره الآلهة . فلو أن رومولوس كان إغريقياً لاستشار وحى دلفوى Delphes ؛ ولو كان سمنيا (samnite) لتتبع الحيوان المقدس : الذئب أو طائر الصرد (pivert) أما وهو لاتينى وجار قريب للأتروسك ؛ على علم بالعيافة (زجر الطير) (١) فقد طلب إلى الآلهة أن يكشفوا له عن إرادتهم بطيران

(١) سيسرون التكهن ١ : ١٧ . بلوتارخوس : كاميلوس ٣٢ . بلينيوس ١٤ : ٢ ؛ ١٨ : ١٢ .

الطيور ، فدلته الآلهة على البلاتيوم .

ولما جاء يوم وضع الأساس بدأ بتقديم قربان . ها هم أولاء أصحابه محيطون به ، يوقدون ناراً من الحطب وكل واحد منهم يقفز خلال اللهب الخفيف (١) . وتفسير هذه الشعيرة أنه يجب أن يكون الشعب طاهراً لأجل العمل الذى سيتم . وكان القدماء يعتقدون أنهم يتطهرون من كل دنس جسمانى أو خلقى بقفزهم خلال اللهب المقدس .

وعندما يُـعِدُّ هذا الاحتفال الافتتاحى الشعبَ لعملية التأسيس العظيمة يحفر رومولوس حفرة صغيرة مستديرة الشكل ويلقى فيها كتلة من الثرى الذى أتى به من مدينة ألبا (٢) . ثم يقترب كل واحد من أصحابه فى دوره ويلقى مثله قليلا من الثرى الذى أحضره من الإقليم الذى أتى منه . وهذه الشعيرة الدينية جديرة بالملاحظة وتكشف لنا عند هؤلاء الناس عن فكرة من المهم أن نشير إليها . فقبل مجيئهم على البلاتيوم كانوا يقطنون ألبا أو بلادا أخرى مجاورة لها . هنالك كان موقدهم وهنالك عاش آباؤهم ودفنوا . والديانة تحرم ترك الإنسان للأرض التى ثبت فيها الموقد والتى يرقد فيها الأسلاف الإلهيون . فكان لا بد إذن للتخلص من كل إثم أن يعمد كل واحد من هؤلاء الناس إلى محال وأن يحمل معه فى صورة رمزية مدرة من الثرى من تلك الأرض المقدسة التى دفن فيها أسلافه والتى ترتبط بها أرواحهم . لم يكن الرجل يستطيع أن ينتقل إلى جهة أخرى إلا إذا أخذ معه أرضه وآلهته . وكان لا بد أن تتم هذه الشعيرة الدينية لكى يستطيع القول ،وهو يشير إلى المكان الجديد الذى اتخذه ،إن هذه أيضاً أرض آبائى *terra patrum, patria* ؛ هنا وطنى إذ أن هنا أرواح أسرتى .

كانت الحفرة التى ألقى فيها كل واحد منهم بقليل من الثرى تسمى موندوس *(Mundus)* ؛ وهذا اللفظ كان يدل فى اللغة الدينية القديمة على إقليم الأرواح

---

(١) ديونيسيوس ١ : ٨٨ .

(٢) بلوتارخوس : رومولوس ١١ . ديون كاسيوس : القطعة ١٢ . أوفيديوس الأعياد ٤ : ٨٢١ . فستوس تحت لفظ *Quadrata*

بصفة خاصة (١) . ومن هذا المكان ذاته كانت أرواح الأموات تمرق ، كما
تقول الأثارة ، ثلاث مرات فى العام متطلعة لرؤية الضوء لحظة ما (٢) . ألسنا
نرى بعد ذلك فى هذه الأثارة الفكرة الحقيقية لهؤلاء القدماء . لقد اعتقدوا
بوضعهم مدرة من ثرى وطنهم القديم فى الحفرة أنهم حبسوا فيها أرواح أسلافهم
أيضاً . وكان لهذه الأرواح المجتمعة هنا أن تتلقى عبادة دائمة وأن تسهر على سلامة ذريتها
وقد وضع رومولوس فى نفس هذا المكان مذبحاً وأوقد ناراً . فكان ذلك
موقد المدينة (٣) .

وحول هذا الموقد كان يجب أن تقوم البلدة كما يقوم المنزل حول الموقد
المنزلى وقد خط رومولوس شقاً يبين السور . وهنا أيضاً تحدد الشعائر أصغر
التفاصيل . يجب أن يستعمل المؤسس سكة (٤) من النحاس ويجر محراثه ثور
أبيض وبقرة بيضاء . وقد قبض رومولوس نفسه على مقبض المحراث وهو
مقنع الرأس مرتديا الملابس الكهنوتية ، ووجّه المحراث وهو ينشد الأدعية
ومشى أصحابه خلفه فى صمت دينى . وكلما رفعت السكة كتلة من الثرى ألقوا
بها ، بعناية ، داخل السور لكيلا تكون أية ذرة من هذه الأرض المقدسة فى

---

(١) Plutarque, *Romulus*, 11, *Καλοῦσι δὲ τὸν βόθρον τοῦτον μοῦνδον* *secratam diis manibus.* Servius, *ad. Aen.*, III 134: *Aras Inferorum (vocant) mundos.*

(٢) كان التعبير *mundus patet* يدل على هذه الأيام الثلاثة التى كانت الأرواح تخرج فيها من مساكنها .
Varron, dans Macrobe, *Saturn.*, I, 16: *Mundus cum patet, Deorum tristium atque inferum quasi janua patet.* Festus, éd. Müller, p. 156: *Mundum ter in anno patere putabant. . . clausum omni tempore praeter hos tres dies quos religiosos judicaverunt quod his diebus ea quae occulta religionis deorum manium essent, in lucem adducerentur.*

(٣) Ovide, *Fastes*, IV, 822, *Fossa repletur humo plenaeque imponitur ara, Et novus accenso fungitur igne focus*
وقد نقل الموقد فيما بعد . وعند ما اندمجت البلدان الثلاثة التى على البلاتيوم والكابيتولينوس والكويرناليس فى بلدة واحدة وضع الموقد المشترك أو معبد فستافى أرض محايدة بين التلال الثلاثة

(٤) السكة هى حديدة المحراث . — المعرب .

ناحية الأجنبى (١)

وهذا السور الذى رسمته الديانة مصون لا يمس ، وليس لأجنبى ولا لمواطن أن يتخطاه . فالقفز فوق هذا الشق الصغير عمل غير صالح . كانت الأثارة الرومانية تقول إن أخ المؤسس قد ارتكب هذه الخطيئة ودفع حياته ثمناً لها (٢).

وقد كان الشق مقطوعاً فى بعض المواضع لكى يكون الدخول إلى البلدة والخروج منها مستطاعاً. وللوصول الى ذلك كان رومولوس يرفع السكة ويحملها . تلك الفرجات تسمى *portae* ؛ تلك هى أبواب البلدة (٣) .

وعلى الشق المقدس أو وراءه بقليل يقوم السور فيما بعد ، وهو مقدس أيضاً (٤) . ليس لأحد أن يمسه بغير إذن من الأحبار ، حتى لإصلاحه . وعلى

---

(١) . بلوتارخوس : روملوس ١١ . ديونيسيوس الهاليكارناسى ١ : ٨٠٨. أوفيديوس : الأعياد ٤ : ٨٢٥ وما بعدها .

Varron, *De ling. lat.*, V, 143: *Oppida condebant in Latio, Etrusco ritu, junctis bobus, tauro et vacca interiore, aratro circumagebant sulcum; hoc faciebant religionis causa, die auspicato. Terram unde exculpserant fossam vocabant et introrsum jactam murum.* Festus, éd. Müller, p. 375: *Urvat. . . ab eo sulco qui fit in urbe condenda sulco aratri.* كانت هذه القواعد معروفة ومألوفة حتى أن فرجيليوس عندما وصف تأسيس بلدة بدأ بوصف هذه العادة :

Interea Aeneas urbem designat aratro (V, 755).

(٢) Plutarque, *Quest. rom.*, 27: *Τὸ τοῖχος ἱερόν· οὕτω γὰρ δοκεῖ Ῥωμύλος ἀποκτεῖναι τὸν ἀδελφὸν ὡς ἄβατον καὶ ἱερὸν τόπον ἐπιχειροῦντα δαπηδᾶν καὶ ποιεῖν βέβηλον.*

(٣) Caton, cité par Servius: *Urbem designat aratro; quem Cato in Originibus dicit morem fuisse; conditores enim civitatis taurum in dextra, vaccam intrinsecus jungebant; et incincti ritu Sabino, id est, togae parte caput velati, parte succincti, tenebant stivam incurvam ut glebae omnes intrinsecus caderent; et ita sulco ducto loca murorum designabant aratrum suspendentes circa loca portarum* (Servius, *Ad. Aen.*, V, 755).

(٤) Cicéron, *De nat. deorum*, III, 40: *muri urbis quos vos, pontifices, sanctos esse dicitis, diligentiusque urbem religione quam moenibus cingitis.*—Gaïus, II, 8: *sanctae quoque res velut muri et portae, quodammodo divini juris sunt.*—Digeste, I, 8, 8: muros *esse sanctos;* ibid., 11: *Si quis violaverit muros, capite punitur.*

جانبى هذا السور تركوا للديانة حرماً من بضع خطوات ويسمونه pomoerium ، ولا يسمح بمرور المحراث فيه ولا إقامة أى مبنى عليه (١).

هكذا كان الاحتفال بتأسيس روما طبقاً لجمهرة من الشواهد القديمة. وإذا سأل سائل كيف أمكن الاحتفاظ بذكراه حتى وصلت إلى الكتاب الذين نقلوها إلينا ، فجوابه أن هذا الاحتفال كان يعود به إلى ذاكرة الشعب فى كل عام احتفال تذكارى يسمونه يوم ميلاد روما (٢) . وكان يحتفل بهذا العيد فى كل الزمن القديم من عام إلى عام ؛ ولا يزال الشعب الرومانى يحتفل به إلى اليوم فى نفس التاريخ الذى كان يحتفل به فيه : اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل . إلى هذا الحد يبقى الناس مخلصين لعاداتهم القديمة خلال تقلباتهم التى لا تنقطع .

وليس من المعقول الظن بأن رومولوس كان أول من تصور مثل هذه الشعائر. على العكس ، من المؤكد أن كثيراً من المدن قد شيدت على نفس النمط قبل روما. يقول ڤارون إن هذه الشعائر كانت مشاعة بين اللاتيوم وأتروريا . ويخبرنا

---

(١) Varron, V, 143: *Postea qui fiebat orbis, urbis principium:.... postmoerium dictum, quo urbana auspicia finiuntur. Cippi pomoerii stant circum Roman.* Tite - Live, I, 44: *Pomoerium. . . locus quem in condendis urbibus quondam Etrusci certis terminis inaugurato consecrabant, ut neque interiore parte aedificia moenibus continuarentur ac extrinsecus puri aliquid ab humano cultu pateret soli. . . Neque habitari neque arari fas est.*

أعطى أولوس جيليوس (١٣ : ١٤) التعريف الذى وجده فى كتب المستخيرين (augures) :
Pomoerium est locus intra agrum affatum per totius urbis circuitum pene muros, regionibus (religionibus) certis determinatus, qui facit finem urbani auspicii.

(٢) Plutarque, *Romulus*, 12: *Καὶ τὴν ἡμέραν ταύτην ἑορτάζουσι Ῥωμαῖοι γενέθλιον τῆς πατρίδος ὀνομάζοντες.* Pline, *Hist, nat.*, XVIII, 66, 247: XI *Kalendas maias urbis Romae natalis.* Cf. *Corpus inscript. lat.*, t. I, p. 340-341; *Natalis dies urbis Romae.*

كاتون الأكبر ، الذى رجع إلى حوليات جميع الشعوب الإيطالية لـكى يكتب كتابه عن الأصول *(origines)* ، أن جميع مؤسسى المدن استعملوا شعائر مماثلة . وكانت عند الأتروسك كتب للصلوات قيدت فيها شعائر كاملة لهذه الاحتفالات (١) .

كان الإغريق يعتقدون كالإيطاليين أن المعبود هو الذى يجب أن يختار موضع المدينة وأن يكشف عنه . لذلك كانوا يستشيرون وحى دلفوى (Delphes) عندما كانوا يريدون تأسيس إحدى المدن (٢) . وبيّن هيرودوت أنه كان من الإثم أو الجنون أن تجرأ دوريوس (Doriée) الإسپرطى على بناء مدينة « دون استشارة الوحى ودون القيام بأى احتفال من الاحتفالات المنصوص عنها » . ولم يدهش المؤرخ الورع من أن مدينة بنيت دون مراعاة للقواعد لم تدم أكثر من ثلاثة أعوام (٣) . وعندما ذكر ثوقيديديس اليوم الذى أسست فيه اسپرطه ذكر الأناشيد الورعة والقرابين التى قدمت فى ذلك اليوم (٤) . ويخبرنا نفس المؤرخ أنه كان للأثينيين شعائر خاصة وأنهم لم يؤسسوا مستعمرة قط دون السير على مقتضاها (٥) . ويمكن أن نرى فى هزلية لأرسطوفانيس صورة على شىء من الدقة للاحتفال المألوف فى مثل هذه الحال فإن الشاعر عند ما مثل التأسيس المضحك لمدينة الطيور كان يفكر حتماً فى العادات المرعية فى تأسيس بلاد الآدميين ، لهذا وضع على المسرح كاهناً يوقد موقداً وهو يدعو الآلهة ، وشاعراً ينشد الأناشيد ، ومخبراً بالغيب يتلو الوحى .

---

(١) كاتون فى سرفيوس ٥ : ٧٥٥ . فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ١٤٣ . فستوس تحت لفظ *Rituales* ص ٢٨٥ :
Rituales nominantur Etruscorum libri in quibus praescriptum est quo ritu condantur urbes, arae, aedes sacrentur, qua sanctitate muri.

(٢) هيرودوت ٤ : ١٥٦ ؛ ديودوروس ١٢ : ١٢ ؛ بوسانياس ٧ : ٢ ؛ أثينايوس ٨ : ٦٢ .

(٣) هيرودوت ٥ : ٤٢ .

(٤) ثوقيديديس ٥ : ١٦ .

(٥) ثوقيديديس ٣ : ٢٤ .

تجول پوسانياس فى بلاد الإغريق حوالى عصر هادريانوس . وعند ما وصل إلى إقليم مسينه(١) جعل الـكهنة يروون له تأسيس بلدة مسينه ونقل إلينا روايتهم (٢) . لم يكن الحادث قديماً جداً فقد وقع فى عهد إپامينونداس (Epaminondas) . وكان المِسِّينيون قد طردوا من بلادهم قبل ذلك بثلاثة قرون ، ومنذ ذلك الوقت وهم يعيشون متفرقين بين الإغريق الآخرين دون أن يكون لهم وطن ، لكنهم حافظوا فى عناية شديدة على عاداتهم القومية وعلى ديانتهم . وقد أراد الثيبيون أن يردوهم إلى الپيلوپونيز لـكى يقيموا عدوا فى جنب إسپرطه ، لـكن أصعب ما فى الأمر كان إقناع المسينيين بذلك . ولما كان إپامينونداس يعامل قوماً ميالين للخرافات فقد اعتقد أن من واجبه أن يذيع وحياً يتنبأ لهـذا الشعب بالعودة إلى وطنه القديم فدلت بعض الرؤى الخارقة للعادة على أن آلهة المسينيين القومية التى كانت خانتهم فى زمن الغزو قد عادت ميالة إليهم . وعندئذ عقد ذلك الشعب الوجل عزمه على العودة إلى الپيلوپونيز فى إثر جيش ثيبى . كان عليهم أن يعرفوا المـكان الذى ستبنى فيه المدينة إذ لم يكن هناك مجال للتفكير فى العودة إلى احتلال بلدان الإقليم القديمة لأن الغزو قد دنسها . ولم تكن بيدهم الوسيلة المعتادة لاختيار المـكان الذى سيقيمون فيه ألا وهى استشارة وحى دلفوى إذ أن الپيثيا كانت عندئذ من حزب إسپرطه . ولحسن الحظ كانت لدى الآلهة وسائل أخرى لإعلان إرادتهم فقد رأى كاهن مسينى رؤيا ظهر له فيها واحد من آلهة أمته وقال له إنه سيستقر على جبل إيثومى (Ithome) وأنه يدعو الشعب إلى اللحاق به . وهكذا تبين موضع البلدة الجديدة . بقيت معرفة الشعائر اللازمة للتأسيس ، لـكن المسنيين كانوا قد نسوها . هذا ولم يكن فى استطاعتهم أن يتبعوا شعائر الثيبيين ولا شعائر أى شعب آخر ولم يكونوا يدرون كيف يبنون البلدة . وفى الوقت المناسب جاءت الرؤيا لمسينى آخر : أمرته الآلهة بالانتقال على جبل إيثومى والبحث عن شجرة سرو (if) بجوار شجرة آس (myrte) وحفر الأرض فى ذلك الموضع . فأطاع . واكتشف جرة

---

(١) مسينه هذه إقليم من بلاد الاغريق وهى غير البلدة المعروفة فى جزيرة صقلية

(٢) بوسانياس ٤ : ٢٧ .

وبداخل الجرة صفائح من القصدير منقوش عليها كل شعائر الاحتفال المقدس . فنسخ الـكهنة صورتها فوراً وكتبوها فى أسفارهم . ولم يفتهم أن يعتقدوا أن ملـكاً قديماً من ملوك المسينين وضع الجرة فى ذلك المـكان قبل غزو البلاد .

فلما استحوزوا على الشعائر بدأ وضع الأساس . فقدم الـكهنة فى الأول قرباناً . ودعوا آلهة مسينه القدماء وهم الديوسقوران وچوپيتر الإيثومى والأبطال القدماء والأسلاف المعروفون الممجدون . والظاهر أن حماة البلاد هؤلاء كانوا قد غادروها طبقاً لعقائد الأقدمين فى اليوم الذى أصبح فيه العدو سيداً على البلاد . فاستحلفوهم أن يعودوا ، وتلوا عزائم من شأنها أن تجبرهم على سكنى البلدة الجديدة بالمشاركة مع المواطنين . وقد كان ذلك هو المهم ، فإن جعل الآلهة يستقرون معهم هو أكثر ما كان يتطلع إليه هؤلاء الناس ويمكن الاعتقاد بأنه لم يكن للإحتفال الدينى هدف آخر . فكما أن أصحاب رومولوس حفروا حفرة واعتقدوا أنهم أودعوها أرواح أسلافهم كذلك كان معاصرو إپامينونداس يدعون إليهم أبطالهم وأسلافهم الإلهيين وآلهة الإقليم . واعتقدوا أنهم بالعزائم والشعائر يلزمونهم الأرض التى سيحتلونها هم أنفسهم ويحبسونهم فى السور الذى سيُخـُطونه . لذلك كانوا يقولون لهم : «تعالى معنا، أيتها الـكائنات الآلهية واسكنى معنا فى هذه المدينة .» وقضوا يومهم الأول فى هذه القرابين وهذه الأدعية . وفى اليوم التالى خطوا السور بينما كان الشعب ينشد الأناشيد الدينية

وإن الإنسان ليدهش أولا عند ما يرى فى المؤلفين القدماء أنه ما من مدينة مهما كانت قديمة لا تدعى معرفة اسم مؤسسها وتاريخ تأسيسها . ذلك لأن البلدة لم تكن تستطيع أن تنسى ذكرى الاحتفال المقدس الذى عين مولدها ، إذ أنها كانت تحتفل بذكراه كل عام بقربان . فكانت أثينا تحتفل بيوم مولدها ، وكذلك كانت روما . (١)

---

(١) Plutarque, *Thésée*, 24: Ἔθυσε τὰ μετοίκια, ἣν ἔτι καὶ νῦν θύουσι

يلاحظ سيسرون (الدفاع عن سكستيوس ٦٣) أنه نزل من البحر فى برنديزى فى اليوم الذى كانت تحتفل فيه البلدة بيوم مولدها : *Idem dies natalis coloniae Brundisinae*

كثيراً ما كان يحدث أن تستقر جالية أو غزاة فى بلدة مبنية من قبل ، فلم يكن عليهم أن يبنوا بيوتاً إذ ما من شىء يحول دون سكناهم بيوت المغلوبين. لكن كان عليهم أن يقوموا باحتفال التأسيس أى أن يضعوا موقدهم هم وأن يثبتوا آلهتهم القوميين فى مقرهم الجديد . ولهذا نقرأ فى ثوقيديديس وفى هيرودوت أن الدوريين أسسوا اسبرطه ، واليونانيين ميليتوس (Milet) مع أن هذين الشعبين وجدا هاتين البلدتين كاملتى البناء وقديمتين جداً فى ذلك الحين .

تبين لنا هذه العادات بوضوح ماذا كانت البلدة فى فكر القدماء . كان يحوطها سور مقدس، وتمتد حول مذبح ، وبذلك كانت تعد السكن الدينى الذى يتلقى آلهة المدينة وأهلها على السواء . قال تيتوس ليفيوس عن روما «ليس فى هذه البلدة مكان لم يتشبع بالدين ولا يشغله معبود ما ... الآلهة يسكنونها». وما قاله تيتوس ليفيوس عن روما كان يستطيع كل إنسان أن يقوله عن بلدته. لأنها إذا كانت قد أسست طبقاً للشعائر فإنها تكون قد تلقت بداخل سورها آلهة حماة كما لو كانوا قد غرسوا فى أرضها ولن يفارقوها أبداً. كانت كل بلدة مقدساً وكل بلدة كان يمكن أن تدعى مقدسة (١) .

كما أن الآلهة كانت تلازم المدينة إلى الأبد فقد كان من واجب الشعب أيضاً ألا يترك المكان الذى استقرت فيه آلهته . فقد كان هناك من هذه الناحية تعهد مشترك ، نوع من التعاقد بين الآلهة والناس. قال عرفاء السوقة (tribuns) يوماً أن روما بعد أن خربها الغاليون لم تعد سوى كومة من الخرائب وأنه على بعد خمس مراحل كانت توجد مدينة كاملة البناء كبيرة ، جميلة ، ذات موقع حسن ، وخالية من السكان منذ فتحها الرومان . فيجب إذن ترك روما المخربة والانتقال إلى ڤييس (Veii) . لكن كاميلوس الورع أجابهم قائلا «إن مدينتنا

---

(١) Ἴλιος ἱρή (الالياذة)؛ ἱεραὶ Ἀθῆναι (أرسطوفانيس : الفرسان ١٣١٩). Λακεδαιμόνι διῃ (ثيوغنيس : البيت ٨٣٧) . ويقول ثيوغنس عند الكلام على ميغارا Ἱερὰν πόλιν بوسانياس ١ : ٢٦ : Ἱηρὰ τῆς Ἀθηνᾶς ἐστιν ἡ πόλις

أسست طبقاً للدين ؛ وإن الآلهة أنفسهم عينوا موضعها واستقروا فيها مع آبائنا ؛ وبالرغم من أنها كلها خرائب فإنها لا تزال مسكن آلهتنا القوميه ». فبقى الرومان فى روما .

لقد كان هناك شيء مقدس وإلهى يلازم بطبعه هذه البلدان التى أقامتها الآلهة (١) والتى استمروا يملأونها بحضورهم . وإنا لنعرف أن الأثارات الرومانية كانت تَعِدُ روما بالخلود . وكان لكل مدينة أثارات شبيهة بهذه . لقد كانوا يبنون جميع البلدان لـكى تكون خالدة .

(١) *Ἀθῆναι Θεόδμητοι*, Neptunia Troja . انظر وغنيس البيت ٧٠٥ (طبعة ولكر (Welcker)

الفصل الخامس

عبادة المؤسس: أسطورة إينياس (Enée)

المؤسس هو الرجل الذى يقوم بالعملية الدينية التى بدونها لا يمكن أن توجد البلدة . فهو الذى كان يضع الموقد الذى يجب أن تشتعل عليه النار المقدسة إلى الأبد . وهو الذى كان يدعو الآلهة بدعواته وشعائره ويثبتها فى البلدة الجديدة إلى الأبد .

وإنا لندرك الاحترام الذى لا بد أنه كان يلازم هذا الرجل المقدس . فى حياته كان يرى الناس فيه مؤلف العبادة ووالد المدينة ؛ وبعد مماته كان يصبح سلفاً مشتركاً لـكل الأجيال التى تتوالى بعده ؛ فكان بالنسبة للمدينة كما كان السلف الأول بالنسبة للأسرة : لاراً عائلياً . وتدوم ذكراه كما تدوم نار الموقد التى أوقدها . وكانوا يخصصون له عبادة ويعتقدون أنه إله ، وتعبده المدينة باعتباره المنعم عليها . وكانت تجدد على قبره القرابين والأعياد كل عام (١) .

يعلم الجميع أن رومولوس كان يعبد وكان له معبد وسدنة . فقد استطاع الشيوخ أن يذبحوه لكنهم لم يستطيعوا أن يحرموه من العبادة التى كانت

---

(١) بنداروس : البيثيات ٥ : ١١٧ - ١٣٢ ؛ الأولمبيات ٧ : ١٤٣ - ١٤٥ . يطلق بنداروس على المؤسس «أب الاحتفالات المقدسة» (*Hyporchemes* fr. 1). أما إعادة إنشاء عبادة للمؤسس فيشهد بها هيرودوت وديودوروس

Herodore VI, 38: *Μιλτιάδει τελευτήσαντι Χερσονησῖται θύουσιν, ὥς νόμος οἰκιστῇ.*
Diodore de Sicile, XI, 78: *Ἵερων ἐτελεύτησε καὶ τιμῶν ἡρωικῶν ἔτυχεν ὡς ἂν κτίστης γιγονὼς τῆς πόλεως ὥσπερ οἰκιστὴν ἐκήδευσαν*

يصف بلوتارخوس (أراتوس ٥٣) التكريم الدينى والقرابين التى أنشئت لأراتوس بعد موته ويضيف

من حقه باعتباره مؤسساً (١) . وكذلك كانت كل بلدة تعبد من أسسها : فقد كانت فى أثينا معابد لـكـكروپس وثيسيوس اللذين كانا يعتبران مؤسسى أثينا الواحد بعد الآخر. وكانت أبديرا (Abdère) تقدم القرابين لمؤسسها تيمسيوس (Timésios) وكذلك ثيرا (Théra) لثيراس (Théras) وتندوس لتنيس (Ténès) وديلوس لأنيوس (Anios) وقرينه لباتوس (Battos) ومليتوس لنيليوس (Nélée) وامفيپوليس لهاغنون (Hagnon) (٢). وفى عهد پسيستراتوس ذهب شخص يدعى ملتيادیس ليؤسس مستعمرة فى شبه جزيرة خرسونيس (Chersonèse) فى تراقيا. فأنشأت له هذه المستعمرة عبادة بعد موته «طبقاً للعادة المألوفة» ولما أسس هييرون (Hiéron) طاغية سيراقوسه إتنا تمتع فيها فيما بعد «بعبادة المؤسسين (٣) .

ما من شىء كان عـلقاً بقلب المدينة بقدر ما كانت ذكرى تأسيسها ، عند مازار پوسانياس بلاد الإغريق فى القرن الثانى من الميلاد المسيحى استطاعت كل بلدة أن تحدثه عن اسم مؤسسها ونسبه وأهم الأحداث فى حياته . ولم يكن من المستطاع أن يخرج هذا الاسم وهذه الأحداث من الذاكرة إذ أنها كانت جزءاً من الدين وكانت تستعاد ذكراها فى الاحتفالات المقدسة كل عام .

وقد احتُفظ بذكرى عدد كبير من القصائد الإغريقية التى كان موضوعها

---

(١) بلوتارخوس : رومولوس . ديونيسيوس ٢ : ٦٣ : Τὸν Ῥωμύλον ἱεροῦ κατασκευῇ καὶ θυσίαις διετησίοις ἔταξε γεραίρεσθαι أوفيديوس: الأعياد ٢: ٤٧٥-٥١٠ . سيسرون : الجمهورية ٢ : ١٠ ؛ ١ : ٤١ ، وماسن رحيب فى أن بعض الأناشيد قد ألفت منذ تلك اللحظة تمجيدا للمؤسس ؛ وإن النفس لتحدثنا بأن نرى صدى لهذه الأغانى القديمة فى بعض أبيات من الشعر لإنيوس (Ennius) رواها سيسرون .

Simul inter
Sese sic memorant: O Romule, Romule die,
Qualem te patriae custodem Di genuerunt!
O pater, o genitor, o sanguem Dis oriundum,
Tu produxisti nos intra luminis oras,

(٢) هيرودوت ١ : ١٦٨ . بنداروس : البيثيات ٤ . ثوقيديديس ٥ : ١١ . استرابون ١٤ : ١ . سيسرون : طبيعة الآلهة ٣ : ١٩ . بلوتارخوس: المسائل الإغريقية ٢٨ . بوسانياس ١ : ٣٤ ؛ ٣ : ١ .

(٣) هيرودوت ٦ : ٣٨ ديودوروس ١١ : ٧٨ . ويبدو أن عبادة المؤسس كانت موجودة عند السابينيين أيضاً . القديس أوغسطينوس : مدينة الله ١٨ : ١٩ :
Sabini etiam regem suum primum Sangum retulerunt in Deos.

تأسيس بلدة . فقد تغنى فيلوخوروس (Philochore) بتأسيس سلامين ، ويون بتأسيس خيوس ، وكريتون بتأسيس سيراقه سه ، وزوپيروس بتأسيس ميليتوس ؛ وقد ألف أپولونيوس وهرموغينيس وهيلانيكوس وديوقليس قصائد أو روايات عن نفس الموضوع . وقد لا تكون هناك بلدة واحدة لم تكن لها قصيدتها أو على الأقل نشيدها عن تلك العملية المقدسة التى أنشأتها .

ومن بين كل هذه القصائد القديمة ، التى كان موضوعها التأسيس المقدس لبلدة من البلاد ، قصيدة واحدة لم تبد ، لأنه إذا كان موضوعها قد جعلها عزيزة على مدينة فإن جمالها قد جعلها ثمينة لجميع الشعوب وجميع القرون . من المعروف أن إينياس (Enée) أسس لاڤينيوم (Lavinium) التى خرج منها أهالى ألبا والرومان ، وبذلك كان يعتبر أول مؤسس لروما وقد اتخذوه موضوعاً لمجموعة من الأثارات والذكريات التى نجدها مدونة من قبل فى أبيات الشاعر القديم نيڤيوس (Naevius) وفى تواريخ كاتون الأكبر . وقد سطا ڤرجيليوس على هذا الموضوع وكتب القصيدة القومية للمدينة الرومانية .

ووصول إينياس أو بالحرى انتقال آلهة طروادة إلى إيطاليا هو موضوع الإنييد (Enéide) . وتتغنى القصيدة بهذا الرجل الذى جاب البحار لكى يؤسس بلدة ويحمل آلهته إلى اللاتيوم .

dum conderet urbem
Inferretque Deos Latio (١)

يجب ألا نحكم على الإنييد من واقع آرائنا الحديثة . يشكو الإنسان فى بعض الأحيان من أنه لا يجد فى إينياس الجرأة والاندفاع والحماس ؛ ويتعب من صفة البار التى تتكرر بلا انقطاع ؛ ويدهش من رؤية هذا المحارب يستشير آلهته المنزلية (پناتس) بعناية المتأثم ، ويدعو فى كل مناسبة معبوداً ما ، ويرفع ذراعيه نحو السماء حين يجب القتال ، ويترك الوحى يتدافعه فوق جميع البحار ، ويسكب الدمع عند رؤية الخطر ؛ كما أنه لا يفوت الإنسان أن يلومه على فتوره

(١) تعريبها : إلى أن يؤسس بلدته وينقل آلهته إلى اللاتيوم . (فرجيليوس : الإنييد ١ : ٥ - ٦) - المعرب

نحو ديدون ؛ وتحدثه النفس باتهام هذا القلب بأنه لا يحركه شيء .

Nullis ille movetur
Fletibus, aut voces ullas tractabilis audit. (١)

ذلك لأن الأمر هنا ليس أمر محارب أو بطل رواية وإنما أراد الشاعر أن يرينا كاهناً : فإينياس هو رئيس العبادة ، الرجل المقدس ، المؤسس الإلهى الذى رسالته هى انقاذ پناتس المدينة .

Sum pius Aeneas raptos qui ex hoste Penates
Classe veho mecum. . (٢)

وصفته الغالبه يجب أن تكون البر ،وهذا النعت الذى ينعته به الشاعر فى أغلب الأحيان لهو الذى يليق به أحسن من سواه. وفضيلته يجب أن تكون انعدام الشخصية انعداماً بارداً سامياً لا يجعله بشراً بل يجعله آلة فى يد الآلهة . لماذا نبحث فيه عن الشهوات . إنه لاحق له فيها ؛ ويجب عليه أن يدفعها إلى أعماق قلبه .

Multa gemens multoque animum labefactus amore,
Jussa tamen Divum insequitur. (٣)

كان إينياس فى هوميروس شخصية مقدسة وكاهناً عظيما ، كان الشعب « يمجده كمثيل للآلهة » وكان چوپيتر يؤثره على هكتور . وهو فى ڤرجيليوس حارس آلهة طروادة ومنقذهم . ظهر له هكتور فى رؤيا أثناء الليلة التى قضى فيها على طروادة وقال له «تستودعك طروادة آلهتها ؛ ابحث عن مدينة أخرى» . وفى نفس الوقت سلمه الأشياء المقدسة والدمى الحامية ونار الموقد التى يجب ألا تخمد . لم يكن هذا الحلم زينة وضعها هوى الشاعر ، إنه بالعكس الأساس الذى تقوم عليه القصيدة بأكملها . إذ بهذا الحلم أصبح إينياس مستودع آلهة المدينة وكُشف له عن رسالته المقدسة .

---

(١) تعريبها : ما من عبرة تحركه وما من كلمة تستلين قلبه (فرجيليوس : الإنييد ٤ : ٤٣٨ - ٤٣٩) - المعرب .

(٢) تعريبها : أنا إينياس البار الذى ينقل معه فى سفائنه البناتس التى استخلصها من العدو (فرجيليوس : الإنييد ١ : ٣٧٨ - ٣٧٩) . - المعرب

(٣) تعريبها : كان كثير التأوه ، وقد عصف بنفسه حب شديد ؛ إلا أنه كان ينفذ أوامر الآلهة . (فرجيليوس : الإنييد ٤ : ٣٩٥ - ٣٩٦) . - المعرب

هلكت بلدة طروادة لكن مدينة طروادة لم تهلك ؛ وبفضل إينياس لم ينطفىء الموقد ولا تزال للآلهة عبادة ، لقد هربت المدينة والآلهة مع إينياس وجابت البحار وبحثت عن إقليم يسمح لها بالوقوف فيه :

Considere Teucros

Errantesque Deos agitataque numina Trojae. . . (١)

يبحث إينياس لآلهة آبائه عن مقر ثابت مهما كان صغيراً :

Dis sedem exiguam patriis. (٢)

لكن اختيار هذا المقر الذى سيرتبط به مصير المدينة إلى الأبد لا يتوقف على الناس بل هو للآلهة . استشار إينياس الكهان وسأل الوحى . فهو لا يرسم بنفسه طريقه وهدفه بل يترك الآلهة توجهه .

Italiam non sponte sequor. .(٣)

كان يريد أن يتوقف فى تراقيا واقريطيش وصقلية وقرطاجة مع ديدون : *fata obstant* لكن أمر الآلهة ، الوحى الموحى ، *fata*، يقوم بصفة دائمة بينه وبين رغبته فى الدعة ، بينه وبين غرامه .

يجب ألا نخدع فى هذا . فبطل القصة الحقيق لم يكن إينياس بل آلهة طروادة، هذه الآلهة التى يجب أن تكون يوما ما آلهة روما . إنموضوع الإنييد لهو نضال الآلهة الرومانيين ضد معبود من الأعداء . وهناك عقبات من كل جنس تظن أنها ستوقفهم

Tantae molis erat romanam condere gentem ! (٤)

---

(١) تعريبها : ليستقر الطرواديون وآلهتهم المتجولون وأرباب طرواده المقلقلين . (فرجيليوس : الإنييد ٦ : ٦٧ - ٦٨) — المعرب

(٢) تعريبها : مقراً صغيراً لآلهة آبائه . - المعرب

(٣) تعريبها : لم أسع وراء إيطاليا باختيارى . (فرجيلوس : الانييد ٤ : ٣٦١) المعرب .

(٤) تعريبها إلى هذا الحد كان تأسيس الأمة الرومانية عبئاً ثقيلا (فرجيليوس : الإينييد ١ : ٣٣) — المعرب .

أوشكوا أن تبتلعهم العاصفة أو أن يغللهم حب امرأة . لكنهم ينتصرون على كل شيء ويصلون إلى الهدف المعين :

Fata viam inveniunt.

هذا ما كان لا بد له من أن يوقظ اهتمام الرومان يقظة فذة . فى هذه القصيدة كانوا يرون أنفسهم ومؤسسهم وبلدتهم وأنظمتهم وعقائدهم وإمبراطوريتهم : إذ لولا هذه الآلهة لما وجدت المدينة الرومانية (١) .

(١) ليس لنا أن نفحص هنا ما إذا كانت أسطورة إينياس تقابل حدثاً حقيقياً . بل يكفى أن نرى فيها عقيدة . إنها ترينا ما كان يتصوره القدماء عن مؤسس البلدة وأية فكرة كانوا يتصورونها عن البناتيغر (*Penatiger* = حامل البناتس) وذلك هو المهم فيما يخصنا . ولنضف أن عدة بلاد فى تراقيا وفى إقريطش وفى إيبروس وفى كيثيرا (Cythère) وفى زاكنثا (Zacynthe) وفى صقلية وفى إيطاليا كانت تعتقد أن إينياس هو الذى أسسها وكانت تؤدى له عبادة .

الفصل السادس

آلهة المدينة

يجب ألا ننسى أن رباط المجتمع بأكمله فى العصور القديمة هو العبادة ، فكما أن الموقد المنزلى كان يجمع حوله أعضاء الأسرة فكذلك المدينة كانت مجتمع أولئك الذين كانوا يتخذون نفس الآلهة الحماة والذين كانوا يقومون بالعمل الدينى لدى نفس الموقد ،

ومذبح المدينة هذا كان محصوراً داخل سور مبنى كان يسميه الإغريق پريتانيون (Prytanée) (١) ويطلق عليه الرومان معبد ڤستا . (٢)

---

(١) كان بيت النار (البريتانيون) هو قبل كل شىء المبنى الذى يحوى الموقد *Ἑστία.. οὕτω δ' ἂν κυριώτατα κάλοίης τὴν ἐν πρυτανείῳ, ἐφ' ἧς τὸ πῦρ τὸ ἄσβεστον ἀνάπτεται.* Pausanias, V,15,5: *ἐν αὐτῷ τῷ πρυτανείῳ, οἴκημα ἔνθα ἡ ἑστία*. يقول ديونيسيوس الهاليكارناسى (٢ : ٢٣) أنه كان يوجد فى بيت النار عند الإغريق موقد الأخويات المشترك .

ὥσπερ ἐν τοῖς ἑλληνικοῖς πρυτανείοις ἑστία κοινὴ τῶν φρατριῶν انظر شارح بنداروس: النمييات (Neméennes) ١١؛ شارح ثوقيديديس ٢:١٥ - كان هناك بيت نار فى كل بلدة إغريقية : فى أثينا (ثوقيديديس ٢:١٥ ؛ بوسانياس ١:١٨) وفى سيقيون (Sicyone) (هيرودوت ٥ :٦٧) وفى ميغارا (بوسانياس ٢ : ٣٥) ؛ وفى إليس (بوسانياس ٥ :١٥) وفى سيفنوس (هيرودوت ٣ : ٥٧)؛ وعند الأخيويين (Achéens) فى فثيوتيس (Phthiotes) (هيرودوت ٧: ١٩٧)؛ وفى رودس (بوليبوس ٢٩:٥)؛ وفى مانتينيا (بوسانياس ٨:٩) وفى ثاسوس (أثينايوس ١:٥٨) ؛ وفى ميثيلينه (Mitylène) (أثينايوس ١٠ : ٢٤) وفى سيزيكا (تيتوس ليفيوس ٤١ :٢٠) ؛ وفى نوقراطيس (أثينايوس ٤ : ٣٢) ؛ وفى سيراقوسه (سيسرون : ضد فريس *De signis*) ؛ وحتى فى جزائر ليبارى التى كان يقطنها الجنس الاغريقى (ديودوروس ٢٠ : ١٠١) . يقول ديونيسيوس الهاليكارناسى إنه لم يكن من الممكن فى اعتبارهم أن تؤسس مدينة دون أن يقيموا الموقد المشترك أولا (٢:٦٥). وكانت فى أسبرطه كاهنة تحمل لقب *ἑστία πόλεως* (Boeckh, *Corp. inscr. gr.*, t. I, p. 610

(٢) لم يكن معبد فستا فى روما إلا موقدا لمدينة المقدس »

Cicéron, *De legibus*, II, 8. *Virgines Vestales custodiunto ignem foci publici sempiternum. Ibid.*, II, 12: *Vesta quasi focus urbis.* Ovide, *Fastes*, VI, 291: *Nec tu aliud Vestam quam vivam intellige flammam.*

لم يكن فى البلدة شىء أقدس من هذا المذبح الذى كان يعنى فيه بالنار المقدسة دائماً . حقاً إن هذا التبجيل الكبير قد ضعف فى وقت مبكر فى بلاد الإغريق إذ أن الخيال الإغريقى قد استمالته معابد أكثر جمالا وأساطير أكثر خصباً وتماثيل أكثر بهاء . لكنه لم يضعف قط فى روما . فإن الرومان لم ينفكوا عن الاعتقاد بأن مصير المدينة مرتبط بهذا الموقد الذى كان يمثل آلهتها (١) ويدل الاحترام الذى كانوا يحملونه للڤستالس على أهمية كهنوتهن (٢) . فإذا لقى قنصل إحداهن فى طريقه كان يحنى حزمه (faisceaux) أمامها (٣) . يقابل ذلك أنه إذا تركت إحداهن النار تنطفىء أو دنست العبادة بارتكاب ما ينافى واجب العفة كانت البلدة تعتقد أنها أصبحت مهددة بفقد آلهتها فتنتقم من الڤستاليس بوءدها وهى لا تزال حية (٤) .

---

(١) Tite-Live, XXVI, 27: *Conditum in penetrali fatale pignus romani imperii.* Cicéron, *Philippiques,* XI, 10. *Quo salvo salvi sumus futuri.*

(٢) كان الحجاب يحملون أمام أرباب المناصب العالية فى روما حزما من العصى وكان كل حاجب يحمل واحدة وإذا كانوا خارج روما كانوا يجعلون مع الحزمة فأسا. وهذه الحزم هى رمز السلطة. وكان للقنصل إثنا عشر حاجباً يسيرون أمامه ـ المعرب

(٣) *Virgines sanctae* هوراسيوس *Odes* ١ : ٢ : ٢٧. *sanctissimum sacerdotium* (سيسرون . من أجل المنزل ٥٣) . انظر سيسرون : الدفاع عن فونتيوس ٢٠ .

(٤) تيتوس ليفيوس ٢٨ : ١١ . فستوس ص١٠٦ *Ignis Vestae si quando interstinctus esset, virgines verberibus afficiebantur a pontifice* لم يكن يستطاع إيقاد النار من جديد إلا بطريقة عتيقة ودينية . فستوس : شرحه: *Mos erat tabulam felicis materiae tamdiu terebrare quousque ignem cribro aeneo virgo in oedem ferret.*

كاد معبد ڤستا أن يحترق، ذات يوم، باندلاع نار شبت فى المنازل المجاورة فروّعت روما إذ شعرت أن مستقبلها فى خطر ، فلما انقضى الخطر حث مجلس الشيوخ القنصل على البحث عن مدبرى الحريق وسرعان ما اتهم القنصل بعض أهالى كاپوا (Capoue) الذين كانوا عندئذ فى روما لا لأنه كان لديه أى دليل على إدانتهم بل لأنه قدّر هكذا : «هدد حريق موقدنا وليس من الممكن أن توقد هذا الحريق، الذى كان يؤدى إلى تحطيم عظمتنا ووقف مصائرنا ، إلا يد أشد أعدائنا قسوة . وليس لنا أعداء ألد من أهالى كاپوا ، تلك المدينة التى هى فى الوقت الحاضر حليفة هانيبال ، والتى تتطلع إلى أن تكون فى مكاننا عاصمة لإيطاليا . فهؤلاء الناس إذن هم الذين أرادوا أن يقضوا على معبد ڤستا ، موقدنا الخالد ، رهن عظمتنا المقبلة وضمانها.» (١) . وبذلك كان يعتقد أحد القناصل تحت سيطرة آرائه الدينية أن أعداء روما لم يجدوا وسيلة للتغلب عليها أضمن من إبادة موقدها . نرى هنا عقائد الأقدمين ؛ كان الموقد العام هو موقد المدينة ؛ هو الذى أنشأها وهو الذى يحافظ عليها .

كما أن عبادة الموقد المنزلى كانت سرية وأن الأسرة وحدها كانت صاحبة الحق فى المشاركة فيها كذلك كانت عبادة الموقد العام محجوبة عن الغرباء . فما من أحد يستطيع أن يشهد القرابين اللهم إلا إذا كان مواطناً . فمجرد نظرة من الأجنبى كانت تدنس العمل الدينى (٢) .

كان لكل مدينة آلهة لا ينتمون إلا لها : وفى العادة كانت هذه الآلهة من نفس طبيعة آلهة ديانة الأسرات الأولى ، وكانوا يسمونهم كما كانوا يسمون هؤلاء : لاريس ، پناتس ، جن (génies) ، شياطين (démons) ، أبطال(٣) ؛

---

(١) تيتوس ليفيوس ٢٦ : ٢٧ .

(٢) *Ἱερὰ ἀπορρητά, ἀθέατα, ἄδηλα* بلوتارخوس : نوما ٩ ؛ كاميلوس ٢٠ . ديونيسيوس الهاليكارناسى ٢:٦٦ . فرجيليوس : الإنييد ٣ : ٤٠٨ . بوسانياس ٥ . ١٥ . أبيانوس : الحرب الأهلية ١ : ٥٤ .

(٣) *Penates publici* (تيتوس ليفيوس ٣:١٧) ؛ *Lares publici* (بلينيوس: التاريخ الطبيعى ٢١ : ٣:٨). *Et vigilant nostra semper in urbe Lares* (أوفيديوس: الأعياد ٢ :٦١٦) . سيسرون : الدفاع عن سكستيوس ٢٠ : *Te, patria, testor, et vos, Penates patriique dit* : ماكروبوس: ساتورناليا ٣ : ٤ : *De diis Romanorum propriis, id est, Penatibus.* Servius, *ad Aen.*, II, 351: *Genio urbis Romae*

وما هى ، تحت ستار هذه الأسماء ، إلا أرواح بشرية ألهها الموت : فقد رأينا أن الإنسان فى الجنس الهندوأوربى كان يعبد أولا القوة الخفية الخالدة التى يحس بها فى نفسه . هؤلاء الجن وهؤلاء الأبطال هم فى أغلب الأحوال أسلاف الشعب (١) . وكان يدفن الجسد إما فى البلدة نفسها وإما فى الأرض المحيطة بها ؛ وحيث أن الروح لم تكن تغادر الجسم كما بيناه آنفاً فقد نتج عن ذلك أن هؤلاء الأموات المؤلهين كانوا مرتبطين بالأرض التى دفنت فيها عظامهم . وكانوا يسهرون على المدينة من أعماق قبورهم ؛ كانوا يحمون البلاد وكانوا إلى حد ما رؤساءها وسادتها . ونجد هذا التعبير ، رؤساء البلاد ، يطلق على الموتى فى وحى وجهته البثيا (Pythie) إلى صولون : . «مجّد بالعبادة رؤساء البلاد ، الموتى الذين يسكنون تحت الثرى (٢) » . وقد أتت هذه الآراء من السلطة الفائقة التى كانت تنسبها الأجيال الأولى للروح البشرية بعد الموت ؛ وكان يصبح إلها للمدينة كل رجل أدى لها خدمة جليلة : من مؤسسها إلى من أحرز لها نصراً أو أدخل تحسيناً على قوانينها (٣) . بل لم يكن من الضرورى أن يكون رجلا عظيما أو محسناً وإنما يكفى أن يؤثر على عقلية معاصريه تأثيراً قوياً وأن يجعل نفسه موضوعاً لإثارة شعبية لكى يصبح بطلا أى ميتاً قوياً ترجى حمايته ويخشى غضبه . وقد استمر الثيبيون عشرة قرون وهم يقدمون القرابين

---

(١) Plutarque, *Aristide*, 11: *Οἱ μὲν γὰρ ἥρωες, οἷς ἐκέλευε θύειν, ἀρχηγέται : Πλαταιέων ἦσαν.* Sophocle, *Antigone*, 199: *Τὴν πατρῴαν καὶ θεοὺς τοὺς ἐγγενεῖς.* كثيراً ما تسمى هذه الآلهة *δαίμονες ἐγχώριοι.* قارن عند اللاتينيين الـ *dii indigetes* (سرفيوس : *Ad Aen.* ١٢ : ٣٩٤ ؛ أولوس جيليوس ٢ : ١٦).

(٢) Plutarque, *Solon*, 9: *᾽Αρχηγοὺς χώρας θυσίαις ἥρωας ἐνοίκους ἵλασο, οἳ φθίμενοι δέρκονται ἐς ἠέλιον δύνοντα* تلمح هذه الألفاظ الأخيرة إلى عادة الأثينيين فى دفن الموتى بتوجيههم نحو المغرب (بلوتارخوس : صولون ١٠) .

(٣) كان لليكورغ (Lycurgue) فى اسپرطه معبد وكهنة وأعياد مقدسة وأناشيد (هيرودوت ١ : ٦٥ ؛ بلوتارخوس : ليكورغ ٣١ ؛ إيفوروس (Ephore) فى استرابون ٨ : ٥ : ٥) كان ثيسيوس إلها فى أثينا التى أقامت معبداً لرفاته . وكان أرسطومينيس يكرم بعبادة عند المسينيين (بوسانياس ٤ : ٣٢) ؛ والإيا كيديين (Eacides) فى إغينا (Egine) (هيرودوت ٥ : ٨٠) ويمكن أن نرى فى بوسنياس عدد الأبطال المكانيين الذين كانت تمجدهم كل مدينة .

لإتيوكليوس (Etéocles) وپولينيكيوس (Polynice) (١) . وكان سكان أكنثا (Acanthe) يؤدون عبادة لفارسى مات عندهم أثناء حملة خشايارشا (Xerxes) (٢) . وكان هيپوليتوس يمجد كإله فى تريزينا (Trézène) (٣) ، وكان پرهوس (Pyrrhus) ابن أخيليوس (Achille) إلها فى دلفوى (Delphes) لالشىء إلا لأنه مات فيها ودفن بها (٤) . وكانت كروتون (Crotone) تؤدى عبادة لأحد الأبطال لعلة واحدة هى أنه كان فى حياته أجمل رجل فى البلدة (٥) . وكانت أثينا تعبد إوريسثيوس (Eurysthée) باعتباره أحد حماتها بيد أنه كان من أرغوس ، ويفسر لنا أوريپيديس منشأ هذه العبادة عندما يظهر على المسرح إوريسثيوس مستعداً للموت وهو يقول للأثينيين : «أدفنونى فى أتيكا فسأكون عطوفاً عليكم وسأكون فى باطن الأرض ضيفاً حامياً لبلدكم (٦) .» . تعتمد كل مأساة أويديپوس (أوديب) فى قولونوس (Colone) على هذه العقائد : تتنازع كريون (Créon) وثيسيوس (Thésée) ، أى ثيبه وأثينا ، على جسم رجل يوشك أن يموت وأن يكون إلها ؛ وقد اختار أويديپوس أثينا طبقاً لما ترويه الأسطورة ، وعين هو ذاته المكان الذى يريد أن يدفن فيه ، وقال : «لن أكون ، وأنا ميت ، قاطناً لا نفع فيه لهذا الإقليم (٧) . سأدافع عنكم ضد خصومكم ، وسأكون لكم سوراً أقوى من ملايين من المحاربين (٨) إن جثمانى الراقد تحت الثرى سيشرب من دم المحاربين الثيبيين . » (٩) .

---

(١) بوسانياس ٩ : ١٨ .

(٢) هيرودوت ٧ : ١١٧ .

(٣) ديودوروس ٤ : ٦٢ .

(٤) بوسانياس ١٠ : ٢٣ ؛ بنداروس : النمييات Néméennes ٧ : ٦٥ وما بعدها .

(٥) هيرودوت ٥ : ٤٧ .

(٦) أوريبيديس : الهراكليين (Héraclides) ١٠ : ٣٢ .

(٧) صوفوكليس : أويديبوس فى قولونوس ٦٢٧ .

(٨) شرحه ١٥٢٤ ، ١٥٢٥ ، ١٥٢٥ .

(٩) شرحه ٦٢١ . ٦٢٢ . كانوايشيرون فى أثينا إلى القبر الذى كانت ترقد فيه عظام أويديبوس والـ ἡρῷον الذى كان يتلقى فيه التكريم الجنازى (بوسانياس ١ : ٢٦ ؛ ١ : ٣٠) . ولا داعى للقول بأنه كان للثيبيين أسطورة أخرى عن أويديبوس .

كان الموتى ، أيا كانوا ، حماة للبلاد على شرط أن تقدم لهم العبادة . «طلب الميغاريون ذات يوم من وحى دلفوى كيف تكون بلدتهم سعيدة . فأجاب الإله إنها ستكون كذلك لو اهتموا دائماً بالمداولة مع أكبر عدد . ففهموا أن الإله إنما دل بهذه الألفاظ على الموتى الذين هم فى الواقع أكثر عدداً من الأحياء وبناء عليه بنوا غرفة مجلسهم فى ذات المكان الذى كان فيه مدفن أبطالهم »(١) . لقد كان حظاً كبيراً لمدينة ما أن يكون لها موتى على شىء من المكانة . فكانت مانتينيه (Mantinée) تتكلم شامخة عن رفات أركاس (Arcas) ، وثيبه عن رفات غيريون (Géryon) ومسينه عن رفات أرسطومينيس (٢) . ولكى يحصلوا على هذه الرفات الثمينة كانوا فى بعض الأحيان يستعملون الخداع . يذكر هيرودوت بأية خدعة اختلس الإسپرطيون رفات أورستيس (٣) . والحق أن هذه الرفات ، التى كانت تلازمها روح البطل ، جلبت النصر للاسپرطيين فوراً . وعندما حصلت أثينا على السلطة كان أول ما استعملتها فيه هو انتزاع رفات ثيسيوس التى كانت قد دفنت فى جزيرة سكيروس (Scyros) وإقامة معبد لها فى البلدة كى تزيد فى عدد حماتها من الآلهة .

علاوة على هؤلاء الأبطال وأولئك الجن كان للناس آلهة من جنس آخر أمثال چوپيتر وچونون (Junon) ومينرڤا ، جذب منظر الطبيعة أفكار الناس إليها . ولكننا رأينا أن هذه الآلهة التى خلقها الإدراك البشرى ظلت زمناً طويلا تتصف بصفات المعبودات المنزلية أو المحلية . ولم يتصوروا فى البدء هذه الآلهة ساهرة على الجنس البشرى بأكمله بل اعتقدوا أن كلا منها كان ينتمى إلى أسرة أو مدينة خاصة .

ولهذا كان من المألوف أن يكون لكل مدينة ، بغض النظر عن أبطالها ،

---

(١) بوسانياس ١ : ٤٣ . ويعثر على أسطورة مشابهة وعلى نفس العبادة فى مدينة تارنت (Tarente) الإغريقية (بوليبوس ٨ : ٣٠) .

(٢) بوسانياس ٤ : ٣٢ ؛ ٨ : ٩ ؛ ٨ : ٣٦ .

(٣) هيرودوت ١ : ٦٧ - ٦٨ . بوسانياس ٣ : ٣

چوپيتر أو مينرڤا أو أى معبود آخر أشركته مع آلهتها المنزلية (پناتس) الأولى ومع موقدها . وكان فى بلاد الإغريق وإيطاليا جمهرة من المعبودات المدنية (Poliades) فكان لكل بلدة آلهتها الذين يقطنون فيها (١) .

وقد نسيت أسماء الكثير من المعبودات ولقد كان من المصادفة أن احتفظوا بذكر الإله ساترابيس (Satrapès) الذى كان ينتمى إلى بلدة إليس (Elis) والإلهة دنديمينه (Dindymène) فى ثيبه ، والإلهة سوتيريا (Soteria) فى إيجيوم (Aegium) وبريتومارتيس (Britomartis) فى جزيرة إقريطيش وهيبليا (Hyblaea) فى هيبلا (Hybla) أما أسماء زوس وأثينايا وهيرا وچوپيتر ومينرڤا فهى معروفة لنا أكثر من سواها ونعلم أنها كثيراً ما كانت تطلق على هذه المعبودات المدنية . ولكن لنحذر من استنتاج أن مدينتين كانتا تعبدان نفس الإله لمجرد أنهما كانتا تطلقان نفس الاسم على إلهيهما ؛ فقد كانت هناك إلهة تدعى أثينايا فى أثينا وكانت هناك أخرى فى اسبرطه ، وكانتا إلهتين (٢) . وقد اتخذ عدد كبير من المدن چوپيتر إلها مدنياً فكان هناك من الآلهة چوپيتر بقدر ماكان من المدن . وترى فى أسطورة حرب طروادة إلهة تدعى پالاس Pallas تتلقى عبادة وتحمى عبادها (٣) . فهل يقال إن نفس المعبود هو الذى كان يظهر فى الجيشين ؟ . كلا . إذ

---

(١) كانوا يسمون هؤلاء الآلهة: *θεοὶ πολίεις* (بوليدوكيس ٩ : ٤٠) *Πολιοῦχοι* (أيسخيلوس : السبعة ١٠٩) *πολῖται* (أيسخيلوس : شرحه ٢٥٣) *ἀστύνομοι* (أيسخيلوس: أغاممنون ٨٨)- وكانوا يحمون البلدة حماية خاصة ؛
Vitruve, I, 7: *Quorum deorum in tutela civitas videtur esse.*
Macrobe, III, 9: *Constat omnes urbes in alicujus dei esse tutela.*
Hésychius: *Πολιοῦχοι, οἱ τὴν πόλιν σῴζοντες καὶ οἱ ἄρχοντες αὐτῆς.*
ويعبر فرجيليوس عن نفس الفكرة (٩ : ٢٤٦) *Di patrii, quorum semper sub numine Troja est* . وقد أشار أرسطوفانيس (الطيور : البيت ٨٢٦) بحاجة كل مدينة إلى البدء باعطاء نفسها معبوداً مدنياً *Τὶς δαὶ θεὸς πολιοῦχος ἔσται* — كانت هذه المعبودات تسكن الإقليم وتتملكه : ديموسثينيس : قضية التاج ١٤١ : *Θεοὶ ὅσοι τὴν χώραν ἔχουσι τὴν Ἀττικὴν* بلوتارخوس: أريستيديس ١٨ : *Θεοὶ οἳ τὴν Πλαταιΐδα ἔχουσι* . ليكورغ : ضد ليوكراتيس: ٢٦ *Ἀθηνᾶν τὴν χώραν εἰληχυῖαν*

(٢) ثوقيديديس ١ . ١٣٤ ؛ بوسانياس ٣ . ١٧ .

(٣) الإلياذة ٦ : ٨٨ .

لم يكن القدماء ينسبون لآلهتهم هبة التواجد فى مكانين فى آن واحد (١) .
كان لكل من بلدتى أرغوس وساموس معبودة مدنية تدعى هيرا . ولم تكونا إلهة واحدة إذ أنها كانت ممثلة فى كل من المدينتين بأوصاف متباينة جداً . وكانت فى روما معبودة تدعى چونون (Junon) وعلى بعد خمسة مراحل كان لبلدة ڤييس (Veii) آلهة أخرى بنفس الاسم . وكان التماثل بينهما من الضآلة بحيث نرى الدكتاتور كاميلوس عند ما حاصر ڤييس يتجه إلى چونون إلهة العدو ليستحلفها بترك البلدة الأترسكية والانتقال إلى معسكره . فلما أصبح سيد المدينة أخذ التمثال ، وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه فى نفس الوقت قد أخذ الإلهة ، ونقلها فى ورع إلى روما . فأصبح لروما منذئذ إلهتين حاميتين باسم چونون . وقد وقعت نفس لقصة بعد بضع سنوات لجوپيتر آخر أحضره دكتاتور آخر من پرينست (Préneste) بينما كان لدى روما ثلاثة أو أربعة من قبل (٢) .

لم تكن المدينة التى لها معبود خاص بها ترغب فى رؤيته يحمى الأجانب ولم تكن تسمح لهم بعبادته . وفى معظم الحالات لم يكن ينفذ إلى المعبد غير المواطنين . فكان لأهالى أرغوس دون سواهم حق الدخول فى معبد هيرا فى أرغوس . ولكى يستطيع المرء أن يدخل معبد أثينايا فى أثينا كان لا بد له أن يكون أثينياً (٣) . أما الرومان الذين كانوا يعبدون عندهم إلهتين تسميان چونون فإنه لم يكن باستطاعتهم أن يدخلوا معبد چونون الثالثة التى كانت فى بلدة لا نوڤيوم (Lanuvium) الصغيرة (٤) .

---

(١) كانت هناك Ἀθηνὴ πολιάς فى أثينا . وكانت هناك أيضاً Ἀθηνὴ πολιάς فى تيغيا (Tégée) : وقد وعدت أهالى تيغيا بأن مدينتهم لن يستولى عليها أحد أبداً (بوسانياس ٨ : ٤٧) .

(٢) تيتوس ليفيوس ٥ : ٢١ ، ٢٢ ؛ ٦ : ٢٩ - انظر فى ديون كاسيوس ٥٤ : ٤ قصة تبين جوبيتر الكابيتولى (Jupiter Capitolin) وجوبيتر المرعد (Jupiter Tonnant) إلهين مختلفين .

(٣) هيرودوت ٥ : ٧٢ ؛ ٦ : ٨١ . كان لاسبرطه إلهة تدعى أثينايا وأخرى تدعى هيرا (بلوتارخوس : ليكورغ ٦ ؛ بوسانياس ٣) لكنه لم يكن لأى اسبرطى الحق فى الدخول إلى معبد أثينايا المدنية فى أثينا أو هيرا المدنية فى أرغوس .

(٤) لم يحصلوا على هذا الحق إلا بعد الاستيلاء على البلدة (تيتوس ليفيوس ٨ : ١٤)

لا بد من الاعتراف بأن القدماء، إذا استثنينا بعض النادرين من صفوة الأذكياء ، لم يتصوروا الله قط ذاتا واحدة تهيمن بفعلها على الكون ؛ فكان لكل واحد من آلهتهم التى لا تحصى نطاقه الصغير، لهذا أسرة، ولذاك قبيلة، وللآخر مدينة . وكان ذلك هو العالم الذى يكفى لآلاء كل واحد منهم . أما إله الجنس البشرى فإن بعض الفلاسفة قد استطاع أن يتصوره تخميناً وربما استطاعت أسرار إليسيس (Eleusis) أن تجعله يتراءى لأذكى من تلقوها ، لكن العامة لم تعتقد فيه إطلاقاً . وقد ظل الإنسان دهراً طويلا لا يفهم الذات الإلهية إلا كقوة تحمية هو بالذات، ويريد كل رجل وكل مجموعة من الناس أن تكون لها آلهتها . واليوم لازلنا نرى عند سلالة هؤلاء الإغريق فلاحين جفاة يدعون القديسين بحرارة لكن يخالجنا الشك فى أن تكون لديهم فكرة عن الله؛ يريد كل منهم أن يكون له بين هؤلاء القديسين حام منقطع له ، منعم مقصور عليه. وفى نابولى لكل حى سيدة (مادونا = السيدة العذراء) : فالصعلوك (lazzarone) يركع أمام سيدة شارعه ويقذف فى حق سيدة الشارع المجاور له . وليس من النادر أن نرى إثنين من الحمالين (facchini) يتشاجران ، ويتضاربان بالمدى ، من أجل مواهب سيدتهما . تلك أمور استثنائية اليوم ، لا نراها إلاعند بعض الشعوب وفى بعض الطبقات ؛ لكنها كانت القاعدة عند القدماء.

كان لكل مدينة هيئة كهنتها التى لا تتبع أية سلطة أجنبية ، فلم تكن هناك أية رابطة بين كهنة مدينتين ولا أية صلة ولا أى تبادل فى التعليم أو الشعائر. فإذا ما انتقلنا من مدينة إلى أخرى فإنا نجد آلهة أخرى وتعاليم أخرى واحتفالات أخرى . كانت للقدماء كتب للصلوات لكن كتب بلدة ما لم تكن تشبه كتب بلدة أخرى . كان لكل مدينة مجموعة صلواتها وسننها وكانت تحتفظ بها فى سرية شديدة . وكانت تعتقد أنها تضر بديانتها ومصيرها لو تركت الغرباء يرونها . وهكذا كانت الديانة محلية محضة، مدنية محضة، على أن نأخذ هذه

الكلمة الأخيرة بمعناها القديم أى خاصة بكل مدينة على حدة (١) .
لم يكن الإنسان يعرف سوى آلهة بلدته ولم يكن يمجد غيرها أو يحترم سواها
فكان لكل واحد أن يقول ما يقوله أجنبى لنساء أرغوس فى مأساة لأيسخيلوس
«إنى لا أخشى آلهة بلادكم ولست مديناً لهم بشىء .» (٢) .

كانت كل مدينة تنتظر سلامتها من آلهتها . كانوا يدعونها لدى الخطر
ويقولون لها : « يا آلهة هذه المدينة . لا تجعلوها تهلك مع بيوتنا ومواقدنا . .
وأنت الذى تسكن أرضنا منذ زمن بعيد ، هل تخونها ؟ وأنتم جميعاً ، يا حفظة
أبراجنا ، لا تسلموها للأعداء .(٣)» لذا كان الناس يقيمون لهم عبادة لكى
يضمنوا لأنفسهم حمايتهم . كان بهذه الآلهة نهم للقرابين . فكانوا يغدقونها
عليهم ولكن بشرط أن يسهروا على سلامة البلدة . ويجب ألا ننسى
أن فكرة العبادة ، كانت مقصورة على تغذية الإله أى على مده
بكل ما يلذ لحواسه : لحوم وكعك وخمر وعطور وملابس وحلى ورقص
وموسيقى . وفى مقابل ذلك كانوا يطالبونه بالنعم والخدمات . لذلك يقول
خريسيس (Chrysès) لإلهه فى الإلياذة : « منذ زمن طويل وأنا أحرق لك
ثيراناً سمانا ؛ واليوم تقبل دعواتى وارم سهامك على أعدائى.» وفى مكان آخر
تدعوا نساء طرواده إلهتهن ويقدمن لها ثوباً جميلا ويعدنها باثنتى عشرة بقرة
«إذا أنقذت إليون(Ilion)(٤)». فكان هناك عقد دائم بين هذه الآلهة وهؤلاء
الناس ؛ لم تكن تقوى هؤلاء مجازاً ولم يكن أولئك يعطون بلا مقابل ، يتجه
الثيبيون ، فى أيسخيلوس ،إلى آلهتهم المدنية ويقولون . «كونوا حماتنا ،
فمصالحنا مشتركة ؛ إذا ازدهرت المدينة مجدت آلهتها . اظهروا أنكم تحبون
بلدتنا ؛ فكروا فى العبادة التى يؤديها هذا الشعب لكم وتذكروا القرابين

(١) لم تكن هناك عبادة مشتركة فى عدة مدن إلا فى حالة الحلف . هذاوسنتكلم عن ذلك فيما بعد .

(٢) أيسخيلوس : المتضرعات ٨٥٨ .

(٣) أيسخيلوس : الرؤساء السبعة الأبيات ٦٩ - ٧٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٣٩ ، ١٦٨ - ١٧٠ .

(٤) الإلياذة ١ : ٣٧ وما بعدها ؛ ٦ : ٩٣ - ٩٦ .

الفاخرة المقدمة إليكم .» (١) لقد عبر الأقدمون عن هذه الفكرة مائة مرة ؛ يقول ثيوغنيس إن أپولون أنقذ ميغارا من عدوان الفرس «لكى تقدم له بلدته ذبائح مجيدة كل عام.» (٢)

ومن هنا جاء أنه ما من مدينة كانت تسمح للأجانب بتقديم قرابين لآلهتها المدنية، ولا حتى بدخول معبدها (٣) . فلكيلا تسهر آلهتها إلا عليها كان من الضرورى ألا تتلقى عبادة إلا منها . وحيث أن الآلهة لم تكن تمجد إلا هناك فقد كان لزاماً عليها ، إن أرادت دوام القرابين والذبائح التى كانت عزيزة عليها ، أن تحمى هذا البلد وأن تبقيه إلى الأبد وأن تثريه وتقويه .

والواقع أن هذه الآلهة كانت تتعب نفسها عادة من أجل بلدتها ؛ أنظر فى ڤرجيليوس كيف كانت چونون «تجهد نفسها وتعمل» لكى تحصل بلدتها قرطاجة على سلطان العالم يوما ما . كان كل واحد من هذه الآلهة مشغوفاً بعظمة مدينته كما كانت چونون فى ڤرجيليوس . كانت لهؤلاء الآلهة نفس المصلحة التى كانت لمواطليهم من البشر . فى زمن الحرب كانت تمشى وسطهم للقتال . نرى فى أوريپيديس شخصاً يقول عند اقتراب إحدى المعارك : «ليست الآلهة التى تحارب معنا بأقل قوة من تلك التى فى جانب أعدائنا » (٤) . لم يكن الإيغينيون (Eginètes) يدخلون غزوة دون أن يحملوا معهم تماثيل أبطالهم القوميين، الإياكيديين (Eacides) ؛ وكان الإسپرطيون يستصحبون التنداريين (Tyndarides) فى جميع حملاتهم (٥) . وفى المعمعة كان الآلهة والمواطنون يتكاتفون

---

(١) أيسخيلوس : الرؤساء السبعة ٧٦ - ٧٧ ، ١٧٦ - ١٨١ .

(٢) ثيوغنيس طبعة ولكر (Welcker) البيت ٧٥٩ ؛ طبعه بواسوناد (Boissonade) البيت ٧٧٧ .

(٣) لا ريب فى أنه لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن هذه القواعد القديمة قد مرنت كثيراً مع الزمن ؛ ولدينا كتابات ترى أجانب يقدمون قرابين للمعبودات الأثينية لكن هذه الكتابات ترجع إلى تاريخ حديث نسبياً .

(٤) أوريبيديس : الهيراكليين ٣٤٧ .

(٥) هيرودوت ٥ : ٦٥ ؛ ٥ : ٨٠ .

فإذا جاء النصر فما ذلك إلا لأنهم قاموا جميعاً بواجبهم . وعلى العكس ، إذا انهزموا حملوا الآلهة مسؤولية الهزيمة ؛ فكانوا يلومونهم على سوء قيامهم بواجبهم كمدافعين عن البلدة ؛ بل كانوا يذهبون فى بعض الأحيان إلى هدم مذابحهم وقذف معابدهم بالأحجار (١) .

وإذا غلبت بلدة كانوا يعتقدون أن آلهتها قد غُلبت معها . (٢) وإذا سقطت بلدة فإن آلهتها أنفسهم كانوا يؤسرون .

حقاً إن الآراء فيما يختص بالنقطة الأخيرة غير مؤكدة وقد اختلفت فيما بينها . فقد اقتنع الكثيرون بأنه ما من مدينة كان يمكن أن تؤخذ ما دامت آلهتها مقيمة فيها . فإذا سقطت فما ذلك إلا لأنهم هجروها من قبل . عندما رأى إينياس (Enée) أن الإغريق قد استولوا على طروادة صاح أن آلهة المدينة قد رحلت متخلية عن معابدها ومذابحها (٣) . وفى أيسخيلوس تعبر مجموعة المنشدين الثيبيين عن نفس العقيدة عندما تستحلف الآلهة عند اقتراب العدو بألا يهجروا البلدة (٤) .

طبقاً لهذا الرأى كان لا بد للاستيلاء على بلدة ما من إخراج الآلهة منها . ولهذا الغرض كان يستعمل الرومان صيغة معينة كانت فى كتاب شعائرهم وقد حفظها لنا ماكروبوس : أنت ، أيها الأعظم ، الذى فى حمايته هذه المدينة ، أدعوك ، وأعبدك ، واستعطفك أن تترك هذه البلدة وهذا الشعب ، وأن تهجر هذه المعابد وهذه الأماكن المقدسة ، وعند ابتعادك عنها ، أن تأتى إلى روما عندى وعند ذوىَّ . لتكن بلدتنا ومعابدنا وأماكننا المقدسة أمتع لك وأعز .

---

(١) سويتونيوس : كاليغولا ٥ ؛ سنيكا (Sénèque) : حياة الغبطة *(De vita beata)* ٣٦ .

(٢) فرجيليوس : الإنييد ١ : ٦٨ : *Victosque Penates*

(٣) فرجيليوس : الإنييد ٢ : ٣٥١ .

Excessere omnes, adytis arisque relictis,
Di, quibus imperium hoc steterat.

(٤) أيسخيلوس : الرؤساء السبعة ٢١٧-٢٢٠ . «إتيوكليوس (Etéocle) : يقولون إنه عند الاستيلاء على مدينة ما تهجرها الآلهة . مجموعة المنشدين (الكورس) : ليت الآلهة الذين هنا لا يهجروننا أبدا ، ولا أرى ثيبة يستولى عليها العدد عنوة وتترك طعمة للنيران .» .

خذنا فى رعايتك . فإذا ما فعلت ذلك فإنى سأنشىء معبداً تكريماً لك (١) . »
وقد كان القدماء مقتنعين أن هناك صيغاً بلغت من قوة الفعل والسلطان أنها لو تليت بالضبط ، ودون أن يغير منها لفظ واحد ، فإن الإله لا يستطيع أن يقاوم طلب الناس . فالإله الذى يدعى على هذه الصورة ينتقل إلى العدو وتسقط البلدة (٢) .

ونجد فى بلاد الإغريق نفس الآراء ، وعادات مشابهة لذلك . وحتى فى عهد ثوقيديديس لم يكن يفوتهم إذا حاصروا بلدة أن يتوجهوا بدعاء لآلهتها لكى يسمحوا بالاستيلاء عليها (٣) . وفى كثير من الأحيان بدلا من استعمال صيغة لاجتذاب الإله كان يفضل الإغريق أن ينتزعوا تمثاله بحذق . يعلم الجميع أسطورة أوديسيوس وهو يختلس تمثال پالاّس إلهة الطروادبين . وفى عصر آخر أراد سكان إيغينا (Egine) أن يحاربوا إپيدوروس فبدأوا بانتزاع تمثالين حاميين لهذه البلدة ونقلوهما عندهم (٤) .

---

(١) ماكروبوس : ساتورناليا ٣ : ٩ . بلينيوس : التاريخ الطبيعى ٢٨ : ٤ : ١٨
In oppugnationibus ante omnia solitum a Romanis sacerdotibus evocari deum in cujus tutela id oppidum esset promittique illi eumdem aut ampliorem apud Romanos cultum.”

(٢) عن قوة الصيغ (العزائم) ، *Καταδέσεις* أو *ἐπαγωγαί* ، انظر أفلاطون: القوانين ١١ ص ٩٣٣ ؛ أوريبيديس : المتضرعات ٣٩ ، كانت هذه الصيغ من القدم بحيث أن الكثير من ألفاظها لم يعد مفهوماً بل لم يكن يعد من اللغة الإغريقية ؛ أنظر هسيخيوس (Hésychius) تحت كلمة *Ἐφεσία* . وكان القدماء يعتقدون أنه كان باستطاعتهم أن يلزموا الآلهة وأن يجبروهم قسرا ؛ وتلك هى الفكرة التى يعبر عنها فرجيليوس فى هذه الأبيات .

Junonis magnae primum prece numen adora
Junoni cane vota libens, dominamque potentem
Supplicibus supera donis (*En.*, III, 427-440).

فنص الدعاء (*preces*) والوعود (*vota*) والقرابين (*dona*) ، تلك هى الأسلحة الثلاثة التى بها يمكن التغلب (*superare*) على سوء نية إلهة ما .

(٣) ثوقيديديس ٢ : ٧٤ .

(٤) هيرودوت ٥ : ٨٣ .

يروى هيرودوت أن الأثينيين أرادوا محاربة أهالى إيغينا ، لـكن المحاولة كانت مليئة بالأخطار إذ أنه كان لإيغينا بطل حام ذو قوة عظيمة ووفاء فذ : ألا وهو إياكوس (Eacus). فبعد أن فكر الأثينيون تفكيراً ناضجاً أجلوا تنفيذ غرضهم ثلاثين عاماً ؛ وفى نفس الوقت أقاموا فى بلادهم مصلى لإياكوس هذا بالذات وخصصوا له عبادة . وكانوا على اعتقاد أنه إذ دامت هذه العبادة ثلاثين عاماً بلا انقطاع فإن الإله لن يتبع الإيغينيين بل الأثينيين . إذ أنه كان يلوح لهم أنه ما من إله يتقبل الأضحية السمينة مثل هـــذا الحين الطويل دون أن يصبح صنيعة أولئك الذين كانوا يقدمونها له . وإذن ، سيجبر إياكوس فى النهاية على ترك مصالح الإيغينيين ومنح النصر للأثينيين(١)

وفى پلوتارخوس نقرأ هذه القصة الأخرى : أراد صولون أن تكون أثينا سيدة جزيرة سلامين الصغيرة التى كانت عندئذ تتبع الميغاريين . فاستشار الوحى فأجابه : «إذا أردت الاستيلاء على الجزيرة فإنه لابد أن تحصل أولا على عطف الأبطال الذين يحمونها والذين يسكنون فيها.» فأطاع صولون، وباسم أثينا قدم قرابين لبطلى سلامين الرئيسيين . فلم يقاوم هذان البطلان الهبات المهداة إليهما وانتقلا إلى جانب أثينا . ولما حرمت الجزيرة من الحماة استولوا عليها (٢) .

وإذا حاول المحاصِرون فى زمن الحرب أن يستولوا على معبودات البلدة فإن المحاَصرين من ناحيتهم كانوا يعملون جهد الطاقة على الاحتفاظ بهم . ففى بعض الأحيان كانوا يربطون الإله بالسلاسل ليمنعوه من الفرار ، وفى أحيان أخرى كانوا يخبئونه عن جميع الأنظار حتى لا يستطيع العدو أن يجده ، أو يعارضون الصيغة (العزيمة) التى يحاول العدو أن يغوى بها الإله بعزيمة أخرى من فضائلها أنها تحجزه . وقد تصور الرومان وسيلة لاحت لهم أكثر ضماناً : فكانوا يكتمون اسم أهم آلهتهم الحماة وأقواها ؛ وكانوا يظنون أنه ما دام الأعداء لايستطيعون أن يدعوا هذا الإله باسمه فإنه لن ينتقل إذن من جانبهم

(١) هيرودوت ٥ : ٩٩ .

(٢) بلوتارخوس : صولون ٩

قط وأن بلدتهم لن تسقط أبداً (١) .

ومن هنا نرى أية فكرة فذة كانت عند القدماء عن الآلهة . لقد ظلوا حينا طويلا لا يتصورون الإله على أنه سلطة عليا . فكان لكل أسرة ديانتها المنزلية ولكل مدينة ديانتها القومية ، فكانت البلدة كملة صغيرة لها آلهتها وقواعد دينها وعبادتها . تبدو لنا هذه العقائد جد جافية لكنها كانت عقائد شعب هو أكثر شعوب ذلك الزمن روحانية وكان لها على هذا الشعب ، وعلى الشعب الرومانى ، فعل بلغ من قوته أن أكبر جزء من قوانينهما وأنظمتهما وتاريخهما قد صدر عن هذه العقائد نفسها .

---

(١) Pline, *Hist. nat.*, *XXVIII*, 4, 18: *Constat ideo occultatum in cujus dei tutela Roma esset, ne qui hostium evocarent.* — Macrobe, Sat., III, 9: *Ipsius urbis nomen etiam doctissimis ignotum est, caventibus Romanis ne, quod saepe adversus urbes hosium fecisse se noverant, idem ipsi hostili evocatione paterentur, si tutelae suae nomen divulgaretur.* — Servius, *ad Aen.*, II, 351: *"Romani celatum esse voluerunt in cujus dei tutela Roma sit, ne suis nominibus dii Romani appellarentur, ne exaugurari possint."*

الفصل السابع

ديانة المدينة

الأكلات العامة

رأينا أعلاه أن أهم احتفال فى العبادة المنزلية هو أكلة كانوا يدعونها قورباناً. وإن جميع الظواهر لتوحى بأن أكل غذاء مجهز على مذبح كان أول صورة خلعها الإنسان على العمل الدينى. وكانت هذه الأكلة، التى كان يدعى إليها الإله، والتى كان يعطى نصيبه منها، كافية لسد الحاجة إلى الاتصال بالمعبود.

وكذلك كان الاحتفال الرئيسى لعبادة المدينة هو أكلة من هذا النوع. وكان لابد أن يقوم بها كل المواطنين جماعة تمجيداً للمعبودات الحامية. وكانت عادة هذه الأكلات العامة شاملة فى بلاد الإغريق. وكانوا يعتقدون أن سلامة المدينة متوقفة على القيام بها. (١)

وتمدنا الأوديسه بوصف لإحدى هذه الأكلات المقدسة. فقد مدت تسع موائد طويلة لشعب پيلوس (Pylos). وجلس إلى كل واحدة منها خمسمائة مواطن وضحى كل جمع بتسعة ثيران تمجيداً للآلهة. وهذه الأكلة التى كانت تسمى أكلة الآلهة تبدأ وتنتهى بإراقه السوائل وبالأدعية (٢). كما تشير أقدم الأثارات الأثينية إلى العادة القديمة فى الأكل جماعة. فيروى أن أورسيتس قاتل أمه وصل إلى أثينا فى ذات اللحظة التى كانت المدينة تهم فيها بالقيام بالعمل المقدس مجتمعة حول ملكها (٣). كما نعثر على هذه الأكلات العامة فى عصر إكسينوفون؛ فى أيام معينة من السنة كانت تضحى البلدة بعدة أضاح ويقتسم

---

(١) *Σωτήρια τῶν πόλεων σύνδειπνα* أثينايوس ٥:٢. يذكر بوليدوكيس (٣٤:١) الـ *δημοθοινίαι* أو الـ *πανθοινίαι* بين الأعياد الدينية.

(٢) الأوديسيه ٣: ٥ - ٩؛ ٤٣ - ٥٠؛ ٣٣٩ - ٣٤١.

(٣) أثينايوس ١٠: ٤٩ نقلا عن فانوديموس (Phanodème).

الشعب لحومها (١) . وكانت نفس هذه العادات موجودة فى كل مكان (٢).

وفيما عدا هذه المآدب العظيمة، التى كان يجتمع فيها كل المواطنين ، والتى ما كانت تحدث إلا فى الأعياد العظيمة ، كانت تنص الديانة على أن تكون هناك أكلة مقدسة كل يوم . ولهذا الغرض كان يجب على بعض الرجال الذين تختارهم المدينة أن يأكلوا معاً باسمها داخل حرم بيت النار (البريتانيون) على مرأى من الموقد والآلهة الحماة . وكان الإغريق مقتنعين أنه إذا قدر لهذه الأكلة أن تحذف يوماً واحداً فإن الدولة تصبح مهددة بفقدان عطف آلهتها عليها(٣) .

فنى أثينا كانت القرعة تعين الرجال الذين كان عليهم أن يشاركوا فى الأكلة المشتركة . وكان القانون يعاقب الذين يرفضون القيام بهذا الواجب عقاباً شديداً (٤) . والمواطنون الذين يجلسون إلى المائدة المقدسة كانت تخلع عليهم مؤقتاً صفة كهنوتية ؛ وكانوا يدعون پاراسيتيس (parasites) وهذه الكلمة قد بدأت لقباً مقدساً وإن كانت قد أصبحت فيما بعد كلمة تدل على الازدراء(٥) .

---

(١) Xénophon, *Resp. Athen.*, 3: *θύουσι δημοσίᾳ ἡ πόλις ἱερεῖα πολλά, ἔστι δὲ ὁ δῆμος εὐωχούμενος καὶ διαλαγχάνων τὰ ἱερεῖα.* انظر شارح أرسطوفانيس (السحاب ٣٨٦) . يذكر بلوتارخوس (بريكليس) ١١ وإسوقراط (*Aréopagitique*, 29) عادة الـ *ἑστιάσεις* فى أثينا .

(٢) Athénée, V, 2: *Οἱ νομοθέται τά τε φυλετικὰ δεῖπνα καὶ τὰ δημοτικὰ προσέταξαν καὶ τὰ φρατριακὰ* . يذكر نفس المؤلف الـ *δημόσιαι θοῖναι* فى أرغوس ويذكر فى إسبرطه أكلات *κατὰ τας ἑορτὰς* وهى مستقلة عن الـ *φειδίτια* اليومية (أثينايوس ١١ : ٦٦) ويعطى وصفا مطولا للأكلات المقدسة فى بلدتى فيغاليا ونوقراطيس ويذكر الشعائر التى كانت تتبع فيها وإراقة السوائل والأناشيد (٤ : ٣٢). ويقول عن أكلات تارنتا (٤ : ٦١) : *Ἡ πόλις καθ᾽ ἕκαστον μῆνα βουθυτεῖ καὶ δημοσίᾳ ἑστιάσεις ποιεῖται* كما يشير إلى هذه العادة فى ١٠ : ٢٥ . ويصف بنداروس فى العاشرة من قصائده النيمية (*Néméennes*) الأكلات المقدسة فى تندوس (*Ténédos*). انظر ديودوروس ١٠ : ٧٢ .

(٣) Athénée, V, 2: *Συνεδείπνουν ὁσημέραι οἱ περὶ πρύτανιν σώφρονα καὶ σωτήρια τῶν πόλεων σύνδειπνα,*

(٤) انظر مرسوما ذكره أثينايوس (٤ : ٢٦) *Ὃς ἂν μὴ θέλῃ παρασιτεῖν, εἰσαγέτω εἰς τὸ δηκαστήριον.*

(٥) Plutarque, *Solon*, 24: *Ἴδιον δὲ τοῦ Σόλωνος καὶ τὸ περὶ τῆς ἐν δημοσίῳ σιτήσεως, ὅπερ αὐτὸς παρασιτεῖν κέκληκε.* — Athénée, VI, 26: *Τὸ τοῦ παρασίτου ὄπομα πάλαι ἦν σεμνὸν καὶ ἱερόν... Ἐν τοῖς παλαίοις νόμοις αἱ πλεῖσται τῶν πόλεων ἔτι καὶ τήμερον ταῖς ἐντιμοτάταις ἀρχαῖς συγκαταλέγουσι παρασίτους.* فيلوخوروس : القطعة ١٥٦ ؛ كليتوديموس القطعة ١١ . بوليدوكس ٦ : ٣٥ .

وفى زمن ديموسثينيس اختفى الباراسيتيس لـكن سدنة بيت النار كانوا لايزالون ملزمين بالأكل معاً فى بيت النار . فقد كانت فى جميع البلدان قاعات معدة للأكلات المشتركة (١) .

وعندما نرى كيف كانت تجرى الأمور فى هذه الأكلات ، نتعرف جيدا على احتفال دينى . فكان على رأس كل مُآكل تاج . والواقع أنها كانت عادة قديمة أن يتتوج الإنسان بأوراق الشجر والزهور كلما قام بعمل عظيم من أعمال الديانة، وكانوا يقولون «بقدر ما يتزين الإنسان بالزهور بقدر ما يضمن رضاء الآلهة عنه ؛ لـكنك إذا قدمت قرباناً دون أن يكون لك تاج فإنهم يتولون عنك» (٢). وكانوا يقولون أيضاً «التاج رسول الفأل الحسن يرسله الدعاء أمامه نحو الآلهة» (٣) ولنفس السبب كان يرتدى المآكلون أردية بيضاء . فقد كان البياض هو اللون المقدس عند القدماء ؛ إنه اللون الذى ترتضيه الآلهة (٤) .

كانت تبدأ الأكلة بالدعاء وإراقة السوائل ، لا مبدل لذلك ؛ وتنشد الأناشيد (٥) . وكان كتاب الشعائر فى كل مدينة ينص على لون الأطعمة ونوع الخمر التى يجب تقديمها . وكان الخروج فى أى شىء عن العادة التى اتبعها الأسلاف ، كتقديم صنف جديد أو تغيير نغمة الأناشيد المقدسة ، يعد كفراً خطيراً تؤاخذ به المدينة بأكملها أمام الآلهة . بل كانت الديانة تذهب إلى حد تعيين طبيعة الأوانى التى يجب استعمالها سواء لطهى الأطعمة أو لخدمة المائدة . فى بلدة ما ، كان لا بد من وضع الخبز فى سلال من النحاس ؛ وفى بلدة أخرى

---

(١) ديموسثينيس : قضية التاج ٥٣ . أرسطو : السياسة ٧:١:١٩ . بوليدوكيس ٨ : ١٥٥ . بوسانياس ٥ : ١٥ .

(٢) قطعة من سافو فى أثينايوس ١٥ : ١٦ .

(٣) قطعة من خايريمون Chaerémon فى أثينايوس ١٥ : ١٩ .

(٤) أفلاطون : القوانين ١٢ : ٩٥٦ . سيسرون : عن القوانين ٢ : ١٨ . فرجيليوس ٥ : ٧٠ ، ٧٧٤ ؛ ٧ : ١٣٥ ؛ ٨ : ٢٧٤ . وكذلك عند الهنود كان لابد فى الأعمال الدينية من لبس تاج وارتداء أردية بيضاء ، قوانين مانو ٤ : ٦٦، ٧٢ .

(٥) هرمياس فى أثينايوس (٤:٣٢): *Τοῦ ἱεροκήρυκος τὰς πατριους εὐχὰς καταλέγοντος συνσπένδοντες*

كان يجب ألا تستعمل إلا أوان من الفخار ؛ وكانت أشكال الخبز ذاتها ثابتة لا تتبدل (١) . ولم تفتأ قواعد الديانة القديمة هذه معمولا بها أبداً ، وحافظت الأكلات المقدسة على بساطتها الأولى . فقد تغير كل شيء : العقائد والأخلاق والحالة الاجتماعية ، وبقيت هذه الأكلات لاتغيير فيها . فقد كان الإغريق على الدوام محافظين أدق محافظة على ديانتهم القومية .

ومن الحق أن نضيف أنه بعد أن يرضى المآكلون الديانة بأكلهم الأطعمة المنصوص عنها كانوا يستطيعون أن يبدأوا فوراً أكلة أخرى أشهى وأكثر ملاءمة لذوقهم . وتلك كانت عادة إسپرطه إلى حد ما (٢) .

كانت عادة الأكلات المقدسة نافذة فى إيطاليا بقدر ما كانت نافذة فى بلاد الإغريق . يقول أرسطو إنها عادة كانت موجودة فى القدم عند الشعوب المسماة أونوتريون (Oenotriens) وعند الأسك (Osques) والأوزون (Ausones) (٣). وقد دون ڤرجيليوس ذكراها مرتين فى ملحمة الإنييد (Enéide) . لم يستقبل لاتينوس (Latinus) الشيخ رسل إينياس (Enée) فى مسكنه بل فى معبد « قدسته ديانة الأسلاف ؛ فهناك كانت تقام الولائم المقدسة بعد تضحية الأضاحى ؛ وهناك كان يجلس كل رؤساء الأسرات معاً إلى موائد طويلة » . وفيما بعد عند ما وصل إينياس عند إيڤاندروس (Evandre) وجده يحتفل بقربان : الملك فى وسط شعبه والجميع متوجون بالزهور ؛ وكلهم جلوس إلى نفس المائدة يتغنون بنشيد فى مدح إله المدينة (٤) .

استمرت هذه العادة فى روما . فقد كانت هناك دائماً قاعة يأكل فيها ممثلو الندوات جماعة ؛ وفى بعض الأيام كان مجلس الشيوخ يقوم بأكلة مقدسة فى الكاپيتوليوم (٥) . وفى الأعياد العظيمة كانت تمد الموائد فى الشوارع ويتخذ

---

(١) انظر المؤلفين الذين ذكرهم أثينايوس ١ : ٥٨ ؛ ٤ : ٣١ و ٣٢ ؛ ١١ : ٦٦ .

(٢) أثينايوس ٤ : ١٩ ؛ ٤ : ٢٠ .

(٣) أرسطو : السياسة ٧ : ٩ : ٢ - ٣ طبعة ديدو ص ٦١١ .

(٤) فرجيليوس ٧ : ١٧٤ وما بعدها ؛ ٨ : ١٠٢ - ١١١ ، ٢٨٣ - ٣٠٥ .

(٥) ديونيسيوس ٢ : ٢٣ أولوس جيليوس ١٢ : ٨ تيتوس ليفيوس ٤٠ : ٥٩ .

الشعب بأكمله مكانه منها . وفى الأصل كان الأحبار يترأسون هذه الأكلات ؛ وفيما بعد كانوا يوكلون هـذه المهمةإلى كهنة متخصصين يسمونهم إپولونيس (epulones) (١) .

تمدنا هذه العادات القديمة بفكرة عن الرباط الوثيق الذى كان يربط بين أعضاء المدينة . فقد كانت الجماعة البشرية ديانة ، وكان رمزها أكلة يأكلونها جماعة .

يجب أن نتصور هذه الجماعات الصغيرة البدائية مجتمعة بأكملها ، أو على الأقل رؤساء الأسرات فيها ، إلى مائدة واحدة . وقد ارتدى كل منهم رداء أبيض ووضع على رأسه تاجاً ؛ وكلهم يريقون السوائل معاً ، ويرتلون نفس الصلاة ، وينشدون نفس الأناشيد ، ويأكلون نفس الغذاء المجهز على نفس المذبح ، والأسلاف حضور بينهم ، والآلهة يشاطرونهم الأكل ، ومن هنا جاء الاتحاد القبلى (نسبة للقبيلة) بين أعضاء المدينة . فإذا طرأت حرب تذكر الناس ، حسب تعبير أحد القدماء ، « أنه يجب ألا يفر المرء عن رفيقه فى الصف ، هذا الذى قدم معه نفس القرابين وأراق معه نفس السوائل وشاطره الأكلات المقدسة » (٢) .

والواقع أن هؤلاء الرجال مرتبطون بشىء أقوى من المنفعة ، ومن الاتفاق ، ومن العادة ، كانوا مرتبطين بالمشاركة المقدسة فى الأكل التى قاموا بها فى ورع على مشهد من آلهة المدينة .

---

(١) Cicéron, *De oratore,* III, 19: *Pontifices veteres, propter sacrificiorum multitudinem tres viros epulones esse voluerunt . . . . ut illud ludorum epulare sacrificium facerent.*

وكانت تطلق لفظة *epulum* بمعناها الأصلى على الأكلات التى تقدم تمجيدا للآلهة .

Festus, ed., Müller, p. 78: *Epulones. . . . datum his nomen quod epulas indicendi Jovi caeterisque diis potestatem haberent.* Voyez *Tite-Live,* XXV, 2; XXVII, 36; XXIX, 38; XXXIII, 42; XXXIX, 46, *in quo toto foro strata triclinia.*

Cicéron, *Pro Murena,* 36: *Cum epulum populo romano daret.*

(٢) Denys, II. 23: *Μὴ καταλιπεῖν τὸν παραστάτην, ᾧ συνέσπεισε καὶ συνέθυσε καὶ κοινῶν ἱερῶν μετέσχε* ويطبق المؤرخ هذا على أكلات الإسبرطيين المشتركة التى يقارنها ، فضلا عن ذلك ، بأكلات الروسان المشتركة .

٢ – الأعياد والتقويم

فى كل زمان وفى كل مجتمع أراد الانسان أن يكرم آلهته بالأعياد . فقرر أن تكون هناك أيام لا تسود على روحه فيها غير العاطفة الدينية، دون أن تشغل باله الأفكار والأعمال الدنيوية . فجعل للآلهة نصيباً فى تلك الأيام التى قدر له أن يحياها .

تأسست كل مدينة بمقتضى شعائر كان أثرها فى رأى القدماء أنها تثبّت الآلهة القوميين فى نطاقها. وكان لابد من تجديد فضائل هذه الشعائر كل عام باحتفال دينى جديد ؛ وكانو يسمون هذا العيد يوم المولد ؛ وعلى جميع المواطنين أن يحتفلوا به .

كان كل ما هو مقدس مصدراً لعيد. فكان هناك عيد لسور المدينة *(amburbalia)* وعيد لحدود المنطقة *(ambarvalia)* . وفى تلك الأيام كان يؤلف المواطنون موكباً كبيراً مرتدين الأردية البيضاء ومتوجين بأوراق الشجر ، ويطوفون حول البلدة أو المنطقة وهم يرتلون الأدعية ؛ وفى المقدمة يسير الكهنة يقودون الأضحية التى كان يضحى بها فى نهاية الاحتفال (١) .

يأتى بعد ذلك عيد المؤسس . ثم إن كل بطل من أبطال المدينة وكل روح من هذه الأرواح التى كان الناس يدعونها كحامية كان يتطلب عبادة ما. فكان لروملوس عيده ، ولسرفيوس توليوس ولكثيرين سواهم ، حتى لمرضعة روملوس ولأم إيفاندروس . وكذلك كان فى أثينا عيد ككروپس وعيد إرخثيوس وعيد ثيسيوس ، وكانت تحتفل بكل واحد من أبطال الإقليم وهم ثيسيوس وإوريسثيوس (Eurysthée) وأندروغيا (Androgée) وجمهرة أخرى .

---

(١) فستوس: تحت لفظ *(Amburbiales)*، طبعة ميلر ص ٥ . ماكروبوس : ساتورناليا ٣ : ٥ . ووصف العيد فى تيبولوس ، الكتاب الثانى élégie 1.

وكانت هناك أيضاً أعياد الحقول ، وعيد الحرث وعيد البذر وعيد الازدهار وعيدقطف العنب. وكان كل عمل فى حياة الزارع فى بلاد الإغريق وكذلك فى إيطاليا مصحوباً بالقرابين وكانوا يقومون بالأعمال وهم يرتلون الأناشيد المقدسة. ففى روما كان الكهنة يعينون ، كل عام ، اليوم الذى يجب أن يبدأ فيه قطف العنب واليوم الذى يستطيعون فيه أن يشربوا الخمر الجديد . كانت الديانة تنظم كل شىء ، والديانة هى التى تأمر بتشذيب الكروم لأنها كانت تقول للناس : إنها لخطيئة أن تريقوا للآلهة خمر كرمة لم تشذب (١) .

وكان لكل مدينة عيد لكل واحد من المعبودات التى اتخذتها حامية لها وهى كثيرة فى أغلب الأحيان . فكلما أدخلت فى المدينة عبادة معبود جديد كان لا بد من إيجاد يوم فى السنة يخصص له . ومما تمتاز به هذه الأعياد الدينية تحريم العمل (٢) وفرض المرح والجهر بالغناء والألعاب . وتضيف الديانة : حاذروا أن يؤذى بعضكم بعضاً (٣) .

ولم يكن التقويم شيئاً آخر غير تتابع الأعياد الدينية ، لذلك كان الكهنة هم الذين يضعونه ، وقد ظلوا فى روما زمناً طويلا دون أن يدونوه كتابة .

---

(١) Plutarque, *Numa*, 14: *Μὴ σπένδειν θεοῖς ἐξ αμπέλων ἀτμήτων*
Varron, *L.L.* VI, 16: *Aliquot locis vindemiae primum ab sacerdotibus publice fiebant, ut Romae etiam nunc; nam flamen dialis auspicatur vindemiam et, ut jussit vinum legere, agna Jovi facit. . .* Pline, XVIII, 2: *Nec degustabant nova vina ante quam sacerdotes primitias libassent.*
عن الأعياد التى كان لابد أن تسبق الحصاد انظر فرجيليوس *Géorgiques* ١ : ٣٤٠ . ٣٥٠ .

(٢) أفلاطون ، القوانين ٢ ص ٥٨٤ . ديموسثينيس : ضد ميدياس ١٠
Demosthène, *in Timocratae* 29: *Μὴ χρηματίζειν ὅτι ἂν μὴ περὶ τῆς εορτῆς ᾖ*
Cicéron, *De legibus*, II, 12: *Feriarum ratio in liberis requietem habet litium et jurgiorum, in servis operum et laborum.* Macrobe, I, 16: *Affirmabant sacerdotes pollui ferias, si opus aliquod fieret.*

(٣) ديموسثينيس : ضد تيموكراطيس ٢٩ . نفس التوصية فى روما ، ماكروبوس: ساتورناليا ١ : ١٥ : *In feriis vim cuiquam inferre piaculare est.*
انظر سيسرون القوانين ٢ : ١٢ *requietem jurgiorum*

وكان الحبر يقدم قرباناً ويدعو الشعب فى أول يوم من الشهر ويخبرهم بالأعياد التى تقع خلال الشهر . وكانوا يسمون هذه الدعوى كالاتيو (*Calatio*) ومنها أتى اسم الكاليندى (*Calendae*) الذى كانوا يطلقونه على ذلك اليوم (١) .

لم يكن التقويم منظماً على أساس جريان القمر ولا على الجريان الظاهرى للشمس. ولم تكن تنظمه إلا قوانين الديانة وهى قوانين خفية لا يعرفها إلا الكهنة وحدهم . وكانت الديانة تأمر تارة بتقصير السنة وتارة أخرى بإطالتها . ويمكن تكوين فكرة عن التقاويم الأولى إذا تأملنا أن شهر مايو كان عند أهالى ألبا اثنين وعشرين يوما وأن مارس كان ستة وثلاثين يوماً (٢) .

ومما يسهل إدراكه أن تقويم أية مدينة لم يكن يشبه فى شىء ما تقويم مدينة أخرى ما دامت الديانة لم تكن واحدة فيهما وكانت الأعياد مختلفة كاختلاف الآلهة . ولم يكن للسنة نفس المدة من بلدة إلى أخرى . ولم تكن للشهور نفس الأسماء ؛ فكانت أثينا تسميها بطريقة تختلف تماماً عن طريقة ثيبه ، وتسميها روما بطريقة تختلف تماماً عن طريقة لاڤينيوم . ومصدر ذلك أن اسم كل شهر كان يشتق فى العادة من اسم العيد الرئيسى فيه : هذا ولم تكن الأعياد واحدة . لم تتفق المدن على جعل ابتداء السنة فى فترة واحدة ولا على حساب سلسلة سنواتها ابتداء من تاريخ بذاته. وفى بلاد الإغريق أصبح عيد أوليمپيا، مع مضى الزمن، تاريخاً مشتركاً لكنه لم يحل دون أن يكون لكل مدينة عامها الخاص . وفى إيطاليا كانت كل بلدة تحسب السنوات ابتداء من يوم تأسيسها .

٣ — الإحصاء والنثار

من أهم احتفالات ديانة المدينة احتفال كان يسمى التطهير (٣) . وكان يحدث

---

(١) فارون : اللسان اللاتينى ٦ : ٢٧. سرفيوس *Ad Aen.* ٨ : ٦٥٤ . ماكروبوس ساتورناليا ١ : ١٤ ؛ ١ : ١٥ .

(٢) *Cinsorinus, De die natali,* 22

(٣) كانوا يسمون هذه العملية *καθαίρειν* أو *ἁγνεύειν πόλιν* هيبوناكس طبعة برغك (Bergk) القطعة ٦٠ ، وكانوا يقولون فى اللاتينية *lustrare* - سيسرون: التكهن ١ : ٤٥ : *Cum censor populum lustraret* سرفيوس *Ad. Aen* ١ ؛ ٢٨٣ : *Post quinquennium unaquaeque civitas lustrabatur*

فى أثينا كل عام (١) . أما فى روما فلم يكونوا يقومون به إلا كل أربعة أعوام .
وتدل الشعائر التى كانت تراعى فيه، والاسم نفسه الذى كان يحمله، على أن من
فضائل هذا الاحتفال محو الخطايا التى يرتكبها المواطنون فى العبادة . والواقع
أن هذه العبادة البالغة حد التعقيد كانت منبع ذعر للقدماء ؛ ولما كان الإيمان
وطهارة النيات شيئاً ضئيلا، وكانت الديانة كل الديانة فى القيام الدقيق بفرائض
لا حصر لها فقد كان يخشى على الدوام من اقتراف اهمال أو نسيان أو خطأ .
ولم يكن المرء واثقاً دائماً من عدم وقوعه تحت سوط غضب إله ما أو حفيظته فكان
لابد إذن، لكى يطمئن قلب الإنسان، من قربان يكفر به عن آثامه. وكان رجل
الدولة المكلف بهذا (وهو فى روما الرقيب (censor) ؛ وقبل الرقيب كان
القنصل ؛ وقبل القنصل الملك) يبدأ بالتأكيد عن طريق الاستخارة عما إذا كانت
الآلهة راضية عن الاحتفال. ثم يدعو الشعب عن طريق المنادى الذى كان يستعمل
لهذا الغرض صيغة مقدسة (٢) . وفى اليوم المعين يجتمع كل المواطنين خارج
الأسوار ؛ وهنا يخيم السكون على الجميع ويطوف رجل الدولة ثلاث مرات
حول الجماعة وهو يسوق أمامه ثلاث أضاح : كبش وخنزير وثور *suovetaurilia* ؛
ومجموع هذه الحيوانات الثلاثة، عند الإغريق كما عند الرومان ، قربان كفارة.
ويتبع الموكب بعض الكهنة والمضحين ، وعند ما تم الدورة الثالثة يتلو
رجل الدولة صيغة دعاء ويضحى بالأضحية . (٣) وابتداء من تلك اللحظة

---

(١) Diogène Laerce. *Socrate* c. 23. *Ἕκτῳ θαργηλιῶνος, ὅτε καθαίρουσι τὴν πόλιν Ἀθηναῖοι*, Harpocration V° *Φάρμακος: Δύο ἄνδρας Ἀθήνησιν ἐξῆγον καθάρσια ἐσομένους τῆς πόλεως ἐν τοῖς θαργηλίοις, ἕνα μὲν ὑπὲρ τῶν ἀνδρῶν, ἕνα δὲ ὑπὲρ τῶν γυναικῶν* وكذلك كانوا يطهرون الموقد المنزلى كل عام، (أيسخيلوس: حملة السوائل ٩٦٦)

(٢) فارون، اللسان اللاتينى ٦ : ٨٦، ٨٧ .

(٣) Tite-Live, I, 44: *Suovetaurilibus lustravit.* Denys d' Halic., IV, 22 : *Κελεύσας τοὺς πολίτας ἅπαντας συνελθεῖν... καθαρμὸν αὐτῶν ἐποιήσατο ταύρῳ καὶ κρίῳ καὶ τράγῳ.*
Cicéron, *De oratore*, II, 66: — *Lustrum condidit et taurum immolavit.* — Servius, *ad Aen.*, III, 279: *Lustrato populo dii placantur.* Cf. *ibid.* VIII, 183.

لخص فاليريوس ماكسيموس الدعاء الذى كان يتلوه الرقيب :
Censor, cum lustrum conderet, inque solito fieri sacrificio scriba ex publicis tabulis solenne ei precationis carmen praeiret, quo dii immortales ut populi romani res meliores amplioresque facerent ro-

تكون كل نجاسة قد محيت وكل إهمال فى العبادة قد صحح وأصبحت المدينة فى سلام مع آلهتها .

وكان لا بد من شيئين بالنسبة لعمل من هذا القبيل وبهذه الأهمية : أحدهما ألايتسلل أى أجنبى بين المواطنين وهو أمر كان من شأنه، إذا وقع، أن يدخل الاضطراب فى الاحتفال وينقضه ؛ والآخر أن يكون جميع المواطنين حاضرين وبدون ذلك يبقى فى المدينة بعض الدنس . فكان لا بد إذن من أن يسبق هذا الاحتفال الدينى تعداد للمواطنين . فكانوا يحصونهم فى روما، وفى أثينا، بعناية المتأثمين ؛ ومن المحتمل أن رجل الدولة كان يذكر عددهم فى صيغة الدعاء كما أنه كان يدوّن فيما بعد فى التقرير الذى كان يحرره الرقيب عن الاحتفال

وكان فقدان حق المواطن هو عقاب الرجل الذى لم يسجل اسمه . وهذه القسوة لها مايفسرها، فالرجل الذى لم يساهم فى العمل الدينى، الذى لم يطهّر الذى لم يُتل من أجله الدعاء ولم تضح له الأضحية، هذا الرجل لم يكن فى استطاعته أن يكون عضواً فى المدينة بعد ذلك، لأنه لم يعد مواطناً أمام الآلهة التى شهدت الاحتفال (١)

---

gabantur (Valère Maxime, IV, 1, 10)
Vopiscus, *Aurélien*, 20: وقد دامت هذه العادات إلى عصر الامبراطورية
Lustrata urbs, cantata carmina. . ويلوح ان تيتوس ليفيوس
(١ : ٤٤) كان يعتقد ان سرفيوس هو الذى أنشأ نظام النثار . لكنه
قديم قدم روما .والدليل على ذلك أن نثار *(lustratio)* البلاتيوم، أى بلدة روميولوس
Varron, *De ling. lat.*, IV, 34: *Februatur* . الأولى ، قد استمر يقام من عام إلى عام
populus, id est, lupercis nudis lustratur antiquum opidum Palatinum gregibus humanis cinctum.

وربما كان سرفيوس توليوس (Servius Tullius) هو أول من وقع النثار الأول على البلدة التى زاد فيها .وهو على الأخص الذى أنشأ التعداد الذى كان يصحب النثار لكنه لم يكن يختلط معه .

(١) كان يمكن جلده بالسوط أو بيعه كرقيق . ديونسيوس ٤ : ١٥ ؛ ٥ : ٧٥ ؛ سيسرون : الدفاع عن كيكيكينا (Caecina) ٣٤ .وكان على المواطنين الغائبين عن روما أن يعودوا ليوم النثار، وليس لأى عذر أن يعفيهم من هذا الواجب . تلك كانت القاعدة فى الأصل ، ولم تلطف إلا فى القرنين الأخيرين من الجمهورية . فليوس (Velléius) ٢ : ٧ : ٧ ؛ تيتوس ليفيوس ٢٤ :٣٧ ؛ أولوس جيليوس ٥ : ١٩ .

ويمكن أن نحكم على أهمية هذا الاحتفال من السلطة البالغة التى كانت لرجل الدولة المترئس عليه . قبل أن يشرع الرقيب فى التضحية كان يصف الشعب طبقاً لنظام معين : هنا الشيوخ ، وهناك الفرسان ؛ وفى مكان آخر القبائل ؛ وباعتباره سيداً مطلقاً فى ذلك اليوم كان يعين مكان كل رجل فى الفئات المختلفة . وعندما يصطف الجميع طبقاً لتعليماته كان يقوم بالعمل المقدس . وينتج من ذلك أنه ابتداء من ذلك اليوم إلى النثار القادم كان يحتفظ كل رجل فى المدينة بالمرتبة التى عينها له الرقيب فى الاحتفال . فيكون شيخاً إذا عد فى ذلك اليوم بين الشيوخ ، وفارساً إذا وضع بين الفرسان ، وإذا كان مجرد مواطن فإنه كان ينتمى إلى القبيلة التى وضع بين صفوفها فى ذلك اليوم . بل إذا رفض الرقيب قبوله فى الاحتفال فإنه لا يكون مواطناً بعد ذلك . وبهذا كان المكان الذى شغله كل فرد فى هذا الاجراء الدينى ، والذى رأته الآلهة فيه ، هو المكان الذى يحتفظ به فى المدينة مدة أربعة أعوام . ومن هنا كان سلطان الرقباء عظيما .

لم يكن يشهد هذا الاحتفال إلا المواطنون . لكن نساءهم وأطفالهم وأرقاءهم وأموالهم ، منقولة أو غير منقولة ، كانت مطهرة بطريقة ما فى شخص رئيس الأسرة . ولهذا السبب كان يتعين على كل فرد أن يعطى للرقيب قبل التضحية تعداد الأشخاص والأشياء المتعلقة به (١) .

وكان النثار ينفذ فى عهد أغسطس بنفس الدقة ونفس الشعائر التى كان ينفذ بها فى أقدم الأزمنة . وكان الأحبار لا يزالون يعتبرونه عملا دينياً . وكان رجال الدولة يرون فيه ، على الأقل ، وسيلة إدارية فائقة .

---

(١) سيسرون : القوانين ٣ : ٣ ؛ الدفاع عن فلاكوس ٣٢ . تيتوس ليفيوس ١ : ٤٣ . ديونيسيوس ٤ : ١٥ ؛ ٥ : ٧٥ . فارون : اللسان اللاتينى ٦ : ٩٣ . بلوتارخوس : كاتون الأكبر ١٦ .

٤ — الديانة فى المجمع ، فى مجلس الشيوخ ، فى المحكمة ، فى الجيش ؛ النصر

لم يكن هناك عمل واحد من أعمال الحياة العامة لا يدخلون الآلهة فيه ، وحيث أنه كانت تتسلط على الإنسان فكرة أن الآلهة طورا تكون حماة ممتازة وطورا أعداء ألداء فإنه لم يكن يجرؤ اطلاقاً على إتيان عمل ما دون أن يكون واثقاً من أنهم راضون عنه .

لم يكن الشعب يجتمع فى المجامع إلا فى الأيام التى تسمح له الديانة فيها بذلك. كانوا يتذكرون أن المدينة عانت نكبة فى يوم معين ، فلا يرتابون فى أن الآلهة كانت فى ذلك اليوم غائبة أو غاضبة ؛ ثم لا ريب فى أنها لابد أن تكون غاضبة كل عام فى نفس الزمن لأسباب خافية على البشر (١) . وإذن يكون ذلك اليوم نحساً إلى الأبد . فلا يجتمعون فيه ولا يتقاضون، بل كانت الحياة العامة موقوفة فيه.

وفى روما كان لا بد قبل دخول الجلسة من تأكيد المستخيرين أن الآلهة راضية . وكان المجمع يبدأ بصلاة يتلوها المستخير ويكررها القنصل بعده (٣).

وكان الأمر كذلك عند الأثينيين ؛ فالمجمع يبدأ دائماً بعمل دينى . كان يقدم الكهنة قرباناً ؛ ثم يرسمون دائرة كبيرة برش ماء النثار على الأرض

---

(١) عن هذه الفكرة من أفكار القدماء انظر كاسيوس همينا (Cassius Hemina) فى ماكروبوس ١ : ١٦.

(٢) عن أيام النحس عند الإغريق انظر هسيودوس : الأعمال والأيام : البيت ٧١ وما بعده. وكانوا يطلقون على أيام النحس اسم ἡμέραι ἀποφράδες (ليسياس الدفاع عن فانيا ، قطعة طبعة ديدوج ٢ ص ٢٧٨) . أنظر هيرودوت ٦ : ١٠٦ . Plutarque, *De defectu oracul.*, 14; *De εἰ apud Delphos*, 20.

(٣) سيسرون : الدفاع عن مورينا ١ . تيتوس ليفيوس ٥ : ١٤ ؛ ٦ : ٤١ ؛ ٣٩ : ١٥ . ديونيسيوس الهاليكارناسى ٧ : ٥٩ ؛ ٩ : ٤١ ؛ ١٠ : ٣٢ لا زال بلينيوس يذكر فى مديح تراجان (٦٣) الـ *longum carmen comitiorum*

وبداخل هذه الدائرة المقدسة يجتمع المواطنون (١) . وقبل أن يتكلم أى خطيب كان يتلى دعاء أمام الشعب الصامت (٢) . وكانوا يستشيرون الاستخارات أيضاً. وإذا تجلت فى السماء آية ما ذات طابع منحوس فإن المجلس كان يتفرق فوراً (٣) .

وكان المنبر مكاناً مقدساً لا يصعد عليه الخطيب إلا وعلى رأسه تاج (٤). وقد قضت العادة زمناً طويلا أن يبدأ خطابه بدعاء الآلهة .

وفى روما كان المكان الذى يجتمع فيه مجلس الشيوخ هو أحد المعابد دائماً ، وإذا عقدت جلسة فى مكان آخر غير مقدس فإن القرارات التى تتخذ يلحقها البطلان . إذ أن الآلهة لم يكونوا حاضريها (٥) . وقبل كل مداولة يقدم الرئيس قرباناً ويتلو دعاء . وكان فى القاعة مذبح يريق عليه كل شيخ

---

(١) Eschine, *In Timarchum*, 23: *'Επειδὰν τὸ καθάρσιον περιενέχθῃ καὶ ὁ κήρυξ τὰς πατρίους εὐχὰς εὔξηται.* Id. *In Ctesiph.*, 2-6. Pollux, VIII, 104: *Περιεστίαρχοι ἐκάθαιρον χοιριδίοις τὴν ἐκκλησίαν.* ومن هنا كلمة أرسطوفانيس *'Εντὸς τοῦ καθάρματος* (Aristophane, *Acharn* 44.) للدلالة على مكان الاجتماع . انظر دينارخوس : ضد أرسطوغيتون ١٤ .

(٢) يذكر ديموستينيس هذا الدعاء دون أن يذكر صيغته (السفاره ٧٠) . ويمكن تكوين فكرة عنها من الصورة التى يعارضها بها أرسطوفانيس فى *Thesmophoriazousae* v. 295-350.

(٣) Aristophane, *Acharniens*, 171: *Διοσημία ἐστί*

(٤) Idem, *Thesmoph.*, 381, et Scholiaste: *Στέφανον ἔθος ἦν τοῖς λέγουσι στεφανοῦσθαι πρῶτον* وكان ذلك هو العرف القديم -

Cicéron, *In Vatinium*, 10: *In Rostris, in illo augurato templo,* ويقول سرفيوس (*Ad Aen.* ١١ : ٣٠١) إن كل خطبة عند القدماء كانت تبدأ بدعاء ، ويذكر على سبيل البرهان ما كان لديه من خطب كاتون والأخوين غراقخوس

(٥) Varron, dans Aulu-Gelle, XIV, 7: *Nisi in loco per augures constituto, quod templum appellaretur, senatusconsultum factum fuisset, justum id non esse.* Cf. Servius, *ad Aen.*, I, 446; VII, 153: *Nisi in augusto loco consilium senatus habere non poterat*, Cf Cicéron, *Ad diversos*, X, 12.

السوائل عند دخوله ويدعو الآلهة (١) .

وكان مجلس شيوخ أثينا يشبه من هذه الناحية مجلس شيوخ روما فكانت القاعة تحوى كذلك مذبحاً ، موقداً . وكانوا يقومون بعمل دينى عند ابتداء كل جلسة . فكان كل شيخ عند دخوله يقترب من المذبح ويتلو دعاء . (٢)

وكانوا لا يجلسون للقضاء فى المدينة ، فى روما كما فى أثينا ، إلا فى الأيام التى تبين الديانة أنها من أيام القبول ، وفى أثينا كانت تعقد جلسة المحكمة بجوار مذبح وتبدأ بقربان (٣) ، وفى عصر هوميروس كان القضاة يجتمعون «فى دائرة مقدسة» .

يقول فستوس إن فى كتب شعائر الأتروسك بياناً للطريقة التى يجب أن تتبع فى تأسيس بلدة ، أو تقديس معبد ، أو توزيع الندوات والقبائل فى المجمع ، أو صف جيش فى المعركة . كل هذه الأشياء كانت مبينة فى كتاب الشعائر لأن كل هذه الأشياء كانت تمس الديانة .

وكان للديانة من السيطرة فى الحرب بقدر ما كان لها فى السلم على الأقل . وكانت فى البلدان الإيطالية فرق من الكهنة تسمى فسيالس *feciales* ترأس ، كالمنادين (hérauts) عند الإغريق ، جميع الاحتفالات المقدسة الناتجة عن العلاقات الدولية . وكان الفسياليس (*fecialis*) يعلن الحرب وهو يتلو صيغة مقدسة بعد أن يكون قد غطى رأسه بقناع من الصوف ، طبقاً للشعائر ، واستشهد بالإله (٤) ،

(١) Varron, dans Aulu-Gelle, *ibid.,: Immolare hostiam prius auspicarique debere qui senatum habiturus esset.* سويتونيوس : أغسطس ٣٥ ديون كاسيوس ٥٤ : ٣٠ .

(٢) Andocide, *De suo reditu,* 15; *De mysteriis,* 44; Antiphon, *super choreuta,* 45.

ليكورغ ضد ليوقراطس ١٢٢ . ديموسثينيس : ضد ميدياس ١١٤ . ديودوروس ١٤ : ٤ . إكسينوفون ، الهلينيات ٢ : ٣ : ٥٢ .

(٣) أرسطوفانيس : الزنابير ٨٦٠ - ٨٦٥ . انظر الإلياذه ١٨ : ٥٠٤ .

(٤) يمكن رؤية «شعائر» إعلان الحرب فى تيتوس ليفيوس ١ : ٣٢ . قارن

وفى نفس الوقت يقدم القنصل قرباناً وهو مرتد الملابس الكهنوتية ، ويفتح فى احتفالٍ معبد أقدم معبود فى إيطاليا وأكثرهم تبجيلا : معبد چانوس (١). وقبل القيام بحملة يجتمع الجيش ، ويتلو القائد أدعية ويقدم قرباناً . وكذلك كان الحال بالضبط فى أثينا وفى إسپرطه (٢) .

وكان الجيش أثناء المعركة يمثل صورة للمدينة ، وكانت ديانتها تلاحقه . فكان الإغريق يحملون معهم تماثيل معبوداتهم . وكان كل جيش إغريقى أو رومانى يحمل معه موقداً ويغذى ناره المقدسة ليل نهار (٣) . وكان يرافق الجيش الرومانى المتكهنون والمستخيرون بالدجاج (*Pullarii*) . وكان لكل جيش إغريقى متنبىء .

ديونيسيوس ٢ : ٧٢ ؛ بلينيوس ٢٢ : ٢ : ٥ ؛ سرفيوس *Ad Aen.* ٩ : ٥٢ ؛ ١٠ : ١٤ . - ويؤكد ديونيسيوس (١ : ٢١) وتيتوس ليفيوس (١ : ٣٢) أن هذا النظام كان شائعاً بين كثير من البلدان الإيطالية . — وفى بلاد الإغريق أيضاً كانت تعلن الحرب على يد مناد *κήρυξ* ، ثوقيديديس ١ : ٢٩ ؛ بوسانياس ٤ : ٥ : ٨ . بوليدوكيس ٤ : ٩١ .

(١) تيتوس ليفيوس ١ : ١٩ ؛ وهناك وصف مضبوط وتفصيلى للاحتفال فى فرجيليوس ٧ : ٦٠١ - ٦١٧

(٢) Denys, IX, 57 : *Oἱ ὕπατοι εὐχὰς ποιησάμενοι τοῖς θεοῖς καὶ καθήραντες τὸν στρατὸν ἐξῆσαν ἐπὶ τοὺς πολεμίους.* اكسينوفون : الهلينيات ٣ : ٤ : ٣ ؛ ٤ : ٧ : ٢ ؛ ٥ : ٦ : ٥ . انظر فى اكسينوفون (جمهورية اللاقيديمونيين ١٣ (١٤) سلسلة القرابين التى كان يقدمها جيش اسپرطى قبل الخروج من البلدة ، قبل تجاوز الحدود ، والتى كان يجددها فيما بعد كل صباح قبل أن يعطى أى أمر بالمسير . عند قيام أسطول كان يقدم الأثينيون قرباناً ؛ وكذلك الرومان . قارن ثوقيديديس ٦ : ٣٢ وتيتوس ليفيوس ٢٩ : ٢٧ .

(٣) هيرودوت ٩ : ١٩ واكسينوفون (جمهورية اللاقيديمونيين ١٣) وبلوتارخوس (ليكورغ ٢٢) . وعلى رأس كل جيش إغريقى يمشى رجل يلقب بحامل النار *πύρφορος* وهو يحمل النار المقدسة . (اكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ١٣ ؛ هيرودوت ٨ : ٦ ؛ بوليدوكيس ١ : ٣٥ ؛ هسيخيوس تحت كلمة *πύρφορος* . وكذلك كان يوجد دائماً موقد مشتعل فى كل معسكر رومانى (ديونيسيوس ٩ : ٦) وكذلك كان الأتروسك يحملون موقدا فى جيوشهم (بلوتارخوس : بوبليكولا ١٧) . وكذلك يتكلم تيتوس ليفيوس (٢ : ١٢) عن رجل يلقب *accensus ad sacrificium foculus* وكان للدكتاتور سيلا ذاته موقد أمام خيمته (Julius Obsequens, 116)

فلنتأمل جيشاً رومانياً وهو يعد نفسه للقتال . يستحضر القنصل ضحية ويهوى عليها بالفأس ، فتسقط ، ولا بد أن تدل أحشاؤها على إرادة الآلهة ، فيفحصها عراف الأحشاء (*Haruspex*) وإذا كانت العلامات تدل على القبول أعطى القنصل إشارة القتال . وكانت أمهر الترتيبات وخير الأحوال ملاءمة عديمة الجدوى إذا لم تسمح الآلهة بالقتال . فإن أساس الفن الحربى عند الرومان ألا يجبر أمرؤ على القتال برغم أنفه عندما تكون الآلهة غير راضية . ولهذا السبب كانوا يجعلون معسكرهم كل يوم شبيهاً بالقلعة .

ولنتأمل الآن جيشاً إغريقياً ولنتخذ معركة پلاتايا (Platées) مثلا لذلك . اصطف الإسپرطيون للمعركة وكل منهم فى موضعه للقتال . على رأس كل واحد منهم تاج ، ويسمعهم النافخون فى المزمار الأناشيد الدينية ، والملك يذبح الأضاحى خلف الصفوف بقليل . لكن الأحشاء لم تعط العلامات الموافقة فلابد من إعادة القربان ، فضحى بضحيتين ثم بثلاث ثم بأربع على التوالى . وفى خلال ذلك اقتربت فرسان الفرس ورمت بسهامها وقتلت عدداً كبيراً من الإسپرطيين . بقى الإسپرطيون بلا حراك ، والتروس موضوعة عند أقدامهم ، حتى دون أن يقوا أنفسهم من ضربات العدو . إنهم ينتظرون إشارة الآلهة . وفى النهاية أظهرت الضحايا علامات الموافقة من جانب الآلهة ، وعندئذ رفع الإسپرطيون تروسهم وانتضوا سيوفهم وقاتلوا وكانوا هم المنتصرين (١).

وكانوا يقدمون قرباناً بعد كل انتصار . وذلك هو أصل موكب النصر (*triumphus*) المعروف جيداً لدى الرومان والذى لم يكن مألوفاً بدرجة أقل منها عند الإغريق . وهذه العادة هى نتيجة الرأى الذى كان ينسب النصر لآلهة المدينة . فقبل المعركة يوجه لهم الجيش دعاء شبيهاً بذلك الذى نقرؤه فى أيسخيلوس : «أعدكم ، أيها الآلهة الذين تسكنون أرضنا وتملكونها . أعدكم ، إذا سعد سلاحنا ونجت بلدتنا أن أروى مذابحكم بدم الشياة وأضحى لكم بالثيران وأعرض فى معابدكم المقدسة الغنائم التى كسبتها

---

(١) هيرودوت ٩ : ٦١ — ٦٢

رماحنا (١) » . وبمقتضى هذا الوعد كان على المنتصر أن يقدم قرباناً ؛ وكان يثوب الجيش إلى البلدة للقيام به ؛ ويتوجه إلى المعبد فى موكب طويل وهو يغنى نشيداً مقدساً θρίαμβος (٢)

وفى روما يكاد الاحتفال أن يكون صورة من ذلك . كان يتوجه الجيش فى موكب إلى معبد البلدة الرئيسى ؛ ويسير الكهنة على رأس الموكب وهم يقودون الضحايا . وعندما يصل القائد إلى المعبد يضحى للآلهة بالأضحية . وفى أثناء الطريق ، يحمل كل جندى تاجاً كما يليق باحتفال مقدس وينشدون نشيداً كما فى بلاد الإغريق . حقاً لقد جاء زمن لم يتعفف فيه الجند عن أن يستبدلوا بالنشيد أغانى المعسكر أو عبارات التندر على قائدهم ، لكنهم حافظوا على الأقل على عادة تكرار النداء القديم *Io triumphe* بين وقت وآخر (٣) . وهذا النداء المقدس هو الذى خلع اسمه على الاحتفال .

وهكذا كانت الديانة تتدخل فى جميع الأعمال فى زمن السلم وفى زمن الحرب . كانت حاضرة على الدوام ، محيطة بالانسان . فكان كل شىء تحت سيطرة ديانة المدينة : الروح ، والجسد ، الحياة الخاصة ، والحياة العامة ، الأكلات ، والأعياد ، والمجامع ، والمحاكم ، والقتال . كانت تنظم كل أعمال

---

(١) أيسخيلوس : الرؤساء السبعة ٢٥٢-٢٦٠ . . أوريبيديس : الفينيقيات ٥٧٣

(٢) ديودوروس ٤ : ٥ . فوتيوس *Θρίαμβος ἐπίδειξις νίκης, πομπή*

(٣) Tite-Live, XLV, 39: *Diis quoque, non solum hominibus, debetur triumphus. . . consul proficiscens ad bellum vota in Capitolio nuncupat; victor, perpetrato bello, in Capitolio triumphans ad eosdem deos, quibus vota nuncupavit, merita dona populi romani traducit.*

تيتوس ليفيوس ٥ : ٢٣ ؛ ١٠ : ٧ . فارون : اللسان اللاتينى ٦ : ٦٨ . بلينيوس : التاريخ الطبيعى ٧ : ٥٦ ؛ ٣٣ : ٧ : ٣٦ .

الإنسانوتتصرف فى جميع لحظات حياته ، وتعين كل عاداته . كانت تحكم الـكائن البشرى بسلطان مطلق بلغ من أمره أنه لم يبق أى شىء خارجاً عنها .

وإنها لفكرة زائفة جداً عن الطبيعة البشرية أن نعتقد أن ديانة الأقدمين هذه كانت دجلا وإلى حد ما مهزلة تمثيلية .يزعم منتسكيو (Montesquiu) أن الرومان لم يتخذوا عبادة إلا ليكبحوا جماح الشعب . لـكن ما من دين كان ذلك أصله إطلاقاً ، وكل ديانة انتهى بها الأمر إلى الاستناد إلى سبب المنفعة العامة دون سواه لم يدم استنادها هذا زمناً طويلا ، ويقول منتسكيو أيضاً إن الرومان كانوا يخضعون الديانة للدولة ؛ والعكس هو الصحيح . إنه من المحال أن يقرأ الإنسان بضع صفحات من تيتوس ليڤيوس دون أن تثير دهشته التبعية المطلقة التى كان فيها الناس حيال آلهتهم . لم يعرف الرومان ولا الإغريق هذه المنازعات المحزنة بين الـكنيسة والدولة ، وهى التى بلغت تلك الدرجة من الشيوع فى مجتمعات أخرى . وما مرجع ذلك إلا أن الدولة فى روما كانت خاضعة للديانة ، وكذلك كانت اسپرطه وأثينا . ولم يكن السبب فى ذلك أنه كانت هناك فى أى وقت من الأوقات هيئة من الـكهنة فرضت سلطانها عنوة . فإن الدولة القديمة لم تخضع لـكهنوت قط ، بل كانت خاضعة لديانتها هى ذاتها . فكانت هذه الدولة وهذه الديانة مختلطتين اختلاطاً تاماً بحيث لم يكن التفكير فى نزاع بينهما هو وحده المستحيل ، بل كان التمييز بينهما مستحيلا أيضاً .

الفصل الثامن

الشعائر والحوليات

لم يكن من مميزات ديانة القدماء ولا من فضائلها أن ترفع الذكاء البشرى إلى إدراك المطلق، ولا أن تفتح للفكر النهم طريقاً ساطعاً يعتقد أنه يلمح الله فى نهايته . بل كانت هذه الديانة مجموعة سيئة الارتباط من العقائد الصغيرة والسنن الضئيلة والشعائر الدقيقة . لم يكن هناك داع للبحث عن معناها ، ولم يكن هناك مجال للتفكير ولا للاستبانة . لم يكن للفظ الديانة (religion) (١) المعنى الذى يعنيه لنا الآن . فإنا نقصد بهذه الكلمة مجموعة من التعاليم ، ومذهباً عن الله ، ورمزاً عن الإيمان بالأسرار التى فينا وحولنا . وكانت نفس هذه الكلمة تعنى عند القدماء شعائر واحتفالات والأعمال الظاهرية للعبادة . لم يكن المذهب إلا شيئاً ضئيلا ، أما المهم فهى العادات، وهى التى كانت الزامية. كانت الديانة رباطاً مادياً ، وغِلاًّ يُستعبد به الإنسان ؛ صنعه الإنسان لنفسه لكنه كان يحكم الإنسان. كان يخشاه فلا يجرؤ أن يجادله أو يناقشه أو يواجهه. كانت هناك آلهة وأبطال وأموات يطالبونه بعبادة مادية، وكان يسدد لهم دينهم ليجعل منهم أصدقاء بل أكثر من هذا لكيلا يتخذ منهم أعداء .

أما صداقتهم فلم يكن الانسان يعتمد عليها إلا قليلا. فقد كانت آلهة حاسدة. سريعة الغضب ، لا مودة عندها ولا عطف، يطيب لها أن تحارب الإنسان (٢). لم تكن الآلهة تحب الإنسان ، ولم يكن الإنسان يحب آلهته . كان يؤمن

---

(١) معنى الكلمة فى أصلها اللاتينى الرباط ، الميثاق — المعرب .

(٢) Plutarque, *De defectu oraculor*, 14: *Ἃ δρῶσιν ἄνθρωποι μηνίματα δαιμόνων, ἀφοσιούμενοι καὶ πρϋνοντες οὓς ἀλάστορας καὶ παλαμναίους ὀνομάζουσι.*

بوجودها لكنه كان يتمنى أحياناً لو لم توجد . حتى آلهته المنزلية أو القومية كان وجلا منها ، يخاف أن تغدر به ؛ وكان أكبر مخاوفه أن يحيق به غضب هذه الكائنات الخفية . فكان شغله طوال حياته أن يهدىء ثائرتها كما يقول الشاعر *paces deorum quaerere* . لكن ماهى الوسيلة لإرضائها؟وعلى الأخص ما هى الوسيلة التى بها يثق الإنسان أنه أرضاهم وأنهم قد أصبحوا فى صفه ؟ اعتقدوا أنهم وجدوها فى استعمال صيغ معينة . فالصلاة الفلانية المركبة من من الألفاظ الفلانية قد أعقبها النجاح المطلوب فلا ريب فى أن مرجع ذلك أن الإله قد استمع لها ، وأنه كان لها أثر فيه ، وأنها كانت قوية ، أقوى منه ما دام لا يستطيع أن يقاومها . فحافظوا إذن على عبارات هذا الدعاء الخفية المقدسة . وبعد الأب ، كررها الابن . وبمجرد ما عرفوا الكتابة قيدوها كتابة . فكان لكل أسرة ، وعلى الأقل لكل أسرة دينية ، كتاب كانت تحفظ فيه الصيغ التى استعملها الأسلاف والتى تراجعت الآلهة أمامها . فكان ذلك سلاحاً استخدمه الانسان ضد تقلب آلهته . لكن كان من المحتم ألا يتغير منه لفظ ولا مقطع وألا تتغير ، على الأخص ، النغمة التى كان يجب ترتيله عليها . إذ لو حدث شىء من ذلك لفقد الدعاء قوته وبقيت الآلهة أحراراً (١) .

لكن الصيغة لم تكن كافية . بل كانت هناك أيضاً أعمال خارجة دقيقة التفاصيل وغير قابلة للتبديل فيها . فكان لأقل حركة من حركات المضحىِّ وأقل جزء من أجزاء ملبسه نظام معين . فعند التوجه لإله معين كان يتحتم أن تكون الرأس مقنعة ،

---

(١) عن الأناشيد القديمة التى استمر الاغريق على ترتيلها فى الاحتفالات انظر بوسانياس ١ : ١٨ ؛ ٧ : ١٥ فى نهايتها؛ ٧ : ٢١ ؛ ٩ : ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ . يلاحظ سيسرون (القوانين ٢ : ١٥) أن البلدان الاغريقية كانت متنبهة إلى المحافظة على النغم القديم *antiquum vocum servare modum* . ويسير أفلاطون (القوانين ٧ ص ٧٩٩ - ٨٠٠) على نهج القواعد القديمة عند ماينص على أن الأغانى والنغم تبقى بلا تبديل - وعند الروسان كانت كتب الشعائر تحدد صيغ الأدعية . أنظر فارون : اللسان اللاتينى ، وكاتون فى مواضع متفرقة .

Quintilien, I, 11: *Saliorum carmina, vix sacerdotibus suis intellecta, mutari vetat religio et consecratis utendum est.*

ولإله آخر أن تكون الرأس عارية ، ولثالث أن يرفع شقة الدثار (toge) على الكتف . وفى بعض الأعمال يتحتم أن تكون القدمان حافيتين . وكانت هناك أدعية لامفعول لها إلا إذا دار الإنسان بعد تلاوتها حول نفسه من الشمال إلى اليمين . وجنس الضحية ، ولون شعرها ، وطريقة نحرها ، وشكل المدية ، ونوع الخشب الذى كان لابد من استعماله لشى اللحوم ، كل ذلك كانت تنظمه ديانة كل أسرة وكل مدينة لكل إله ، وعبثاً كان أشد القلوب حماسة يقدم للآلهة أسمن الأضاحى ، فإنه إذا ما أهمل شعيرة واحدة من شعائر التضحية التى لا حصر لها تصبح التضحية باطلة . إن أقل نقص كان يجعل من العمل المقدس عملا دنساً . وكان أهون تغيير يثير الاضطراب والتشويش فى ديانة الوطن ويحول الآلهة الحماة إلى أعداد الداء بقدر ما كانوا حماة . ولهذا كانت أثينا قاسية على الكاهن الذى يغير شيئاً ما فى الشعائر القديمة (١) . ولهذا كان مجلس شيوخ روما يعزل القناصل والدكتاتورين الذين يرتكبون خطأ ما فى التضحية .

كل هذه الصيغ والسنن خلفها الأسلاف الذين جربوا مفعولها . لم يكن هناك مجال للتجديد بل كان يجب الاعتماد على ما فعله الأسلاف ، وكانت أعلا مراتب التقوى أن يعملوا كما كانوا يعملون ، لم يكن يهم إلا قليلا أن تتغير العقيدة . فكانت تستطيع أن تتغير بحرية خلال العصور وأن تتخذ ألف شكل مختلف على هوى تفكير الحكماء أو خيال الشعب . لكن كان من الأهمية العظمى ألا تهوى الصيغ فى النسيان وألا تتبدل الشعائر . لذلك كان لكل مدينة كتاب يحفظ فيه كل ذلك .

كان استعمال الكتب المقدسة عاماً لدى الإغريق ولدى الرومان ولدى

---

(١) ديموسثينيس : ضد نيأيرا ١١٦، ١١٧ . اقتبس فارون بضعة ألفاظ من كتب الأقداس (*libri sacrorum*) التى كانت محفوظة فى أثينا والتى كانت لغتها عتيقة . (اللسان اللاتينى ٥ : ٩٧) . — عن احترام الاغريق للشعائر القديمة أنظر بضعة أمثلة غريبة فى بلوتارخوس (مسائل إغريقية ٢٦ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٨) . وقد أحسن إيسوقراط (*Aréopagitique*, 20-30) التعبير عن الفكرة القديمة وفى كل مرافعته ضد نيأيرا .

الأتروسك (١) . وفى بعض الأحيان كانت الشعائر مكتوبة على لوحات من الخشب ؛ وفى بعض الأحيان على القماش ؛ كانت أثينا تحفر شعائرها على ألواح من النحاس أو على لوحات من الحجر كيلا تزول (٢) . وكان لروما كتب أحبارها ، وكتب مستخيريها . وكتب احتفالاتها ، ومجموعة دعواتها (*Indigitamenta*) . وما من بلدة إلا وكان لها كذلك مجموعة من الأناشيد القديمة فى تمجيد آلهتها (٣) . وعبثاً كانت تتغير اللغة متمشية مع الأخلاق والعقائد ؛ فقد كانت العبارات والنغم تبقى بلا تبديل وكانوا يدأبون على ترتيل هذه الأناشيد فى الأعياد دون أن يفهموها .

هذه الكتب وهذه الأناشيد كتبها الكهنة وحافظوا عليها بعناية كبيرة جداً . فلم يكونوا يطلعون الأجانب عليها أبداً . ومن كشف عن إحدى الشعائر والصيغ فقد خان ديانة المدينة وسلم آلهتها للأعداء . ولزيادة الحيطة كانوا يخفونها حتى عن المواطنين ولم يكن يستطيع العلم بها إلا الكهنة دون سواهم .

فى ذهن هذه الشعوب، كان كل قديم محترماً ومقدساً . فإذا أراد الرومانى أن يقول إن شيئاً ما عزيز عليه كان يقول هذا عتيق بالنسبة إلىّ . وكان عند الإغريق تعبير مماثل (٤) . كانت البلدان شديدة التمسك بماضيها إذ أنها كانت تجد فى

---

(١) بوسانياس ٤ : ٢٧ ، بلوتارخوس : الرد على كولوتيس (*Colotès*) ١٧ . بلينيوس : التاريخ الطبيعى ١٣ : ٢١ . فالريوس ماكسيموس ١ : ١ : ٣ . فارون : اللسان اللاتينى ٦ : ١٦ . كنسورينوس (*Censorinus*) ١٧ . فستوس تحت كلمة *Rituales*.

(٢) *δέλτοι χαλκαῖ, αἷς ἦσαν πάλαι ἐντετυπωμένοι οἱ νόμοι οἱ περὶ τῶν ἱερῶν καὶ τῶν πατρίων.* Pollux, VIII, 128: نعرف أن من أقدم معانى كلمة *νόμος* معنى شعيرة أوقاعدة دينية. Lysias, *in Nicomachum*, 17: *χρὴ θύειν τὰς θυσίας τὰς ἐκ τῶν κυρβέων καὶ τῶν στηλῶν κατὰ τὰς ἀναγραφάς.*

(٣) اقتبس أثينايوس (١٤ : ٦٨) أناشيد أثينا القديمة ؛ وإيليانوس (Elien) (٢ : ٣٩) أناشيد الإقريطشيين ؛ وبنداروس البيثيات ٥ : ١٣٤) أناشيد قرينه ؛ وبلوتارخوس (ثيسيوس ١٦) أناشيد البوتيين (Bottiéens) وتاسيتوس (حوليات ٤ : ٤٣) أناشيد المتكهنين *Vatum carmina* التى حافظ عليها الإسبرطيون والمسينيون .

(٤) *πάτριόν ἐστιν ἡμῖν.* كثيرا ما تتردد هذه الكلمات عند ثوقيديديس وعند الخطباء الأثينيين .

الماضى كل بواعث ديانتها كما كانت تجد كل قواعدها . كانوا فى حاجة للادكار إذ أن كل عبادتهم كانت ترتكز على ذكريات وآثارات . لذلك كان التاريخ أكثر أهمية للقدماء منه لنا . فقد وجد قبل هيرودوت وثوقيديديس وأمثالهما بدهر طويل ؛ وسواء كان مكتوباً أو غير مكتوب ، مجرد آثارة أو كتاب ، فإنه معاصر لنشأة المدن . ما من بلدة مهما كانت صغيرة أو كبيرة إلا وضعت أكبر اهتمامها فى الاحتفاظ بذكرى ما مر فيها . ولم يكن ذلك من الزهو بل من الديانة . لم تكن بلدة ما تعتقد أن لها الحق فى نسيان شىء ما ؛ إذ كل شىء فى تاريخها مرتبط بعبادتها .

والواقع أن التاريخ كان يبدأ بعملية التأسيس ويخبر عن اسم المؤسس المقدس ويستمر بأسطورة آلهة المدينة والأبطال الحماة . كان يعلّم تاريخ كل عبادة وأصلها والعلة فى وجودها ويفسر شعائرها الغامضة . كانوا يدونون فيه العجائب التى عملتها آلهة البلاد والتى بها أعلنت قوتها وطيبتها وغضبها . وكانوا يصفون فيه الاحتفالات التى بها أبعد الكهنة بمهارة نذيراً بالشر أو هدؤوا سخيمة الآلهة . ويضعون فيه أى الأوبئة نزلت بالمدينة وبأية صيغة مقدسة عالجوها ، وفى أى يوم قُدّس معبد ما ولأية علة أنشىء قربان ما أو عيد ما . وكانوا يدونون فيه كل الحوادث التى يمكن أن تنتسب إلى الدين ، والانتصارات التى تدل على مساعدة الآلهة والتى كثيراً ما رأوا الآلهة تحارب فيها ، والهزائم التى تدل على غضبها والتى من أجلها كان يتحتم إنشاء قربان للتكفير . كل ذلك كان مكتوباً لتعليم الذرية ولتقواها . كل هذا التاريخ كان الدليل المادى على وجود الآلهة القوميين . إن الحوادث التى يحويها لهى الشكل الظاهر الذى تجلت فيه الآلهة من عصر إلى عصر . بل إن بين هذه الوقائع عدداً كبيراً نتجت عنه أعياد تذكارية ، أى قرابين وأعياد وألعاب مقدسة . كان تاريخ المدينة يخبر المواطن بكل ما يجب أن يؤمن به وكل ما يجب أن يعبده .

لذلك كان الكهنة هم الذين يكتبون هذا التاريخ . فكانت لروما حوليات أحبارها ، وكان للكهنة السابينيين ، والكهنة السامنيين ، والكهنة الأتروسك ،

مثيلاتها (١) . وعند الإغريق بقيت لنا ذكرى كتب أثينا واسپرطه ودلفوى وناكسوس وتارنت أو حولياتها المقدسة (٢) . عند ما جاب پوسانياس بلاد الإغريق فى عهد هادريانوس روى له كهنة كل بلدة التواريخ المحلية القديمة ؛ أنهم لم يخترعوها بل تعلموها فى حولياتهم .

كان هذا النوع من التاريخ محلياً محضاً . كان يبدأ بالتأسيس لأن ما هو سابق على هذا التاريخ لم يكن يهم المدينة فى شىء ما ، ولهذا كان الأقدمون على جهل تام بأصول جنسهم . ولم ينقل كذلك إلا الحوادث التى وجدت المدينة نفسها مقحمة فيها ، ولم يكن يهم ببقية العالم . كان لـكل مدينة تاريخها الخاص كما كانت لها دياناتها وتقويمها

ويمكن الاعتقاد بأن حوليات البلدان هذه كانت جافة جداً . فإنها لم تكن عملا فنياً بل كانت عملا دينياً . ثم فيما بعد جاء الـكـتّاب : القصصيون أمثال هيرودوت ، والمفكرون أمثال ثوقيديديس . عندئذ خرج التاريخ من أيدى الـكهنة وتبدلت طبيعته . ومن سوء الحظ أن هذه المؤلفات الجميلة الرائعة لا تزال تتركنا نأسف على المحفوظات القديمة للبلدان وكل ما كانت تعلمه لنا عن عقائد القدماء وحياتهم الداخلية . ولقد هلـكت هذه الوثائق التى لا تقدر بقيمة والتى يبدو

---

(١) ديونيسيوس ٢ : ٤٩ : تيتوس ليفيوس ١٠ :٣٣ . سيسرون : التكهن ٢ : ٤١ ؛ ١ : ٣٣ ؛ ٢ :٢٣ . كنسورينوس ١٢ :١٧ . سويتونيوس : كلوديوس ٤٢ . ماكروبوس ١ : ١٢ ؛ ٥ : ١٩ . سولينوس (Solin) ٢ : ٩ . سرفيوس ٧: ٦٧٨ ؛ ٨ : ٣٩٨ . رسائل ماركوس أوريليوس ٤ : ٤ .

(٢) حوليات اسبرطه القديمة *ὧροι, παλαιόται, ἀναγραφαί* ذكرها بلوتارخوس (الرد على كولوتيس (Colotès) IV ، وأثينايوس ١١ :٤٩ ؛ وتاسيتوس : حوليات ٤ : ٤٣ . وتكلم بلوتارخوس (صولون : ١١) عن حوليات دلفوى . حتى المسينيين كانت لهم حوليات و *monumenta sculpta aere prisco* ترجع كما كانوا يقولون إلى الغزو الدورى (تاسيتوس ، نفس المرجع) .

Denys d'Halic., *De Thucyd. hist.*, éd. Reiske, t. VI, p. 819:
῞Οσαι διεσώζοντο παρὰ τοῖς ἐπιχωρίοις μνῆμαι κατὰ ἔθνη καὶ κατὰ πόλεις εἴτ᾽ ἐν ἱεροῖς εἴτ᾽ ἐν βεβήλοις ἀπκείμεναι γραφαί.
ويشير بوليبوس أيضاً (١٢ : ١٠) إلى *δημοσίαι τῶν πόλεων αναγραφαί*

أنها كانت محفوظة طى الأسرار ولم تكن تخرج من المعابد . هذه الوثائق التى لم تكن تنسخ منها صور ، والتى لم يكن يقرؤها غير الكهنة ، هلكت جميعاً ولم يبق لنا منها غير ذكرى خافتة .

حقاً إن لهذه الذكرى قيمة عظيمة بالنسبة لنا . وبدونها ربما كان يحق لنا أن نرفض كل ما ترويه بلاد الإغريق وروما عن تاريخها القديم . فإن جميع هذه الروايات ، التى تبدو لنا ضئيلة الشبه بالحق بدرجة كبيرة لابتعادها عن عاداتنا وطرق تفكيرنا وفعلنا ، كان يمكن اعتبارها من نتاج خيال البشر . لكن هذه الذكرى التى بقيت لنا من الحوليات القديمة ترينا على الأقل الاحترام الخاشع لدى القدماء لتاريخهم . نعلم أن الحوادث كانت تودع فى هذه المحفوظات ، كلما حدث شىء منها ، بعناية تخشى الإثم . فى هذه الكتب المقدسة كانت كل صحيفة معاصرة للحادث الذى ترويه . وكان تغيير هذه الوثائق مستحيلا استحالة مادية ، إذ أن الكهنة كانوا حفظة عليها وكان للديانة مصلحة عظيمة فى بقائها من غير تبديل . بل إنه لم يكن يسهل على الحبر ، أثناء كتابته للسطور ، أن يدرج عن قصد وقائع مخالفة للحقيقة . كانوا يعتقدون أن كل حادث آت من الآلهة ويكشف عن إرادتهم ويمد الأجيال القادمة بذكريات ورعة بل بأعمال مقدسة ؛ كل حادث يقع فى المدينة يصبح على الفور جزءاً من ديانة المستقبل . مع مثل هذه العقائد يدرك الإنسان جيداً أنه كانت هناك أغلاط كثيرة غير مقصودة ناتجة عن الميل إلى التصديق وإيثار العجائب والإيمان بقدرة الآلهة القوميين . لكن الكذب المقصود لا يمكن تصوره ؛ إذ أنه كان يكون إثماً وكان فيه اعتداء على قداسة الحوليات وتبديل للديانة . من ذلك نستطيع أن نعتقد أنه إذا لم يكن كل شىء فى هذه الكتب القديمة صحيحاً فإنه لم يكن فيها على الأقل شىء لا يعتقد الكاهن أنه صحيح . وإنه لسبب قوى للثقة فى نظر المؤرخ الذى يسعى إلى اختراق ظلمات تلك العصور القديمة أن يعلم أنه إذا كانت أمامه أغلاط فإنه ليس أمامه دجل . بل إن هذه الأغلاط ذاتها تستطيع بما لها من ميزة المعاصرة للأحقاب القديمة التى يدرسها أن تكشف له على الأقل عن عقائد الناس الخالصة إن لم تكشف عن تفاصيل الحوادث .

وكانت هناك أيضاً بجوار الحوليات ، هذه الوثائق المكتوبة الصحيحة ، أثارة شفوية مخلدة بين شعب المدينة . وهى ليست أثارة مبهمة سلبية كأثاراتنا ، بل أثارة عزيزة على البلدان ولاتتغير طبقاً لهوى الخيال ؛ ولم يكونوا أحراراً فى تبديلها إذ أنها كانت جزءاً من العبادة وكانت تتكون من روايات وأغانٍ تتكرر من عام إلى عام فى أعياد الديانة . هذه الأناشيد المقدسة غير القابلة للتبديل كانت تثبت الذكريات وتحيى الأثارة على الدوام .

لا ريب أنه لا يمكن الاعتقاد بأن هذه الأثارة كانت فى دقة الحوليات . بل كان من الجائز أن تكون الرغبة فى مدح الآلهة أقوى من حب الحقيقة . بيد أنه كان يجب أن تكون على الأقل ظلا للحوليات وأن تكون فى العادة على وفاق معها . إذ أن الكهنة الذين كانوا يحررون هذه الحوليات ويقرؤونها كانوا هم بذاتهم الذين يرأسون الأعياد التى كانت ترتل فيها هذه القصص القديمة

هذا وقد جاء زمن أبيحت فيه هذه الحوليات ؛ فانتهت روما بأن نشرت حولياتها ؛ وعرفت حوليات البلدان الإيطالية الأخرى . ولم يتعفف كهنة البلدان الإغريقية عن رواية ماكانت تحويه حولياتهم (١) فدرست هذه الآثار العتيقة وأجيل النظر فيها . وتكونت مدرسة من المطلعين من ڤارون (Varron) وڤريوس فلاكوس (Verrius Flaccus) ألى أولوس جيليوس (Aulu-Gelle) وماكروبوس (Macrobe) . فسطع الضوء على التاريخ القديم بأجمعه . وصححوا

---

(١) Cicéro, *De oratore*, II, 12: *Res omnes singulorum annorum mandabat litteris pontifex et proponebat domi ut potestas esset populo cognoscendi.*

(انظر سرفيوس *Ad Aen.* ١ : ٣٧٣ . أعلن ديونيسيوس أنه يعرف كتب روما المقدسة وحولياتها الخفية (١١ : ٦٢) . — وكان فى بلاد الاغريق منذ عهد قديم بعض القدم كتّاب (logographes) رجعوا إلى حوليات البلدان المقدسة ونسخوها ؛ انظر Denys, *De Thucyd. histor.*, c. 5, éd. Reiske, p. 819.

بضع أغلاط كانت قد تسربت إلى الأثارة ورددها مؤرخو الفترة السابقة فعرف مثلا أن پورسنا(Porsenna) كان قد استولى على روما وأن الذهب قد دُفع للغاليين . لقد بدأ عصر النقد التاريخى . وجدير بالملاحظة أن هذا النقد الذى كان يصعد إلى المصادر ويدرس الحوليات لم يجد فيها شيئاً يخوله الحق فى رفض المجموع التاريخى الذى أنشأه هيرودوت وتيتوس ليڤيوس .

الفصل التاسع

حكومة المدينة . الملك

١ — سلطة الملك الدينية

يجب ألا نتصور مدينة تتشاور عند نشأتها فى الحكومة التى ستعطيها لنفسها وتبحث وتناقش فى قوانينها وتلائم بين أنظمتها. إن القوانين لم توجد والحكومات لم تقم بهذه الطريقة . فقد ولدت أنظمة المدينة السياسية مع المدينة ذاتها ، وفى نفس اليوم الذى ولدت فيه ؛ وكل عضو فى المدينة كان يحملها فى ذاته ؛ إذ أنها كانت بذرة كامنة فى معتقدات كل رجل وفى ديانته .

كانت تنص الديانة على أن يكون للموقد كاهن أعلى دائماً . ولم تكن تسمح باقتسام السلطة الكهنوتية . فكان للموقد المنزلى كاهن أكبر هو أب الأسرة . وكان لموقد الندوة كاهن هو الكوريون أو رئيس الأخوية (فراتريارخوس) ؛ وكذلك كان لكل قبيلة رئيسها الدينى الذى كان يسميه الأثينيون ملك القبيلة ؛ فكان من المحتم أن يكون للمدينة حبرها أيضاً .

وكان سادن الموقد العام هذا يتسمى بالملك . وفى بعض الأحيان كانوا يعطونه ألقاباً أخرى . ولما كان سادناً لبيت النار قبل كل شىء فقد كان الإغريق يميلون إلى تسميته سادن بيت النار (Prytane). وفى بعض الأحيان كانوا يسمونه الأرخون (archonte) أيضاً. ويجب أن نرى تحت هذه الأسماء المختلفة ، ملك ، سادن بيت النار ، أرخون ، شخصاً هو على الأخص رئيس العبادة . كان يشرف على الموقد ويقدم القربان ويتلو الدعاء ويرأس الأكلات الدينية .

من الواضح أن ملوك إيطاليا وبلاد الإغريق القدماء كانوا كهنة بقدر ما كانوا ملوكاً ، نقرأ فى ارسطو «ليست العناية بالقرابين العامة للمدينة تابعة

لكهنة مخصوصين بل لأولئك الرجال الذين يتلقون وظيفتهم من الموقد والذين يسمونهم هنا ملوكاً وهناك سدنة بيوت النار (پريتان) وفى مكان آخر أراخنة وذلك طبقاً للعادة الدينية» (١) .. هكذا يتكلم أرسطو وهو الرجل الذى عرف أنظمة المدن الإغريقية أحسن من سواه. تدل هذه الفقرة البالغة فى الدقة ، أولا على أن الألفاظ الثلاثة ، ملك ، سادن بيت النار ، أرخون ، ظلت زمناً طويلا مترادفة ؛ وقد بلغ ذلك من الصحة أن مؤرخاً ، هو خارون اللامپساكى (Charon de Lympsaque) ، كتب كتاباً عن ملوك لاقيديمون وعنوانه : أراخنة اللاقيديمونيين وسدنة بيت نارهم .» (٢) كما تدل على أن ذلك الشخص ، الذى كان يسمى بأحد هذه الأسماء على السواء، وربما بالثلاثة جميعاً فى آن واحد ، كان كاهن المدينة وأن عبادة الموقد العام كانت مصدر وظيفته وسلطانه .

هذه الصفة الكهنوتية فى المملكية الأولى بينها الكتاب القدماء بجلاء. فى أيسخيلوس توجه بنات داناوس (Danaüs) الخطاب إلى ملك أرغوس بهذه العبارات : أنت السادن الأعلى لبيت النار وأنت الذى تسهر على موقد هذا الإقليم» (٣) . وفى أوريپيديس يقول أورستيس قاتل أمه لمنيلاوس (Ménelas) «إنه من العدل وأنا ابن أغاممنون أن أملك فى أرغوس » ؛ ويجيبه منيلاوس «وهل أنت، أيها القاتل، فى حال تسمح لك أن تمس أوانى ماء النثار لأجل القرابين؟ هل أنت فى حال تخولك ذبح الأضاحى؟» ؛ (٤) وإذن فقد كانت وظيفة الملك.

---

(١) أرسطو : السياسة ٦:٥:١١ (ديدو ص ٦٠٠).— Denys d'Halic., II, 65:
Τὰ καλούμενα πρυτανεῖα ἐστὶν ἱερὰ καὶ θεραπεύεται πρὸς τῶν ἐχόντων τὸ μέγιστον ἐν ταῖς πόλεσι κράτος.

(٢) . . . . Suidas, V° *Χάρων*.

(٣) أيسخيلوس : المتضرعات ٣٦٩ (٣٥٧) . نعرف أية صلة وثيقة كانت عند القدماء بين المسرح والديانة . فكان التمثيل المسرحى احتفالا من احتفالات العبادة وكان على شاعر المآسى على العموم أن ينشر أحدى أساطير المدينة المقدسة . ومن هنا أتى أننا نجد فى شعر المآسى هذا العدد من الأثارات القديمة بل من صيغ اللغة القديمة .

(٤) أوريبيديس : أوريستيس ١٥٩٤ - ١٥٩٧ .

الأولى هى القيام بالاحتفالات الدينية. ولقد خلع ملك قديم من ملوك سيقيون (Sicyone) لأن يده قد لوثها القتل فلم يعد فى حالة تمكنه من تقديم القرابين (١). وما دام لم يعد يستطيع أن يكون كاهناً فإنه لم يكن يستطيع أن يكون ملكاً.

يرينا هوميروس وفرجيليوس الملوك مشغولين على الدوام بالاحتفالات المقدسة؛ ونعرف من ديموستينيس أن ملوك أتيكا القدماء كانوا يقومون بأنفسهم بجميع القرابين التى تنص عليها ديانة المدينة، ومن إكسينوفون أن ملوك إسپرطه كانوا هم رؤساء الديانة اللاقيديمونية (٢). وكان اللوكومون (lucumons) الأتروسك رجال دولة ورؤساء حربيين وأحباراً فى آن واحد (٣).

ولم يكن الأمر على غير ذلك فيما يختص بملوك روما، إذ تصورهم الأثارة كهنة دائما. وأولهم رومولوس الذى كان «مثقفاً فى علم الاستخارة» (٤) والذى أسس المدينة حسب الشعائر الدينية. والثانى نوما (Numa) ويقول عنه تيتوس ليفيوس أنه «كان يقوم بأغلب الوظائف الكهنوتية؛ لكنه تنبأ بأنه سيكون على خلفائه أن يعانوا الحروب فى أغلب الأوقات ولن يستطيعوا أن يتفرغوا لمشاكل القرابين دائماً؛ فأنشأ الفلامين (flamines) (٥) لكى يقوموا مقام الملوك عندما يتغيب هؤلاء عن روما». وبهذا لم يكن الكهنوت الرومانى إلا نوعاً من الاشتقاق من الملكية الأولى (٦).

---

(١) نيقولا الدمشقى فى *Fragm. hist. graec., t. III, p. 394*

(٢) ديموستينيس: ضد نيأيرا ٧٤ - ٨١. اكسينوفون: جمهورية اللاقيديمونيين ١٣ - ١٤. هيرودوت ٦: ٥٧. أرسطو: السياسة ٣: ٩: ٢

Τὰ πρὸς τοὺς θεοὺς ἀποδέδοται βασιλεῦσι

(٣) فرجيليوس ١٠: ١٧٥. تيتوس ليفيوس ٥: ١. كينسورينوس ٤

(٤) سيسرون: طبيعة الآلهة ٣: ٢؛ الجمهورية ٢: ١٠؛ التكهن ١: ١٧؛ ٢: ٣٨. انظر أبيات إنيوس (Ennius) فى سيسرون (التكهن ١: ٤٨). - لم يكن القدماء يمثلون روسولوس مرتدياً رداء الحرب بل رداء الكاهن وبيده عصا المستخير ويرتدى الدثار الكهنوتى *lituo pulcher trabeaque Quirinus* (أوفيديوس: الأعياد ٦: ٣٧٥؛ وبلينيوس: التاريخ الطبيعى ٩: ٣٩: ١٣٦).

(٥) الفلامين، باللاتينية *flamen*، ومعناه الحرفى النافخ فى النار أو الملهم. وكان لكل إله فلامين وأكبرهم فلامين جوبيتر: — المعرب.

(٦) تيتوس ليفيوس ١: ٢٠. سرفيوس *Ad Aen.* ٣: ٢٦٨: *Majorum haec erat consuetudo ut rex esset etiam sacerdos et pontifex.*

كان هؤلاء الملوك الـكهنة ينصّبون بمراسم دينية . كان يقاد الملك الجديد على قمة أكمة الـكابيتولينوس ويجلس على مقعد من الحجر مولياً وجهه نحو الجنوب . وعلى شماله يجلس أحد المستخيرين وقد غطى رأسه بلفائف مقدسة وأمسك بيده عصا الاستخارة (١) فيرسم فى اتجاه السماء بعض الخطوط ويتلو دعاء ويضع يده على رأس الملك ويتوسل للآلهة أن تبين بآية مرئية أن هذا الرئيس مرضى عنه منهم . ثم بمجرد ما تتضح موافقة الآلهة من البرق أو من طيران الطيور يستحوز الملك الجديد على منصبه . وصف تيتوس ليفيوس هذا الاحتفال عند تنصيب نوما ، ويؤكد ديونيسيوس أنه كان يحدث لجميع الملوك ، وبعد الملوك للقناصل ؛ ويضيف أنه كان لايزال مستعملا فى زمانه (٢). مثل هذه العادة كان لها ما يبررها . إذ أن الملك سيصبح الرئيس الأعلى للديانة ، وعلى أدعيته وقرابينه ستتوقف سلامة المدينة ، ولذلك كان لهم الحق فى التأكد أولا من أن هذا الملك مقبول من الآلهة .

لم يطلعنا القدماء على الطريقة التى كان ينصب بها ملوك إسبرطه فى وظائفهم لـكنهم يخبرونا على الأقل أن حفلة دينية كانت تقام عندئذ (٣) . بل إننا نعرف من عادات قديمة دامت حتى نهاية تاريخ إسبرطه أن المدينة أرادت أن تستوثق من أن ملوكها كانت ترضى عنهم الآلهة . ولذلك كانت تسأل الآلهة أنفسهم طالبة أليهم « آية *σημεῖον* » وإليك ما كانت عليه هذه الآية كما نقلها بلوتارخوس : «كل تسع سنوات يختار الإيفورات (Ephores) ليلة صافية جداً لـكن لا قمر فيها ويجلسون صامتين وعيونهم شاخصة نحو السماء . فإذا ما رأوا نجماً يقطع السماء من أحد جانبيها إلى الآخر دلهم ذلك على أن ملوكهم اقترفوا

---

(١) عصا الاستخارة ، باللاتينية *lituus* ، عصا معقوفة من احد طرفيها يمسكها المستخير ويشير بها نحو السماء بطريقة خاصة . وهناك أيضاً الدثار الـكهنوتى *trabea* وهو دثار أبيض به خطوط حمراء كان يلبسه الملوك والفرسان والمستخيرون والقناصل -المعرب

(٢) تيتوس ليفيوس ١ : ١٨ . ديونيسيوس ٢ : ٦ ؛ ٤ : ٨٠ . - من هنا جاء أن بلوتارخوس ، وهو يلخص خطاباً لطبريوس غراقخوس (بلوتارخوس: طيبريوس ١٥)، نسب إليه أنه قال

Ἡ γε βασιλεία ταῖς μεγίσταις ἱερουργίαις καθωσίωται πρὸς τὸ θεῖον

(٣) ثوقيديديس ٥ : ١٦ فى نهايتها .

خطيئة ما نحو الإله ؛ وعندئذ يوقفونهم عن الملك إلى أن يأتى وحى من دلفوى يرفعهم من سقطتهم .» (١) .

٢ — سلطة الملك السياسية

حيث أن السلطة فى الأسرة ملازمة للكهنوت وأن الوالد باعتباره رئيساً للعبادة المنزلية كان فى نفس الوقت قاضياً وسيداً ، كذلك كان كاهن المدينة الأكبر هو أيضاً الرئيس السياسى . فالمذبح هو الذى يمنحه الوظيفة ، حسب تعبير أرسطو (٢) . وليس فى هذا الخلط بين الكهنوت والسلطان ما يثير العجب . فإنا نكاد نجده فى أصل كل المجتمعات إما لأنه فى طفولة الشعب لم يكن يستطيع الحصول على الطاعة سوى الديانة وإما لأن طبيعتنا تحس بحاجتها لعدم الخضوع لسلطة ما إلا أن تكون سلطة فكرة خلقية .

سبق أن قلنا إلى أى حد كانت ديانة المدينة مختلطة بكل شىء . فكان الإنسان يشعر فى كل لحظة أنه يستمد العون من آلهته وبالتالى من هذا الكاهن الموضوع بينهم وبينه . وهذا الكاهن هو الذى كان يسهر على النار المقدسة ؛ وعبادته اليومية هى التى تنقذ المدينة فى كل يوم كما يقول پنداروس (٣) . وهو الذى يعرف صيغ الدعاء التى لا تقاومها الآلهة . وهو الذى يذبح الأضحية فى ساعة القتال ويجلب للجيش حماية الآلهة . فكان من الطبيعى أن يُقبل الرجل المسلح بمثل هذه السلطة وأن يُعترف به رئيساً . وقد نتج من اختلاط الديانة بالحكومة وبالعدل وبالحرب أن أصبح الكاهن فى نفس الوقت بحكم الضرورة رجل دولة وقاضياً ورئيساً حربياً . يقول أرسطو «لملوك إسپرطه ثلاثة اختصاصات : يقدمون القرابين ويتولون القيادة فى الحرب ويقومون بالقضاء» (٤) . ويستعمل ديونيسيوس الهاليكارناسى نفس العبارات عند الكلام على ملوك روما .

---

(١) بلوتارخوس : أغيس ١١

(٢) Aristote. *Pol.*, Vl. 5. 11: *'Απὸ τῆς κοινῆς ἑστίας ἔχουσι τὴν τιμήν.*

(٣) بنداروس : النيميات *Néméennes* ٩ : ١ - ٥

(٤) أرسطو : السياسية ٣ : ٩

كانت القواعد المنظمة لهذه الملكية بسيطة جداً ولم يكن ضرورياً أن يبحث عنها طويلا فقد كانت مستمدة من نفس قواعد العبادة مباشرة : كان المؤسس الذى وضع الموقد هو بالطبع كاهنها الأول . وفى الأصل كانت الوراثة هى القاعدة الثابتة لنقل هذه العبادة ؛ وسواء كان الموقد موقد أسرة أو موقد مدينة فإن الديانة كانت تنص على انتقال مهمة القيام عليه من الوالد إلى الابن دائماً . وإذن فقد كان الكهنوت وراثياً ؛ والسلطة معه . (١).

وهناك حالة معروفة جداً فى تاريخ الإغريق القديم تدل بطريقة قاطعة على أن الملكية كانت فى البدء للرجل الذى وضع موقد المدينة . نعرف أن أهالى المستعمرات اليونانية لم يكونوا أثينيين بل كانوا خليطاً من الپيلاجيين (Pélasges) والأيوليين (Eoliens) والأبانتيين (Abantos) والكادميين (Cadméens) ، ومع ذلك فإن مواقد المدن الجديدة قد وضعها جميعاً أعضاء من أسرة كودروس الدينية . نتج عن ذلك أنه بدلا من أن يكون لهذه الجاليات رؤساء من جنسهم ، پيلاجى للپيلاجيين ، وأبانتى للأبانتيين ، وأيولوس للأيوليين ، فقد أعطوا جميعهم الملكية فى بلدانهم الإثنتى عشرة لكودريين (٢) . ومن المؤكد أن هؤلاء الأشخاص لم يحصلوا على سلطتهم بالعنف إذ أنهم كانو الأثينين الوحيدين فى هذه الجماعة الكثيرة العدد . لكنهم ما داموا قد وضعوا الموقد فقد كان من حقهم أن يشرفوا عليه . وإذن فقد كانت الملكية من نصيبهم دون نزاع وبقيت وراثية فى أسرتهم. أسس باتوس قرينه فى أفريقيا وظل الباتيون (Battiades) زمناً طويلا حائزين للرتبة الملكية . وأسس پروتيس (Protis) مرسيليا ، فباشر البروتيون (Protiades) الكهنوت فيها من أب لابن وتمتعوا فيها بميزات كبيرة.

---

(١) لم نتكلم هنا إلا عن العصر الأول للمدن . وسنرى فيما بعد أنه أتى حين لم تعد فيه الوراثة هى القاعدة : ففى روما لم تكن الملكية وراثية ، ومرجع ذلك أن تأسيس روما حديث نسبياً ويرجع إلى فترة كانت الملكية فيه قد هوجمت وتضاءلت فى كل مكان .

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٢ - ١٤٨ . بوسانياس ٧ : ١ - ٥ .

فلم تكن القوة إذن هى التى خلقت الرؤساء والملوك فى هذه المدن القديمة. وليس صحيحاً أن يقال إن أول من كان ملكاً فيها هو جندى سعيد الحظ. فإن السلطة كانت مستمدة من عبادة الموقد كما قال أرسطو صراحة. فالديانة خلقت الملك فى المدينة كما أنها هى التى خلقت رئيس الأسرة فى البيت. كانت العقيدة الأمارة، التى لا تجادل، تقول إن كاهن الموقد الوراثى هو مستودع الأشياء المقدسة وحارس الآلهة. كيف يمكن التردد فى طاعة مثل هذا الرجل؟ كان الملك ذاتا مقدسة، βασιλεῖς ἱεροὶ كما يقول پنداروس. لم يكونوا يرون فيه إلها تماماً بل على الأقل «أقوى رجل فى رفع غضب الآلهة» (١) الرجل الذى بدون معونته لا يؤثر أى دعاء ولا يقبل أى قربان.

استقرت هذه الملكية التى نصفها دينى ونصفها سياسى فى جميع البلدان منذ نشأتها دون جهد من جانب الملوك ودون مقاومة من جانب الرعايا. وإنا لانرى فى أصل الشعوب القديمة الذبذبات والمناضلات التى تميز مولد المجتمعات الحديثة العسير. ومعروف كم لزم من الزمن بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية للعثور مرة أخرى على قواعد مجتمع منظم. فقد رأت أوربا، خلال قرون، عدة مبادىء متناقضة تتنازع حكومة الشعوب، والشعوب ترفض فى بعض الأحيان كل تنظيم اجتماعى. لا نرى مثل هذا المنظر فى بلاد الإغريق القديمة ولا إيطاليا القديمة؛ إن تاريخها لا يبدأ بالمنازعات. ولم تظهر الثورات إلا فى النهاية. تكونت المجتمعات عند هذه الشعوب ببطء، مع طول الزمن، وعلى درجات، بالانتقال من الأسرة إلى القبيلة ومن القبيلة إلى المدينة، ولكن من غير اهتزاز ولا نضال. استقر النظام الملكى بطريق طبيعى فى الأسرة أولا، وفى المدينة فيما بعد. لم يبتدعه مطمع البعض وإنما ولدته الحاجة الجلية فى نظر الجميع وكان، خلال قرون عديدة، هادئاً مبجلا نافذاً. لم يكن الملوك فى حاجة للقوة المادية؛ لم يكن لهم جيش ولا مالية لكن كانت تعاضدهم عقائد لها سلطانها على النفس، فكانت سلطتهم مقدسة ومصونة.

---

(١) صوفوكليس: أويديبوس ملك ٣٤.

وفيما بعد قلبت ثورة ، سنتحدث عنها فى مكان آخر ، النظام الملكى فى جميع البلدان . لكنه عندما سقط لم يترك أية ضغينة فى قلوب الناس . فلم يلحقه فى يوم ما هذا الاحتقار الممزوج بالسخيمة الذى يلازم عادة العظمة المنهارة . وبالرغم من سقوطه بقى احترام الناس وعطفهم ملازماً لذكراه بل رؤى فى بلاد الإغريق شىء ليس عادياً فى التاريخ وهو أنه فى البلدان التى لم تنقرض فيها الأسرة المالكة لم يقتصر الأمر على عدم طردها بل إن نفس الرجال الذين جردوها من السلطة داوموا على تبجيلها . ففى إفسوس ومارسيليا وقرينه بقيت الأسرة الملكية بعد حرمانها من سلطتها محاطة باحترام الشعوب بل احتفظت بلقب الملك وشاراته (١) .

أقامت الشعوب النظام الجمهورى ، لكن لقب ملك كان أبعد من أن يكون سبة بل بقى لقباً مبجلا . تعود البعض أن يقول إن هذا اللفظ كان كريهاً محتقراً : إنه لخطأ غريب ! فإن الرومان كانوا يطلقونه على الآلهة فى أدعيتهم . وإذا لم يجرؤ المغتصبون فى أى وقت على اتخاذ هذا اللقب فليس ذلك لأنه كان بغيضاً ، بل الأمثل لأنه كان مقدساً (٢). وفى بلاد الإغريق أعيدت الملكية مراراً فى البلدان ، لكن السلاطين الجدد لم يعتقدوا قط أن لهم الحق فى تسمية أنفسهم ملوكاً وقنعوا بأن يُدعَوْن طغاة (tyrans) (٣)، ولم يكن الفارق بين هذين الاسمين اختلافاً فى الصفات الخلقية التى كانت فى شخص السلطان ، فإنهم لم يكونوا يسمون الأمير الصالح ملكاً ولا الطالح طاغية ؛ وإنما كانت الديانة على الأخص هى التى تميز بينهما . كان الملوك الأولون يقومون بوظائف الكهنة ويستمدون سلطانهم من الموقد ؛ أما الطغاة فى الفترة المتأخرة فإنهم لم يكونوا سوى رؤساء سياسيين ولم يكونوا مدينين بسلطتهم إلا للقوة أو الاختيار .

---

(١) Strabon, XIV, 1, 3: *Καὶ ἔτι νῦν οἱ ἐκ τοῦ γένους Ἀνδρόκλου ὀνομάζονται βασιλεῖς ἔχοντές τινας τιμάς, προεδρίαν ἐν ἀγῶσι καὶ πορφύραν ἐπίσημον τοῦ βασιλικοῦ γένους, σκίπωνα ἀντὶ σκήπτρου, καὶ τὰ ἱερὰ τῆς Δήμητρος.* أثينا يويوس ١٣ : ٣٦ ص ٥٧٦ .

(٢) Tite-Live, III, 39: *Nec nominis (regii) homines tum pertaesum esse, quippe quo Jovem appellari fas sit, quod sacris etiam ut solemne retentum sit. — Sanctitas regum* (Suétone, *Julius* 6).

(٣) Cicéron, *De rep.*, I, 33: *Cur enim regem appellem, Jovis Optimi nomine, hominem dominandi cupidum aut populo oppresso dominantem, non tyrannum potius?*

الفصل العاشر

رجل الدولة

لم ينقطع امتزاج السلطة السياسية بالكهنوت فى شخص واحد بانتهاء الملكية . فإن الثورة التى أقامت النظام الجمهورى لم تفصل الوظائف التى كان يبدو أن اختلاطها شىء طبيعى جداً وكان هذا الاختلاط عندئذ هو القانون الأساسى للمجتمع البشرى .فكان رجل الدولة الذى حل محل الملك ، على مثاله، كاهناً ورئيساً سياسياً فى آن واحد .

وفى بعض الأحيان كان يحتفظ هذا الحاكم السنوى باللقب المقدس : ملك(١). وفى مكان آخر كان اسم سادن بيت النار (prytane) ،الذى احتفظ له به ، يدل على وظيفته الرئيسية (٢) . وفى بلدان أخرى ساد لقب أرخون (Archonte) فى ثيبه مثلا كان رجل الدولة الأول يلقب بهذا اللقب لكن ما يقوله پلوتارخوس عن هذه الوظيفة يرينا أنها لا تختلف عن الكهنوت إلا قليلا . وكان يجب على هذا الأرخون أن يلبس تاجاً أثناء مدة توليته (٣) كما يليق بكاهن . وكانت الديانة تحرم عليه أن يترك شعره ينمو أو أن يحمل أى شىء من الحديد معه ، وهى التزامات تجعله شبيهاً إلى حد ما بالفلامين الرومانيين . وكان لبلدة پلاتيا أرخون كذلك ، وكانت ديانة هذه المدينة تأمر أن يرتدى اللباس الأبيض(٤) ، أى اللون المقدس طول مدة توليته .

---

(١) فى ميغارا (فى ساموثراكى) . تيتوس ليفيوس ٤٥ : ٥ .
Boeckh, *Corp. inscr. gr.*, n° 1052.

(٢) بنداروس : النيمييات ١١

(٣) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٤٠ .

(٤) بلوتارخوس : أريستيديس ٢١ .

وكان الأراخنة الأثينيون يصعدون إلى ربوة المدينة (acropole) يوم استلامهم مقاليد وظيفتهم وعلى رأسهم تاج من الآس (myrte) ويقدمون قرباناً لمعبودة المدينة (١) . وكذلك كان المألوف فى مباشرة وظائفهم أن يضعوا تاجاً من ورق الشجر على رؤوسهم (٢) . ومن المؤكد أن التاج الذى أصبح مع مضى الزمن رمزاً للسلطة ، وبقى كذلك ، لم يكن عندئذ سوى رمز دينى ، علامة ظاهرة تصحب الدعاء والقربان (٣) . والذى يُدعى الملك من بين الأراخنة كان رئيساً للديانة على وجه الخصوص . لكنه كان لكل واحد من أنداده وظيفة دينية يقوم بها ، وقربان يقدمه للآلهة (٤) .

كان عند الإغريق تعبير عام للدلالة على رجال الدولة . فكانوا يقولون οἱ ἐν τέλει ومعناه الحرفى الذين يقومون بالقربان (٥) . وهو تعبير قديم يدل على الفكرة التى كانوا يتصورونها فى البدء عن رجل الدولة . يقول پنداروس عن هذه الشخصيات إنهم يضمنون سلامة المدينة بالقرابين التى يقدمونها للموقد . وفى روما كان أول عمل للقنصل أن يقدم قرباناً فى الفوروم (٦) . فكان

---

(١) ثوقيديديس ٨ : ٧٠ . أبولودوروس : القطعة ٢١ (مجموعة ديدو ج ١ ص ٤٣٢)

(٢) ديموسثينيس : ضد ميدياس ٣٣ . أيسخينيس : ضد تيمارخوس ١٩

(٣) كانوا يلبسون التيجان فى فرقة المنشدين وفى المواكب : بلوتارخوس : نيقياس ٣ ؛ فوقيون ٣٧ . سيسرون : ضد فريس ٤ : ٥٠ .

(٤) بوليدوكيس ٨ فصل ٩ الأرقام ٨٩ و ٩٠ ؛ ليسياس *De Ev. prob.* 6-8 ؛ ديموسثينيس ضد نيأيرا ٧٤ — ٧٩ ؛ ليكورغ مجموعة ديدو ج ٢ ص ٣٦٢ ؛ ليسياس : ضد اندوكيديس ٢

(٥) يستعمل التعبير οἱ ἐν τέλει أو Τὰ τέλη للدلالة على رجال الدولة فى اسبرطه كما هو مستعمل لأمثالهم فى أثينا . ثوقيديديس ١ : ٥٨ ؛ ٢ : ١٠ ؛ ٣ : ٣٦ ؛ ٤ : ٦٥ ، ٦ : ٨٨ ؛ إكسينوفون : أغيسيلاس ١ : ٣٦ ؛ الهلينيات ٦ : ٤ : ١ . قارن هيرودوت ١ : ١٣٣ ؛ ٣ : ١٨ . أيسخيلوس : الفرس ٤٠٢ ؛ أغاممنون ١٢٠٢ . أوريبيديس : التراخينيات ٢٣٨ .

(٦) الفوروم هو الساحة العامة لمدينة روما وكان يقام فيها السوق وتعقد الاجتماعات والحفلات والمحاكم ـ المعرب .

يأتى بالأضحية فى الميدان العام ، وعند ما يقرر الحبر أنها لائقة للتقديم يضحيها القنصل بيده بينما يأمر المنادى الجمهور بالصمت الدينى ويسمعهم لاعب المزمار الأغنية المقدسة (١) . وبعد ذلك ببضعة أيام يتوجه القنصل إلى لاڤينيوم التى خرجت منها الپيناتس الرومانية ويقدم قرباناً مرة أخرى.

عندما نفحص ، بشىء من الانتباه ، طابع رجل الدولة عند القدماء، نرى إلى أى حد بلغت قلة الشبه بينه وبين رؤساء الدولة فى المجتمعات الحديثة . كان الكهنوت والقضاء والقيادة ممتزجة فى شخصه . فقد كان يمثل المدينة التى هى جماعة دينية بقدر ما هى سياسية على الأقل . وكانت فى يده الاستخارات والشعائر والأدعية وحماية الآلهة . فكان القنصل شيئاً أكبر من رجل . لقد كان وسيطاً بين الإنسان والمعبود ، وكان المصير العام مرتبطاً بمصيره . إنه بمثابة الروح الحامية للمدينة ؛ وموت القنصل يجلب النحس (*funeste*) للدولة(٢). يرينا تيتوس ليڤيوس إلى أى حد كانت روما قلقة على مصير جيش كلوديوس نيرون عند ما ترك هذا القنصل جيشه وخف لمساعدة رصيفه لأن الجيش وهو محروم من رئيسه محروم فى نفس الوقت من حماية السماء . فقد ارتحلت ، بارتحال القنصل ، الاستخارات أى الديانة والآلهة (٣) .

وكانت المناصب الرومانية الأخرى ، التى تعتبر إلى حد ما كأعضاء انفصلت من القنصلية الواحد تلو الآخر ، تجمع مثلها بين اختصاصات كهنوتية واختصاصات سياسية . فكان يُرَى الرقيب فى بعض الأيام وعلى رأسه تاج وهو يقدم قرباناً باسم المدينة ويهوى بيده على الضحية : وكان البريتورات (préteurs) والمحتسبون الندويون (édiles curules) (٤) يرأسون أعياداً دينية(٥).

---

(١) سيسرون: قانون الأراضى ٢ : ٣٤ . تيتوس ليفيوس ٢١ : ٦٣ ؛ ٩ : ٨ ؛ ٤١ : ١٠ . ماكروبوس : ساتورناليار : ٣

(٢) تيتوس ليفيوس ٢٧ : ٤٠ .

(٣) تيتوس ليفيوس ٢٧ : ٤٤ ؛ *Castra relicta sine imperio, sine auspicio*

(٤) البريتور : معناه الحرفى الذى يسير فى المقدمة أى المقدم أو الإمام ووظيفته تغلب عليها الناحية القضائية . والمحتسب الندوى أو المجلسى كان مكلفاً بصفة خاصة بمراقبة الأسواق والتنظيم والآداب وقد استعملنا كلمة المحتسب لتقابل كلمة édile لأن المحتسب فى الدولة الاسلامية فى مصر كان يقوم بنفس الأعمال التى كان يقوم بها الـ édile على وجه التقريب، والندوى (curule) نسبة للندوة (*curia*) ويضاف إليه هذا اللقب تمييزاً له عن محتسب السوقة (édile plébéien) - المعرب .

(٥) فارون : اللسان اللاتينى ٦ : ٥٤ . أثينايوس ١٤ : ٧٩ .

وما من أحد من رجال الدولة إلا وكان يقوم بعمل مقدس . إذ أنه كان فى ذهن القدماء أن كل سلطة يجب أن تكون دينية من ناحية ما . وكان عرفاء السوقه (tribuns) هم وحدهم الذين لا يقومون بأى قربان ولهذا لم يكونوا محسوبين بين رجال الدولة الحقيقيين ؛ وسنرى فيما بعد أن سلطتهم كانت ذات طبيعة استثنائية محضة .

وتظهر الصفة الكهنوتية التى تلازم وظيفة رجل الدولة على الأخص فى الطريقة التى كان ينتخب بها . ففى نظر القدماء لم يكن يبدو أن تصويت الناس كان كافياً لاقامة رئيس المدينة . طالما كانت الملكية الأولى قائمة كان يبدو طبيعياً أن يعين هذا الملك ، الذى هو رئيس بحكم المولد ، طبقاً للقانون الدينى الذى ينص على أن الولد يخلف أباه فى كل كهنوت ؛ فقد كان يلوح لهم أن فى المولد ما يكفى للكشف عن إرادة الآلهة . وعندما قضت الثورات على هذه الملكية فى كل مكان بحث الناس ، فيما يلوح ، عن طريقة للاختيار لا ترفضها الآلهة لكى تحل محل المولد . فلم يرى الأثينيون والكثير من الشعوب الإغريقية وسيلة أحسن من القرعة . ولكن المهم ألا نكوّن فكرة خاطئة عن هذه الطريقة التى جعلت موضوعاً للطعن فى حكم العامة الأثينى ، ولابد لذلك من التوغل فى فكر القدماء . فإن القرعة لم تكن فى نظرهم هى المصادفة . بل كانت القرعة بمثابة إعلان للإرادة الإلهية . وكما أنهم كانوا يلجأون إليها فى المعابد ليطلعوا على الأسرار العلوية فكذلك كانت المدينة تلجأ إليها لاختيار رجل الدولة فيها . وكانوا مقتنعين بأن الآلهة تختار الأمثل بإخراج اسمه من الوعاء . وقد عبر أفلاطون عن رأى القدماء عند ما قال : «إننا نقول عن الرجل الذى تعينه القرعة أنه عزيز على المعبود ونجد من العدالة أن يتولى القيادة . وفى جميع مناصب الدولة التى تمس الأشياء المقدسة نعمد فيها إلى القرعة تاركين للمعبود اختيار من يطيب

له». وبذلك كانت تعتقد المدينة أنها تتلقى رجال دولتها من الآلهة (١).
وفى الواقع أن الأمور كانت تجرى فى روما على هذا النحو تحت مظاهر

---

(١) أفلاطون: القوانين ٣ ص ٦٩٠؛ ٦ ص ٧٥٩. توهم المؤرخون المحدثون أن الاختيار بالقرعة كان من اختراع حكم العامة الأثينى، وأنه لا بد أنه أتى زمن كانت فيه الأراخنة تنتخب بطريقة الـ*χειροτονία*. وهو مجرد فرض لايؤيده أى نص. وعلى العكس تصور النصوص الاختيار بالقرعة *κλῆρος, τῷ κυαμῷ λαχεῖν* على أنه قديم جداً. فيقول بلوتارخوس الذى كتب حياة بركليس فعلا عن المؤرخين المعاصرين مثل ستيسمبروتوس (Stéstmbrote) أن بركليس لم يكن أرخونا قط إذ أن هذا المنصب كان يمنح بالقرعة منذ أقدم العصور *ἐκ παλαίου* (بلوتارخوس: بريكليس ٩). وقال ديمتريوس الفاليرى، الذى كتب مؤلفات عن تشريع أثينا وعلى الأخص عن منصب الأرخون، مانصه إن أرستيديس كان أرخوناً عن طريق القرعة (ديمتريوس، نقله بلوتارخوس: أرستيديس ١). حقاً إن ايدوسينيوس اللامبساكى (Idoménée de Lympsaque)، وهو كاتب متأخر، قال إن أرستيديس رفع إلى هذا المنصب باختيار مواطنيه؛ لكن بلوتارخوس الذى نقل هذا الادعاء (نفس المرجع) يضيف أنه إذا كان ذلك صحيحاً فانه يجب أن نفهم أن الأثينيين عملوا استثناء إرضاء لكفاءة أرستيديس الممتازة. ويبين هيرودوت (٦ : ١٠٩) أنه فى زمن معركة ماراثون كان الأراخنة التسعة ومن بينهم رئيس الحرب (polémarque) معينين عن طريق القرعة. ويذكر ديموسثينيس (ضد لبتينيس ٩٠) قانوناً ينتج منه أنه فى زمن صولون كانت القرعة تعين الأراخنة. وأخيراً بوسانياس (٤ : ٥) يجعلنا نفهم أن الانتخاب السنوى (للأرخون) عن طريق القرعة جاء مباشرة بعد نظام تعيين الأراخنة كل عشر سنوات أى فى سنة ٦٨٣. حقاً إن صولون انتخب أرخوناً *ἡρέθη ἄρχων*؛ وربما أرستيديس أيضاً. لكنه ما من نص يتضمن أن قاعدة الانتخاب قد وجدت قط. بل يبدو أن الانتخاب بالقرعة قديم قدم منصب الأرخون ذاته؛ وهذا هو ما نظنه، على الأقل فى غيبة نصوص تناقضه، فضلا عن أنه لم يكن طريقة من طرق حكم العامة، يقول ديمتريوس الفاليرى أنه فى عصر أرستيديس لم يكونوا يضربون القرعة إلا بين أثرى الأسرات *ἐκ τῶν γένων τῶν τὰ μέγιστα τιμήματα ἐχόντων* قبل صولون لم يكونوا يضربون القرعة إلا بين النسباء (Eupatrides) وحتى فى عصر ليسياس وديموسثينيس لم تكن أسماء جميع المواطنين توضع فى الوعاء (ليسياس: الدفاع عن العاجز ١٣ (*De Invalido*)؛ ضد اندوكيديس ٤؛ إيسوقراط ٢ *ἀντιδόσεως, 150.*). وإنا لانعرف قواعد القرعة جيداً فضلا عن أنها كانت موكولة للشموثيت العاملين. وكل مانستطيع أن نؤكده أن النصوص لم تكن تشير فى أى عصر إلى الـ*χειροτονία* فيما يختص بالأراخنة التسعة. وجدير بالملاحظة أن حكم العامة عند ماتغلب أنشأ مناصب القادة (stratèges) ومنحهم كل السلطة ولم يفكر فيما يختص بهؤلاء الرؤساء فى استعمال القرعة وآثر أن ينتخبهم بطريق التصويت، بحيث كان هناك اختيار بالقرعة لمناصب الدولة التى ترجع إلى عصر السراة، وانتخاب لتلك التى ترجع إلى حكم العامة.

مختلفة . فكان يتحتم ألا يكون انتخاب القنصل بيد الناس . إذ أن إرادة الشعب أو هواه لم يكونا قادرين على خلق رجل الدولة خلقاً شرعياً . وإليك إذن كيف كان يختار القنصل : كان أحد رجال الدولة العاملين ، أى رجل حائز من قبل للصفة المقدسة وللاستخارات ، يحدد من بين أيام العمل اليوم الذى يجب أن يعين فيه القنصل . وكان يسهر خلال الليلة السابقة لذلك اليوم فى الهواء الطلق شاخص البصر إلى السماء وهو يلاحظ الآيات التى ترسلها الآلهة وفى نفس الوقت يتلو فى ذهنه أسماء بعض المرشحين للمنصب . فإذا كانت الإشارات موافقة فإن الآلهة تكون قد قبلت المرشحين . وفى اليوم التالى يجتمع الشعب فى حقل مارس (champ de Mars) ، ويرأس الاحتفال نفس الشخص الذى استخار الآلهة ويلفظ بصوت عال أسماء المرشحين الذين عملت لهم الاستخارات وإذا وجد بين المطالبين بالقنصلية واحد لم توافق الاستخارات عليه يحذف اسمه ولا يصوت الشعب إلا على الأسماء التى يتلوها هذا الرئيس (١) . وإذا لم يسم الرئيس إلا مرشحين فإن الشعب يصوت لهما بحكم الضرورة . وإذا سمى ثلاثة أشخاص اختار الشعب اثنين منهما : ؛ ولم يكن للجمع الحق مطلقاً فى التصويت على أشخاص غير الذين عينهم الرئيس إذ أن الاستخارات لم تكن بالقبول ، وموافقة الآلهة لم تكن مضمونة ، إلا لهؤلاء فقط (٢) .

---

(١) فاليريوس ماكسيموس ١ : ١ : ٣ . بلوتارخوس : ماركيلوس ٥ . تيتوس ليفيوس ٤ : ٧

(٢) تشهد عدة مستندات بوجود هذه القواعد فى القانون العام فى روما ، وهى التى سقطت من الاستعمال فى القرون الأخيرة من الجمهورية ، فيلاحظ ديونيسيوس ٤ : ٨٤ أن الشعب لا يصوت إلا على الأسماء التى يقترحها رئيس اللجان : . *Ὁ Λουκρέτιος ἄνδρας αἱρεῖται δύο, Βροῦτον καὶ Κολλάτινον, καὶ ὁ δῆμος καλούμενος κατὰ λόχους ἐπεκύρωσε τοῖς ἄνδρασι τὴν ἀρχὴν* وإذا صوتت بعض الفرق المئينية (centuria) لأسماء أخرى فان فى استطاعة الرئيس ألا يحسب حسابا لهذه الأصوات Tite-Live, III, 21: *Consules edicunt ne quis L. Quinctium consulem faceret; si quis fecisset, se id suffragium non observaturos.*

Tite-Live, VII, 22: *Consules. . . rationem ejus se habituros negabant.* هذه الواقعة من سنة ٣٥٢ قبل الميلاد وترى رواية تيتوس ليفيوس تجاهل الشعب فى هذه المرة تجاهلا كبيراً لحق الرئيس . بيد أن هذا الحق الذى أصبح من الآن فصاعدا نصاً ميتاً

تفسر هذه الطريقة فى الانتخاب ، التى كانت متبعة فى القرون الأولى من الجمهورية ، بعض مظاهر التاريخ الرومانى التى قد تثير الدهشة لأول وهلة. فمثلا نرى فى كثير من الأحيان أن الشعب يكاد يجمع على تعيين رجلين فى منصب القنصلية إلا أنه لا يستطيع ذلك لأن الرئيس لم يكن قد استخار لهذين الرجلين أو لأن الاستخارات لم تبد موافقة . وعلى العكس نرى الشعب مراراً يعين قناصل رجلين يبغضهما (١) ذلك لأن الرئيس لم يتل غير اسميهما فكان لا مفر من التصويت عليهما إذ أن التصويت لا يعبر عنه إلا بنعم أو بلا . ولابد أن يكون فى كل تصويت اسمان ولا يمكن أن تكتب اسماء غير التى عينت . ويستطيع الشعب الذى يقدمون له مرشحين يبغضهم أن يدل على غضبه بالانسحاب دون تصويت ؛ لكنه كان يبقى دائماً داخل المكان عدد كاف من المواطنين لتمثيل الانتخاب (٢) .

نرى هذا ما كانت عليه سلطة رئيس اللجان ولن يدهشنا بعدئذ التعبير الشرعى ، « يخلق القناصل (*Creat consules*) » ، وهو تعبير لم يكن ينطبق على الشعب بل على رئيس اللجان . والواقع أنه كان أولى من الشعب بأن يقال عنه أنه يخلق

لم يلغ إلغاء شرعياً وقد تجاسر أكثر من قنصل على التذكير به فيما بعد. Aulu-Gelle, VI, 9: *Fulvium pro tribu aedilem curulem renuntiaverunt; at aedilis qui comitia habebat negat accipere* هنا رفض الرئيس ، الذى كان محتسباً (édile) أن يقبل الأصوات وأن يحسبها . وفى مكان آخر أعلن القنصل بوركيوس Porcius ، أنه لا يقبل المرشح الفلانى *non accipere nomen ejus* تيتوس ليفيوس ٣٩ : ٣٩) . يروى فالريوس ماكسيموس ٣ : ٨ : ٣ أنه عند افتتاح اللجان (comices) سئل الرئيس غ . بيسون (C. Pison) عما إذا كان يعلن انتخاب لوليوس باليكانوس (Lollius Palicanus) فى حالة ما إذا اتجهت إليه أصوات الشعب ، فأجاب بيسون أنه لن يعلنه *non renuntiabo* ؛ وعندئذ أعطى المجمع أصواته لمرشح آخر ، نرى فى فيليوس (Velléius) (٢ : ٩٢) أحد رؤساء اللجان يحرم على مرشح أن يقدم نفسه *profiteri vetuit* فلما تشبث هذا الأخير برأيه أعلن أنه حتى لو انتخب بأصوات الشعب بأكمله فانه لا يعترف بالتصويت . هذا وقد كان أعلان الرئيس *renuntiatio* شيئاً لا يمكن الاستغناء عنه وبدونه لا يمكن أن يكون هناك انتخاب .

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٤٢ ؛ ٤ : ٤٣ . ديونيسيوس ٨ : ٨٧

(٢) نرى مثلين من ذلك فى ديونيسيوس ٨ : ٨٢ وتيتوس ليفيوس ٢ : ٦٤ .

القناصل إذ أنه هو الذى يكشف عن إرادة الآلهة . وإذا لم يكن هو الذى يعمل القناصل فإن الآلهة كانت تعملهم عن طريقه على الأقل . أما سلطة الشعب فينتهى مداها عند اقرار الانتخاب ،وعلى أكثر تقدير عند الاختيار من بين ثلاثة أسماء أو أربعة إذا تبين أن الاستخارات كانت موافقة على ثلاثة مرشحين أو أربعة على السواء .

ومما لا ريب فيه أن هذا المسلك كان مفيداً للسراة (الأرستوقراطية) الرومانية إلى أبعد حد . لكن المرء يضل نفسه إذا لم ير فى كل هذا سوى خدعة تصورتها السراة . فمثل هذه الخدعة لا يمكن إدراكها فى القرون التى كانوا يؤمنون فيها بهذه الديانة . بل إنها كانت تعد عبثاً من الناحية السياسية فى الأزمنة الأولى إذ أنه كان للبطارقة الأغلبية فى الانتخاب . بل كان من الجائز أن تنقلب ضدهم باعطائها سلطة باهظة لرجل واحد . والتفسير الوحيد الذى يمكن أن تفسر به هذه العادات ،أوعلى الأصح شعائر الانتخاب هذه ،هو أن جميع الناس كانوا يعتقدون بإخلاص أن اختيار رجل الدولة لم يكن للشعب بل للآلهة . فإن الرجل الذى سيتصرف فى ديانة المدينة ومصيرها يجب أن يكشف عنه صوت المعبود .

القاعدة الأولى لانتخاب رجل الدولة هى التى يعطيها سيسرون : «ليعين طبقاً للشعائر (١) » . وإذ حدث بعد عدة شهور أن جاء أحد يقول لمجلس الشيوخ إن إحدى الشعائر أهملت أو أسىء القيام بها كان مجلس الشيوخ يأمر القناصل بعزل أنفسهم ، وكانوا يطيعون . والأمثلة عديدة . وإذا كان مسموحاً أن نعتقد بالنسبة لاثنين أو ثلاثة منهم أن المجلس قد ارتاح للتخلص من قنصل عاجز أو سىء التفكير فإنا ، على العكس ، لا نستطيع أن ننسب له فى أغلب الأحيان مبرراً آخر غير التحرج الدينى .

---

(١) Cicéron, *De legibus*, III, 3: *Auspicia patrum sunto, ollique ex se produnto qui comitiatu creare consules rite possint.*
نعرف أن سيسرون فى القوانين (*De legibus*) لم يعمل أكثر من أن نقل قوانين روما وفسرها

حقاً إنه عند ما كانت القرعة فى أثينا ، أو الاستخارات فى روما ، تعين الأرخون أو القنصل كان ذلك نوعا من الاختيار تفحص بمقتضاه كفاءة المنتخب الجديد (١). لكن هذا سيرينا ماذا كانت تتمنى المدينة أن تراه فى رجل الدولة فيها . إنها لم تكن تسعى وراء أشجع رجل للحرب ولا أمهر ولا أعدل رجل فى السلم بل وراء أكثرهم محبة من الآلهة . والواقع أن مجلس الشيوخ الأثينى كان يسأل المنتخب الجديد عما إذا كان له إله منزلى (٢) ، عما إذا كان عضوا فى أخوية ، عما إذا كان له قبر عائلى ، وعما إذا كان يقوم بكل واجباته نحو الموتى (٣). لماذا هذه الأسئلة ؟ ذلك لأن الذى ليست له عبادة عائلية لايجوز له أن يساهم فى العبادة القومية ولا أن يكون أهلا لتقديم القرابين باسم المدينه ومن أهمل عبادة موتاه كان معرضاً لغضبهم المخيف وتطارده أعداء غير مرئيين. انها لمخاطرة كبيرة من جانب المدينة أن تكل حظها لمثل هذا الرجل . كانت تريد أن يكون رجل الدولة الجديد من أسرة طاهرة حسب تعبير أفلاطون (٤). ذلك أنه إذا كان واحد من أسلافه قد اقترف عملا من هذه الأعمال التى تسىء إلى الديانة فإن موقد الأسرة كان يبقى مدنساً إلى الأبد وكانت الذرية تظل مبغوضة

---

(١) *δοκιμασία* أو *ἀνάκρισις ἀρχόντων* والأسئلة المختلفة التى كانت توضع فى هذا الامتحان عددها دينارخوس (ضد ارسطوغيتون ١٧-١٨) وبوليدوكيس (٨: ٨٥ - ٨٦) ، قارن ليكورغ القطعة ٢٤ وهاربوقراطيون تحت لفظ *Ἕρκειος*

(٢) *Εἰ φράτορες εἰσὶν αὐτῷ καὶ βῶμοι Διὸς ἑρκείου καὶ Ἀπόλλωνος πατρῴου* (Dinarque dans Harpocration). *Εἰ Ἀπόλλων ἐστὶν αὐτοῖς πατρῷος καὶ Ζεὺς ἕρκειος* (Pollux, VIII, 85)

(٣) *Εἰ ἥρια πατρῷα ἐστί* (دينارخوس :ضد ارسطوغيتون ١٧-١٨) . وكانوا يسألون الأرخون أيضاً عما إذا كان قد قام بكل الحملات التى أمر بها وعما إذا كان قد دفع كل الضرائب .

(٤) Platon, *Lois*, VI, p. 759: *Ὡς ὅτι μάλιστα ἐκ τῶν καθαρευουσῶν οἰκήσεων*

ولأسباب شبيهة بهذه كانوا يقصون عن منصب الأرخون كل مصاب بعاهة أو أو مشوه (ليسياس : الدفاع عن العاجز ١٣) ذلك لأن العيب الجسمانى كان يعد علامة على غضب الآلهة ويجعل الرجل غير لائق بالقيام بأى كهنوت وبالتالى غير لائق للقيام بأى منصب من مناصب الدولة .

من الآلهة . تلك هى أهم الأسئلة التى كانت توجه لمن سيكون رجل الدولة . كان يبدو أنهم لا يهتمون بطبعه ولا بذكائه بل كانوا يهتمون على الأخص بأن يكون أهلا للقيام بالوظائف الكهنوتية وألا تتعرض ديانة المدينة للضرر على يديه .

ويلوح أن هذا النوع من الامتحان كان متبعاً فى روما . حقاً إنه ليست لدينا أية معلومات عن الأسئلة التى كان على القنصل أن يجيب عليها . لكنا نعرف على الأقل أن هذا الامتحان كان يقوم به الأحبار ، ونستطيع جيداً أن نعتقد أن موضوعه لم يكن غير أهلية رجل الدولة من الناحية الدينية (١) .

---

(١) ديونيسيوس ٢ : ٧٣ : Οἱ ποντίφικες... τὰς ἀρχὰς ἁπάσας ἐξετάζουσι. لسنا فى حاجة إلى التنبيه إلى أنه فى العصور الأخيرة من الجمهورية لم يكن هذا الامتحان إلا إجراء أجوف ، ذلك بفرض أنه كان معمولا به .

الفصل الحادى عشر

القانون

كان القانون، عند الإغريق وعند الرومان وكذلك عند الهنود ، فى أول الأمر جزءاً من الديانة؛ وكانت مجموعة قوانين المدينة هى مجموعة من الشعائر والفرائض الدينية والأدعية والنصوص الشرعية فى آن واحد . وكانت قواعد حق الملكية وحق الإرث متفرقة بين القواعد الخاصة بالقرابين وبالدفن وبعبادة الموتى .

وإن ماتبقى لنا من أقدم قوانين روما، وهو ما كان يسمى بالقوانين الملكية، لينطبق فى الكثير من الأحيان على العبادة بقدر ما ينطبق على علاقات الحياة المدنية . فكان أحدها يحرم على المرأة الخاطئة أن تقترب من المذابح ، وآخر يحرم تقديم بعض ألوان من الطعام فى الأكلات المقدسة، وثالث يبين أى الاحتفالات الدينية كان يجب على القائد المنتصر أن يقوم به عند دخوله البلدة . وكانت مجموعة قوانين اللوحات الإثنتى عشرة ، ولوأنها أحدث عهداً ، لا تزال تحوى فرائض مفصلة عن شعائر الدفن الدينية . وكان تشريع صولون مجموعة قوانين ودستور وكتاب شعائر فى آن واحد ؛ فكان ترتيب القرابين وثمن الأضحية منظماً فيها كما كانت شعائر الأعراس وعبادة الموتى .

رسم سيسرون ، فى رسالته عن القوانين ، هيكل تشريع لم يكن كله وليد الخيال. بل كان فى مجموعة قوانينه مقلداً للشارعين القدماء ، سواء فى جوهرها أو فى شكلها . وها هى ذى القوانين الأولى التى كتبها : لا يقترب أحد من الآلهة إلا بيدين طاهرتين ؛ - حافظوا على معابد الآباء ومستقر اللاريس المنزليين ؛ على الكهنة ألا يستعملوا فى الأكلات المقدسة إلا الأطعمة المنصوص عليها؛

فلتؤدّ للآلهة المانيس العبادة الواجبة لهم » . من المؤكد أن الفيلسوف الرومانى كان قليل الاهتمام بديانة اللاريس والمانيس القديمة ؛ لكنه رسم تشريعاً على صورة التشاريع القديمة وظن أنه ملزم بإدماج قواعد العبادة فيها .

من الحقائق المعترف بها فى روما أنه من غير المستطاع أن يكون المرء حبراً صالحاً إذا كان لا يعرف القانون . (١) يقابل هذا أنه لم يكن من المستطاع أن يعرف القانون إذا كان لا يعرف الديانة . كان الأحبار هم الشارعين الوحيدين زمناً طويلا . وحيث أنه لم يكن يكاد يوجد أى عمل من أعمال الحياة لا تربطه صلة ما بالديانة فقد نتج عن ذلك أن كل شىء تقريباً كان خاضعاً لقرارات هؤلاء الكهنة ، وأنهم كانوا القضاة الوحيدين المختصين بنظر عدد لا حد له من القضايا . فكانت ترفع إلى محاكمهم جميع المنازعات الخاصة بالزواج والطلاق وحقوق الأطفال المدنية والدينية . كانوا قضاة فى الزناء بالمحرمات وكذلك فى العزوبة . ولما كان التبنى يمس الدين فإنه لم يكن يقع إلا بموافقة الحبر . وكان عمل الوصية معناه فصم النظام الذى أقامته الديانة لتوارث الأملاك وانتقال العبادة ؛ لذا كان يجب فى الأصل أن يجيز الحبر الوصية . ولما كانت حدود كل ملك تعينها الديانة فقد كان من الواجب ، كلما وقع جاران فى خصومة ، أن يترافعا أمام الحبر أو أمام كهنة كانوا يسمونهم الإخوة الأرڤاليس (٢) وذلك هو السبب فى أن نفس الأشخاص كانوا أحباراً وفقهاء ؛ فإن الشرع والديانة كانا شيئاً واحداً (٣) .

---

(١) سيسرون : القوانين ٢ : ١٩ :
Pontificem neminem bonum esse nisi qui jus civile cognoscit.

(٢) سيسرون : القوانين ٢ : ٩ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ؛ *De Aruspic. resp., 7* لأجل منزله ١٢ ، ١٤ . ديونيسيوس ٢ : ٧٣ . تاسيتوس : حوليات ١ : ١٠ ؛ التاريخ ١ : ١٥ . ديون كاسيوس ٤٨ : ٤٤ . بلينيوس : التاريخ الطبيعى ١٨ : ٢ . أولوس جيليوس ٥ : ١٩ ؛ ١٥ : ٢٧ . بومبونيوس فى الديجيست *De origine juris:*

(٣) ومن هنا جاء هذا التعريف القديم الذى احتفظ به الفقهاء إلى عصر جوستينيانوس :
Jurisprudentia est rerum divinarum atque humanarum notitia.

كان للأرخون الأول وللملك، فى أثينا، نفس الاختصاصات القضائية التى كانت للحبر الرومانى تقريباً . ذلك لأن الأرخون كان مكلفا بالسهر على دوام العبادة المنزلية (١)، ولأنه كانت للملك الإدارة العليا لديانة المدينة على نمط حبر روما إلى حد ما . لذلك كان الأول يحكم فى جميع المنازعات الخاصة بحق الأسرة والثانى فى جميع الجرائم التى تمس الديانة (٢) .

يتبين لنا بوضوح كيف كانت تولد القوانين القديمة . لم يكن يخترعها رجل واحد . ومن المحتمل أن يكون صولون وليكورغ ومينوس ونوما قد دونوا قوانين مدنهم بالكتابة ؛ لكنهم لم ينشؤوها ، فإذا كنا نقصد بالشارع رجلا يبتدع قانوناً بقوة عبقريته ويفرضه على الآخرين فإن هذا الشارع لم يوجد عند القدماء إطلاقاً . كما أن القانون العتيق لم يخرج من تصويت الشعب . ولم تظهر فكرة أن عدد الأصوات يستطيع أن يخلق القانون إلا متأخرة جداً فى المدن وبعد أن غيرتها ثورتان . وحتى ذلك الوقت كانت تبدو القوانين كشىء عتيق ، غير قابل للتعديل ، وله حرمته . فهى قديمة قدم المدينة ، والمؤسس هو الذى وضعها فى نفس الوقت الذى وضع فيه الموقد *moresque viris et moenia ponit* ، وهو الذى أنشأها فى نفس الوقت الذى أنشأ فيه الديانة . ومع ذلك ، لا يمكن القول أنه تخيلها بنفسه . فمن هو إذن مؤلفها الحقيقى ؟ عند ما تكلمنا آنفاً عن تنظيم الأسرة وعن القوانين الإغريقية والرومانية التى كانت تنظم الملك والإرث والوصية والتبنى لاحظنا كم كانت هذه القوانين مطابقة بالضبط لعقائد الأجيال القديمة . وعند ما نضع هذه القوانين تجاه الإنصاف الطبيعى نجدها مناقضة له فى كثير من الأحيان ، ويبدو من البداهة بمكان أنهم لم يستمدوها من فكرة الحق المطلق والشعور بالعدل . ولكن لنضع هذه القوانين ذاتها تجاه عبادة الموتى والموقد ولنقارنها بالفرائض المختلفة فى هذه الديانة الأولى ولسوف نعرف عندئذ أنها متفقة جميعاً فى ذلك كله اتفاقاً كاملا .

---

(١) إيسايوس : ميراث أبولودوروس ٣٠ .

(٢) بوليدوكيس ٨ : ٩٠ . أندوكيديس : (*De mysteriis*) الأسرار ١١١ .

لم يكن للإنسان أن يتدبر ضميره ويقول : هذا عدل ، وهذا ليس بعدل فإن الشرع العتيق لم يولد على هذا النمط . وإنما كان الإنسان يعتقد أن الموقد المقدس ينتقل ، طبقاً للقانون الدينى ، من أب إلى ابن ؛ فنتج عن ذلك أن المنزل كان ملكاً وراثياً . كان الرجل الذى دفن أباه فى حقله يعتقد أن روح الميت يتملك هذا الحقل إلى الأبد وأنه يتطلب من ذريته عبادة دائمة ؛ ونتج عن ذلك أن الحقل ، وهو ملك الميت ومكان القرابين ، قد أصبح ملك أسرة ولا يجوز التنازل عنه . كانت الديانة تقول : يواصل الابن العبادة ، وليست البنت . فقال القانون مع الديانة : يرث الابن ولا ترث البنت ، ابن الأخ يرث ولا يرث ابن الأخت . تلك هى الطريقة التى كان يُعمل بها القانون ، لقد عرض نفسه من تلقاء ذاته دون أن يلجأوا للبحث عنه . كان النتيجة المباشرة ، الضرورية ، للعقيدة ؛ كان هو الديانة ذاتها مطبقة على علاقات الناس فيما بينهم .

كان القدماء يقولون إن قوانينهم أتت من الآلهة ؛ ولم يكن الإقريطشيون ينسبون قوانينهم لمينوس (Minos) بل لجوبيتر ؛ وكان اللاقيديمونيون يعتقدون أن مشرعهم لم يكن ليكورغ بل أپولون ؛ وكان الرومان يقولون إن نوما كتب تحت إملاء معبودة من أقوى معبودات إيطاليا القديمة : الآلهة إغيريا (Egérie) ؛ وتلقى الأتروسك قوانينهم من الإله تاغيس (Tagès) . وهناك شىء من الحق فى جميع هذه الأثارات . فإن الشارع الحقيقى عند الأقدمين لم يكن الإنسان بل العقيدة الدينية التى كان يحملها الإنسان فى ذاته .

ظلت القوانين شيئاً مقدساً أمداً طويلا . وحتى فى الزمن الذى قبلوا فيه أن إرادة رجل أو أصوات شعب تستطيع أن تعمل قانوناً ، كان لابد أن تستشار الديانة أو أن تكون راضية . كانوا يعتقدون فى روما أن إجماع الأصوات لم يكن كافياً لكى يكون هناك قانون . بل كان لا بد أن يقر الأحبار قرار الشعب وأن يشهد المستخيرون أن الآلهة تتقبل القانون المقترح قبولا حسناً (١) .

---

(١) Denys, IX, 41: *Τὰς φρατριαρχικὰς ψηφηφορίας ἔδει προβουλευσαμένης τῆς βουλῆς, καὶ τοῦ πλήθους κατὰ φρατρίας τὰς ψήφους ἐπενέγκαντος, καὶ μετ᾽ ἀμφότερα ταῦτα τῶν παρὰ τοῦ Δαιμονίου σημείων καὶ οἰωνῶν μηδὲν ἐναντιωθέντων, τότε κυρίας εἶναι.*
كانت هذه القاعدة تلاحظ بدقة بالغة فى القرن الأول من الجمهورية ثم اختفت فيما بعد أو وجدوا مخرجاً منها .

أراد عرفاء السوقة ، ذات يوم ، أن يقر مجلس القبائل قانوناً فقال لهم أحد البطارقة «أى حق لكم فى عمل قانون جديد أو المساس بالقوانين القائمة ؟ أنتم الذين ليس لكم حق الاستخارات ، انتم الذين لا تقومون فى مجامعكم بأعمال دينية ، أى نصيب لكم فى الديانة وفى جميع الأشياء المقدسة التى يجب أن يحسب القانون واحداً منها ؟ (١) .

ندرك من ذلك احترام القوانين والتمسك بها ، وهو ما حافظ عليه القدماء زمناً طويلا . لم يروا فى القوانين عملا بشرياً ؛ فقد كان لها أصل مقدس . لم يكن من اللغو أن يقول أفلاطون إن إطاعة القوانين هى إطاعة الآلهة . إنه لم يكن إلا معبراً عن الفكرة الإغريقية عند ما أظهر ، فى كريتون (Criton) ، سقراط وهو يهب حياته لأن القوانين طلبتها إليه . وقبل سقراط كتبوا على صخرة ثرموپيلاى (Thermopyles) «أيها المار اذهب وقل لإسپرطه إننا متنا هنا امتثالا لقوانينها » . كان القانون عند القدماء مقدساً على الدوام ؛ فى زمن الملكية كان ملك الملوك ؛ وفى زمن الجمهوريات كان ملك الشعوب ؛ وكانت مخالفته إثماً كبيراً .

كان القانون ، من حيث المبدأ ، غير قابل للتعديل ما دام أنه إلهى . ومما يلاحظ أنهم لم يلغوا قانوناً قط ، كان من المتيسر أن تسن قوانين جديدة لكن القديمة كانت تبقى دائماً مهما كان التناقض بين القديمة والجديدة . فإن قانون دراكون (Dracon) لم يلغه قانون صولون (٢) ، والقوانين الملكية لم تلغها

---

(١) Denys, X, 4: *Τίνος ὑμῖν μέτεστι τῶν ἱερῶν, ὧν ἔν τι καὶ νόμος ἦν*

Cf. Tite-Live, III, 41: *Nec plebem nec tribunos legem ferre posse.*

(٢) Andocide, *De mysteriis, 82: Ἔδοξε τῷ δήμῳ, Τισάμενος εἶπε, πολιτεύεσθαι Ἀθηναίους κατὰ τὰ πάτρια, νόμοις δὲ χρῆσθαι τοῦ Σόλωνος, χρῆσθαι δὲ καὶ τοῖς Δράκοντες θέσμοις, οἷσπερ ἐχρώμεθα ἐν τῷ πρόσθεν χρόνῳ.* انظر ديموستينيس : ضد إورغوس ٧١ ؛ ضد ليبتينوس ١٥٨ . بوليدو كيس ٩ : ٦١ — أولوس جيليوس ١١ : ١٨ : *Draconis leges, quoniam videbantur acerbiores, non decreto jussoque, sed tacito, illiteratoque Atheniensium consensu obliteratae sunt.*

اللوحات الإثنتا عشرة . والحجر الذى كان القانون منقوشاً عليه كان مصوناً لا يمس ؛ وعلى أكثر تقدير كان يعتقد أقل الناس تأثماً أنه مسموح له أن يقلبه ؛ وهذا المبدأ هو السبب الرئيسى فى الخلط الكبير الذى يلاحظ فى الشرع القديم . فكانت القوانين المتعارضة المختلفة العصور توجد مجتمعة فيه ، ومن حقها جميعاً أن تحترم . نرى فى مرافعة لإيسايوس رجلين يتنازعان ميراثاً ، كل منهما يدعى أن قانوناً ما فى صالحه ، والقانونان متناقضان تناقضاً مطلقاً ومقدسان على السواء . وكذلك كانت مجموعة قوانين مانو تحتفظ بالقانون القديم الذى كان يقر حق البكورة ، وتكتب بجواره آخر ينص على القسمة المتساوية بين الإخوة .

لم يكن للقانون القديم حيثيات قط . ولماذا تكون له حيثيات ؟ إنه لم يكن ملزماً بإبداء الأسباب . إنه موجود لأن الآلهة هى التى قد عملته . إنه لا يناقش بل يفرض . إنه عمل من أعمال السيطرة ؛ والناس يخضعون له لأنهم يؤمنون به .

لم تكن القوانين مكتوبة خلال أجيال طويلة بل كانت تنتقل مع العقيدة وصيغة الدعاء من أب لابن ، كانت أثارة مقدسة دائمة حول موقد الأسرة أو موقد المدينة .

واليوم الذى بدأوا يقيدونها فيه بالكتابة دونوها فيه فى الكتب المقدسة ، فى كتب الشعائر ، بين الأدعية والاحتفالات . ذكر ڤارون قانوناً قديماً لبلدة توسكولوم وأضاف أنه قرأه فى الكتب المقدسة لهذه البلدة (١) . ويقول ديونيسيوس الهاليكارناسى ، الذى يرجع للمستندات الأصلية ، إن القليل من القوانين الذى كان مكتوباً فى روما قبل عصر الرجال العشرة (Décemvirs) كان فى الكتب المقدسة (٢) . وقد خرج القانون ، فيما بعد ، من كتب الشعائر ؛ كتبوه على حدة لكن العادة استمرت على وضعه فى معبد واحتفظ الكهنة بحراسته .

---

(١) ڤارن : اللسان اللاتينى ٦ : ١٦ .

(٢) Denys, X, 1: Ἐν ἱεραῖς βίβλοις ἀποκείμενα

وسواء أكانت مكتوبة أو غير مكتوبة ، فقد كانت هذه القوانين مصوغة فى قالب أوامر موجزة جداً يمكن مقارنتها من حيث الشكل بآيات كتاب موسى أو فقرات (سلوكاس Çlocas) كتاب مانو . بل إن ظاهر الأمر يدل على أن كلمات القانون كانت منغمة (١). يقول أرسطو إنه قبل الزمن الذى كتبت فيه القوانين كانوا يرتلونها (٢) . وقد بقيت من ذلك ذكريات فى اللغة ؛ كان الرومان يسمون القوانين *carmina* (منظومات) (٣) وكان الإغريق يطلقون عليها *νόμοι* (أغانى) (٤) .

وهذه القصائد القديمة كانت نصوصاً لا مبدل لها . وتغيير حرف منها أو نقل كلمة أو تبديل النغم إن هو إلا إتلاف للقانون ذاته بإتلاف الصورة المقدسة التى نزل بها على الناس . فكان القانون كالدعاء الذى لم يكن يقبله المعبود إلا بشرط أن يتلى بالضبط و الذى كان يصبح إثماً إذا غيرت منه كلمة واحدة ؛ فالمظهر والنص الحرفى هو كل شىء فى الشرع البدائى ، ولا مجال للبحث عن معنى القانون أو روحه . لم تكن قيمة القانون مستمدة من المبدأ الخلقى المستكن فيه بل من الألفاظ التى تحويها صيغته . قوته فى الكلمات المقدسة التى كان يتألف منها .

لم تكن فكرة الحق ، عند القدماء ، وعلى الأخص فى روما ، تنفصل عن استعمال بعض ألفاظ مقدسة . فإن كان المقصود هو التعاقد على التزام مثلا كان على الواحد أن يقول : *Dari spondes?* وعلى الآخر أن يجيب : *spondeo* . فإذا لم يتلفظا بهذه الألفاظ فلا عقد هناك . وعبثاً يطالب الدائن بسداد دينه إذ أن المدين لم يكن مديناً بشىء . فإن الملزم للإنسان فى هذا الشرع العتيق لم يكن

---

(١) إيليانوس : قصص متنوعة ٢ : ٣٩

(٢) أرسطو *Probl.* ١٩ : ٢٨

(٣) تيتوس ليفيوس ١ : ٢٦ *Lex horrendi carminis erat,*

(٤) *Νέμω* يقتسم ؛ *νὸμος* فاصلة ، وزن ، نغم ، أغنية ؛ انظر بلوتارخوس: عن الموسيقى ص ١١٣٣ ؛ بنداروس ؛ البيثيات ١٢ : ٤١ ؛ القطعة ١٩٠ (طبعة هيين Heyne) شارح أرسطوفانيس : الفرسان ٩ : *Νὸμοι καλοὺνται οἱ εἰς θεοὺς ὕμνοι*

الضمير ولا الشعور بالعدالة بل الصيغة المقدسة . فإذا ماتليت هذه الصيغة بين رجلين فإنها كانت تقيم بينهما صلة شرعية . وحيث لا توجد الصيغة لا يوجد الشرع .

لن تدهشنا الصيغ الشاذة فى الاجراءات الرومانية إذا مافكرنا أن الشرع العتيق كان ديانة ، والقانون نصاً مقدساً ، والعدالة مجموعة شعائر . كان المدعى يطالب بواسطة القانون (*agit lege*) . كان يمسك الخصم بمنطوق القانون . لكن حذار : لكى يكون القانون فى صفه يجب عليه أن يعرف عباراته وأن ينطقها نطقاً مضبوطاً . فلو تلفظ بكلمة بدل أخرى لا نعدم القانون وعجز عن الدفاع عنه . ويروى غايوس قصة رجل اجتث جاره كرومه ، والواقعة ثابتة . فتلفظ بالقانون ، لكن القانون كان يقول أشجاراً وقال هو كروماً ؛ فأضاع قضيته (١) .

لم يكن منطوق القانون كافياً بل كان لابد من أن تصاحبه علامة خارجية ، تماثل شعائر الحفلة الدينية ، كانوا يسمونها عقداً أو يسمونها إجراءات المقاضاة . ولهذا السبب كان لابد من استعمال قطعة النحاس والميزان فى كل بيع . ولكى يبيع الإنسان شيئاً مالابد من مسكه بيده *mancipatio* ؛ وإذا تنازعوا ملكاً كانو يتمثلون نزاعاً وهمياً *manuum consertio* . ومن هنا جاءت الإجراءات الشكلية فى العتق والتحرير والدعاوى القضائية وكل الأعمال التمثيلية فى الإجراءات .

حيث ان القانون كان جزءاً من الديانة فقد كان له نصيبه من صفة السرية التى كانت لجميع ديانة المدن . فكانت صيغ القانون سراً مكتوماً كصيغ العبادة . كانت مخبأة عن الأجنبى بل مخبأة عن السوقى . ولم يكن ذلك لأن البطارقة حسبوا أنهم يستمدون قوة كبيرة من احتكار تملك القوانين بل لأن القانون ، بحكم أصله وطبيعته ، قد لاح لهم ، زمناً طويلا ، سراً لا يمكن أن يتلقنه الإنسان إلا بعد أن يكون قد تلقن أولا العبادة القومية والعبادة المنزلية .

---

(١) غايوس : القواعد ٤ : ١١ .

ثم إن الأصل الدينى للشرع العتيق يفسر لنا صفة من أهم صفات هذا الشرع. كانت الديانة مدنية محضة أى خاصة بكل مدينة ؛ فلم يكن مستطاعاً أن يصدر عنها غير شرع مدنى. لكن من المهم أن نميز المعنى الذى كان لهذه الكلمة عند القدماء. فعندما يقولون إن الشرع كان مدنياً *jus civile, νόμοι πολιτικοὶ* لم يكونوا يقصدون أن لكل مدينة مجموعة قوانينها فحسب، كما أن لكل دولة مجموعتها فى أيامنا هذه، بل كانوا يريدون أن يقولوا إنه لم تكن لقوانينهم قيمة ولا عمل إلا بين أعضاء المدينة الواحدة. لم يكن يكفى أن يسكن الإنسان مدينة لكى يخضع لقوانينها ويحتمى فيها بل لا بد أن يكون من مواطنيها. لم يكن القانون موجوداً بالنسبة للعبد، ولم يكن موجوداً كذلك بالنسبة للأجنبى. وسنرى فيما بعد أن الأجنبى المقيم فى بلدة ما لم يكن يستطيع أن يكون مالكاً فيها أو وارثاً أو موصياً، ولا أن يعقد عقداً من أى نوع ولا أن يمثل أمام محاكم المواطنين العادية؛ فإذا حدث أن كان دائناً لمواطن فى أثينا فإنه ما كان يستطيع أن يقاضيه لدفع دينه لأن القانون لم يكن يعترف بعقد صحيح من ناحيته.

وكانت هذه الترتيبات من جانب القانون ذات طابع منطقى كامل. لأن القانون لم يولد من فكرة العدالة بل من الديانة ولم يكن يمكن تصوره خارجها. فلكى توجد صلة حق بين رجلين كان لا بد أن تكون بينهما صلة دينية أى أن تكون لهما عبادة نفس الموقد ونفس القرابين. فإذا لم توجد هذه المشاركة الدينية بين رجلين فإنه لا يلوح فى الإمكان أن توجد بينهما أية صلة شرعية. ولم يكن للعبد أو للأجنبى نصيب فى ديانة المدينة. كان الأجنبى والمواطن يستطيعان أن يعيشا جنباً لجنب سنوات طويلة دون أن يفكر أحد فى إمكان إقامة صلة شرعية بينهما. فإن الشرع لم يكن إلا وجهاً من أوجه الدين. لا مشاركة فى الدين، فلا مشاركة فى القانون.

الفصل الثانى عشر

المواطن والأجنبى

كان يعرف المواطن من أن له نصيباً فى عبادة المدينة ، ومن هذه المساهمة كان يستمد كل حقوقه المدنية والسياسية . فإن تنازل عن العبادة فقد تنازل عن الحقوق . وقد تكلمنا آنفاً عن الأكلات العامة التى كانت أهم احتفال للعبادة القومية . وفى اسبرطه كان من يتخلف عن الحضور فيه ، حتى لو لم يكن ذلك نتيجة خطأ من جانبه ، يحرم فوراً من حسبانه بين المواطنين (١). كانت كل مدينة تحتم أن يشترك كل أعضائها فى أعياد عبادتها (٢) . وفى روما كان لا بد من الحضور فى احتفال النثار المقدس لكى يتمتع المرء بالحقوق السياسية (٣) . والرجل الذى لم يحضر أى الذى لم يشارك فى الدعاء العام والقرابين لا يعود مواطناً حتى النثار المقبل .

إذا أريد تحديد المواطن فى الأزمنة العتيقة بأهم خصائصه وجب القول أنه الرجل الذى يحوز ديانة المدينة ، وهو الذى يمجد نفس الآلهة الذين تمجدهم (٤) ، وهو الذى من أجله يقدم الأرخون أو سادن بيت النار

---

(١) أرسطو : السياسة ٢ : ٦ : ٢١ (٢ : ٧)

(٢) Boeckh, *Corp. inscr.*, n° 3641 *b*, t. II, p. 1131 . وكذلك فى أثينا ، كان الرجل الذى عين للمشاركة فى الأكلات العامة ولم يقم بهذا الواجب يقاضى ويعاقب . انظر قانونا ذكره أثينايوس ٦ : ٢٦ .

(٣) ديونيسيوس ٤ : ١٥ ؛ ٥ : ٧٥ . سيسرون : الدفاع عن كيكينيا ٣٤ ؛ فيليوس Velléius ٢ : ١٥ . وكانوا يقبلون استثناء للجنود فى الحرب ؛ ومع ذلك كان لا بد أن يرسل الرقيب من يدون أسماءهم حتى إذا ما قيدوا فى سجل الاحتفال اعتبروا حضوراً .

(٤) οὓς ἡ πόλις νομίζει θεοὺς νομίζων (Xénophon, *Mémor*. I, 1.)

القربان كل يوم (١) ، والذى له حق الاقتراب من المذابح ، والذى يستطيع أن ينفذ إلى داخل السور المقدس حيث تقوم المجامع ، والذى يشهد الأعياد والذى يتبع المواكب ويختلط فى مجامع الأعياد (panégyries) ، والذى يجلس إلى الأكلات المقدسة يتلقى نصيبه من الأضحية. لهذا أقسم هذا الرجل يوم قيد فى سجل المواطنين أن يمارس عبادة آلهة المدينة وأن يحارب من أجلهم (٢) . انظر مصطلحات اللغة : فالقبول بين المواطنين يعبر عنه فى اللغة الإغريقية بالألفاظ μετεῖναι τῶν ἱερῶν المساهمة فى القدسيات (٣) .

وبعكس ذلك الأجنبى ، فهو الذى لا منفذ له إلى الديانة ، والذى لا تحميه آلهة المدينة ، والذى ليس له حتى حق دعائهم ، إذ أن هؤلاء الآلهة القوميين لا يريدون تلقى الدعوات والقرابين إلا من المواطن ؛ إنهم يصدون الأجنبى ؛ فدخول معابدهم محرم عليه وحضوره أثناء الاحتفالات رجس . وقد بقى لنا شاهد على هذا الشعور القديم بالكراهية فى شعيرة من أهم شعائر العبادة الرومانية . عندما يضحى الحبر فى الهواء الطلق يجب أن يكون مقنع الرأس ، «إذ يجب ألا يتراءى وجه أجنبى لعينى الحبر أمام النيران المقدسة فى العمل الدينى للآلهة القوميين ؛ فإن ذلك يبلبل الاستخارات (٤) .» والشىء المقدس الذى

---

(١) عن القرابين التى كان يقدمها سادن النار كل يوم باسم البلدة ، انظر انتيفون : *Super choreuta*, 45

(٢) *Καὶ τὰ ἱερὰ τὰ πάτρια τιμήσω... ἀμυνῶ δὲ ὑπὲρ ἱερῶν.* الصيغة الكاملة لهذا القسم فى بوليدوكيس ٨ : ١٠٥ - ١٠٦

(٣) مرسوم خاص بالبالاتيين فى ديموسثينيس : ضد نيأيرا ١٠٤ . قارن نفس المرافعة ١١٣ : *τελετῶν καὶ ἱερῶν καὶ τιηῶν μετέχειν* . انظر أيضاً إيسوقراط : مجامع الأعياد (*Panégyr.*) واسترابون ٩ : ٣ : ٥ .

(٤) فرجيليوس : الإنييد ٣ : ٤٠٦ . فستوس تحت لفظ *Exesto* :
Lictor in quibusdam sacris clamitabat, hostis exesto.
نعرف أن *hostis* كانت تطلق على الأجنبى (ماكروبوس ١ : ١٧ ؛ فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ٣ ؛ بلاوتوس : صاحب النميات الثلاثة (*trinummus*) ١ : ٢ ، ٦٥) عند فرجيليوس تعنى عبارة *hostilis facies* وجه أجنبى .

يقع لفترة ما فى يد أجنبى يفقد قداسته على الفور ولا يمكن أن يستعيد صفته الدينية إلا باحتفال تكفيرى (١) . وإذا انتزع العدو مدينة ثم حدث أن استردها المواطنون فإنه لا بد قبل كل شىء من تطهير المعابد وإطفاء جميع المواقد وتجديدها فإن ملامسة الأجنبى لها قد دنستها (٢) .

وهكذا كانت الديانة تميز بين المواطن والأجنبى تميزاً عميقاً غير قابل للمحو (٣) . طالما كانت السيطرة على الأرواح لنفس هذه الديانة فإنها كانت تحرم على الأجانب حق المدينة . فى زمن هيرودوت لم تكن اسپرطه قد منحته لأحد اللهم إلا لواحد متكهن ؛ ومع هذا فقد كان لا بد لذلك من أمر صريح من الوحى (٤) . وكانت أثينا تمنحه أحياناً ولكن بأية حيطة . كان لا بد أولا من تصويت الشعب مجتمعاً على قبول الأجنبى ، ولم يكن ذلك يعد شيئاً. كان لا بد بعد تسعة أيام من تصويت مجمع ثان تصويتاً مماثلا بطريق التصويت السرى وأن يكون هناك ستة آلاف صوت موافق على الأقل : هذا الرقم يبدو جسيما إذا فكرنا أنه كان من النادر أن يجمع مجمع أثينى هذا العدد من المواطنين ؛ وأخيراً ، كان فى استطاعة أول طارىء من الأثينيين أن يعترض بنوع من الڤيتو وأن يهاجم المرسوم أمام المحاكم باعتباره مناقضاً للقوانين القديمة وأن يلغيه . حقاً إنه لم يكن هناك إجراء عام أحاطه الشارع بالصعوبات والاحتياطات بقدر ما أحاط الاجراء الذى يخلع على الأجنبى لقب المواطن ؛وتكاد الإجراءات التى

---

(١) ديجيست ، الكتاب ١١ ، الباب ٦ : ٣٦

(٢) يمكن أن نرى مثلا لهذه القاعدة فيما يختص ببلاد الاغريق فى بلوتارخوس أرستيديس ٢٠ . وفيما يختص بروما فى تيتوس ليفيوس ٥ : ٥٠ .

(٣) لقد تلطفت فيما بعد هذه القواعد التابعة للعصور الأولى. فقد حصل الأجانب على حق دخول معابد المدينة ووضع قربان فيها . ومع هذا بقيت بعض الأعياد وبعض القرابين يقصى عنها الأجنبى دائماً . أنظر : Boeckh, *Corp. inscr.*, n° 101:

Πειραιεῦσι νόμιμόν ἐστιν εἰσίεναι, ἄλλῳ δὲ μή.

(٤) هيرودوت ٩ : ٣٣ - ٣٥ . بيد أن أرسطو يقول أن ملوك اسبرطه القدماء كانوا يميلون إلى منح حق المدينة (السياسية ٢ : ٩ : ١٢)

يجب القيام بها أن تكون بقدر ما يلزم لإعلان الحرب أو سن قانون جديد . من أين أتى وضع هذا القدر من العقبات فى طريق الأجنبى الذى يريد أن يكون مواطناً ؟ من المؤكد أنهم لم يكونوا يخشون أن يُميل صوته الميزان فى المجامع السياسية . يخبرنا ديموسثينيس عن المبرر الحقيقى وعن فكرة الأثينيين الحقيقية «ذلك أنه يجب التفكير فى الآلهة والاحتفاظ للقرابين بطهارتها» . إقصاء الأجنبى هو «السهر على الاحتفالات المقدسة» . وقبول أجنبى بين المواطنين هو «اعطاؤه نصيباً فى الديانة وفى القرابين (١)» . ولم يكن يشعر الشعب فى مثل هذه الأمور أن له كامل الحرية بل كان يعتريه تأثم دينى ؛ إذ أنه كان يعلم أن الآلهة القوميين كانوا تواقين إلى إبعاد الأجنبي وأنه ربما أفسد حضور الطارىء الجديد القرابين . كان منح حق المدينة لأجنبى اعتداء حقيقياً على المبادىء الأساسية للعبادة القومية ولهذا كانت المدينة فى البدء جد ضنينة به ؛ ثم يجدر ملاحظة أن الرجل الذى يقبل مواطناً بهذا العناء لم يكن يستطيع أن يكون أرخوناً ولا كاهناً . كانت المدينة تسمح له حقاً بالمثول فى عبادتها ؛ أما رئاسته لها فقد كان فيه مجاوزة للحد .

ما من أحد كان يستطيع أن يكون مواطناً فى أثينا إذا كان مواطناً فى بلدة أخرى (٢) . إذ يستحيل من الناحية الدينية أن يكون عضواً فى مدينتين فى آن واحد ، كما رأينا أنه يستحيل أن يكون عضواً فى أسرتين . إذ ليس فى استطاعة أحد أن يتبع ديانتين فى آن واحد .

كانت المساهمة فى العبادة تجر معها حيازة الحقوق . ما دام المواطن يستطيع أن يشهد القربان الذى يسبق المجمع فقد كان يستطيع أن يصوت أيضاً . وما دام يستطيع أن يقدم القرابين باسم المدينة فقد كان يستطيع أن يكون سادنا لبيت النار أو أرخونا . وما دام متديناً بديانة المدينة فإنه كان يستطيع أن يستنجد بقانونها وأن يقوم بكل شعائر الإجراءات القانونية .

---

(١) ديموسثينيس : ضد نيارا ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) بلوتارخوس : صولون ٢٤ . سيسرون : الدفاع عن كيكينا ٣٤

وعلى عكس ذلك ليس للأجنبى أى حق، إذ ليس له أى نصيب فى الديانة؛ وإذا دخل نطاق المقدس الذى رسمه الكاهن للمجمع عوقب بالموت. إذ لا وجود لقوانين المدينة فيما يختص به. فإذا ما ارتكب جريمة عومل كما يعامل العبد، وعوقب من غير إجراء قضية لأنه لا حق له فى عدالة المدينة (١). وعندما وصلوا إلى الشعور بالحاجة إلى عدالة للأجنبى، كان لا بد من إقامة محكمة خاصة. فكان لروما بريتور لمحاكمة الأجنبى (*praetor peregrinus*) وكان قاضى الأجانب فى أثينا هو البوليمارخوس أى نفس رجل الدولة المكلف بمهام الحرب وجميع العلاقات مع العدو (٢).

لم يكن فى استطاعة الأجنبى أن يكون مالكاً فى روما أو فى أثينا (٣). ولم يكن فى استطاعته أن يتزوج، أو على الأقل لم يكن معترفاً بزواجه؛ والأطفال المولودون من قران مواطن بأجنبية كانوا يعتبرون نغالا (٤). ولم يكن يستطيع أن يتعاقد مع مواطن، أو على الأقل لم يكن القانون يعترف بقيمة ما لمثل هذا العقد. وفى الأصل لم يكن له حق المتاجرة (٥). وكان

---

(١) أرسطو: السياسية ٣: ١: ٣. أفلاطون: القوانين ٦

(٢) ديموسثينيس: ضد نيأيرا ٤٩. ليسياس: ضد بانتاليون ٢، ٥، ١٣. بوليدوكيس ٨: ٩١. هاربوقراطيون تحت لفظ Πελέμαρχος

(٣) اكسينوفون: *De vectigal*. ٢: ٦. كان فى استطاعة الأجنبى أن يحصل كخطوة فردية على ما يسميه الشرع الاغريقى ἔγκτησις والشرع الرومانى *jus commercii*

(٤) ديموسثينيس: ضد نيأيرا ١٦. ارسطوفانيس: الطيور ٦٥٢. أرسطو: السياسة ٣: ٣: ٥ بلوتارخوس: بريكلليس ٣٧. بوليدوكيس ٣: ٢١. أثينايوس ١٣: ٣٨. تيتوس ليفيوس ٣٨: ٣٦ و ٤٣. غايوس ١: ٦٧. البيانوس ٥: ٤ - ٩. بولوص ٢: ٩. كان لا بد من قانون خاص تصدره المدينة لاعطاء سكان بلدة أخرى الـ ἐπιγαμία أو الـ *connubium*

(٥) البيانوس ١٩: ٤. ديموسثينيس: الدفاع عن فورميون ٦؛ ضد إوبوليديس ٣١.

القانون الرومانى يحرم عليه أن يرث مواطناً بل يحرم على المواطن أن يرث منه (١)
وقد توغلوا فى هذا المبدأ إلى حد أنه إذا حصل غريب على حق المدينة الرومانية
دون أن يحصل ابنه الذى ولد قبل تلك الفترة على نفس الحظوة ، فإن الابن
يصبح غريباً عن الوالد ولا يستطيع أن يرث منه(٢) . فإن الفاصل بين المواطن
والأجنبى كان أقوى من الرابط الطبيعى بين الأب والابن .

قد يبدو لأول وهلة أنهم جعلوا همهم مناوءة الأجنبى . لكن الأمر لم يكن
كذلك. بالعكس، كانت أثينا وروما تستقبلانه استقبالا حسناً وتحميانه لأسباب
تجارية أو سياسية . لكن عطفهما وحتى مصلحتهما لم يستطيعا إلغاء القوانين
القديمة التى أقامتها الديانة . لم تكن هذه الديانة تسمح للأجنبى أن يصبح مالكاً .
إذ أنه لم يكن يستطيع أن يكون له نصيب فى الأرض الدينية للمدينة ، ولم تكن
تسمح للأجنبى أن يرث المواطن ولا للمواطن أن يرث الأجنبى إذ أن كل
انتقال للأملاك كان يجر وراءه انتقالا للعبادة . وكان يستحيل على المواطن
أن يقوم بعبادة الأجنبى كما كان يستحيل على الأجنبى أن يقوم بعبادة المواطن.

كان من المستطاع استقبال الأجنبى والسهر عليه بل تقديره إذا كان
ثرياً أو شريفاً ، لكنه لم يكن من المستطاع إعطاؤه نصيباً فى الديانة
أو الشرع . كان يعامل العبد من بعض النواحى بأحسن مما كان يعامل به
الأجنبى ؛ إذ أن العبد، باعتباره عضواً فى أسرة يشارك فى عبادتها ، كان
مرتبطاً بالمدينة عن طريق سيده ؛ فكانت الآلهة تحميه . لذلك كانت الديانة
الرومانية تقول إن قبر العبد مقدس أما قبر الأجنبى فليس كذلك. (٣)

لكى يعد الأجنبى شيئاً ما فى نظر القانون ، لكى يستطيع المتاجرة
والتعاقد والتمتع بما له فى أمان ، لكى يستطيع قضاء المدينة أن يحميه

---

(١) سيسرون : الدفاع عن أرخياس ٥. غايوس ٢ : ١١٠ .

(٢) بوسانياس ٨: ٤٣ .

(٣) ديجيست ، الكتاب ١١ ، الباب ٧ : ٢ ؛ الكتاب ٤٧ ، الباب ١٢ : ٤

حماية فعالة كان لا بد من أن يكون مولى لمواطن . كانت روما وأثينا تريدان أن يتخذ كل أجنبى ولياً (١) . فإذا ما وضع الأجنبى نفسه فى الولاء وفى تبعية مواطن فإنه كان يرتبط بالمدينة عن طريق هذا الوسيط ؛ ويساهم عندئذ فى بعض فوائد الشرع المدنى ويتحصل على حماية المدينة .

كانت المدن القديمة تعاقب على معظم الأغلاط التى كانت ترتكب نحوها بتجريد المذنب من صفة المواطن ، ويسمى هذا العقاب *ἀτιμία* (٢) . ولم يكن للرجل الذى ينزل به هذا العقاب أن يتولى أى منصب ولا أن يكون عضواً فى المحاكم ولا أن يتكلم فى المجامع . وفى نفس الوقت كانت الديانة محرمة عليه . ويقول منطوق الحكم «إنه لن يدخل فى أى قدس من أقداس المدينة ولن يكون له الحق فى لبس تاج من الزهور فى الأيام التى يضع فيها المواطنون تيجاناً ، وإنه لن يضع قدمه فى النطاق الذى خطه ماء النثار ودم الأضحية فى الساحة العامة للمدينة (agora)»(٣) . إن آلهة المدينة لم تعد موجودة بالنسبة له .

---

(١) هاربوقراتيون تحت لفظ *Προστάτης* . بوليدوكيس ٣: ٥٦ . ليكورغ : ضد ليوقراطيس ٢١ . ارسطو : السياسية ٣ : ١ : ٣

(٢) عن الـ *ἀτιμία* فى أثينا أنظر أيسخينيس : ضد تيمارخوس ٢١ ؛ أندوكيديس: الأسرار ٧٣ - ٨٠ ؛ بلوتارخوس : فوقيون ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ - عن الـ *ἀτιμία* فى إسپرطه ، هيرودوت ٧ : ٢٣١ ثوقيديديس ٥ : ٣٤ ؛ بلوتارخوس : أغيسيلاوس ٣٠ . - وكانت نفس العقوبة موجودة فى روما ؛ وكانوا يعبرون عنها بالمصطلحين *infamia* أو *tribu movere*، تيتوس ليفيوس ٥ : ٢ ؛ ٢٤ : ١٨ ؛ ٢٩ : ٣٧ ؛ ٤٢ : ١٠ ؛ ٤٥ : ١٥ ؛ سيسرون : الدفاع عن كلوينتيوس ٤٣ ؛ الخطيب ٢ : ٦٧ ؛ فاليريوس ماكسيموس ٢ : ٩ : ٦ ؛ بس . اسكونيوس طبعة أورلى ص ١٠٣ (Ps. Asconius, éd. Orelli, p. 103) ؛ ديجست : الكتاب ٣، الباب ٢ . وقد ترجم ديونيسيوس (١١ : ٦٣) *infames* بكلمة *ἄτιμοι* وترجم ديون كاسيوس (٣٨ : ١٣) *tribu movere* بكلمة *ἀτιμάζειν*

(٣) Eschine, *In Timarchum*: *Μὴ ἐξέστω αὐτῷ ἱερωσύνην ἱεράσασθαι, μήδ᾽ εἰς τὸ δημοτέλη ἱερὰ εἰσίτω, μήδ᾽ ἐν ταῖς κοιναῖς στεφανηφορίαις στεφανούσθω, μήδ᾽ ἐντὸς τῶν τῆς ἀγορᾶς περιρραντηρίων πορευέσθω.*
Lysias, *In Andocidem*, 24: *Εἴργεσθαι τῆς ἀγορᾶς καὶ τῶν ἱερῶν·*

وكان يفقد فى نفس الوقت جميع الحقوق المدنية ، فلا يظهر أمام المحاكم حتى كشاهد . وإذا غبن لا يسمح له أن يشتكى ؛ «ويمكن ضربه من غير عقاب»(٤) فإن قوانين المدينة لا تحميه ، ولم يعد له حق فى شراء ، ولا بيع ، ولا عقد من أى نوع (٥). لقد أصبح غريباً فى البلدة وجرد من كل شىء دفعة واحدة : فإن الحقوق السياسية والدينية والحقوق المدنية كانت كلها مجموعة يتضمنها لقب مواطن وتُفقد بفقده .

---

(٤) Plutarque, Agésilas,30: *Παίει ὁ βοὺλόμενος αὐτούς.*-Lysias, *In And.*, 24: *῞Ωστε μήδ᾽ ἀδικουμενον ὑπὸ τῶν ἐχθρῶν δύνασθαι δίκην λαβεῖν.*— Démosthène, *In Midiam*, 92: *᾽Ατιμία νόμων καὶ δικῶν καὶ πάντων στέρησις.* تبين المرافعة ضد نيأيرا(٢٦: ٢٨) أن الـ *ἄτιμος* لم يكن مسموحاً له حتى بالشهادة أمام المحاكم .

(٥) لم يكن يستطيع فى اسپرطه أن يشترى أو أن يبيع أو أن يعقد زواجا و أن يزوج ابنته لمواطن. ثوقيديديس ٥: ٣٤ وبلوتارخوس: اغيسيلاوس ٣٠ .

الفصل الثالث عشر

الوطنية والنـــفى

كلمة الوطن عند القدماء معناها أرض الآباء(*terra patria*) ، فوطن كل رجل هو الجزء من الأرض الذى قدسته ديانته المنزلية أو القومية ، الأرض التى أودعت عظام أسلافه فيها وتشغلها أرواحهم . الوطن الصغير هو قطعة الأرض التى للأسرة بقبرها وموقدها ؛ والوطن الكبير هو المدينة ببيت نارها وأبطالها ، بسورها المقدس ومنطقتها التى حددتها الديانة . كان الإغريق يقولون «أرض الوطن المقدسة» ولم تكن تلك الكلمة عبثاً . فإن هذه الأرض كانت مقدسة للإنسان حقاً إذ كانت تسكن فيها آلهته . فالدولة والمدينة والوطن لم تكن معنويات كما هى عند المحدثين ؛ بل كانت تمثل فى الواقع مجموعة كاملة من المعبودات المحلية مع عبادة يومية وعقائد مسيطرة على الروح .

ومن هذا تفسر وطنية القدماء ، تلك العاطفة العنيفة التى كانت عندهم الفضيلة العليا ، والتى كانت تنتهى إليها جميع الفضائل الأخرى . فكان كل ما هو أعز على الإنسان من سواه يفنى فى الوطن . فى الوطن كان يجد صالحه وأمنه وحقه وإيمانه وإلهه . فإذا فقده فقد كل شىء . لذلك كاد يصبح من المستحيل أن يكون الصالح الخاص غير متفق مع الصالح العام . يقول أفلاطون : إن الوطن هو الذى يلدنا ويطعمنا ويربينا . ويقول صفوكليس : الوطن هو الذى يحفظنا .

مثل هذا الوطن لا يكون مجرد سكن للإنسان . فليترك المرء أسواره المقدسة وليتخط الحدود المقدسة للمنطقة ، إنه لن يجد لنفسه ديانة ولا رابطة اجتماعية من أى نوع كان . فهو فى كل مكان ، عدا وطنه ، منبوذ من الحياة المنتظمة ومن الحق . وهو فى كل مكان آخر لا إله له ومنبوذ من الحياة المعنوية . فهناك فقط له كرامة الإنسان وواجباته . إنه لا يستطيع أن يكون إنساناً إلا هناك .

إن الوطن ليمسك بالإنسان رابطاً إياه برباط مقدس ؛ ويجب أن يُحب كما تُحب الديانة وأن يطاع كما يطاع الله «يجب أن يهبه الإنسان نفسه كاملة وأن يضع فيه كل شيء وأن ينذر له كل شيء» ، يجب أن يحب ، مجيداً كان أو خاملا ، سعيداً أو تعساً . يجب أن يحب فى آلائه وأن يحب أيضاً فى صرامته. يتحتم ألا ينقص حب سقراط للوطن لأنه حكم عليه بغير حق يجب أن يحب الوطن ، كما أحب إبراهيم ربه ، حباً يحمله على أن يضحى له بابنه . وعلى الأخص ، يجب أن يعرف الإنسان كيف يموت من أجله . فإن الإغريقى والرومانى لا يموت قط تفانياً لرجل ولا ثورة للشرف لكن حياته دين للوطن لأنه إذا اعتُدى على الوطن فقد اعتدى على ديانته . إنه يحارب حقاً من أجل مذابحه ومواقده *pro aris et focis*(١) لأنه إذا استولى العدو على بلدته فإنه سيهدم مذابحه ويطفىء مواقده ويدنس مقابره ويحطم آلهته ويمحو عبادته ؛ حب الوطن هو تقوى القدماء .

لا بد أن حيازة الوطن كانت ثمينة جداً فإن القدماء لم يتصوروا عقاباً أقسى من حرمان الإنسان من وطنه ، فكان النفى هو العقاب المألوف على الجرائم الكبيرة

لم يكن النفى قاصراً على تحريم الإقامة فى البلدة والبعد عن أرض الوطن بل كان يتناول فى نفس الوقت الحرمان من العبادة ، إنه كان يتضمن ما يسميه المحدثون النفى من الجماعة (الحرمان من الكنيسة) ، فنفى رجل معناه طبقاً للصيغة المستعملة عند الرومان حرمانه من النار والماء (٢) ، ويجب أن نفهم من هذه النار نار القرابين ومن هذا الماء ماء النثار (٣) . فكان النفى إذن يضع الإنسان خارج الديانة ، وفى اسبرطه أيضاً عندما يحرم إنسان من حق المدينة كانت تحرم عليه النار (٤). أنطق شاعر أثينى شخصية من شخصياته بالصيغة المفزعة التى تصب على المنفى

---

(١) ومن هنا صيغة القسم التى كان يتلوها الأثينى الصغير: *Ἀμυνῶ ὑπὲρ τῶν ἱερῶν* بوليدوكيس ٨ : ١٠٥ : ليكورغ : ضد ليوقراطيس ٧٨ .

(٢) سيسرون : من أجل منزله ١٨ . تيتوس ليفيوس ٢٥ : ٤ . البيانوس ١٠ : ٣

(٣) فستوس طبعة ميلر ص ٢ .

(٤) هيرودوت ٧ : ٢٣١ .

«قال منطوق الحكم : ليعزب ولا يقترب إطلاقاً من المعابد . لا يكلمه مواطن ولا يتلقاه أحد . لا يتقبله إنسان فى الصلوات ولا فى القرابين ولا يقدم له أحد ماء النثار (١) » . كل بيت يدنسه حضوره والرجل الذى يتقبله يصبح نجساً بملامسته . يقول القانون «من أكل أوشرب معه أولمسه وجب عليه أن يتطهر»(٢). وتحت تأثير هذا النفى من الجماعة لم يكن يستطيع المنفى أن يقوم بنصيب فى أى احتفال دينى . إنه لم تعد له عبادة ولا أكلات مقدسة ولا صلوات لقد حُرم إرثه فى الديانة .

يجب أن نفكر تماماً فى أن الله لم يكن عند القدماء موجودا فى كل مكان. وإذا كانت لديهم فكرة عن معبود للكون فإنه لم يكن ، فى اعتبارهم ، المنعم عليهم ، ولم يكن هو الذى يوجهون إليه الدعاء . فإن آلهة كل شخص هم الذين كانوا يسكنون منزله وقريته وبلدته ؛ وعندما يترك المنفى وطنه يترك آلهته أيضاً ، فلا يعود يرى فى أى مكان ديانة تستطيع أن تعزيه وأن تحميه، ولا يعود يحس منعما يسهر عليه ؛ لقد انتزعت منه سعادة الدعاء ؛ وأصبح بعيداً عنه كل ما يستطيع أن يسد حاجته الروحية .

كانت الديانة هى النبع الذى تنساب منه الحقوق المدنية والسياسية . فكان المنفى يفقد كل ذلك بفقدانه ديانة الوطن . وما دام قد أقصى عن ديانة المدينة فقد كان يرى نفسه وقد انتزعت منه فى نفس الوقت عبادته المنزلية وكان عليه أن يطفىء موقده (٣) . لم يعد له حق الملك ؛

---

(١) صوفوكليس : أوديبوس ٢٢٩ - ٢٥٠ - وكذلك كان الأمر فى الـ*ἀτιμία* التى كانت نوعاً من النفى الداخلى .

(١) Platon, *Lois*, IX, p. 881: *Φευγέτω ἀειφυγίαν ἐξ ἄστεος καὶ πάντων ἱερῶν, εἰργέσθω... Ἐὰν δέ τις τῷ τοιούτῳ συμφάγῃ ἢ συμπίῃ ἤ τινα ἄλλην κοινωνίαν κοινωνήσῃ, ἢ καὶ μόνον ἐντυγχάνων προσάπτηται, μήτε εἰς ἱερὸν ἔλθῃ μήτ᾽ εἰς ἀγορὰν πρότερον ἢ καθήρηται.*

(٣) أوفيديوس : الحزينات ١ : ٣ : ٤ . *Exstinctos focos*

فقد كانت أرضه وأملاكه تصادر لمنفعة الآلهة أو لمنفعة الدولة (١) . وحيث إنه لم تعد له عبادة فإنه لم تبق له أسرة ، وكف عن أن يكون زوجاً وأباً . لم يعد أبناؤه فى سلطته(٢). وزوجته لم تعد زوجته وتستطيع أن تتخذ زوجاً آخر على الفور(٣). تأمل ريغولوس (Régulus) : إنه أسير العدو ، والقانون الرومانى يعتبره مثيلا للمنفى ؛ وعند ما سأله مجلس الشيوخ رأيه رفض الإدلاء به إذ أن المنفى لم يعد عضواً فى مجلس الشيوخ ؛ وعندما اندفعت زوجته وأولاده نحوه دفع عن نفسه احتضانهم له لأن المنفى لم يعد له أطفال ولا زوجة :

Fertur pudicae conjugis osculum
parvosque natos, *ut capitis minor,*
A se removisse. (٤)

وهكذا كان المنفى بفقده ديانة المدينة وحقوقها يفقد ديانة الأسرة وحقوقها : لم يعد له موقد ولا زوجة ولا أطفال ؛ وإذا ما مات لا يمكن دفنه فى

---

(١) تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٨ ؛ ٢٥ : ٤ . ديونيسيوس ١١ : ٤٦ . ديموسثينيس : ضد ميدياس ٤٣ . ثوقيديديس ٥ : ٦٠ . بلوتارخوس : ثميستوكليس ٢٥ . بوليدوكيس وكانت تلطف هذه القاعدة فى بعض الأحيان . ويمكن فى بعض الأحيان ترك الأملاك للمنفى أو تحويلها لأطفاله . أفلاطون : القوانين ٩ ص ٨٧٧ . هذا ويجب ألا نخلط فى شىء ما بين الاوستراكسيموس والنفى فان الأول لم يكن يجر معه المصادرة .

(٢) قواعد جوستينيانوس ١ : ١٢ : ١ . غايوس ١ : ١٢٨ :
Cui aqua et igni interdicitur, proinde, ac mortuo eo liberi desinunt in potestate esse.

وكذلك لم يكن المنفى فى سلطة أبيه (غايوس نفس المرجع) فما دامت روابط الأسرة قد انفصمت فان حقوق الميراث تختفى .

(٣) انظر فى ديونيسيوس ٨ : ٤١ وداع كوريولانوس لزوجته : «لم يعد لك زوج، ليتك تجدين زوجاً آخر أسعد منى» ويضيف أن أبناءه لم يعد لهم أب . ولم يكن ذلك تفخيم من خطيب بليغ بل عبارة الشرع العتيق .

(٤) هوراسيوس odes ٣ : ٥ . كلمة capitio minor يفسرها الـ capitis deminutio فى الشرع الرومانى ، وهو ما كان ينتج عن النفى . ـ انظر غايوس ١ : ١٢٩ :
Si ab hostibus captus fuerit parens, pendet jus liberorum.
من الناحية القانونية، كان ريغولوس، الذى كان أسيراً بناء على وعده، *servus hostium* حسب تعبير غايوس (نفس المرجع) وبالتالى لم تعد له حقوق المدينة ولا حقوق الأسرة : انظر أيضاً سيسرون : الواجبات (*De officiis*) ٣ : ٢٧ .

ثرى المدينة ولا فى قبر أسلافه (١) . لقد أصبح أجنبياً .

وليس من العجب إذن أن الجمهوريات القديمة تكاد تسمح للمذنب دائماً بأن يفر من الموت بالهروب من الوطن . فإن النفى لم يكن يبدو لهم أخف وطأة من الموت (٢) . لقد كان الفقهاء الرومان يسمونه عقاباً بالإعدام .

(١) ثوقيديديس ١ : ١٣٨

(٢) تلك هى الفكرة التى يعبر عنها أوريبيديس : إلكترا ١٣١٥ ؛ الفينيقيات ٣٨٨ ، ويعبر عنها أفلاطون : كريتون ص ٥٢ .

الفصل الرابع عشر

روح البلديات

لقد استطاع ما رأيناه للآن عن الأنظمة القديمة ، وعلى الأخص عن العقائد القديمة ، أن يعطينا فكرة عن الفارق العميق الذى كان يميز مدينتين دائماً ؛ فهما كانتا متجاورتين فإنهما كانتا تكوّنان مجتمعين منفصلين تمام الانفصال ؛ لقد كان بينهما شيء أكبر من المسافة التى تفصل اليوم بلدتين ؛ وأكثر من الحدود التى تفصل دولتين ؛ كانت الآلهة فيهما مختلفة وكذلك الاحتفالات والصلوات ، كانت عبادة مدينة ما محرمة على الرجل من أهل المدينة المجاورة . كانوا يعتقدون أن آلهة بلدة ما تعرض عن تمجيد أولئك الذين لم يكونوا مواطنين لها وعن صلواتهم .

حقاً إن هذه العقائد القديمة قد تغيرت مع الزمن وأصبحت أكثر مرونة ، لكنها كانت فى عنفوان قوتها فى العصر الذى تكونت فيه المجتمعات ، وقد احتفظت هذه المجتمعات بهذا الطابع على الدوام .

يسهل علينا أن نتصور شيئين : أولا أن هذه الديانة الخاصة بكل مدينة هى التى كونت المدينة تكويناً قوياً جداً يكاد لا يتزعزع . وإنه لعجيب حقاً أن يعيش هذا النظام الاجتماعى كل ذلك الزمن على الرغم من عيوبه وكل مقومات دماره ؛ فضلا عن أنه كان من أثر هذه الديانة أن جعلت إقامة أى شكل اجتماعى غير المدينة أمراً مستحيلا لقرون طويلة .

كان من المحتم على كل مدينة بحكم ديانتها نفسها أن تكون مستقلة تماماً . وكان من المحتم أن تكون لكل واحدة مجموعة قوانينها الخاصة ما دام لكل واحدة ديانتها ومن الديانة كان يصدر القانون . كان من المحتم أن يكون لكل واحدة سيادتها القضائية ، ولا يمكن أن تكون هناك سلطة قضائية أعلى من سلطة

المدينة . كان لـكل منها أعيادها الدينية وتقويمها . لا يمكن أن تكون الشهور والسنة واحدة فى بلدتين ما دامت مجموعة الأعمال الدينية مختلفة . وكان لـكل منها عملتها الخاصة والتى كانت فى الأصل تحمل عادة رمزها الدينى . وكان لـكل مدينة أوزانها ومقاييسها . لم يكونوا يسمحون بوجود شىء مشترك بين مدينتين . كان الخط الفاصل بين بلدين مختلفين من العمق بحيث عسر عليهم أن يتصوروا أن الزواج مسموح به بين سكان هاتين البلدين . ومثل هذا الاقتران كان يبدو غريباً على الدوام وظل زمناً طويلا يعتبر غير مشروع . كان تشريع روما وأثينا يعاف قبوله بشكل واضح . وفى كل مكان تقريباً كانوا يخلطون بين الأطفال المولودين من مثل هذا الزواج وبين النغال ويحرمونهم من حقوق المواطن . لـكى[١] يكون الزواج مشروعاً بين أهالى بلدتين كان لا بد أن يكون بينهما اتفاق خاص (*jus connubii, ἐπιγαμία*) [٢] .

كان لـكل مدينة حول منطقتها خط من الحدود المقدسة . وكان هو أفق ديانتها القومية وآلهتها . وفيما وراء هذه الحدود كانت تتحكم آلهة أخرى وتقام عبادة أخرى [٣] .

---

(١) بوليدوكيس ٣ : ٢١ : *Νόθος ὁ ἐκ ξένης ἢ παλλάκιδος*. ـ وفى قانون ذكر أثينايوس ١٣ : ٣٨ : *ὃς ἂν μὴ ἐξ ἀστῆς γένηται νόθον εἶναι* ديموسثينيس : ضدنيأيرا ١٦ . بلوتارخوس : بريكليس ٣٧ .

(٢) ليسياس : *De antiqua reip. forma, 3* ديموسثينيس : من أجل التاج ٩١ . إيسوقراط *Plataie., 51* ـ غايوس ١ : ٦٧ ؛ البيانوس ٥ : ٤ ؛ تيتوس ليفيوس ٤٣ : ٣ ؛ ٣٨ : ٣٦ .

(٣) بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٥ . أفلاطون : القوانين ٨ ص ٨٤٢ . بوسانياس فى مواضع متفرقة . بوليدوكيس ١ : ١٠ . Boeckh. *Corp. inscript.*, t. II, p. 571 et 887 . كان خط الحدود المقدسة التى تحدد الـ *ager romanus* لا يزال موجوداً فى عصر استرابون ، وعلى كل واحد من هذه الأحجار كان الـكهنة يقدمون قرباناً كل عام (استرابون ٥ : ٣ : ٢) .

إن أبرز صفات تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا قبل الفتح الرومانى لهو التفتت المبالغ فيه وروح العزلة لدى كل مدينة . لم تنجح بلاد الإغريق إطلاقاً فى تكوين دولة واحدة ؛ ولم تستطع البلدان اللاتينية ولا البلدان الأتروسكية ولا القبائل السامنية أن تكون هيئة مندمجة قط . لقد نسب انقسام الإغريق الذى استعصى شفاوه إلى طبيعة بلادهم وقيل إن الجبال التى تتقاطع فيها تقيم بين الناس خطوطاً طبيعية فاصلة ؛ لكنه لم تكن هناك جبال بين ثيبه وپالاتيا ؛ بين أرغوس واسپرطه ؛ بين سيباريس وكروتون . ولم يكن هناك شىء منها بين بلدان اللاتيوم ولا بين المدن الإثنتى عشرة فى إترووريا . لا مرية أنه كان للطبيعة بعض الأثر فى تاريخ الشعوب لكن عقائد الإنسان كان لها أثر أعظم سلطاناً ؛ فقد كان بين أى مدينتين شىء أكثر من الجبل استعصاء على العبور : ألا وهو سلسلة الحدود المقدسة ، ألا وهو اختلاف العبادات ، ألا وهو الحاجز الذى أقامته كل مدينة بين الأجنبى وبين آلهتها . كانت تحرم على الأجنبى أن يدخل معابد معبوداتها المدنية ؛ وكانت تفرض على معبوداتها المدنية كراهية الأجنبى ومحاربته (١) .

ولهذه العلة لم يستطع القدماء أن يقيموا نظاماً اجتماعياً غير نظام المدينة ولم يتصوروا غيره. ظل الإغريق والإيطاليون والرومان أنفسهم زمناً طويلا لا يفكرون فى أنه فى استطاعة عدة بلدان أن تتحد وتعيش على قدم المساواة تحت حكومة واحدة . كان من الجائز أن يوجد حلف بين مدينتين ، أى اشتراك موقت من أجل نفع يجلب أو خطر يدفع ، لكنه لم يكن هناك اتحاد كامل قط ؛ إذ أن الديانة كانت تجعل من كل بلدة هيئة لا يمكن أن تندمج فى أية هيئة أخرى . كانت العزلة هى قانون المدينة .

كيف كانت تستطيع عدة مدن أن تمتزج فى دولة واحدة مع وجود العقائد والعادات الدينية التى رأيناها ؟ لم يكونوا يفهمون الارتباط البشرى ولم يكن

---

(١) يرى بما فيه الكفاية أننا لا نتكلم هنا إلا عن العصر العتيق للمدن . وقد ضعفت هذه الإحساسات كثيراً بمضى الزمن .

يبدو لهم قانونياً إلا بقدر ما يرتكز على الديانة . ومن المحتم أن يكون رمز هذا الارتباط أكلة مقدسة تؤكل جماعة . كان يستطيع بضعة آلاف من المواطنين أن يجتمعوا ، إذا حزب الأمر ، حول بيت نار (پريتانيون) واحد ، ويتلوا نفس الدعاء ويقتسموا الأطعمة المقدسة . لكن حاول أن تنشأ دولة واحدة من جميع بلاد الإغريق مع وجود هذه العادات . كيف يمكن القيام بالأكلات العامة وبكل الاحتفالات المقدسة التى يفرض على جميع المواطنين أن يشهدوها ؟ أين يكون بيت النار ؟ كيف يعمل النشار السنوى للمواطنين جميعاً ؟ ماذا يصبح أمر الحدود المصونة التى كانت تعلّم بها فى بادىء الأمر أرض المدينة ، والتى كانت تفصلها عن بقية الأرض إلى الأبد؟ ماذا يكون أمر جميع العبادات المحلية والمعبودات المدنية والأبطال الساكنين فى كل ناحية ؟ كان لدى أثينا على أرضها البطل أوديپوس عدو ثيبه ، فكيف يكون الجمع بين أثينا وثيبه فى عبادة واحدة وفى حكومة واحدة ؟ .

عندما ضعفت هذه الخرافات (وهى لم تضعف فى ذهن العامة إلا بعد زمن طويل) كان الوقت الذى يقام فيه شكل جديد من أشكال الدولة قد فات ، كان الانقسام مقدساً بحكم التعود والمنفعة والبغض المتأصل وذكرى المناضلات القديمة . لم يعد هناك مجال للعودة إلى الماضى .

كانت كل بلدة شديدة التمسك باستقلالها الذاتى (***autonomia***) ؛ وكانت تطلق هذه الكلمة على مجموعة تشمل عبادتها وشرعها وحكومتها وكل استقلالها الدينى والسياسى .

ولقد كان أسهل جداً على مدينة ما أن تخضع أخرى من أن تضمها ؛ وكان فى استطاعة الانتصار أن يجعل من جميع سكان البلدة التى يستولى عليها عدداً من العبيد لكنه لم يكن يستطيع أن يجعل منهم مواطنين للمنتصر . لذلك كان إدماج مدينتين فى دولة واحدة أى ضم الأهالى المغلوبين إلى الأهالى المنتصرين هو الشىء الوحيد الذى لا نراه قط عند القدماء ، ماعدا استثناء يكاد يكون وحيداً

ستتكلم عنه فيما بعد. إذا استولت اسبرطه على مسينيا (Messénia) فإن ذلك لم يكن ليجعل الاسبرطيين والمسينيين شعباً واحداً ؛ فانها قد طردت المغلوبين أو استعبدتهم واغتصبت أراضيهم . وكذلك فعلت أثينا تجاه سلامين وإيغينا وميلوس .

كان إدخال المغلوبين فى مدينة الغالبين فكرة لا تعرض لذهن أحد . كان للمدينة آلهة وأناشيد وأعياد وقوانين هى ميراثها الثمين ؛ وكانت تحترس جيداً من إعطاء جزء منها للمقهورين . بل إنه لم يكن لها الحق فى ذلك : أكان فى استطاعة أثينا أن تسمح بدخول أحد أهالى إيغينا (Egine) فى معبد أثينايا المدنية ؟ وأن يقوم بعبادة ثيسييوس ؟ وأن يساهم فى الأكلات المقدسة ؟ وأن يرعى الموقد العام باعتباره سادن بيت النار ؟ كانت الديانة تحرم ذلك . وإذن لم يكن فى استطاعة أهالى جزيرة إيغينا المغلوبين أن يكونوا دولة واحدة مع أهالى أثينا ، وحيث أنه لم تكن لهم نفس الآلهة فإنه لم يكن فى استطاعة الإيغينيين والأثينيين أن تكون لهم نفس القوانين ولا نفس رجال الدولة .

لكن ، ألم يكن فى استطاعة أثينا ، ما دامت قد تركت البلدة المغلوبة قائمة أن ترسل على الأقل حكاماً يقيمون فيها ليحكموها ؛ كان ممايتنافى تماماً مع مبادىء القدماء أن تحكم مدينة على يد رجل ليس من مواطنيها . إذ أن رجل الدولة يجب أن يكون رئيساً دينياً وكانت وظيفته الرئيسية القيام بالقربان باسم المدينة. فالأجنبى الذى لم يكن من حقه أن يقدم القربان لم يكن يستطيع إذن أن يكون حاكما . وحيث أنه لم تكن له أية وظيفة دينية فإنه لم تكن له فى أعين الناس أية سلطة منظمة . حاولت اسبرطه أن تضع ولاتها المسمين هارموستيس (Harmostes) فى البلدان ؛ لكن هؤلاء الناس لم يكونوا حكاماً، ولم يكونوا يقضون بين الناس، ولم يكونوا يظهرون فى المجامع ؛ وما دامت لم تكن لهم أية صلة منظمة بشعب المدن فإنهم لم يستطيعوا أن يبقوا زمناً طويلا .

نتج عن ذلك أنه كان على كل غالب أن يختار بين هدم المدينة المغلوبة أو احتلال أرضها أو تركها مستقلة . لم يكن هناك حل وسط . فإما أن تكف المدينة

عن الوجود وإما أن تكون دولة ذات سيادة . وما دامت لها عبادتها فلا بد أن تكون لها حكومتها ولا تفقد احداهما إلا بفقدان الأخرى ، وعندئذ تنقطع عن الوجود .

هذا الاستقلال المطلق للمدينة القديمة لم ينقطع إلا عند ما اختفت العقائد التى تأسست عليها اختفاء تاما . بعد أن تبدلت الأفكار ومرت عدة ثورات على هذه المجتمعات العتيقة، عندئذ استطاعوا أن يصلوا إلى إدراك دولة أكبر تهيمن عليها قواعد أخرى وإلى إقامة هذه الدولة . لكن كان لا بد لذلك من أن يكشف الناس عن مبادىء أخرى وعن رابطة اجتماعية أخرى غير ما كان متبعاً فى تلك العصور القديمة .

الفصل الخامس عشر

العلاقات بين المدن ، الحرب ، السلم ، تحالف الآلهة

كان للديانة سلطان كبير على حياة المدينة الداخلية ، وكانت تتدخل بنفس السلطان فى جميع العلاقات التى كانت بين المدن . وهو ما يمكن أن يرى من ملاحظة كيف كان يتحارب أهل هاتيك العصور القديمة ، وكيف كانوا يعقدون السلم ، وكيف كانوا يكونون المحالفات .

مدينتان : معنى ذلك مجموعتان دينيتان ليست لهما نفس الآلهة . فإذا كانتا فى حرب فإن الرجال لا يحاربون وحدهم بل كانت الآلهة أيضاً تساهم فى النضال ولا يعتقدنّ أحد أن ذلك كان مجرد خيال شعرى. فقد كان عند القدماء عقيدة محددة جداً وعنيفة جداً ، وبمقتضاها كان كل جيش يستصحب آلهته معه . كانوا على ثقة بأن الآلهة كانت تحارب فى المعمعة ؛ وكان الجنود يدافعون عنها وهى تدافع عن الجنود . وكان كل فرد يعتقد أنه وهو يحارب العدو يحارب أيضاً آلهة المدينة الأخرى ؛ كان مسموحاً أن يبغض المرء هذه الآلهة الأجنبية وأن يسبها وأن يضربها ، كان فى الاستطاعة أن تأخذ أسيرة .

وبذلك كان للحرب مظهر غريب. يجب أن نتصور جيشين صغيرين يواجه كل منهما الآخر ؛ وفى وسط كل منهما أصنامه ومذبحه وأعلامه ، وهى شارات مقدسة (١) ؛ ولكل منهما وحيه الذى وعده بالنجاح واستخاراته ومتكهنوه الذين يضمنون له النصر . وقبل المعركة ، يفكر كل جندى من الجيشين ويقول كما يفكر ويقول ذلك الإغريقى فى أوريبيديس «الآلهة التى تحارب معنا أقوى من تلك التى مع أعدائنا» .

---

(١) *Ἐπὶ τὰς ἱερὰς ἐτάττοντο σημείας* ديونيسيوس ١٠ : ١٦

يتلو كل جيش لعنة على جيش العدو ، من نوع اللعنة التى احتفظ لنا ماكروبوس بصيغتها : «أيتها الآلهة . بثى الفزع والهلع والضُّر بين أعدائنا. ليحرم هؤلاء الرجال وكل من يسكن حقولهم وبلدتهم من ضوء الشمس . لتكن هذه البلدة ، وحقولهم ورؤوسهم وأشخاصهم نذراً لك»(١) . وبعد أن يقال ذلك يتضارب الجانبان بهذا التهافت الوحشى الذى توجده فكرة أن الآلهة معهم وأنهم يحاربون آلهة غرباء . لا رحمة بالعدو ؛ فالحرب ضروس ؛ والديانة تشرف على القتال وتحرض المقاتلين ؛ ولا مجال لأية قاعدة عليا تلطف شهوة القتل ؛ ومسموح بذبح الأسرى والإجهاز على الجرحى .

وحتى خارج ميدان القتال لم يكن لديهم فكرة عن واجب ما نحو العدو فلم يكن للأجنبى حق قط ومن باب أولى عند ما يكونون فى حرب معه.إنهم ليسوا ملزمين أن يميزوا بين العدل والظلم فيما يخصه . أعتقد موكيوس سكيڤولا (Mucius Scaevola) وجميع الرومان أن اغتيال العدو فعل جميل ؛ وكان القنصل ماركيوس (Marcius) يتباهى علناً بأنه خدع ملك مقدونيه ؛ وباع إيمليوس پاولوس (Paul Emile) مائة ألف إپيرى بيع العبيد وكانوا قد استسلموا طواعية بين يديه (٢) .

استولى فيبيداس (Phébidas) اللاقيديمونى على قلعة الثيبيين فى حومة السلم وقد سئل أغيسيلاوس عن نصيب هذا الفعل من العدل فقال الملك : «تبينوا فقط ما إذا كان مفيداً ؛ فبمجرد ما يكون عمل ما مفيدا للوطن فإن القيام به يصبح جميلا ». ذلك هو القانون الدولى عند المدن القديمة .وكان كليوميني‍س (Cléomène)،وهو ملك آخر من ملوك اسپرطه يقول إن كل سوء تستطيع أن تلحقه بالعدو لهو عدل دائماً فى نظر الآلهة والناس (٣) .

---

(١) ماكروبوس : ساتورناليا ٣ : ٩

(٢) تيتوس ليفيوس ٤٢ : ٥٧ ؛ ٤٥ : ٣٤ .

(٣) بلوتارخوس : أغيسيلاوس ٢٣ ؛حكم (apophtegmes) اللاقيديمونيين . ولم يشذ أرستيديس نفسه عن القاعدة فانه كان يعلم ، فيما يلوح ، أن العدل ليس لزامياً بين مدينة وأخرى . أنظر ما يقوله بلوتارخوس : حياة أرستيديس C. 25

كان للمنتصر أن يستغل انتصاره كما يشاء فما من قانون إلهى أو بشرى يوقف انتقامه أو جشعه . واليوم الذى قررت فيه أثينا أن يباد جميع الميتيلينيين من غير تفريق فى الجنس أو السن لم تكن تعتقد أنها تعدت حقها. وعندما رجعت فى اليوم التالى عن قرارها وقنعت بإعدام ألف مواطن ومصادرة جميع الأراضى اعتقدت فى نفسها الإنسانية والرحمة . وبعد الاستيلاء على پالاتيا ذبح الرجال وبيع النساء ولم يتهم أحد الغالبين بأنهم اعتدوا على الحق (١) .

إنهم لم يكونوا يحاربون الجنود فقط ، بل كانوا يحاربون الأهلين جميعاً : الرجال والنساء والأطفال والعبيد . ولم يكونوا يحاربون الكائنات البشرية فحسب، بل كانوا يشنون الحرب على الحقول والمحصولات . كانوا يحرقون المنازل ويقطعون الأشجار ؛ وفى معظم الأحوال كان محصول العدو نذراً للآلهة السفليين ولذلك كان يحرق (٢) . كانوا يقضون على المواشى ؛ بل إنهم كانوا يتلفون البذر الذى يمكن أن ينتج فى العام التالى . كانت تستطيع الحرب بضربة واحدة أن تمحو اسم شعب كامل وجنسه وأن تحول أقليما خصباً إلى صحراء جرداء . وبمقتضى حق الحرب هذا مدت روما القفر حولها ؛ فجعلت من الأرض التى كان فيها للڤولسك (Volsques) ثلاث وعشرون مدينة مستنقعات الپونتان ؛ واختفت الثلاث والخمسون مدينة التى كانت فى اللاتيوم ؛ وقد ظلوا زمناً طويلا فى السامنيوم يعرفون الأماكن التى مرت بها جيوش الرومان من القفر السائد حولها أكثر مما كانوا يعرفونها من بقايا معسكراتهم (٣) .

وإذا لم يستأصل الغالب شأفة المغلوبين فقد كان من حقه أن يقضى على مدينتهم أى أن يحطم جماعتهم الدينية والسياسية . عندئذ تنقطع العبادة وتنسى

---

(١) ثوقيديديس ٣ : ٥٠ ؛ ٣ : ٦٨ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٦ : ٣١ ؛ ٧ : ٢٢ : *Cum agris magis quam cum hominibus urendo populandoque gesserunt bella.*

(٣) تيتوس ليفييوس ٢ : ٣٤ ؛ ١٠ : ١٥ . بلينيوس: التاريخ الطبيعى ٣٥: ١٢ .

الآلهة (١). وبالقضاء على ديانة المدينة تختفى فى نفس الوقت ديانة كل أسرة وتنطفىء المواقد . ومع العبادة تسقط القوانين والشرع المدنى والأسرة والملك وكل ما كان يستند إلى الديانة (٢) ولنصغ إلى المغلوب الذى أنعم عليه بالحياة يعزى إليه أنه يقول العبارة التالية : «إنى أعطى شخصى وبلدتى وأرضى والماء الذى يجرى فيها وآلهة تخومى ومعابدى ومنقولاتى وكل الأشياء التى للآلهة . كل ذلك أهبه للشعب الرومانى» (٣). وابتداء من تلك اللحظة تصبح الآلهة والمعابد والمنازل والأراضى والأشخاص للمنتصر . وسنتكلم فيما بعد عن مصير ذلك كله تحت سيادة روما .

لكى تعقد معاهدة سلم كان لا بد من عمل دينى . ونرى حتى فى الإلياذة «المنادين المقدسين الذين يحملون القرابين المخصصة لمواثيق الآلهة أعنى الخراف والخمر ؛ ويتجه رئيس الجيش إلى الآلهة وهو واضع يده على رؤوس

---

(١) أوريبيديس : الطرواديات ٥-٢٨ : *Νοσεῖ τὰ τῶν θεῶν οὐδὲ τιμᾶσθαι θέλει.* وفى بعض الأحيان كان الغالب يأخذ الآلهة لديه . وفى أحوال أخرى كان إذا أقام فى الأرض المستولى عليها يدعى الحق فى مواصلة عبادة آلهة الإقليم وأبطاله . روى تيتوس ليفيوس أن الرومان عند ما استولوا على لانوفيوم «ردوا إليها عبادتها» دليل على أنهم قد انتزعوها منها لمجرد الفتح . وانما اشترطوا فقط أن يكون من حقهم معبد جونون لانوفينا (Juno Lanuvina) (تيتوس ليفيوس ٨ : ١٤) .

(٢) كان المغلوبون يفقدون حق الملك على أراضيهم ثوقيديديس ١ : ٩٨ ؛ ٣ : ٥٠ ؛ ٣ : ٥٨ . بلوتارخوس : بريكليس ١١ :

Siculus Flaccus, *De cond. agror.*, dans les *Gromatici*, édit., Lachmann, p. 138: *Bellis gestis victores populi terras omnes ex quibus victos ejecerunt publicavere.* Siculus Flaccus, p. 136: *Ut vero Romani omnium gentium potiti sunt, agros ex hoste captos in victorem populum partiti sunt.*

سيسرون : ضد فريس ٢ : ٣ : ٦ ؛ قانون الأراضى الزراعية ١ : ٢ ؛ ٢ : ١٥ . أبيانوس : الحروب الأهلية ١ : ٧ . وبمقتضى هذا المبدأ كانت ارض الولايات (*solum provinciale*) ملكاً شرعياً للشعب الرومانى ؛ غايوس ٢ : ٧ :

In provinciali solo dominium populi romani est.

(٣) تيتوس ليفيوس ١ : ٣٨ ؛ ٧ : ٣١ ؛ ٢٨ : ٣٤ . بوليبوس ٣٦ : ٢ . توجد صيغة التنازل ذاتها فى بلاوتوس : امفيتريون (البيت ٧١) :

Urbem, agrum, aras, focos seque uti dederent

والبيت ١٩١ :

deduntque se, divina humanaque omnia, urbem et liberos.

الأضاحى ويقطع العهد على نفسه ثم يضحى بالخراف ويريق السوائل بينما يتلو الجيش هذا الدعاء : أيتها الآلهة الخالدة . كما ضُربت هذه الضحية بالحديد فلتحطمى كذلك رأس أول من يحنث بيمينه » (١) . وقد دامت نفس الشعائر طيلة التاريخ الإغريقى . وفى عهد ثوقيديديس كانت المعاهدة لا تزال تعقد بالقربان . يتلو رؤساء الشعب صيغة الدعاء واضعين أيديهم على الضحية المذبوحة (٢) ويتعهدون للآلهة . وكل شعب يدعو آلهته الخصوصيين (٣) ويتلو صيغة القسم الخاصة به (٤) . وهذا الدعاء وهذا القسم أمام الآلهة هما اللذان يقيدان الطرفين المتعاقدين : لا يقول الإغريق : توقيع معاهدة ؛ بل يقولون ذبح ضحية القسم *ὅρκια τέμνειν* أو إراقة السائل *σπένδεσθαι* وعند ما يريد المؤرخ أن يسمى من نسميهم فى اللغة الحديثة موقعى المعاهدة يقول ها هى ذى أسماء من أراقوا السوائل (٥) .

إن ڤرجيليوس ، وهو يصف الأخلاق والشعائر الرومانية بدقة بالغة ، لا يبعد كثيراً عن هوميروس عندما يرينا كيف تعقد معاهدة : « يوضع موقد بين الجيشين ؛ ويقام مذبح للمعبودات المشتركة بينهما . ويحضر الضحية كاهن يرتدى لباساً أبيض ، ويريق الرئيسان السوائل ، ويدعوان الآلهة ؛ ويعلنان وعودهما ؛ ثم تذبح الضحية . وتوضع لحومها على لهيب المذبح (٦) ». ما أوضح تيتوس ليڤيوس فى هذه النقطة من قانون روما العام : «ما من معاهدة يمكن أن تعقد بدون الكهنة الفسياليس وبدون القيام بالشعائر المقدسة ؛ إذ أن المعاهدة ليست اتفاقاً، *sponsio*، كما هو الأمر بين الناس ؛وإنما تعقد المعاهدة بألقاء دعاء *precatio* يطلب فيه أن يطعن الإله الشعب الذى يخل بالشروط

---

(١) الإلياذة ٣ : ٢٤٥ — ٣٠١ .

(٢) ثوقيديديس ٥ : ٤٧ : *Κατὰ ἱερῶν τελείων*. انظر اكسينوفون. أناباسيس ٢: ٢ : ٩ . *Σφάξαντες ταῦρον καὶ κάπρον καὶ κρίον, καὶ βάπτοντες ξίφος*

(٣) ثوقيديديس ٢ : ٧١ .

(٤) شرحه ٥ : ٤٧ : *Ὀμνύντων τὸν ἐπιχώριον ὅρκον ἕκαστοι*

(٥) شرحه ٥ : ١٩ .

(٦) فرجيليوس ١٢ الأبيات ١٣ ، ١١٨ - ١٢٠ ، ١٧٠ - ١٧٤ ، ٢٠٠-٢١٥ . انظر ٨ : ٦٤١ : *Et caesa jungebant foedera porca.*

التى ذكرت كما طعن الكاهن الفسياليس الضحية» (١) .

وهذا الاحتفال الدينى يخلع وحده صفة القداسة والعصمة على الاتفاقات الدولية . يعرف الجميع قصة شعاب كوديوم (Fourches Caudines) . فإن جيشاً كاملا اتفق مع السامنيين بلسان قناصله وصيارفه (questeurs) وعرفاء السوقة ورؤساء الفرق المئينية فيه ، لكنه لم تكن هناك أضاحى مذبوحة ولا أدعية متلوة ولا التزامات اتخذت تجاه الآلهة . لذلك اعتقد مجلس الشيوخ أنه على حق فى القول بأنه ليست للاتفاق أية قيمة . ولم يطرأ فى ذهن أى حبر ولا أى بطريق أنهم ارتكبوا بالغائه عملا من أعمال الغدر .

إنها لفكرة ثابتة لدى القدماء أنه ليست على أى إنسان التزامات إلا تجاه آلهته الخصوصيين . ويجب أن نتذكر هذه الكلمة لإغريقى كانت مدينته تعبد البطل ألاباندوس (Alabandos) ؛ كان يوجه كلامه لرجل من بلدة أخرى كانت تعبد هيراكليس فقال «ألاباندوس إله وهراكليس ليس إله»(٢) . مع مثل هذه الآراء كان من الضرورى فى معاهدة السلم أن تتخذ كل مدينة آلهتها الخاصة بها شهداء على أيمانها . يقول البلاتيون للإسبرطيين « عقدنا معاهدة وأرقنا السوائل وأشهدتم آلهة آبائكم وأشهدنا بدورنا الآلهة الذين يقطنون إقليمنا .» (٣) وكانوا يسعون جهدهم ليدعوا، إن أمكن، معبودات مشتركة بين البلدتين . كانوا يحلفون بهذه الآلهة المرئية من الجميع : الشمس التى تضىء كل شىء والأرض المطعمة . لكن آلهة كل مدينة وأبطالها الحماة كانت أكثر تحريكاً لعواطف الإنسان وكان لا بد أن يتخذها المتعاقدون شاهدة إذا ما أريد أن تقيدهم الديانة قيداً حقيقياً .

وحيث أن الآلهة قد امتزجت خلال الحرب بالمحاربين فكان يجب أن تشملها المعاهدة أيضاً . كانوا يشترطون أن تكون هناك محالفة بين الآلهة كما ستكون

---

(١) تيتوس ليفيوس ٩ : ٥ ويعطى نفس المؤرخ فى مكان آخر (١ : ٢٤) وصفاً كاملا للاحتفال وجزءاً من الـ *precatio* . ونجدها يضاً فى بوليبوس ٣ : ٢٥ .

(٢) سيسرون : طبيعة الآلهة ٣ : ١٩

(٣) ثوقيديديس ٢ : ٧١ .

بين أهل البلدتين . وللدلالة على هذه المحالفة بين الآلهة كان يحدث فى بعض الأحيان أن يسمح أحد الشعبين للآخر بتبادل الحضور فى أعيادهما المقدسة(١). وفى بعض الأحيان كان كل منهما يفتح معابده للآخر بالتبادل ويتبادلان الشعائر الدينية . اشترطت روما أن يحمى معبود بلدة لانوڤيوم من ذلك اليوم الرومان الذين يصبح لهم حق دعائه والدخول إلى معبده (٢) . وفى كثير من الأحيان كان يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين أن يقدم عبادة لمعبودات الآخر . وهكذا قدم الإليون (Eléens) بعد أن تعاقدوا مع الأيتوليين (Etoliens) قرباناً سنوياً لأبطال حلفائهم (٣).وفى بعض الأحيان أيضاً كانت تتفق بلدتان على أن تدرج كل منهما اسم الأخرى فى أدعيتها (٤) .

كثيراً ما كان يحدث على أثر محالفة ما أن يمثلوا ، على التماثيل والأنواط ، معبودات البلدتين وهى تتصافح . ولهذا كانت لدينا أنواط نرى فيها أپولون إله ميليتوس وجن أزمير ، وپلاّس (Pallas) إلهة السيديين (Sidéens) وأرتميس إلهة پرغى (Pergè) ، وأپولون إله هيراپوليس وأرتميس إلهة إفسوس ، متحدين . ويُرى ڤرجيليوس عند الكلام عن محالفة بين أهالى تراقيه وطرواده پناتس الشعبين متحدين ومتشاركين (٥) .

تتفق هذه العادات الغريبة اتفاقاً تاماً مع الفكرة التى تصورها القدماء عن الآلهة . ما دام لكل مدينة آلهتها فقد بدا طبيعياً أن يظهر هؤلاء الآلهة فى المعارك وفى المعاهدات ، لأن الحرب أو السلم بين بلدتين هى الحرب أو السلم بين ديانتين . وقد بقى القانون الدولى عند القدماء زمنا طويلا مؤسساً على هذا

---

(١) شرحه ٥ : ٢٣ . بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٥ ، ٣٣ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٨ : ١٤ .

(٣) بوسانياس ٥ : ١٥ ، ١٢ .

(٤) هكذا كانت أثينا تدعو لخيوس وبالعكس . انظر أرسطوفانيس (الطيور ٨٨٠) وقطعة غريبة من ثيوبومپوس اقتبسها الشارح عند الكلام على هذا البيت .

(٥) فرجيليوس : الإنييد ٣ : ١٥ : *Sociique penates* . قارن تيتوس ليفيوس ١ : ٤٥ : *Deos consociatos*.

المبدأ.عند ما كانت الآلهة متعادية كانت هناك حرب لا هوادة فيها ولا قاعدة لها ، وبمجرد ما تصادقت الآلهة ارتبط الناس فيما بينهم وأحسوا بشعور الواجبات المتبادلة . فإذا أمكن الظن أن لدى المعبودات المدنية فى المدينتين مبرراً ما لتحالفهما فإن ذلك يكفى لكى تتحالف المدينتان . كانت أول بلدة تعاقدت معها روما على الصداقة هى كيريه (Caeré) فى إتروريا . ويخبرنا تيتوس ليفيوس عن العلة فى ذلك : أثناء نكبة الغزو الغالى وجدت الآلهة الرومانية ملجأ فى كيريه ، سكنت هذه البلدة وعبدت بها وبهذا تكونت رابطة مقدسة من الضيافة بين الآلهة الرومانية والمدينة الأتروسكية (١) . ومنذ ذلك الوقت والديانة لا تسمح بأن تكون البلدتان عدوتين ، إنهما حليفتان إلى الأبد .

(١) تيتوس ليفيوس ٥ : ٥٠ . أولوس جيليوس ١٦ : ١٣ .

الفصل السادس عشر

الأحلاف . المستعمرات

مما لا شك فيه أن الروح الإغريقى قد بذل جهدا كبيراً ليرتفع فوق مستوى نظام البلديات : ففى وقت مبكر جداً اتحدت عدة مدن فى نوع من التحالف . لكن السنن الدينية احتلت ، هنا أيضاً ، مكاناً كبيراً . كما أنه كان للمدينة موقدها فى بيت النار فقد كان للمدن المجتمعة موقدها المشترك (١) . كان للمدينة أبطالها ومعبوداتها المدنية وأعيادها ، كذلك كان للحلف معبده وإلهه واحتفالاته وأعياده التذكارية ومن مميزاتها الأكلات الدينية والألعاب المقدسة .

كان لمجموعة المستعمرات الإثنتى عشرة اليونية فى آسيا الصغرى معبدها المشترك الذى كان يسمى پانيونيوم (Panionium) (٢) . وكان مقدساً لپوسيدون الهليكونى (Poseidôn Héliconien) الذى كان يمجده هؤلاء الناس أنفسهم فى الپيلوپونيز قبل هجرتهم (٣) . كانوا يجتمعون كل عام فى هذا المكان المقدس ليحتفلوا بالعيد المسمى پانيونيا (*Panionia*) ؛ وكانوا يقدمون قرباناً ويقتسمون الأطعمة المقدسة جماعة (٤) . وكان للمدن الدُّورية فى آسيا معبدها المشترك فى رأس تريوپيوم (Triopium) . وكان هذا المعبد مهدياً إلى أپولون وپوسيدون وكانوا يحتفلون فيه فى الأيام التذكارية بالألعاب التربيوپية (٥) .

---

(١) *Ἑστία κοινὴ τῶν Ἀρκάδων* بوسانياس ٨ : ٥٣ .

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٣ .

(٣) استرابون ٨ : ٧ : ٢

(٤) Hérodote, I, 148: *Συλλεγόμενοι Ἴωνες ἄγεσκον ὁρτήν, τῇ ἔθεντο οὔνομα Πανιώνια.* Strabon, XIV, I, 20: *Πανιώνια, κοινὴ πανήγυρις τῶν Ἰώνων συντελεῖται τῷ Ποσειδῶνι καὶ θυσία.* — ديودوروس ١٥ : ٤٩ .

(٥) هيرودوت ١ : ١٤٤ . أرستيديس الميليتى فى *Fragmenta hist. graec.*, éd. Didot, t. IV, p. 324

وفى القارة الإغريقية كان لمجموع المدن البيؤوتية (béotiennes) معبدها، معبد أثينايا إيتونيا (Athenée Itonia) (١) وأعيادها السنوية: پامبيؤوتيا (*Pamboeotia*) وكان للمدن الأخيوية (achéennes) قرابينها المشتركة فى إيغيوم (Aegium) وكانت تقدم عبادة لديميتر پاناخيا (Déméter Panachaea) (٢).

يلوح أن كلمة أمفيكتيونيا (amphictyonie) كانت المصطلح العتيق الذى يدل على تجمع عدة مدن. فمنذ العصور الأولى للإغريق كان هناك عدد لا بأس به من الأمفيكتيونيات، نعرف منها أمفيكتيونيات كالوريا (Calaurie) وديلوس (Delos) وثرموپيلاى (Thermopyles) ودلفوى. وكانت جزيرة كالوريا هى المركز الذى تتجمع فيه البلدان هرميون (Hermione) وإپيدوروس (Epidaure) وپراسياى (Prasiès) ونوپليا (Nauplie) وإيغينا (Egine) وأثينا وأرخومينوس (Orchomène)؛ وكانت هذه المدن تقدم فيها قرباناً لا تساهم فيه أية جهة أخرى (٣). وكذلك كان فى ديلوس حيث كانت الجزر المجاورة ترسل منذ زمن سحيق فى القدم ممثلين لتقديم القرابين وفرق الموسيقى والألعاب احتفالا بعيد أپولون (٤).

ولم تكن أمفيكتيونيا ثرموپيلاى، وهى معروفة فى التاريخ أكثر من السابقة، من نوع يختلف عنها؛ وقد تكونت فى الأصل من مدن متجاورة (٥)؛ وكان لها

---

(١) بوسانياس ٩ : ٣٤.

(٢) شرحه ٧ : ٢٤.

(٣) استرابون ٨ : ٦ : ١٤. حدثت تغييرات مع الزمن، فأخذ أهالى أرغوس سكان نوبليا فى الاحتفالات المقدسة، واللاقيديمونيون سكان براسياى.

(٤) Thucydide, III, 104: *Ἦν δὲ τὸ πάλαι μεγάλη σύνοδος ἐς τὴν Δῆλον τῶν Ἰώνων καὶ νησιωτῶν σὺν· γύναιξι καὶ παισὶν ἐθεώρουν, καὶ ἀγὼν ἐποιεῖτο, χόρους τε ἄνηγον αἱ πόλεις* أقامت أثينا هذه الامفيكتيونيا من جديد فى القرن الخامس ولكن بروح مختلفة إختلافاً كلياً.

(٥) عدد أيسخينيس (السفارة: ١١٦) الشعوب التى كانت تقتسم حيازة المعبد *ἔθνη μετεχόντα τοῦ ἱεροῦ* وهى الشساليون (Thessaliens) والبيؤوتيون (Béotiens) ودوريو (Doriens) المدن الأربع، واليونيون (Ioniens)، والبرهبيون (Perrhèbes)، والماغنيتيون (Magnètes)، والدولوب (Dolopes)، واللوكريون (Locriens)، والاتيون (Oetéens)، والفثيوتيون (Phthiotes)، والماليون (Maliens) والفوقيون (Phocéens)؛ وكانت اسپرطه فيها باعتبارها مستعمرة للدوريين، وأثينا كجزء من الشعب اليونى. انظر بوسانياس ١٠ : ٨؛ هاربوقراطيون تحت لفظ *Ἀμφικτύονες*.

معبدها ، معبد ديميتر ، وقربانها وعيدها السنوى (١) .

لم تكن هناك أمفيكتيونيا ولا حلف من غير عبادة «إذ أن نفس الفكرة التى هيمنت على تأسيس البلدان أنشأت أيضاً — كما يقول أحد القدماء — القرابين المشتركة بين عدة مدن . ولما كان الجوار والحاجة المتبادلة يقربان بينها فإنها كانت تحتفل بالأعياد الدينية ومجامع الأعياد (panégyries) جماعة. ومن الأكلة المقدسة ومن إراقة السوائل معاً نشأت صلة صداقة (٢) » . وكانت المدن المتحالفة ترسل فى الأيام التى تعينها الديانة بعض رجال تخلع عليهم موقتا الصفة الكهنوتية وكانوا يسمونها ثيوروى (théores) وپيلاغوروى (pylagores) وهيير ومنيمونوى (hiéromnémons) ، وكانت تُذبح أمامهم الأضحية تمجيداً لإله الجماعة وتقتسم اللحوم بعد طهيها على المذبح بين ممثلى المدن . وكانت هذه الأكلة المشتركة المصحوبة بالأناشيد والأدعية والألعاب هى علامة الجماعة ورابطتها .

إذا كانت وحدة الطائفة الإغريقية قد تجلت بوضوح فى ذهن الإغريق فإنما كان ذلك على الأخص عن طريق الآلهة التى كانت مشتركة بينهم وعن طريق الاحتفالات المقدسة التى كانوا يحتشدون فيها ، فاتخذوا زوس پانهلينيوس (Zeus Panhéllenien) على نمط المعبودات المدنية . كانت الألعاب الأولمبية والبرزخية (isthmiques) والنمية (néméens) والپيثية (pythiques) من الأيام الدينية الكبيرة التى قُبل فيها جميع الإغريق شيئاً فشيئاً . كانت كل بلدة ترسل إليها وفدها ليساهم فى القربان (٣). وقد بقيت الوطنية الإغريقية زمناً طويلا لا تعرف غير هذا الشكل الدينى . وقد ذكر ثوقيديديس الآلهة المشتركة بين الإغريق مراراً عديدة (٤) . وعندما استحلف أرسطوفانيس مواطنيه أن ينبذوا فتنهم الداخلية

---

(١) Strabon, IX, 5, 17: *Δήμητρος ἱερὸν ἐν ᾧ θυσίαν ἐτέλουν οἱ ἀμφικτύονες*

(٢) شرحه ٩ : ٣ : ٦ . ظن ميينيكه (Meineke) أن هذه الفقرة مضافة وحذفها من طبعته . ومن المؤكد أنها من مؤلف قديم، ومن المحتمل جداً أن تكون من استرابون . هذا وقد عبر عن نفس الفكرة أيضاً ديونيسيوس الهاليكارناسى ٤ : ٢٥ .

(٣) Platon, *Lois*, XII, p. 950: *Θεωροὺς.... Πυθώδε τῷ Ἀπόλλωνι καὶ εἰς Ὀλυμπίαν Διὶ καὶ ἐς Νεμέαν καὶ ἐς Ἰσθμὸν χρὴ πέμπειν, κοινωνοῦντας θυσιῶν καὶ ἀγώνων τούτοις τοῖς θεοῖς.*

(٤) *Τὰ ἱερὰ τὰ κοινὰ τῆς Ἑλλάδος* (Thucyd., III, 58). *Θεοὶ ὁμοβώμιοι καὶ κοινοὶ τῶν Ἑλλήνων* (Id., III, 59; V, 18).

قال لهم : «أنتم الذين تروون المذابح فى أوليمپيا وثرموپيلاى ودلفوى بماء نثار واحد ، لا تمزقوا بلاد الإغريق بمنازعاتكم لـكن اتحدوا ضد الأجانب» (١)

كانت هذه الأمفيكتيونيات وهذه الأحلاف ضئيلة الأثر السياسى . وإنها لغلطة كبيرة أن نتصور وفود (théories) ثرموپيلاى وپانيونيوم وأوليمپيا كمؤتمر أو مجلس شيوخ اتحادى . وإذا كان الأمر ينتهى فى بعض الأحيان بهؤلاء الرجال إلى الاهتمام بمصالح الاتحادات المادية والسياسية فإنما كان ذلك على سبيل الاستثناء وتحت سيطرة ظروف خاصة . بل إن هذه الأمفيكتيونيات لم تكن لتحول دون محاربة أعضائها بعضهم بعضاً ؛ ولم تكن اختصاصاتها النظامية هى المداولة فى المصالح بل تمجيد الآلهة والقيام بالاحتفالات والمحافظة على الهدنة المقدسة زمن الأعياد ؛ فإذا كانت الوفود تقيم نفسها محكمة وتنزل عقاباً بإحدى بلدان الاتحاد فإنما يكون ذلك لأن هذا البلد أهمل بعض الواجبات الدينية أو لأنه اغتصب أرضاً ما مخصصة للمعبد (٢) .

كانت تسيطر فى إيطاليا أنظمة مشابهة . فكانت لبلدان اللاتيوم الألعاب اللاتينية (féries latines) . وكان ممثلوها يجتمعون فى كل عام فى محراب چوپيتر لاتياريس (Jupiter Latiaris) على جبل ألبا (mont Albain) . وكانوا يضحون بثور أبيض يقسم لحمه أجزاء بقدر ما كان هناك من مدن متحالفة (٣) . وكذلك كان للبلدان الإثنتى عشرة فى إترووريا معبدها المشترك وعيدها السنوى وألعابها التى كان يرأسها كاهن كبير (٤) .

---

(١) أرسطوفانيس : ليسيستراتا *Lysistrata* البيت ١١٣٠ وما بعده .

(٢) لم تهتم الامفيكتيونيات بالمصالح السياسية إلا فيما بعد وفى عهد فيليبوس المقدونى

(٣) Denys, IV, 49: *Ἵνα συνερχόπενοι πανηγυρίζωσι καὶ ἑστιῶνται καὶ κοινῶν ἱερῶν μεταλαμβάνωσι.* Varron, VI, 25: *Latinae feriae, a Latinis Populis quibus ex sacris carnem petere jus fuit cum Romanis.* Pline, *H. n.*, III, 9, 69: *Cum his carnem in monte Albano soliti accipere populi.* Cf. Tite-Live, XLI, 16. Denys, IV, 49: *Ἑνὸς ταύρου κοινῶς ὑπὸ πασῶν θυομένου, μέρος ἑκάστη τὸ τεταγμένον λαμβάνει.*

(٤) تيتوس ليفيوس ٥ : ١

من المعروف أن الإغريق والرومان لم يكونوا يباشرون الاستعمار بنفس الطريقة التى يتبعها المحدثون . فلم تكن المستعمرة تابعة للدولة المستعمرة أو ملحقة بها ، بل كانت هى ذاتها دولة مستقلة . بيد أنه كان بين المستعمرة والأم رابطة من نوع خاص ، ومرجع ذلك إلى الطريقة التى تأسست بها كل مستعمرة .

يجب ألا نعتقد، فى الواقع ، أن المستعمرة كانت تتكون بالمصادفة وطبقاً لهوى عدد معين من المهاجرين . فلم يكن فى استطاعة جيش من المغامرين أن يؤسس بلدة ما ، ولم يكن من حقه ، فى اعتقاد القدماء ، أن ينظم نفسه فى هيئةمدنية. وكانت هناك قواعد لا بد من السير عليها . والشرط الأول هو ، قبل كل شىء حيازة النار المقدسة ؛ والثانى استصحاب شخص ذى أهلية للقيام بشعائر التأسيس . وكان المهاجرون يطلبون كل ذلك من الأم . كانوا يأخذون النار المقدسة من موقدها (١) ، ويأخذون معهم مؤسساً يجب أن ينتمى إلى إحدى الأسرات المقدسة فى المدينة (٢). وكان هذا الأخير يقوم بتأسيس البلدة الجديدة طبقاً لنفس الشعائر التى عملت فيما مضى للبلدة التى خرج منها (٣) . وكانت النار المقدسة تقيم بين البلدتين رابطة أبدية من الدين والقرابة . والبلدة التى قدمتها كانت تسمى المدينة الأم (٤) ؛ والتى تسلمتها كانت بالنسبة لها فى مركز البنت (٥) . وإذا كان لنفس البلدة مستعمرتان كانتا تسميان مدينتين أختين (٦) .

---

(١) *Etymologicum magnum, v° Πρυτανεῖα*. هيرودوت ١ : ١٣٦ .

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٦ ؛ ثوقيديديس ١ : ٢٤ ؛ ٦ : ٣ - ٥ ؛ديودوروس ٥ : ٥٣ ، ٥٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ؛ بلوتارخوس : تيموليون .

(٣) ثوقيديديس ٣ : ٣٤ ؛ ٦ : ٤ . فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ١٤٣ : *Coloniae nostrae item conditae ut Roma.*

(٤) يسمى هيرودوت (٧ : ٥١ ؛ ٨ : ٢٢) الأثينيين أباء اليونيين .

(٥) عبر القدماء عن هذه الفكرة مراراً : بوليبوس ١٢ : ١٠ ؛ ديونيسيوس ٣ : ٧ ؛ تيتوس ليفيوس ٢٧ : ٩ ؛ أفلاطون : القوانين ٦ ؛ ثوقيديديس ١ : ٣٨

(٦) بوليبوس ٢٢ : ٧ : ١١ . بلوتارخوس : تيموليون ١٥ .

كانت عبادة المستعمرة هى ذات عبادة الأم (١) ؛ وكان فى استطاعتها أن يكون لها بعض آلهة خاصة ولـكن كان يتحتم عليها أن تحتفظ بالمعبودات المدنية للبلدة التى جاءت منها وأن تمجدها . فكانت المدن اليونية الإثنتى عشرة فى آسيا الصغرى تعتبر مستعمرات أثينية لا لأنها كانت مكونة من أثينيين بل لأنهم كانوا قد أخذوا معهم ناراً من بيت نار (پريتانيون) أثينا واستصحبوا مؤسسين أثينيين ، وكانت تؤدى عبادة لمعبودات أثينا وتحتفل بأعيادها (٢) ، وترسل لها كل عام قرابين ووفودا (théories) (٣) . وهكذا كانت تفعل مستعمرات قورنثه وناكسوس (٤) . وكذلك كانت روما ، باعتبارهامستعمرة لألبا وعن طريق هذه مستعمرة للاڤينيوم ، تقدم كل عام قرباناً على جبل ألبا وترسل أضاحى إلى لاڤينيوم «حيث كانت آلهتها المنزلية (پناتس)» (٥). بل لقد كان العرف القديم عند الإغريق أن تتلقى المستعمرة من الأم الأحبار الذين كانوا يرأسون عبادتها ويسهرون على المحافظة على شعائرها (٦).

ظلت هذه الروابط الدينية بين المستعمرات والأم قوية جداً حتى القرن الخامس قبل الميلاد . أما عن الرابطة السياسية فقد بقى القدماء زمناً طويلا دون أن يفكروا فى إقامتها (٧) .

---

(١) ثوقيديديس ٦ : ٤ ؛ بوليبوس ٩ : ٧ ؛ استرابون ٤ : ١ : ٤

(٢) هيرودوت ١ : ١٤٧ ؛ ٧ : ٩٥

(٣) ثوقيديديس ١ : ٢٥ ؛ شارح أرسطوفانيس : السحب ٣٨٥ ؛ إيسوقراط : مجامع الأعياد (*Panégyrique*) ٧ : ٣١ .

(٤) ديودوروس ١٢ : ٣٠ ؛ ثوقيديديس ٦ : ٣

(٥) فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ١٤٤ ؛ ديونيسيوس ٢ : ٥٢ ؛ بلوتارخوس كوريولانوس ٢٨ .

(٦) شارح ثوقيديديس ١ : ٢٥ : *Ἔθος ἦν ἀρχιέρας ἐκ μητροπόλεως λαμβάνειν*

(٧) لم تتكون هذه الرابطة السياسية، التى حاولتها قورنثه بعض الشىء (ثوقيديديس ١ : ٥٦)، تكويناً حقيقياً إلا فى الكليروخيات (clérouchies) الأثينية والمستعمرات الرومانية . وكلاهما من تاريخ حديث نسبياً وليس علينا أن نتكلم عنها هنا .

الفصل السابع عشر

الرومانى ، الأثينى

إن هذه الديانة ، التى أسست المجتمعات وحكمتها أمداً طويلا ، كونت كذلك النفس البشرية وأعطت للإنسان طابعه ؛ وبفضل تعاليمها وسننها جعلت للرومانى والإغريقى طريقة خاصة فى التفكير والعمل وعادات معينة لم يستطيعا التخلص منها إلا بعد زمن طويل . كانت تُرى الإنسان آلهة فى كل مكان ، آلهة صغيرة ، آلهة سريعة الغضب سيئة النية . كانت تسحق الإنسان بالخوف الدائم من أن يكون بعض الآلهة ناقما عليه ، ولم تكن تترك له أية حرية فى أعماله .

يجب أن نرى أى مكان كانت تشغل الديانة فى حياة الرومانى . فقد كان منزله بالنسبة له كالمعبد بالنسبة لنا . ففيه كان يجد عبادته وآلهته : موقده إله ، والجدران والأبواب والعتبة آلهة ، وعلامات الحدود التى تحيط بحقله آلهة كذلك . القبر مذبح وأسلافه كائنات إلهية .

كل عمل من أعماله اليومية شعيرة دينية . كل يوم ملك لدينه . يدعو موقده وآلهته المنزلية (پناتس) وأسلافه صباح مساء ؛ ويتقدم لهم بالدعاء عند خروجه من منزله وعند دخوله . كل أكلة عملية دينية يتقاسمها مع معبوداته المنزلية . الولادة ، وتلقين العبادة ، وارتداء الدثار (toge) لأول مرة ، والزواج ، والأعياد التذكارية لجميع هذه الحوادث ، كل هذه أعمال احتفالية من أعمال عبادته .

يخرج من داره ولا يكاد يخطو خطوة دون أن يقابله شىء مقدس : إما مصلى وإما مكان نزلت به صاعقة فيما مضى وإما قبر . فأحياناً يتحتم عليه أن ينكمش وأن يتلو دعاء ؛ وأحياناً يجب أن يدير بصره وأن يغطى وجهه لكى يتجنب شيئاً مشؤوماً .

كل يوم يقرب قرباناً فى منزله ، وكل شهر فى ندوته ، وعدة مرات كل عام فى فصيلته (gens) أو فى قبيلته . وفوق جميع هذه الآلهة يجب عليه عبادة آلهة المدينة . لقد كان فى روما من الآلهة أكثر ممن كان فيها من المواطنين .

يقدم بعض القرابين شكراً للآلهة ، ويقدم أخرى أكثر عدداً لتهدئة سخيمتهم. وفى يوم من الأيام يظهر فى موكب وهو يرقص على نغمة قديمة على صوت المزمار المقدس . وفى يوم آخر يقود مركبة ترقد فيها أصنام بعض المعبودات(١) . وفى مرة أخرى حفلة الاضطجاع(*lectisternium*)(٢) إذ توضع مائدة فى أحد الشوارع محملة بالأطعمة وترقد تماثيل الآلهة على بعض الأسرة ويمر كل رومانى وهو محنى وعلى رأسه تاج وفى يده غصن غار (٣) .

لديه عيد للبذار وعيد للحصاد وثالث لشذب الكروم.وقبل أن يستوى القمح سنابل يكون قد قدم أكثر من عشرة قرابين ودعا عشرة من المعبودات الخاصة لنجاح محصوله . ولديه، على الأخص، أعيادللأموات كثيرة العدد لأنه يخشاهم(٤).

لا يخرج من داره قط دون أن ينظر إن كان هناك طائر منحوس الطالع. وهناك ألفاظ لا يجرؤ على التلفظ بها فى حياته . وإن كان يرجو أملا نقش أمنيته على لوحة يودعها عند أقدام تمثال إله ما (٥) .

---

(١) عن موكب الـ *tensae* انظر تيتوس ليفيوس ٥ : ٤١ ؛ سويتونيوس : فسباسيانوس ٥. فستوش طبعة ميلر (Müller) ص ٣٦٤ .

(٢) مركبة من كلمة *lectus* يعنى سرير وكلمة *sterno* يعنى يمدد . ـ المعرب

(٣) تيتوس ليفيوس ٣٤ :٥٥ ؛ ٤٠ : ٣٧ ؛ بلينيوس ٣٢ : ٢ : ١٠

(٤) بلاوتوس : امفيتريون ٢ : ٢ : ١٤٥ ؛ وصف أوفيديوس (الأعياد ٥ : ٤٢١ وما بعده) الشعائر المتبعة لطرد الأشباح ؛ يجب القيام عند منتصف الليل واجتياز المنزل حافى القدمين والطرقعة بالأصابع الوسطى على الابهام ووضع فول أسود فى الفم ولفظه على الأرض مع إدارة الرأس قائلا : « ها هو ما أعطيه ؛ بهذا الفول افتدى نفسى» . فتلتقط الأرواح الفول وتنصرف راضية . تلك هى الشعيرة العتيقة

(٥) جوفيناليس: قصائده التهكمية ١٠:٥٥.وهو ما نجد دليلا عليه أيضاً فى صفائح الرصاص التى عثر عليها المسيو كارابانوس (Carapanos) فى دلفوى

يستشير الآلهة فى كل آونة ويريد أن يعرف إرادتهم . ويجد كل ما يعزم عليه فى أحشاء الأضاحى وفى طيران الطيور وفى إرشادات الصاعقة (١) . يزعجه الإعلان عن مطر من الدم ، أو عن عجل يتكلم وترتعد لذلك فرائصه. ولا يستريح إلا عند ما يصلح احتفال للتكفير الأمر بينه وبين الآلهة (٢) .

لا يخرج من بيته إلا بالقدم اليمنى . ولا يقص شعره إلا عند تمام القمر ؛ ويحمل معه تمائم . وللوقاية من الحريق يغطى جدران منزله بكتابات سحرية. إنه يعرف عزائم لتوقى المرض وأخرى للشفاء منه ؛ لكن يجب تكرارها سبعا وعشرين مرة وأن يتفل فى كل مرة بطريقة معينة (٣) .

إنه لايتناقش فى مجلس الشيوخ إذا لم تعط الأضاحى العلامات الموافقة على ذلك . ويغادر مجمع الشعب إذا سمع صوت فأرة . وينثنى عن أشد خططه تصميماً إذا لمح فألا سيئاً أو قرع أذنه لفظ مشؤوم . إنه لجسور فى القتال لكن على شرط أن تضمن له الاستخارات الانتصارات .

هذا الرومانى الذى نقدمه هنا ليس هو الرجل الضعيف الروح ، الذى يحبسه البؤس والجهل فى الخرافة . وإنما نتكلم عن البطريق ، عن الرجل الشريف ، القوى ، الثرى . هذا البطريق قد يكون دوراً محارباً ودوراً رجل دولة أو قنصلا أو مزارعاً أو تاجراً ، لكنه كاهن وفكره شاخص إلى الآلهة فى كل مكان

---

(١) سيسرون : التكهن ١ : ٢ :

Nihil publice sine auspiciis nec domi nec militiae gerebatur. Valère Maxime, II, 2, 1: *Apud antiquos, non solum publice, sed etiam privatim, nihil gerebatur sine auspicio prius sumpto.*

(٢) تيتوس ليفيوس ٢٤ : ١٠ ؛ ٢٧ : ٤ ؛ ٢٨ : ١١ وأخرى فى مواضع متفرقة

(٣) انظر من بين الصيغ صيغة أعطاها كاتون (الفلاحة ١٦٠) وفارون (الفلاحة ١:٢ ؛ ١:٣٧). قارن بلينيوس : التاريخ الطبيعى ٢٨ : ٢ - ٥ (٤ - ٢٣) . - يعاقب قانون اللوحات الإثنتى عشرة الرجل «الذى ينقل المحاصيل فى حقل آخر بطريق السحر *qui fruges excantassit.* (بلينيوس ٢٨ : ٢ : ١٧ ؛ سرفيوس *ad Eclogas* ٨ : ٩٩ . قارن سيسرون : الجمهورية ٤ : ١٠ .

وعلى الدوام . يسيطر الخوف من الآلهة على كل شىء عنده ، على الوطنية وحب المجد وحب الذهب مهما كانت هذه العواطف ذات سلطان على نفسه . قال هوراسيوس أصدق كلمة عن الرومانى : إنه بخوفه من الآلهة أصبح سيد الأرض .

Dis te minorem quod geris, imperas.

قيل إنها كانت ديانة سياسية . لكن هل فى استطاعتنا أن نظن أن مجلس شيوخ مكوناً من ثلاثمائة عضو ، وأن هيئة من ثلاثة آلاف بطريق تكاتفت بمثل هذا الإجماع على خداع الشعب الجاهل . وظل ذلك قروناً دون أن يرتفع فى وقت ما صوت واحد،وسط هذا القدر الكبير من المنافسات والمنازعات والمكاشحات الشخصية ، ليقول : إن هذا لكذب . لو أن بطريقاً واحداً خان أسرار طائفته ، لو أنه اتجه نحو السوقة الذين فرغ صبرهم من احتمال نير هذه الديانة وخلصهم فجأة من هذه الاستخارات وهذه الكهنوتات وحررهم منها أما كان يحصل هذا الرجل فوراً على تقدير يجعله سيد الدولة ؛ أيعتقد أحد ، لو أن البطارقة لم يكونوا مؤمنين بالديانة التى كانو يمارسونها ، أن هذه الشهوة لم تكن من القوة بحيث تجعل واحداً منهم على الأقل يكشف عن السر ؛ إن الإنسان ليخدع نفسه عن الطبيعة البشرية خداعاً خطيراً لو ظن أن ديانة ما تستطيع أن تقوم على اتفاق وأن تستند إلى الدجل . ولنحسب فى تيتوس ليڤيوس كم مرة ضايقت هذه الديانة البطارقة أنفسهم ، كم مرة حيرت مجلس الشيوخ وعاقت عمله ثم لنقل إن كانت هذه الديانة قد اخترعت لإراحة السياسيين . بدءوا فى عصر سيسرون فقط يعتقدون أن الديانة نافعة للدولة ، لكن الديانة كانت قد ماتت فى النفوس .

لنأخذ رومانياً من القرون الأولى ؛ ولنختر واحداً من أكبر المحاربين ، كاميلوس ، الذى كان ديكتاتوراً خمس مرات والذى انتصر فى أكثر من عشر مواقع . ربما كان يجب فى الحقيقة أن نتصوره كاهناً بقدر ما نتصوره محارباً . إنه ينتمى للفصيلة فوريا (*gens Furia*)واسمه لفظ يدل على وظيفة كهنوتية(١) ؛

(١) *camillus* باللاتينية معناه صبى الكاهن أى الصبى الذى يساعده فى القيام بأعماله الدينية وعلى الأخص كاهن جوبيتر.ومن معانيها الصبى أى الغلام الصغير ويقصد المؤلف المعنى الأول . - المعرب .

ألبسوه وهو طفل الرداء prétexte (١) الذى يدل على طبقته والتميمة (bulle) (٢) التى تبعد طوالع السوء ، نمى وهو يشهد كل يوم احتفالات العبادة ، وقضى شبابه وهو يتعلم شعائر الدين . حقاً إن حرباً تأججت نيرانها وأن الكاهن أصبح جندياً ؛ وقد رؤى ، وهو مجروح فى فخذه فى معركة للفرسان ، ينتزع السلاح من الجرح ويستمر فى القتال . وبعد عدة حملات رفع إلى مناصب الدولة ، وباعتباره من رجال الدولة قدم القرابين العامة ، وتولى القضاء ، وتأمر على الجيش . وجاء يوم فكروا فيه للدكتاتورية . فى ذلك اليوم اختلى رجل الدولة العامل فى ليلة صافية واستشار الآلهة ، وفكره ملازم لكاميلوس الذى كان يتلو اسمه بصوت خافت وعيناه شاخصتان نحو السماء تبحثان عن الآيات المنبئة . فلم ترسل الآلهة إلا آيات حسنة ؛ ذلك لأنها راضية عن كاميلوس ، فعين دكتاتوراً .

ها هو ذا رئيس للجيش ؛ يخرج من المدينة دون أن تفوته استشارة الاستخارات والتضحية بعدد كبير من الأضاحى . تحت إمرته الكثير من الضباط وبقدرهم تقريباً من الكهنة وحبر ومستخيرون بالطيور وستخيرون بالأحشاء وعرافو الدجاج (pullaires) ومضحون (victimaires) وحامل للموقد .

كان مكلفاً بوضع نهاية للحرب ضد ڤييس (Veii) التى كانوا يحاصرونها منذ تسع سنوات على غير جدوى . وڤييس بلدة أتروسكية أى تكاد تكون بلدة مقدسة ؛ ويجب القتال بالورع أكثر مما يجب بالشجاعة . وإذا كان الرومان قد ظلوا تسع سنوات مغلوبين على أمرهم فما ذلك إلا لأن الأتروسك أعرف منهم بالشعائر التى ترضى عنها الآلهة ، والعزائم السحرية التى تكسب عطفهم ، وفتحت روما من جانبها الكتب السبيلية (livres Sibyllins) (٣) وبحثت فيها عن إرادة

---

(١) باللاتينية *praetexta* وهو اسم رداء أبيض بحافات أرجوانية كان يلبسه كبار رجال الدولة كما كان يلبسه الأطفال من الأشراف على الأقل إلى السابعة عشرة وعندها يخلع هذا الرداء وينذره للآلهة المنزليين ويلبس الدثار . (*toga*) - المعرب .

(٢) باللاتينية *bulla* أو *bulla aurea* ومعناها العلبة المستديرة وهى علبة يعلقها الصبى من رقبته وتتدلى على صدره وبداخلها التمائم وعند السابعة عشرة يخلع هذه العلبه وينذرها للآلهة المنزليين — المعرب .

(٣) الكتب السبيلية نسبة إلى الكاهنة (Sibylla) التى كتبتها وهى كاهنة إيرثريا وقد باعتها لأحد ملوك روما . وهى تشبه إلى حد ما الجفر المذكور فى بعض الروايات الاسلامية وهو كتاب به ما كان وما يكون منذ الازل إلى آخر الدهور . - المعرب .

الآلهة. فتبينت أن احتفالاتها اللاتينية (feries latines) دنسها عيب فى الشكليات ، فجددت القربان . بيد أنه ما زالت الغلبة للأتروسك . فلم تبق إلا وسيلة واحدة هى اختطاف كاهن أتروسكى ومعرفة أسرار الآلهة منه . فقبضوا على كاهن من أهل ڤييس وأحضروه إلى مجلس الشيوخ فقال «لكى تتغلب روما يجب عليها أن تخفض مستوى بحيرة ألبا مع الاحتراز من جعل مائها يسيل فى البحر فامتثلت روما وحفرت عدداً لا نهاية له من الخلجان والقنوات وتبدد ماء البحيرة فى البرية .

وفى هذه اللحظة أنتخب كاميلوس دكتاتوراً . فتوجه إلى الجيش على مقربة من ڤييس وهو واثق من النجاح ، إذ أن جميع أنواع الوحى قد كشف عنها وكل أوامر الآلهة قد نفذت . فضلا عن أنه قبل أن يغادر روما كان قد وعد الآلهة الحماة بأعياد وقرابين ؛ ولضمان النصر لم يهمل الوسائل البشرية ؛ فزاد فى عدد الجيش ووثق النظام وأمر بحفر سرداب تحت الأرض لينفذ منه إلى القلعة ؛ جاء يوم الهجوم ؛ خرج كاميلوس من خيمته وعمل الاستخارة وضحى بالأضاحى . وقد أحاط به الأحبار والمتكهنون ؛ ودعى الآلهة وهو يرتدى ال*paludamentum* (١) : «بقيادتك يا أپولون ، وبإرادتك التى تلهمنى ، أسير للاستيلاء على بلدة ڤييس وتدميرها ؛ وأعدك وأنذر لك عشر الغنيمة إذا انتصرت» ، لكنه لا يكفى أن تكون الآلهة معه فللعدو أيضاً معبود قوى يحميه . فدعاه كاميلوس بهذا الدعاء : «چونون ، أيتها الملكة التى تسكن الآن فى ڤييس أتوسل إليك ، تعالى معنا نحن المنتصرين ؛ اتبعينا إلى بلدتنا وتقبلى عبادتنا ، ولتصبح بلدتنا بلدتك» . ثم بعد تقديم القرابين والدعاء والأدعية وتلاوة العزائم ، وعند ما أصبح الرومان واثقين من أن الآلهة فى صفهم وأنه لم يعد هناك إله واحد يدافع عن العدو ، أعطى الأمر بالهجوم واستولى على البلدة .

ذلك هو كاميلوس ، القائد الرومانى ، رجل يعرف كيف يحارب بإبداع

---

(١) هو العباءة الخاصة التى كان يلبسها القائد ـ المعرب

ويعرف، على الأخص، فن إخضاع الناس لطاعته لـكنه يؤمن إيماناً راسخاً بالآيات المنبئة ويقوم كل يوم بمناسك دينية ؛ وهو مقتنع أن ما يهم أكثر من سواه ليست هى الشجاعة بل ولا النظام وإنما هو منطوق بعض عزائم تتلى بدقة طبقاً للشعائر . وهذه العزائم إذا وجهت للآلهة تحتم عليها وتكاد ترغمها دائماً على منحه النصر . واسمى مكافأة لمثل هذا القائد هى أن يسمح له مجلس الشيوخ بتقديم قربان النصر . وعندئذ يركب المركبة المقدسة التى تجرها أربعة خيول بيضاء وهى ذاتها التى تجر تمثال چوپيتر يوم الموكب الـكبير ، ويرتدى رداء مقدساً هو بذاته الذى ترتديه الآلهة أيام الأعياد ، وعلى رأسه تاج ، ويده اليمنى قابضة على غصن غار ، واليسرى على صولجان من العاج . وهى بالضبط الشارات والملبس الذى يلبسه تمثال چوپيتر (١) . وبهذه الجلالة التى تكاد تكون إلهية يطلع على مواطنيه ويذهب لتقديم تعظيمه للجلالة الحقيقية، جلالة أكبر الآلهة الرومانيين . فيتسلق سفح الـكاپيتوليوم وعند ما يصل إلى معبد چوپيتر يضحى بالأضاحى .

لم تكن مخافة الآلهة عاطفة خاصة بالرومانى . بل كانت تسيطر كذلك على قلب الإغريقى . فإن هذه الشعوب التى كونتها الديانة فى البدء ، وغذتها، وربتها ، قد حافظت ردحاً طويلا على سمة تربيتها الأولى . وإنا لنعرف تأثم الإسپرطى الذى لم يكن يبدأ غزوة قط قبل أن يبلغ البدر تمامه (٢) ، ولا ينفك يضحى

---

(١) Tite-Live, V, 23: *Curru albis equis juncto. . . Jovis Solisque equis.* Id., X, 7: *Qui Jovis Optimi Maximi ornatu decoratus, curru curato vectus in Capitolium.* Pline, *H.N.*, XXXIII, 7, 36: *Jovis simulacri faciem minio inlini solitum triumphantiumque corpora.* ديونيسيوس ٢ : ٣٤ ؛ ٥ : ٤٧ . أبيانوس : الحروب البونيه ٦٦ . قارن جوفيناليس ١٠ : ٣٨ : . *In tunica Jovis*

(٢) هيرودوت ٦ : ١٠٦ : «عندما جاء الخبر بنزول الفرس إلى الشاطىء راق للاسبرطيين أن ينجدوا الأثينيين ؛ لـكنه تعذر عليهم أن ينجدوهم فورا ؛ ولم يريدوا أن يتعدوا القاعدة (τὸν νόμον القاعدة الدينية) وقالوا إنهم لن يبدءوا الحملة إلا اليوم الذى يبلغ فيه البدر تمامه» . ولم يقل المؤرخ إنه كان مجرد تنصل. ويجب علينا أن نحكم على القدماء وفقاً لأفكارهم لا أفكارنا .

بالأضاحى ليعرف ما إذا كان قد حان وقت القتال ، وينثنى عن أحسن الخطط تدبيراً وأكثرها لزوماً لأن نبوءة سيئة تفزعه . ويفترق الأثينى عن الرومانى والإسپرطى بألف صفة من صفات الخلق والروح ، لكنه يماثلهم فى مخافة الآلهة ، فلا يدخل جيش أثينى فى غزوة قبل اليوم السابع من الشهر ، وعند ما يهم أسطول بالإبحار يعنون كل العناية بإعادة تذهيب أصنام پالاس (Pallas).

يؤكد اكسينوفون أن للأثينيين من الأعياد الدينية أكثر مما لأى شعب إغريقى آخر (١) . ويقول أرسطوفانيس (٢) : «ما أكثر الأضاحى المقدمة للآلهة ! وما أكثر المعابد ! وما أكثر الأصنام ! وما أكثر المواكب المقدسة ! فى كل لحظة من السنة ترى ولائم دينية وأضاحى متوجة» . ويقول أفلاطون : «نحن الذين نقدم أكثر القرابين عدداً ونعمل للآلهة أكثر المواكب بهاء وقداسة» (٣) . وتكتسى بلدة أثينا وإقليمها بالمعابد والمحاريب . فمنها ما هو لعبادة المدينة ومنها ما هو لعبادة القبائل والأحياء (dèmes) ومنها ما هو لعبادة الأسرة . وكل بيت هو ذاته معبد ، ويكاد كل حقل أن يكون فيه قبر مقدس .

والأثينى الذى يتصورونه مفرطا فى التقلب والأهواء والتحلل فى الفكر يشعر ، على العكس ، باحترام فريد للسنن القديمة والشعائر القديمة ؛ وديانته الرئيسية التى تنال من لدنه أشد أنواع الحماس الدينى هى ديانة الأسلاف والأبطال ، إنه يعبد الموتى ويخشاهم . ويلزمه أحد قوانينه بأن يقدم لهم كل عام بواكير محصوله ؛ ويحرم عليه قانون آخر أن يتلفظ بكلمة واحدة من شأنها أن تثير نقمتهم (٤) . وكل ما يمس العصور العتيقة مقدس عند الأثينى ؛ وعنده

---

(١) اكسينوفون : الجمهورية الأثينية ٣ : ٢ . يقول صوفوكليس إن أثينا هى أتقى المدن (أوديبوس : فى كولونا ١٠٠٧) ويلاحظ بوسانياس (١ : ٢٤) أن الأثينيين كانوا أكثر تنبهاً من الشعوب الأخرى فيما يختص بعبادة الآلهة .

(٢) أرسطوفانيس : السحاب ٣٠٥ - ٣٠٩ .

(٣) أفلاطون : القيبياديس ٢ ص ١٤٨ .

(٤) بلوتارخوس : صولون ٢١

مجموعات قديمة دونت فيها شعائرها ولا يتحول عنها قط (١). وإذا ما أدخل كاهن أقل تجديد فى العبادة فإنه يعاقب بالموت . وتراعى أشد الشعائر غرابة من قرن إلى قرن . ففى يوم معين من السنة يقدم الأثينى قرباناً تمجيداً لأريادنه (Ariane) (٢) ، وبما أنه يقال إن عشيقة ثيسيوس قد ماتت أثناء الوضع فمن المحتم تمثيل صيحات امرأة تعانى الوضع وحركاتها . ويحتفل بعيد سنوى آخر يسمى أوسخوفوريا (Oschophories) (٣) وهو بمثابة تمثيل صامت لعودة ثيسيوس إلى أتيكا ؛ فيتوجون صولجان المنادى لأن منادى ثيسيوس توج صولجانه ؛ ويصيحون صيحة معينة يظنون أن المنادى صاحها ؛ وينظم موكب يرتدى فيه كل فرد الرداء الذى كان يستعمل فى عهد ثيسيوس . وهناك يوم آخر كان لا يفوت الأثينى أن يسلق فيه بقولا فى قدر ذات شكل معين ، وهى شعيرة يتوارى أصلها فى زمن عتيق جداً ولم يعودوا يعرفون مغزاها لكنهم كانوا يجددونها بورع كل عام (٤).

وللأثينى كما للرومانى أيام نحس ؛ ففى تلك الأيام لا يقع زواج ولا يُشرع فى أى عمل ولا يجتمع مجلس ولا تعقد المحاكم . ويخصص اليومان الثامن عشر والتاسع عشر من كل شهر للتطهر . وفى يوم البلينتيريا (Plynteries) (٥)،

---

(١) انظر ما يقوله إيسوقراط (*Aréopagitique*, 29-30) عن وفاء الأسلاف للشعائر القديمة . قارن ليسياس : ضد نيقوماخوس ١٩ : *Tà ἐκ τῶν κυρβεων θύοντες* ويذكر ديموسثينيس أيضاً المبدأ القديم الذى يحتم أن تقدم القرابين طبقاً لشعائر القدماء دون أن يحذف منها شىء أو يجدد شىء (ضد نيأيرا ٧٥) .

(٢) هى فى الاسطوره ابنة مينوس ملك جزيرة إقريطيش وقد عشقت ثيسيوس وأعطته حبلا مده فى التيه الذى كان بناه أبوها وبذلك عرف كيف يخرج من التيه بعد أن قتل الثور المفترس (minotaure) الذى كان سيكون طعمة له. وقد تركها فى جزيرة ناكسوس وألقت بنفسها من فوق صخرة فى البحر ـ المعرب .

(٣) مكونة من «أوسخوس» يعنى غصن و«فوريا» يعنى حمل وهو عيد كانوا يحملون فيه أغصان الكروم محملة بعناقيد العنب . ـ المعرب

(٤) بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) ومعناها عيد الغسيل لأنهم كانوا يغسلون فيه أردية أثينايا — المعرب .

وهو أنحس الأيام جميعاً، يضعون الحجاب على صنم المعبودة المدنية الكبرى(١). وعلى عكس ذلك يوم الپاناثينايا (Panathénéas)، يحمل حجاب الإلهة فى موكب عظيم ويحيط به جميع المواطنين بلا تفريق لسن أو مكانة . ويقدم الأثينى قرباناً من أجل المحاصيل، وقرابين لعودة المطر وعودة الصحو، ويقدم قرابين لشفاء الأمراض وطرد المجاعة والطاعون .

ولأثينا مجموعات وحيها القديم ، كما أن لروما كتبها السيبيلية، وتطعم فى بيت النار (پريتانيون) رجالا ينبئوونها بالمستقبل (٢) . وفى شوارعها نقابل فى كل خطوة متكهنين وكهنة ومفسرى أحلام (٣) ، ويعتقد الأثينى فى الفأل فيوقفه العطاس أو طنين الأذن فيما شرع فيه (٤) ، ولا ينزل فى سفينة قط دون أن يستنبىء الاستخارات (٥) . ولا يفوته أن يستوحى طيران الطيور قبل أن يتزوج (٦) . ويؤمن بالأقوال السحرية، وإذا مرض وضع تمائم حول عنقه (٧) . ويتفرق مجمع الشعب إذا ما أكد أحدهم أنه ظهرت فى السماء آية نحس (٨) . وإذا اختل القربان لإعلان خبر سىء وجبت إعادته (٩) .

لا يبدأ الأثينى حملة دون أن يدعو الحظ السعيد أولا (١٠) . وعلى المنبر

---

(١) Platon, *Lois*, VII, p.800: Ἡμέραι μὴ καθαραὶ ἀλλ᾽ ἀποφράδες.
فيلوخوروس القطعة ١٨٣ . اكسينوفون : الهلينيات ١ : ٤ : ١٢ .

(٢) أرسطوفانيس : السلم ١٠٨٤ .

(٣) ثوقيديديس ٢ : ٨ . ويتكلم أفلاطون أيضاً «عن المضحين المتنقلين والمتكهنين الذين يحاصرون أبواب الأغنياء» (السياسة ٢)

(٤) أرسطوفانيس وشارحه : الطيور ٧٢١ . أوريبيديس : يون ١١٨٩ .

(٥) أرسطوفانيس : الطيور ٥٩٦

(٦) أرسطوفانيس : الطيور ٧١٨ . اكسينوفون : ذكريات ١ : ١ : ٣ «يعتقدون فى الكهانة ويستنبئون الطيور والأصوات والعلامات وأحشاء الأضاحى» . ويؤكد اكسينوفون أن سقراط كان يعتقد فى الفأل ويوصى بدراسة الكهانة (شرحه ١ : ١ : ٦ ؛ ٤ : ٧ : ١٠) . وكان هو ذاته يعتقد اعتقادا كبيراً فى الخرافة ؛ وكان يؤمن بالأحلام (أناباسيس ٣ : ١ ؛ ٤ : ٣) ؛ وكان يستخير أحشاء الأضاحى (شرحه ٤ : ٣٠) وكان يحيط به المتكهنون (شرحه ٥ : ٢ : ٩ ؛ ٦ : ٤ : ١٣). أنظر فى الأناباسيس ٣ : ٢) مشهد العطاس .

(٧) أمدنا بلوتارخوس بهذه النقطة التفصيلية أثناء كلامه عن بريكليس نفسه (بلوتارخوس : بريكليس ٣٧ ، نقلا عن ثيوفراسطوس) .

(٨) أرسطوفانيس ؛ الاخارنيون (Acharniens) ١٧١ .

(٩) بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٢ .

(١٠) أرسطوفانيس : الطيور ٤٣٦ .

يؤثر الخطيب أن يبدأ بدعاء للآلهة والأبطال الذين يسكنون الإقليم . ويقودون الشعب بتلاوة الوحى له . ولكى يقوى الخطباء أراءهم كانوا يكررون فى كل لحظة : هكذا أمرت الإلهة (١) .

ينتمى نيقياس (Nicias) إلى أسرة كبيرة ثرية . وفى ريعان شبابه قاد وفادة (théorie) إلى مقدس ديلوس : أى أضاحى وفرقة لانشاد مدائح الإله أثناء القربان . وعندما عاد إلى أثينا كرم الآلهة بجزء من ثروته فأهدى تمثالا لأثينايا ومحراباً لديونيسيوس . وهو تارة هستياتور (hestiateur) (٢) ويتحمل تكاليف الأكلة المقدسة لقبيلته ، وتارة مدير فرقة (chorège) ويقوم بمصاريف فرقة للأعياد الدينية . ولا يقضى يوما دون أن يقدم قرباناً لإله ما . وله متكهن ملازم لبيته ولا يفارقه ، ويستشيره فى الأمور العامة كما يستشيره فى مصالحه الخاصة . وعندما عين قائداً قاد حملة ضد قورنثه . وبينما هو عائد منتصر إلى أثينا تبين له أن إثنين من جنوده بقيا من غير دفن على أرض العدو ؛ فتملكته وسوسة دينية : وأوقف أسطوله وأرسل منادياً يطلب إلى القورنثيين الإذن بدفن الجثتين ، وبعد ذلك بوقت قصير تنافس الشعب الأثينى فى غزوة صقلية . فصعد نيقياس المنبر وأعلن أن كاهنه ومتكهنه يخبران عن آيات معارضة للغزوة . ومن الحق أنه كان عند القيبياديس متكهنون آخرون يرون وحياً على عكس ذلك المعنى . فتردد الشعب ، ثم وفد رجال جاؤوا من مصر ، كانوا قد استشاروا الإله امن (أمون) الذى بدأ يشتهر جداً فى ذلك الوقت ، واحضروا هذا الوحى : سيضع الأثينيون يدهم على كل أهالى سيراقوسه . وسرعان ما صمم الشعب على الحرب (٣) .

قاد نيقياس الغزوة بالرغم منه . وقبل أن يسافر قدم قرباناً طبقاً للمألوف واستصحب معه ، كما كان يفعل كل قائد ، جيشاً من المتكهنين والمضحين وأهل الاستخارات والمنادين . وحمل الأسطول موقده ؛ ولكل سفينة شارة تمثل إلها ما .

---

(١) ليكورغ : ضد ليوقراطيس ١ . أرسطوفانيس : الفرسان ٩٠٣ ، ٩٩٩ ، ١١٧١ ، ١١٧٩ .

(٢) الهستياتور هو المضيف أو الداعى إلى وليمة . وكان يطلق فى أثينا على المواطن المكلف بتنظيم الاكلة المشتركة لقبيلته . — المعرب .

(٣) بلوتارخوس : نيقياس ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٣ .

لـكن نيقياس ضئيل الأمل . ألم ينبيء بالمصيبة عدد كاف من المعجزات ؛ فقد أتلف بعض الغربان تمثالا لپلاّس ؛ وتهشم رجل على مذبح ؛ وكان السفر فى أيام الپلينتيريا (Plyntéries) المنحوسة. يعلم نيقياس علم اليقين أن هذه الحرب ستكون قاضية عليه وعلى بلاده . لذلك كان يرى طول هذه الحملة خائفاً محترزاً على الدوام ؛ يكاد لا يجرؤ قط على إعطاء إشارة القتال وهو الذى عرف بأنه جندى مقدام وقائد ماهر كل المهارة .

ليس فى الاستطاعة الاستيلاء على سيراقوسه ، وبعد خسائر فادحة كان لا بد من تقرير العودة إلى أثينا . أعد نيقياس أسطوله للعودة وكان البحر لا يزال حراً لـكن طرأ خسوف للقمر فاستشار متكهنه و أجاب المتكهن أن النبوءة مضادة وأنه لا بد من الانتظار تسعة أيام ثلاث مرات، أطاع نيقياس ؛ وبقى كل ذلك الوقت بلا عمل ، وهو يقدم الشيء الـكثير من القرابين ليهدىء غضب الآلهة . وفى خلال ذلك الوقت أوصد الأعداء المرفأ ودمروا أسطوله . لم يبق إلا التقهقر براً ، وهو أمر مستحيل . ولم ينجح من أيدى السيراقوسيين لا هو ولا أحد من جنوده .

ماذا قال الأثينيون عندما وصلهم خبر النكبة ؟ كانوا يعرفون شجاعة نيقياس الشخصية وثباته العجيب ؛ ولم يفكروا أيضاً فى تأنيبه على اتباعه أوامر الديانة . ولم يجدوا إلا شيئاً واحداً يلومونه عليه وهو أنه استصحب متكهناً جاهلا إذ أن المتكهن أخطأ فيما ينبيء عنه خسوف القمر : كان عليه أن يعلم أن القمر الذى يخفى ضياءه هو فأل موافق بالنسبة لجيش يريد أن يتقهقر (١) .

---

(١) بلوتارخوس : نيقياس ٢٣ . ثوقيديديس ٦ و ٧ . ديودوروس ١٢ و ١٣ .

الفصل الثامن عشر

هيمنة الدولة ؛ لم يعرف القدماء الحرية الفردية

أسست المدينة ديانة ونظمت كنيسة . ومن هنا قوتها ؛ ومن هنا أيضاً هيمنتها والسلطان المطلق الذى كان لها على أعضائها . فلم يكن من المستطاع أن توجد الحرية الفردية فى مجتمع قائم على مثل هذه المبادىء . كان المواطن خاضعاً للمدينة فى كل شىء وبدون أدنى تحفظ ؛ كان لها بأكمله . وكانت كل من الديانة التى ولدت الدولة ، والدولة التى ترعى الديانة ، تسند احداهما الأخرى وهما شىء واحد ؛ وكانت هاتان السلطتان المتحدتان والممتزجتان تؤلفان سلطة تكاد تكون فوق سلطة البشر يخنع لها الروح والجسد على السواء .

لم يكن فى الرجل شىء ما مستقل. فكان جسمه للدولة ووقفاً على الدفاع عنها؛ كانت الخدمة العسكرية واجبة عليه فى روما حتى السنة السادسة والأربعين من عمره، وفى أثينا واسبرطه طول حياته (١)؛ وكانت ثروته تحت تصرف الدولة دائماً ؛ فإذا احتاجت المدينة للمال فإنها كانت تستطيع أن تأمر النساء بتسليمها جواهرهن ، والدائنين أن يتركوا لها ديونهم ، ومالكى أشجار الزيتون أن يتنازلوا لها مجاناً عن الزيت الذى عصروه (٢) .

لم تكن الحياة الخاصة بمنجاة من هذه الهيمنة من جانب الدولة. فكان الكثير من المدن الإغريقية يحرم على الإنسان أن يبقى أعزب (٣) ولم تكن اسپرطة تقتصر

---

(١) ثوقيديديس ١ : ١٠٥ ؛ بلوتارخوس : فوقيون ٢٤ ؛ بوسانياس ١ : ٢٦ - ٢٠ . اكسينوفون : الهلينيات ٦ : ٤ : ١٧

(٢) أرسطو : الاقتصاديات ٢ . يذكر المؤلف أمثلة عن بيزانطه وأثينا ولمبساك وهراقليا البونطيه وخيوس وكلازومينا وإفسوس .

(٣) Pollux, III, 48: Ἦσαν καὶ ἀγαμίου δίκαι πολλαχοῦ, καὶ ὀψιγαμίου καὶ κακογαμίου ἐν Λακεδαίμοσι Cf. VIII, 40: Γραφὴ ἀγαμίου. بلوتارخوس: ليساندروس ٣٠ . - فى روما قضى قرار من الرقباء بفرض غرامة على العزاب . فاليريوس ماكسيموس ٢ : ٩ ؛ أولوس جيليوس ١ : ٦ ؛ ٢ : ١٥ . ويقول سيسرون أيضاً (القوانين ٣ : ٣) : Censores. . . coelibes esse prohibento

على عقاب من لا يتزوج بل كانت تعاقب من يتزوج متأخراً ، كان فى استطاعة الدولة فى أثينا أن تفرض العمل ، وفى اسپرطه البطالة (١). وكانت تباشر استبدادها حتى فى أتفه الأمور ؛ فكان القانون فى لوكر (Locres) يحرم على الرجال شرب الخمر خالصاً ، وفى روما وفى ميليتوس وفى مرسيليا كان يحرم ذلك على النساء (٢). وكان من المعتاد بلا استثناء أن تحدد قوانين كل مدينة الملابس ؛ فكان تشريع اسپرطه ينظم لباس الرأس عند النساء ، وتشريع أثينا يحرم عليهن أن يحملن فى السفر أكثر من ثلاثة جلابيب (٣). وكان القانون فى رودس يحرم حلق اللحية ، ويعاقب فى بيزنطه بالغرامة من يحوز موسى ؛ وبالعكس كان يحتم فى اسپرطه حلاقة الشارب (٤)

كان للدولة الحق فى ألا تسمح بأن يكون مواطنوها مشوهين أو ممسوخين وبناء عليه كانت تأمر الوالد الذى يولد له ولد كهذا أن يميته. هذا القانون كان فى المجموعة القديمة من قوانين اسپرطه وروما (٥). ولا ندرى إن كان قد وجد فى أثينا ، وإنما نعرف فقط أن أرسطو وأفلاطون قددوناه فى تشريعاتهما المثالية.

فى تاريخ اسپرطه شىء أعجب به پلوتارخوس وروسو (Rousseau) إعجاباً كبيراً . عانت اسپرطه هزيمة فى ليكترا (Leuctre) وهلك الكثيرون من مواطنيها . وعندما وصل هذا النبأ فرضوا على أهل الموتى أن يظهروا بين

---

(١) بلوتارخوس : ليكورغ ٢٤ . بوليدوكيس ٨ : ٤٢ . ثيوفراسطوس (قطعة ٩٩)

(٢) أثينايوس ١٠ : ٣٣ . إيليانوس Elien قصص متنوعة ٢ : ٣٨ . ثيوفراسطوس (قطعة ١١٧) .

(٣) اكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ٧ . ثوقيديديس ١ : ٦ . بلوتارخوس ليكورغ ٩ . هيراقليديس البنطى : قطع طبعة ديدوج ٢ ص ٢١١ . بلوتارخوس : صولون ٢١ .

(٤) أثينايوس ١٣ : ١٨ . بلوتارخوس : كليومينيس ٩ . — بلوتارخوس : كاتون ٢٣ : «لم يعتقد الرومان أنه من اللازم أن تترك لكل فرد الحرية فى الزواج وفى أن يكون له أطفال وأن يعيش على هواه وأن يولم الولائم ويتبع ذوقه دون أن يخضع للتفتيش والمحاكمة» .

(٥) سيسرون : القوانين ٣ : ٨ . ديونيسيوس ٢ : ١٥ . بلوتارخوس : ليكورغ ١٦ .

الجمهور بوجوه مرحة . فكانت الأم التى تعرف أن ابنها نجا من الكارثة وتوشك أن تراه تظهر الحزن وتبكى ، والتى كانت تعلم أنها لن ترى ابنها كانت تظهر السرور وتجوب المعابد شاكرة للآلهة . ماذا كانت إذن سلطة الدولة ، هذه السلطة التى كانت تأمر بعكس ماتوحى به العواطف الطبيعية ومع ذلك فإنها تطاع !

لم تكن الدولة تقبل أن يكون رجل ما غير مكترث بمصالحها ؛ لم يكن للفيلسوف ، لرجل العلم ، الحق فى العيش على حدة . فكان فرضاً عليه أن يصوت فى المجمع وأن يكون رجل دولة فى دوره . وفى وقت كانت فيه المنازعات كثيرة الحدوث لم يكن القانون الرومانى يسمح للمواطن أن يبقى محايداً . بل كان عليه أن يناضل مع هذا الحزب أو ذاك . وكان القانون يحكم على من كان يريد البقاء منتحياً عن الأحزاب ، وأن يبدو هادئاً ، حكماً صارما وهو الحرمان من حق المدينة (١) .

كانت التربية أبعد بكثير من أن تكون حرة عند الإغريق . بل على العكس ، ما من شىء كانت تتمسك الدولة بالسيادة عليه أكثر من التربية . فلم يكن للوالد فى اسبرطه أى حق فى تربية ولده . ويلوح أن القانون كان أقل صرامة فى أثينا . ومع هذا كانت الدولة تتصرف بحيث تكون التربية مشتركة تحت إشراف أساتذة تختارهم هى . يرينا أرسطوفانيس فى فقرة بليغة أطفال أثينا ذاهبين إلى مدرستهم ؛ فهم يسيرون تحت المطر أو الثلج أو الشمس الساطعة فى صفوف متراصة وموزعين حسب أحيائهم ؛ ويلوح أن هؤلاء الأطفال كانوا يفهمون منذ الآن أنهم يؤدون واجباً دينياً (٢) . كانت الدولة تريد أن تدير التربية هى دون سواها ، ويخبرنا أفلاطون بالباعث على هذا التحكم (٣) : «يجب ألا يكون للوالدين الخيار فى إرسال أطفالهم أو عدم إرسالهم عند الأساتذة الذين اختارتهم المدينة ، إذ أن الأطفال ليسوا لوالديهم بقدر ما هم للمدينة» .

---

(١) بلوتارخوس : صولون ٢٠ .

(٢) أرسطوفانيس : السحاب ٩٦٠ - ٩٦٥ .

(٣) أفلاطون : القوانين ٧ .

كانت الدولة تعتبر جسم كل مواطن وروحه ملكاً لها؛لذلك كانت تريد أن تهيىء هذا الجسم وهذه الروح بحيث تستغلهما خير استغلال . فكانت تعلمه الرياضة البدنية لأن جسم الرجل سلاح المدينة ، وكان لا بد أن يكون هذا السلاح أشد ما يستطاع قوة وطواعية . وكذلك كانت تعلمه الأغانى الدينية والأناشيد ، والرقصات الدينية لأن هذه المعرفة كانت لازمة لحسن القيام بالقرابين وبأعياد المدينة (١) .

وكانوا يعترفون للدولة بالحق فى الحيلولة دون وجود تعليم حر بجوار تعليمها. أصدرت أثينا يوما ما قانوناً يحرم تعليم الشبان دون إذن من رجال الدولة ، وآخر يحرم تعليم الفلسفة بصفة خاصة (٢) .

لم تكن للإنسان الخيرة فى عقائده . فقد كان عليه أن يؤمن بديانة المدينة وأن يعنو لها . كان فى الاستطاعة بغض آلهة المدينة المجاورة أو احتقارهم. أما المعبودات ذات الصفة العامة الكونية مثل چوپيتر السماوى أو سيبيلا أوچونون فكان الإنسان حراً فى أن يؤمن بها أولا يؤمن ؛لكن كان يفرض عليه ألا يخطر بباله الشك فى أثينايا المدنية أو إرختيوس أو ككروپس ، فقد كان ذلك إثماً كبيراً يصيب الديانة والدولة فى آن واحد . وكان على الدولة أن تعاقب على ذلك عقاباً عسيراً . لقد أعدم سقراط من أجل هذه الجريمة (٣) . فإن حرية الفكر فيما يختص بديانة المدينة كانت مجهولة جهلا تاماً لدى القدماء ؛ وكان لا بد من السير على كل قواعد العبادة والمثول

---

(١) أرسطوفانيس : السحاب ٩٦٦ — ٩٦٨ . وكذلك فى اسبرطة : بلوتارخوس: ليكورغ ٢١ .

(٢) اكسينوفون: ذكريات ١ : ٢ : ٣١ . ديوغينيس لإركيس : ثيوفراسطس 5 .c لم يدم هذان القانونان زمناً طويلا .لكن ذلك لا يقلل من دلالتهما على مدى السيطرة العامة التى كانوا يعترفون بها للدولة فى مادة التعليم .

(٣) كان أمر الاتهام يتضمن Ἀδικεῖ Σωκράτης οὓς ἡ πόλις νομίζει θεοὺς οὐ νομίζων (اكسينوفون: ذكريات ١ : ١). عن الـ γραφὴ ἀσεβείας انظر بلوتارخوس: بريكليس ٣٢ ؛ مرافعة ليسياس ضد أندوكيديس ؛ بوليدوكيس ٨ : ٩٠ .

فى كل المواكب والمشاركة فى الأكلة المقدسة . كان التشريع الأثينى يفرض عقاباً على من يمتنع عن الاحتفال بعيد قومى احتفالا دينياً (١) .

فلم يكن القدماء إذن يعرفون حرية الحياة الخاصة، ولا حرية التربية، ولا الحرية الدينية . ولم تكن تحسب الشخصية البشرية إلا كشىء ضئيل جداً أمام هذه السلطة المقدسة التى تكاد تكون إلهية والتى كانوا يسمونها الدولة أو الوطن. فلم يكن للدولة كما فى مجتمعاتنا الحديثة حق العدل نحو المواطنين فحسب ، بل كانت تستطيع أن تعاقب من غير ذنب لمجرد أن مصلحتها فى خطر . من الموثوق به أن أرستيديس لم يرتكب أية جريمة بل لم ترق إليه شبهة ؛ لكن للمدينة الحق فى اخراجه من أرضها لهذا الدافع الوحيد وهو أن أرستيديس قد نال بحكم فضائله نفوذاً طاغياً بحيث أصبح فى إمكانه أن يكون خطراً إذا شاء . وكانوا يسمون ذلك الأوستراكيسموس (ostracisme). لم يكن هذا النظام خاصاً بأثينا فإنا نجده فى أرغوس وميغارا وسيراقوسه ، ويوحى أرسطو بأنه كان موجوداً فى جميع المدن الإغريقية التى كانت فيها حكومة العامة (ديمقراطية) (٢) . ولم يكن الأوستراكيسموس عقاباً ، بل حيطة تتخذها المدينة قبل المواطن الذى ترتاب فى أنه يستطيع أن يضايقها يوما ما . كان من المستطاع فى أثينا أن يتهم شخص وأن يحكم عليه لعدم وطنيته أى لعدم محبته للدولة . فلم يكن هناك ما يضمن حياة الإنسان ما دام الأمر متعلقاً بصالح المدينة . أصدرت روما قانوناً تسمح بمقتضاه بقتل كل شخص فى نيته أن يصبح ملكاً (٣) . إن الحكمة المشؤومة ، وهى أن سلامة الدولة

---

(١) بوليدوكيس ٨ : ٤٦ . أولبيانوس: حاشية على ديموسثينيس (ضد ميدياس).

(٢) أرسطو : السياسية ٣ : ٨ : ٢ ؛ ٥ : ٢ : ٥ . ديودوروس ٩ : ٨٧ . بلوتارخوس: أرستيديس ١ ؛ ثميستوكليس ٢٢ ؛ فيلوخوروس طبعة ديدو ص ٣٩٦ . شارح أرسطوفانيس : الفرسان ٨٥٥ .

(٣) بلوتارخوس : بوبليكولا ١٢

هى القانون الأعلى ، قد صيغت فى الزمن العتيق (١) . فكانوا يرون أن الحق والعدل والأخلاق كل هذا يجب أن يتنحى أمام صالح الوطن .

إنه لضلال فذ بين جميع الضلالات البشرية أن يعتقد البعض أن الإنسان فى المدن القديمة كان يتمتع بالحرية . لم يكن لديه حتى فكرة عنها . لم يكن يعتقد أن فى الاستطاعة وجود حق ماقبل المدينة وآلهتها . سنرى وشيكاً أن الحكومة غيرت شكلها مراراً عديدة . لكن طبيعة الدولة بقيت كما هى تقريباً ولم ينتقص من سيطرتها العامة شىء . كانت الحكومة تسمى الحكومة الملكية ، أو حكومة السراة (أرستوقراطية) ، أو حكومة العامة (ديموقراطية) على التوالى لكن ما من واحدة من هذه الثورات وهبت الناس الحرية الحقيقية : الحرية الفردية . وما كانوا يسمونه الحرية إنما هو أن يكون للمرء حقوق سياسية ، وأن يصوت ، وأن يُعيَّن رجال الدولة ، وحقه فى أن يكون أرخوناً . لكن الإنسان لم يكن لذلك أقل عبودية للدولة . كان القدماء ، وعلى الأخص الإغريق ، يبالغون دائماً فى أهمية المجتمع وحقوقه . ويرجع ذلك بلا ريب إلى الصفة المقدسة والدينية التى خلعها المجتمع على نفسه فى الأصل .

---

(١) سيسرون : القوانين ٣ : ٣ .

الكتاب الرابع
الثورات

الثورات

لم يكن فى الاستطاعة أن نتصور شيئاً أصلب بنية من الأسرة فى العصور القديمة ، تلك التى كانت تتضمن فى ذاتها آلهتها وعبادتها وكاهنها وحاكمها ، ولا شيئاً أقوى من هذه المدينة التى كانت ، هى أيضاً ، تشمل فى ذاتها ديانتها وآلهتها الحماة وكهنوتها المستقل ، والتى كانت تتحكم فى روح الإنسان بقدر ما كانت تتحكم فى بدنه ، والتى كانت أقوى بكثير من دولة اليوم ، فكانت تجمع فى شخصها السلطة المزدوجة التى نراها مقسمة فى أيامنا هذه بين الدولة والكنيسة . فإن كان هناك مجتمع أنشىء ليبقى فإنما هو ذلك المجتمع ، ومع ذلك فقد عانى بدوره سلسلة ثوراته ككل ما هو بشرى .

لا نستطيع أن نقول ، بصفة عامة ، فى أية فترة بدأت هذه الثورات . ومن السهل أن ندرك ، فى الواقع ، أن هذه الفترة لم تكن واحدة بالنسبة لمختلف المدن الإغريقية والإيطالية . والمؤكد أنه منذ القرن السابع قبل الميلاد وهذا التنظيم الاجتماعى موضع للنقاش والهجوم فى كل مكان تقريباً . وابتداء من ذلك الوقت لم يكن يتساند إلا فى عناء ومزيج من المقاومة والتساهل على درجة متفاوتة من المهارة ؛ وظل يناوص هكذا عدة قرون وسط المنازعات المستديمة ، ثم اختفى فى النهاية .

والأسباب التى أدت إلى دماره يمكن أن تقتصر على إثنين . أحدهما التغيير الذى حدث فى الآراء على مر الزمن تبعاً للتطور الطبيعى فى العقلية الإنسانية ، والذى محى العقائد العتيقة فانهارت معها البيئة الاجتماعية التى أقامتها هذه العقائد ، والتى كانت دون سواها قادرة على تدعيمها ؛ والآخر وجود طبقة من الناس كانت موضوعة خارج نظام المدينة وكانت تتألم من ذلك ومن مصلحتها أن تدمره ، فحاربته حرباً لا هوادة فيها .

وعندما ضعفت العقائد التى تأسس عليها هذا النظام الاجتماعى وأصبحت مصالح سواد الناس مناوئة لهذا النظام كان من المحتم أن يسقط . وما من مدينة نجت من قانون التبديل هذا . فلم تكن اسپرطه أقدر على النجاة منه من أثينا، ولا روما من بلاد الإغريق . وكما رأينا أن أهالى بلاد الإغريق وإيطاليا كانوا يؤمنون فى الأصل بنفس العقائد،وأن نفس السلسلة من الأنظمة امتدت لديهم، فإننا سنرى من الآن أن جميع هذه المدن قد مرت بنفس الانقلابات .

يجب أن ندرس لماذا وكيف ابتعد الناس تدريجياً عن هذا النظام العتيق، لا لينحطوا،بل على العكس ليتقدموا نحو نظام اجتماعى أوسع منه وأحسن . إذ أن كل تغيير من تغييراته قد قربهم ، تحت مظهر من الفوضى ، وفى بعض الإحيان من الانحطاط ، من هدف لم يكونوا على علم به .

الفصل الأول

البطارقة والموالى

إننا لم نتكلم حتى الآن عن الطبقات الدنيا ولم يكن لنا أن نتكلم عنها. إذ أن المقصود كان وصف النظام البدائى للمدينة . ولم تكن الطبقات الدنيا تعد شيئاً يؤبه له على الإطلاق فى تلك المنظمة . فقد تكونت المدينة كما لو لم تكن هذه الطبقات موجودة . وكان فى استطاعتنا إذن ، لكى ندرسها ، أن ننتظر إلى أن نصل إلى عصر الثورات .

كان فى المدينة العتيقة طبقات وفروق واختلاف فى الدرجات كما هو الأمر فى كل مجتمع بشرى. فى أثينا نعرف التفريق الأصلى بين النسباء (eupatrides) والوضعاء (thètes) ، وفى اسبرطه نجد طبقة الأكفاء وطبقة الأدنياء ، وفى أوبيا (Eubée) طبقة الفرسان وطبقة الشعب . وتاريخ روما ملىء بالنضال بين البطارقة والسوقة ، وهو نضال نعثر عليه فى جميع المدن السابينية واللاتينية والأترسكية . بل فى الإمكان أن نلاحظ أنه كلما صعدنا فى تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا كلما ظهر التفريق عميقاً والدرجات أكثر وضوحاً . دليل مؤكد على أن انعدام المساواة لم يتكون على مر الزمن بل إنه كان موجوداً منذ الأصل وإنه كان معاصراً لنشأة المدن .

ومن المهم أن نبحث على أى المبادىء كان يعتمد هذا التقسيم بين الطبقات ؛ وبذلك نستطيع أن نرى بسهولة أكبر على أى الآراء أو أى الحاجات سينشب القتال ، وبماذا تطالب الطبقات الدنيا ، وباسم أى المبادىء ستدافع الطبقات العليا عن سلطانها .

رأينا آنفاً أن المدينة نشأت من تحالف الأسرات والقبائل .[1] وقبل اليوم الذى تكونت فيه المدينة كانت الأسرة تحوى فى ذاتها هذا التفريق بين الطبقات ؛

والواقع أن الأسرة لم تكن لتتمزق بل كانت ، كما كانت ديانة الموقد البدائية، غير قابلة للتجزئة ، وكان الابن الأكبر دون سواه يخلف والده ويقبض على على الكهنوت والملك والسلطة . وكان إخوته بالنسبة له كما كانوا بالنسبة لوالده . ومن جيل إلى جيل،ومن ابن أكبر إلى ابن أكبر، لم يكن هناك على الدوام إلا رئيس واحد للأسرة ؛ كان يرأس القربان ويتلو الدعاء ويقضى ويحكم وإليه وحده يرجع فى الأصل لقب *pater* (أب) ؛ فإنه لم يكن فى الإمكان إذ ذاك تطبيق هذه الكلمة ، التى كانت تدل على السلطة لا على الأبوة ، إلا على رئيس الأسرة . فكان أبناؤه واخوته وخدمه يدعونه جميعاً هكذا .

ها هو إذن فى صميم تكوين الأسرة أول مبدأ لعدم المساواة . كان البكر يمتاز فيما يختص بالعبادة والإرث . وبعد عدة أجيال كان يتكون بالطبع فى كل من الأسرات الكبيرة فروع صغرى تضعها الديانة والعرف فى مستوى أدنى بالنسبة للفرع الأكبر وتخضع لسلطانه باعتبارها تعيش تحت حمايته .

ولهذه الأسرة خدم لا يتركونها ويلازمونها بالوراثة، وللأب (*pater*) أو الولى (patron) عليهم السلطة الثلاثية : سلطة السيد والقاضى والكاهن . كانوا يسمونهم بأسماء تختلف باختلاف الأماكن وأكثرها معرفة لنا اسم الموالى Clients والوضعاء (thétes) .

وها هى ذى طبقة دنيا أخرى . لم يكن المولى تحت الرئيس الأعلى للأسرة فحسب بل تحت الفروع الصغرى أيضاً . والفرق بينه وبينها أن العضو فى فرع أصغر إذا ما صعد فى سلسلة أسلافه وصل دائماً إلى *pater* (أب) أى إلى رئيس أسرة ، إلى واحد من هؤلاء الأجداد الإلهيين الذين تدعوهم الأسرة فى أدعيتها . وبما أنه ينحدر من *pater* (أب) فقد كانوا يسمونه فى اللاتينية *patricius* (بطريق) . وعلى العكس لا يصل ابن المولى قط ، مهما صعد فى سلسلة نسبه ، إلا إلى مولى أو عبد . فليس فى أجداده *pater* (أب) ومن هنا لصقت به حالة انحطاط لا يجد منها مخرجاً .

والتفريق بين هاتين الطبقتين من الناس جلى فيما يختص بالمصالح المادية فإن ملك الأسرة بأكمله للرئيس، بيد أنه يقتسم التمتع به مع الفروع الصغرى،

بل مع الموالى أيضاً؛ ولكن بينما للفرع الأصغر، على الأقل، حق محتمل على الملك ، فى حالة ماإذا حدث أن انقرض الفرع الأكبر ، فإن المولى لايستطيع أن يصبح مالكاً إطلاقاً ، والأرض التى يزرعها ما هى إلا وديعة لديه وإذا مات عادت للولى. وقد احتفظ القانون الرومانى فى العصور المتأخرة بأثر من هذه القاعدة القديمة فيما كانوا يسمونه *jus applicationis*(١). بل إن مال المولى ليس له ، فالولى هو مالكه الحقيقى ويستطيع أن يضع يده عليه لحاجاته الشخصية . وبمقتضى هذه القاعدة العتيقة كان القانون الرومانى ينص على أنه من واجب المولى أن يقدم بائنة لابنة الولى وأن يدفع عنه الغرامة وأن يقدم فديته أو أن يساهم فى تكاليف مناصبه.

والتفريق أجلى من ذلك فى الديانة . فإن سليل الأب (*pater*) هو الذى يستطيع دون سواه أن يقوم باحتفالات عبادة الأسرة . كان يحضرها المولى ويقدمون القربان من أجله لكنه لم يكن يقوم بها هو ذاته . فبينه وبين المعبود المنزلى وسيط على الدوام بل إنه لم يكن يستطيع أن يقوم مقام الأسرة إذا اندثرت . فإذا حدث أن انقرضت هذه الأسرة فإن الموالى لا يواصلون العبادة بل يتفرقون . إذ أن الديانة ليست ميراثاً لهم ؛ إنها ليست من دمهم ، إنها لم تأت إليهم من أسلافهم الخصوصيين : إنها ديانة مستعارة ، لهم حق التمتع بها وليس لهم حق الملك فيها .

ولنذكر أنه تبعاً لرأى الأجيال القديمة كان حق الإنسان فى أن يكون له إله وفى الدعاء حقاً وراثياً . فالأثارة المقدسة والشعائر والكلمات النسكية والعزائم القوية التى تجبر الآلهة على العمل ، كل ذلك لم يكن لينتقل إلا مع الدم . فكان من الطبيعى إذن فى كل هذه الأسرات العتيقة أن يكون الجزء الحر الصميم ، الذى ينحدر حقيقة من السلف الأول ، هو الحائز دون سواه للصفة الكهنوتية . فكان للبطارقة أو للنسباء الامتياز فى أن يكونوا كهنة وأن تكون لهم ديانة ملكا خالصاً لهم . (٢)

---

(١) معناها حق الارتباط أو حق الملازمة وهو الحق الذى بمقتضاه يرث الولى من المولى . ـ المعرب .

سيسرون : الخطيب ١ : ٣٩ ؛ أولوس جيليوس ٥ : ١٣ .

(٢) ديودوروس ١ : ٢٨ . بوليدوكيس ٨ : ٣ . *Etymologicum magnum*, p. 395.- ديونيسيوس الهاليكارناسى ٢ : ٩ ؛ تيتوس ليفيوس ١٠ : ٦-٨ ؛ ٤ : ٢ ؛ ٦ : ٤١

وهكذا كان التفريق بين الطبقات موجوداً حتى قبل الخروج من حالة الأسرة ؛ كانت الديانة المنزلية القديمة قد أقامت درجات ، فلما تكونت المدينة فيما بعد لم يبدَّل شىء ما من تكوين الأسرة الداخلى . بل سبق أن بيَّنا أن المدينة لم تكن فى الأصل تجمعاً من الأفراد بل حلفاً من القبائل والندوات والأسرات وأن كل من هذه الهيئات قد بقى ، فى هذا النوع من التحالف ، كما كان من قبل . اتحد رؤساء هذه المجموعات الصغيرة فيما بينهم لكن كل واحد منهم بقى سيداً مطلقاً فى المجتمع الصغير الذى كان رئيساً عليه من قبل . ولهذا السبب بقى القانون الرومانى زمناً طويلا تاركاً للأب (*pater*) السلطة المطلقة على ذويه وحق المحاكمة لمواليه . وإذن فقد استمر فى المدينة نفس التمييز بين الطبقات الذى ولد فى الأسرة .

لم تكن المدينة فى عصرها الأول سوى اتحاد من رؤساء الأسرات . ولدينا شواهد من عصر لم يكن سواهم يستطيع فيه أن يكون مواطناً . ولا زلنا نستطيع رؤية أثر من هذه القاعدة فى قانون قديم لأثينا يقول إنه لكى يكون الإنسان مواطناً لا بد أن يكون له إله منزلى (١) . يلاحظ أرسطو «أنه فى الزمن القديم كانت القاعدة ، فى بعض البلدان ، أن الابن لا يكون مواطناً فى حياة الأب ، فإذا مات الأب تمتع الابن الأكبر وحده بالحقـــوق السياسية (٢) » . لم يكن القانون إذن يحسب الفروع الصغرى ، وبالأولى الموالى ، فى المدينة . لذلك يضيف أرسطو أن المواطنين الحقيقيين كانوا عندئذ عدداً ضئيلاً جداً .

فى تلك الأزمنة القديمة ، لم يكن المجمع ، الذى كان يتناقش فى المصالح العامة للمدينة ، مكوناً ، هو أيضاً ، إلا من رؤساء الأسرات *patres* (الآباء) . ومن المسموح به ألا نصدق سيسرون عندما يقول إن رومولوس أطلق لفظ آباء على الشيوخ لكى يدل على عطفهم الأبوى نحو الشعب . فقد كان من

---

(١) هاربوقراتيون : تحت لفظ *Ζεὺς ἑρκεῖος* نقلا عن هيبريديس (Hypéride) وديمتريوس الفاليرى .

(٢) أرسطو : السياسة ٥ : ٥ : ٣

الطبيعى أن يحمل أعضاء مجلس الشيوخ القديم هذا اللقب لأنهم كانوا رؤساء الفصائل (*gentes*). وفى نفس الوقت الذى كان هؤلاء الرجال مجتمعين يمثلون فيه المدينة بقى كل منهم سيداً مطلقاً فى الفصيلة (*gens*) التى كانت كمملكة صغيرة له. ونرى أيضاً منذ ابتداء روما مجمعاً آخر أكثر عدداً هو مجمع الندوات. لكنه يختلف بعض الاختلاف عن مجمع الآباء (*patres*)، وكانوا هم أيضاً لا يزالون يكونون العنصر الأساسى فى هذا المجمع؛ وإنما كان يمثل فيه كل (*pater*) (أب) محاطاً بأسرته. وكان أقاربه ومواليه أنفسهم حاشية له ودليلا على قوته. هذا ولم يكن لكل أسرة فى هذه اللجان غير صوت واحد(١). ويمكن أن نفرض أن الرئيس كان يأخذ رأى أقربائه بل ومواليه لكن من الجلى أنه هو الذى كان يصوت. فضلا عن أن القانون كان يحرم على المولى أن يكون له رأى غير رأى وليه (٢) فإذا كان الموالى ملحقين بالمدينة فإنما كان ذلك عن طريق رؤسائهم البطارقة. فكانوا يساهمون فى العبادة العامة ويظهرون أمام المحكمة ويدخلون المجمع ولكن فى إثر أوليائهم.

يجب ألا نتصور مدينة هذه العصور القديمة كتجمع من رجال يعيشون مختلطين فى نطاق سور واحد. فإن المدينة لم تكن فى الأزمنة الأولى مكاناً للسكنى قط؛ وإنما هى المقدس الذى تقيم فيه آلهة الجماعة؛ وهى الحصن الذى يحميهم والذى يقدسه حضورهم؛ هى مركز الجمعية ومقر الملك والكهنة والمكان الذى تؤدى فيه العدالة. لكن الناس لا يعيشون فيها. فقد ظل الناس عدة أجيال، بعد ذلك، وهم يعيشون خارج البلدة فى أسرات منعزلة تقتسم الريف. كل من هذه الأسرات تحتل ناحيتها، حيث يوجد مقدسها المنزلى، وحيث

---

(١) أولوس جيليوس ١٥ : ٢٧. سنرى أن الولاء قد تبدل فيما بعد، فلن نتكلم هنا إلا عن ولاء القرون الأولى لروما.

(٢) Denys, II,10 : Οὔτε ὅσιον οὔτε Θέμις ψῆφον ἐναντίαν φέρειν

تكون تحت سلطة أبيها *pater* كمجموعة لاتقبل التجزئة (١). وفى أيام معينة، عند ما يكون هناك ما يتعلق بمصالح المدينة أو بلوازم العبادة المشتركة، كان رؤساء الأسرات يتوجهون إلى البلدة ويجتمعون حول الملك إما للمناقشة وإما لشهود القربان. وإذا كان المقصود حرباً جاء كل من هؤلاء الرؤساء تتبعه أسرته وخدمه (*sua manus*)، ويجتمعون حسب الأخويات أو الندوات ويكوّنون جيش المدينة تحت إمرة الملك.

---

(١) وصف ثوقيديديس (٢ : ١٥ ، ١٦) هذه الأخلاق القديمة التى كانت لاتزال باقية فى أتيكا إلى عصره :

Γῆ κατὰ χώραν αὐτονόμῳ οἰκήσει μετεῖχον οἱ Ἀθηναῖοι, ἐν τοῖς ἀγροῖς πανοικησίᾳ οἰκήσαντες.

إنما فقط عند ابتداء حرب البيلوبونيز هجروا *οἰκίας καὶ ἱερὰ ἃ διὰ παντὸς ἦν αὐτοῖς ἐκ τῆς κατὰ τὸ ἀρχαῖον πολιτείας πάτρια.*

الفصل الثانى

السـوقة (*PLEBS*)

يجب الآن التنويه بعنصر آخر من عناصر السكان كان فى مستوى أقل من مستوى الموالى أنفسهم ، وبعد أن كان عاجزاً فى الأصل ، حصل رويداً رويداً على قوة كافية أتاحت له تحطيم النظام الاجتماعى القديم . وهذه الطبقة التى أصبحت أكثر عددا فى روما منها فى أية مدينة أخرى كانت تدعى فيها *plebs* (السوقة). يجب التأمل فى أصل هذه الطبقة وصفتها لإدراك الدور الذى لعبته فى تاريخ المدينة والأسرة عند القدماء .

لم يكن السوقة هم الموالى ؛ فإن مؤرخى العصور القديمة لا يخلطون بين هاتين الطبقتين . يقول تيتوس ليڤيوس فى موضع ما : « لم تشأ السوقة أن تساهم فى انتخاب القنصل ؛ ولهذا انتخب البطارقة وموالیهم القناصل (١)» . وفى موضع آخر «شكت السوقة من أن للبطارقة نفوذا طاغيا فى اللجان بفضل أصوات موالیهم (٢)»ونقرأ فى ديونيسيوس الهاليكارناسى: «خرجت السوقة من روما واعتزلت فوق الأكمة المقدسة ، وبقى البطارقة فى البلدة وحدهم هم وموالیهم » . لم تكن هذه السوقة المنفصلة عن الموالى انفصالا بيّنا جزءا مما كانوا يسمونه الشعب الرومانى وذلك على الأقل فى القرون الأولى . كانوا يطلبون من الآلهة ، فى دعاء قديم كان لا يزال يكرر فى عهد الحرب البونية ، أن يكونوا عاطفين «على الشعب

---

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٦٤ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٢ : ٥٦ .

(٣) ديونيسيوس ٦ : ٤٦ ؛ ٧ : ١٩ ؛ ١٠ : ٢٧ .

وعلى السوقة» (١) . فلم تكن السوقة إذن مشمولة فى الشعب فى الأصل . كان الشعب يشمل البطارقة ومواليهم ؛ أما السوقة فكانت خارجة عنه .

لم يلق القدماء إلا ضوءاً ضئيلا على التكوين الأول لهذه السوقة . ولنا الحق أن نفترض أن سوادها الأعظم كان يتكون من الأهالى القدماء الذين غلبوا على أمرهم وأخضعوا . بيد أنه يدهشنا أن نرى فى تيتوس ليڤيوس الذى كان يعرف الآثار القديمة آن البطارقة لم يكونوا يأخذون على السوقه أنهم من الأهالى المغلوبين على أمرهم بل كانوا يأخذون عليهم أنهم قوم لا دين لهم ولا أسرة . وهذا المأخذ ، الذى لم يكن فى موضعه زمن ليكينيوس ستولون (Licinius Stolon) ، والذى لم يكن معاصرو تيتوس ليڤيوس يكادون يفهمونه ، لا بد أنه يرجع إلى فترة قديمة جداً ويعود بنا إلى الأزمنة الأولى للمدينة .

والواقع أننا نلمح فى نفس طبيعة الآراء الدينية القديمة أسباباً عدة كانت تدعو إلى تكوين طبقة دنيا . فإن الديانة المنزلية لم تكن تنتشر بل كانت تولد فى أسرة وتبقى حبيسة فيها ؛ كان لابد لكل أسرة من أن تكوّن لنفسها عقيدتها وآلهتها وعبادتها . لكن كان من الممكن أن يحدث أنه لم يكن فى ذهن بعض الأسرات من القوة ما يمكنها من خلق معبود لنفسها وإنشاء عبادة واختراع نشيد الدعاء ونغمته . فكانت هذه الأسرات ، لهذا السبب وحده ، فى حالة ضعة تجاه الأسرات التى كانت لها ديانة ، ولا تستطيع أن تدخل معها فى مجتمع . ومن

---

(١) Tite-Live, XXIX, 27: *Ut ea mihi populo plebique romanae bene verruncent.*—Cicéron, *pro Murena,* I: *Ut ea res mihi magistratuique mea, populo plebique romanae bene atque feliciter eveniat.* يذكر ماكروبوس (ساتورناليا ١ : ١٧) وحياً قديماً من المتكهن مارقيوس يتضمن : *praetor qui jus populo plebique dabit*. أما إن الكتاب القدماء لم يحسبوا دائماً حساباً لهذا التفريق الجوهرى بين الشعب *populus* وبين السوقة *plebs* فهو مالا ندهش له إذا ما تأملنا أن هذا التفريق لم يعد موجوداً عند ما كانوا يكتبون . ففى عصر سيسرون كان قد مضى زمن طويل منذ أصبحت السوقة جزءاً من الشعب لكن الصيغ بقيت كآثار من عهد لم تكن طائفتا الأهالى مختلطتين فيه .

المؤكد أنه حدث أيضاً أن بعض الأسرات التى كانت لها عبادة منزلية قد فقدتها إما عن إهمال ونسيان للشعائر وإما على إثر إحدى تلك الجرائم أو تلك الأدناس التى كانت تحرم على المرء أن يقترب من موقده أو يواصل عبادته. وأخيراً كان يحدث أن يطرد من الأسرة بعض الموالى، الذين كانوا دائماً على عبادة السيد ولا يعرفون سواها ، أو أن يهجروها طواعية . فكان ذلك تنازلا عن الديانة . ولنضف أيضاً أن الابن المولود من زواج على غير الشعائر كان يعتبر نغلا كالذى يولد من الزنا ، ولا وجود للديانة المنزلية بالنسبة له . كل أولئك الرجال المنبوذين من الأسرات والموضوعين خارج العبادة ينضوون تحت طبقة الرجال الذين لا موقد لهم . فكان وجود السوقة نتيجة لازمة لطبيعة النظام العتيق التى تقصى كل ما عداها .

نكاد نجد هذه الطبقة بجوار كل المدن القديمة لكنها منفصلة عنها بخط فاصل. فقد كانت المدينة الإغريقية مزدوجة؛ هناك المدينة بمعناها الصحيح، *πόλις* ، التى تقوم عادة على قمة تل، وهى التى أسست بمقتضى الشعائر الدينية وتضم مقدس المعبودات المدنية . وتحت سفح الأكمة مجموعة من المنازل بنيت بدون احتفال دينى ومن غير حائط مقدس ، ذلك هو مأوى السوقة التى لم تكن تستطيع أن تسكن البلدة المقدسة .

وفى روما ، كان الفرق الأصلى بين طائفتى الأهلين بيِّناً . فمدينة البطارقة ومواليهم هى التى أسسها رومولوس حسب الشعائر على هضبة البالاتينوس، ومسكن السوقة هو الملجأ (*Asylum*) وهو عبارة عن حوزة واقعة على سفح أكمة الكابيتوليوم ، وهو الذى قبل فيه الملكُ الأول القوم- الذين لا نار لهم ولا مكان ، ولم يكن فى استطاعته أن يدخلهم بلدته . وفيما بعد ، عندما وفدت على روما أقوام جديدة من السوقة ، غرباء عن ديانة المدينة ، أسكنوهم على أكمة الأفنتينوس (*Aventinus*) أى خارج هرم السور (*pomoerium*) وخارج البلدة الدينية (١) .

---

(١) آولوس جيليوس ١٣ : ١٤ ؛ تيتوس ليفيوس ١ : ٣٣ .

إن كلمة واحدة تميز هؤلاء السوقة : إنهم لا عبادة لهم ؛ أو على الأقل يأخذ عليهم البطارقة أنه لا ديانة لهم : «ليس لهم أسلاف» ، ومعنى ذلك فى ذهن خصومهم أنه ليس لهم أسلاف معترف بهم ومقبولون شرعاً ؛ «ليس لهم آباء» أى أنهم يبحثون عبثاً فى سلسلة أجدادهم دون أن يجدوا إطلاقاً رئيساً لأسرة دينية : *pater* (أب) . وليست لهم أسرة *gentem non habent* »أى أنه لم يكن لهم غير الأسرة الطبيعية ؛ أما تلك التى تكونها الديانة وتنظمها ، أى الفصيلة الحقيقية ، فإنها لم تكن لهم (١) .

لم يكن الزواج المقدس موجوداً بالنسبة لهم ؛ إنهم لا يعرفون شعائره . وحيث أنه لا موقد لهم فإن القران الذى ينشئه الموقد محرم عليهم . لذلك كان يستطيع البطريق ، الذى لم يكن يعرف قراناً نظامياً غير الذى يربط بين الزوج والزوجة بحضور المعبود المنزلى ، أن يقول وهو يتكلم عن السوقة *Connubia promiscua habent more ferarum.* (٢)

وحيث أنه لا أسرة لهم فليس لهم سلطة أبوية. من الممكن أن تكون لهم على أطفالهم السلطة التى تعطيها القوة أو العاطفة الطبيعية ؛ لكن لم تكن لهم تلك السلطة المقدسة التى تخلعها الديانة على الأب .

وحق الملك غير موجود بالنسبة لهم . إذ كل ملك يجب أن يقره أو أن يقدسه الموقد والقبر والآلهة التخوم ، أى كل عناصر العبادة المنزلية . وإذا حاز السوقة أرضاً فإنه لم تكن لهذه الأرض الصفة المقدسة . بل هى أرض مبتذلة ولا تعرف التحديد بالتخوم . لكن هل كان فى استطاعته ، فى الأزمنة الأولى ، حتى أن يحوز أرضاً ؟ نعرف أنه ما من أحد كان يستطيع أن يمارس حق الملك فى روما إلا إذا كان مواطناً. يقول الفقيه إنه لا يمكن أن يكون الإنسان مالكاً إلا بمقتضى حق الكويرين (Quirites) ؛ لكن السوقة لم يكن يعد فى البدء بين الكويريين . وعند نشأة روما كانت الأرض الرومانية (*ager romanus*) مقسمة

---

(١) لا يلاحظ وجود الفصائل (*gentes*) السوقة إلا فى القرون الثلاثة الأخيرة من الجمهورية . وعندئذ أخذت السوقه تتبدل فكما حصلت على حقوق البطارقة فانها اقتبست أيضاً أخلاقهم وتشكلت بأشكالهم .

(٢) معناها : لهم زواج خُلَيْطى على طريقة البهائم — المعرب

بين القبائل والندوات والفصائل (*gentes*) (١) ؛ لـكن السوقة الذى لم يكن ينتمى لأية واحدة من هذه المجموعات ، لم يكن يدخل فى القسمة حتما . هؤلاء السوقة ، الذين لم تكن لهم ديانة ، لم يكن لهم ما يجعل الإنسان يطبع جزءاً من الأرض بطابعه ويجعله له . معروف أنهم سكنوا الأڤينتينوس زمناً طويلا وبنوا عليه بيوتاً ، لـكنهم فى النهاية لم يحصلوا على امتلاك هذه الأرض إلا بعد ثلاثة قرون وبعد كثير من النضال (٢) .

لم يكن للسوقة قانون ولا عدالة . إذ أن القانون هو قرار من الديانة ؛ والإجراءات مجموعة من الشعائر . للمولى أن ينتفع بحق المدينة عن طريق ولـيّه . أما فيما يختص بالسوقة فإن هذا الحق كان غير موجود . يقول مؤرخ قديم بصراحة أن السادس من ملوك روما هو أول من سن قوانين للسوقة بينما كان للبطارقة قوانينهم منذ زمن بعيد (٣) . بل يبدو أن هذه القوانين قد سحبت من السوقة فيما بعد أو أن البطارقة رفضوا أن يقيموا لها حساباً لأنها لم تكن مؤسسة على الديانة ؛ إذ أننا نرى عند المؤرخ المذكور أنه عندما أنشأوا العرفاء كان لا بد من إصدار قانون خاص يحمى حياتهم وحريتهم وقد وضع هذا القانون هكذا : «ليس لأحد أن يفكر فى ضرب عريف (**tribunus**) أو قتله كما يفعل فى رجل من السوقه» (٤) فيلوح إذن أنه كان لهم الحق فى ضرب السوقة أو قتله ، أو على الأقل أن هذا الجرم لم تكن يعاقب عليه شرعاً إذا ما ارتكب نحو رجل كان يعدّ خارج القانون .

لم يكن للسوقة حقوق سياسية . أولا : لم يكونوا مواطنين ولم يكن يستطيع أى واحد منهم أن يكون رجل دولة . ولم تكن فى روما مجامع لمدة قرنين غير الندوات . ولم تكن الندوات تشمل فى القرون الثلاثة الأولى من روما

---

(١) فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ٥٥ ؛ ديونيسيوس ٢ : ٧ .

(٢) ديونيسيوس ١٠ : ٣٢ ؛ انظر تيتوس ليفيوس ٣ : ٣١ .

(٣) ديونيسيوس ٤ : ٤٣ .

(٤) ديونيسيوس ٦ : ٨٩ *Ὡς ἕνα τῶν Πολλῶν* وعبارة *οἱ Πολλοί* (الجماهير) هى العبارة التى يستعملها ديونيسيوس مراراً للدلالة على السوقة .

إلا البطارقة وموا ليهم . بل إن السوقة لم تكن تدخل فى تكوين الجيش طالما كان موزعاً حسب الندوات .

لكن ما يفرق بين السوقة والبطريق تفريقاً جلياً هو أنه لم يكن للسوقة نصيب فى ديانة المدينة . فكان من المحال أن يدخل الكهنوت . بل يمكن الاعتقاد بأن الدعاء كان محرماً عليه فى القرون الأولى وأنه لم يكن فى الاستطاعة الكشف له عن الشعائر . فقد كانت حاله كما كانت فى الهند حيث «يجب أن يجهل السودرا دائماً الصيغ المقدسة» . كان أجنبياً وإذن فقد كان مجرد حضوره يدنس القرابين . إنه مقصى من جانب الآلهة ؛ وبينه وبين البطريق كل البعد الذى تستطيع الديانة أن تضعه بين رجلين ، فالسوقة شعب محتقر ومهين ، منفى من الدين ، نفى من القانون ، نفى من المجتمع ، نفى من الأسرة . لا يستطيع البطريق أن يقارن هذه الحياة إلا بحياة البهائم (*more ferarum*) . ملامسة السوقة دنس . نسى الرجال العشرة فى لوحاتهم العشر الأولى أن يحرموا الزواج بين الطائفتين لأن هؤلاء الرجال العشرة الأوائل كانوا جميعاً من البطارقة فلم يدر فى خلد واحد منهم أن مثل هذا الزواج كان فى حيز الإمكان .

نرى كم من الطبقات كانت موضوعة بعضها فوق بعض فى العصر البدائى للمدن . ففى الذؤابة كانت سروات رؤساء الأسرات ، أولئك الذين كانت اللغة الرسمية فى روما تسميهم الآباء (*patres*) ويسميهم الموالى الملوك (*reges*) وكانت الأوديسة تسميهم βασιλεῖς أو ἄνακτες . وتتلو هؤلاء ، الفروع الصغرى من الأسرات . وأدنى من هؤلاء الموالى ؛ ثم أدنى منهم السوقة ، أدنى بكثير وخارجون عنهم تماماً .

إن الديانة هى التى جاءت بهذه التفرقة بين الطبقات لأنها قالت ، فى الزمن الذى كان يعيش فيه أسلاف الإغريق والإيطاليين والهنود معاً فى آسيا الوسطى ، «الابن الأكبر يقوم بالدعاء» . ومن هنا جاء تقدم الابن الأكبر فى كل شىء ؛ فكان الفرع الأكبر فى كل أسرة هو فرع الكهنوت والسيادة . بيد أن الديانة كانت تقدر الفروع الصغرى تقديراً كبيراً فقد كانت بمثابة

احتياط لتحل يوماً ما محل الفرع الأكبر المنقرض وتنقذ العبادة . كما أنها كانت تقدر المولى بل العبد هوناً ما أيضاً لأنه كان يشهد الأعمال الدينية. لكن السوقة ، الذى لم يكن له أى نصيب فى العبادة ، فقد كانت لا تعده شيئاً على الإطلاق. وعلى ذلك استقرت المراتب .

لكن ما من شكل من الأشكال الاجتماعية ، التى يتصورها الانسان ويقرها ، غير قابل للتبديل . وهذا النظام كان يحمل فى ذاته جرثومة المرض والموت ، ألا وهى عدم المساواة الذى لا حد له. لقد كان لكثير من الناس مصلحة فى القضاء على نظام اجتماعى لم يكن لهم فيه نفع ما .

الفصل الثالث

الثورة الأولى

١ — انتزاع السلطة السياسية من الملوك

قلنا إن الملك كان فى الأصل رئيس المدينة الدينى والكاهن الكبير للموقد العام ، وإنه قد ضم إلى هذه السلطة الكهنوتية السلطة السياسية لأنه كان يبدو طبيعياً أن الرجل الذى يمثل ديانة المدينة يكون فى نفس الوقت رئيس المجمع ، والقاضى ،ورئيس الجيش . وطبقاً لهذا المبدأ حدث أن اجتمع فى يدى الملك كل ما كان فى الدولة من سلطان .

لكن رؤساء الأسرات الآباء (*patres*) . وفوقهم رؤساء الأخويات والقبائل كانوا يكوّنون بجوار هذا الملك طبقة من السراة (أرستوقراطية) قوية جداً . لم يكن الملك ملكاً لوحده ؛ بل كان كل أب *pater* ملكاً مثله فى فصيلته (*gens*) ؛ بل إنها كانت عادة عتيقة فى روما أن يسمى كل من هؤلاء الأولياء الأقوياء ملكاً ؛ وفى أثينا كان لكل أخوية ولكل قبيلة رئيسها وبجوار ملك المدينة ملوك القبائل φυλοβασιλεῖς . تلك كانت درجات من الرؤساء ،ولهم جميعاً نفس الاختصاصات ونفس العصمة فى نطاق يتفاوت فى اتساعه . لم يكن ملك المدينة يمارس سلطته على الأهلين كافة ؛ فكان داخل الأسرة وجميع الموالى بمنجاة من فعله . وكما أنه لم يكن للملك فى العهد الإقطاعى رعية غير بضع أتباع أقوياء فإنه لم يكن لملك المدينة القديمة إمرة إلا على رؤساء القبائل والفصائل(*gentes*) الذين كان فى استطاعة كل واحد منهم أن يكون بمفرده مماثلاله فى القوة ،وإذا اجتمعوا كانوا أقوى منه بكثير . يمكن أن نعتقد جيداً أنه لم يكن من اليسير عليه أن يفرض طاعته ؛ فكان على الرجال أن يحترموه احتراماً كبيراً لأنه كان

رئيس العبادة وحارس الموقد لكن لا ريب أن خضوعهم كان ضئيلا جداً لضآلة قوته . ولم يبق الحاكمون والمحكومون أمداً طويلا دون أن يلحظوا أنهم لم يكونوا على اتفاق على القدر الواجب من الطاعة . فقد أراد الملوك أن يكونوا أقوياء وأراد الأباء ألا يكونوا كذلك . فنشب فى جميع المدن نزاع بين السراة (الأرستوقراطية) وبين الملوك .

كانت نتيجة النزاع واحدة فى كل مكان ؛ إذ غلبت الملكية على أمرها . يجب ألا نغفل أن هذه الملكية البدائية كانت مقدسة . فكان الملك هو الرجل الذى يتلو الدعاء ويقدم القربان ، وأخيراً كان هو القادر بمقتضى الحق الموروث على أن يجلب للمدينة حماية الآلهة . فلم يكن فى الاستطاعة إذن التفكير فى الاستغناء عن ملك . كان لا بد من ملك للديانة ، كان لا بد من ملك لسلامة المدينة . لذلك نرى فى جميع المدن التى نعرف تاريخها فى البدء أنهم لم يمسوا سلطة الملك الكهنوتية وإنما اكتفوا بأن ينتزعوا منه السلطة السياسية . لم تكن هذه الأخيرة إلا كملحق أضافه الملوك لكهنوتهم ولم تكن مقدسة ولا معصومة مثله ، فكان فى الاستطاعة انتزاعها من الملك دون أن يلحق بالديانة خطر .

حوفظ إذن على الملكية ؛ لكنها بعد أن جردت من سلطانها لم تعد إلا كهنوتاً . يقول أرسطو : « كان للملوك فى الأزمنة الغابرة سلطة مطلقة فى السلم والحرب ؛ لكن بعضهم تنحى فيما بعد عن هذه السلطة من تلقاء نفسه وانتزعت عنوة من الآخرين ، ولم يترك لهؤلاء الملوك غير العناية بالقرابين » . ويقول پلوتارخوس نفس الشىء : «حيث أن الملوك بدوا متغطرسين وقساة فى إمرتهم فقد انتزع معظم الإغريق السلطة منهم ولم يتركوا لهم غير العناية بالدين»(١) . ويتكلم هيرودوت عن بلدة قرينه فيقول : « تركوا لباتوس (Battos) ، سليل الملوك ، مهام العبادة وحيازة الأراضى المقدسة ، لكنهم انتزعوا منه كل السلطة التى تمتع بها آباؤه » .

---

(١) أرسطو : السياسة ٣ : ٩ : ٨ . پلوتارخوس . مسائل رومانية ٦٣ .

بعد أن اقتصرت هذه الملكية على الوظائف الدينية كما رأينا ، استمرت فى معظم الأحوال وراثية فى الأسرة المقدسة التى وضعت الموقد فيما مضى وبدأت العبادة القومية . وفى عهد الإمبراطورية الرومانية أى بعد هذه الثورة بسبعة قرون أو ثمانية كان لا يزال فى إفسوس ومارسيليا وثيسپياى (Thespies) أسرات تحتفظ بلقب الملكية القديمة وشاراتها ولا تزال فى يدها رآسة الحفلات الدينية (١) . أما فى البلدان الأخرى فإن الأسرات المقدسة كانت قد انقرضت وأصبحت الملكية انتخابية ، وسنوية فى العادة .

٢ — تاريخ هذه الثورة فى اسپرطه

كان لاسپرطه ملوك على الدوام . بيد أن الثورة التى نتكلم عنها هنا تمت فيها كما تمت فى المدن الأخرى .

يلوح أن الملوك الـدُّوريين الأوائل حكموا سادة مطلقين . لكن النزاع نشب بين الملوك والسراة (الأرستوقراطية) منذ الجيل الثالث . فكانت هناك سلسلة من النضال لمدة قرنين جعلت من اسپرطة مدينة من أكثر المدن الإغريقية اضطراباً (٢) . ومعروف أن ملكاً من هؤلاء الملوك وهو والد ليكورغ مات مصاباً فى فتنة داخلية (٣) .

لا شيء أكثر غموضاً من تاريخ ليكورغ . بدأ كاتب سيرته القديم بهذه الكلمات : « لا نستطيع أن نقول عنه شيئاً إلا وهو موضع للجدل . » لكن من المؤكد على الأقل أن ليكورغ قد ظهر وسط المنازعات ، « فى وقت كانت الحكومة تسبح فيه فى اضطراب دائم »(٤) . والذى يبرز بأجلى وضوح من جميع البيانات التى وصلت إلينا عنه هو أن إصلاحه قد طعن الملكية طعنة لم تقم منها إطلاقاً . يقول أرسطو « فى عهد خاريلاوس (Charilaos) أخلت

---

(١) استرابون ١٤ : ١ : ٣ . ديودوروس ٤ : ٢٩ .
(٢) ثوقيديديس ١ : ١٨ . هيرودوت ١ : ٦٥ .
(٣) استرابون ٨ : ٥ . بلوتارخوس : ليكورغ ٢ .
(٤) بلوتارخوس : ليكورغ ٥ . انظر شرحه ٨ .

الملكية مكانها للسراة (الأرستوقراطية) . » (١) وقد كان خاريلاؤس هذا ملكاً عند ما قام ليكورغ بإصلاحه . فضلا عن أننا نعرف من پلوتارخوس أن ليكورغ لم يكلف بأعباء المشروع إلا وسط فتنة اضطر الملك خاريلاؤس خلالها أن يبحث عن ملجأ فى معبد . كان ليكورغ فترة ما صاحب الأمر فى إلغاء الملكية ؛ لكنه احترز من ذلك جيداً معتبراً الملكية ضرورية والأسرة المالكة مصانة . لكنه تصرف بحيث أصبح الملوك من الآن فصاعدا خاضعين لمجلس الشيوخ فيما يختص بالحكومة وبحيث لا يكونون إلا رؤساء لهذا المجلس ومنفذين لقراراته . وبعد ذلك بقرن ازداد ضعف الملكية وانتزعوا منها هذه السلطة التنفيذية ، وكلفوا بها حكاماً سنويين أطلقوا عليهم لقب إيفور (Ephore) (٢) .

من السهل أن نحكم من الاختصاصات التى منحت للإيفورات على ضآلة السلطة التى تركت للملوك . كان الإيفورات يقضون فى المسائل المدنية بينما كان مجلس الشيوخ يقضى فى المسائل الجنائية (٣) ، كان الإيفورات يعلنون الحرب بناء على إشارة مجلس الشيوخ أو يقررون نصوص معاهدات السلم ، وفى زمن الحرب كان إثنان من الإيفورات يرافقان الملك ويراقبانه ؛ وهما اللذان كان يحددان خطط الحملة ويدبران جميع العمليات (٤) ، فماذا يتبقى إذن للملوك إذا ما انتزع منهم القضاء والعلاقات الخارجية والعمليات الحربية؟

---

(١) أرسطو : السياسة ٥ : ١٠ : ٣ طبعة ديدو ص ٥٨٩ . هيراكليديس فى *Fragments des historiens grecs*, **coll. Didot, t. II, p. 210.**

(٢) معنى الكلمة : الحارس ، الملاحظ ، الرقيب . - المعرب

(٣) ارسطو : السياسية ٣ : ١ : ٧ .

(٤) اكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ٨ : ١١ : ١٥ ؛ الهلينيات ٢ : ٤ : ٣٦ ؛ ٦ : ٤ : ١ . كان للايفورات رآسة المجمع ؛ ثوقيديديس ١ : ٨٧ . كانوا يقررون تجنيد الجند ، اكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ١١ ؛ الهلينيات ٦ : ٤ : ١٧ . وكان من حقهم محاكمة الملوك وحبسهم فى السجن والحكم عليهم بالغرامة ، هيرودوت ٦ : ٨٥ : ٨٢ ؛ ثوقيديديس ١ : ١٣١ ؛ بلوتارخوس : ليكورغ ١٢ ؛ أغيس ١١ ؛ حكم (apophthégmes) اللاقيديمونيين ص ٢٢١ . يسمى أرسطو منصب الايفور *ἀρχὴ κυρία τῶν μεγίστων* (السياسية ٢ : ٦ : ١٤) . - احتفظ الملوك ببعض اختصاصات حربية ؛ ولكن كثيرا ما نرى الإيفورات يوجهونهم فى غزواتهم أو يستدعونهم إلى اسپرطه (الهلينيات ٦ : ٤ : ١ . ثوقيديديس ٥ : ٦٣ . بلوتارخوس: اغيسيلاس ١٠ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٨ . ليساندروس ٢٣)

يبقى لهم الكهنوت . يصف هيرودوت امتيازاتهم : « إذا قدمت المدينة قرباناً فإن لهم المكان الأول فى الأكلة المقدسة ؛ وهم أول من يقدم له الطعام ويعطون وجبة مضاعفة . وهم أيضاً أول من يريق السوائل ، ولهم جلود الأضاحى . ويعطونهم لكل واحد منهم ضحية ينحرونها لأپولون مرتين فى الشهر . » (١) يقول اكسينوفون : « يقوم الملوك بالقرابين العامة ولهم خير نصيب فى الأضاحى وإذا كانوا لا يقضون فى المسائل المدنية ولا فى المسائل الجنائية فإنه كان يحتفظ لهم على الأقل بالحكم فى بعض القضايا التى تتصل بالدين ، وفى حالة الحرب يمشى أحد الملكين دائماً على رأس الجيوش ويقدم القرابين كل يوم ويستشير الآيات المنبئة . وعلى مشهد من العدو ينحر الأضاحى ، وعندما تكون الآيات موافقة يعطى إشارة المعركة ، وعند القتال يحيط به المتكهنون الذين يبينون إرادة الآلهة ، واللاعبون بالمزمار الذين يسمعون الأناشيد المقدسة . يقول الإسپرطيون إن الملك هو صاحب الأمر لأن فى يديه الديانة والاستخارات ؛ لكن الإيفورات ورؤساء الحرب (polémarques) هم الذين يدبرون كل حركات الجيش (٢) .

إنه لحق إذن أن نقول إن الملكية فى اسپرطة كانت قبل كل شىء كهنوتا وراثيا . فإن نفس الثورة التى قضت على سلطة الملك السياسية فى جميع المدن قضت عليها فى اسپرطة أيضا . والسلطة فى الحقيقة فى يد مجلس الشيوخ الذى يديرها والإيفورات الذين ينفذونها . ويطيع الملوك الإيفورات فى كل مالا يتعلق بالديانة . لذلك استطاع هيرودوت أن يقول إن اسپرطة لا تعرف النظام الملكى ؛ واستطاع أرسطو أن يقول إن حكومة اسپرطة حكومة سراة (أرستوقراطية) (٣)

---

(١) هيرودوت ٦ : ٥٦ : ٥٧ : اكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ١٤ . أرسطو : السياسية ٣ : ٩ : ٢ : *Τὰ πρὸς τοὺς θεοὺς ἀποδέδοται βασιλεῦσι*

(٢) اكسينوفون : جمهورية اللاقيديمونيين ١٣ - ١٥ . هيرودوت ٦ : ٥٦

(٣) هيرودوت ٥ : ٩٢ . أرسطو : السياسية ٥ : ١٠ . إيسوقراط : نيكوكليس (Nicoclès) ٢٤ .

Plutarque, *De unius in rep. dominatione*, c. 3.

٣ — نفس الثورة فى أثينا

رأينا أعلاه ماذا كانت حال الأهالى البدائية فى أتيكا . كان يقتسم الإقليم عدد معين من الأسرات المستقلة التى لا رابط بينها . وكانت كل واحدة منها تعد مجتمعاً صغيراً يحكمه رئيس وراثى. ثم تجمعت هذه الأسرات ، ومن تجمعها نشأت المدينة الأثينية.وكانوا ينسبون لثيسيوس (Thésée) أنه أتم العمل العظيم عمل الوحدة الأتيكية ، لكن الأثارات تضيف أن ثيسيوس قد حطم كثيراً من المقاومة ونحن نصدقها فى ذلك من غير عناء . ولم تكن الفئة التى قاومته هى فئة الموالى والفقراء التى كانت موزعة على القرى والفصائل(γένη) ، فقد كان أمثل بهؤلاء الناس أن يبتهجوا بتغيير كان من شأنه أن يضع فوق رؤسائهم رئيساً وأن يمنحهم مرجعاً وحماية . أما الذين آلمهم التغيير فهم رؤساء الأسرات ورؤساء القرى والقبائل، الـ βασιλεῖς والـ φυλοβασιλεῖς ، هؤلاء النسباء الذين كانت لهم السلطة العليا فى فصيلتهم (γένος) أو فى قبيلتهم بمقتضى الحق الوراثى. لقد دافعوا جهدهم عن استقلالهم ؛ ولما ضاع منهم تحسروا عليه .

لقد حافظوا على الأقل على كل ما استطاعوا المحافظة عليه من سلطتهم القديمة. فبقى كل منهم الرئيس ذا الطول والحول على قبيلته أو فصيلته (γένος) . لم يستطع ثيسيوس أن يدمر سلطة أقامتها الديانة وجعلتها مصانة لا تمس . بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك . إذا فحصنا الأثارات المتعلقة بتلك الفترة تراءى لنا أن هؤلاء النسباء الأقوياء لم يرضوا بالمشاركة فى تكوين مدينة إلا بشرط أن تكون الحكومة اتحادية حقيقة وأن يكون لكل منهم نصيبه فيها . حقاً لقد كان هناك ملك أعلى لكن بمجرد أن كانت المصالح المشتركة تصبح فى كفة الميزان كان يجب استدعاء مجلس الرؤساء ولم يكن يمكن عمل شىء هام إلا بموافقة المجلس الشبيه بمجلس الشيوخ .

وفى لغة الأجيال التالية، كانت هذه الأثارات تقول على وجه التقريب : غير ثيسيوس حكومة أثينا فبعد أن كانت ملكية جعلها جمهورية . هكذا يتكلم أرسطو وإيسوقراط وديموسثينيس وپلوتارخوس. وتحت هذه الصورة،

التى يشوبها شىء من الاختلاق ، أساس من الصحة. حقاً إن ثيسيوس قد « وضع السلطة العليا فى يد الشعب » كما تقول الأثارة ، لكن كلمة شعب δῆμος التى حافظت عليها الأثارة لم يكن مدلولها فى عصر ثيسيوس بالسعة التى أصبحت له فى عصر ديموستيينس. فإن هذا الشعب ، أو تلك الفئة السياسية ، لم تكن عندئذ سوى طبقة السراة (الأرستوقراطية) أى مجموع رؤساء الفصائل (γένη) (١)

عندما أنشأ ثيسيوس هذا المجمع لم يكن مجدداً باختياره . فإن تكوين الوحدة الأثينية الكبيرة قد غير أحوال الحكومة بالرغم منه . منذ اجتمع ، فى مدينة واحدة ، هؤلاء النسباء ، الذين بقيت سلطتهم سليمة فى الأسرات ، كونوا هيئة قوية لها حقوقها وتستطيع أن تكون لها مطالبها . فأصبح ملكُ صخرةِ ككروپس الصغيرة ملكاً على جميع أتيكا . لكنه بعد أن كان ملكاً مطلقاً فى ناحيته لم يعد إلا رئيسا لدولة اتحادية أى الأول بين أكفائه .

لم يلبث أن ثار النزاع بين هؤلاء السراة وبين الملكية ، فقد « كان النسباء يتحسرون على السلطة الملكية الحقة التى مارسها كل منهم فى بلدته حتى ذلك الحين » . ويبدو أن هؤلاء الكهنة المحاربين قد قدموا الديانة بين أيديهم وادعوا أن سلطة العبادات المحلية قد انتقصت. إذا كان حقاً ، كما يقول ثوقيديديس ، أن ثيسيوس حاول أن يدمر بيوت نار (پريتانيون) القرى فلا عجب أن يكون الشعور الدينى قد ثار عليه . وليس بمستطاع أن نقول كم من نضال عاناه وكم من ثورة أخمدها بالحصافة أو بالقوة ؛ أما الموثوق منه فهو أنه قد غُلب فى النهاية ، وطرد من أثينا ، ومات فى المنفى . (٢)

لقد تغلب النسباء إذن ؛ لم يقضوا على الملكية ، لكنهم نصبوا ملكاً من اختيارهم ، منيسيثيوس (Ménesthée) . وبعده ، قبضت أسرة ثيسيوس على الملك من جديد وحافظت عليه ثلاثة أجيال . ثم حلت محلها أسرة أخرى هى أسرة

---

(١) بلوتارخوس : ثيسوس ٢٥ . أرسطو ، اقتبسه بلوتارخوس : شرحه ؛ إيسوقراط : هيلينا ٣٦ ؛ ديموستينيس : ضد نيأيرا ٧٥ . لا ريب أن أسطورة ثيسيوس قد غيرها الزمن ، وعلى الأخص ، روح حكم العامة (الديموقراطية) .

(٢) بلوتارخوس : ثيسيوس ٢٥ و٣٢ _ ديودوروس ٤ : ٦٢

الميلانثيين(Mélanthides). ولا بد من أن كل تلك الفترة كانت شديدة الاضطراب ، لكن ذكرى الحروب الداخلية لم تحفظ لنا بطريقة جلية .

يتفق موت كودروس (Codrus) مع انتصار النسباء النصر النهائى . وفى هذه المرة أيضاً لم يقضوا على الملكية ؛إذ أن ديانتهم كانت تحرم ذلك عليهم. لكنهم جردوها من سلطتها السياسية . يقول الجوّال پوسانياس ، الذى كان متأخراً جداً عن هذه الحوادث لكنه كان يرجع بعناية للأثارات ، إن الملكية قد فقدت عندئذ جزءاً كبيراً من اختصاصاتها وأصبحت تابعة » ؛ ومعنى ذلك بلاريب أنها أصبحت منذ ذلك الوقت خاضعة لمجلس شيوخ النسباء . ويطلق المؤرخون المحدثون على هذه الفترة من تاريخ أثينا اسم عهد الأراخنة (archontat) ولا يفوتهم أن يقولوا إن الملكية قد ألغيت فى ذلك الوقت . وليس ذلك بصحيح كل الصحة . تتابعت ذرية كودروس من أب لابن خلال ثلاثة عشر جيلا. كانوا يلقبون بالأراخنة لكن هناك وثائق قديمة تعطيهم أيضاً لقب ملك (١). وقد ذكرنا آنفا أن هذين اللقبين مترادفان تماماً . فكان لأثينا خلال هذه الفترة الطويلة ملوك وراثيون . لكنها انتزعت منهم سلطتهم ولم تترك لهم غير وظائفهم الدينية . وهذا ما كان قد حدث فى اسپرطه .

وفى نهاية ثلاثة قرون وجد النسباء أن هذه الملكية الدينية لا تزال أقوى مما كانوا يريدون فأضعفوها وقرروا ألا يشغل نفس الرجل هذا المنصب الكهنوتى السامى إلا لمدة عشرة أعوام . هذا وقد استمروا فى اعتقادهم أن الأسرة المالكة القديمة كانت دون سواها أهلا لشغل وظائف الأراخنة (٢) .

ومر حوالى الأربعين عاماً وهم على هذا الوضع . لكن الأسرة المالكة تدنست ذات يوم بجريمة من الجرائم . فادعوا أنها لن تستطيع القيام بالوظائف

---

(١) انظر قطع رخام باروس (*Paros*) وقارنها ببوسانياس ١ : ٣ : ٢ ؛ ٤ : ٥ : ١٠ ؛ ٧ : ٢ : ١ . أفلاطون : سينيكسينيس (*Ménéxène*) ص٢٣٨ ج . ايليانوس قصص متنوعة ٥ : ١٣

(٢) بوسانياس ٤ : ٥ : ١٠ .

الكهنوتية (١) . وقرروا أن يتخذوا الأراخنة فى المستقبل من خارجها وأن يكون هذا المنصب فى متناول جميع النبلاء . وبعد ذلك بأربعين سنة أخرى ، ولكى يضعفوا هذه الملكية ويقسموها بين عدة أيدٍ ، جعلوها سنوية وقسموها فى نفس الوقت إلى منصبين منفصلين . إلى هنا كان الأرخون فى نفس الوقت ملكاً ؛ ففصلوا اللقبين من الآن فصاعدا ؛ واقتسم اختصاصات الملكية الدينية القديمة حاكمان ، أحدهما يعين أرخوناً والآخر ملكاً . فكان من نصيب الأرخون مهمة السهر على دوام الأسرة ، والتصريح بالتبنى أو تحريمه ، وتلقى الوصايا ، والحكم فيما يختص بالملكية العقارية ، وهذه كلها أمور تهم الديانة بها . أما مهمة تقديم القرابين الاحتفالية والحكم فى الآثام الدينية فقد احتفظوا بها للملك . وبهذا دام لقب الملك فى المدينة مع القرابين والعبادة القومية ، وهو اللقب الذى كان ضرورياً للديانة . وكان الملك والأرخون ، مع رئيس الحرب والثيسموثيت (Thesmothètes) الستة ، يكملون الحكام التسعة السنويين الذين تعودوا أن يسموهم بالأراخنة التسعة من اسم الأول منهم .

حدثت الثورة التى انتزعت من الملكية سلطتها السياسية بأشكال مختلفة فى جميع المدن . ففى أرخوس ضعفت الملكية منذ الجيل الثانى من الملوك الدوريين بحيث «لم يتركوا لذرية تيمينوس (Téménos) غير اسم الملك دون أية سلطة» ، هذا وقد بقيت هذه الملكية وراثية لعدة قرون (٢) . وفى قرينه جمعت ذرية باتوس الكهنوت والسلطة فى يدها أولا ؛ لكن ابتداء من الجيل الرابع لم يترك لهم غير الكهنوت (٣) . وفى قورنثه كانت الملكية فى البدء تنتقل وراثياً فى أسرة الباكخوسيين (Bacchiades) ؛ وكان من أثر الثورة أن أصبحت سنوية

---

(١) هيراقليديس البنطى فى *Fragmenta* ج ، ص ٢٠٨ ؛ نيقولا الدمشقى : القطعة ٥١ . سويداس تحت كلمة Ἱππομένης . ديودوروس : قطع الكتاب الثامن

(٢) بوسانياس ٢ : ١٩

(٣) هيرودوت ٤ : ١٦١ . ديودوروس ٨ ، قطع .

وذلك دون إخراجها من هذه الأسرة التى بقى أعضاؤها حائزين لها كل بدوره لمدة قرن من الزمان (١) .

٤ — نفس الثورة فى روما

فى البدء كانت الملكية فى روما كما كانت فى بلاد الإغريق . كان الملك هو كاهن المدينة الأكبر ، وكان فى نفس الوقت القاضى الأعلى ؛ وفى زمن الحرب كان صاحب الإمرة على المواطنين المسلحين. وكان بجواره رؤساء الأسرات ، *patres* الآباء ، الذين كانوا يكونون مجلس الشيوخ . لم يكن هناك إلا ملك واحد لأن الديانة كانت تنص على وحدة الكهنوت ووحدة الحكومة . لكن كان مفهوماً أنه من واجب هذا الملك أن يستشير رؤساء العائلات المتحالفة فى كل أمر هام (٢).

يذكر المؤرخون منذ ذلك العصر مجمعاً للشعب . لكن يجب أن نتساءل ماذا كان يمكن أن يكون عندئذ معنى كلمة شعب (*populus*) ، أى ماذا كانت الهيئة السياسية فى عصر الملوك الأوائل . تتفق جميع الشواهد فى الدلالة على أن هذا الشعب كان يجتمع فى ندوات (Curies) ؛ وقد كانت الندوات هى اجتماع الفصائل (*gentes*) ؛ وكل فصيلة (*gens*) تتوجه إليها بهيئتها ولم يكن لها غير صوت واحد . والموالى حضور مصطفون حول الأب (*pater*) وربما كانوا يُستشارون ، وربما كانوا يبدون آراءهم ويساهمون فى تكوين الصوت الوحيد الذى تعطيه الفصيلة (*gens*) لكن لا يمكن أن يكون لهم رأى غير رأى الأب . فلم يكن مجمع الندوات هذا سوى المدينة البطريقية مجتمعة فى مواجهة الملك .

نرى من هنا أن روما وجدت فى نفس الظروف التى طرأت على المدن الأخرى . كان الملك يواجه هيئة من السراة (الأرستوقراطية) مكونة تكويناً قوياً جداً وتستمد قوتها من الديانة . فنجد فى روما إذن نفس المنازعات التى رأيناها فى بلاد الإغريق .

---

(١) ديودوروس ٧ ؛ هيرودوت ٥ : ٩٢ . بوسانياس ٢ : ٣ و ٤ . كانت فصيلة (*gens*) الباكخوسيين تشمل حوالى ٢٠٠ عضو .

(٢) سيسرون : الجمهورية ٢ : ٨ .

تاريخ الملوك السبعة هو تاريخ هذا الشجار الطويل . أراد الأول(١) منهم أن يزيد فى سلطانه وأن يتخلص من سلطة مجلس الشيوخ ؛ فتحبب للطبقات الدنيا لكن الآباء كانوا يعادونه (٢) . فهلك غيلة فى اجتماع لمجلس الشيوخ .

وسرعان ما فكر السراة فى إلغاء الملكية ومارس الآباء كل بدوره وظائف الملك . حقاً لقد هاجت الطبقات الدنيا فهى لا تريد أن يحكمها رؤساء الفصائل (*gentes*) وطالبت بإعادة الملكية (٣) لكن البطارقة تعزّوا حين قرروا جعل الملكية انتخابية منذ الآن وقرروا نظم الانتخاب فى مهارة تدعوا إلى الإعجاب : فمجلس الشيوخ يختار المرشح ، ومجلس الندوات البطريقى يؤيد هذا الاختيار ؛ وأخيراً ، يقول المستخيرون البطارقة ما إذا كان المنتخب الجديد مرضياً عنه من الآلهة .

انتُخب نوما (Numa) طبقاً لهذه القواعد. فبدا متديناً جداً، كاهناً أكثر منه محارباً ، ملاحظاً متحرجاً جداً فى جميع شعائر العبادة ، فكان بناء على ذلك متمسكاً جداً بالدستور الدينى للأسرات وللمدينة . كان ملكاً على رغبة البطارقة ومات ميتة هادئة فى سريره .

يلوح أن الملكية قد اقتصرت فى عهد نوما على الوظائف الدينية كما حدث فى المدن الإغريقية. ومن المؤكد على الأقل أن سلطة الملك الدينية كانت منفصلة عن سلطته السياسة وأن إحداهما لم تكن تستدعى الأخرى حتماً، يدل على ذلك أنه كان هناك انتخاب مزدوج. لم يكن الملك بمقتضى الانتخاب الأول إلا رئيساً دينياً. فإذا ما أراد أن يضيف السلطة السياسية *imperium* إلى هذه الوظيفة فإن الضرورة كانت تقضى بأن تمنحها له المدينة بمرسوم خاص . وتبرز هذه النقطة بجلاء

---

(١) الملك الأول هو رومولوس مؤسس المدينة . — المعرب

(٢) Tite-Live, I, 15: *Multitudini gratior quam Patribus.*

(٣) Tite-Live, I, 17: *Fremere plebs multiplicatum servitutem, centum pro uno dominos factos, nec ultra nisi regem et ab ipsis creatum videbantur passuri.* Cicéron, *De rep.*, II, 12: *Senatus tentavit ut ipse gereret sine rege rempublicam; populus id non tulit et regem flagitare non destitit.*

مما يقوله لنا سيسرون عن الدستور القديم (١) . وبهذا يكون الكهنوت منفصلا عن السلطة ؛ وكان فى الإمكان وضعهما فى يد واحدة ، لكن كان لا بد لذلك من اجتماع مزدوج للجان وانتخاب مزدوج .

من الموثوق به أن الملك الثالث (٣) جمعهما فى شخصه ، فكان له الكهنوت والإمرة . بل إنه كان محارباً أكثر منه كاهناً ؛ ازدرى الديانة التى كانت مصدر قوة السراة وأراد انتقاصها . فنراه يجمع فى روما جمهرة من الغرباء على الرغم من المبدأ الدينى الذى كان يقصيهم ؛ بل لقد تجاسر على العيش بينهم على أكمة كويليوس (Coelius) ونراه أيضاً يوزع على بعض السوقة بعض الأراضى التى كان إيرادها مخصصاً ، حتى ذلك الوقت ، لمواجهة مصروفات القرابين واتهمه البطارقة بإهمال الشعائر بل اتهموه بأنه بدّل فيها وغيّر ، وهو إجراء أشد خطورة . لذلك مات كما مات رومولوس ؛ فقد أرسلت آلهة البطارقة عليه وعلى أولاده الصاعقة .

أعادت هذه الضربة السلطة لمجلس الشيوخ الذى عين ملكاً من اختياره . تمسك أنكوس (Ancus) بالديانة تمسك المتحرج وقضى حياته فى المعابد ولم يحارب إلا أقل ما كان يستطيع . وكان عزيزاً على البطارقة فمات فى سريره .

والملك الخامس هو تاركوينيوس (Turquin) الذى حصل على الملك بالرغم من

---

(١) Cicéron, *De rep.*, II, 13: *Quanquam populus eum curiatis comitiis regem esse jusserat, tamen ipse de suo imperio curiatam legem tulit.* Cf. *ibidem*, II, 17: *Tullus Hostilius, rex creatus, populum de imperio consuluit curiatim;* II, 20: *Cunctis populi suffragiis rex est creatus L. Tarquinius, isque de suo imperio legem tulit.*
إذا كان هؤلاء الناس وهم ملوك نظاميون من قبل ، لا يزالون فى حاجة إلى اقتراح قانون يمنحهم السلطان (*imperium*) فما ذلك إلا لأن السلطان والملك شيئان مختلفان.
تجدر ملاحظة أن لفظ (*imperium*) لم يكن يدل على الإمرة الحربية دون سواها بل كان يطلق كذلك على السلطة المدنية والسياسية . أنظر أمثلة لهذا المعنى : تيتوس ليفيوس ١ : ١٧ ؛ ١ : ٥٩ ؛ ٢٦ : ٢٨ ؛ ٢٧ : ٢٢ ؛ ٣٢ : ١ ؛ سيسرون : الجمهورية ٢ : ١٣ ؛ تاسيتوس : الحوليات ٤ : ١٠ ؛ ديون كاسيوس ٣٩ : ٥٢ : ٤١ : ٠
(٣) الملك الثالث هو تولوس هوستيليوس (Tullus Hostilius) — المعرب

مجلس الشيوخ مستنداً إلى الطبقات الدنيا . كان قليل التدين ، شديد الإلحاد . فكان لا بد من معجزة على الأقل لـكى يقتنع بعلم المستخيرين وكان عدو الأسرات القديمة . خلق بطارقة جدداً ، وبدل ما استطاع فى دستور المدينة الدينى القديم ، وقد مات تاركوينيوس غيلة

واستولى الملك السادس على الملك خدعة ؛ بل يبدو أن مجلس الشيوخ لم يعترف به قط ملـكاً شرعياً . كان يتملق الطبقات الدنيا ، ويوزع عليهم الأراضى متجاهلا المبدأ العتيق فى حق التملك. وقد ذُبح سرڤيوس على درج مجلس الشيوخ.

اتخـذ النزاع بين الملوك والسراة صـورة حرب اجتماعية . استمال الملوك الشعبَ واتخذوا من الموالى والسوقة سنداً . وعارضوا طبقة البطارقة ، التى كانت منظمة تنظيما قوياً ، بالطبقات الدنيا التى كانت منذ ذلك الوقت كثيرة العدد فى روما . وعندئذ وجد السراة أنفسهم فى خطر مزدوج ، لم يكن انحناؤهم أمام الملـكية أسوأ ما فيه : فكانوا يرون الطبقات التى كانوا يحتقرونها تثور من خلفهم . رأوا قيام السوقة ، تلك الطبقة التى لا دين لها ولا موقد . وربما رأوا مواليهم يهاجمونهم داخل الأسرة ذاتها ، هذه الأسرة التى أصبح تكوينها وحقها وديانتها موضع نقاش وحام الخطر حولها . وإذن فقد كان الملوك فى نظر السراة أعداء ألداء يرمون فى سبيل ازدياد سلطانهم إلى هدم نظام الأسرة والمدينة المقدسة .

وقد خلف سرڤيوس (Servius) تاركوينيوس الثانى ؛ وقد خيب أمل الشيوخ الذين انتخبوه؛ فقد أراد أن يكون السيد *de rege dominus exstitit* . وقد أضر بطبقة البطارقة بقدر ما استطاع ؛ وأطاح الرؤوس الشامخة؛ وتحكم دون استشارة الآباء ؛ وأعلن الحرب وعقد السلم دون أن يطلب موافقتهم . وقد لاح أن طبقة البطارقة قد غلبت نهائياً على أمرها .

وأخيراً سنحت الفرصة . كان تاركوينيوس بعيداً عن روما . لم يكن هو وحده ، بل الجيش أيضـاً أى القوة التى تسنده . وكانت المدينة فى يد البطارقة موقتاً . ومحـافظ البلدة ، أى من كانت بيده السلطة المدنية فى غيبة الملك، واحد من البطارقة وهو لوكريتيوس (Lucrétius) ؛

ورئيس الفرسان ، أى من بيده السلطة الحربية بعد الملك ، واحد من البطارقة وهو يونيوس (Junius) (١) . أعد هذان الرجلان الفتنة . وكان لهما شركاء آخرون من البطارقة : أحد أفراد أسرة ڤالريوس (Valérius) وآخر يدعى تاركوينيوس كولاتينوس (Torquim Collatin) . لم تكن روما مكان الاجتماع بل بلدة كولاتيا (Collatie) الصغيرة التى هى ملك خاص لأحد المتآمرين . هناك أظهروا للشعب جثة امرأة ، وقالوا إن هذه المرأة قتلت نفسها عقاباً لنفسها عن جريمة ارتكبها أحد أبناء الملك . ثار شعب كولاتيا ، وانتقلوا إلى روما ، وجددوا فيها نفس المشهد . فاضطربت الأفكار وحار أنصار الملك ، فضلا عن أن السلطة الشرعية فى روما فى تلك اللحظة كانت فى يد يونيوس ولوكريتيوس.

حرص المتآمرون على ألا يجمعوا الشعب ، توجهوا لمجلس الشيوخ ، وقرر المجلس أن تاركوينيوس مخلوع وأن النظام الملكى ملغى. لكن قرار مجلس الشيوخ يجب أن تؤيده المدينة . وكان للوكريتيوس الحق فى استدعاء المجمع بصفته محافظ البلدة ، فاجتمعت الندوات (curies) وهى تشاطر المتآمرين الأفكار ؛ وقررت عزل تاركوينيوس وإنشاء قنصلين .

وبعد أن تقررت هذه النقطة الرئيسية تركوا لمجمع الفرق المئينية (centuries) العناية بتعيين القناصل . ولكن ألا يحتج هذا المجمع ، الذى يصوت فيه بعض السوقة ، على ما فعله البطارقة فى مجلس الشيوخ وفى الندوات ؟ لم يكن ذلك فى الإمكان ، إذ أن كل مجمع رومانى كان يرأسه رجل من رجال الدولة يحدد موضوع التصويت وليس فى استطاعة أحد أن يعرض للمناقشة موضوعاً آخر. بل هناك ما هو أكثر من ذلك : ما من أحد غير الرئيس كان له حق الكلام فى ذلك العصر . فإذا كان الأمر متعلقاً بقانون فإن الفرق المئينية لا تستطيع التصويت إلا بنعم أو بلا . أما إذا كان متعلقاً بانتخاب فإن الرئيس يقدم مرشحين وما كان أحد يستطيع التصويت إلا للمرشحين المقدمين ، وفى الحالة التى نحن

(١) كانت أسرة يونيا (Junia) هذه أسرة بطريقية . ديونيسيوس ٤ : ٦٠ . أما آل يونيوس الذين نقابلهم فى التاريخ فيما بعد فهم سوقة .

بصددها كان الرئيس المعين من قبل مجلس الشيوخ هو لوكريتيوس أحد المتآمرين. فبيّن أن موضوع التصويت الوحيد هو انتخاب القنصلين. وقدم اسمين لتصوت عليهما الفرق المئينية وهما اسما يونيوس وتاركوينيوس كولاتينوس؛ وبالضرورة انتخب هذان الرجلان. ثم صدق مجلس الشيوخ على الانتخاب؛ وفى الختام أيّده المستخيرون باسم الآلهة.

لم تحز هذه الثورة رضاء الجميع فى روما فلحق الكثير من السوقة بالملك ولازموا مصيره (١). يقابل هذا أن بطريقاً ثرياً من السابينيين كان رئيساً قوياً لفصيلة كثيرة العدد، وهو الرجل الأشوس أتّوس كلوسوس (Attus Clausus) وجد الحكومة الجديدة مطابقة لوجهة نظره بحيث جاء يتخذ روما مقراً له.

فضلا عن أن ما حذف هو الملكية السياسية فقط، أما الملكية الدينية فكانت مقدسة ولا بد من بقائها. لذلك عجلوا بتعيين ملك لكنه لم يكن إلا ملكاً للقرابين، *rex sacrorum*. وقد اتخذوا كل ما يمكن تصوره من الاحتياطات كيلا يسىء هذا الملك الكاهن استعمال المكانة الكبيرة التى كانت تمنحها له وظائفه ليستولى على السلطة.

---

(١) ديونيسيوس ٥ : ٢٦، ٥٣، ٥٨، ٥٩، ٦٣، ٦٤. لم يبين تيتوس ليفيوس هذه الوقائع لكنه يلمح لها عند ما يقول (٢ : ٢١) أن البطارقة أجبروا على التنازل عن بعض حقوقهم للسوقة *inservire plebi*

الفصل الرابع

السراة (الأرستقراطية) يحكمون المدينة

تمت نفس الثورة، على صور مختلفة اختلافاً طفيفاً، فى أثينا واسبرطه وروما وأخيراً فى جميع المدن التى نعرف تاريخها . كانت من عمل السراة فى كل مكان ، وفى كل مكان كانت نتيجتها إزالة الملكية السياسية والإبقاء على الملكية الدينية. فأصبحت حكومة المدينة فى يد السراة ابتداء من ذلك الوقت، ولفترة يختلف طولها اختلافاً بيِّناً بالنسبة للبلدان المختلفة .

كان حكم السراة قائماً على المولد وعلى الديانة معاً . والمصدر الذى اشتقت منه هو نفس هذه القواعد التى لاحظناها آنفاً فى العبادة المنزلية وفى القانون الخاص الملازم للمولد، أى فى قانون توارث الموقد، وامتياز الابن الأكبر، وحق الدعاء . وكانت الديانة المنزلية هى سند هؤلاء السراة فى التملك المطلق . وكانت تمنحهم حقوقاً تبدو مقدسة . وطبقاً للعقائد القديمة لم يكن يستطيع أن يكون مالكاً للأرض إلا من كانت له عبادة منزلية ، ولا يستطيع أن يكون عضواً فى المدينة إلا من كان حائزاً فى ذاته على الصفة الدينية التى تخلق المواطن ؛ ولم يكن يستطيع أن يكون كاهناً إلا من كان سليلا لأسرة لها عبادة ؛ ولم يكن يستطيع أن يكون حاكماً إلا من كان له الحق فى القيام بالقرابين . ويجب على الرجل الذى لم تكن له عبادة وراثية أن يكون مولى لرجل آخر ، وإذا لم يستسلم لذلك كان يتحتم عليه أن يبقى خارج كل مجتمع . بقى الناس أجيالا طويلة لا يخطر ببالهم أن هذا التفريق حيف كبير . ولم تطرأ لهم فكرة إنشاء المجتمع البشرى على قواعد أخرى .

منذ موت كودروس إلى صولون ، كانت جميع السلطة فى أثينا فى يد النسباء. فكانوا وحدهم الكهنة وكانوا وحدهم الأراخنة؛ وهم وحدهم الذين كانوا

يقومون بالقضاء ويعرفون القوانين التى لم تكن مكتوبة والتى كانوا يتناقلون صيغها المقدسة من أب إلى ابن .

حافظت هذه الأسرات جهد استطاعتها على الصور القديمة للنظام الأبوى . لم تكن تعيش مجتمعة فى البلدة . استمرت على العيش فى النواحى المختلفة فى أتيكا ، كل أسرة على ممتلكاتها الواسعة محاطة بخدمها العديدين ، يحكمها رئيسها النسيب ، وتؤدى عبادتها الوراثية مستقلة تمام الاستقلال(١) . لم تكن المدينة الأثينية خلال أربعة قرون غير تحالف من رؤساء الأسرات الأقوياء هؤلاء ، الذين كانوا يجتمعون فى أيام معينة للاحتفال بالديانة المركزية أو للسعى وراء المصالح المشتركة .

كثيراً ما لوحظ إلى أى حد كان التاريخ صامتاً فيما يختص بهذه الفترة الطويلة من وجود أثينا ومن وجود المدن الإغريقية بصفة عامة ؛ وقد أثار الدهشة أنه لا يكاد يسجل حدثاً واحداً من عصر حكومات السراة ، وهو الذى حافظ على ذكرى الكثير منها من عصر الملوك القدماء . ولا ريب أن العلة فى ذلك أنه لم يحدث عندئذ إلا النذر اليسير من الأعمال ذات الأهمية العامة . فإن عودة النظام الأبوى قد أوقف الحياة القومية فى كل مكان تقريباً . كان الناس يعيشون منفردين ولم يكن لهم إلا القليل من المنافع المشتركة . كان أفق كل منهم هو الرهط الصغير والمحلة الصغيرة التى كان يعيش فيها كنسيب أو كخادم .

وفى روما أيضاً ، كانت تعيش كل أسرة من أسر البطارقة على ممتلكاتها يحيط بها مواليها . وكانوا يَـقْـدُمون المدينة لأعياد العبادة العامة أو للمجامع . وفى خلال السنوات التى تلت طرد الملوك كان سلطان السراة مطلقاً . فلم يكن يستطيع القيام بالوظائف الكهنوتية فى المدينة غير البطريق : وكان لا بد من اختيار الفستالس والأحبار والساليين (saliens) والفلامينيين (flamines) والمستخيرين من بين الطبقة المقدسة . وكان البطارقة وحدهم يستطيعون أن يكونوا قناصل ؛ وهم وحدهم يؤلفون مجالس الشيوخ . وإذا كانوا لم يقضوا على

---

(١) ثوقيديديس ٢ : ١٥ - ١٦ .

مجمع الفرق المئينية (centuries) الذى كان للسوقة حق الدخول فيه فإنهم كانوا على الأقل يعتبرون مجمع الندوات هو المجمع الوحيد الشرعي المقدس . كان للفرق المئينية فى الظاهر حق انتخاب القناصل ؛ لكنا رأينا أنه لم يكن باستطاعتها أن تصوت إلا على الأسماء التى كان يقدمها لها البطارقة ، فضلا عن أن قراراتها كانت خاضعة للتصديق الثلاثى : من مجلس الشيوخ والندوات والمستخيرين . كان البطارقة وحدهم يقومون بالقضاء ويعرفون صيغ القانون.

لم يدم هذا النظام السياسى فى روما إلا عدداً قليلا من السنين . بينما أتى على بلاد الإغريق عصر طويل كانت طبقة السراة سائدة فيه . تقدم لنا الأوديسه صورة صادقة لهذه الحالة الاجتماعية فى الجزء الغربى من بلاد الإغريق . والواقع أننا نرى فيها نظاماً أبوياً شديد الشبه بالذى لاحظناه فى أتيكا . كانت بضع أسرات كبيرة ثرية تقتسم الإقليم ؛ وكان عدد كبير من الخدم يفلح الأرض أو يعنى بقطعان المواشى ؛ كانت الحياة ساذجة . كانت مائدة واحدة تجمع الرئيس والخدم . وكان يطلق على هؤلاء الرؤساء اسما أصبح فى مجتمعات أخرى لقباً من ألقاب الفخفخة ἄνακτες, βασιλεῖς(١). من ذلك أن الأثينيين فى الفترة البدائية كانوا يطلقون كلمة βασιλεύς (٢)على رئيس الفصيلة (γένος) وأن الموالى فى روما حافظوا على عادة إطلاق كلمة *rex* (٣) على رئيس الفصيلة (*gens*). كان لرؤساء الأسرة هؤلاء صفة مقدسة ؛ ويسميهم الشاعر الملوك الإلهيين . كانت إيثاكا (Ithaque) صغيرة جداً بيد أنها كانت تضم عدداً كبيراً من هؤلاء الملوك ، وقد كان بينهم فى الحقيقة ملك أعلى . لكنه لم يكن بذى أهمية ويبدو أنه لم تكن له ميزة غير رآسة مجلس الرؤساء . بل يبدو من بعض الأدلة أنه كان خاضعاً للانتخاب ونرى جيداً أنه لم يكن باستطاعة تيليماخوس (Télémaque) أن يكون الرئيس الأعلى للجزيرة إلا إذا أراد الرؤساء الآخرون ، اكفاؤه ، أن ينتخبوه . ويلوح أن أوديسيوس عند عودته إلى وطنه لم يكن له رعايا غير خدمه التابعين له خاصة ، وعندما قتل بعض الرؤساء امتشق خدمهم السلاح وقاتلوا قتالا لم يدع الشاعر أنه كان شيئاً يلامون عليه. وعند الفياقيين (Phéaciens) ، كان

(١) معناها أمراء ، ملوك . — المعرب

(٢) = ملك . — المعرب

(٣) = ملك . — المعرب

الكينوس (Alcinoos) هو صاحب السلطة العليا . لكنا نراه يتوجه إلى اجتماع الرؤساء ؛ ويمكن أن نلاحظ أنه لم يكن هو الذى دعا المجلس بل المجلس هو الذى استدعى الملك. يصف الشاعر مجمعاً للمدينة الفياقية هو أبعد من أن يكون اجتماعاً للجمهور. فقد اجتمع الرؤساء وحدهم بعد أن دعاهم مناد ، كل منهم على انفراد كما يحدث فى روما للجان المنادى عليها (*comitia calata*) ، وجلسوا على مقاعد من الحجر ؛ وتكلم الملك ووصف سامعيه بأنهم الملوك حملة الصوالج .

وفى بلدة الشاعر هيسيودوس (Hésiode) ، أسكرا (Ascra) الحجرية ؛ نجد طبقة من الناس يسميها الشاعر الرؤساء أو الملوك . وهم الذين يقضون بين الشعب . كذلك يرينا پنداروس طبقة من الرؤساء عند الكادميين ؛ ومن ثيبه يشيد بسلالة الاسپارتيين (Spartes) المقدسة التى يربط إپامينونداس مولده بها فيما بعد (١) . ولا يمكن قراءة پنداروس دون أن تسترعى نظرنا روح السراة التى كانت لا تزال تسود المجتمع الإغريقى فى عصر حروب الفرس ؛ ونحزر من ذلك كم كان هؤلاء السراة أقوياء قبل ذلك بقرن أو بقرنين ، إذ أن أكثر ما يمدح به الشاعر أبطاله هو عراقة أسراتهم ؛ ولا بد أن نظن أن هذا النوع من المديح كان وقتذاك ذا قيمة كبيرة وأن المولد كان لا يزال يلوح الخير الأسمى . يرينا پنداروس الأسرات الكبيرة التى كانت تلمع عندئذ فى فى كل مدينة ؛ فيسمى فى مدينة إيغينا (Egine) وحدها الميديليين (Midylides) والثياندريين (Théandrides) والإوكسينيين (Euxénides) والبليپسيين (Blepsiades) والخاريين (Chariades) والباليخيين (Balychides) . وفى سيراقوسه يشيد بأسرة الياميين (Iamides) الكهنوتية ، وفى أغريغنتوم (Agrigente) بأسرة الإمّينيين (Emménides) . وهكذا فى جميع البلدان التى يجد فرصة للكلام عنها .

أما فى إپيدوروس فإن هيئة المواطنين بكاملها ، أى أولئك الذين كانت لهم الحقوق السياسية ، قد بقيت زمنا طويلا لا تتكون إلا من ١٨٠ عضواً ؛ وأما جميع الباقين فقد «كانوا خارج المدينة» (٢). وقد كان عدد المواطنين الحقيقيين أقل من ذلك فى هيرا كليا حيث

---

(١) بنداروس : البرزخيات (*Isth.*) ١ : ٤١ . بوسانياس ٨ : ١١ ؛ ٩ : ٥ .

(٢) بلوتارخوس : مسائل إغريقيه ١ .

لم يكن للفروع الصغرى من الأسرات الكبيرة حقوق سياسية (١) . وكذلك كان الأمر زمنا طويلا فى كنيد (Cnide) وإيستروس ومارسيليا ؛ وفى ثيرا (Théra) كانت السلطة كلها فى يد بعض أسرات كانت تعتبر مقدسة . وكذلك كان فى أپولـٔونيا (٢) . وفى إريثراى (Erythres) كانت توجد طبقة من السراة يسمونها الباسيليين (Basilides) (٣) . وفى جزيرة أوبويا (Eubée) كانت الطبقة ذات السيادة تلقب بالفرسان (٤) . وبهذا الصدد يمكن ملاحظة أن القتال فوق جواد كان امتيازاً لدى القدماء كما كان فى القرون الوسطى .

لم تعد الملكية موجودة فى قورنثة عندما غادرتها جالية لتؤسس سيراقوسه . لذلك لم تعرف المدينة الجديدة الملكية وحكمتها طبقة السراة منذ البداية . وكانوا يطلقون على هذه الطبقة اسم الغيوموروى (géomores) أى الملاك ، وكانت تتكون من الأسرات التى تقاسمت يوم التأسيس أجزاء الأرض المقدسة حسب جميع الشعائر المألوفة . وقد بقيت هذه الطبقة من السراة عدة أجيال سيدة الحكومة المطلقة وحافظت على لقبها ، وهو الملاك ، ويلوح أن فى ذلك دلالة على أنه لم يكن للطبقات الدنيا حق امتلاك الأرض (٥) . وقد ظلت طبقة من السراة شبيهة بهذه سيدة فى ميليتوس (Milet) وساموس زمناً طويلا .

---

(١) أرسطو : السياسة ٥ : ٥ : ٢ .

(٢) شرحه ٣ : ٩ : ٨ ؛ ٦ : ٣ : ٨ .

(٣) شرحه : ٥ : ٥ : ٤ .

(٤) *Ἱπποβόται* . هيرودوت ٥ : ٧٧ . بلوتارخوس : بركليس ٢٣ . Strabon, X, 1, 8: *ἡ τῶν ἱπποβοτῶν καλουμένη πολιτεία ἐπεκράτει προέστησαν γάρ ἀπὸ τιμημάτων ἄνδρες ἀριστοκρατικῶς ἄρχοντες.* Aristote, *Politique*, IV, 3, 2: *Ἐπὶ τῶν ἀρχαίων χρόνων ὅσαις πόλεσιν ἐν τοῖς ἵπποις ἡ δύναμις ἦν, ὀλιγαρχίαι παρὰ τούτοις ἦσαν..*

(٥) هيرودوت ٧ : ١٥٥ . ديودوروس ٨ : ٥ . ديونيسيوس ٦ : ٦٢ .

الفصل الخامس

الثورة الثانية ؛ تبديل فى كيان الأسرة ؛

حق البكورة يختفى ؛ الفصيلة (*gens*) تتمزق .

لقد غيرت الثورة التى قلبت النظام الملكى الشكل الخارجى للحكومة أكثر مما غيرت كيان المجتمع . إنها لم تكن من عمل الطبقات الدنيا التى كان من مصلحتها أن تهدم الأنظمة القديمة بل من عمل طبقة السراة التى كانت تريد المحافظة عليها . فهى لم تعمل إذن لتغيير نظام الأسرة العتيق بل للمحافظة عليه . كثيراً ما استهوت الملوك الشهوة لرفع الطبقات الوضيعة وإضعاف الفصائل (*gentes*) . ولهذا السبب أسقطوا الملوك . فإن السراة لم تقم بثورة سياسية إلا لتحول دون ثورة اجتماعية ومنزلية . إنها لم تقبض على السلطة بيديها للذة السيادة بقدر ماقبضت عليها لكى تدفع الهجمات عن أنظمتها القديمة ، ومبادئها العتيقة ، وعبادتها المنزلية ، وسلطتها الأبوية ، ونظام الفصيلة ، وأخيراً عن جميع القانون الخاص الذى أقامته الديانة الأولى .

وإذن فقد كان هذا الجهد الكبير العام من جانب السراة رداً على خطرداهم . لكن يلوح أنه على الرغم من جهودها ، ومن انتصارها ذاته ، قدظل الخطر باقياً . بدأت الأنظمة القديمة تتهاوى وأوشكت تغييرات خطيرة أن تتدخل فى تكوين الأسرة الداخلى .

إن نظام الفصيلة القديم الذى أسسته ديانة الأسرة لم يحطم يوم انتقل الناس إلى نظام المدينة . إنهم لم يريدوا أو لم يستطيعوا التنازل عنه فوراً ، وذلك لتمسك الرؤساء بالاحتفاظ بسلطتهم ولعدم وجود فكرة عند الطبقة الدنيا للتحرر فى الحال . فوفقوا بين نظام الفصيلة وبين نظام المدينة ، لكنهما كانا فى الواقع نظامين متضادين لا أمل فى اتحادهما إلى الأبد . وكان لا بد لهما من أن يتحاربا

ذات يوم . عندما كانت الأسرة غير قابلة للقسمة وكثيرة العدد كانت من القوة والاستقلال بحيث لم يكن هناك مفر من شعور سلطة الجماعة بالرغبة فى القضاء عليها ، بل وشدة الحاجة إلى ذلك . فإما أن تزول المدينة وإما أن تتحطم الأسرة بمضى الزمن .

يمكن إدراك الفصيلة القديمة ، بموقدها الوحيد ، ورئيسها المتسلط ، وملكها الذى لا يقبل القسمة ، ما دامت حال العزلة قائمة وما دام لم يوجد مجتمع آخر سواها . ولكن بمجرد أن تجمع الناس فى مدينة ، ضعفت بالضرورة سلطة الرئيس القديم ؛ إذ أنه فى نفس الوقت الذى هو فيه رئيس ذو سيادة فى بيته ، كان أيضاً عضواً فى جماعة ؛ وبصفته هذه تضطره بعض المصالح العامة إلى تضحيات ، وتأمره بعض القوانين العامة بالطاعة . وبذلك تنقص مكانته فى نظره ، وفى نظر مرؤوسيه . ومهما يكن نظام هذه الجماعة قائماً على طبقة السراة فإنه لا بد من أن يحسب للطبقات الدنيا حسابها ، ولو لم يكن ذلك إلا بسبب كثرة عددها . والأسرة التى تضم عدة فروع ، والتى تتوجه إلى اللجان تحيط بها جمهرة من الموالى ، لها بالطبع سلطة فى المناقشات العامة أكثر مما للأسرة القليلة العدد ، والقليلة الأيدى ، والقليلة الجنود . ولم تلبث هذه الطبقات الدنيا أن شعرت بأهميتها وقوتها ، وتولد فيها شعور معين بالشمم والتطلع إلى مصير خير من مصيرها . أضف إلى ذلك المنافسة بين رؤساء الأسرات وهم يتطاحنون على النفوذ ويسعى كل منهم فى إضعاف الآخرين . أضف زيادة على ذلك أنه كان يصبح بهم نهم لمناصب المدينة ؛ وفى سبيل الحصول عليها يسعون إلى تحبيب الشعب فيهم ، وفى سبيل القيام بها يهملون سيادتهم المحلية الصغيرة أو ينسونها . أخذت هذه الأسباب تحدث نوعاً من التراخى فى تكوين الفصيلة . فمن كانت لهم مصلحة فى المحافظة على هذا التكوين أصبحو أقل تمسكاً به ، ومن كانت لهم مصلحة فى تغييره أصبحوا أكثر جرأة وأشد قوة .

فهُجرت تدريجياً قاعدة عدم التجزئة التى خلقت قوة الأسرة العتيقة . واختفى حق البكورة الذى كان شرط وحدتها . لا ريب أنه يجب ألا ننتظر من أى كاتب من الزمن القديم أن يمدنا بالتاريخ المضبوط لهذا التغيير الكبير .

من المحتمل أنه لم يكن له تاريخ لأنه لم يتم فى عام بل حدث على مر الأيام : أولا فى أسرة ، ثم فى أخرى ، وشيئاً فشيئاً فيها جميعاً . ويمكن القول أنه تم دون أن يلحظه أحد .

ويمكن أن نعتقد أيضاً أن الناس لم ينتقلوا طفرة واحدة من عدم قسمة الميراث إلى القسمة المتساوية بين الإخوة . فمن المحتمل أنه كان هناك تدرج بين النظامين . وربما جرت الأمور فى بلاد الإغريق وفى إيطاليا كما جرت فى المجتمع الهندى القديم حيث ترك الدين الوالد حراً فى إعطاء أبنائه الأصغرين نصيباً من الميراث بعد أن كان ينص على عدم قسمته ؛ ثم أنه بعد أن كان يحتم أن يكون للأكبر نصيب مضاعف على الأقل ، سمح بأن تكون القسمة متساوية بل انتهى إلى التوصية بذلك (١) .

لكنه ليس لدينا أى بيان واضح عن ذلك كله . وليست هناك غير نقطة واحدة موثوق بها وهى أن حق البكورة وعدم القسمة كانا القاعدة القديمة ، ثم اختفيا فيما بعد .

لم يقع هذا التغيير فى وقت واحد ولا على نمط واحد فى جميع المدن . ففى بعضها حافظ القانون على عدم قسمة الميراث زمناً طويلا بعض الشىء . وقد كان لا يزال نافذاً فى ثيبه وفى قورنثه فى القرن الثامن . أما فى أثينا فإنه كان لا يزال يظهر فى تشريع صولون بعض التفضيل للابن الأكبر . وهناك مدن لم يختف حق البكورة منها إلا على أثر ثورة . ففى هيراكليا وكنيد وإيستروس (Istros) ومارسيليا امتشقت الفروع الصغرى السلاح لكى تقضى فى آن واحد على السلطة الأبوية وحق الابن الأكبر (٢) . وابتداء من تلك اللحظة أصبحت بعض المدن الإغريقية ، التى لم تكن تعدُّ حتى ذلك الوقت غير مائة من الرجال يتمتعون بالحقوق السياسية ؛ وإذا بها تحصى منهم خمسمائة أو ستمائة .

---

(١) كانت قسمة الميراث هى القاعدة فى روما فى منتصف القرن الخامس ؛ يمنح قانون اللوحات الاثنتى عشرة دعوى قسمة الميراث *actio familiae erciscundae* (غايوس ، فى ديجست ١٠ : ٢ : ١) .

(٢) أرسطو : السياسية ٥ : ٥ : ٢ طبعة ديدو ص ٥٧١ .

وأصبح كل أعضاء الأسرات السَّريَّة مواطنين وانفتح أمامهم باب الوصول إلى المناصب ومجلس الشيوخ .

ليس فى الإمكان أن نقول فى أية فترة اختفى امتياز البكورة فى روما . ومن المحتمل أن الملوك ، فى حومة القتال ضد السراة ، عملوا ما استطاعوا لإلغائه ، لكى يهدموا بذلك نظام الفصائل (*gentes*) . فنرى عند ابتداء الجمهورية مائة وأربعين عضواً جديداً يدخلون مجلس الشيوخ ؛ وقد خرجوا كما يقول تيتوس ليڤيوس من الصفوف الأولى من فئة الفرسان (١) . ونحن على علم بأن الفرق الست المئينية الأولى من الفرسان كانت تتكون من البطارقة . (٢) وإذن يكون الذين جاءوا يملأون الفراغ فى مجلس الشيوخ بطارقة أيضاً . لكن تيتوس ليڤيوس يضيف نقطة تفصيلية لها دلالة كبيرة : ابتداء من تلك اللحظة أخذوا يميزون بين طبقتين من الشيوخ ، إحداهما التى كانوا يطلقون عليها كلمة الأباء (*patres*) والأخرى كانوا يطلقون عليها كلمة *conscripti* (٣) . كانوا جميعاً بطارقة على حد سواء . لكن الآباء هم رؤساء الفصائل المائة والستين التى كانت لا تزال باقية ، وال*conscripti* كانوا ينتخبون من بين الفروع الصغرى لهذه الفصائل . والواقع أنه يمكن الظن بأن هذه الطبقة الكثيرة العدد النشيطة لم تقدم معاونتها فى عمل بروتوس (Brutus) والآباء إلا بشرط الحصول على حقوق مدنية وسياسية . وهكذا حصلت بفضل الحاجة إليها على ما حصلت عليه نفس الطبقة بقوة السلاح فى هيراكليا وكنيد ومارسيليا .

وإذ فقد اختفى حق البكورة فى كل مكان : وتلك ثورة هائلة بدأت تغير وجه المجتمع . ففقدت الفصيلة الإيطالية (*gens*) والفصيلة الإغريقية (*γένος*) وحدتها الأولى . وتفرقت الفروع المختلفة ؛ وأصبح لكل منها منذ ذلك الوقت

---

(١) Tite-Live, II, 1: *Primoribus equestris gradus lectis.*

(٢) انظر Belot, *Histoire des chevaliers romains,* livr., I, ch. 2.

(٣) Tite-Live, II, 1: *Qui patres quique conscripti essent.* Festus, éd. Müller, p. 41: *Conscripti dicebantur qui ex equestri ordine patribus ascribebantur* . ظلوا قرون عديدة يميزون بين الـ *patres* والـ *conscripti* . انظر بلوتارخوس : مسائل رومانية ٥٨ .

نصيبها فى الملك وفى المسكن وأصبحت لها مصالحها الخاصة واستقلالها : *singuli singulas familias incipiunt habere* كما يقول الفقيه . فى اللغة اللاتينية تعبير قديم يبدو أنه يرجع إلى ذلك الوقت ، فكانوا يقولون *familiam ducere* عمن ينفصل من الفصيلة ويذهب ليكون طبقة على حدة ، كما كانوا يقولون *ducere coloniam* عمن يترك المدينة الأم ليذهب يؤسس مستعمرة فى مكان بعيد . منذ ذلك الوقت ، أصبح للأخ الذى ينفصل هكذا عن أخيه الأكبر موقده الخاص الذى أشعله من غير شك من الموقد المشترك للفصيلة ، كما كانت المستعمرة تشعل موقدها من بيت نار (بريتانيون) المدينة الأم . لم تعد الفصيلة تحتفظ إلا بنوع من السلطة الدينية بالنسبة للأسرات المختلفة التى انفصلت عنها . وكانت لعبادتها السيادة على عبادة هذه الأسرات ، ولم يكن مسموحاً لهذه الأخيرة أن تنسى أنها تفرعت عن هذه الفصيلة ، واستمرت تحمل اسمها . وفى يوم معين كانت تجتمع الأسرات حول الموقد المشترك لكى تمجد السلف العتيق أو المعبود الحامى . بل لقد استمرت على أن يكون لها رئيس دينى ؛ ومن المحتمل أن الابن الأكبر قد احتفظ بامتيازه فى الكهنوت الذى بقى زمناً طويلا وراثياً . وفيما عدا ذلك تقريباً كانت الأسرات مستقلة .

كان لهذا التمزيق فى الفصيلة عواقب خطيرة . فقد ضعفت إلى الأبد تلك الأسرة الكهنوتية العتيقة التى كونت مجموعة حسنة الوحدة، شديدة التكوين ، قوية بدرجة فائقة . فمهدت هذه الثورة لتغييرات أخرى وجعلتها سهلة يسيرة .

الفصل السادس

الموالى يتحررون

١ — ماذا كان الولاء فى البدء ، وكيف تبدل

ها هى ذى ثورة أخرى لا يمكن تعيين تاريخها لكن من المؤكد جداً أنها غيرت دستور الأسرة والمجتمع ذاته . كانت الأسرة العتيقة تشمل طبقتين متفاوتتى الدرجة تحت سلطة رئيس واحد : فمن ناحية ، كانت الفروع الصغرى أى الأفراد الأحرار بطبيعتهم ؛ ومن الناحية الأخرى ، الخدم أو الموالى ،وهم دنى درجة بحكم مولدهم ولكن مساهمتهم فى العبادة المنزلية قربتهم من الرئيس . قد رأينا الطبقة الأولى من هاتين الطبقتين تخرج من حالة الضعة التى كانت عليها ، والطبقة الثانية تتطلع منذ وقت مبكر إلى التحرر . وقد نجحت فى ذلك بمضى الزمن فقد تحولت طبقة الموالى وانتهى أمرها بأن اختفت تماماً .

إنه لتغيير هائل لم يقصه علينا الكتاب القدماء . وهكذا حدث فى القرون الوسطى ،فإن المؤرخين المعاصرين لها لم يخبرونا كيف تغير سكان الأرياف شيئاً فشيئاً . وفى حياة المجتمعات البشرية عدد لا بأس به من الانقلابات لا تمدنا بذكراها أية وثيقة . لم يلتفت إليها الكتاب لأنها تمت ببطء ، بطريقة غير محسوسة ، ومن غير نضال ظاهر ؛ إنها انقلابات عميقة وخفية ، كانت تحرك قاع المجتمع البشرى دون أن يطفو شىء منها على سطحه ، وقد بقيت غير ملحوظة حتى من نفس الأجيال التى كانت تعمل فيها . لم يستطع التاريخ أن يدركها إلا بعد أن تمت بزمن كبير ، عند ما أخذ يقارن بين فترتين فى حياة شعب ما ويلاحظ أن بينهما فروقاً جسيمة بحيث يصبح بدهياً أن ثورة كبيرة قد تمت فى الفترة التى تفصل إحداهما عن الأخرى .

وإذا رجعنا فى ذلك إلى الصورة التى رسمها لنا الكتاب عن الولاء القديم فى روما وجدنا أنها كانت تكون فى الحقيقة نظاماً من أنظمة العصر الذهبى. إذ أى شىء أكثر إنسانية من ذلك الولى الذى يدافع عن مولاه أمام القضاء، ويعضده بماله إن كان فقيراً، ويقوم على تربية أطفاله ؟ وأى شىء يحرك أوتار القلوب كما يحركها ذلك المولى الذى يسند بدوره وليه وقد سقط فى هاوية البؤس، فيسدد عنه ديونه ويقدم كل ماله ليكون فدية له (١) ؟ غير أن هذا القدر من العاطفة لا وجود له فى قوانين الشعوب القديمة . فإن العاطفة المجردة من الغرض، والوفاء، لم يكونا نظامين قانونيين إطلاقاً فيجب أن نصور لأنفسنا فكرة أخرى عن المولى وعن الولى .

إن أوثق ما نعرفه عن المولى أنه لم يكن يستطيع الانفصال عن الولى ولا اختيار ولى آخر، وأنه كان مرتبطاً بأسرة ما من أب لابن (٢) . ولو لم نعرف غير هذا القدر لكان كافياً لنعتقد أن حالته لم تكن جد مستساغة . ولنضف إلى ذلك أن المولى لم يكن مالكاً للأرض ؛ فإن الأرض للولى الذى كان أهلا دون سواه لأن يكون مالكاً باعتباره رئيساً لعبادة منزلية وعضواً أيضاً فى المدينة. فإذا كان المولى يزرع الأرض فإنما كان يفعل ذلك باسم السيد ولفائدته . بل إنه لم يكن يمتلك الأشياء المنقولة، ولا المال، ولا ما يدخره ، ملكاً تاماً . والدليل على ذلك أن الولى كان يستطيع أن يسترد منه ذلك كله لكى يدفع ديونه الخاصة أو فديته . فلم يكن له شىء ما . حقاً إنه كان على الولى أن يقدم له ما يقوم بأوده هو وأطفاله لكن كان عليه فى مقابل ذلك أن يعمل لسيده. لا يمكن القول بأنه كان عبداً بالمعنى الصحيح، لكن كان له سيد يتبعه ويخضع لإرادته فى كل شىء. فهو مولى طول حياته وأبناؤه موالى من بعده .

هناك أوجه للشبه بين المولى (client) فى العصور العتيقة والمولى (serf) فى القرون الوسطى . الحق أن المبدأ الذى كان يقضى عليهما بالطاعة لم يكن واحداً . كان

---

(١) بلوتارخوس : روسولوس ١٣ . ديونيسيوس ٢ : ٩ - ١٠ .

(٢) انظر عن هذه النقطة واقعة رواها بلوتارخوس فى حياة ماريوس ٥ . انظر سيسرون : الخطيب ١ : ٣٩ .

المبدأ ، فيما يختص بالمولى فى القرون الوسطى ، هو حق المـلك على الأرض والإنسان معاً ؛ أما فيما يختص بالمولى القديم ، فإن هذا المبدأ كان هو الديانة المنزلية التى كان يرتبط بها تحت سلطة الولى الذى كان كاهنها ؛ وفيما عدا ذلك فإن التبعية واحدة لـكل منهما ؛ فإن أحدهما مرتبط بوليه كما أن الآخر مرتبط بسيده ؛ ولم يكن فى استطاعة المولى القديم أن يترك الفصيلة أكثر مما كان فى استطاعة مولى القرون الوسطى أن يترك سيده . وكلاهما يبقى خاضعاً لسيد من أب لابن . هناك فكرة فى تيتوس ليفيوس تجعلنا نظن أنه كان محرماً عليه أن يتزوج خارج الفصيلة كما كان محرماً على مولى القرون الوسطى أن يتزوج خارج القرية (١) . والموثوق منه أنه لم يكن يستطيع التعاقد على الزواج بدون إذن من الولى . كان فى استطاعة الولى أن يسترد الأرض التى يزرعها المولى والمال الذى فى حيازته ، كما أنه كان فى استطاعة السيد أن يفعل ذلك مع مولى القرون الوسطى . وإذا مات المولى عاد كل ما كان يستعمله إلى الولى شرعاً كما أن تركة مولى القرون الوسطى كانت تعود إلى السيد .

لم يكن الولى سيداً فحسب بل كان قاضياً ؛ كان يستطيع أن يحكم على المولى بالإعدام ، وهو فوق ذلك رئيس دينى . والمولى ينوء بهذه السلطة المادية والمعنوية معاً ، تلك التى تستولى عليه جسما وروحاً . حقاً إن هذه الديانة تفرض واجبات على الولى ، لـكنها واجبات هو وحده الحكم فيها ولا يؤاخذ إذا ما أهملها . لا يبصر المولى شيئاً يحميه ؛ إنه لم يكن مواطناً من تلقاء نفسه ؛ فإذا أراد أن يظهر أمام محكمة المدينة كان من المحتم أن يقوده وليه إليها وأن يتكلم عنه . أيستنجد بالقانون ؟ إنه لا يعرف صيغه المقدسة ؛ وإذا كان يعرفها فإن أول قانون بالنسبة له هو ألا يشهد على وليه أو يتكلم ضده . فبدون الولى لا عدل له ؛ وضد الولى لا ملاذ له .

لم يكن المولى فى روما وحدها . فإنا نجده عند السامنيين والأتروسك باعتباره

---

(١) تيتوس ليفيوس ٣٩ : ١٩ .

جزءا من الـ *manus* الخاص بكل رئيس (١) . كان موجوداً فى الفصيلة الإغريقية كما كان فى الفصيلة الإيطالية . حقاً إنه يجب ألا نبحث عنه فى المدن الدورية حيث اختفى نظام الفصيلة فى وقت مبكر، وحيث كان المغلوبون مرتبطين بقطعة من الأرض وليس بأسرة سيد . لكنا نجده فى أثينا وفى المدن اليونية والأيولية تحت اسم ثيس (ثيت thètes) أو پيلاتيس (Pélate) (٢) ، ما دام نظام السراة قائماً فإن هذا الثيس لم يكن جزءا من المدينة ، فهو حبيس فى أسرة لا يستطيع الخروج منها ، تحت يد نسيب يحمل فى ذاته طابع الولى الرومانى وسلطته .

نستطيع أن نحزر أنه كانت هناك ضغينة بين الولى والمولى منذ زمن مبكر. ونستطيع أن نتصور من غير عناء ما كانت عليه الحياة فى هذه الأسرة حيث كانت جميع السلطة لواحد ولم يكن للآخر حق ما ، حيث الطاعة التى لا تحفظ فيها ولا أمل معها تجاور الهيمنة التى لا عائق لها ، حيث كان لخير السادة شراسته ونزواته وحيث كان لأكثر الخدم استسلاماً أحقاده وتأوهاته وسخائمه . كان أوديسيوس سيدا صالحاً . انظر أى عطف أبوى كان يبديه لإومايوس (Eumée) وفيلويتيوس (Philaetios) . لكنه أعدم خادماً سبه دون أن يعرفه وخادمات سقطن فى السوء بسبب غيابه عنهن . إنه مسؤول أمام المدينة عن موت الخُطّاب (٣). أما عن موت الخدم فلا يسأله أحد حساباً .

فى حالة العزلة التى عاشت الأسرة فيها زمناً طويلا استطاع الولاء أن يتكون وأن يبقى . كانت الديانة المنزلية عندئذ قد بلغت غاية سلطانها على النفس . والرجل الذى كان كاهناً بمقتضى الحق الوراثى كان يبدو للطبقات الدنيا ككائن مقدس . كان أكثر من إنسان فقد كان الوسيط بين الله والناس ؛ من فمه يخرج الدعاء القوى ، الصيغة التى لاتقاوم والتى تجلب عطف المعبود أو غضبه. كان لابد من الانحناء أمام قوة كتلك القوة ؛ كان الإيمان والديانة يأمران بالطاعة. فكيف كان يجول فى خاطر المولى أن يتحرر بعد ذلك ؟ إنه لا يرى أفقاً غير هذه الأسرة

---

(١) ديونيسيوس ٥ : ٢٠ ؛ ٩ : ٥ . تيتوس ليفيوس ٢ : ١٦ .

(٢) وهما كلمتان بمعنى واحد وهو عامل أو أجير . ــ المعرب .

(٣) الذين تقدموا يخطبون زوجته أثناء غيابه ظنا منهم أنه لن يعود . وتصرفوا فى منزله تصرفا يخرج عن حدود اللياقة . — المعرب .

التى يربطه كل شىء بها . ففيها وحدها كان يجد حياة هادئة وغذاء مضموناً ؛ ولو أن له فيها سيداً إلا أنه واجد فيها مدافعاً عنه ؛ وأخيراً ، فيها وحدها يجد مذبحاً يستطيع الاقتراب منه وآلهة يسمح له بدعائهم . فهجران هذه الأسرة معناه وضع نفسه خارج كل نظام اجتماعى وكل حق ؛ ومعناه فقدان آلهته والتنازل عن حق الدعاء .

لـكن عندما أسست المدينة استطاع موالى الأسرات المختلفة أن يرى بعضهم بعضاً ، وأن يتحدثوا وأن يتبادلوا رغباتهم وسخائمهم ، وأن يقارنوا بين السادة المختلفين ، وأن يتطلعوا إلى مصير خير من مصيرهم . ثم بدأت أبصارهم تمتد إلى ما وراء نطاق الأسرة . فرأوا أنه يوجد خارجها مجتمع وقواعد وقوانين ومذابح ومعابد وآلهة . فلم يعد الخروج من الأسرة يعد نكبة عليهم لا علاج لها . اشتدت الشهوة يوماً فيوماً ، وبدأ الولاء حملا يزداد ثقلا ، وكفوا رويداً عن الإيمان بأن سلطة السيد سلطة شرعية مقدسة . وولجت قلوب الناس عندئذ رغبة ملتهبة فى أن يكونوا أحراراً .

لا ريب أننا لا نجد فى تاريخ أية مدينة ذكرى ثورة عامة قامت بها هذه الطبقة . فإن كانت قد وقعت معارك مسلحة فلا بد أنها قد حصرت وأخفيت بداخل سور كل أسرة . فهناك وجدت ، لأكثر من جيل ، جهود عنيفة للاستقلال من جانب ، وإخماد لها لا هوادة فيه من جانب آخر . فجرت لذلك فى كل بيت قصة طويلة تثير الأشجان ، يستحيل أن نترسم خطاها اليوم . وإنما يمكن القول بأن جهود الطبقة الدنيا لم تكن بدون نتيجة فإن ضرورةً لا يمكن التغلب عليها قد أجبرت السادة بالتدريج على التنازل عن شىء من هيمنتهم . عندما تكف السلطة عن الظهور للرعايا بمظهر العدل فلابد من بعض الوقت لـكى تكف عن الظهور بهذا المظهر نفسه أمام السادة ؛ لكن ذلك يحدث بمضى الزمن . وعندئذ يدافع السيد ، الذى لم يعد يؤمن بأن سلطته شرعية ، دفاعاً سيئاً أو يتنازل عنها . ولنضف إلى ذلك أن هذه الطبقة الدنيا كانت نافعة فإن ذراعيها عندما يزرعان الأرض يخلقان ثروة السيد ، وعندما

يحملان السلاح يكونان قوة له وسط منافسات الأسرات ؛ فكان من الحكمة إذن إرضاؤها . وإذن كانت المنفعة تتحد مع الإنسانية لتنصحا بالتنازل لهذه الطبقة عن بعض الأمور .

يبدو محققاً أن حالة الموالى قد تحسنت شيئاً فشيئاً . كانوا فى الأصل يعيشون فى بيت السيد ويزرعون الملك المشترك معا . ثم فيما بعد ، خصصوا لكل واحد منهم نصيباً معيناً من الأرض . ولا بد من أن المولى قد وجد نفسه أكثر سعادة فى هذه الحال . لا ريب أنه كان لا يزال يعمل لمصلحة السيد ولم تكن الأرض له بل الأمثل أنه هو الذى كان للأرض . ليس هذا بالمهم ، إنه يزرعها سنوات طوالا بلا انقطاع ويحبها . فقامت بينه وبينها صلة غير تلك التى خلقتها ديانة الملك بينه وبين السيد ، صلة أخرى هى الصلة التى يخلقها العمل ، بل الألم ذاته ، بين الإنسان الذى يعطى عناءه والأرض التى تعطى ثمارها .

ثم طرأ تقدم آخر . لم يعد يزرع للسيد بل لنفسه . فأصبح يتمتع بالمحصول بشرط أن يدفع فريضة ربما كانت فى البدء قابلة للتغيير لكنها أصبحت ثابتة فيما بعد . وهكذا وجد عرقه بعض الجزاء وأصبحت حياته أكثر حرية وأكثر شمماً . يقول أحد القدماء : «كان رؤساء الأسرات يخصصون أجزاء من الأرض لمرؤوسيهم كما لو كانوا أبناءهم (١) » . بل أننا نقرأ فى الأوديسه « يعطى السيد العطوف لخادمه منزلا وأرضاً؛» ويضيف إومايوس (Eumée) : « وزوجة مشتهاة »، إذ أن المولى لا يزال غير قادر على الزواج بدون إرادة السيد ، وأن السيد هو الذى يختار له صاحبته .

لكن هذا الحقل الذى يقضى فيه حياته ، والذى فيه كل نصبه وكل متعته ، لم يكن حتى الآن ملكاً له . إذ أن هذا المولى لا يحمل فى ذاته الصفة المقدسة التى تجعل الأرض صالحة لأن تكون ملكاً لرجل . والحقل الذى يشغله لايزال يحمل الحد المقدس ، الإله التخم ، الذى وضعته أسرة السيد فيما مضى . يشهد هذا الحد المصان أن الحقل مرتبط بأسرة السيد برباط مقدس ولا يستطيع أن

(١) فستوس تحت كلمة *patres* طبعة ميلر (Müller) ص ٢٤٦

يكون مملوكاً للمولى المحرر ملكاً تاماً إطلاقاً . فى إيطاليا ، كان الحقل والمنزل الذى يشغله الـ *villicus* (١) ، مولى الولى ، يحوى موقداً ولارا عائلياً *Lar familiaris* ؛ لكن هذا الموقد لم يكن للمزارع بل كان للسيد (٢) . وكان ذلك إقرارا فى آن واحد بحق الولى فى الملك ، وبالخضوع الدينى من جانب المولى الذى مهما كان بعيداً عن الولى فإنه كان لا يزال يتبع عبادته

تألم المولى ، بعد أن أصبح واضعاً يده على الأرض ، من أنه ليس مالكاً لها ، وتطلع إلى ذلك ؛ فوضع مطمعه فى أن يزيل من هذا الحقل ، الذى يبدو من مظهره أنه له بمقتضى حق العمل ، الحد المقدس الذى يجعله ملك السيد القديم إلى الأبد .

نرى بجلاء أن الموالى فى بلاد الإغريق قد وصلوا إلى هدفهم ؛ فبأى الوسائل ؟ هذا ما نجهله . ثم كم قضوا من الزمن والجهود للوصول إليه ؟ لا نستطيع أن نقدره إلا تخمينا . وربما وقعت فى الزمن العتيق نفس السلسلة من التغييرات الاجتماعية التى رأت أوربا حدوثها فى القرون الوسطى عندما أصبح عبيد الريف موالى الأرض ثم تحولوا من موال يُفرض عليهم ما تقتضيه مشيئة السيد (taillables à merci) إلى موال خاضعين لإتاوة معينة (abonnés) ، وفى النهاية تحولوا إلى فلاحين متملكين .

١٠٢ — إختفاء الولاء من أثينا ؛ عمل صولون

يتجلى هذا النوع من الثورات فى تاريخ أثينا . كان من أثر إسقاط الملكية إحياء نظام الفصيلة (*γένος*) ؛ فعادت الأسرات إلى حياتها المنعزلة ؛ وأخذت كل منها تكوّن من جديد دولة صغيرة رئيسها أحد النساء ، ورعاياها جمهرة الموالى أو الخدم الذين كانت تسميهم اللغة القديمة ثيتيس (*thètes*) (١) . يبدو

(١) معناها المزارع الفلاح ، وكيل الزراعة . من كلمة *villa* ومعناها المزرعة أو البيت الريفى . ـ المعرب .

(٢) كاتون : الفلاحة ١٤٣ . كولوميلا (Columelle) ١١ : ١ : ١٩ .

(٣) هذه الكلمة مستعملة بمعنى خادم فى هيسيودوس : الأعمال والأيام : البيت ٥٦٣ وفى الأوديسه ٤ : ٦٤٤ . وقد تمثل ديونيسيوس الهاليكارناسى (٢ : ٩) الثيتيس القدماء فى أثينا فى الموالى فى روما .

أن هذا النظام كان ثقيل الوطأة على الأهالى الأثينيين إذ أنهم حفظوا له ذكرى سيئة . وعدّ الشعب نفسه بائساً بحيث بدت له الفترة السابقة كعصر ذهبى ، فتلهف على الملوك . وانتهى به الأمر إلى أن تخيل أنه كان فى عهد الملكية سعيداً حراً ، وأنه كان يتمتع عندئذ بالمساواة ، وأن عدم المساواة والألم لم يبدءا إلا منذ سقوط الملوك . لقد كان واهماً فى ذلك كما يحدث كثيراً للشعوب ؛ فقد وضعت الأثارة الشعبية ابتداء عدم المساواة فى الوقت الذى أخذ الشعب يجدها بغيضة فيه . فهذا الولاء ، هذا النوع من العبودية الذى كان قديماً قدم كيان العائلة ، أرجعوه إلى العصر الذى شعر الناس فيه لأول مرة بثقل الظلم وفهموا ما هو . بيد أنه من المؤكد أن النسباء لم يقيموا قوانين الولاء القاسية فى القرن السابع ، وكل ما عملوه أنهم احتفظوا بها . وذلك كان كل خطأهم : حافظوا على هذه القوانين إلى ما بعد الزمن الذى كانت الشعوب تتحملها فيه بدون تذمر ؛ حافظوا عليها ضد أمانى الناس . ربما كان نسباء تلك الفترة سادة أقل قسوة مما كان عليه أسلافهم ، ومع ذلك فقد كانوا مبغضين أكثر منهم .

يلوح أن حال الطبقة الدنيا قد تحسن حتى تحت سيادة هذه السراة . إذ أن ذلك هو الوقت الذى نرى فيه بجلاء حصول هذه الطبقة على حيازة أجزاء من الأرض بشرط واحد هو أن تدفع إتاوة حددت قيمتها بسدس المحصول (١). وهكذا كاد هؤلاء الناس أن يتحرروا . وما دام قد أصبح لهم مأوى ولم يعودوا تحت رقابة السيد فقد أخذوا يتنفسون فى راحة أكبر ويعملون لمصلحتهم

---

(١) Plutarque, *Solon*, 13: *'Εγεώργουν τοῖς πλουσίοις ἕκτα τῶν γενομένων τελοῦντες ἑκτηόριοι προσαγορευόμενοι καὶ θῆτες* Pollux, IV, 165 *'Εκτημόριοι δ' οἱ πέλαται παρ' 'Αττικοῖς.* *Idem*, VII, 151: *'Επίμορτος γῆ ἐκ Σολῶνι, ἡ ἐπὶ μέρει γεωργουμένη.*

ولكن هكذا الطبيعة البشرية ، كلما تحسن مصير هؤلاء الناس كلما زادت مرارة شعورهم بما لا يزال باقياً لديهم من عدم المساواة . ولا ريب فى أن عدم كونهم مواطنين وعدم مساهمتهم بأى نصيب فى إدارة المدينة لم يكن ليحرك أشجانهم إلا قليلا ؛ لكن عدم استطاعتهم أن يكونوا ملاكاً للأرض التى عليها يولدون ويموتون كان أكثر إثارة لها . ولنضف أن ما كان محتملا فى ظرفهم الحالى كان ينقصه الثبات . حقاً إنهم كانوا حائزين للأرض حيازة حقيقية إلا أنه ما من قانون صريح يضمن لهم هذه الحيازة أو الاستقلال الناجم عنها . نرى فى پلوتارخوس أن الولى القديم كان يستطيع أن يضع يده من جديد على خادمه القديم ، وأنه إذا لم تدفع الفريضة السنوية ، أو لأى سبب آخر ، كان يهوى هؤلاء الناس إلى نوع من العبودية .

وإذن فقد كانت هناك مسائل خطيرة تثار فى أتيكا خلال أربعة أو خمسة أجيال متتابعة . فلم يكن بمستطاع قط أن يبقى أهل الطبقة الدنيا فى هذا الوضع القلق غير النظامى الذى قادهم إليه تقدم غير محسوس . وعلى هذا فقد كانوا بين أمرين : إما أن يفقدوا هذا الوضع ، ولا بد عندئذ من عودتهم إلى روابط الولاء القاسى ؛ وإما أن يحررهم تقدم جديد تحريراً صريحاً فيصعدوا إلى مرتبة مُلاك الأرض والرجال الأحرار .

ويمكن أن نحزر كل ما كان هناك من جهود من جانب الزارع ، المولى القديم ، ومقاومته من جانب المالك ، الولى القديم . إنها لم تكن حرباً داخلية ؛ لذلك لم تحفظ الحوليات الأثينية ذكرى أى قتال . بل كانت حرباً منزلية فى كل قرية وفى كل منزل ، يتوارثونها من أب لابن .

يلوح أن مصائر هذه المناضلات كانت مختلفة طبقاً لطبيعة الأرض فى مختلف نواحى أتيكا . ففى السهل ، حيث كان للنسيب ملكه الرئيسى ، وحيث كان حاضراً على الدوام ، بقيت سلطته سليمة تقريباً على المجموعة الصغيرة التى كانت تحت نظره على الدوام ؛ لذلك كان أهل السهل الپيدياكوى (pédiéens) يظهرون على العموم بمظهر الوفاء للنظام القديم . لكن أولئك الذين كانوا

يحرثون فى عناء سفح الجبل ويسمون الدياكريوى (diacriens) كانوا يطوون فى سويداء قلوبهم حقداً عنيفاً للنسيب، وإرادة ثابتة على التخلص منه، باعتبارهم أبعد عن السيد، وأكثر تعوداً على الحياة المستقلة، وأكثر جرأة وشجاعة. وهؤلاء الرجال هم على الأخص الذين كانوا يستنكفون من أن يروا على حقوقهم «الحد المقدس» التابع للسيد، وأن يشعروا أن «أرضهم أَمَة مستعبدة» (١) أما سكان النواحى المجاورة للبحر، الپاراليوى (paraliens) فإن امتلاك الأرض أقل إغراء لهم؛ كان أمامهم البحر والتجارة والصناعة. وقد أصبح الكثيرون منهم أثرياء؛ ومع الثروة أصبحوا أحراراً تقريباً. لذلك لم يقتسموا مطامع الدياكريوى المتأججة، ولم يكن حقدهم قوياً ضد النسباء. لكنه لم يكن فيهم خنوع أهل السهل المقرون بالجبن. كانوا يطلبون أن تكون أحوالهم أكثر ثباتاً وحقوقهم أكثر ضماناً.

وصولون هو الذى أرضى هذه الأمانى فى حدود الاستطاعة. وهناك جزء من عمل هذا المشرع لم يطلعنا عليه القدماء إلا بطريقة ناقصة جداً. لكن يلوح أنه كان الجزء الأهم منه. فقد كان معظم سكان أتيكا قاصرين قبله على حيازة الأرض حيازة قابلة للزوال بل يمكن أن يعودوا إلى العبودية الشخصية. أما بعده فإنه لا يعثر على هذه الطبقة الكثيرة العدد من الناس ولا نعود نرى المستأجرين الخاضعين للفريضة ولا «الأرض الأمة» وأصبح حق التملك فى متناول الجميع. إن فى هذا لتغييراً كبيراً لا يمكن أن يصدر عن غير صولون.

حقاً إننا إذا اكتفينا بأقوال پلوتارخوس فإن صولون لم يعمل أكثر من تلطيف التشريع الخاص بالديون بانتزاعه من الدائن حق استرقاق المدين (٢). ولكن يجدر أن ننظر عن قرب فيما يقوله كاتب، متأخر كل هذا التأخير عن تلك الفترة، عن الديون التى أثارت الاضطراب فى المدينة الأثينية كما أثارته فى جميع مدن بلاد الإغريق وإيطاليا. يصعب علينا أن نعتقد أنه كانت هناك قبل عصر

---

(١) *Solon*, édition Bach, p. 104, 105: *Γῆ δουλεύουσα*. Plutarque, *Solon*, 15: *Γῆ ὑποκειμένη*

(٢) فصل أرسطو إصلاح صولون والإصلاحات التى تلته تفصيلا واضحا فى كتابه «دستور الأثينيين». ولم يكن المؤلف يعرف هذا الكتاب إلا بالاسم فقط. إذ أن أوراق البردى التى تحويه اكتشفت بعد ظهور «المدينة العتيقة» بمدة طويلة. وقد عثر عليها فى مصر، وهى الآن من محتويات المتحف البريطانى ومتحف برلين. — المعرب

صولون حركة فى الأموال يحتمل معها أن يكون هناك عدد كبير من المقرضين والمقترضين. فلا نحكم على هذه العصور مما يجرى فى العصور التالية . لقد كانت التجارة عندئذ ضئيلة جداً . وكان تبادل الديون غير معروف ، ولا بد أن القروض كانت نادرة إلى حد ما . أى رهن كان يستطيع أن يقترض عليه الرجل الذى لم يكن مالكاً لشىء ما ؟ ليس من المألوف فى أى مجتمع أن يقرض الناس أولئك الذين لا يملكون شيئاً . حقاً إنه يقال تصديقاً لمترجمى پلوتارخوس ، وليس لپلوتارخوس ذاته ، إن المقترض كان يرهن أرضه (١) . ولكن حتى لو فرضنا أن هذه الأرض كانت ملكاً له فإنه لم يكن يستطيع أن يرهنها ؛ إذ أن طريقة الرهن لم تكن معروفة فى ذلك الوقت ، وكانت متناقضة مع طبيعة حق الملك . لهذا يجب أن نرى فى هؤلاء المدينين الذين يحدثنا عنهم پلوتارخوس الخدم القدماء ، وفى ديونهم الفريضة السنوية التى كان يجب أن يدفعوها للسادة القدماء ، فى الاسترقاق الذى يحيق بهم إذا لم يدفعوا ما عليهم الولاء القديم الذى كان يطوقهم من جديد .

ربما ألغى صولون الفريضة أو الأرجح أنه خفض قيمتها إلى قدر يجعل مشتراها أمراً هيناً ، وأضاف بالنسبة للمستقبل أن عدم السداد لا يؤدى بالرجل إلى الاسترقاق .

بل عمل أكثر من ذلك. فقبله لم يكن فى استطاعة هؤلاء الموالى القدماء ، بعد أن أصبحوا واضعى يد على الأرض ، أن يصبحوا ملاكاً ؛ إذ أن التخم المقدس المصان ؛ تخم المولى القديم ، لا يزال قائماً فى حقلهم على الدوام . فكان لا بد من اختفاء

---

(١) يتكلم بلوتارخوس عن *ὅροι* . فى عصر بلوتارخوس ، ومن قبل فى عصر ديموسثينيس ، كان يوجد *ὅροι* . وفى عهد صولون لم يكن الـ *ὅρος* (التخم المقدس) ، وما كان يستطيع أن يكون ، إلا *terminus* (الحد) رمز حق الملك وضمانه . فى الحالة التى نحن بصددها يبين *ὅρος* ، فى الحقل الذى يشغله الثيس ، ملكية النسيب الكامنة .

(٢) كان الملك لا يزال للأسرة أكثر مما كان للشخص . ولم يصبح حق الملك حقاً فردياً إلا فيما بعد . وعندئذ فقط أمكن استعمال الرهن . ومع ذلك لم يدخل فى الشرع الأثينى إلا بحيلة البيع الوفائى بشرط الاسترداد .

هذا التخم ليتحرر الزارع وتتحرر الأرض. لقد هدمه صولون: ونرى الدليل على هذا الإصلاح الكبير فى بعض أبيات لصولون نفسه إذ يقول: «كان عملا غير مأمول وقد قمت به بمعونة الآلهة وأشهد على ذلك الإلهة الأم، الأرض السوداء، التى انتزعت حدودها فى أكثر من موضع، تلك الأرض التى كانت أمة، وقد أصبحت الآن حرة». وبفعله هذا قام صولون بانقلاب هائل. فقد نحى جانباً ديانة الملك القديمة التى كانت تحفظ الأرض فى عدد صغير من الأيدى باسم الإله التخم الذى لا يتحرك. انتزع الأرض من الديانة ليعطيها للعمل. وقد محى مع سلطة النسيب على الأرض سلطته على الرجل، واستطاع أن يقول فى أبيات له «لقد حررت أولئك الذين كانوا يتحملون الاسترقاق القاسى على هذه الأرض ويرتعدون أمام سيد ما».

ومن المحتمل أن يكون ذلك التحرير هو الذى سماه معاصرو صولون باسم σεισαχθεία (القاء الحمل). أما الأجيال التالية، التى تعودت الحرية، فإنها لم تكن تريد أو تستطيع أن تعتقد أن آباءها كانوا موالى ففسرت هذه الكلمة كما لو كانت تدل فقط على إلغاء الديون. لكن فيها عنفاً يكشف لنا عن ثورة أكبر من ذلك. ولنضف إلى ما ذكرنا هذه الجملة من أرسطو الذى يقول عن صولون دون أن يدخل فى رواية عمله: «لقد أوقف استرقاق الشعب (١)»

٣ — تغير الولاء فى روما

هذه الحرب بين الموالى والأولياء شغلت كذلك فترة طويلة من تاريخ روما والحق أن تيتوس ليفيوس لا يقول عنها شيئاً إذ ليس من عادته أن يلاحظ عن قرب تغير الأنظمة، فضلا عن أن حوليات الأحبار والوثائق المشابهة التى استمد منها المؤرخون القدماء الذين تصفحهم تيتوس ليفيوس لا يمكن أن تعطى رواية هذه المنازعات الداخلية.

وهناك على الأقل أمر موثوق منه. كان هناك موال عند نشأة روما، بل لقد بقيت لنا أدلة دقيقة جداً عن التبعية التى فرضها عليهم أولياؤهم. فإذا بحثنا

---

(١) Aristote, *Politique*, II, 9, 2: Καὶ δουλεύοντα τὸν δῆμον παῦσαι.

عن هؤلاء الموالى بعد ذلك بعدة قرون فإنا لا نجدهم . كان الاسم لا يزال موجوداً أما الولاء فلا . إذ ما من شيء يختلف عن موالى العهد البدائى أكثر مما يختلف هؤلاء السوقة من عصر سيسرون الذين كانو يدعون أنفسهم موالى لرجل ثرى لـكى يكون لهم الحق فى هباته .

هناك من يشبه المولى القديم أكثر من هؤلاء وهو المعتَق(١). فإن الرجل ، سواء فى نهاية الجمهورية أو فى العصور الأولى لروما ، لم يكن يصبح رجلا حراً ومواطناً بمجرد خروجه من الرق . بل كان يبقى خاضعاً للسيد . كانوا يسمونه فيما مضى مولى والآن يسمونه معتق؛ فلم يتغير غير الاسم . أما السيدفحتى اسمه لم يتغير ؛ كانوا يسمونه فيما مضى ولياً (*Patronus*) ، ولا زالوا يسمونه كذلك. ويبقى المعتق ملازماً للأسرة كما كان المولى فيما مضى ؛ ويحمل اسمها كما كان يفعل المولى القديم . وهو تابع لوليه ، وليس مديناً له بالجميل فحسب بل بخدمة حقيقية يبين السيد وحده مداها . للولى ولاية القضاء على معتقه كما كانت له على مولاه ؛ ويستطيع أن يسترقَّه لجريمة جحود بالجميل (٢) . وبذلك يذكرنا المعتق بالمولى القديم تماماً ؛ فليس بينهما غير فرق واحد : كانوا ، فيما مضى ، موالى ابناً عن أب ؛ والآن تنتهى حالة المعتق عند الجيل الثانى أو ، على الأكثر ، الثالث . لم يختف الولاء إذن . كان يمسك بالإنسان فى اللحظة التى يتركه الاسترقاق فيها ؛ وكل ما فى الأمر أنه لم يعد وراثياً . وهذا وحده تغيير هائل ، ومن المحال القول فى أية فترة تم ذلك .

---

(١) كان المعتق يصبح مولى . وتتبين مطابقة هذين المصطلحين من فقرة فى ديونيسيوس ٤ : ٢٣ .

(٢) ديجست السفر ٢٥ الباب ٢ : ٥ ؛ السفر ٥٠ الباب ١٦ : ١٩٥ . فاليريوس ماكسيموس ٥ : ١ : ٤ . سويتونيوس : كلوديوس ٢٥ . ديوكاسيوس ٥٥ . كان التشريع هو بذاته فى أثينا. أنظر ليسياس وهيبريديس (Hypérides) فى هاربوقراطيون تحت لفظ ἀποστασίου ، ديموسثينيس ضد أرسطوغيتون، وسويداس تحت لفظ *Αναγκαῖον*. وقد عدد أفلاطون (القوانين ١١ ص ٩١٥) واجبات العتقاء . بيد أنه من الواضح بما فيه الكفاية أن هذه القوانين القديمة لم تكن مرعية فى عصر أفلاطون .

يمكن جيدا تمييز مظاهر الرفق المتتالية التى أدخلت على مصير المولى وبأى الدرجات وصل إلى حق التملك . ففى الأصل ، كان رئيس الفصيلة يخصص له نصيباً من الأرض ليزرعه (١) ثم لم يلبث أن أصبح حائزاً لهذا النصيب مدى الحياة مقابل مساهمته فى جميع المصروفات التى يتحملها سيده القديم . وفى نصوص القانون القديم القاسية ، التى تلزمه بسداد فدية المولى وبائنة ابنته وغراماته القضائية ، ما يدل على الأقل على أنه كان يستطيع أن يكون له مال مدخر فى الوقت الذى حرر فيه هذا القانون . ثم تقدم المولى خطوة أخرى ، فنال الحق فى أن يترك لابنه ما يملكه عند موته . حقاً إن ماله لا زال يعود إلى وليه عند انعدام الابن . لكن هاك تقدماً جديداً : حصل المولى الذى لا يترك ابناً على حق الوصية . وهنا يحار العرف ويتقلب ، فأحياناً يسترد الولى نصف المال وأحياناً تحترم إرادة الموصى احتراماً كاملا . وعلى كل حال فإن وصيته لم تكن عديمة القيمة دائماً (٢) . فإذا كان المولى لا يزال عاجزاً عن الادعاء بأنه مالك فإن له على الأقل تمتعاً واسعاً على قدر الاستطاعة .

ولا ريب فى أن ذلك لم يكن تحريراً كاملا . لكن ما من وثيقة تسمح لنا بأن نحدد العصر الذى انفصل فيه الموالى عن أسرات البطارقة انفصالا نهائياً . هناك عدة نصوص فى تيتوس ليڤيوس (٣) تبين ، إذا ما وقفنا عند حرفيتها ، أن الموالى كانوا مواطنين منذ السنوات الأولى من الجمهورية ؛ وهناك شبهة كبيرة فى أنهم كانو كذلك فى عصر سرڤيوس ؛ وربما كانوا يصوتون فى لجان الندوات منذ ابتداء روما . لكن لا يمكن أن نستخلص من ذلك أنهم كانوا منذ ذلك الوقت محررين تماماً . إذ أنه من الممكن أن البطارقة قد وجدوا مصلحتهم فى إعطاء مواليهم حقوقاً سياسية وجعلهم يصوتون فى اللجان دون أن يوافقوا مع ذلك على إعطائهم حقوقاً مدنية أى على أن يحرروهم من سلطتهم .

---

(١) فستوس تحت لفظ (*patres*) .

(٢) قواعد جوستنيانوس ٣ : ٧ .

(٣) Tite-Live, II, 16: *Atti Clausi clientibus civitas data*, II, 64: *Per patres clientesque patrum consules creati.*

لا يلوح أن الانقلاب الذى حرر الموالى فى روما قد تم واحدة كما فى أثينا دفعة. بل لقد تم ببطء كبير وعلى نهج لا يكاد يحس ودون أن يثبته قانون صريح. فقد تراخت روابط الولاء شيئاً فشيئاً وابتعد المولى عن الولى بتدرج غير محسوس.

قام الملك سرڤيوس بإصلاح كبير لمنفعة الموالى: غيَّر تنظيم الجيش. فقد كان الجيش قبله يسير موزعاً فى قبائل وندوات وفصائل (*gentes*)؛ وكان ذلك هو التوزيع البطريقى؛ كان كل رئيس فصيلة (*gens*) على رأس مواليه. فقسم سرڤيوس الجيش إلى فرق مئينية؛ وكانت لكل واحد مرتبته طبقاً لثروته. فنتج عن ذلك أن المولى لم يعد يسير بجوار وليه، ولم يعد يعترف به رئيساً فى القتال، وتعود على الاستقلال.

وقد جرَّ هذا التغيير تغييراً آخر فى تكوين اللجان. كان المجلس فيما قبل ينقسم إلى ندوات وفصائل (*gentes*) وإذا صوت المولى فإنما كان يصوت برأى من وليه. لكن عندما تقرر التقسيم حسب الفرق المئينية فى اللجان وفى الجيش لم يعد المولى يجد نفسه فى نفس النطاق الذى فيه وليه. حقاً إن القانون القديم لا زال يأمره بأن يصوت مثل وليه، لكن كيف يمكن التحقق من تصويته.

لقد كان كثيراً أن يُفصل المولى عن الولى فى أكثر الأوقات احتفالا فى الحياة: فى وقت القتال وفى وقت التصويت. لقد أصبحت سلطة الولى منتقصة جداً وأصبح ما تبقى له منها موضعاً للجدل كل يوم أكثر من سابقه. وبمجرد أن ذاق المولى طعم الاستقلال أراده كاملا. فتطلع إلى الانفصال عن الفصيلة والدخول فى زمرة السوقة حيث يكون حراً. وكم من الفرص كانت سانحة! كان فى عهد الملوك واثقاً من معونتهم إذ كان خير مطلب لهم هو إضعاف الفصائل. وفى عهد الجمهورية كان يجد حماية السوقة ذاتها وحماية العرفاء. وهكذا تحرر كثير من الموالى ولم تستطع الفصيلة أن تضع يدها عليهم ثانية. وفى سنة ٤٧٢ قبل الميلاد كان عدد الموالى لا يزال على شىء من الجسامة بحيث كانت السوقة تشكو من أنهم كانوا يُميلون الميزان بأصواتهم فى لجان الفرق المئينية،

إلى جانب البطارقة (١) . وعندما أبت السوقة أن تجند ، حوالى تلك الفترة ، استطاع البطارقة أن يكونوا جيشاً مع مواليهم (٢) ، بيد أنه يلوح أن هؤلاء الموالى لم يكونوا من الكثرة بحيث يزرعون بمفردهم أراضى البطارقة واضطر هؤلاء أن يستعينوا بأذرعة من السوقة (٣). من المحتمل أن إنشاء العرفاء قد عجل بهذه الحركة التدريجية نحو التحرير بضمانه للموالى الآبقين حماة ضد أوليائهم القدماء وبجعله مركز السوقة أشد استمالة وأكثر أمناً . فى سنة ٣٧٢ لم يكن هناك موال واستطاع رجل مثل مانليوس أن يقول للسوقة : «بقدر ما كنتم موالى حول كل ولى بقدر ما ستكونون الآن خصوماً ضد عدو واحد (٤) . » وابتداء من ذلك الوقت لم نعد نرى فى روما هؤلاء الموالى القدماء ، القوم المرتبطين بالفصيلة ارتباطاً وراثياً . وحل محل الولاء القديم ولاء من نوع جديد ، رباط اختيارى يكاد يكون وهمياً ولا يستدعى نفس الالتزامات . ولم يعودوا يميزون فى روما بين الطبقات الثلاث : البطارقة والموالى والسوقة . فلم يبق منها غير اثنين واندمج الموالى فى السوقة .

ويلوح أن آل ماركيلوس (Marcellus) كانوا فرعاً انفصل هكذا عن فصيلة كلوديا *gens* Claudia . كان اسمهم كلوديوس ولكن ما داموا ليسوا بطارقة فمن المحتم أنهم لم يكونوا جزءاً من الفصيلة إلا باعتبارهم موالى . تحرروا فى وقت مبكر وأثروا بوسائل مجهولة لنا؛ وبذلك ارتفعوا أولا إلى مناصب السوقة، ثم إلى مناصب المدينة . وقد بدت الفصيلة كلوديا عدة قرون كما لو كانت قد أنسيت حقوقها القديمة عليهم . بيد أنها تذكرتها يوماً ما فى زمن سيسرون على غير انتظار (٥) . فقد مات أحد عتقاء أو موالى آل ماركيلوس وترك ميراثاً كان يجب بحكم القانون أن يعود للولى . فادعى البطارقة آل كلوديوس أنه

---

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٥٦ .

(٢) ديونيسيوس ٧ : ١٩ ؛ ١٠ : ٢٧ .

(٣) Tite-Live, II, 34: *Inculti per secessionem plebis agri*

(٤) تيتوس ليفيوس ٦ : ٤٨ .

(٥) سيسرون : الخطيب ١ : ٣٩ .

ليس باستطاعة آل ماركيلوس أن يكون لهم موال إذ أنهم كانوا موالى هم أنفسهم . وأن عتقاءهم ، وميراثهم ، يجب أن يهووا فى يد رئيس الفصيلة البطريقية ، وهو دون سواه صاحب الأهلية فى ممارسة حقوق الولاية . وقد أثارت هذه القضية دهشة كبيرة فى الجمهور وحيرت الفقهاء . بل إن سيسرون وجد المسألة غامضة جداً . لكنها لو جاءت قبل ذلك بأربعة قرون لما كانت كذلك ، ولكسب آل كلوديوس قضيتهم . لكن فى عصر سيسرون كان الحق الذى أسسوا عليه مطالبهم قد بلغ من القدم ماجعلهم ينسوه ومكن المحكمة من أن تقضى لآل ماركيلوس . لم يعد للولاء القديم وجود .

الفصل السابع

ثورة ثالثة . السوقة فى المدينة

١ — تاريخ عام لهذه الثورة

أدت التغييرات التى حدثت فى تكوين الأسرة مع مضى الزمن إلى تغييرات أخرى فى تكوين المدينة . فقد ضعفت الأسرة السرية والكهنوتية القديمة . أدى اختفاء حق البكورة إلى فقدان وحدتها وعنفوانها ؛ وأدى تحرر معظم الموالى إلى فقدان الجزء الأكبر من رعاياها . ولم يعد رجال الطبقة الدنيا موزعين فى الفصيلة ، بل يعيشون خارجها ؛ ولذلك كونوا هيئة فيما بينهم . ومن هنا تغير مظهر المدينة . فبدلا من أن تكون ، كما كانت فى الماضى ، مجموعة ضئيلة الارتباط من عدد من الدويلات الصغيرة بقدر ما كان هناك من أسرات أصبح الارتباط قائماً بين البطارقة من أعضاء الفصائل من ناحية وبين رجال الطبقة الدنيا من ناحية أخرى . وهكذا تواجدت هيئتان كبيرتان ومجتمعان متخاصمان . لم يعد الأمر ، كما كان فى العهد الماضى ، نزاعاً غامضاً فى كل أسرة ، بل أصبح حرباً علنية فى كل مدينة . تريد إحدى الطبقتين المحافظة على كيان المدينة الدينى وعلى بقاء الحكومة والكهنوت كذلك فى يد الأسرات المقدسة ، وتريد الأخرى أن تحطم الحواجز القديمة التى كانت تضعها خارج الشرع والدين والمجتمع السياسى .

فى الشطر الأول من النزاع كانت الغلبة للسراة بالمولد . حقاً إنه لم يبق لها رعاياها القدماء وهوت قوتها المادية ، ولكن بقيت لها مكانة ديانتها ، ونظامها المنسق ، وإيلافها الإمرة ، وأثارتها ، وكبرياؤها الموروث . لم يكن يداخلها ريب فى حقها ؛ واعتقدت أنها بدفاعها عن نفسها كانت تدافع عن الدين . ولم يكن للشعب غير كثرة عدده ؛ كانت تعوقه عادة الاحترام التى لم يكن يسهل عليه التخلص

منها ، فضلا عن أنه لم يكن له رؤساء ؛ كان ينقصه كل مبدأ للنظام . كان فى البدء جمهوراً بدون رابط أكثر مما كان هيئة حسنة النظام شديدة القوى . وإذا ما تذكرنا أن الناس لم يكونوا قد وجدوا مبدءا آخر للتجمع غير ديانة الأسرات الوراثية ، وأنه لم تكن قد طرأت بخاطرهم فكرة عن سلطة غير مشتقة من العبادة فإننا نفهم بسهولة أن هذه السوقة ، التى كانت خارج العبادة والديانة ، لم تستطع فى البدء أن تكوّن مجتمعاً منظماً وأنها كانت فى حاجة لكثير من الزمن لكى تجد فى نفسها عناصر للنظام وقواعد للحكومة .

فى البدء لم تر هذه الطبقة الدنيا ، فى حالة ضعفها ، وسيلة أخرى لمحاربة السراة غير أن تواجهها بالملكية .

ففى المدن التى كانت الطبقة الشعبية قد تكونت فيها فى عهد الملوك القدماء ، عاضدت هذه الطبقة الملوك بكل ما ملكت يمناها وشجعتهم على إنماء سلطانهم . وتمسكت ، فى روما ، بإعادة الملكية بعد رومولوس وعينت هوستيليوس (Hostilius) ؛ ونصبت تاركوينيوس الأكبر ملكاً ؛ وأحبت سرفيوس ؛ وتحسرت على تاركوينيوس الفاخر .

وعندما غلب الملوك وأصبحت طبقة السراة صاحبة السيادة ، لم يقتصر الشعب على التحسر على الملكية بل تطلع إلى إعادتها فى صورة أخرى . وفى بلاد الإغريق ، فى القرن السادس ، نجح بصفة عامة فى منح نفسه رؤساء ؛ ولما كان لا يستطيع أن يسميهم ملوكاً لأن هذا اللقب كان يتضمن فكرة الوظائف الدينية ولا يمكن أن تحمله غير الأسرات الكهنوتية فقد سماهم طغاة (tyrans) (١) .

ومهما يكن المعنى الأصلى لهذه الكلمة فإنه من الموثوق به أنها لم تكن مستعارة من لغة الديانة . ولم يكن من المستطاع أن توصف بها الآلهة كما كانوا يفعلون بكلمة ملك . ولم يكن يتلفظ بها فى الأدعية . والواقع أنها كانت تدل على شىء جديد جداً بين الناس ، على سلطة لم تكن مشتقة من العبادة ، على سلطة

---

(١) فى بعض الأحيان كان يترك اسم ملك لهؤلاء الرؤساء الشعبيين إذا كانوا من سلالة الأسرات الدينية : هيرودوت ٥ : ٩٢

لم تقمها الديانة . ويدل ظهور هذه الكلمة فى اللغة الإغريقية على ظهور مبدأ لم تعرفه الأجيال الماضية ، ألا وهو طاعة الإنسان للإنسان . إلى ذلك الحين لم يكن هناك رؤساء للدولة غير أولئك الذين كانوا رؤساء للديانة ، ولم يكن يأمر فى المدينة غير الذين يقدمون القربان ويدعون الآلهة لها . فمن أطاعهم فإنما يطيع القانون الدينى ويقدم الخضوع للمعبود دون سواه . أما طاعة رجل ما ، والسلطة المعطاة لهذا الرجل من قبل رجال آخرين ، أى سلطة بشرية محضة فى أصلها وطبيعتها ، فذلك ما كان يجهله النسباء القدماء ولم يدخل فى الأذهان إلا اليوم الذى ألقت فيه الطبقات الدنيا نير السراة وبحثت عن حكومة جديدة .

ولنذكر بعض أمثلة. ففى قورنثه «كان الشعب يتحمل سيادة الباكخوسيين (Bacchiades) بعناء . فلما شهد كيپسيلوس (Cypsélus) الحقد الذى كانوا يحملونه لهم ورأى الشعب يبحث عن رئيس يقوده إلى التحرير » عرض نفسه ليكون ذلك الرئيس. وقبله الشعب ، وجعله طاغية ، وطرد الباكخوسيين ، وأطاع كيپسيلوس (١). واتخذت ميليتوس (Milet) طاغية شخصاً يدعى ثراسيبولوس (Thrasybule) . وأطاعت ميتيلينه (Mitylène) پيتاكوس (Pittacus) ، وساموس پوليكراتيس (Polycrate) ؛ ونجد طغاة فى أرغوس وإپيدوروس وميغارا وخالكيس (Chalcis) خلال القرن السادس . وكان لسقيوُون (Sicyone) طغاتها خلال مائة وثلاثين عاما كاملة بدون انقطاع (٢) . وبين إغريق إيطاليا نجد طغاة فى كومه (Cumes) وكروتون وسيباريس وفى كل مكان . وفى سيراقوسه ، فى سنة ٤٨٥ ، جعلت الطبقة الدنيا من نفسها سيدة البلاد وطردت طبقة السراة لكنها لم تستطع البقاء ولا الحكم ، وبعد سنة اضطرت أن تتخذ لها طاغية (٣) .

وقد اتبع هؤلاء الطغاة سياسة واحدة فى كل مكان مع تفاوت فى العنف . فيوما ما سأل طاغية من قورنثه طاغية من ميليتوس بعض نصائح عن الحكومة

---

(١) هيرودوت ٥ : ٩٢ . أرسطو . السياسية ٥ : ٩ : ٢٢ . ديودوروس ٧ : ٢ . بوسانياس ٢ : ٣ — ٤ . نيقولا الدمشقى ، قطعة ٥٨ .

(٢) هيرودوت ١ : ٢٠ ؛ ٥ : ٦٧ ، ٦٨ ؛ أرسطو : السياسية ٣ : ٨ : ٣ ؛ ٥ : ٤ : ٥ ؛ ٥ : ٨ : ٤ ؛ بلوتارخوس : صولون ١٤ .

(٣) هيرودوت ٧ : ١٥٥ . ديودوروس ١٣ : ٢٢ . أرسطو ٥ : ٢ : ٦ .

وكل ما أجاب به هذا الأخير أنه قطع سنابل من القمح كانت تزيد ارتفاعاً عن الأخرى . تلك كانت قاعدة سلوكهم أن يطيحوا بالرؤوس العالية وأن يضربوا السراة بالاعتماد فى ذلك على الشعب .

تآمرت السوقة الرومانية أولا لإعادة تاركوينيوس ؛ ثم حاولت أن تنشىء طغاة وألقت بأنظارها على پوبليكولا (Publicola) وسپوريوس كاسيوس (Spurius Cassius) ومانليوس (Manlius) الواحد تلو الآخر . ولا يمكن أن تكون مجرد تشهير تلك التهمة التى كثيراً ما كانت توجهها طبقة السراة لمن يجعل نفسه شعبياً من أبناء طائفتها فإن توجس العظماء يدل على رغبات السوقة .

لكن لا بد لنا من أن نلاحظ جيداً أنه إذا كان الشعب ، فى بلاد الإغريق وفى روما ، يبحث عن إقامة الملكية من سطتها فإن ذلك لم يكن وليد تعلق حقيقى بهذا النظام . فإنه لم يكن يحب الطغاة بقدر ما كان يبغض السراة . كانت الملكية عنده وسيلة للغلبة والانتقام ؛ لكن هذه الحكومة التى لم تخرج إلا من حق القوة ولم تعتمد قط على أية أثارة مقدسة لم يكن لها جذور فى قلوب الأهلين قط . كانوا يتخذون طاغية لداعى النزاع ؛ ثم يتركون له السلطة اعترافاً بالجميل أو بحكم الضرورة . لكن بعد أن تمضى بضع سنوات وتمحى ذكرى حكم الأقلية القاسى كانوا يستطيعون إسقاط الطاغية . لم تنل هذه الحكومة عطف الإغريق إطلاقاً ولم يقبلوها إلا كوسيلة موقتة وإلى أن يجد الحزب الشعبى نظاماً خيراً منها ويشعر بالقدرة على حكم نفسه بنفسه .

كبرت الطبقة الدنيا شيئاً فشيئاً . وهناك أنواع من التقدم تتم فى غموض لكنها تقرر مستقبل طبقة من الناس وتغير مجتمعاً . فحوالى القرن السادس قبل الميلاد رأت بلاد الإغريق وإيطاليا انبثاق منبع جديد للثروة . لم تكن الأرض كافية لكل حاجات الإنسان ؛ واتجهت الأذواق نحو الجمال والترف . حتى الفنون أخذت تولد . وعندئذ أصبحت الصناعة والتجارة شيئاً ضرورياً . فتكونت الثروة المنقولة شيئاً فشيئاً ؛ وسكت العملة ؛ وظهر النقد . وكان ظهور النقد ثورة كبيرة . فلم يكن النقد خاضعاً لنفس شرط الملك التى كانت تخضع لها الأرض . كان طبقاً لتعبير الفقيه ***res nec mancipi*** . كان يمكن أن ينتقل من

يد ليد دون أى إجراء دينى ويصل للسوقة من غير عائق . فلم يكن فى استطاعة الديانة التى طبعت الأرض بطابعها أن تفعل شيئاً ما فى النقد .

وعندئذ عرف أهل الطبقة الدنيا شاغلا آخر غير فلاحة الأرض : فكان هناك صناع وملاحون ورؤساء صناعة وتجار ، ولم يلبث أن وجد بينهم أثرياء . فيا لها من جِدّة فذة ! ففيما مضى لم يكن يستطيع أن يكون مالكاً غير رؤساء الفصائل وحدهم ، وها هم أولاء موال سابقون وبعض السوقة يصبحون أثرياءويبدون عن ترفهم.ثم إن الترف الذى كان يغنى رجل الشعب كان يفقر النسيب؛ ففى كثير من المدن ، وعلى الأخص فى أثينا ، رؤيت فئة من أعضاء هيئة السراة تهوى فى البؤس . فى مجتمع تتحول فيه الثروة لا تلبث درجات الناس أن تنقلب رأساً على عقب .

ونتيجة أخرى لهذا التغيير هى إقامة فوارق ودرجات فى الشعب ذاته ، كما يجب أن يكون فى كل مجتمع بشرى . فبرزت بعض الأسرات ، وكبرت بعض الأسماء شيئاً فشيئاً ، وتكون فى الشعب نوع من السراة؛ولم يكن فى ذلك بأس ؛ فقد كفت السوقة عن أن تكون كتلة مختلطة وابتدأت تشبه هيئة منظمة.ومادامت فيها مراتب فإنها تستطيع أن تتخذ رؤساء دون حاجة إلى اتخاذ أول طامع يطرأ من بين البطارقة ويريد أن يتملك . وسرعان ما أصبح لهؤلاء السراة السوقيين تلك الصفات التى ترافق عادة الثروة المكتسبة من العمل،أى الشعور بالقيمة الشخصية ، والمحبة للحرية الهادئة ، وتلك الروح الحكيمة التى تتمنى ضروب الإصلاح وتخشى المغامرات . وأذعنت العامة لقيادة هذه النخبة التى كانت فخورة بوجودها فيها . وقد رغبت السوقة عن أن يكون لها طغاة بمجرد ما شعرت باستطاعتها من أن تجد فى ضميمها عناصر لحكومة أحسن من تلك . وأخيراً أصبحت الثروة لوقت ما مبدأ لتنظيم إجتماعى كما سنرى بعد قليل .

لازال هناك تغيير يجب الكلام عنه إذ أنه ساعد كثيراً على نمو الطبقة الدنيا، ألا وهو التغيير الذى حدث فى الفن العسكرى . ففى القرون الأولى من تاريخ المدن كانت قوة الجيوش فى الفرسان . وكان المحارب الحقيقى هو الذى يحارب على مركبة أو على جواد . أما المشاة فكانوا قليلى القيمة إذ كانوا قليلى النفع

فى القتال . لذلك احتفظت طبقة السراة القديمة فى كل مكان بحق القتال على ظهر جواد (١) . بل إن الأشراف اتخذوا فى بعض المدن لقب فرسان. فالـ *celeres* من اتباع رومولوس، والفرسان الرومان (chevaliers romains) فى القرون الأولى، كانوا جميعاً من البطارقة . كانت الفروسية هى السلاح النبيل عند القدماء . لـكن المشاة أصبحت رويداً رويداً على شىء من الأهمية . فقد سمح لها التقدم فى صناعة الأسلحة ونشأة النظام العسكرى أن تقاوم الفرسان . وبمجرد الحصول على هذه الخطوة احتلت الصف الأول فى المعارك إذ أنها كانت أطوع لليد وأسهل حركة . فأصبح مشاة الفيالق (legionnaires, hôplites) قوة الجيش منذ ذلك الوقت. وهؤلاء الرجال من السوقة. أضف إلى هذا أن البحرية قد اتسعت على الأخص فى بلاد الإغريق ، وأنه قد شجرت معارك فى البحار ، وكثيراً ما كان مصير مدينة بين يدى مجذفيها، أى السوقة . والطبقة التى لها كفاية من القوة لـكى تدافع عن المجتمع ، لها كفاية من القوة لـكى تكسب فيه حقوقاً وتمارس سلطة مشروعة . فإن الحالة الاجتماعية والسياسية فى أمة ما على صلة دائماً بطبيعة أسلحتها وتكوينها .

وأخيراً نجحت الطبقة الدنيا فى أن يكون لها هى أيضاً ديانتها . ويحق لنا أن نظن أنه كان فى قلب أولئك الرجال هذا الإحساس الدينى الذى لا ينفصل عن طبيعتنا والذى يجعلنا فى حاجة إلى العبادة والصلاة . لذلك كانوا يتألمون من رؤيتهم أنفسهم مبعدين عن الديانة طبقاً للمبدأ العتيق الذى ينص على أن كل إله يتبع أسرة واحدة وأن حق الدعاء لا ينتقل إلا مع الدم . فعملوا على أن تكون لهم عبادة أيضاً .

يستحيل أن ندخل هنا فى تفصيل الجهود التى بذلوها والوسائل التى تصوروها والصعوبات أو الموارد التى اعترضتهم . فقد لبث ذلك العمل فردياً مدة طويلة، ولذلك بقى زمناً طويلا سراً فى ضمير كل فرد ؛ فلا نستطيع أن نبصر غير

---

(١) لاحظ أرسطو أن دستور جميع المدن القديمة ، التى كان الفرسان فيها هم السلاح السائد ، كان يضع السلطة فى يد أقلية من السراة . السياسة ٤ : ٣ : ٢ .

نتائجه . فى بعض الأحيان ، كانت إحدى أسرات السوقة تصنع لنفسها موقداً ؛ إما لأنها تجاسرت على إيقاده من ذاتها وإما لأنها حصلت على النار المقدسة من جهة أخرى ؛ فأصبحت لها عندئذ عبادتها ومقدسها ومعبودها الحامى وكهنوتها على نمط الأسرة البطريقية . وفى بعض الأحيان ، كان للسوقة أن يدخل معابد المدينة دون أن تكون له عبادة منزلية . فى روما كان الذين لا موقد لهم ، وبالتالى ليس لهم عيد منزلى ، يقدمون قربانهم السنوى للإلهة كويرينوس (Quirinus) . وعندما تشبثت الطبقة العليا بإقصاء الطبقة الدنيا عن معابدها أقامت هذه الأخيرة معابد لنفسها . فكان لها فى روما معبد على الأڤينتينوس مخصص لديانا ؛ كان لها معبد للحياء السوقى . وقد تلقت السوقة بحماس العبادات الشرقية التى تدفقت على بلاد الإغريق وإيطاليا ابتداء من القرن السادس ؛ وهى عبادات كالمذهب البوذى لا تستثنى طبقة ولا شعباً . وأخيرا كثيراً ما رؤيت السوقة تصنع لنفسها أشياء مقدسة شبيهة بآلهة الندوات والقبائل البطريقية . وهكذا أقام الملك سرڤيوس مذبحاً فى كل حى لكى تكون للجمهور فرصة لتقديم القرابين. وكذلك أقام البيسيستراتيون (Pisistratides) أنصاب هرمس فى الشوارع وفى ميادين أثينا (٢) . فكانت هذه هى آلهة حكم العامة (الديموقراطية) . لقد كانت السوقة فيما مضى جمهوراً لا عبادة له ، فأصبح لها منذ الآن احتفالاتها الدينية وأعيادها ؛ لقد استطاعت أن تصلى . وذلك شىء كثير فى مجتمع كانت الديانة فيه تخلق كرامة الإنسان .

عندما أتمت الطبقة الدنيا هذه الدرجات المختلفة من التقدم ، وعندما أصبح فى عدادها أثرياء وجنود وكهنة ، وعند ما أصبح لها كل ما يعطى الإنسان الإحساس بقيمته وقوته ، وأخيراً ، عندما أجبرت الطبقة العليا على حسبانها

---

(١) فارون : اللغة اللاتينية ٦ : ١٣ .

(٢) ديونيسيوس ٤ : ٥ . أفلاطون : هيبارخوس . هاربوقراطيون ، تحت كلمة Ἑρμαί

شيئاً ما ، عندئذ أصبح من المستحيل إبقاؤها خارج الحياة الاجتماعية والسياسية ولم تستطع المدينة أن تبقى موصدة الأبواب أمامها زمنا أطول من ذلك .

كان دخول هذه الطبقة الدنيا فى المدينة ثورة ملأت تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا من القرن السابع إلى القرن الخامس . حازت جهود الشعب النصر فى كل مكان ، لكنها لم تحزه بنفس الطريقة ولا بنفس الوسائل فى كل مكان .

هنا ، ثار الشعب بمجرد شعوره بالقوة . فانتضى سلاحه فى يده واقتحم أبواب المدينة التى كان محرماً عليه أن يسكن فيها وعند ما أصبح سيداً طرد الكبراء واحتل منازلهم أو اكتفى بتقرير المساواة فى الحقوق . وهو ما حدث فى سيراقوسه وإريثراى (Erythrées) وميليتوس .

وهناك، على العكس ، استعمل الشعب وسائل أقل عنفاً وأجبر الكبراء على التنازل عن بعض الأمور من غير قتال مسلح بل فقط بالقوة المعنوية التى وهبها له تقدمه الأخير . وعندئذ عينوا مشرعاً وبدلوا الدستور . وذلك ما حدث فى أثينا .

وفى أمكنة أخرى وصلت الطبقة الدنيا إلى هدفها على درجات من غير اضطراب أو انقلاب . فمن ذلك، فى كومه (Cumes) ، كان عدد أعضاء المدينة محدوداً جداً فى البدء فازداد أول مرة بقبول أفراد الشعب الذين كان لهم من الثروة ما يسمح بتغذية جواد . ثم رفعوا بعد ذلك عدد المواطنين إلى الألف . وفى النهاية وصلوا تدريجياً إلى حكم العامة (الديمقراطية) (١) .

وفى بعض البلدان كان قبول السوقة بين المواطنين من عمل الملوك . كذلك كان فى روما . وفى بلاد أخرى ، كان من عمل الطغاة الشعبيين ، وهو ما عمل فى قورنثه وسيقيوُون وأرغوس . وعندما تغلبت طبقة السراة من جديد كانت فى العادة على درجة من الحكمة بحيث تركت للطبقة الدنيا لقب المواطن الذى

---

(١) هيراقليديس فى *Fragments des hist. grecs,* coll. Didot, t. II, p. 217

وهبه لها الملوك والطغاة . وفى ساموس لم يصل السراة إلى نهاية نضالهم ضد الطغاة إلا بتحرير أحط الطبقات . ومن الإفراط فى الإطناب أن نعدد جميع الصور المختلفة التى تمت عليها هذه الثورة الكبيرة . كانت النتيجة واحدة فى كل مكان . نفذت الطبقة الدنيا إلى المدينة وأصبحت جزءاً من الهيئة السياسية .

يعطينا الشاعر ثيوغنيس فكرة على شىء من الجلاء عن هذه الثورة وعن عواقبها . يخبرنا أنه فى موطنه فى ميغارا نوعان من الناس ، يسمى أحدهما طبقة الصالحين *ἀγαθοί* ، وهو فى الواقع الاسم الذى تخلعه على نفسها فى معظم البلدان الإغريقية ، ويسمى الآخر طبقة الطالحين *κακοί* وهو أيضاً الاسم الذى تعودوا أن يطلقوه على الطبقة الدنيا . وهذه الطبقة الأخيرة يصف لنا الشاعر حالتها القديمة : «لم تكن فيما مضى تعرف المحاكم ولا القوانين» ؛ وفى هذا ما يكفى للقول بأنه لم يكن لها حق المدينة . بل لم يكن مسموحاً لهؤلاء الناس أن يقتربوا من البلدة ؛ «كانوا يعيشون فى الخارج كالوحوش» . لم يكونوا يشهدون الأكلات الدينية ؛ ولم يكن لهم حق الزواج من أسرات الصالحين .

لكن كم تغير كل هذا ! اضطربت المراتب ، « ووُضع الطالحون فوق الصالحين » . واختلت العدالة . واختفت القوانين العتيقة ، وحلت مكانها قوانين غريبة فى جدتها . وأصبحت الثروة المطمع الوحيد لرغبات الناس لأنها تهب القوة . يتزوج الرجل النبيل المحتد بابنة الثرى من السوقة ، «والزواج يحدث اختلاط الأصول» .

عبثاً حاول ثيوغنيس وهو من سلالة أسرة من السراة أن يقاوم تيار الأمور . حكم عليه بالنفى وجرد من أملاكه فلم يبق له غير أشعاره للاحتجاج والقتال . لكنه إن كان لا يرجو النصر فإنه لا يشك ، على الأقل ، فى عدالة قضيته ؛ تقبل الهزيمة لكنه حافظ على الشعور بحقه . وفى نظره أن الثورة التى حدثت هى ضرر خلقى بل جريمة . وباعتباره ابن السراة كان يلوح له أن هذه الثورة لا تجد نصيراً فى العدالة ولا الآلهة وأنها إضرار بالدين . يقول : «هجر الآلهة

الأرض ، ولا يخافهم أحد . اختفى عنصر الرجال الأتقياء ؛ لم يعد أحد يعنى بالخالدين » .

إن هذه التحسرات لا تجدى ، وهو يعرف ذلك جيداً. فإذا تأوه هكذا فإنما تأوهه كواجب من واجبات البر ، لأنه تلقى «الأثارة المقدسة» عن القدماء ومن واجبه أن يخلدها . لكن عبثاً يحاول . فإن الأثارة نفسها تؤذن بالذبول وسوف ينسى أبناء النبلاء نبالتهم ، وعما قريب نراهم جميعاً متحدين بأسرات السوقة عن طريق الزواج « سيشربون فى أعيادهم ويأكلون على موائدهم » ، وعما قريب يقتبسون إحساساتهم . فى عصر ثيوغنيس كان التحسر هو كل ما بقى للسراة الإغريق ، وسوف يختفى هذا التحسر بدوره .

والواقع أن النبلاء لم يعودوا بعد ثيوغنيس إلا مجرد ذكرى . استمرت الأسرات الكبيرة تحافظ فى ورع على العبادة المنزلية وذكرى الأسلاف . لكن ذلك كان كل شىء . لا زال هناك أشخاص يلهون بتعداد أجدادهم ؛ لكنهم كانوا يضحكون من هؤلاء الناس (١) . ولقد حافظوا على عادة الكتابة على بعض القبور أن المتوفى من أصل نبيل ؛ لكن لم يبذل أى مسعى لإقامة نظام قد هوى إلى الأبد . يقول إيسوقراط وهو محق فى قوله إن الأسرات الكبيرة ، فى أثينا ، فى عصره ، لم تعد موجودة إلا فى قبورها .

وهكذا تبدلت المدينة القديمة على درجات . كانت فى الأصل تجمعاً من حوالى المائة من رؤساء الأسرات . وفيما بعد ازداد عد المواطنين لأن الفروع الصغرى حصلت على المساواة . وبعد ذلك جاء الموالى المحررون والسوقة وكل هذا الجمهور الذى بقى قروناً خارج الجماعة الدينية والسياسية بل أحياناً خارج سور البلدة المقدس . فأسقطوا الحواجز التى وضعت فى طريقهم ونفذوا إلى المدينة ، وسرعان ما أصبحوا أصحاب السيادة فيها .

---

(١) نستثنى روما حيث احتفظت طبقة النبلاء عند تحولها بالمهابة والقوة .

٢ — تاريخ هـذه الثورة فى أثينا

حكم النسباء أثينا خلال أربعة قرون بعد إسقاط الملكية . والتاريخ صامت فيما يختص بهذه السيادة الطويلة . فلا نعلم عنها إلا شيئاً واحداً هو أنها كانت بغيضة عند الطبقات الدنيا وأن الشعب بذل جهده للخروج من هذا النظام .

حوالى سنة ٦١٢ أيقظ السخط الذى كانوا يرونه عاماً ، والآيات المؤكدة التى كانت تنبىء عن ثورة قريبة ، مطمع أحد النسباء ويدعى كيلون (Cylon) ففكر فى قلب حكومة طائفته وإقامة نفسه طاغية شعبياً . لكن همة الأراخنة قضت على المشروع قبل مولده . غير أن الفتنة استمرت بعده . عبثاً استعمل النسباء كل موارد ديانتهم ؛ عبثاً قالوا إن الآلهة كانت ناقمة وإن الأشباح كانت تظهر ؛ عبثاً طهروا البلدة من جميع جرائم الشعب وأقاموا مذبحين أحدهما للعنف والآخر للوقاحة لكى يهدءوا هذين المعبودين اللذين أثار نفوذهما الخبيث الاضطراب فى النفوس (١) . لم يُجْدِ كل ذلك شيئاً ولم يلطف شعور البغضاء . أحضروا من إقريطش إپيمينيديس (Epiménide) الورع ، وهو شخص خفى الأسرار كانوا يقولون إنه ابن إحدى الإلهات ، وجعلوه يقوم بمجموعة من الاحتفالات التكفيرية ؛ كانوا يأملون ، بالتأثير بهذه الطريقة على خيال الشعب ، أن يحيوا الديانة وبالتالى أن يقووا السراة . لكن الشعب لم يتأثر . لم يعد لديانة النسباء هيبة فى نفسه ؛ فاستمر يطالب بإصلاحات .

وقد استمرت المعارضة اللدود من جانب فقراء الجبل والمعارضة الصابرة من جانب أثرياء الشاطىء ستة عشر عاماً فى حرب عنيفة مع النسباء . وفى النهاية اتفق كل من كان ذا حكمة فى الأحزاب الثلاثة على أن يكلوا إلى صولون العناية بإنهاء هذه المنازعات والعمل على تجنب مصائب أكبر منها . وكان من حظ صولون النادر أنه كان ينتمى فى آن واحد إلى النسباء من حيث مولده وإلى التجار بحكم مشاغل شبابه . وترينا أشعاره أنه كان رجلا متحرراً من نزعات طائفته تحرراً تاماً ؛ وقد كان بحكم روح المصالحة المتأصل فيه ، وميله

---

(١) بلوتارخوس : صولون ١٢ . ديوغينيس لاإرتيوس ١ : ١١٠ . سيسرون : القوانين ٢ : ١١ . أثينايوس ١٣ : ٧٦ .

للثروة والترف ، وحبه للهو ، بعيداً عن النسباء القدماء بعداً كبيراً ومنتميا إلى أثينا الجديدة .

قلنا آنفاً إن صولون بدأ بتحرير الأرض من السيادة القديمة التى كانت لديانة الأسرات النسيبة عليها . فحطم أغلال الولاء . وقد جر مثل هذا التغيير فى الحالة الاجتماعية تغييراً آخر فى النظام السياسى . كان لا بد من الآن فصاعدا أن يكون للطبقات الدنيا ، كما يقول صولون ذاته ، مجناً للدفاع عن حريتهم المستحدثة . هذا المجن هو الحقوق السياسية .

لا زال ينقصنا الشىء الكثير لكى يكون دستور صولون معروفاً لنا بجلاء ، لكنه يبدو على الأقل أن جميع الأثينيين قد أصبحوا منذ الآن جزءاً من مجمع الشعب وأن مجلس الشيوخ لم يعد مكوناً من النسباء دون سواهم ؛ بل يلوح أنه أصبح من المستطاع أن يعين الأراخنة من خارج الطبقة الكهنوتية القديمة. قلبت هذه التجديدات الكبيرة كل القواعد القديمة للمدينة ، فأصوات الانتخاب ومناصب الدولة والكهنوت وإدارة المجتمع ، كل ذلك كان يتحتم على النسيب أن يقتسمه مع رجل الطبقة الدنيا . لم يحسب الدستور الجديد حساباً ما لحقوق المولد . كانت لا تزال هناك طوائف لكنها لم تكن تمتاز إلا بالثراء. عندئذ اختفت سيادة النسباء فلم يعد النسيب شيئاً ما اللهم إلا إذا كان ثرياً ؛ كانت قيمته فى ثرائه لا فى مولده . من الآن استطاع الشاعر أن يقول « من أية أرومة هذا الرجل ؟ — ثرى ؛ أولئك هم اليوم النبلاء » (٢) .

كان للنظام الذى تأسس على ذلك النحو نوعان من الأعداء : النسباء الذين كانوا يتحسرون على امتيازاتهم المفقودة ، والفقراء الذين ظلوا يتألمون من انعدام المساواة .

لم يكد صولون يتم عمله حتى بدأ الاضطراب ، يقول پلوتارخوس : « بدأ الفقراء بمظهر الأعداء الألداء للأثرياء » . لعل الحكومة الجديدة كانت تسوءهم

---

(١) عن الطبقات الأربع الجديدة وعن الأنصبة *Τιμήματα* أنظر بلوتارخوس : صولون ١٨ ؛ أرسطو ، اقتبسه هاربوقراطيون تحت لفظ *Ἱππας* ؛ بوليدوكيس ٨ : ١٢٩ .

(٢) أوريبيديس : الفينيقيات : أليكسيس (Alexis) فى أثينايوس ٤ : ٤٩ .

بقدر ما كانت تسوؤهم حكومة النسباء . هذا وعندما رأوا أن النسباء لا زالوا يستطيعون أن يكونوا أراخنة وشيوخاً ، توهم الكثيرون أن الثورة لم تكتمل. حافظ صولون على الأوضاع الجمهورية ؛ لكن الشعب كان يحمل حقد لا تدبر فيه ضد أوضاع هذه الحكومة التى لم ير فيها خلال أربعة قرون غير تملك السراة . فاقتدى بالكثير من المدن الإغريقية وأراد طاغية

كان پيسيستراتيس (Pisistrate) من سلالة النسباء لكنه كان يهدف إلى غرض من المطمع الشخصى ، فوعد الفقراء باقتسام الأراضى وضمهم إليه . وفى يوم من الأيام ظهر فى المجمع وادعى أنه جرح وطلب أن يعطى له حرس . وقد همّ رجال الطبقات الأولى أن يردوا عليه وأن يرفعوا الستار عن الكذب لكن «السوقة كانت مستعدة للاشتباك لمعاضدة پيسيستراتيس ؛ وعندما رأى الأثرياء ذلك ، فروا هاربين فى غير نظام » . وبذلك كان أحد الأعمال الأولى للمجمع الشعبى المنشأ حديثاً هو مساعدة رجل على أن يكون سيداً للوطن (١) .

هذا ولا يلوح أن حكم پيسيستراتيس قد أتى بأى عائق يحول دون تطور أثينا . بل على العكس كان أهم أثر له أنه وطد الإصلاح الاجتماعى والسياسى الكبير الذى تم أخيراً ، ووقاه من كل ركس (٢) .

لم يبدُ الشعب راغباً قط فى استعادة حريته ؛ فقد قلب اتحاد العظماء الأثرياء پيسيستراتيس مرتين ، واستعاد السلطة مرتين ، وتملك ابنه الأكبر فى أثينا من بعده . وكان لا بد من تدخل جيش اسپرطى فى أتيكا لوضع حد لسيادة الأسرة (٣) .

---

(١) عن الارتباط بين بيسيستراتيس والطبقات الدنيا انظر هيرودوت ١ : ٥٠ ؛ بلوتارخوس : صولون ٢٩ ، ٣٠ ؛ أرسطو : السياسية ٥ : ٤ : ٥ طبعة ديدوص ٥٧١

(٢) يؤكد هيرودوت (١ : ٥٩) وثوقيديديس (٦ : ٥٤) أن بيسيستراتيس حافظ على الدستور والقوانين القائمة أى دستور صولون وقوانينه .

(٣) هيرودوت ٥ : ٦٣ - ٦٥ ؛ ٦ : ١٢٣ ؛ ثوقيديديس ١ : ٢٠ ؛ ٦ : ٥٤ - ٥٩ . يرى هذان المؤرخان بوضوح جلى أن الذى قلب حكم الطغاة هم الاسبرطيون وليس هارموديوس وأرسطوغيتون . وقد حورت الأسطورة الأثينية الوقائع .

وفى لحظة لاحت لطبقة السراة بارقة أمل للاستفادة من سقوط آل پيسيستراتيس لكى تستعيد امتيازاتها . فلم يعجزها النجاح فحسب ، بل إنها تلقت أشد ضربة تحملتها حتى الآن . فإن كليسثينيس (Clisthènes) ، وهو من سلالة هذه الطبقة لكنه من أسرة كانت هذه الطبقة تجللها بالعار ، ويلوح أنها تبرأت منها منذ ثلاثة أجيال ، قد وجد آكد وسيلة ليجردها إلى الأبد مما تبقى لها من قوة (١) .

عندما غير صولون الدستور السياسى أبقى جميع النظام الدينى القديم للمجتمع الأثينى قائماً . وبقى الأهالى موزعين على مائتى أو ثلاثمائة فصيلة ، فى اثنتى عشرة أخوية ، فى أربع قبائل . وكانت لا تزال فى كل من هذه المجموعات ، كما كان فى المدة السالفة ، عبادة وراثية وكاهن من النسباء ورئيس هو نفسه الكاهن . كل ذلك كان بقية ماض يصعب زواله ؛ ومن هنا كانت تستمر الأثارات والسنن والقواعد والفوارق التى سادت فى الحالة الاجتماعية القديمة . هذه الإطارات أقامتها الديانة وهى تحافظ بدورها على الديانة ، أى على سطوة الأسرات الكبيرة . وكان فى كل إطار منها طبقتان من الناس ؛ فمن ناحية ، النسباء الذين يحوزون الكهنوت والسلطة بالوراثة ؛ ومن ناحية أخرى من هم أدنى منهم حالا ، أولئك الذين لم يعودوا موالى ولا خدماً لكن كانت تستبقيهم الديانة تحت سلطة النسيب . عبثاً يقول قانون صولون إن جميع الأثينيين أحرار . فإن الديانة القديمة كانت تمسك بالإنسان عند خروجه من المجمع الذى صوت فيه بحريته وتقول له أنت مرتبط بأحد النسباء عن طريق العبادة ؛ يجب عليك أن تحترمه وأن تبجله وأن تخضع له ؛ جعلك صولون حراً باعتبارك عضواً فى المدينة ، لكنك باعتبارك عضوا فى قبيلة تطيع أحد النسباء ، وباعتبارك عضواً فى أخوية يرأسك نسيب أيضاً ؛ وحتى فى الأسرة ، فى الفصيلة (*gens*) التى ولد فيها أسلافك ، والتى لا تستطيع الخروج منها ، تجد سلطة أحد النسباء مرة أخرى . ما الفائدة من أن القانون السياسى قد جعل

---

(١) يعطينا هيرودوت (٥ : ٦٦ - ٦٩) فكرة جلية جداً عن نضال كليسثينيس ضد إيساغوراس وتحالفه مع الطبقات الدنيا . انظر إيسوقراط *περὶ ἀντιδόσεως* (c.232.)

من هذا الرجل مواطناً إذا كانت الديانة والأخلاق متمسكة بجعله مولى ؟ حقاً إن كثيراً من الرجال وجدوا أنفسهم منذ عدة أجيال خارج هذه النطاقات، سواء لأنهم أتوا من بلاد أجنبية أو لأنهم تخلصوا من الفصيلة أو من القبيلة ليكونوا أحراراً . لكن هؤلاء الرجال كانوا يتألمون من طريق آخر ؛ فقد وجدوا أنفسهم بحكم وضعهم خارج القبائل فى حالة ضعة معنوية تجاه الرجال الآخرين وعلق باستقلالهم نوع من العار .

وإذن فقد كان هناك ، بعد إصلاح صولون السياسى ، إصلاح آخر يتعين القيام به فى دائرة الدين . فقام به كليسثينيس بإحلال عشر قبائل جديدة ، مقسمة إلى عدد معين من الأحياء (dèmes) ، محل القبائل الأربع الدينية القديمة(١).

هذه القبائل ، وهذه الأحياء ، تشبه فى ظاهرها القبائل القديمة والفصائل (*gentes*) . فكان فى كل واحدة من هذه الدوائر عبادة وكاهن وقاض واجتماعات للاحتفالات الدينية ومجامع للمداولة فى المصالح المشتركة(٢) ، لكن المجموعات الجديدة كانت تختلف عن القديمة فى نقطتين جوهريتين . أولا وزع جميع الناس الأحرار فى أثينا ، حتى أولئك الذين لم يكونوا فى القبائل القديمة والفصائل ، فى الإطارات التى شكلها كليسثينيس (٣) : إصلاح كبير منح ديانة لمن كانت لا تزال تنقصه . وأدخل فى جماعة دينية من كانوا مقصيين عن كل جماعة من قبل . ثانياً ، وزع الناس فى القبائل والأحياء لا بحسب مولدهم كما كانوا فى الماضى بل بحسب مسكنهم ؛ ولم يقم للمولد فى ذلك أى وزن ؛ كان الناس متساوين فيها ولم يعودوا يعرفون الامتيازات . والعبادة التى كانت تجتمع القبيلة الجديدة أو الحى للاحتفال بها لم تعد هى العبادة الوراثية لأسرة قديمة ؛ لم يعودوا يجتمعون حول موقد نسيب ، ولم تعد القبيلة أو الحى يمجد نسيباً قديماً باعتباره السلف الإلهى ؛ بل أصبح للقبائل أبطال جدد تحمل أسماءهم وقد اختاروهم من بين

---

(١) هيرودوت ١ : ٦٦ ، ٦٩ .

(٢) أيسخينيس : ضد اكتسيفون ٣١ . ديموسثينيس : ضد أوبوليديس . بوليدوكيس ٨ : ١٩ ، ٩٥ ، ١٠٧ .

(٣) أرسطو : السياسة ٣ : ١ : ١٠ . شارح أيسخينيس طبعة ديدو ص ٥١١ .

شخصيات الزمن العتيق الذى حفظ الشعب لهم ذكرى صالحة ، أما الأحياء فقد اتخذت بدون تمييز بينها زوس حارس السور وأپولون الأبوى آلهة حماة . ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك مبرر لكى يكون الكهنوت وراثياً فى الحى كما كان فى الفصيلة ، ولا مبرر أيضاً لكى يكون الكاهن نسيباً على الدوام . فأصبح منصب الكاهن والرئيس فى المجموعات الجديدة سنوياً وأصبح فى استطاعة كل عضو أن يشغله بدوره .

كان هذا الإصلاح هو الخاتمة التى أدت إلى قلب حكم سراة النسباء . وابتداء من تلك اللحظة لم يعد هناك طبقة دينية ؛ لم تعد هناك امتيازات للمولد ، لا فى السياسة ولا فى الدين . لقد تبدل المجتمع الأثينى تبدلا كاملا (١) .

هذا ولم يكن القضاء على القبائل القديمة ، واستبدال قبائل جديدة بها ، ينفذ إليها جميع الرجال على قدم التساوى فيما بينهم ، حدثاً خاصاً بتاريخ أثينا . فقد حدث نفس التغيير فى قرينه وسيقيوون وإليس (Elis) واسپرطه ، ويحتمل أن يكون كذلك فى كثير من المدن الإغريقية (٢) . لم ير أرسطو من بين جميع الوسائل الخاصة لإضعاف طبقة السراة القديمة وسيلة أنجع من هذه فيقول : «إذا ما أريد تأسيس حكم العامة (الديموقراطية) وجب أن يعمل ما عمله كليسثينيس عند الأثينيين : تقام قبائل جديدة وأخويات جديدة ؛ ويستبدل بقرابين الأسرات الوراثية قرابين مباحة لجميع الناس ، وتخلط بقدر الاستطاعة علاقات الناس فيما بينهم مع العناية بتحطيم كل الجماعات السالفة (٣)» .

---

(١) لم تبطل الأخويات القديمة والفصائل *γένη* . بل بقيت على العكس إلى نهاية التاريخ الإغريقى ؛ يتكلم عنها الخطباء (ديموسثينيس : ضد ماكارتاتوس ١٤ ، ٥٧ ؛ ضد نيأيرا ٦١ ؛ ضد أوبوليديس ٢٣ ، ٥٤ ؛ إيسايوس : ميراث كيرون ١٩) . لا تزال الكتابات تذكر أعمالهم وقراراتهم (Boeckh, t. I, p. 106; t. p. 650; Ross, *Demi*, p. 24; Kohler, N° 598, 599, 600) لكن هذه الأخويات وهذه الفصائل (*γένη*) لم تعد سوى إطارات دينية دون أية قيمة فى النظام السياسى .

(٢) هيرودوت ٥ : ٦٧ ، ٦٨ . أرسطو : السياسة ٧ : ٢ : ١١ . بوسانياس ٥ : ٩ :

(٣) أرسطو : السياسة ٦ : ٢ : ١١ طبعة ديدوص ص ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

وعندما يتم هذا الاصطلاح فى جميع المدن يمكن القول بأن القالب القديم للمجتمع قد تحطم ، وأن هيئة اجتماعية جديدة قد أصبحت فى دور التكوين . هذا التغيير فى الهيكل الاجتماعى الذى أقامته الديانة القديمة الوراثية ، والذى كانت تعلن أنه غير قابل للتحوير ، هو علامة على نهاية نظام المدينة الدينى .

٣ — تاريخ هذه الثورة فى روما

كانت للسوقة فى روما أهمية كبيرة منذ وقت مبكر . فموقع البلدة بين اللاتينيين والسابينيين والأتروسك كان يفرض عليها حرباً مستديمة ؛ وتتطلب الحرب أن يكون بها عدد كبير من الأهالى . لذلك رحب الملوك بجميع الغرباء واستدعوهم دون نظر إلى أصلهم . تتابعت الحروب بلا انقطاع ؛ ولما كانوا بحاجة إلى الرجال فقد كانت النتيجة المألوفة لكل انتصار هى أن ينتزعوا من البلدة المغلوبة أهلها لنقلهم إلى روما . فماذا كان يصبح أمر هؤلاء الرجال الذين كانوا يجلبون هكذا مع الغنيمة ؟ إذا كانت بينهم أسرات كهنوتية وبطريقية سارعت البطارقة إلى ضمهم إليها . أما العامة فإن جزءاً منها كان يدخل فى ولاء الكبراء أو الملك وجزءاً يطرح بين السوقة .

كذلك كانت تدخل عناصر أخرى فى تكوين هذه الطبقة . تدفق كثير من الأجانب على روما كما يحدث فى مكان يجعله مركزه صالحاً للتجارة ، ووجد الساخطون من بلاد السابينيين ومن إترووريا واللاتيوم ملاذاً فيها . كل أولئك كانوا يدخلون فى السوقة . والمولى الذى كان يستطيع التخلص من الفصيلة كان يصبح سوقة . والبطريق الذى يصاهر من هو أدنى من طبقته ، أو الذى يرتكب إحدى هذه الخطايا التى تجلب سقوط الحقوق ، كان يهوى إلى الطبقة الدنيا . وكل نغل كانت تصده ديانة الأسرات الطاهرة ويطرح فى السوقة .

لهذه الأسباب مجتمعة كانت تزداد السوقة عدداً . وقد زاد النزاع الناشب بين البطارقة والملوك فى أهميتها ، وشعرت الملكية والسوقة منذ وقت مبكر أن عدوهما واحد . كان مطمع الملوك هو التخلص من مبادىء الحكم القديمة التى كانت

تقيدهم فى مزاولة سلطتهم ، ومطمع السوقة هو تحطيم الحواجز القديمة التى كانت تنفيهم من الجماعة الدينية والسياسية . فقام بينهما تحالف ثابت ؛ حمى الملوك السوقة ، وعضدت السوقة الملوك .

تضع الأثارات والشواهد العتيقة الخطوات الأولى فى تقدم السوقة فى عهد سرفيوس . ويدل الحقد الذى احتفظ به البطارقة لهذا الملك دلالة كافية عما كانت عليه سياسته . كان أول إصلاح له هو إعطاء الأراضى للسوقة . حقاً إنها لم تكن من الأراضى الرومانية (*ager Romanus*) بل من الأراضى المستولى عليها من العدو ؛ إلا أن هذا لا ينقص من أنه كان من التجديد الخطير أن يمنح بذلك حق الملك على الأرض لأسرات كانت لا تستطيع إلى ذلك اليوم أن تزرع سوى أرض الآخرين (١) .

والأخطر من هذا أنه وضع قوانين للسوقة الذين لم تكن لهم قوانين حتى الآن . وكان معظم هذه القوانين خاصاً بالالتزامات التى يستطيع السوقة أن يتعاقد عليها مع البطريق . فكان بداية شرع مشترك بين الطبقتين ، وبالنسبة للسوقة إبتداء المساواة (٢) .

ثم إن هذا الملك أقام تقسيما جديداً فى المدينة . كون أربع قبائل جديدة وزعت فيها الأهالى كافة حسب المسكن ، دون أن يهدم القبائل الثلاث القديمة حيث كانت الأسرات البطريقية والموالى موزعين طبقاً لمولدهم . سبق أن رأينا هذا الإصلاح فى أثينا وقلنا ما كانت عليه آثاره ؛ لقد كانت هى بذاتها فى روما . فإن السوقة التى لم تكن داخلة فى القبائل القديمة قد قبلت فى القبائل الجديدة (٣) . هذا الجمهور الذى لما يكن مستقراً ، والذى كان نوعاً من الرُّحَّل لا يربطه بالمدينة أى رابط ، هذا الجمهور أصبحت له من الآن أقسامه الثابتة ونظامه المتسق . وتكوين هذه القبائل التى تختلط فيها الطبقتان هو الدلالة الصحيحة على دخول السوقة فى المدينة . وكان لكل قبيلة موقد

(١) تيتوس ليفيوس ١ : ٤٧ . ديونيسيوس ٤ : ١٣ . سبق أن قسم الملوك السالفون الأراضى المستولى عليها من العدو . لكن ليس من الموثوق به أنهم قبلوا السوقة فى القسمة .

(٢) ديونيسيوس ٤ : ١٣ ؛ ٤ : ٤٣ .

(٣) شرحه ٤ : ٢٦ .

وقرابين ؛ وأقام سرفيوس آلهة لاريس (Lares) فى كل تقاطع للشوارع فى البلدة ، وفى كل دائرة فى الريف . فكانت آلهة للذين لم تكن لهم آلهة بحكم المولد. وكان السوقة يحتفل بالأعياد الدينية الخاصة بحيه وقريته (*compitalia, paganalia*) كما كان البطريق يحتفل بقرابين فصيلته وندوته . لقد أصبحت للسوقة ديانة .

وفى الوقت نفسه وقع تغيير كبير فى الاحتفال المقدس بالنثار . فلم يعد الشعب مرتباً حسب الندوات مع إقصاء من لا تقبلهم الندوات ؛ بل مثل فى العملية المقدسة جميع الأحرار من أهالى روما ، جميع أولئك الذين كانت تتكون منهم القبائل الجديدة . ولأول مرة اجتمع الناس كلهم دون تمييز بين البطارقة والموالى والسوقة . وطاف الملك بهذا الجمع المختلط وهو يدفع الأضحية بين يديه وينشد النشيد الاحتفالى ، وعند انتهاء الاحتفال وجد الجميع أنفسهم مواطنين على قدم المساواة .

لم يكن يميز فى روما قبل سرفيوس إلا نوعان من الناس : الطبقة الكهنوتية من البطارقة ، ومعهم مواليهم ، وطبقة السوقة ؛ ولم يكن يُعرف أى تمييز آخر غير الذى أقامته الديانة المتوارثة . وقد خط سرفيوس تقسيما جديداً وهو ذلك التقسيم الذى يقوم على الثروة . فقسم أهالى روما إلى فئتين كبيرتين : كان فى إحداهما أولئك الذين لايملكون شيئاً ما ، وفى الأخرى أولئك الذين يملكون شيئاً. وتنقسم الأولى ذاتها إلى خمس طبقات وزع الناس عليها طبقاً لمقدار ثرائهم (١). وبذلك أدخل سرفيوس فى المجتمع الرومانى مبدأ جديدا كل الجدة . لقد أصبحت الثروة منذ الآن سمة لمراتب الناس كما كانت الديانة من قبل .

---

(١) يعد المؤرخون المحدثون فى العادة ست طبقات . والحق أنه لم يوجد منها غير خمس : سيسرون : الجمهورية ٢ : ٢٢ ؛ أولوس جيليوس ١٠ : ٢٨ . فكان الفرسان ، من جهة ، والمعيلون ، من جهة أخرى، خارج الطبقات . هذا ويجدر أن نلاحظ أنه لم يكن للفظ *classis* فى اللغة القديمة معنى شبيه بمعنى لفظ *classe* (طبقة) فى اللغة الفرنسية ؛ بل كان معناها فرقة من الجيش (فابيوس بيكتور فى أولوس جيليوس ١٠ : ١٥ ؛ شرحه ١ : ١١ ؛ فستوس طبعة ميلر (Müller) ص ١٨٩ و ٢٢٥). وفى ذلك دليل على أن التوزيع الذى قرره سرفيوس كان حربياً أكثر منها سياسياً .

طبق سرفيوس هذا التقسيم للشعب الرومانى على الخدمة العسكرية . فقبله كانت السوقة إذا قاتلت لا تقاتل فى صفوف الفيلق النظامى (légion)، ولكن لما جعل سرفيوس منها ملاكاً ومواطنين ، استطاع أن يجعل منها جنوداً نظاميين أيضاً . لم يعد الجيش مكوناً من الآن من رجال الندوات دون سواهم ، إذ انضم إليه جميع الرجال الأحرار أو على الأقل كل من يملك شيئاً ولم يستمر مقصياً عنه غير المُعْيِلين (prolétaires) . لم تعد مرتبة البطريق أو المولى هى التى تحدد سلاح كل جندى ومكانه فى المعركة. كان الجيش، كالأهالى تماماً، مقسماً إلى طبقات بحسب الثروة . فمن الطبقة الأولى، التى كانت كاملة السلاح ، ومن الطبقتين التاليتين ، اللتين كان لهما على الأقل الترس والخوذة والسيف ، كانت تتكون الصفوف الثلاثة من الفيلق . وكانت الطبقتان الرابعة والخامسة مسلحتين تسليحاً خفيفاً وتكونان هيئة المهاجمين الخفاف (Vélites) والرماة بالمقلاع . وكانت كل طبقة مقسمة إلى فرق تسمى بالفرق المئينية (*centuriae*) . وكانت الطبقة الأولى تحوى ، فيما يقال ، ثمانين فرقة ، والأربع الأخرى كل واحدة عشرين أو ثلاثين . أما الفرسان فكانوا على حدة . وفى هذا المجال أيضاً جدد سرفيوس تجديداً كبيراً . فبينما كان الشبان من البطارقة يؤلفون دون سواهم فرق الفرسان سمح سرفيوس لعدد معين من السوقة اختارهم من أكثرهم ثراء أن يحاربوا على ظهور الجياد . وكون منهم إثنتى عشرة فرقة مئينية جديدة .

هذا ولم يكن من المستطاع المساس بالجيش دون المساس بالدستور السياسى فى نفس الوقت . شعر السوقة أن قيمتهم فى الدولة قد زادت فأصبح لهم سلاح ونظام ورؤساء؛ وكان لكل فرقة مئينية مقدّمها (centurion) ورايتها المقدسة . وكانت هذه المنظمة الحربية دائمة لا يحلها السلم . حقاً إن الجنود كانوا يهجرون الصفوف عند عودتهم من القتال إذ أن القانون كان يحرم عليهم دخول البلدة بهيئة جيش . لكن عند أول إشارة كان يتوجه المواطنون حاملى السلاح إلى حقل مارس حيث يجد كل منهم فرقته ومقدمه ورايته . وقد حدث بعد سرفيوس توليوس بخمسة وعشرين عاماً أن فكروا فى دعوة الجيش دون أن يكون ذلك لغزوة حربية . ولما اجتمع الجيش واتخذ صفوفه ، ولكل فرقة

مقدمها على رأسها ورايتها فى وسطها ، تكلم الحاكم واستخار وجعلهم يصوتون (١) . صوتت أولا الفرق المئينية الست البطريقية وفرق الفرسان السوقة الاثنتا عشرة ؛ ومن بعدها فرق المشاة من الطبقة الأولى ثم الفرق الأخرى بعد ذلك . وهكذا استقر بعد زمن قصير مجمع الفرق المئينية حيث كان لكل من كان جندياً الحق فى التصويت ، وحيث لا يكاد يميز السوقة من البطريق (٢)

غيرت كل هذه الإصلاحات مظهر المدينة الرومانية تغييراً فريداً . بقيت طبقة البطارقة قائمة بعباداتها الموروثة وندواتها ومجلس شيوخها . لكن السوقة

---

(١) يصف ديونيسيوس الهاليكارناسى مظهر هذه المجامع المئينية فى بضع كلمات *Συνήει τὸ πλῆθος εἰςτὸ Ἄρειον πεδίον, ὑπὸ λοχαγοῖς καὶ σημείοις τεταγμένον, ὥσπερ ἐν πολέμῳ* (VII, 59). Cf. Id., VI, 84: *Ἔχοντας τὰ ὅπλα.*

(٢) يبدو لنا أنه مما لا يقبل الجدل أن لجان الفرق المئينية لم تكن سوى اجتماع الجيش الرومانى . والدليل على ذلك هو أولا : أن هذا المجتمع كثيراً ما يسميه الكتاب اللاتينيون بالجيش : *Urbanus exercitus*, Varron, VI, 93: *Cum comitiorum causa exercitus eductus esset.* Tite-Live, XXXIX, 15; *Miles ad suffragia vocatur et comitia centuriata dicuntur*, Ampélius, 48. ثانياً : أن هذه اللجان كانت تدعى بالضبط كما يدعى الجيش عند دخوله الحرب أى على صوت البوق (فارون ٥ : ٩١) بينما يخفق علمان على القلعة أحدهما أحمر لدعوة المشاة والآخر أخضر غامق للفرسان ؛ ثالثاً : أن هذه اللجان كانت تجتمع دائماً فى حقل مارس لأن الجيش لم يكن يستطيع أن يجتمع بداخل البلدة (أولوس جيليوس ١٥ :٢٧) ؛ رابعاً : أنها كانت مكونة من جميع من كانوا يحملون السلاح (ديون كاسيوس ٣٧ : ٢٨) بل يبدو أنهم كانوا يتوجهون إليها ، فى الأصل ، شاكى السلاح (ديونيسيوس ٤ : ٨٤ فى نهايتها) ؛ خامساً أنهم كانوا موزعين فيها فى فرق مئينية ، المشاة من ناحية والفرسان من ناحية أخرى . سادساً : أن كل فرقة مئينية كان على رأسها مقدمها ورايتها (*ὥσπερ ἐν πολέμῳ* ديونيسيوس ٧ : ٥٩) ؛ سابعاً : أن من بلغوا سن الستين لم يكونوا جزءا من الجيش ولم يكن لهم أيضاً حق التصويت فى هذه اللجان ، على الأقل فى القرون الأولى (ماكروبوس ١ : ٥ ؛ فستوس ، تحت لفظ *Depontani*). ولنضف أن لفظ *classis* كان معناه فرقة من الجند وأن كلمة *centuria* كانت تطلق على فرقة عسكرية . ولم يكن المعيلون يظهرون فى هذا المجتمع ؛ بيد أنه لما كان من المعتاد أن يؤلفوا فى الجيش فرقة تستخدم فى الأشغال فقد استطاعوا أيضاً أن يؤلفوا فرقة فى هذه اللجان .

ألفت الاستقلال، والثراء، والسلاح ، والديانة . لم تندمج السوقة فى طبقة السراة لـكنها كبرت بجوارها .

حقاً إن طبقة السراة أخذت بثأرها . بدأت بذبح سرفيوس ؛ وفيما بعد طردت تاركوينيوس. ولقد غُلبت السوقة مع الملـكية .

أجهد السراة أنفسهم فى استرداد كل ما حصلت عليه طبقة السوقة فى عهد الملوك . فكان من أول أعمالهم أن انتزعوا من السوقة الأراضى التى منحها لهم سرفيوس ؛ ويمكن أن نلاحظ أن المبدأ الوحيد الذى تذرعوا به لسلبهم أرضهم على هذا النحو هو أنهم كانوا سوقة (١) . وإذن فقد أعاد السراة المبدأ القديم إلى سابق عنفوانه ، ذلك الذى كان يرمى إلى أن تكون الديانة الموروثة دون سواها أساساً لحق المِلك ، والذى لم يكن يسمح بتمكين الرجل الذى لا دين له ولا أسلاف له من ممارسة أى حق على الأرض .

وقد سحبت أيضاً القوانين التى عملها سرفيوس للسوقة . وإذا كان نظام الطبقات ومجمع الفرق المئينية لم يبطلا فإنما كان مرجع ذلك أولا إلى أن حالة الحرب لم تكن تسمح بتفكيك نظام الجيش ، وثانياً لأنهم عرفوا كيف يحيطون هذه اللجان باجراءاتمن شأنها أن تجعل البطارقة سادة الانتخابات. لم يجرؤوا على انتزاع لقب المواطنين من السوقة ، تركوهم يمثلون فى الإحصاء. لـكن من الجلى أن طبقة البطارقة عندما سمحت للسوقة أن تكون جزءاً من المدينة لم تقتسم معها الحقوق السياسية ولا الديانة ولا القوانين. بقيت فى المدينة بالاسم فحسب ، ولـكنها كانت قد أقصيت عنها بالفعل .

يجدر ألا نتجاوز المعقول فى اتهام البطارقة وألا نظن أنهم رسموا ببرود خطة لاضطهاد السوقة وسحقها . فإن البطريق هو سلالة أسرة مقدسة ، وشاعر بأنه وارث عبادة ، لم يكن يفهم نظاماً اجتماعياً غير ذلك الذى رسمت الديانة القديمة قواعده . فى نظره ، كان العنصر المـكون لـكل مجتمع هو الفصيلة (*gens*) بعبادتها ورئيسها الوراثى ومواليها . وعنده أن المدينة لا تستطيع أن تكون شيئاً غير

---

(١) كاسيوس همينا (Hémina) فى نونيوس ، الكتاب ٢ ، لفظ *Plevitas*

جماعة من رؤساء الفصائل . لا يدخل فى ذهنه أنه فى الإمكان أن يكون هناك نظام سياسى آخر غير ذلك الذى يقوم على العبادة ، وحكام آخرون غير أولئك الذين يقدمون القرابين العامة ، ولا قوانين أخرى غير تلك التى أملت الديانة صيغتها المقدسة . بل كان يجب ألا يعترض عليه بأن للسوقة ديانة أيضاً ، منذ فترة وجيزة ، وأنهم يقدمون القرابين للاريس (Lares) التى أقيمت فى مفارق الطرق . إذ أنه كان يجيب بأنه ليس لهذه العبادة الصفة الجوهرية للديانة الحقيقية ، وأنها ليست وراثية ، وأن مواقدها لم تكن نيراناً عتيقة ، وأن هذه الآلهة اللاريس لم تكن أسلافاً حقيقية . وكان يضيف أن السوقة بإعطاء أنفسهم عبادة عملوا ما لم يكن يحق لهم عمله ، وأنهم لكى يتخذوا لأنفسهم عبادة قد خرقوا جميع المبادىء ، وأنهم لم يأخذوا إلا مظاهرة العبادة الخارجية وحذفوا منها المبدأ الجوهرى وهو الوراثة ، وفى النهاية ، أن ما يحاكون به الديانة هو نقيض الديانة من جميع الوجوه .

أدى تشبث البطريق بفكرة أن الديانة الموروثة هى التى يجب أن تحكم الناس دون سواها إلى أنه لم ير إمكان قيام حكومة من السوقة . ولم يكن يدرك أن فى استطاعة السلطة الاجتماعية أن تباشر نفوذها على هذه الفئة من الناس بطريقة نظامية . لم يكن فى الاستطاعة تطبيق القانون المقدس عليهم ، فقد كانت العدالة أرضاً مقدسة محرمة عليهم . طالما كان هناك ملوك فقد أخذوا على أنفسهم أن يحكموا السوقة ، وتصرفوا طبقاً لقواعد معينة أعثرتهم فيها الحاجة والمصلحة العامة ولا صلة بينها وبين الديانة القديمة . لكن الديانة استعادت سلطانها بفضل الثورة التى طردت الملوك وانتهى الأمر ، بحكم الضرورة ، بأن طُرحت جميع طبقة السوقه خارج القوانين الاجتماعية .

وعندئذ اتخذت طبقة البطارقة لنفسها حكومة متفقة مع مبادئها هى . لكنها لم تفكر فى إقامة حكومة للسوقة . لم تجد الجرأة لطردها من روما ، لكنها لم تجد كذلك الوسيلة لتجعل منها مجتمعاً منتظماً . وهكذا رؤيت فى وسط روما آلاف من الأسرات ليست لها قوانين ثابتة ولا نظام اجتماعى ولا مناصب فى الدولة ، قامت المدينة ، وهى الشعب (*populus*) أى المجتمع البطريقى ومن بقى له

من مواليه ، قوية ، منظمة ، جليلة . وحولها يعيش جمهور السوقة الذى لم يكن شعباً ولا يكوِّن هيئة . وكان القناصل ، رؤساء المدينة البطريقية ، يحافظون على النظام المادى بين هؤلاء الأهالى غير المنظمين ؛ أما السوقة فكانت تطيع ، ولضعفها وفقرها على العموم كانت تنحنى تحت قوة الهيئة البطريقية .

كانت المعضلة التى يقرر حلها مستقبل روما هى الآتية : كيف تصبح السوقة مجتمعاً نظامياً .

هذا ولم تكن البطارقة ترى وهى تحت سيطرة مبادىء دينها الصارمة غير وسيلة واحدة لحل هذه المعضلة وهى إدخال السوقة فى نطاق الفصيلة المقدس عن طريق الولاء . ويلوح لنا أن محاولة قد بذلت فى هذا الاتجاه . فإن مسألة الديون التى هيجت روما فى تلك الفترة لا يمكن تفسيرها إلا إذا رأينا فيها مسألة أشد خطورة هى مسألة الولاء والعبودية (servage) . لم يعد فى استطاعة السوقة الرومانية أن تعيش بعد أن جردت من أراضيها . وحسب البطارقة أنهم سيسقطونها فى حبالتهم عن طريق التضحية ببعض المال . اقترض رجل السوقة ، وباقتراضه سلم نفسه للدائن وارتبط به بعملية كان الرومان يطلقون عليها اسم نكسوم (*nexum*) وهو نوع من البيع كان يجرى *per aes et libram* (بالرطل والميزان) ، أى مع الإجراءات الاحتفالية التى كانت تستعمل فى العادة لمنح رجل حق الملك على شىء ما (١) . حقاً إن السوقة كان يتخذ الضمانات ضد الاستعباد . فكان يشترط بعقد من عقود الذمة (contrat fiduciaire) أن يحتفظ بمرتبته كرجل حر إلى يوم السداد وأنه فى ذلك اليوم يستعيد امتلاكه التام لنفسه بسداد الدين . ولكن إذا أتى ذلك اليوم ولم يوف السوقه بالدين فإنه يفقد الانتفاع بعقده وحيث أنه قد أصبح *addictus* (٢) فإنه يصير تحت رحمة الدائن الذى يأخذه إلى منزله ويجعل منه خادمه . لم يكن البطريق يعتقد فى هذا

---

(١) فارون : اللسان اللاتينى ٧ : ١٠٥ . تيتوس ليفيوس ٨ : ٢٨ . أولوس جيليوس ٢٠ : ١ . فستوس تحت لفظ *Nexum*

(٢) هو اللفظ الاصطلاحى للمدين الذى يوقع عليه التنفيذ البدنى عند عدم وفاء الدين . ـ المعرب

كله أنه يعمل عملا منافياً للإنسانية ؛ إذ أن المثل الأعلى للمجتمع فى نظره هو نظام الفصيلة . لم يكن يرى شيئاً أكثر انطباقاً على الشرع ولا أجمل من أن يستدرج الناس إليها بأية وسيلة كانت : لو نجح فى مشروعه لا ختفت طبقة السوقة فى وقت قصير ولما كانت المدينة الرومانية غير مجتمع من الفصائل البطريقية تقتسم جمهور الموالى .

لـكن هذا الولاء كان غُلاً يفزع السوقة منه . فكان يناوص البطريق المسلح بدينه والذى كان يريد أن يدخله فى هذا الولاء ، إذ أن الولاء كان بالنسبة له مرادفاً للرق ؛ وكان يرى منزل البطريق سجناً (*ergastulum*) . وفى أكثر من مرة كان السوقة ، عند ما يضع البطريق يده عليه ، يلتمس سنداً من أشباهه ويثير السوقة وهو ينادى أنه رجل حر ويستشهد بالجروح التى تلقاها فى المعارك دفاعاً عن روما . لم يؤد حساب البطارقة إلا إلى إثارة السوقة ، فإنها قد رأت الخطر وتطلعت بكل قوتها إلى الخروج من هذه الحال القلقة التى وضعها فيها سقوط الحكومة الملـكية . فأرادت أن تكون لها قوانين وحقوق .

ولكن لا ياوح أن هؤلاء الناس تمنوا فى البدء أن يشاركوا فى قوانين البطارقة وحقوقهم . ربما كانوا يعتقدون كما كان يعتقد البطارقة أنفسهم أنه ليس بمستطاع أن يكون هناك شىء مشترك بين الطبقتين . ما من أحد كان يفكر فى المساواة المدنية والسياسية . لم يكن ارتفاع السوقة إلى مستوى البطارقة ليدخل فى ذهن سوقة القرون الأولى أكثر مما كان يدخل فى ذهن البطريق . لم يكن هؤلاء الناس يطالبون بالمساواة فى الحقوق والقوانين بل الأمثل أنهم كانوا يفضلون فى البدء انفصالا تاماً . لم يجدوا فى روما علاجاً لآلامهم ؛ لم يجدوا غير وسيلة للخروج من حطتهم ألا وهى الابتعاد عن روما .

ويؤدى المؤرخ القديم فكرتهم أداء حسناً عندما ينسب إليهم هذا الحديث : « حيث أن البطارقة يريدون امتلاك المدينة دون سواهم فليتمتعوا بها وفق راحتهم . بالنسبة لنا ، ليست روما شيئاً ما . ليس لنا هناك مواقد ولا قرابين ولا وطن . إننا لا نهجر غير بلدة أجنبية ، لا تربطنا بهذا المـكان أية ديانة موروثة . كل أرض

صالحة لنا ؛ حيث نجد الحرية هناك يكون وطننا .» (١) وذهبوا للإقامة على الأكمة المقدسة خارج حدود زمام روما (*ager romanus*) .

أمام عمل كهذا تشعبت عواطف مجلس الشيوخ . فأظهر أشد البطارقة تحمساً أن رحيل السوقة أبعد من أن يثير شجوبهم . سيبقى البطارقة ، منذ الآن ، وحدهم فى روما مع الموالى الذين لا يزالون أوفياء لهم . إن روما ستتنازل عن عظمتها المقبلة لكن البطارقة سيكونون سادة فيها . ليس لهم أن يهتموا بعد الآن بهذه السوقة التى لا يمكن أن تنطبق عليها قواعد الحكومة العادية ، والتى كانت موضع حيرة المدينة . بل ربما كان الأوجب طردها فى ذات الوقت الذى طُرد فيه الملوك ؛ وما دام رأيها قد استقر على الابتعاد فمن الواجب تركها تنفذ رأيها والابتهاج بذلك .

لكن آخرين ، أقل وفاء للمبادىء القديمة أو أكثر اهتماماً بالعظمة الرومانية ، جزعوا لرحيل السوقة . كانت روما تفقد نصف جنودها ، فماذا يكون أمرها بين اللاتينيين والسابينيين والأتروسك وكلهم أعداؤها ؟ كان للسوقة نفعها فلماذا لا يعرفون كيف يستخدمونها لصوالح المدينة ؟ وإذ فقد تمنى هؤلاء الشيوخ أن تعاد إلى المدينة هذه الآلاف من الأيدى التى كانت قوة الفيالق فى مقابل بضع تضحيات ربما كانوا لا يدركون كل عواقبها .

ومن ناحية أخرى ، لمحت السوقة بعد بضعة شهور أنها لا تستطيع أن تعيش على الأكمة المقدسة. حقاً لقد كانت تحصل على اللوازم المادية لوجودها لكن كان ينقصها كل ما يكوّن مجتمعاً منظماً. لم تكن تستطيع أن تؤسس هناك بلدة إذ لم يكن لديها بيت نار (بريتانيون) موقدة طبقاً للنظام يجد فيه رجل الدولة فرصة لتقديم القربان. لم يكن باستطاعتها أن تجد أساساً للقوانين الاجتماعية إذ أن القوانين الوحيدة التى كانت تخطر فى بال الإنسان عندئذ ، كانت مشتقة من الديانة البطريقية . وعلى الجملة لم تكن فيها العناصر اللازمة لإنشاء مدينة . رأت السوقة أنها أصبحت

(١) ديونيسيوس ٦ : ٤٥ ، ٦ : ٧٩

أكثر استقلالا لكنها لم تكن أسعد حالا ، ولم تكن تكوّن مجتمعاً أكثر انتظاماً عما كانت عليه فى روما، وأن المعضلة التى كانت تهتم بها اهتماما شديداً لم تحل بذلك. فلم يكن ابتعادها عن روما مجدياً فى شيء ما؛ولم تكن عزلة الأكمة المقدسةهى التى تستطيع أن تجد فيها القوانين والحقوق التى كانت تتطلع إليها .

وإن فقد حدث أنه وإن لم يكن هناك شيء مشترك بين طبقتى السوقة والبطارقة إلا أنه لم يكن فى استطاعة إحداهما أن تعيش بدون الأخرى . فتقاربتا وعقدتا معاهدة تحالف . ويلوح أن هذه المعاهدة عقدت بنفس الصورة التى كانت تعقد بها المعاهدات التى تنهى حرباً بين شعبين مختلفين ؛ والواقع أن طبقتى السوقة والبطارقة لم تكونا شعباً واحداً ولا مدينة واحدة (١) . لم يوافق البطارقة بمقتضى هذه المعاهدة على أن يكون السوقة جزءاً من المدينة الدينية والسياسية . بل يلوح أن السوقة لم يطلبوا ذلك . وإنما اتفقوا فقط على أن تنظم السوقة فى هيئة مجتمع وأن يكون لهم رؤساء من طبقتهم (٢). ذلك هو أصل منصب عرفاء السوقة (tribunat de la plèbe) ، وهو نظام جديد لا يشبه ما كانت تعرفه المدن من قبل فى شيء .

لم تكن سلطة العريف من نفس طبيعة سلطة رجل الدولة . ولم تشتق من عبادة المدينة . لم يكن العريف يقوم بأى احتفال دينى ؛ كان ينتخب دون استخارة ولم تكن موافقة الآلهة ضرورية لتعيينه (٣) ، لم يكن له كرسى من كراسى الندوة (siège curule) ، ولا دثار (toge) أرجوانى ، ولا تاج من أوراق الشجر ، ولا أية علامة من تلك العلامات التى كانت فى جميع المدن القديمة تؤهل رجال الدولة ذوى الصفة الكهنوتية لتبجيل الناس .

---

(١) تيتوس ليفيوس ٤ : ٦ : *Foedere icto cum plebe* ذكر ديونيسيوس (٦ : ٨٩) الفسيالس صراحة . وقد حوفظ فى روما زمناً طويلا على هذا القانون الذى كان يسمى *lex sacrata* . وروى ديونيسيوس بعض مقتبسات منه (٦ : ٨٩ ؛ ١٠ : ٣٢ ؛ ١٠ : ٤٢) ؛ انظر فستوس ص ٣١٨ .

(٢) تيتوس ليفيوس ٢:٣٣ *Concessum ut plebi sui magistratus essent:*

(٣) ديونيسيوس ١٠ : ٤

لم يكونوا يعـــدونه بين رجال الدولةالرومانيين الحقيقيين (١) .

ماذا كانت إذن طبيعة سلطته ، وماذا كان مبدؤها ؟ من الضرورى أن نقصى عن أذهاننا كل الآراء وكل العادات الحديثة وأن ننتقل جهد الطاقة وسط عقائد القدماء . حتى ذلك الوقت ، لم يكن الناس يفهمون السلطة إلا كملحق للكهنوت . فعندما كانوا يريدون أن يقيموا سلطة غير مرتبطة بعبادة ، ورؤساء ليسوا كهنة ، كان لا بد أن يتخيلوا طريقاً ملتوياً فذاً فى نوعه . لذلك كانوا عند تعيين العرفاء الأولين يقومون باحتفال دينى ذى صفة خاصة (٢). لم يصف المؤرخون شعائره . واكتفوا بالقول بأن نتيجته هى جعل هؤلاء العرفاء الأولين مقدسين *sacrosanctii* . يجب ألا نتخذ هـــذا المصطلح بالمعنى المجازى الغامض . فإن كلمة *sacrosanctus* كانت تدل على شيء محدد جداً فى اللغة الدينية عند القدماء . كانت تنطبق على الأشياء المنذورة للآلهة والتى لم يكن يجوز لامرىء أن يمسها لهذا السبب . لم يكن منصب العريف هو المعتبر مبجلا ومقدساً ، بل شخصه. كان جسم العريف ذاته (٣) هو الذى وضع فى صلة مع الآلهة بحيث لم يعد هذا الجسم شيئاً دنيوياً بل شيئاً مقدساً . ومنذئذ لم يعد يستطيع أى إنسان أن يصدمه دون أن يرتكب جريمة التعدى على حدود الآلهة ودون أن يلحق بنفسه دنس *ἄγει ἔνοχος εἶναι* (٤) .

---

(١) بلوتارخوس: مسائل رومانية ٨١ : *Κώλυσιν ἀρχῆς μᾶλλον ἢ ἀρχήν* . يرى تيتوس ليفيوس (٢ : ٥٦) أن العريف كان فى نظر البطريق *privatus, sine imperio, sine magistratu* . وإذن لم تكن كلمة *magistratus* تطبق فى بعض الأحيان على العريف إلا من باب سوء استعمال اللغة . وكان منصب العريف قد تغير تغييراً كبيراً عندما سماه سيسرون ، والحق يقال فى حركة خطابية ، *sanctissimus magistratus* (الدفاع عن سكستيوس ٣٨) .

(٢) أغفل تيتوس ليفيوس الكلام عن هذا الاحتفال غند إنشاء منصب العرفاء لكنه يتكلم غنه عند إعادته سنة ٤٤٩ :
Ipsis quoque tribunis, ut sacrosancti viderentur, relatis quibusdam caerimoniis renovarunt et inviolatos eos kuum religione tum lege fecerunt (III, 53). يبين ديونيسيوس تدخل الديانة بنفس الوضوح (٩ : ٤٧): *Ἱερὰν μεγάλαις ἠσφαλισμένην ἐκ θεῶν ἀνάγκαις*

(٣) ديونيسيوس ٦ : ٨٩ : *Δημάρχων σώματα ἱερὰ καὶ παναγή* . شرحه ٩ : ٤٨ : *Σώμασιν ἱεροῖς*

(٤) شرحه ٦ : ٨٩ : *Τῷ ἄγει ἐνέχεσθαι* زوناراس (Zonaras) ج ١ ص ٥٦

نقل إلينا پلوتارخوس عادة فذة عن هذا الموضوع : يلوح أنهم عندما كانوا يقابلون عريفاً وسط الجمهور كانت القاعدة الدينية تقضى بأن يتطهروا كما لو كانت هذه المقابلة قد دنست أجسامهم (١) . وهى سنة كان لا يزال بعض المتحنثين يلاحظونها فى زمن پلوتارخوس وتعطينا فكرة عن الطريقة التى كانوا ينظرون بها إلى منصب العريف قبله بخمسة قرون .

كانت هذه الصفة المقدسة تلازم جسم العريف طول مدة شغله للوظيفة . وعند مايعيِّن خلفه، كان ينقل إليه هذه الصفة ؛ بالضبط كما كان القنصل ، عند مايعيِّن قناصل آخرين، ينقل إليهم الاستخارات والحق فى القيام بالشعائر المقدسة . وفى سنة ٤٤٩ كان منصب العريف شاغراً لمدة عامين فكان لا بد لتنصيب عرفاء جدد من تجديد الاحتفال المقدس الذىكان قد حدث على الأكمة المقدسة .

لسنا نعرف أفكار القدماء معرفة تكاد تكون كاملة حتى نقول ما إذا كانت هذه الصفة المقدسة قد تجعل من العريف شخصاً ممجداً فى أعين البطارقة أو أنها على العكس كانت تنصبه غرضاً للعنة والفزع . وهذا الظن الثانى أقرب إلى المعقول فى الأزمنة الأولى على الأقل . أما المؤكد على كل حال فهو أن العريف قدأصبح مصوناً صيانة تامة فلم يكن ليد البطريق أن تمسه دون أنتقرف إثماً خطيراً .

وقد أيد أحد القوانين هذه الصيانة.وضمنها ؛ فكان ينص على أنه « ما من أحد يستطيع الاعتداء على عريف ، ولا أن يضربه،ولا أن يقتله » . وأضاف إن « من يسمح لنفسه بعمل من هذه الأعمال نحو العريف يصير نجساً وتصادر أمواله لمنفعة معبد كيريس (Céres) ويمكن قتله دون قصاص (٢)».وينتهى بهذه الصيغة التى ساعد غموضها مساعدة قوية على تقدم منصب العريف فى الزمن المقبل : « ليس لرجل من رجال الدولة،ولا لفرد ما ، أن يعمل شيئاً ضد

---

(١) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٨١ :
Πᾶσι νόμος ἐστὶ καθαίρεσθαι καὶ ἁγνιζεσθαι τὸ σῶμα καθάπερ μεμιασμένον
(٢) ديونيسيوس ٦ : ٨٩ ؛ تيتوس ليفيوس ٣ : ٥٥ .

العريف (١) » . وحلف جميع المواطنين يميناً «على الأشياء المقدسة» تعهدوا فيه بأن يلاحظوا دائماً هذا القانون الغريب ، وتلى كل منهم صيغة دعاء استنزل بها على نفسه غضب الآلهة إذا تعدى حدود القانون وأضاف أن كل من ارتكب اعتداء على عريف «يدنّس أكبر تدنيس» (٢) .

وكان امتياز العصمة من الاعتداء هذا يمتد إلى أبعد مدى يستطيع جسم العريف أن يمد إليه فعله المباشر . فإذا أساء قنصل معاملة أحد السوقة وحكم عليه بالسجن ، أو وضع دائن يده عليه، ظهر العريف ووضع نفسه بينهما (intercessio) وأوقف يد البطريق . منذا الذى يجرؤ على أن «يعمل شيئاً ضد العريف» أو يتعرض للمسه ؟

لكن العريف لم يكن يمارس هذه السلطة الفذة إلاحيث يوجد. أما بعيداً عنه فقد كانت تساء معاملة السوقة . لم يكن له أى أثر على ما يجرى بعيداً عن متناول يده وموقع نظره ومدى كلامه (٣) .

لم يعطِ البطارقة حقوقاً للسوقة . وإنما قبلوا فقط أن يكون بعض السوقة مصانين ؛ بيد أن ذلك كان كافياً ليكون هناك بعض الأمن للجميع . كان العريف بمثابة مذبح حى يرتبط به حق الاستجارة (٤) .

وبالطبع أصبح العرفاء رؤساء للسوقة ، وانتزعوا حق القضاء . وفى الحقيقة لم يكن لهم الحق فى أن يستدعوا أمامهم حتى أحد السوقة ، لـكن كان فى استطاعتهم القبض الجسمانى (٥) . وبمجرد ما يصبح الرجل فى قبضة يدهم كان عليه أن

---

(١) Denys, X, 32 : *Οὔτε ἄρχοντι οὔτε ἰδιώτῃ συνεχωρεῖτο πράττειν οὐδὲν ἐναντίον δημάρχῳ*
قدم ديونيسيوس هذه الجملة باعتبارها مادة من مواد القانون المقدس *lex sacrata*

(٢) Idem, VI, 89: *Ὡς ἄγει τῷ μεγίστῳ ἐνόχοιν*

(٣) *Tribuni antiquitus creati, non juri dicundo nec causis querelis-que de absentibus noscendis, sed intercessionibus faciendis quibus* PRAESENTES *fuissent, ut injuria* QUAE CORAM FIERET *arceretur.*
Aulu-Gelle, XIII, 12.

(٤) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٨١ : *Ὥσπερ βῶμος*

(٥) أولوس جيليوس ١٥ : ٢٧ . ديوينسيوس ٨ : ٨٧ ؛ ٦ : ٩٠

يطيع . بل يكفى أن يكون فى الدائرة التى يسمع صوتهم فيها . فإن كلامهم هذا لم يكن يقاوم بل لا بد من الخضوع له حتى ولو كان المرء بطريقاً أو قنصلا .

لم يكن للعريف فى الأزمنة الأولى أية سلطة سياسية . وحيث أنه لم يكن رجل دولة (magistrat) فإنه لم يكن فى استطاعته أن يدعو الندوات (curies) أو الفرق المئينية للاجتماع . لم يكن له أن يقدم أى اقتراح لمجلس الشيوخ ، بل لم يكن فى فكر أحد فى البدء أنه كان يستطيع المثول فيه . لم يكن هناك أى شىء مشترك بينه وبين المدينة الحقيقية أى بينه وبين المدينة البطريقية حيث لا يعترف له بأى سلطان . إنه لم يكن عريف الشعب ، بل عريف السوقة (١) .

كان هناك إذن كما كان فى الماضى مجتمعان فى روما ، المدينة والسوقة : أحدهما منظم تنظيما قوياً ، له قوانين وحكام ومجالس شيوخ ؛ والآخر بقى جمهوراً لا حق له ولا قانون لكنه كان يجد فى عرفائه المصانين حماة له وقضاة.

ويمكن أن نرى فى السنوات التى تلت ذلك كيف كانت جرأة العرفاء ، وأية إباحة غير متوقعة أباحوها لأنفسهم . ما من شىء كان يسمح لهم بدعوة طبقة السوقة إلى الاجتماع : ومع ذلك فقد دعوها . ما من شىء كان يدعوهم إلى مجلس الشيوخ : جلسوا أولا أمام باب الغرفة ثم فيما بعد فى داخلها . ما من شىء كان يعطيهم الحق فى محاكمة البطارقة : لكنهم حاكموهم وحكموا عليهم . تلك كانت عاقبة هذه العصمة التى كانت تلازم شخصهم المقدس . كل سلطة كانت تسقط أمامهم . لقد تجرد البطارقة من سلاحهم يوم تلوا مع الشعائر الاحتفالية أن كل من يلمس عريفاً يصبح نجساً . قال القانون : لا يفعل أحد شيئاً ضد عريف . فإذا ما دعى هذا العريف السوقة إلى الاجتماع اجتمعت السوقة ؛ وما من أحد يستطيع أن يحل هذا الاجتماع الذى يضعه حضور العريف خارج متناول البطارقة والقوانين . إذا دخل العريف مجلس الشيوخ لن يستطيع أحد أن يخرجه . وإذا قبض على قنصل فلن يستطيع أحد أن يخلصه من يديه .

---

(١) Tite-Live, II, 56, 12: *Tribunos non populi, sed plebis.*

لا شىء يقاوم جرأة عريف . وليس لأحد قوة ضد العريف اللهم إلا أن يكون عريفاً آخر .

وهكذا ، بمجرد ما أصبح للسوقة رؤساء لم تلبث أن أصبحت لها مجامع للشورى . ولم تكن هذه المجامع تشبه فى شىء ما مجامع المدينة البطريقية . كانت السوقة موزعة فى قبائل ؛ وكان المسكن هو الذى يعين مكان كل واحد وليست الديانة أو الثروة . لم يكن المجتمع يبدأ بقربان ؛ لم تكن الديانة تبدو فيه. لم يكونوا يعرفون التنبآت ،ولم يكن يستطيع صوت المتكهن أو الحبر أن يضطر الناس إلى التفرق تلك كانت حقاً لجان السوقة ولم يكن فيها شىء من القواعد القديمة ولا من ديانة البطارقة .

حقاً إن هذه المجامع لم تكن فى البدء تشغل نفسها بمصالح المدينة العامة : إنها لم تكن تعين حكاماً ولا تصدر قوانين . لم تكن تتداول إلا فى مصالح السوقه ولم تكن تعين غير رؤساء السوقة ولا تصدر إلا استفتاءات شعبية . وقد كان فى روما زمناً طويلا سلسلة مزدوجة من القرارات : فتاوى مجلس الشيوخ للبطارقة والاستفتاءات الشعبية للسوقة . لم تكن السوقة خاضعة لفتاوى مجلس الشيوخ ولا البطارقة للاستفتاءات الشعبية . بل كان هناك شعبان فى روما .

كاد ألا يوجد هناك شىء مشترك بين هذين الشعبين اللذين يتواجهان ويعيشان داخل نفس الجدران . لم يكن يستطيع أحد السوقة أن يكون قنصلا للمدينة ولا يستطيع بطريق أن يكون عريفاً للسوقة . لم يكن السوقة يدخل مجمع الندوات ولا البطريق مجمع القبائل (١) .

لقد كانا شعبين لدرجة إن أحدهما لم يكن يفهم الآخر إذ يمكن القول إنه لم يكن بينهما آراء مشتركة . فإذا تكلم البطريق باسم الدين والقوانين ،

---

(١) تيتوس ليفيوس ٢ : ٦٠ . ديونيسيوس ٧ : ١٦ . فستوس تحت لفظ *Scita plebis*. من المفهوم أننا نتكلم عن الأزمنة الأولى . كان البطارقة مقيدين فى القبائل . لكنه لا ريب فى أنهم لم يكونوا يمثلون فى المجامع التى كانت تجتمع بدون استخارات ولا احتفالات دينية ، والتى لم يعترفوا لها بأية قيمة شرعية زمناً طويلا .

أجاب السوقة أنه لا يعرف هذه الديانة الموروثة ولا القوانين المستمدة منها . إذا تذرع البطريق بالعادة المقدسة أجاب السوقة باسم الحق الطبيعى . كل منهما يرد على الآخر الاتهام بالحيف ؛ كان كل منهما عادلا طبقاً لمبادئه هو ، ظالماً طبقاً لمبادىء الآخر وعقائده . كان مجمع الندوات وتجمع الآباء يبدوان للسوقة امتيازات بغيضة . كان البطريق يرى فى مجمع القبائل حشداً تأباه الديانة . كان منصب القنصل للسوقة سلطة عسف وطغيان. وكان منصب العريف فى نظر البطريق شيئاً دنساً ، شاذاً ، ومخالفاً لكافة المبادىء ؛ إنه لا يستطيع أن يفهم مثل هذا الرئيس الذى لم يكن كاهناً والذى كان ينتخب دون استخارات . كان منصب العريف يخل بالنظام المقدس للمدينة . مثله مثل البدعة فى الدين ؛ لقد كان عاراً على الديانة العامة . قال أحد البطارقة « سيكون الآلهة ضدنا طالما ستكون فينا هذه القرحة التى تأكل أبداننا والتى يمتد منها الفساد إلى جميع الهيئة الاجتماعية» . كان تاريخ روما مليئاً لمدة قرن بهذا النوع من سوء التفاهم بين هذين الشعبين اللذين كانا يبدوان كما لو كانا لا يتكلمان لغة واحدة . تمسكت طبقة البطارقة بإبقاء السوقة خارج الهيئة السياسية ؛ ومنحت السوقة نفسها أنظمة خاصة بها . فأصبحت ثنائية الشعب الرومانى كل يوم أكثر جلاء من سابقه .

بيد أنه كان هناك شىء يربط بين هذين الشعبين ، ألا وهو الحرب. كانت طبقة البطارقة حريصة على ألا تحرم نفسها من الجنود . تركت للسوقة لقب مواطن ، لكى تستطيع على الأقل أن تدمجهم فى الفيالق . هذا وقد حرصوا على ألا تمتد عصمة العريف خارج روما ، ولهذا قرروا ألا يخرج عريف من المدينة قط . فكانت السوقة فى الجيش مجرد رعية ، ولم تكن هناك سلطة مزدوجة . أمام العدو كانت روما تعود وحدة من جديد .

ثم إنه بفضل تعودهم ، بعد طرد الملوك ، على جمع الجيش لاستشارته فى المصالح العامة أو فى اختيار رجال الدولة ، أصبحت هناك مجامع مختلطة تمثل فيها السوقة بجوار البطارقة . ونرى فى التاريخ بجلاء أن هذه اللجان المكونة من الفرق المئينية اتخذت أهمية كانت تتزايد دائماً وأصبحت ، بتدرج غير محسوس ، ما كانوا يسمونه اللجان الكبرى .

والواقع أنه فى النزاع الناشب بين مجمع الندوات ومجميع القبائل كان يبدو طبيعياً أن يصبح مجمع الفرق المئينية بمثابة أرض محايدة يوثرون تناقش المصالح العامة فيها .

لم يكن السوقة فقيراً دائماً فكثيراً ما كان ينتمى إلى أسرة أصلها من بلدة أخرى كانت فيها ثرية ومعتبرة ، وقد نقلتها غِيَرُ الحرب إلى روما دون أن تجردها من الثروة ولا من هذا الاحساس بالكرامة الذى يصاحب الثروة فى العادة. كما أن السوقة كان يستطيع فى بعض الأحيان أن يثرى من عمله وعلى الأخص فى زمن الملوك . عندما قسم سرڤيوس الأهالى إلى فئات حسب ثروتهم ، دخل بعض السوقة فى الفئة الأولى . لم يجرؤ البطارقة أو لم يستطيعوا أن يلغوا هذا التقسيم إلى فئات . لم يكن الأمر يخلو إذن من سوقة يحاربون مع البطارقة جنباً لجنب فى الصفوف الأولى ، ويصوتون معهم فى الفرق المئينية الأولى .

هذه الطبقة ذات الثروة والشمم والفطنة أيضاً ، والتى لا يمكن أن ترتضى الفتن ، ولا بد أنها كانت تخشاها ، والتى كانت تخسر كثيراً إذا سقطت روما وتكسب كثيراً إذا ارتفعت ، هــذه الطبقة كانت واسطة طبيعية بين الطبقتين العدوتين .

لا يلوح أن طبقة السوقة قد شعرت بأى مضض لرؤيتها قيام فوارق الثروة فى باطنها . وبعد إنشاء منصب العرفاء بستة وثلاثين عاماً رفع عدد العرفاء إلى عشرة لـكى يكون هناك اثنان من كل طبقة من الطبقات الخمس وإذن تكون السوقة قد قبلت التقسيم الذى قرره سرڤيوس وتمسكت بالمحافظة عليه . وحتى الفقراء الذين لم تشملهم هذه الفئات، لم تسمع منهم أية مطالبة ؛ بل تركوا لمن هم أكثر منهم رخاء امتيازهم ، ولم يطالبوا بأن يختار منهم عرفاء هم أيضاً .

أما البطارقة فإن هذه الأهمية التى اتخذتها الثروة لم تزعجهم إلا قليلا ، إذ أنهم كانوا أثرياء بدورهم. لقد كان البطارقة أكثر حكمة أو أسعد حظاً من نسباء أثينا ، الذين هووا إلى العدم يوم أصبحت إدارة المجتمع تابعة للثروة ، فإنهم لم يهملوا الزراعة ولا التجارة ولا حتى الصناعة نفسها . فكان انماء ثروتهم هو اهتمامهم الـكبير على الدوام ، وكان العمل والتقشف والمضاربة الحسنة من

فضائلهم دائماً . هذا وقد زاد فى أملاكهم كل نصر على العدو وكل فتح جديد. لذلك لم يروا فى ارتباط السلطة بالثروة ضرراً بليغاً .

كان من عادة البطارقة وخلقهم ألا يحتقروا ثرياً حتى ولو كان من السوقة . كان الثرى من السوقة يقترب منهم ويعيش معهم ، وتقوم بينه وبينهم صلات عديدة من المنفعة أو الصداقة . كان السوقة يُفهِّم البطريق أمانى السوقة وحقوقهم بالتدريج . وانتهى البطريق بأن استسلم للاقتناع ، ووصل تدريجياً إلى تكوين رأى عن تفوقه أقل صلابة وأقل غطرسة . لم يعد واثقاً كل الثقة من حقه كما كان من قبل . هذا وعندما يحدث أن يشك سراة فى أن سلطانهم مشروع إما أن يفقدوا الشجاعة فى الدفاع عنه وإما أن يدافعوا عنه دفاعاً سيئاً . منذ اللحظة التى لا يوءمن فيها البطريق بامتيازاته يمكن القول إن طبقة البطارقة توشك أن تغلب على أمرها .

يلوح أنه كان للطبقة الثرية نوع آخر من التأثير على طبقة السوقة التى خرجت منها والتى لما تنفصل عنها . حيث أنها كانت لها مصلحة فى عظمة روما فإنها كانت تتمنى اتحاد الطبقتين . فضلا عن أنها كانت طموحة ، وكان يتراءى لها أن فصل الطبقتين فصلا قاطعاً يحد مستقبلها إلى الأبد، إذ يربطها إلى الأبد بالطبقة الدنيا ، بينما كان اتحادهما يفتح لها طريقاً لا يمكن روءية نهايته . فكانت تجهد نفسها إذن فى توجيه أفكار السوقة وأمانيها فى اتجاه آخر . فبدلا من التشبث بتكوين طبقة منفصلة ، وبدلا من تجشم العناء فى منح نفسها قوانين خاصة لن تعترف بها الطبقة الأخرى إطلاقاً ، وبدلا من العمل ببطء عن طريق الاستفتاءات الشعبية فى إنشاء قوانين لاستعمالها واعداد مجموعة قوانين لن تكون لها قيمة رسمية على الإطلاق ، أوحت إليها بمطمع التوغل فى المدينة البطريقية والدخول فى اقتسام قوانين البطارقة وأنظمتهم ومناصبهم ؛ وعندئذ اتجهت رغبات السوقة نحو اتحاد الطبقتين بشرط المساواة .

وبمجرد أن سلكت السوقة هذه الطريق ، بدأت المطالبة بمجموعة القوانين . كانت فى روما ، كما فى جميع البلدان ، قوانين مقدسة غير قابلة للتبديل . كانت

هذه القوانين مكتوبة وكان الكهنة يحافظون على نصها (١) . لكن هذه القوانين التى كانت جزءاً من الديانة لم تكن تنطبق إلا على أعضاء المدينة الدينية . لم يكن للسوقة الحق فى معرفتها ويمكن الاعتقاد أنه لم يكن له الحق أيضاً فى الاستناد إليها. وجدت هذه القوانين للندوات (curies) وللفصائل (*gentes*) وللبطارقة ومواليهم لكنها لم توجد لغيرهم . لم تكن تعترف بحق الملك لمن لم تكن له مقدسات *sacra* ؛ لم تكن تمنح حق التقاضى لمن لا ولى له . وهذه الصفة الدينية المحضة فى القانون هى التى أرادت طبقة السوقة أن تمحوها . فلم تقتصر على طلب تحرير القوانين كتابة وجعلها علانية بل طلبت أن تكون هناك قوانين تطبق على البطارقة وعليها هى بالسواء .

يلوح أن العرفاء أرادوا فى البدء أن يكون تحرير هذه القوانين على يد بعض السوقة فأجاب البطارقة إنه من الجلى أن العرفاء كانوا يجهلون ما هو القانون إذ لو كان الأمر غير ذلك لما أبدو مثل هذه الفكرة . قال البطارقة «إنه لمن المستحيل استحالة تامة أن يصدر السوقة قوانين ؛ أنتم الذين لا استخارات لكم ، أنتم الذين لا تقومون بأعمال دينية ، أية صلة بينكم وبين الأشياء المقدسة التى يجب أن يعد القانون من بينها (٢) ؟ » وإذن فقد كان ادعاء السوقة يبدو للبطارقة إثماً وشيئاً ممسوخاً ، لذلك ذكرت الحوليات القديمة ، التى رجع إليها تيتوس ليفيوس وديونيسيوس فى ذلك الموضع من تاريخهما ، عجائب مفزعة : سماء تلتهب ، وأشباح تسبح فى الهواء، وأمطار من الدماء (٣) . لكن الأعجوبة الحقيقية هى أن بعض السوقة قد خطرت ببالهم فكرة سن القوانين . لقد بقيت

---

(١) أما عن وجود تشريع مكتوب قبل لجنة الرجال العشرة فهو ما تشهد به عدة نصوص ، ديونيسيوس ١٠ : ١ ؛ ٣ : ٣٦ ؛ سيسرون : الجمهورية ٢ : ١٤ ؛ بومبونيوس فى المختار (ديجست) ١ : ٢ . وكثير من هذه القوانين القديمة مذكورة فى بلينيوس ١٤ : ١٢ ؛ ٣٢ : ٢ ؛ وسرفيوس: *ad Eclogas* IV, 43; *ad Georg.*, III, 387؛ وفستوس فى مواضع متفرقة .

(٢) تيتوس ليفيوس ٣ : ٣١ . ديونيسيوس ١٠ : ٤

(٣) يوليوس أبسكوينز (Obsequens) ١٦ .

الجمهورية معلقة ثمانى سنوات بين الطبقتين اللتين كانت كل واحدة منهما تدهش لتشبث الأخرى . ثم وجد العرفاء حلا وسطاً فقالوا « ما دمتم لا تريدون أن يكتب القانون أحد السوقة فلنختر الشارعين من الطبقتين ». ومن هنااعتقدوا أنهم سمحوا بالكثير ، لكنه كان قليلا إذا قارناه بصرامة المبادىء التى تنطوى عليها الديانة البطريقية . فرد مجلس الشيوخ بأنه لا يعترض مطلقاً على تحرير مجموعة قوانين ، لكن هذه المجموعة لا يمكن أن يحررها إلا البطارقة . وانتهوا بإيجاد وسيلة للتوفيق بين مصالح السوقة وبين الضرورة الدينية التى كانت تطالب بها طبقة البطارقة : فقرروا أن يكون الشارعون جميعاً من البطارقة لكن مجموعة قوانينهم ستعرض قبل إقرارها وتنفيذها على أعين الجمهور وتخضع للموافقة المبدئية من جانب جميع الطبقات .

ليس هذا بالوقت الذى نحلل فيه مجموعة قوانين لجنة الرجال العشرة . وإنما يكفى أن نلاحظ منذ الآن أن عمل المشرعين قد عرض أولا فى ساحة المدينة وناقشه جميع المواطنين فى حرية ، ثم قبلته بعد ذلك لجان الفرق المئينية أى المجمع الذى تمتزج فيه الطبقتان . فكان ذلك تجديداً خطيراً . لقد أصبح نفس القانون ينطبق على الجميع ما دامت قد أقرته جميع الطبقات . وإنا لا نجد فيما تبقى لنا من هذه المجموعة كلمة واحدة تتضمن عدم المساواة بين السوقة والبطريق سواء فيما يختص بحق الملك أو العقود أو الالتزامات أو الإجراءات . ابتداء من هذه اللحظة مثل السوقة أمام المحكمة نفسها التى يمثل أمامها البطريق ، وتصرف كما يتصرف ، وحوكم بمقتضى القانون الذى يحاكم به . هذا ولا يمكن أن تحدث ثورة أبعد مدى من هذه ؛ فقد تغير فى روما كل شىء : العادات اليومية ، والأخلاق ، وإحساسات الإنسان نحو الإنسان ، وفكرة الكرامة الشخصية ، ومبدأ الحق .

وكانت قد بقيت بضعة قوانين فعينوا عشرة رجال آخرين من بينهم ثلاثة من السوقة . وبعد أن أعلنوا بكل هذا العنف أن الحق فى تحرير القوانين وقف على البطارقة بلغت السرعة فى تقدم الآراء أنه لم ينقض عام واحد حتى قبلوا السوقة بين المشرعين

كانت الأخلاق تتجه نحو المساواة . كانوا فوق منحدر لا يمكن المرء معه أن يمسك نفسه . كان من الضرورى عمل قانون لتحريم الزواج بين الطبقتين : وإنه لدليل قاطع على أن الديانة والأخلاق لم تعودا كافيتين لتحريمه . لكن الوقت لم يكد يتسع لعمل هذا القانون حتى أسقطه السخط العام. وقد تشبث بعض البطارقة بالتذرع بالديانة «سوف يدنس دمنا ويجلب الشنار على العبادة المتوارثة فى كل أسرة ؛ ولن يدرى أحد من أى دم ولد ، وأى القرابين يتبع . سيكون ذلك قلباً لجميع الأنظمة الإلهية والبشرية على السواء » . لم يكن السوقة ليفهموا شيئاً من هذه الأدلة التى لم تكن تبدو لهم غير لباقة فى التحليل لا قيمة لها . فإن نقاش قواعد الإيمان أمام قوم لا دين لهم لجهد ضائع. هذا وقد أجاب العرفاء فى كثير من التوفيق : «إن كانت ديانتكم تتحدث حقاً بمثل هذا العلو فما هى حاجتكم لمثل هذا القانون ؛ إنه لا ينفعكم فى شىء . اسحبوه وستبقون أحراراً كما كنتم من قبل فى عدم المصاهرة مع أسرات السوقة . » وقد سحب القانون وسرعان ما تعدد الزواج بين الطبقتين . وقد كانت الرغبة فى السوقة الأثرياء من الشدة بحيث رأوا آل ليكينيوس (Licinius) ، وسنقتصر فى الكلام عليهم ، يصاهرون ثلاث فصائل من البطارقة : آل فابيوس وآل قورنيليوس وآل مانليوس (١) . وعندئذ استطاعوا أن يعرفوا أن القانون هو الذى كان ، فى لحظة من اللحظات ، الحاجز الوحيد الذى كان يفصل بين الطبقتين . ومنذ الآن اختلط دم البطارقة بدم السوقة .

بمجرد الحصول على المساواة فى الحياة الخاصة كان الجانب الأصعب قد تم وبدا طبيعياً أن توجد المساواة فى الشؤون السياسية أيضاً . فتساءلت طبقة السوقة لماذا حرمت القنصلية عليها ، ولم تعد ترى مبرراً لتقصى عنها إلى الأبد .

بيد أنه كان هناك سبب قوى جداً . لم تكن القنصلية مجرد إمرة بل كانت كهنوتاً . لكى يكون المرء قنصلا لم يكن يكفى أن يقدم ضمانات من الذكاء والشجاعة والنزاهة . بل كان لا بد على الأخص أن يكون أهلا للقيام باحتفالات

---

(١) تيتوس ليفيوس ٥ : ١٢ ؛ ٦ : ٣٤ ؛ ٦ : ٣٩

العبادة العامة . كان لا بد أن تراعى الشعائر جيداً وأن ترضى الآلهة . هذا ولم تكن لغير البطارقة الصفة المقدسة التى تسمح بتلاوة الأدعية وجلب الحماية الإلهية للمدينة . لم يكن بين السوقة والديانة شىء مشترك ؛ فكانت الديانة تحول دون أن يكون السوقة قنصلا ، *plebeium consulem fieri* .

يمكن أن نتصور دهشة البطارقة وسخطها عند ما تقدم السوقة لأول مرة بدعواهم فى أن يكونوا قناصل . لقد بدا لهم أن الديانة مهددة . وقد أجهدوا أنفسهم فى إفهام ذلك للسوقة ، بينوا لهم أية أهمية كانت للديانة فى المدينة وأنها هى التى أسست البلدة ، وهى التى تهيمن على جميع الأعمال العامة ، وهى التى تدير مجامع الشورى وتعطى للدولة حكامها . وأضافوا أن هذه الديانة كانت ، طبقاً للقاعدة العتيقة (*more majorum*) ، ميراث البطارقة ، وأنه لايمكن لسواهم أن يعرف هذه الشعائر أو يمارسها ، وفى الختام أن الآلهة لاتقبل قربان السوقة . اقتراح انشاء قناصل من السوقة إنما هو الرغبة فى القضاء على ديانة المدينة . ستكون العبادة منذ الآن مدنسة ولن تكون المدينة فى سلام مع آلهتها (١) .

عملت طبقة البطارقة بكل جهدها وبكل حذقها لإقصاء السوقة عن مناصبها فى الدولة . فكانت تدافع عن ديانتها وعن سلطتها معاً . بمجرد أن رأت أن الخطر قد حل بالقنصلية وأن السوقة توشك أن تحصل عليها ، فصلت عنها الوظيفة الدينية التى كانت لها الأهمية العظمى بين جميع الوظائف ، تلك الوظيفة التى كانت تقوم بنثار الماء على المواطنين ؛ وبهذا أنشأت وظيفة الرقباء (censeurs) . وفى لحظة بدا لها فيها أنه من الصعب جداً أن تقاوم أمانى السوقة استبدلت بالقنصلية منصب العرفاء الحربيين . هذا وقد أظهرت السوقة صبراً كبيراً ؛ فقد لبثت خمسا وسبعين سنة تنتظر لتحقق رغبتها . ومن الواضح أنها استعملت من الحماس فى الحصول على هذه المناصب العالية أقل مما استعملته فى الحصول على منصب العريف ومجموعة القوانين .

لكن إذا كانت السوقة على شىء من عدم الاكتراث فقد كان هناك سراة من السوقة لهم مطامعهم . ها هى ذى أسطورة من ذلك العصر : «زوج فابيوس

---

(١) تيتوس ليفيوس ٦ : ٤١

أمبوستوس (Fabius Ambustus)، وهومن أوجه البطارقة، ابنتيه: إحداهما البطريق أصبح عريفاً حربياً (tribun militaire) والأخرى لليكينيوس ستولون (Licinius Stolon) وهو من الرجال البارزين لكنه كان سوقة. وقد حدث أن كانت هذه الأخيرة عند أختها عندما كان الحجاب يصاحبون العريف الحربى إلى منزله وقرعوا الباب بحزمهم. ولما كانت تجهل هذه العادة فقد روعت. وعلمت من ضحك أختها وأسئلتها المتهكمة إلى أى حد انحطت مكانتها بالزواج بأحد السوقة، بوضعها فى منزل لم تدخله مظاهر التبجيل والشرف إطلاقاً. وقد أدرك والدها أسباب حزنها وواساها ووعدها بأن ترى فى منزلها يوماً ما مارأت فى منزل أختها وتواطأ مع ختنه وعمل الاثنان لنفس الغرض». وتعلمنا هذه الأسطورة شيئين على الأقل بين بعض التفاصيل الصبيانية التى لا يمكن تصديقها: أحدهما أن سراة السوقة اقتبست مطامع البطارقة وتطلعت إلى مكانتهم لشدة معاشرتها لهم؛ والآخر أنه كان هناك بطارقة يشجعون طموح هؤلاء السراة الجدد الذين اتحدوا معهم بأوثق الروابط ويثيرون مطمعهم.

يلوح أن ليكينيوس وسكستيوس (Sextius)، الذى انضم إليه، حسبا أن السوقة لن تبذل جهوداً عظيمة لإعطائهما الحق فى أن يكونا قنصلين. إذ اعتقدا أن عليهما أن يقترحا ثلاثة قوانين فى وقت واحد. فقد سبق القانون الذى كان الغرض منه تقرير ضرورة اختيار أحد القنصلين من بين السوقة قانونان آخران أنقص أحدهما الديون ومنح الآخر أراضى للشعب. ومن الجلى أن الغرض من القانونين الأولين هو إثارة حماس السوقة للثالث. وقد أتت لحظة كان السوقة فيها ذوى بصيرة نافذة: فأخذوا من اقتراحات ليكينيوس ما كان يخصهم أى تخفيض الديون وتوزيع الأراضى وتركوا القنصلية جانباً. لكن ليكينيوس رد عليهم بأن القوانين الثلاثة غير قابلة للانفصال وأن الواجب قبولها أو رفضها معاً. وكان الدستور الرومانى يبيح مثل هذا الإجراء. ويمكننا أن نعتقد أن السوقة كانوا يؤثرون أن يقبلوا الكل على أن يفقدوا الكل.

لكنه لا يكفى أن تريد السوقة إصدار قوانين؛ بل كان لا بد، فى ذلك

العهد، من أن يدعو مجلس الشيوخ اللجان العظمى ويصدق على القرار بعد ذلك (١). وقد امتنع عن ذلك عشر سنوات . وفى النهاية حدث حادث تركه تيتوس ليفيوس فى ظلام دامس (٢) ؛ يبدو أن السوقة امتشقت السلاح ولطخت الحرب الدامية شوارع روما بالدماء . وقد أصدر البطارقة بعد غلبهم فتوى من مجلس الشيوخ وافق فيها وصدق مقدماً على جميع القرارات التى يصدرها الشعب فى تلك السنة.

لم يعد هناك ما يمنع العرفاء من إجراء التصويت على قوانينهم الثلاثة وابتداء من تلك اللحظة أصبح للسوقة كل عام قنصل من قنصلين ، ولم تلبث أن وصلت إلى المناصب الأخرى . وارتدى السوقة العباءة (toge) الأرجوانية وتقدمته الحزم (faisceaux) ، وقضى بين الناس ، وأصبح عضواً بمجلس الشيوخ ، وحكم المدينة ، وتأمر على الفيالق .

بقيت مناصب الكهنوت ولا يلوح أنه كان فى الاستطاعة انتزاعها من البطارقة ؛ إذ أنه كانت فى الديانة الأولى عقيدة لا تتزعزع وهى أن الحق فى تلاوة الدعاء ولمس الأشياء المقدسة لا ينتقلان إلا مع الدم . وكان علم الشعائر وراثياً كحيازة الآلهة . فكما أن العبادة المنزلية كانت ميراثاً لا يمكن أن يساهم فيه أى أجنبي ،كذلك كانت عبادة المدينة ملكاً قاصراً على الأسرات التى كونت المدينة البدائية . من الموثوق به أنه لم يطرأ فى خاطر أحد فى القرون الأولى من روما أن واحداً من السوقة كان يستطيع أن يكون حبراً .

لكن الأفكار تغيرت . فإن السوقة بحذفها من الديانة قاعدة الوراثة قد اصطنعت ديانة لاستعمالها . منحت نفسها معبودات منزلية (لاريس) ، ومذابح فى مفارق الشوارع ، ومواقد للقبائل . لم يكن لدى البطريق فى البدء غير الاحتقار لهذا التقليد للديانة ؛ لكن ذلك أصبح مع الزمن شيئاً جديداً وانتهى الأمر بالسوقة إلى الإيمان بأنه كفوء للبطريق حتى من ناحية العبادة وبالنسبة للآلهة .

كان هناك مبدءان متعارضان . فقد تشبث البطارقة بالدفاع عن أن الصفة الكهنوتية والحق فى عبادة المعبود وراثيان ؛ وحرر السوقة الديانة والكهنوت من قاعدة

(١) تيتوس ليفيوس ٤ : ٤٩ .
(٢) تيتوس ليفيوس ٦ : ٤٢ .

الميراث القديمة . وكانت تدعى أن كل رجل أهل لتلاوة الدعاء ، وما دام المرء مواطناً فقد كان من حقه القيام باحتفالات عبادة المدينة ؛ ووصلت إلى هذه النتيجة وهى أن السوقة يستطيع أن يكون حبراً .

لو كانت مناصب الكهنوت مستقلة عن الإمرة والسياسية لكان من الجائز ألا ترغب فيها السوقة بمثل هذا الحماس . لكن جميع هذه الأشياء كانت ممتزجة : كان الكاهن حاكما والحبر قاضياً ، وفى استطاعة المستخير أن يفض المجامع العامة . ولم يفت السوقة أن تلاحظ أنه لن تكون لها المساواة المدنية ولا المساواة السياسية بصفة حقيقية من غير المناصب الكهنوتية ولذا طالبت باقتسام منصب الحبر بين الطبقتين كما طالبت باقتسام القنصلية من قبل .

وقد أصبح من الصعب الاعتراض عليها بعجزها الدينى . إذ أنه منذ ستين عاماً وهم يرون السوقة يقدم القرابين باعتباره قنصلا ، ويعمل النثار باعتباره رقيباً ، ويقوم بمراسيم النصر المقدسة عند انتصاره على العدو . لقد انتزعت السوقة جزءاً من الوظائف الكهنوتية عن طريق مناصب الدولة فلم يعد من السهل إنقاذ الباقى منها. كان الإيمان بمبدأ الوراثة الدينية مزعزعاً عند البطارقة أنفسهم . وقد استند بعضهم عبثاً إلى القواعد القديمة وقالوا « سوف تُتبدَّل العبادة وتتلوث بأيد غير جديرة ؛ إنكم تهاجمون الآلهة أنفسهم ؛ احذروا أن يحيق غضبهم ببلدنا (١) . » . لا يلوح أنه كان لهذه الحجج قوة عظيمة على السوقة ولا حتى أنه كان لها أثر على أغلبية البطارقة . فقد كانت الأخلاق الجديدة فى صف المبدأ السوقى . فتقرر أنه منذ الآن سيختار نصف عدد الأحبار والمستخيرين من بين السوقة .

كان ذلك آخر ما استولت عليه الطبقة الدنيا ؛ لم يعد لها ما ترغب فيه .

---

(١) تيتوس ليفيوس ١٠ : ٦ : *Deos visuros ne sacra sua polluantur:* يلوح أن تيتوس ليفيوس كان يعتقد أن هذه الحجة لم تكن إلا خدعة ؛ لكن العقائد لم تكن قد ضعفت فى ذلك العهد إلى ذلك الحد (٣٠١ قبل الميلاد) بحيث يتعذر أن تكون هذه اللغة مخلصة جداً فى أفواه الكثيرين من البطارقة .

لقد فقد البطارقة كل شيء حتى تفوقهم الديني ولم يعد هناك ما يميزهم عن السوقة . ولم تعد طبقة البطارقة غير اسم أو ذكرى ؛ واختفت المبادىء القديمة التى قامت عليها المدينة الرومانية كما قامت عليها جميع المدن القديمة . من هذه الديانة العتيقة الوراثية، التى حكمت الناس زمناً طويلا، وأقامت الفوارق بينهم، لم يعد باقياً غير مظاهرها الخارجية . حاربها السوقة أربعة قرون ، فى عهد الجمهورية ، وفى عهد الملوك ، وتغلب عليها

(١) مناصب ملك القرابين والفلامينيس والسالس والفستاليين التى لم تكن تلازمها أية أهمية سياسية تركت، دون أن ينتج عن ذلك خطر ما، فى أيدى طبقة البطارقة التى بقيت على الدوام طبقة مقدسة لكنها لم تعد طبقة متغلبة .

الفصل الثامن

تغييرات فى القانون الخاص ؛

مجموعة قوانين اللوحات الاثنتى عشرة ؛ مجموعة قوانين صولون

ليس فى طبيعة الشرع أن يكون مطلقاً وغير قابل للتحوير ؛ بل أنه يتغير ويتشكل ككل عمل إنسانى . لكل مجتمع شرعه الذين يتكون ويتطور معه ، ويتغير مثله ، يتبع دائماً حركة أنظمته وعاداته وعقائده .

خضع رجال العصور القديمة لديانة كلما زادت خشونتها زاد سلطانها على نفوسهم . هذه الديانة هى التى عملت لهم شرعهم كما أنها هى التى منحتهم أنظمتهم السياسية . لكن ها هو ذا المجتمع يتبدل . فالنظام الأبوى الذى ولدته هذه الديانة الوراثية قد ذاب مع الزمن فى نظام المدينة . تمزقت الفصيلة (*gens*) تدريجياً وانفصل الأصغر عن الأكبر والخادم عن الرئيس ؛ وكبرت الطبقة الدنيا ؛ وتسلحت ؛ وانتهت إلى التغلب على السراة والاستيلاء على المساواة . وكان لا بد أن يؤدى هذا التغيير فى الحالة الاجتماعية إلى تغيير آخر فى الشرع . إذ أنه بقدر ما كان النسباء والبطارقة متمسكين بديانة الأسرات القديمة ، وبالتالى بالشرع القديم ، بقدر ما كانت الطبقة الدنيا حاقدة على هذه الديانة الوراثية ، التى طالما كانت سبب ضعتهم ، وعلى هذا الشرع العتيق الذى أرهقهم . لم تكن تبغضه فحسب بل إنها لم تفهمه . وحيث أنها لم تكن مؤمنة بالعقائد التى قام عليها فقد بدا لها أن ذلك الشرع قائم على غير أساس ؛ وجدته ظالما ، ومنذ ذلك أصبح من المتعذر بقاؤه .

إذا وضعنا أنفسنا فى الفترة التى كبرت السوقة فيها ودخلت الهيئة السياسية ، وقارنا شرع هذه الفترة بالشرع البدائى فإن تغييرات خطيرة تظهر لأول وهلة ، أولها وأبرزها أن الشرع أصبح علنيا ومعروفاً للجميع . إنه لم يعد ذلك النشيد

المقدس الخفى الذى كانوا يتناقلونه من عصر إلى عصر بذلك الاحترام الورع ، والذى كان يكتبه الكهنة دون سواهم ولا يستطيع أن يعرفه غير رجال الأسرات الدينية. خرج الشرع من كتب الشعائر وأسفار الكهنة ؛ لقد فقد سره الدينى ؛ لقد أصبح لغة يستطيع كل فرد أن يقرأها وأن يتكلمها .

يتجلى فى هذه المجموعات القانونية شىء أكثر من ذلك خطراً . لم تعد طبيعة القانون ومبدؤه كما كانا فى الفترة السالفة . فقد كان القانون قبل ذلك قراراً من الديانة ؛ كان يعتبر وحياً أوحت به الآلهة للأسلاف ، للمؤسس الإلهى ، وللملوك المقدسين ، ولرجال الدولة الكهنة . أما فى المجموعات الجديدة فإن الشارع لم يعد يتكلم باسم الآلهة ؛ لقد تلقت لجنة الرجال العشرة سلطانها من الشعب ؛ والشعب أيضاً هو الذى خلع على صولون حق عمل القوانين . فلم يعد الشارع يمثل الأثارة الدينية بل الإرادة الشعبية . وأصبح مبدأ القانون منذ ذلك الوقت مصلحة الناس ، وأساسه موافقة العدد الأكبر منهم .

ومن هنا نتيجتان : أولا لم يعد القانون يبدو صيغة غير قابلة للتغيير أو النقاش ، بل أصبح عملا إنسانياً ويعترف بأنه عرضة للتغيير . تقول اللوحات الاثنتا عشرة . « إن ما تأمر به أصوات الشعب فى النهاية لهو القانون . » (١) . ولا يوجد بين النصوص التى بقيت لنا من هذه المجموعة نص له من الأهمية أكبر مما لهذا النص ، ولا ما يدل على طابع الثورة التى تمت عندئذ فى الشرع خيراً من دلالته . لم يعد القانون أثارة مقدسة ، *mos* ، بل مجرد نص ، *lex* . وبما أن إرادة الناس هى التى سنته فإن هذه الإرادة نفسها تستطيع أن تغيره .

والنتيجة الأخرى هى هذه : إن القانون الذى كان من قبل جزءاً من الديانة ، والذى كان ، بناء على ذلك ، ميراثاً للأسرات المقدسة أصبح منذ الآن مشتركاً بين جميع المواطنين . استطاع السوقة أن يستند إليه وأن يتقاضى فى المحاكم. وكل ما استطاعه البطريق الرومانى ، باعتباره أشد صلابة وأكثر حيلة من النسيب

---

(١) تيتوس ليفيوس ٧ : ١٧ ؛ ٩ : ٣٣ ، ٣٤ .

الأثيني ، أنه حاول أن يخفى عن الجمهور أشكال إجراءات الدعاوى ؛ لـكن هذه الأشكال لم تلبث أن أذيعت .

وهكذا تغيرت طبيعة الشرع ؛ ولم يعد بعدئذ يستطيع أن يضم نفس الفرائض التى كان يشملها فى الفترة السابقة . طالما كان للديانة سلطان عليه ، نظم علاقات الناس بعضهم ببعض طبقاً لمبادىء هذه الديانة . لـكن الطبقة الدنيا التى جلبت فى المدينة مبادىء أخرى لم تكن تفهم شيئاً من قواعدحق الملك القديمة ، ولا من حق الإرث القديم ، ولا من سلطة الأب المطلقة ، ولامن قرابة العَصَبة . فأرادت أن يختفى ذلك كله .

والحق أنه لا يمكن أن يكون هذا التبديل فى الشرع قد تم دفعة واحدة . لأنه إذا كان فى استطاعة الإنسان ، فى بعض الأحيان ، أن يغير أنظمته السياسية فجأة فإنه لا يستطيع أن يغير قوانينه وشرعه الخاص إلا ببطء وعلى درجات . وهو ما يدل عليه تاريخ الشرع الرومانى كما يدل عليه تاريخ الشرع الأثينى .

كتبت اللوحات الاثنتا عشرة ، كما رأينا آنفاً ، وسط تبدل اجتماعى ؛ إن الذين كتبوها كانوا من البطارقة لـكنهم دونوها بناء على طلب السوقة ولاستعمالها . وإذن لم يكن هذا التشريع هو الشرع الرومانى الأول ؛ ولما يصبح الشرع البريتورى ؛ إنه مرحلة انتقال بين الاثنين .

ها هى ذى أولا النقط التى لما يبتعد التشريع فيها عن الشرع العتيق :

إنه يحافظ على سلطة الأب ؛ يتركه يحاكم ابنه ، ويحكم عليه بالموت ، ويبيعه . وفى أثناء حياة الوالد لا يمكن أن يكون الابن راشداً إطلاقاً .

وفيما يختص بالمواريث يحتفظ بالقواعد القديمة أيضاً ؛ ينتقل الميراث إلى العصبة وعند انعدام العصبة إلى أعضاء الفصيلة (gentiles) . أما الأقارب عن طريق الدم (cognatio) أى الأقارب عن طريق النساء فإن القانون لما يعترف بهم : فهم لا يتوارثون فيما بينهم ؛ لا ترث الأم من الابن ولا الابن من الأم (١).

(١) غايوس ٣ : ١٧ ؛ ٣ : ٢٤ . البيانوس ١٦ : ٤ . سيسرون *De invent.*, I, 5.

وهو يحتفظ للتحرير وللتبنى بالصفة والآثار التى كانت لهذه الأفعال فى الشرع العتيق ؛ كان الابن المحرر يفقد نصيبه فى عبادة الأسرة وينتج عن ذلك أنه كان يفقد حق الإرث .

وها هى ذى الآن النقط التى يبتعد فيها هذا التشريع عن الشرع البدائى :

يقبل صراحة إمكان قسمة الميراث بين الإخوة حيث أنه يمنح الـ *actio familiae erciscundae* (١) .

ويقضى أن الأب لا يستطيع التصرف فى شخص ابنه أكثر من ثلاث مرات ، وأن الابن يصبح حراً بعد بيعه ثلاث مرات (٢). وذلك هو أول تحيف أنزله الشرع الرومانى بالسلطة الأبوية .

وهناك تبديل أخطر من هذا وهو الذى أعطى الإنسان حق الوصية . كان الابن قبل ذلك وارثاً لذاته ووارثاً إجبارياً (sien et nécessaire) ؛ وعند انعدام الابن ، كان يرث أقرب العصبة ؛ وعند انعدام العصبة ، يعود المال إلى الفصيلة (*gens*) بحكم ذكريات الزمن الذى فيه كانت الفصيلة ، وهى إذ ذاك ملتئمة الشمل ، لا تزال المالكة الوحيدة للملك الذى تقاسموه منذئذ . تركت اللوحات الاثنتا عشرة هذه المبادىء الدارسة جانباً ؛ واعتبرت الملك تابعاً للفرد ، وليس للفصيلة كما كان من قبل ؛ فاعترفت للمرء إذن بحق التصرف فى أمواله بالوصية .

وليس المقصود بذلك أن الوصية كانت مجهولة تماماً فى الشرع الأول . فقد كان فى استطاعة الإنسان عندئذ أن يختار موصى له خارجاً عن الفصيلة لكن على شرط أن يعتمد مجلس الندوات اختياره ؛ إذ أنه لم يكن هناك من يستطيع أن يسمح بالانحراف عن النظام الذى أقامته الديانة فيما مضى غير إرادة المدينة. فخلص الشرع الجديد الوصية من هذه القاعدة المضايقة وأعطاها صورة أيسر منها ، هى صورة البيع الصورى . يتظاهر الإنسان ببيع ماله لمن اختاره ليكون الموصى له ؛ وفى الحقيقة أنه قد عمل بذلك وصية دون أن يكون فى حاجة للمثول أمام مجمع الشعب .

---

(١) غايوس فى ديجست ١٠ : ٢ : ١ .

(٢) البيانوس ، قطع ١٠ : ١ .

كان لهذه الصورة من صور الوصية ميزة كبيرة فى أنه كان مسموحاً بها للسوقة . هذا السوقة الذى لم يكن له ، حتى تلك اللحظة ، أية وسيلة للوصية إذ لم تكن بينه وبين الندوات صلة ما (١) ، أصبح يستطيع من الآن أن يستعمل طريقة البيع الصورى وأن يتصرف فى أمواله . وإن أجدر شىء بالملاحظة فى تلك الفترة من تاريخ التشريع الرومانى لهو استطاعة الشرع أن يمد نفوذه وخيراته إلى الطبقات الدنيا وذلك بادخال بعض صور جديدة . فإن القواعد القديمة والإجراءات القديمة لم تستطع ، ولمـّا تستطع ، أن تطبق بطريقة موفقة إلا على الأسرات الدينية ؛ لـكنهم تصوروا قواعد جديدة وإجراءات جديدة يمكن تطبيقها على السوقة .

ولنفس السبب ،وكنتيجة لنفس الحاجة،أدخلت تجديدات فى الجزء من الشرع الذى يتعلق بالزواج . من الجلى أن أسرات السوقة لم تكن تمارس الزواج المقدس،ويمكن الاعتقاد بأن الرابطة الزوجية كانت تقوم عندها على الاتفاق المتبادل بين الطرفين دون سواه (*mutuus consensus*) وعلى المودة التى تواعدا عليهـا (*affectio maritalis*) . لم يكونوا يقومون بأى إجراء مدنى أو دينى .وانتهى الأمر مع مرور الزمن بتغلب هـذا الزواج السوقى فى الأخلاق وفى الشرع . لـكن قوانين المدينة البطريقية لم تكن تعترف له فى الأصل بأية قيمة ، ولقد كانت لذلك عواقب خطيرة ؛ حيث أن السلطة الزوجية والأبوية لم تكن مستمدة فى نظر البطريق إلا من الاحتفال الدينى الذى لقن المرأة عبادة الزوج فقد نتج عن ذلك أنه لم يكن للسوقى مثل تلك السلطة . لم يكن القانون يعترف له بأسرة ، ولم يكن القانون الخاص موجوداً بالنسبة له . وكان ذلك موقفاً لا يمكن أن يدوم . فتوهموا إجراء لاستعمال السوقة ينتج فيما يختص بالعلاقات المدنية نفس الآثار التى كان ينتجها الزواج المقدس . فالجأوا للبيع الصورى كما كان الأمر فى الوصية ؛ كان الزوج يشترى زوجته

---

(١) حقاً لقد كانت هناك الوصية *in procinctu* ؛ لـكن ليست لدينا معلومات كافية عن هذا النوع من الوصية ؛ وربما كانت بالنسبة للوصية فى اللجان المنادى عليها (*calatis comitiis*) كما كان مجمع الفرق المئينية بالنسبة لمجمع الندوات .

(*coemptio*)؛ وعندئذ تصبح معترفاً بها فى الشرع كما لو كانت جزءاً من ملكه (*familia*)، وتصبح «فى يده»؛ وتصبح لها مرتبة البنت فى نظره، تماماً كما لو كان الاحتفال الدينى قد تم (١).

ليس فى مقدورنا أن نؤكد أن هذا الاجراء لم يكن أقدم من اللوحات الاثنتى عشرة. لكنه من المؤكد على الأقل أن التشريع الجديد قد اعترف به كاجراء شرعى؛ وبذلك أعطى للسوقة قانوناً خاصاً شبيهاً من حيث آثاره بقانون البطارقة، ولو أنه يختلف عنه كثيراً من حيث المبادىء.

يقابل عملية الشراء (*coemptio*) عملية المتعة (*usus*=الاستعمال)؛ إنهما صورتان من عملية واحدة. فإنه يمكن الاستحواز على أى شىء بإحدى طريقتين على السواء: الشراء أو الاستعمال؛ وكان الأمر كذلك فيما يختص بالامتلاك الصورى للمرأة. والاستعمال هنا هو المعاشرة لمدة سنة؛ فهى تقيم بين الزوجين نفس الصلات الشرعية التى يقيمها الشراء أو الاحتفال الدينى. ولا ريب أننا لسنا بحاجة إلى أن نضيف أنه لا بد من أن يسبق المعاشرة زواج، على الأقل الزواج السوقى، الذى يتم بالرضاء والمودة من الطرفين. لم يكن الشراء (*coemptio*) ولا المتعة (*usus*) ليخلق الاتحاد المعنوى بين الزوجين، فلم تكن مرتبتهما إلا بعد الزواج الدينى وما كانا يقيمان غير رباط قانونى. إنهما لم يكونا صورتين من الزواج كما ادعى بعضهم تكراراً؛ وإنما كانا وسيلتين للحصول على السلطة الزوجية والأبوية (٢).

هذا وقد كانت للسلطة الزوجية فى الأزمنة العتيقة عواقب أخذ يبدو، فى الفترة من التاريخ التى وصلنا إليها، أنها فوق الطاقة. رأينا أن المرأة كانت خاضعة للزوج دون تحفظ، وكان يبلغ من حق هذا الأخير أنه كان يستطيع التنازل

---

(١) غايوس ١: ١١٣ - ١١٤.

(٢) غايوس ١: ١١١ *Quae anno continuo NUPTA perseverabat*.
كان الشراء (*coemptio*) ضئيل القدر كصورة من صور الزواج بحيث كانت المرأة تستطيع أن تعقده مع شخص آخر غير زوجها كالوصى مثلا.

عنها أو بيعها (١) . ومن ناحية أخرى كانت السلطة الزوجية لا تزال تنتج آثاراً كان يجد العقل السوقى السليم عناء فى فهمها ؛ فقد كانت المرأة،وهى «فى يد» زوجها منفصلة عن أسرة أبيها انفصالا مطلقاً ، ولا ترث منها ، ولا تستبقى معها أية صلة أو قرابة فى نظر القانون . كان ذلك حسناًفى الشرع الأول عندما كانت الديانة تحرم على نفس الشخص أن يكون عضواً فى فصيلتين (*gentes*) وأن يضحى لموقدين وأن يكون وارثاً فى بيتين . لكنهم لم يعودوا يتصورون السلطة الزوجية بهذه الصرامة ، وكان من الجائز أن يكون لنفس الشخص عدة مبررات لكى يريد الخلاص من هذه العواقب القاسية . لذلك ، ولو أن قانون اللوحات الاثنتى عشرة قد قرر أن معاشرة سنة من شأنها أن تضع الزوجة تحت سلطة الرجل ،إلا أنه كان مضطراً إلى ترك الحرية للزوجين فى عدم الارتباط برباط بلغ هذه الدرجة من الصرامة . يكفى أن تقطع المرأة المعاشرة كل سنة ، ولو بغيابها ثلاث ليالى ،لكيلا تقوم السلطة الزوجية . وبذلك كانت المرأة تستبقى صلة شرعية بأسرتها الحقيقية وتستطيع أن ترث منها .

ونرى ،دون أن تكون هناك ضرورة للدخول فى تفاصيل أطول من ذلك ، أن مجموعة قوانين اللوحات الاثنتى عشرة كانت كثيرة البعد ، منذئذ ، عن الشرع الأول . فقد كان التشريع الرومانى يتبدل كما تتبدل الحكومة وكما تتغير الحالة الاجتماعية . وسيحصل تغيير جديد بالتدريج وفى كل جيل تقريباً . وكلما تقدمت الطبقات الدنيا فى النظام السياسى دخل تبديل جديد فى قواعد الشرع ، أولا ، الزواج الذى أصبح مسموحاً به بين البطارقة والسوقة ؛ ثم القانون پاپيريا (*Papiria*) الذى يحرم على المدين أن برهن نفسه للدائن ؛ ثم الإجراءات التى يدخلها التبسيط لمنفعة السوقة نفعاً كبيراً عن طريق قضايا القانون (action de la loi) ؛وفى النهاية البريتور الذى استمر فى السير على النهج

---

(١) غايوس: ١١٧ ، ١١٨ . لا ريب فى أن وضع اليد هذا لم يكن إلا صورياً فى عهد غايوس . لكن من الممكن أنه كان حقيقياً فى الأصل . هذا ولم تكن الحال فى الزواج مجرد الرضاء (*consensus*) كالحال فى الزواج المقدس الذى كان يقيم بين الزوجين رباطا لا ينفصم .

الذى فتحته اللوحات الاثنتا عشرة ورسم بجوار الشرع القديم شرعاً جديداً كل الجدة ، شرعاً لم تكن الديانة لتمليه وسيقترب اقتراباً متزايداً من الشرع الطبيعى .

ظهرت ثورة مماثلة فى الشرع الأثينى . من المعروف أنه قد حررت فى أثينا مجموعتان للقوانين يفصل بينهما ثلاثون عاماً ، الأولى حررها دراكون (Dracon) والثانية حررها صولون . أما مجموعة دراكون فقد كتبت والنضال بين الطبقتين على أشده فى وقت لم يكن النبلاء قد غلبوا فيه . وقد حرر صولون مجموعته فى نفس الوقت الذى تغلبت فيه الطبقة الدنيا ؛ لذلك كان الفرق بين المجموعتين كبيراً .

كان دراكون نسيباً ؛ كانت له كل إحساسات طبقته وكان «على علم بالشرع الدينى» . ولا يبدو أنه عمل أكثر من تقييده العادات القديمة بالكتابة دون أن يغير منها شيئاً . كان قانونه الأول هو الآتى : «يجب تمجيد آلهة البلاد وأبطالها وتقديم القرابين إليها كل عام دون الخروج على الشعائر التى اتبعها الأسلاف» . ولقد احتفظوا بذكرى قوانينه الخاصة بالقتل ، كانت تنص على إقصاء المذنب عن المعابد وتحرم عليه ماء النثار وأوانى الاحتفالات (١) .

ولقد بدت هذه القوانين قاسية للأجيال التالية . والحق أنها كانت من إملاء ديانة صارمة كانت ترى فى كل هفوة إساءة للآلهة ، وفى إساءة الآلهة جريمة لا تغتفر . وكانت السرقة معاقباً عليها بالموت لأن السرقة كانت اعتداء على ديانة الملك .

وقد بقيت لنا من هذا التشريع مادة غريبة ترينا الروح التى وضع بها . فلم تكن تمنح حق المقاضاة عن جريمة إلا لأقرباء الميت وأعضاء فصيلته (٢) . ونرى هنا كم كانت الفصيلة لا تزال قوية فى تلك الفترة ما دامت لم تكن تسمح للمدينة أن تتدخل ، بحكم وظيفتها ، فى شؤونها ولو للاقتصاص لنفسها . كان الإنسان لا يزال ينتمى للأسرة أكثر من انتمائه للمدينة .

---

(١) أولوس جيليوس ١١ : ١٨ . ديموسثينيس : ضد لبتينيس ١٥٨ . بورفيروس : العفة (*De Abstinentia*) ٩ .

(٢) ديموسثينيس : ضد إورغوس (*In Evergum*) ٦٨ - ٧١ ؛ ضد ماكارتاتوس ٣٧ .

نرى من كل ما وصل إلينا من هذا التشريع أن عمله كان قاصراً على نقل نصوص الشرع القديم . فكانت فيه شدة القانون القديم غير المكتوب وصلابته . ويمكن الاعتقاد أنه كان يقيم فاصلا كبيراً جداً بين الطبقات ؛ إذ أن الطبقة الدنيا كانت تمقته دائماً ، وبعد ثلاثين عاماً طالبت بتشريع جديد .

أما مجموعة قوانين صولون فكانت مختلفة اختلافاً كلياً ؛ نرى أنها تطابق ثورة اجتماعية كبيرة . وأول شيء يلاحظ فيها أن القوانين كانت واحدة للجميع . لم تكن تقرر تفريقاً بين النسيب وبين الرجل العادى الحر وبين الوضيع (ثيس thète) . بل إن هذه الألفاظ لا وجود لها فى أية مادة من المواد التى حفظت لنا . ويفاخر صولون فى أشعاره بأنه كتب نفس القوانين للكبار وللصغار على السواء (١) .

تبتعد مجموعة صولون ، كما تبتعد مجموعة اللوحات الاثنتى عشرة ، عن الشرع العتيق فى عدة نقط ؛ وبقيت وفية له فى نقط أخرى . وليس القصد من ذلك أن لجنة الرجال العشرة الرومانية قد نقلت قوانين أثينا ؛ بل إنه لم يكن فى استطاعة التشريعين إلا أن يتشابها باعتبارهما من عمل نفس الفترة ونتيجتين لنفس الثورة الاجتماعية . هذا ولم يكن ذلك التشابه إلا فى روح التشريعين ؛ وتظهر من مقارنة موادهما فوارق متعددة . فهناك نقط تبقى فيها مجموعة صولون أقرب إلى الشرع الأول من اللوحات الاثنتى عشرة ، كما أن هناك نقطاً تبتعد فيها عنه أكثر من ابتعاد اللوحات عنه .

كان الشرع العتيق جداً ينص على أن يكون الابن الأكبر هو الوارث الوحيد لكن قانون صولون يبتعد عنه ويقول فى عبارات صريحة : « يقتسم الإخوة الميراث » . لكن الشارع لما يبتعدْ عن الشرع الأول إلى الحد الذى يعطى فيه الأخت نصيباً فى الميراث ، فيقول « تحدث القسمة بين الأبناء (٢) »

---

(١) *Θεσμοὺς δ᾽ ὁμοίως τῷ κακῷ τε κἀγαθῷ ἔγραψα,* Solon ed. Boissonade, p. 105

(٢) إيسايوس : ميراث أبولودروس ٢٠ ؛ ميراث بيرهوس ٥١ . ديموسثينيس : ضد ماكارتاتوس ٥١ ؛ ضد بويؤوتوس (*in Boeoum*) : البائنة ٢٢ - ٢٤ .

هناك أكثر من ذلك . إذا لم يترك والد غير ابنة فإن هذه الابنة الوحيدة لا تستطيع أن ترث وإنما تعود التركة دائماً لأقرب العَصَبَة . وفى هذا يسير صولون على نهج الشرع القديم ؛ وكل ما نجح فيه أنه منح للبنت التمتع بالميراث بإلزامه الوارث أن يتزوج بها (١) .

كانت القرابة عن طريق النساء مجهولة فى الشرع القديم ؛ وقد قبلها صولون فى الشرع الجديد . لكنه وضعها تحت مرتبة القرابة عن طريق الذكور . ها هو ذا قانونه (٢) «إذا مات والد ولم يترك وارثاً من صلبه غير ابنته يرثه أقرب العصبة ويتزوج البنت . وإذا لم يترك ولداً يرثه أخوه لا أخته ؛ وأخوه الشقيق أو من الصلب وليس أخوه من الرحم . وعند انعدام الإخوة أو أبناء الإخوة ينتقل الإرث إلى الأخت ؛ وإذا لم يكن هناك إخوة ولا أخوات ولا أبناء إخوة يرثه أبناء العم وأبناؤهم ، وإذا لم يوجد أبناء عم (أى أقارب من العصبة : أغناسيون) يتحول الإرث إلى أبناء الأخوال (أى إلى أقارب الدم : الكوغناسيين)» . وهكذا ابتدأ أن يكون للنساء حقوق فى الإرث لكنها أقل من حقوق الرجال ؛ وينص القانون صراحة على هذا المبدأ : «يقصى الذكورُ وذرية الذكور النساءَ وذرية النساء .» وأقل ما فى ذلك أن هذه القرابة قد أصبحت معترفاً بها وأفسحت لنفسها مكاناً فى القوانين ، دليلاً مؤكداً على أن الشرع الطبيعى بدأ يتكلم بصوت يكاد يضارع فى ارتفاعه صوت الديانة القديمة .

كذلك أدخل صولون فى التشريع الأثينى شيئاً جديداً جداً ، ألا وهو الوصية فقد كانت الأملاك تنتقل قبله انتقالا إجبارياً لأقرب العصبة ، أو عند انعدام العصبة ، إلى أعضاء الفصيلة *gennètes* (gentiles =) (٣) . ومصدر ذلك أن الأملاك

---

(١) ايسايوس : ميراث ارسطارخوس ٥ ؛ ميراث كيرون ٣١ ؛ ميراث بيرهوس ٧٤ ؛ ميراث كليؤونيموس ٣٩ . يشير ديودوروس (١٢ : ١٨) إلى قانون لخارونداس شبيه بهذا

(٢) ايسايوس : ميراث هاغنياس ١١ - ١٢ ؛ ميراث ابولودوروس ٢٠ ؛ ديموسثينيس : ضد ماكارتوس ٥١ .

(٣) بلوتارخوس : صولون ١١ : *Ἐν τῷ γένει τοῦ τεθνηκότος ἔδει τὰ χρήματα καταμένειν.*

لم تكن تعتبر ملكاً للفرد بل للأسرة . لكنهم فى عهد صولون أخذوا يدركون حق الملك بشكل آخر ؛ فقد جعل انحلال الفصيلة (γένος) القديمة من كل مِلك ملكاً خاصاً لكل فرد . فسمح الشارع للرجل بالتصرف فى ثروته ، وباختيار من يوصى إليه . بيد أنه وهو يحذف الحق الذى كان للفصيلة (γένος على أملاك كل واحد من أعضائها لم يحذف حق الأسرة الطبيعية . فقد بقى الابن الوارث الإلزامى ؛ وإذا لم يترك المتوفى إلا إبنة لم يكن فى استطاعته أن يختار وارثه إلا بشرط أن يتزوج هذا الوارث البنت ؛ وإذا لم يكن للرجل أطفال فإنه يكون حراً فى الوصية كما يريد (١) . كانت هذه القاعدة الأخيرة جديدة كل الجدة فى الشرع الأثينى . ويمكن أن نرى منها كم كانت لديهم عندئذ من آراء جديدة عن الأسرة وإلى أى حد بدأوا يميزونها عن الفصيلة القديمة

كانت الديانة الأولى قد منحت الوالد سلطة ذات سيادة فى المنزل ؛ ولقد ذهب الشرع العتيق فى أثينا إلى حد السماح له ببيع ابنه أو قتله (٢) . وقد وضع صولون حدوداً لهذه السلطة تمشياً مع الأخلاق الجديدة (٣) . ونعلم علم اليقين أنه حرم على الأب أن يبيع ابنته ، اللهم إلا إذا ارتكبت خطيئة فاحشة ؛ ومن المحتمل أن نفس التحريم كان يحمى الابن . وقد استمرت السلطة الأبوية تزداد ضعفاً كلما فقدت الديانة العتيقة سلطانها : وهو ما حدث فى أثينا مبكراً عن حدوثه فى روما . لذلك لم يكتف الشرع الأثينى بالقول كما قالت اللوحات الاثنتا عشرة : «بعد بيعه ثلاث مرات يصبح الابن حراً» . بل سمح للابن عند بلوغه سناً معينة أن يتخلص من السلطة الأبوية . ولقد انتهت الأخلاق تدريجياً إلى تقرير بلوغ الابن الرشد فى حياة والده ذاتها ، هذا إذا لم تكن القوانين قد أقرته أيضاً . فإنا نعرف قانوناً أثينياً يكلف الابن أن يعول أباه إذا أصبح عجوزاً أو عاجزاً .

---

(١) ايسايوس : ميراث بيرهوس (*De Pyrrhi hered.*) ٦٨ . ديموشينيس : قضية التاج ٢ : ١٤ . بلوتارخوس : صولون ٢١ .

(٢) بلوتارخوس : صولون ١٣ .

(٣) بلوتارخوس : صولون ٢٣ .

ويتضمن مثل هذا القانون، بحكم الضرورة ، استطاعة الابن أن يكون مالكاً ، وبالتالى أن يكون محرراً من السلطة الأبوية . لم يكن هذا القانون موجوداً فى روما، إذ أن الابن لم يكن يملك قط شيئاً ما وبقى على الدوام تحت سلطة الأب

وفيما يختص بالمرأة كان قانون صولون لا يزال متفقاً مع الشرع العتيق عندما حرم عليها أن توصى ؛ إذ أن المرأة لم تكن قط إطلاقاً مالكة حقيقية وما كانت لتستطيع أن يكون لها غير التمتع بالاستعمال والثمار . لكنه ابتعد عن هذا الشرع العتيق عندما سمح للمرأة باسترداد بائنتها (١) .

وكانت هناك تجديدات أخرى فى هذه المجموعة القانونية فإن دراكون لم يمنح حق المقاضاة من أجل الجريمة إلا لأسرة المجنى عليه . أما صولون فقد منحه لكل مواطن (٢) .

وهكذا بدأ الشرع يتبدل فى أثينا كما فى روما . فالمجتمع الجديد قد وُلد له شرع جديد . وما دامت العقائد والأخلاق والأنظمة قد تغيرت فإن القوانين التى بدت من قبل عادلة حسنة لم تعد تبدو كذلك ، وعَـفَتْ شيئا فشيئا .

---

(١) ايسايوس : ميراث بيرهوس ٨ - ٩ ، ٣٧ - ٣٨ . ديموسثينيس : ضد أونيتور ٧ : ٨ ؛ ضد أفوبوس ١ : ١٥ ؛ ضد بويؤوتوس ؛ البائنة ، ٦ ؛ ضد فوينبوس ٢٧ ؛ ضد نيأيرا ١ ، ٥٢ . — لا يمكن التأكيد بأن رد البائنة كان مقرراً منذ عهد صولون ؛ لكنه كان القاعدة فى عصر ايسايوس وديمسثينيس . بيد أنه يجدر ملاحظة أن المبدأ القديم الذى كان يريد أن يكون الزوج مالكاً للأموال التى تحضرها الزوجة معها ظل مدوناً فى القانون (مثال ذلك ديموسثينيس : ضد فوينيبوس ٢٧) . لكن كان يعد الزوج مديناً لأرباب *κύριοι* الزوجة بمبلغ يوازى قيمة البائنة ويرهن أمواله ضماناً لذلك : بوليدوكيس ٣ : ٣٦ ؛ ٨ : ١٤٢ ؛ Boeckh, *Corpus inscript. gr.*, N°s 1037 et 2261

(٢) بلوتارخوس : صولون ١٨ .

الفصل التاسع

مبدأ جديد فى الحكم ، المنفعة العامة والانتخاب

كانت الثورة التى قلبت سيادة الطبقة الكهنوتية ، ورفعت الطبقة الدنيا إلى مستوى رؤساء الفصائل القدماء، بداية فترة جديدة فى تاريخ المدن . لقد تم نوع من التجديد الاجتماعى . فلم تكن طبقة من الناس تحل محل طبقة أخرى فى السلطة فحسب ، بل إنها المبادىء القديمة التى نحيت جانباً وأوشكت قواعد جديدة أن تحكم المجتمعات البشرية .

حقاً إن المدينة قد حافظت على الأشكال الخارجية التى كانت لها فى العصر السالف . فقد بقى النظام الجمهورى ؛ واحتفظ الحكام فى كل مكان تقريباً بأسمائهم القديمة ، فلا زالت لأثينا أراخنتها ولروما قناصلها . ولم يتغير شىء أيضاً من احتفالات الديانة العامة ، فإن أكلات بيت النار (البريتانيون) وتقديم القرابين عند افتتاح المجامع ، والاستخارات ، والأدعية ، كل ذلك قد ظل محفوظاً . فإنه من المألوف فى عادة الإنسان ، عندما ينبذ أنظمة قديمة ، أن يرغب فى المحافظة على مظاهرها على الأقل .

وفى الحقيقة لقد تغير كل شىء . فلم تعد الأنظمة ولا الشرع ولا العقائد ولا الأخلاق ، فى هذه الفترة الجديدة ، كما كانت عليه فى الفترة السابقة . اختفى النظام القديم يجر وراءه القواعد الصارمة التى قررها فى كل شىء . وتأسس نظام جديد ، وتغير وجه الحياة البشرية .

ظلت الديانة قروناً طويلة المبدأ الوحيد للحكومة . فكان لا بد من إيجاد مبدأ آخر يستطيع أن يقوم مقامها ويستطيع مثلها أن يهيمن على المجتمعات بوضعها جهد الاستطاعة فى حمى من التقلبات والمنازعات . والمبدأ الذى تأسست عليه حكومة المدن منذ الآن هو المنفعة العامة .

ويجب ملاحظة هذه العقيدة الجديدة التى ظهرت عندئذ فى ذهن الناس وفى التاريخ . أما من قبل فإن القاعدة العليا التى كان يشتق منها النظام الاجتماعى لم تكن المنفعة بل الديانة . فقد كان واجب القيام بشعائر العبادة هو الرابطة الاجتماعية . ومن هذه الضرورة الدينية استمد البعض حق الأمر والبعض الأخر التزام الطاعة ؛ ومن هنا جاءت قواعد العدل والإجراءات ، وقواعد المناقشات العامة ، وقواعد الحرب . لم تسأل المدينة نفسها عما إذا كانت الأنظمة التى تمنحها لنفسها مفيدة ؛ لقد أسست هذه الأنظمة لأن الديانة أرادتها هكذا . فلم تساهم المنفعة ولا الملاءمة فى إقامتها . وإذا كانت الطبقة الكهنوتية قد حاربت دفاعاً عنها فإن ذلك لم يكن باسم المنفعة العامة بل باسم الأثارة الدينية .

لكن فى الفترة التى ندخل فيها الآن لم يكن للأثارة سلطان ولم تعد الديانة تحكم . والمبدأ المنظم ، الذى يجب على جميع الأنظمة أن تستمد منه قوتها منذ الآن ، هو المنفعة العامة ؛ وهو الوحيد الذى يعلو على الإرادات الفردية ، ويستطيع أن يجبرها على الخضوع له . إن ما يسميه اللاتينيون *res publica* والإغريق *τὸ κοινὸν* ذلك هو الذى يحل محل الديانة القديمة ؛ ذلك هو الذى يقرر منذ الآن الأنظمة والقوانين وإليه ترجع جميع التصرفات الهامة للمدن . فلم يعودوا يتساءلون فى مناقشات مجلس الشيوخ وفى المجامع الشعبية عما تأمر به الديانة بل عما تتطلبه المنفعة العامة ، سواء فى ذلك إن تناقشوا فى قانون أو فى أى شكل من أشكال الحكومة ، فى نقطة من نقط القانون الخاص أو فى نظام سياسى .

ينسبون لصولون عبارة تميز النظام الجديد إلى حد لا بأس به . فقد سأله أحدهم عما إذا كان يعتقد أنه منح وطنه أحسن الدساتير فأجاب : « كلا ، بل أوفقها » . ولقد كان شيئاً جديداً جداً ألا يطلبوا لأشكال الحكومة وللقوانين غير قيمة نسبية . أعلنت الدساتير القديمة المؤسسة على قواعد العبادة إنها معصومة من الخطأ وغير قابلة للتبديل ؛ فكانت فيها صرامة الديانة وصلابتها . فبيّن صولون بهذه العبارة أنه يجب أن تتمشى الأنظمة السياسية فى المستقبل مع حاجات أهل كل عصر وأخلاقهم ومنافعهم . لم يعد الأمر أمر حقيقة مطلقة ؛ وأصبح من الواجب أن تكون قواعد الحكومة من الآن مرنة ومتغيرة . ويقولون

إن صولون كان يتمنى لو روعيت قوانينه خلال مائة عام على الأكثر (١). ليست أوامر المنفعة العامة مطلقة ولا واضحة ولا جلية كأوامر الديانة. يمكن دائماً أن يناقش فيها ؛ ولا يمكن إدراكها ابتداء . والطريقة التى بدت أسط وأضمن من سواها لمعرفة ما كانت تتطلبه المنفعة العامه هى جمع الناس واستشاراتهم . عُدَّت هذه الوسيلة ضرورية واستعملت كل يوم تقريباً . فى الفترة السابقة كانت الاستخارات تقوم مقام المناقشات تقريباً : فكان رأى الكاهن أو الملك أو الحاكم المقدس ذا سلطان عظيم ؛ كانو يصوتون قليلا ويصوتون للقيام بالإجراءات أكثر مما كانوا يصوتون لتعرف رأى كل واحد . أما الآن فإنهم كانوا يصوتون على كل شىء ؛ كان لا بد من أخذ آراء الجميع ليتأكدوا من معرفة مصلحة الجميع . أصبح التصويت هو الوسيلة الكبرى للحكومة . أصبح منبع الأنظمة ، وقاعدة الشرع ؛ وقرر النافعَ ، بل قرر العادلَ . أصبح فوق الحكام ، بل فوق القوانين ؛ أصبح السيد فى المدينة .

وتغيرت الحكومة أيضاً . لم تعد وظيفتها الجوهرية القيام بالاحتفالات الدينية قياماً منظماً ؛ بل أصبحت مكونة على الأخص للمحافظة على النظام والسلم فى الداخل ، والكرامة والسلطة فى الخارج . وما كان فى الدرجة الثانية فيما سبق انتقل إلى الدرجة الأولى . تقدمت السياسة على الديانة وأصبحت حكومة البشر شيئاً إنسانيا ، وبناء على ذلك حدث أن خُلقت مناصب جديدة ، أو على الأقل أن المناصب القديمة قد اتخذت صوراً جديدة ، وهو ما يمكن أن نراه مما حدث فى أثينا ومما حدث فى روما .

ففى أثينا ، عند سيادة السراة ، كان الأراخنة كهنة قبل كل شىء ؛ وكانت العناية بالقضاء والإدارة والحرب تقتصر على شىء ضئيل ويمكن أن تضاف للكهنوت بدون مضايقة . عند ما أعرضت المدينة الأثينية عن الوسائل الدينية

---

(١) بلوتارخوس : صولون ٢٥ . وطبقا لهيرودوت (١ : ٢٩) اكتفى صولون بأن جعل الأثينيين يحلفون أن يراعوا هذه القوانين عشر سنوات .

القـديمة للحكومة لم تحذف منصب الأرخون ؛ إذ أنهم كانوا يكرهون حذف الأشياء العتيقة كرها كبيراً. لكنها أقامت بجوار الأراخنة حكاماً آخرين كانوا بطبيعة وظائفهم أكثر موافقة لحاجات العصر ، ألا وهم الاستراتيغوى (stratèges القواد) ، ومعنى الـكلمة رئيس الجيش لـكن وظائفهم لم تكن حربية قط ؛ فكان موكولا إليهم أمر العلاقات بالمدن الأخرى وإدارة المالية وكل ما يهم شرطة البلدة . ويمكن القول أنه كان بيد الأراخنة السلطة كما تصورتها العصور القديمة بينما قبض القواد على السلطة التى أقامتها الحاجيات الجديدة . وقد وصلوا تدريجياً إلى أنه لم يعد للأراخنة إلا مظاهر السلطة وأن القواد قبضوا على السلطة الحقيقية كلها . ولم يكن هؤلاء الحكام الجدد كهنة ؛ ولا يكادون يقومون بالاحتفالات التى لا مناص منها فى زمن الحرب . لقد أخذت الحكومة تنفصل عن الديانة كل يوم أكثر من سابقه .

وقد أمكن اختيار هؤلاء القواد خارج طبقة النسباء . وفى الاختبار الذى كانوا يخضعون له قبل تعيينهم δοκιμασία لم يكونوا يُسألون ، كما كان يُسأل الأرخون ، إذا كانت لهم عبادة منزلية وإذا كانوا من أسرة طاهرة ؛ بل يكفى أنهم كانوا يقومون دائماً بواجباتهم كمواطنين وأن يكون لهم ملك فى أتيكا(١) . كان الأراخنة يعينون بالقرعة أى بصوت الآلهة ؛ لـكن الأمر كان على غير ذلك فيما يختص بالقواد . فما دامت الحكومة قد أصبحت أكثر صعوبة وتعقيداً، ولم يعد الورع الفضيلة الرئيسية ، وأصبح لا بد من المهارة والـكياسة والإقدام وفن الإمرة ، فإن صوت القرعة لم يعد كافياً فى اعتقادهم لإخراج حاكم صالح . لم تقبل المدينة أن ترتبط بما كانوا يزعمون أنه إرادة الآلهة وتشبثت بأن تكون حرة فى اختيار رؤسائها . لقد كان طبيعياً أن تعين الآلهة الأرخون ، الذى كان كاهناً ، أما القائد ، الذى كانت فى يديه مصالح المدينة المادية ، فكان لا بد من أن ينتخبه الناس .

إذا لاحظنا أنظمة روما عن قرب تبين لنا أن تغيرات من هذا القبيل قد حدثت

---

(١) دينارخوس : ضد ديموسثينيس ٧١ .

فيها. فمن ناحية زاد عرفاء السوقة فى أهميتهم بحيث أصبحت إدارة الجمهورية فى أيديهم ، على الأقل فى الشؤون الداخلية . لكن هؤلاء العرفاء ، الذين لم تكن لهم الصفة الكهنوتية ، كانوا يشبهون القواد بما فيه الكفاية . ومن ناحية أخرى ، لم يستطع منصب القنصل أن يبقى إلا بتغيير طبيعته ؛ فدرس ما كان فيه من الكهنوت شيئاً فشيئاً . حقاً إن احترام الرومان للأثارات وصور الماضى تطلب أن يثابر القنصل على القيام بالاحتفالات الدينية التى وضعها السلف . لكنا نفهم جيداً أن اليوم الذى أصبح السوقة فيه قناصل لم تعد هذه الاحتفالات إلا إجراءات جوفاء . فقد أخذت الصفة الكهنوتية فى القنصلية تتضاءل يوماً إثر يوم ، والإمرة تزداد كل يوم . كان هذا التبديل بطيئاً غير محسوس ولا ملحوظ ؛ لكنه لم يكن لذلك أقل كمالا ؛ من المؤكد أن القنصلية فى عهد سقيبيو لم تعد كما كانت فى عصر پوبليكولا (Publicola) . ربما كانت وظيفة العريف الحربى ، التى أنشأها مجلس الشيوخ فى سنة ٤٤٣ ، والتى يعطينا القدماء عنها تلك البيانات القليلة ، هى الانتقال من قنصلية الفترة الأولى إلى قنصلية الفترة الثانية .

ويمكن أن نلاحظ أيضاً أنه حدث تغيير فى طريقة تعيين القناصل . والواقع أنه فى القرون الأولى لم يكن التصويت إلا مجرد رسميات كما رأينا . وفى الحقيقة كان قنصل كل سنة يعينه (créer) قنصل السنة الماضية ، وهو الذى ينقل إليه الاستخارات بعد حصوله على موافقة الآلهة . ولم تكن الفرق المئينية تصوت إلا على المرشحين أو الثلاثة الذين يقدمهم القنصل القائم ؛ لم تكن هناك مناقشات . كان من الجائز أن يبغض الشعب أحد المرشحين بيد أنه كان مجبراً على التصويت له . أما فى الفترة التى نحن فيها الآن فإن الانتخاب شىء آخر بالمرة ولو أن المظاهر الشكلية لاتزال كما كانت . حقاً لا يزال هناك ، كما كان فى الماضى ، احتفال دينى وتصويت ؛ لكن الاحتفال الدينى هو الشكلى والتصويت هو الحقيقة . ولا يزال على المرشح أن يقدمه القنصل الذى يرأس ؛ لكن القنصل ملزم ، بحكم العرف إن لم يكن بحكم القانون ، أن يقبل جميع المرشحين وأن يعلن أن الاستخارات راضية عنهم جميعاً على قدم المساواة . وبهذا تعين الفرق المئينية من تشاء . لم يعد الانتخاب للآلهة ، بل فى أيدى الشعب . لم يعودوا يستشيرون الآلهة والاستخارات إلا بشرط عدم تحيزها بين جميع المرشحين : إن الناس هم الذين يختارون .

الفصل العاشر

محاولة تكوين سراة من الأثرياء ؛ استقرار حكم العامة ؛ الانقلاب الرابع

لم يكن النظام الذى خلف سيادة السراة الدينية فى البدء هو حكم العامة . فلقد رأينا مما حدث فى أثينا وروما أن الانقلاب الذى حدث لم يكن من عمل أكثر الطبقات ضعة . حقاً إنه كانت هناك بضع بلدان ثارت فيها هذه الطبقات فى البدء ؛ لكنها لم تستطع أن تؤسس شيئاً يبقى على الزمن ؛ والدليل على ذلك الفتن الطويلة التى هوت فيها سيراقوسه وميليتوس وساموس . ولم يستقر النظام الجديد فى شىء من التماسك إلا حيث وجدت فوراً طبقة عليا استطاعت أن تقبض بيدها لفترة من الزمن على السلطة والسلطان المعنوى اللذين أفلتا من النسباء والبطارقة .

فماذا يمكن أن تكون هذه السراة الجديدة ؟ حيث أن الديانة الموروثة قد أبعدت ، فإنه لم يبق عنصر آخر للتمييز الاجتماعى غير الثروة . طلبوا إلى الثروة أن تعيّن مراتب الناس إذ أن الأذهان لاتقبل فوراً أن تكون المساواة مطلقة لذلك لم يعتقد صولون أن فى استطاعته أن يُنسى الناس التفريق القديم القائم على الديانة الموروثة إلابإقامة تقسيم جديد مؤسس على الثروة . فقسم الناس إلى أربع طبقات ومنحهم حقوقاً متفاوتة . فكان لا بد للمرء أن يكون ثرياً لكى يصل إلى المناصب العليا ، ولا بد أن يكون من إحدى الطبقتين المتوسطتين ، على الأقل ، للوصول إلى مجلس الشيوخ أو المحاكم (1) .

وكذلك كان فى روما . فقد سبق أن رأينا أن سرڤيوس لم ينتقص سلطة البطارقة إلابتأسيس سراة منافسة. فأنشأ اثنتى عشرة فرقة مئينية من الفرسان المنتخبين

---

(1) بلوتارخوس : صولون 1 و18 ؛ أريستيديس 13 . أرسطو نقل عنه هيبوقراطيون تحت لفظى ,Ἱππεις . بوليدوكيس 8 : 129 . انظر إيساسيوس : ميراث أبولودوروس 39 Ὡς ἵππαδα τελῶν ἄρχειν ἠξίον τὰς ἀρχὰς.

من بين أكثر السوقة ثراء ؛ فكان ذلك أصل طبقة الفرسان التى أصبحت منذ الآن الطبقة الثرية فى روما . أما السوقة الذين لم يكن لهم النصاب المحدد للفارس فقد وزعوا فى خمس طبقات على قدر ثرائهم . وبقى المُـعْـيِـلون خارجين عن كل طبقة . لم تكن لهم حقوق سياسية ، وإذا كانوا يمثلون فى لجان الفرق المئينية فمن المؤكد ، على الأقل، أنهم لم يكونوا يصوتون (١) . وقد حفظ الدستور الجمهورى هذا التفريق الذى أقامه ملك ولم يبدُ على السوقة بادىء الأمر أنها كانت راغبة كل الرغبة فى المساواة بين أعضائها

إن ما يُرى بكل هذا الجلاء فى أثينا وروما يكاد يعثر عليه فى كل المدن الأخرى . ففى كومه مثلا لم تمنح الحقوق السياسية ، فى بادىء الأمر ، إلا لأولئك الذين كانوا يحوزون خيلا ، ويكوّنون بذلك طبقة فرسان ما . وفيما بعد حصل الذين يتلونهم من حيث رقم الثروة على نفس الحقوق ، ولم يرفع هذا الإجراء الأخير عدد المواطنين إلا إلى الألف . وفى رغيوم (Rhégium) بقيت الحكومة زمناً طويلا فى أيدى الألف مواطن الأكثر ثراء. وفى ثورى (Thurii) كان لا بد من نصاب مرتفع جداً لـكى ينتمى الإنسان إلى الفئة السياسية . ونرى بجلاء ، فى أشعار ثيوغنيس (Théognis) ، أن الثروة قد سيطرت فى ميغارا بعد سقوط النبلاء . وفى ثيبه كان يتحتم على المرء لـكى يتمتع بحقوق المواطن ألا يكون صانعاً أو تاجراً . (٢) .

وهكذا أصبحت الحقوق السياسية ، التى كانت ملازمة للمولد فى الفترة السابقة ، ملازمة للثروة وقتاً ما . وقد تكونت هذه السراة من الأثرياء فى كل المدن ولم يكن تكوينها نتيجة لتدبير مقصود بل بحكم طبيعة العقل البشرى

---

(١) تيتوس ليفيوس ١ : ٤٣ . ديونيسيوس ٤ : ٢٠ . لم يكن الذين لا يبلغ نصابهم ١١٥٠٠ آس (الآس الذى يساوى رطل) يـكونون غير فرقة مئينية واحدة ، وبناء عليه لم يـكن لهم إلا صوت واحد من ١٩٣. وقد كانت طريقة التصويت بحيث لم تـكن هذه الفرقة المئينية تدعى مطلقاً لإعطاء صوتها .

(٢) أرسطو : السياسة ٣ : ٣ ؛ ٤ : ٤ ؛ ٦ : ٤ : ٥ ؛ هيراقليديس فى *Fragments des hist. gr.*, t. II, p. 217 et 219. انظر ثيوغنيس ، الأبيات ٨، ٥٠٢، ٥٢٥ - ٥٢٩ .

ذاته ، ذلك الذى لا يستطيع عند خروجه من نظام مبالغ فى عدم المساواة أن يصل فوراً إلى المساواة التامة .

يلاحظ أن هذه الطبقة من السراة لم تؤسس تفوقها على ثروتها فحسب . فقد كان من أشد رغائبها فى كل مكان أن تكون الطبقة الحربية ؛ وقد تكفلت بالدفاع عن المدن فى نفس الوقت الذى كانت تحكمها فيه ؛ واحتفظت لنفسها بأحسن الأسلحة وبأكبر نصيب من المخاطر فى القتال ، راغبة فى أن تحاكى بذلك الطبقة النبيلة التى حلت هى محلها . ففى جميع المدن كان الأكثر ثراء يؤلفون الفرسان (١) ؛ وكانت الطبقة المتوسطة الحال تكون فئة جنود الفيالق أو المشاة الثقيلة (hoplites, légionnaires) (٢) . وأعفى الفقراء من الخدمة العسكرية ؛ وعلى أكثر تقدير ، كانوا يستخدمون فى المشاة الخفيفة (peltastes, vélites) أو فى صفوف مجذفى الأسطول (٣) . وهكذا كان تنظيم الجيش يتفق بدقة تامة مع تنظيم المدينة السياسى . وكانت الأخطار على قدر الامتيازات وأصبحت القوة المادية فى نفس الأيدى التى كانت الثروة فيها (٤) .

---

(١) عن أثينا أنظر اكسينوفون : هيبارخوس ١ : ٩ . عن اسبرطه ، اكسينوفون : هلينيكا ٦ : ٤ : ١٠ . عن البلدان الاغريقية بصفة عامة أرسطو : السياسة ٦ : ٤ : ٣ طبعة ديدو ص ٥٩٧ . انظر ليسياس : ضد القيبياديس ١ : ٨ ؛ ٢ : ٧

(٢) أولئك هم الـ ὁπλῖται ἐκ καταλόγου الذين يتكلم عنهم ثوقيديديس ٦ : ٤٣ و ٨ : ٢٤ . ـلاحظ أرسطو (السياسة ٥ : ٢ : ٨) أن الهزائم فى البر فى حرب البيلوبونيز قد أهلكت الطبقة الوسطى فى أثينا διὰ τὸ ἐκ καταλόγου στρατεύεσθαι . عن روما أنظر تيتوس ليفيوس ١ : ٤٢ ؛ ديونيسيوس ٤ : ١٧ - ٢٠ ؛ ٧ : ٥٩ ؛ سالوستيوس (Salluste) : لوغورتا ٨٦ . أولوس جيليوس ١٦ : ١٠ .

(٣) هاربوقراطيون ، نقلا عن أرسطوفانيس ، Θῆτες οὐκ ἐστρατεύοντο

(٤) ترى فقرتان من ثوقيديديس أن الطبقات الاربعة كانت لا تزال متفاوتة فى عصره بالنسبة للخدمة العسكرية . فكان رجال الطبقتين الأولى والثانية الذين نصابهم ٥٠٠ مدا . (pentacosiomédimnes) والفرسان ، يخدمون فى سلاح الفرسان ؛ ورجال الطبقة الثالثة ، (zeugites) فى المشاة الثقيلة . لذلك يشير المؤرخ إلى استخدامهم ملاحين فى حالة الاحتياج الشديد كعمل استثنائى فذ (٣ : ١٦) . وفى موضع آخر عدد ثوقيديديس ضحايا الطاعون ووزعهم على ثلاث طوائف : الفرسان والمشاة الثقيلة وفى النهاية ὁ ἄλλος ὄχλος : الجمهور الخسيس (٣ : ٨٧) . ثم قبل الوضيع تدريجياً فى الجيش (ثوقيديديس ٦ : ٤٣ وأنتيفون فى هاربوقراطيون تحت لفظ Θῆτες) .

وهكذا أتت فترة فى جميع المدن التى نعرف تاريخها على وجه التقريب كانت الطبقة الثرية أو على الأقل المتوسطة الحال تتولى فيها الحكومة . كان لهذا النظام السياسى مزاياه : كما يكون لكل نظام مزاياه عندما يتفق مع أخلاق العصر ولا تعارضه العقائد . من المؤكد أن طبقة النبلاء الكهنوتية فى الفترة السالفة قد أدت خدمات كبيرة ؛ إذ أنها هى التى أقامت القوانين لأول مرة وأسست حكومات نظامية وجعلت المجتمعات البشرية تعيش خلال عدة قرون بهدوء وكرامة . وكان لسراة الثروة ميزة أخرى ؛ فقد دفعت المجتمع والذكاء فى اتجاه جديد . ولما كان منشؤها العمل بجميع أشكاله فقد مجدت العمل وشجعت عليه . فمنح هذا النظام الجديد أكبر قيمة سياسية لأكثر الناس جهداً ، أو أكثرهم نشاطاً ، أو أكثرهم مهارة ؛ وإذن فقد كان موافقاً لتقدم الصناعة والتجارة ؛ كما كان موافقاً للتقدم العقلى ؛ إذ أن الحصول على هذه الثروة ، التى كان كل إنسان يحصل عليها ، فى العادة ، أو يفقدها حسب كفاءته ، كان من شأنه أن يجعل التعليم أول الحاجات والذكاء أقوى دوافع الشؤون البشرية . فلا عجب إذن أن وسّعت بلاد الإغريق وروما فى عهد هذا النظام حدود ثقافتهما الذهنية ودفعتا حضارتهما إلى الأمام .

لم تحتفظ الطبقة الثرية بالسلطان زمناً طويلا بقدر ما احتفظت به طبقة النبلاء الوراثية القديمة . لم تكن لها هذه الصفة المقدسة التى كانت تجلل النسيب القديم : لم تكن تحكم بمقتضى العقائد وبإرادة الآلهة ، ولم يكن فيها ما يسيطر على الضمير ويجبر الإنسان على الخضوع . فإن الإنسان لا ينحنى إلا أمام ما يعتقد أنه الحق أو ما تريه آراؤه أنه فوقه بكثير . لقد استطاع أن يركع زمناً طويلا أمام التفوق الدينى للنسيب الذى يتلو الدعاء ويمتلك الآلهة ، لكن الثروة لم تكن لها المهابة فى نظره ؛ فإن العاطفة المألوفة أكثر من سواها أمام الثروة ليست الاحترام بل الحسد . وسرعان ما بدا عدم المساواة السياسية ، الناتج عن اختلاف الثروات ، ظلماً يتحتم على الناس أن يقضوا عليه .

هذا ولم يكن لسلسلة الثورات أن تقف بعد أن بدأت . فقد انقضت المبادىء القديمة ولم تعد هناك أثارات ولا قواعد ثابتة . كان هناك شعور عام بتقلب

الأمور من شأنه أن يجعل كل دستور غير قادر على البقاء طويلا . فهوجمت طبقة السراة الجديدة كما هوجمت القديمة من قبل ؛ أراد الفقراء أن يكونوا مواطنين وجهدوا أن ينفذوا بدورهم فى الفئة السياسية .

من المحال الدخول فى تفاصيل هذا الكفاح الجديد . فإن تاريخ المدن كلما ابتعد عن نشأتها ازداد تشعباً . إنها تسير فى نفس السلسلة من الثورات : لكن هذه الثورات تعرض لنا بأشكال شديدة التباين . إلا أننا نستطيع على الأقل أن نلاحظ أن الطبقة الثرية بقيت محترمة وسائدة مدة أطول فى البلدان التى كان أهم عنصر للثروة فيها هو امتلاك الأرض . وعلى العكس من ذلك فى المدن التى كانت فيها قلة من الثروات العقارية ، كأثينا ، وكانوا يثرون فيها من الصناعة والتجارة ، فإن تقلب الثروة قد أيقظ فيها جشع الطبقات الدنيا وأمانيها فى وقت مبكر . وهوجمت فيها طبقة السراة هجوماً مبكراً .

قاوم أثرياء روما مقاومة أحسن بكثير من مقاومة أثرياء الإغريق ؛ ولذلك أسباب سنذكرها فيما بعد . ولكن عندما نقرأ التاريخ الإغريقى نلاحظ فى شىء من الدهشة كم كانت طبقة السراة الجديدة ضعيفة فى دفاعها . حقاً إنها ما كانت تستطيع أن تواجه خصومها ، كما فعل النسباء، بالحجة الكبيرة القوية حجة الأثارة والتقوى . لم يكن فى استطاعتها أن تدعو لنجدتها الأسلاف والآلهة لم يكن لها نقطة ارتكاز فى عقائدها ذاتها. لم تكن مؤمنة فى شرعية امتيازاتها.

حقا لقد كانت لها قوة التفوق فى السلاح ، لكن هذا التفوق ذاته انتهى بأن تخلى عنها . لا ريب أن الدساتير التى تمنحها الدول لنفسها تستطيع أن تبقى زمناً أطول لو استطاعت كل دولة أن تبقى فى عزلة أو لو استطاعت على الأقل أن تعيش فى سلم على الدوام . لكن الحرب تدخل الخلل فى دواليب الدساتير وتعجل بالتغييرات . هذا ، وقد كانت حالة الحرب تكاد تكون مستمرة بين هذه المدن فى بلاد الإغريق وإيطاليا . وكانت الخدمة العسكرية تنوء بكلكها أثقل ما تكون على الطبقة الثرية إذ أنها هى التى كانت تحتل الصف الأول فى المعارك ، وكثيراً ما كانت تدخل المدينة ، عند عودتها من غزوة ، هالكة ضعيفة ، وبالتالى لم تكن فى حالة تسمح لها بمقاومة الحزب الشعبى . فى تارنت مثلا ،

فقدت الطبقة العليا الجزء الأكبر من أعضائها فى حرب ضد اليابيغيين (Iapyges) وسرعان ما قامت حكومة العامة فى المدينة . وقد حدث مثل هذا فى أرغوس قبل ذلك بحوالى ثلاثين عاماً : إذ أن عدد المواطنين الحقيقيين قد ضعف ، على إثر حرب غير موفقة ضد الاسپرطيين . بحيث أصبح لا مفر من منح حق المواطن لجمهرة من الپيريؤويكوى (périèques) (١) . وقد كانت اسپرطه شحيحة كل الشح بدم الاسپرطيين الحقيقيين حتى لا تقع فى مثل هذه الورطة . أما روما فإن حروبها المستمرة تفسر ثوراتها إلى حد كبير . فقد حطمت الحرب سراتها أولا ، بحيث لم يكد يبقى من الأسرات الثلثمائة التى كانت تتكون منها هذه الطبقة فى عهد الملوك غير الثلث بعد الاستيلاء على السامنيوم. ثم حصدت الحرب السوقة الأصلية ، تلك السوقة الثرية الشجاعة التى كانت تملأ الطبقات الخمس والتى كانت تتكون منها الفيالق .

ومن آثار الحرب أن المدن كانت مضطرة اضطراراً يكاد يكون دائماً إلى تسليح الطبقات الدنيا . ولهذا السبب خلعت الحاجة إلى البحرية والحروب فى البحار ، فى أثينا ، وفى جميع المدن البحرية ، على الطبقة الفقيرة تلك الأهمية التى أبتها عليها الدساتير . فلما ارتفع الوضعاء (ثيتيس) إلى مرتبة المجذفين والملاحين بل والجنود ، وأصبحت سلامة الوطن فى أيديهم ، شعروا بحاجة المدينة إليهم وأصبحوا مقاديم . ذلك هو أصل الديموقراطية الأثينية . كانت اسپرطه تخشى الحرب ، ويمكن أن نرى فى ثوقيديديس تباطأها وكرهها للدخول فى القتال . وقد تركت نفسها تدفع بالرغم منها فى حرب الپيلوپونيز ؛ ولكن كم من الجهود بذلت للانسحاب منها ! ذلك لأن اسپرطه كانت مجبرة على تسليح الطبقة الأخيرة ὑπομείονες والمتجنسين حديثاً (Néodamodes) والموثاكيس (Mothaces) واللاكونيين (Laconiens) وحتى الهيلوتيس (hilotes) التابعين لها. وكانت تعلم علم اليقين أن كل حرب كانت تعرضها للثورة بإعطائها الأسلحة

---

(١) أرسطو : السياسية ٥ : ٢ : ٣ .

لهذه الطبقات التى كانت تضطهدها ، وأنه كان يتحتم عليها عند عودة الجيش إما أن تنزل على إرادة الهيلوتيس التابعين لها وإما أن تجد وسيلة لسفك دمهم بدون ضجة (١) . كانت السوقة تشنع على مجلس الشيوخ فى روما عندما كانت تتهمه بأنه يبحث دائماً عن حروب جديدة . فإن مجلس الشيوخ كان أكثر مهارة من ذلك . فكان يعرف مقدار ما تكلفه هذه الحروب من التساهل ومن الهزائم فى ساحة المدينة (forum) . لكنه لم يكن فى استطاعته تجنب الحروب فقد كانت روما محاطة بالأعداء من كل جانب .

مما لا ريب فيه أن الحرب قد سدّت تدريجياً الثغرة التى وضعتها طبقة سراة المال بينها وبين الطبقات الدنيا . ومن هنا سرعان ما وجدت الدساتير نفسها غير متفقة مع الحالة الاجتماعية وأصبح من المحتم تغييرها . هذا ويجب أن نعترف بأن كل امتياز كان مناقضاً بحكم الضرورة للمبدأ الذى كان يحكم الناس عندئذ. فإن المنفعة العامة مبدأ ليس فى طبيعته أن يسمح بالتفاوت وأن يحافظ عليه زمناً طويلا . بل كان من المحتم أن يؤدى بالمجتمعات إلى الديموقراطية .

لقد بلغ من صحة ذلك أنه أصبح لزاماً فى كل مكان أن يعطى جميع الرجال الأحرار حقوقاً سياسية فى وقت يتفاوت تبكيراً وتأخيراً . وبمجرد أن أن رغبت السوقة الرومانية فى أن تكون لها لجان خاصة بها ، أصبح يتحتم عليها أن تقبل المعيلين فيها ، ولم تستطيع أن تنقل إليها التقسيم إلى الطبقات . وهكذا شاهدت معظم المدن تكوين المجامع الشعبية الحقيقية وأقيم التصويت العام .

هذا وقد كان لحق التصويت عندئذ قيمة لا تقاس بأية قيمة يمكن أن تكون له فى الدول الحديثة . فقد كان آخر المواطنين يضع يده بمقتضى هذا الحق فى جميع الشؤون، فيعين رجال الدولة ،ويضع القوانين ،ويجلس للقضاء،ويقرر الحرب والسلم،ويحرر معاهدات التحالف . كان يكفى هذا التوسع فى حق التصويت لكى تكون الحكومة حكومة العامة (ديموقراطية) حقاً .

يجدر إبداء ملاحظة أخيرة . ربما كان من المستطاع تجنب حكم العامة لو

---

(١) انظر ما يرويه ثوقيديديس ٤ : ٨٠ .

أنهم استطاعوا أن يؤسسوا ما يسميه ثوقيديديس ὀλιγαρχία ἰσόνομος أى الحكومة للبعض والحرية للجميع . لـكنه لم يكن لدى الإغريق فكرة جلية عن الحرية ؛ فقد كانت الحقوق الفردية عندهم تنقصها دائماً بعض الضمانات . وإنا لنعرف من ثوقيديديس ، الذى لا يتهم حقاً بحماس زائد لحكومات العامة ، أن الشعب كان ، تحت سيادة الأقلية ، غرضاً لـكثير من القوارص والحكم التعسفى والتنفيذ العنيف . فنقرأ فى هذا المؤرخ أنه « كان لا بد من نظام حكم العامة لـكى يجد الفقراء ملاذاً والأثرياء عائقاً » . لم يدرِ الإغريق قط كيف يوفقون بين المساواة المدنية والتفاوت السياسى . فلـكى لا يؤذى الفقير فى مصالحه الشخصية بدا لهم أنه من الضرورى أن يكون له حق الاقتراع وأن يكون قاضياً فى المحاكم وأن يستطيع أن يكون من رجال الدولة . هذا وإذا تذكرنا أن الدولة عند الإغريق كانت سلطة مطلقة ، وأنه ما من حق فردى كان يقف أمامها ، أدركنا أية منفعة عظيمة كانت لـكل فرد ، حتى لأكثر الناس ضعة ، فى أن تكون له حقوق سياسية ، أى أن يكون عضواً فى الحكومة . وما دامت لسيادة المجموع كل هذه الهيمنة فإنه لم يكن فى استطاعة المرء أن يكون شيئاً ما إلا إذا كان عضواً فى هذه السيادة فقد كان أمنه وكرامته متعلقين بذلك . أرادوا أن يحوزوا الحقوق السياسية لا ليحصلوا على الحرية الحقيقية بل ليحصلوا على الأقل على ما يمكن أن يقوم مقامها .

الفصل الحادى عشر

قواعد حكومة العامة (الديموقراطية). مثل من حكومة العامة الأثينية

كلما تتابعت الانقلابات فى مجراها وابتعدوا عن النظام القديم كلما أصبحت حكومة البشر أكثر صعوبة. فكان لا بد لذلك من قواعد أكثر دقة، ودواليب أكثر عدداً وأشد لطفاً. وهو ما نرى مثلا منه فى حكومة أثينا.

كان فى أثينا عدد كبير جداً من أرباب المناصب. فقد احتفظت أولا بكل مناصب الفترة السابقة: الأرخون الذى كان يخلع اسمه على السنة ويسهر على دوام العبادات المنزلية؛ والملك الذى كان يقوم بالقرابين؛ ورئيس الحرب الذى كان يمثل كرئيس للجيش والذى كان يقضى بين الأجانب؛ والستة الحفظة على القوانين (Thesmothètes) الذين كان يبدو أنهم يقومون بالقضاء لكنهم فى الواقع إنما كانوا يرأسون هيئات المحلفين الكبيرة. وكان هناك أيضاً الهيروپويوى ἱεροποιοι الذين كانوا يستشيرون الوحى ويقدمون بعض القرابين؛ والمآكلون (παρασίτοι) الذين كانوا يصاحبون الأرخون والملك فى الاحتفالات؛ والعشرة المنظمون للمسابقات والألعاب (athlothètes) الذين كانوا يبقون أربع سنوات فى وظائفهم لإعداد عيد أثينايا (Athéné)؛ وأخيراً، سدنة النار وعددهم خمسون وكانوا يجتمعون على الدوام للسهر على رعاية الموقد العام والمواظبة على الأكلات المقدسة. يرى من هذه القائمة أن أثينا قد بقيت وفية لأثارات الزمن القديم؛ وأن هذا العدد من الثورات لم يكن قد أكمل، حتى ذلك الوقت، تدمير ذلك الاحترام الخرافى. فما من أحد كان يجرؤ على نبذ الأشكال القديمة للديانة القومية؛ لقد بقى حكم العامة متمسكاً بالعبادة التى أنشأها النسباء.

يأتى بعد ذلك رجال الدولة الذين أنشئوا خصيصاً لحكومة العامة، أولئك الذين لم يكونوا كهنة بل كانوا يسهرون على مصالح المدينة المادية، وفى مقدمتهم

القواد العشرة الذين كانوا يعنون بشؤون الحرب وشؤون السياسة . ثم ضابطو المدينة (astynomes) العشرة الذين كانوا يحفظون النظام فى المدينة ؛ وضابطو السوق (agoranomes) العشرة الذين يسهرون على أسواق البلدة وأسواق الپيرييوس (الپيريه Pirée) ؛ والخمسة عشر المشرفون على الحبوب (sitophylaques) وهم الذين كانوا يشرفون على بيع القمح ؛ وضابطو المعايير الذين كانوا يراقبون الأوزان والمقاييس ؛ وحفظة بيت المال العشرة ؛ ومحصلو الحسابات العشرة ؛ والأحد عشر المكلفون بتنفيذ الأحكام . يضاف إلى ذلك أن معظم هذه المناصب كان يتكرر فى كل واحدة من القبائل وفى كل واحد من الأحياء . فكان لأدنى مجموعة من الأهالى فى أتيكا أرخونها وكاهنها وكاتم أسرارها ومحصلها ورئيسها الحربى . ولا يكاد المرء يخطو خطوة فى البلدة أو فى الريف دون أن يلقى واحداً من رجال الدولة .

كانت هذه الوظائف سنوية ؛ ونتج عن ذلك أنه كان لا يوجد رجل لا يستطيع أن يباشر واحدة منها فى دوره . وكان أرباب المناصب ذات الصفة الكهنوتية يختارون بالقرعة . أما الذين لا يزاولون غير وظائف تابعة للنظام العام ، فقد كان ينتخبهم الشعب . بيد أنه كانت هناك حيطة ضد تخبطات القرعة أو نزوات التصويت العام ؛ فكان كل منتخب جديد يؤدى امتحاناً أمام مجلس الشيوخ ، أو أمام رجال الدولة الخارجين من مناصبهم ، أو فى الختام أمام مجلس الأريوپاغوس (Aréopage) ؛ لم يكونوا يطلبون أدلة على الكفاءة أو الموهبة ، بل كانوا يتحرون عن نزاهة الرجل وعن أسرته ؛ كما كانوا يحتمون على كل ذى منصب أن يكون له مال عقارى (١).

قد يلوح أنه لم يكن فى الإمكان أن يكون لهؤلاء الحكام الذين كانت تنتخبهم أصوات أكفائهم ، والذين كانوا يعينون لمدة عام فقط ، وكانوا مسؤولين قابلين للعزل ، إلا القليل من المكانة والسلطة . بيد أنه يكفى أن نقرأ ثوقيديديس

(١) Dinarque, *Adv. Demosthenem*, 71 : *Τοὺς νόμους προλέγειν τῷ στρατηγῷ, τὴν παρὰ τοῦ δήμου πίστιν ἀξιοῦντι λαμβάνειν, παιδοποιεῖσθαι κατὰ τοὺς νόμους καὶ γῆν ἐντὸς ὅρων κεκτῆσθαι.*

واكسينوفون لكي نتأكد أنهم كانوا محترمين ومطاعين . وقد كان في أخلاق القدماء دائماً ، حتى الأثينيين منهم ، سهولة كبيرة في الخضوع للنظام ، ربما كانت نتيجة لعادة الطاعة التي عودتهم عليها الحكومة الكهنوتية . كانوا متعودين على احترام الدولة وكل من يمثلها على مختلف الدرجات . ولم يكن يطرأ ببالهم أن يحتقروا رجل الدولة لأنهم هم الذين انتخبوه ؛ فقد كان الانتخاب معتبراً من أقدس ينابيع السلطة (١) .

وفوق رجال الدولة ، الذين لم تكن لهم وظيفة غير تنفيذ القوانين ، كان يوجد مجلس الشيوخ . ولم يكن المجلس إلا هيئة للمناقشة تشبه مجلس الدولة ؛ لم يكن يعمل ، ولا يضع القوانين ، ولا يباشر أية سيادة . ولم يكونوا يرون بأساً في تجديده كل عام ؛ إذ أنه لم يكن يطلب من أعضائه ذكاء فائقاً ولا تجربة كبيرة . كان يتكون من سدنة النار الخمسين لكل قبيلة ، أولئك الذين كانوا يزاولون الوظائف المقدسة كل في دوره ويتشاورون طول العام في مصالح البلدة الدينية أو السياسية . ومن المرجح أن يكون سبب ذلك أن مجلس الشيوخ لم يكن في الأصل إلا مجمع سدنة النار ، أي كهنة الموقد السنويين ، والذين احتفظوا بعادة تعيينهم بطريق القرعة . ومن الحق أن نقول إن كل اسم كان يخضع بعد القرعة للامتحان ويستبعد إذا لم يبدُ أنه يتمتع بدرجة كافية من الاحترام . (٢)

وفوق مجلس الشيوخ ذاته كان يوجد مجمع الشعب . وهو السيد الحقيقي . ولكن كما أن الملك في الممالك الحسنة التكوين يحيط نفسه باحتياطات ضد هواه أو ضد أخطائه الشخصية ، فقد كان لحكم العامة أيضاً قواعد يخضع لها ولا تتبدل

---

(١) ليس القصد أن رجال الدولة في أثينا كانوا محترمين ، وعلى الأخص كانوا مرهوبي الجانب ، بدرجة مساوية لما كان عليه الإيفور في اسبرطه أو القناصل في روما . لم يكن محتما على كل ذى منصب في أثينا أن يقدم حسابه عند انتهاء عمله فحسب ، بل كان يمكن عزله بتصويت من الشعب حتى خلال السنة التي عين فيها (أرسطو في هاربوقراطيون تحت لفظ *Κυρία* بوليدوكس ٨ : ٨٧ ؛ ديموستينيس : ضد تيموثيوس ٩) والأمثلة على مثل هذا العزل نادرة نسبياً .

(٢) أيسخينيس : ضد اكتيسيفون ٢ ؛ ديموستينيس : ضد نيأيرا ٣ . ليسياس ضد فيلون ٢ . هاربوقراطيون ، تحت لفظ *Ἐπιλαχών* .

كان ينعقد المجلس بدعوة من سدنة النار أو القواد . وكان يجتمع داخل سور تحدده الديانة . فمنذ الصباح يطوف الـكهنة بالپنيكس (Pnyx) وهم ينحرون الأضاحى ويطلبون حماية الآلهة ، ويجلس الشعب على مقاعد من الحجر . ويجتمع سدنة النيران أو المقدمون (الپروإيدروى proédres) الذين يرأسون المجمع على منصة مرتفعة ،وعندما يجلس الجميع ينادى كاهن (κήρυξ) قائلا « اصمتوا الصمت الدينى (εὐφημία) ادعوا الآلهة والآلهات (وهنا يسمى المعبودات الرئيسية للإقليم) لـكى يتم كل شىء فى هذا المجمع على خير وجه للمنفعة الـكبرى لأثينا ولسعادة المواطنين » . ثم يجيب الشعب ،أو فرد ما بالنيابة عنه ، «ندعو الآلهة لـكى تحمى المدينة . ليتغلب رأى أكثرنا حكمة .ليُلعن من يعطينا نصائح سوء ومن يدّعى تغيير القرارات والقوانين ، أو من يكشف أسرارنا للعدو .(١) » .

ثم يعلن المنادى ،بناء على أمر الرؤساء ،الموضوع الذى يجب على المجمع أن يعنى به . فإن ما يقدم للمجلس لا بد أن يكون مجلس الشيوخ قد ناقشه ودرسه من قبل . لم يكن للشعب ما يطلق عليه فى المصطلح الحديث حق المبادأة ؛ كان مجلس الشيوخ يُعِدُّ له مشروعاً بقرار ،فكان يستطيع أن يرفضه أو يقبله لـكنه لم يكن يملك المناقشة فى شىء آخر .

عندما يتلو المنادى مشروع القرار تفتح المناقشة ويقول المنادى «من يريد الـكلام ؟» ويصعد الخطباء المنبر بترتيب السن . وفى استطاعة كل فرد أن يتكلم من غير تمييز ناتج عن الثروة أو المهنة ، ولـكن على شرط أن يكون قد أثبت أنه متمتع بالحقوق السياسية ، وأنه لم يكن مديناً للدولة ، وأن أخلاقه

---

(١) أيسخينيس : ضد تيمارخوس ٢٣ ؛ ضد اكتيسفون ٢ - ٦ . دينارخوس : أريسطوغيتون ١٤ : Ὁ νόμος κελεύει εὐξάμενον τὸν κήρυκα μετ᾽ εὐφημίας πολλῆς, οὕτως ὑμῖν τὸ βουλεύεσθαι δίδοναι. ديموسثينيس السفارة ٧٠: Ταῦθ᾽ ὕπερ ὑμῶν καθ᾽ ἑκσατὴν τὴν ἐκκλησίαν εὔχεται ὁ κήρυξ νόμῳ προστεταγμένα. انظر أرسطوفانيس : المحتفلات بالشموفوريا ٢٥ — ٣٥ . بوليدوكيس ٨ : ١٦٠ .

طاهرة ، وأنه متزوج زواجاً شرعياً ، وأنه يملك عقاراً فى أتيكا ، وأنه أدى جميع واجباته نحو والديه ، وأنه اشترك فى جميع الحملات الحربية التى أمر بالاشتراك فيها ، وأنه لم يلق ترسه فى أى قتال (١) .

وبعد أن يتخذ الشعب هذه الاحتياطات ضد البلاغة ، يستسلم لها استلاماً تاماً . فلم يكن الأثينيون ، كما يقول ثوقيديديس ، يعتقدون أن الـكلام ضار بالعمل ؛ بل كانوا يشعرون على عكس ذلك بالحاجة إلى الاستنارة . لم تعد السياسة كما كانت فى النظام السابق مسألة أثارة وإيمان . بل كان لا بد من التأمل ووزن المبررات . كانت المناقشة ضرورية . إذ أن كل مسألة كانت على درجة ما من الغموض . والـكلام وحده يستطيع أن يلقى الضوء على الحقيقة . كان الشعب الأثينى يريد أن تعرض عليه كل مسألة على جميع وجوهها المختلفة ، وأن يطلع بوضوح على الموجبات والموانع . كان شديد التمسك بخطبائه ؛ ويقال إنه كان يثيبهم بالمال عن كل خطبة يلقونها على المنبر (٢) . بل كان يفعل ما هو خير من ذلك : كان يصغى إليهم ؛ إذ يجب ألا نتصور جمهوراً هائجاً مائجاً ، بل الأمثل أن هيئة الشعب كانت على عكس ذلك ؛ فإن الشاعر الماجن يصوره يستمع فاغراً فاه ، ثابتاً على مقاعده الحجرية (٣) . كثيراً ما يصف المؤرخون والخطباء هذه المجتمعات الشعبية ونكاد لا نرى خطيباً يقاطع إطلاقاً ؛ كان الشعب ملقياً باله سواء كان الخطيب بريكليس أو كليوون ، أيسخينيس أو ديموسثينيس ؛ كان يصغى سواء عليه أتملقوه أم زجروه ؛ ويترك الخطباء يدلون بأكثر الآراء تناقضاً ، بصبر جدير بالثناء . وقد يهمس أحياناً لـكنه لا يصرخ ولا يصخب إطلاقاً . ويستطيع الخطيب أن يصل دائماً إلى نهاية خطابه مهما قال .

---

(١) *Δοκιμασία ῥητόρων* أيسخينيس : ضد تيمارخوس ٢٧-٣٣ . ديناrخوس : ضد ديموسثينيس ٧١ .

(٢) ذلك ما نفهمه على الأقل من أرسطوفانيس : الزنابير ٦٩١ : *Φέρει τὸ συνηγορικόν,* *δραχμήν* ويضيف الشارح *Ἐλάμβανον οἱ ῥήτορες δραχμὴν ὅτε συνηγόρουν ὑπὲρ τῆς πόλεως*

(٣) أرسطوفانيس : الفرسان ١١١٩ .

لا نعرف شيئاً عن البلاغة فى اسپرطه . ذلك لأن مبادىء الحكومة لم تكن هى نفسها التى كانت فى أثينا ؛ فقد كانت طبقة السراة لا تزال تحكم ولها أثارات ثابتة تعفيها من النزاع طويلا على الموجبات والموانع لكل موضوع . أما فى أثينا، فإن الشعب يريد أن يتعلم فلا يقرر إلا بعد مناقشة بين الطرفين ، ولا يتصرف إلا بقدر ما يقتنع أو يعتقد أنه مقتنع . ولتحريك التصويت العام كان لا بد من الكلام ؛ فالبلاغة هى التى تحرك حكومة العامة . لذلك اتخذ الخطباء منذ زمن مبكر لقب ديماغوغوى (démagogues = قادة الشعب) أى قادة المدينة ؛ والواقع أنهم هم الذين كانوا يدفعونها للعمل ويوجهون كل قراراتها .

وقد توقعوا حالة خطيب يقدم اقتراحاً مناقضاً للقوانين القائمة . فكان لأثينا حكام خاصون تسميهم حُرَّاس القوانين . كانوا سبعة يراقبون المجلس وهم جلوس على مقاعد مرتفعة ويبدون كممثلين للقانون الذى هو فوق الشعب ذاته. فإذا ما رأوا قانوناً يهاجم أوقفوا الخطيب أثناء خطابه وأمروا بفض المجلس فوراً . فيتفرق الشعب دون أن يكون له الحق فى الذهاب للتصويت (١) .

كان هناك قانون ، لم يطبق فى الحقيقة إلا قليلا ، يعاقب كل خطيب يثبت عليه أنه أشار على الشعب بمشورة سيئة . وكان هناك قانون آخر يحرم الوصول إلى المنبر على كل خطيب أشار ثلاث مرات بقرارات مناقضة للقوانين القائمة (٢) .

كانت أثينا تعلم علم اليقين أن حكم العامة لا يمكن أن يقوم إلا باحترام القوانين . وكانت مهمة البحث عن التعديلات التى كان يمكن أن يكون من المصلحة إدخالها فى التشريع من اختصاص حفظة القوانين (الثيسموثيتاى Thèsmothètes) بصفة خاصة . وكانت اقتراحاتهم تقدم لمجلس الشيوخ الذى كان من حقه أن يرفضها ، لكنه لم يكن من حقه أن يحولها إلى قوانين . وفى حالة الموافقة كان مجلس الشيوخ يدعو المجمع للانعقاد ويعرض عليه مشروع حفظة القوانين

---

(١) بوليدوكيس ٨ : ٩٤ . فيلوخوروس : قطع مجموعة ديدو ص ٤٩٧ .

(٢) أثينايوس ١٠ : ٧٣ . بوليدوكيس ٨ : ٥٢ . انظر
G. Perrot, *Hist. du droit public d'Athènes*, chap. II.

(الثيسموثيتاى) . لكن لم يكن للشعب أن يقرر شيئاً ما على الفور . بل كان يؤجل المناقشة إلى يوم آخر ؛ وفى فترة الانتظار يعين خمسة خطباء مهمتهم الخاصة أن يدافعوا عن القانون القديم وأن يبرزوا ما فى التجديد المقترح من عدم الملاءمة . وفى اليوم المحدد يجتمع الشعب من جديد ويستمع أولا للخطباء المكلفين بالدفاع عن القوانين القديمة ، ثم المؤيدين للقوانين الجديدة . وبعد سماع الخُطب لا يتخذ المجلس قراراً بل يكتفى بأن يعين لجنة من عدد كبير من الأعضاء لكنها لا تتكون إلا من رجال مارسوا وظائف القضاء . وتفحص هذه اللجنة الموضوع فحصاً جديداً وتستمع إلى الخطباء من جديد وتناقش وتتداول . فإذا رفضت القانون المقترح فإن حكمها غير قابل للاستئناف وإذا وافقت عليه اجتمع الشعب مرة أخرى ويجب عليه فى هذه المرة الثالثة أن يصوت وتصويته يحيل الاقتراح قانوناً (١) .

وبالرغم من كل هذه الكياسة فإنه من المستطاع أن يُتّخذ قرار ظالم أو ضار . لكن القانون الجديد يحمل اسم واضعه إلى الأبد ويمكن أن يحاكم فيما بعد وأن يعاقب . ويعتبر الشعب معصوماً من الخطأ كما هو الحال مع السيد الحقيقى . لكن كل خطيب يبقى مسؤولا على الدوام عن المشورة التى أشار بها . (٢) .

تلك كانت القواعد التى يخضع لها حكم العامة . ويجدر ألا نستخلص من ذلك أنه لم يرتكب غلطة ما . مهما يكن شكل الحكومة (ملكية ، سراة ، حكم العامة) فإن هناك أياماً يحكم فيها العقل وأخرى تحكم فيها الشهوة . فما من دستور قضى تماماً على ضعف الطبيعة البشرية وعيوبها . وكلما كانت القواعد دقيقة كلما أوضحت أن إدارة المجتمع صعبة ومليئة بالأخطار . لم يكن فى استطاعة حكم العامة أن يدوم إلا بالمبالغة فى الفطنة .

---

(١) انظر عن هذه النقط من الدستور الأثينى خطابى ديموسثينيس ضد ليبتينيس وضد تيموقراطيس ؛ أيسخينيس : ضد اكتيسيفون ٣٨-٤٠ ؛ أندوقيديس *De Mysteriis* ٨٣-٨٤ ، بوليدوكيس ٨ : ١٠١ .

(٢) ثوقيديديس ٣ : ٤٣ . ديموسثينيس : ضد تيموقراطيس .

وإن الإنسان ليدهش أيضاً من كل العمل الذى كان يتطلبه حكم العامة من الناس . لقد كانت حكومة عظيمة الاجتهاد . انظر فيما كان يقضى الأثينى حياته . يدعى يوماً إلى مجمع حيِّه وعليه أن يتداول فى المصالح الدينية والمالية لهذه الجماعة الصغيرة . ويوماً آخر يدعى إلى مجمع قبيلته ؛ والموضوع هو تنظيم عيد دينى أو فحص مصروفات أو إصدار قرارات ، أو تعيين رؤساء وقضاة . ولا بد أن يحضر المجمع العام للشعب ثلاث مرات شهرياً بانتظام ؛ ولا حق له فى الغياب . هذا والجلسة طويلة ؛ وهو لا يذهب إليها للتصويت فقط : يحضر منذ الصباح ويجب أن يبقى إلى ساعة متقدمة من النهار وهو يستمع إلى الخطباء . ولا يمكن أن يصوت إلا إذا كان حاضراً منذ افتتاح الجلسة واستمع إلى جميع الخطب . وهذا التصويت ، فيما يخصه، مسألة من أكثر المسائل جدية ؛ فالأمر يتعلق أحياناً بتعيين رؤساء سياسيين وعسكريين أى الذين ستوكل إليهم مصلحته وحياته لمدة عام ، وأحياناً بضريبة تقرر أو قانون يغير ، وأحياناً يجب أن يصوت على الحرب وهو يعلم علم اليقين أنه سيقدم دمه أو دم ابنه . فالمصالح الفردية مرتبطة بصالح الدولة ارتباطاً لا انفصام له . لا يستطيع الإنسان أن يكون غير مكترث ولا نزقاً . وإذا ضل ، يعلم أنه سيحمل عبء ذلك قريباً وأنه فى كل تصويت يرهن ماله وحياته . يوم قررت الحملة المشؤومة على صقلية لم يكن هناك مواطن لا يعلم أن واحداً من ذويه سيشترك فيها ؛ ولم يكن هناك واحد إلا وقد وجه كل ما فى روحه من اهتمام لكى يوازن بين ما تقدمه مثل هذه الحرب من منافع وما تعرضه من أخطار . كان من المهم جداً أن يفكر الإنسان وأن يستنير ؛ إذ أن هزيمة تنزل بالوطن لهى نقص من الكرامة الشخصية لكل مواطن ومن أمنه ومن ثروته .

لم يكن واجب المواطن مقصوراً على التصويت . فقد كان واجباً عليه أن يكون ذا منصب فى حيه أو فى قبيلته ؛ فيصبح ، إذا جاء دوره ،هيلياستيس (Heliaste) ، أى قاضياً،عاماً من كل عامين فى المتوسط (١) . ويقضى كل

(١) يعتقد أنه كان هناك ٦٠٠٠ قاض من بين ١٨٠٠٠ مواطن ؛ لكن يجب أن نحذف من هذا الرقم الأخير كل أولئك الذين لم يبلغوا الثلاثين والمرضى والغائبين والرجال المجندين فى الغزوات والمحكوم عليهم بالتجريد من الحقوق (atimie) ، وأخيراً العاجزين عجزاً واضحاً عن القيام بالقضاء .

ذلك العام فى المحاكم مشتغلا بسماع المترافعين وتطبيق القوانين . لم يكن هناك مواطن لا يدعى مرتين فى حياته للاشتراك فى مجلس الشيوخ المكون من خمسمائة عضو ؛ وعندئذ يجلس كل يوم ، لمدة عام ، من الصباح إلى المساء يتلقى بلاغات رجال الدولة ويحاسبهم ويرد على السفراء الأجانب ويحرر التعليمات للسفراء الأثينيين ويفحص جميع المسائل التى يجب أن تعرض على الشعب ، ويعد جميع القرارات . وأخيراً يستطيع أن يكون ذا منصب فى المدينة ، أرخوناً ، أو قائداً ، أو ضابطاً للمدينة إذا ما عينته القرعة أو الانتخاب . ومن ذلك نرى أنه كان عبئاً ثقيلا أن يكون المرء مواطناً فى دولة ديموقراطية ، وأنه كان فى ذلك ما يكاد يشغل الحياة بأكملها ، وأنه لم يكن يبقى إلا القليل من الوقت للأعمال الشخصية والحياة المنزلية . لذلك كان أرسطو محقاً جداً عندما قال إن الرجل الذى يحتاج للعمل لكى يعيش لا يستطيع أن يكون مواطناً . ذلك ما كانت تفرضه حكومة العامة . فكان على المواطن ، كالموظف العام فى أيامنا ، أن يهب للدولة نفسه كاملة . فكان يعطيها دمه فى الحرب ووقته فى زمن السلم . لم يكن حراً فى ترك الشؤون العامة جانباً لكى يولى شؤونه عناية أكبر . بل الأمثل أن شؤونه هى التى كان يتحتم عليه أن يهملها ليعمل لصالح المدينة . كان الناس يقضون حياتهم فى حكم أنفسهم . ولم يكن باستطاعة حكومة العامة أن تدوم إلا بشرط العمل المتواصل من جانب جميع مواطنيها . فإذا ما أبطأ الحماس قليلا أصبح لا بد من هلاكها أو فسادها .

الفصل الثانى عشر

أثرياء وفقراء ؛ حكم العامة (الديموقراطية) ، الطغاة الشعبيون

عندما أدت سلسلة الانقلابات إلى المساواة بين الناس ، ولم يعد هناك مكان للقتال من أجل المبادىء والحقوق ، حارب الناس بعضهم بعضاً من أجل المنافع. ولم تبدأ هذه الفترة الجديدة من تاريخ المدن فى وقت واحد بالنسبة لها جميعاً . فقد تبعت ، فى بعضها ، حكومة العامة بعد فترة وجيزة جداً ؛ ولم تظهر ، فى الأخرى ، إلا بعد عدة أجيال عرفت كيف تحكم نفسها فى هدوء لكن جميع المدن قد انحدرت فى زمن مبكر أو متأخر ، إلى هذه المنازعات المثيرة للأسى .

كلما ابتعدوا عن النظام القديم تكونت طبقة فقيرة . أما قبل ذلك ، عندما كان كل رجل عضواً فى فصيلة ، وله سيد ، فإن البوس كاد يكون مجهولا . كان الرجل يطعمه سيده إذ أنه كان على من يقدم له طاعته أن يقوم بدوره بكل احتياجاته . لكن الانقلابات التى فككت الفصيلة γένος غيرت ظروف الحياة البشرية أيضاً . ففى اليوم الذى تحرر فيه الإنسان من روابط الولاء رأى ضرورات الحياة ومصاعبها تقوم فى وجهه . أصبحت الحياة أكثر استقلالا لكنها أيضاً أكثر عناء وأكثر تعرضاً للنوازل . أصبح كل امرىء معنياً منذ الآن براحة نفسه وبمتعته وعمله . لقد أثرى هذا بسبب نشاطه أو بحظه السعيد ، وبقى الآخر فقيراً . فإن التفاوت فى الثروة لا مفر منه فى كل مجتمع لا يريد أن يبقى فى الحالة الأبوية أو الحالة القبليّة (حالة القبيلة)

لم يقض حكم العامة على الشقاء ؛ بل جعله ، على العكس ، محسوساً أكثر من ذى قبل . وقد جعل التفاوتُ فى الحقوق السياسية تفاوتَ الأحوال أكثر بروزاً .

وحيث أنه لم تكن هناك سلطة ما تعلو على الأثرياء والفقراء معاً وتستطيع أن تجبرهم على البقاء فى السلم فقد كان من المأمول أن تكون المبادىء الاقتصادية وظروف العمل بحيث تجبر الطبقتين على العيش فى وفاق . فكان يجب مثلا أن تحتاج إحداهما للأخرى وألا يستطيع الثرى أن يثرى إلا بالتماس العمل من الفقير وأن يجد الفقير وسائل العيش بتقديم عمله للثرى . وعندئذ كان تفاوت الثروات يشحذ همة الرجل وذكاءه ، ولا يلد الفسادَ والحربَ الأهلية .

لكن كثيراً من المدن كانت تنقصه الصناعة والتجارة نقصاً تاماً ؛ فلم تكن بيدها وسيلة ما لزيادة مجموع الثروة العامة بحيث تعطى نصيباً منها للفقير دون أن تنتزع شيئاً من أحد . حيثما وجدت التجارة كانت كل فوائدها تقريباً من نصيب الأثرياء بسبب المبالغة فى ربا المال . وإذا وجدت الصناعة كان السواد الأكبر من العمال من الأرقاء . من المعروف أنه كان فى منزل الثرى فى أثينا أو فى روما مصانع للنساجين والصاغة وصناع الأسلحة ، وجميعهم أرقاء . حتى المهن الحرة كانت موصدة تقريباً فى وجه المواطن ، ففى غالب الأحيان كان الطبيب رقيقاً يعالج المرضى لحساب سيده ، وكان مستخدمو المصارف وكثيرون من المهندسين وبناة السفن وصغار موظفى الدولة أرقاء . كان الرق آفة يشكو منها المجتمع الحر ذاته . فالمواطن لا يجد إلا قليلا من الوظائف وقليلا من العمل وسرعان ما صيَّره عدم الاشتغال كسولا . ولما كان لا يرى من يعمل غير العبيد فقد احتقر العمل : وهكذا تواطأ كل شىء ، العادات الاقتصادية ، والاستعدادات الخلقية ، والأراء المبيته ، ليحول بين الفقير وبين الخروج من بؤسه والعيش بطرق شريفة . لم تكن الثروة والفقر منظمين بحيث يستطيعان العيش فى سلام .

كان الفقير متمتعاً بالمساواة فى الحقوق ، لكن من المؤكد أن آلامه اليومية كانت تجعله يفكر فى أن المساواة فى المال كانت أفضل منها بكثير . هذا ولم يلبث طويلا حتى أدرك أن فى إمكانه أن يستخدم المساواة التى كانت فى يده للحصول على تلك التى لم تكن فى حيازته ، وأنه وهو مسيطر على الأصوات يستطيع أن يكون مسيطراً على الثروة .

بدأ بأن أراد العيش من حقه فى التصويت . فكان يتقاضى أجراً لحضور المجمع أو ليقضى فى المحاكم (١) . وإذا لم تكن المدينة من الثراء بحيث تستطيع القيام بمثل هذه المصروفات فإن أمام الفقير موارد أخرى . كان يبيع صوته ، ولما كانت مناسبات التصويت متعددة الوقوع فقد كان فى استطاعته أن يعيش . فى روما كان يحدث هذا الاتجار بانتظام وفى وضح النهار ؛ أما فى أثينا فكانوا يستترون أكثر من ذلك . فى روما ، حيث لم يكن الفقير يدخل المحاكم ، كان يبيع نفسه كشاهد ؛ وفى أثينا كقاض . ولم يكن ذلك كله لينتزع الفقير من بؤسه بل كان يلقى به فى المهانة .

هذه الوسائل المرتجلة لم تكن كافية . فاستعمل الفقير وسائل أشد عنفاً . أعد حرباً منظمة ضد الثروة . فى البدء كانت هذه الحرب مستترة فى صور شرعية . فحمّلوا الأثرياء المصروفات العامة كلها ، وكدسوا فوقهم الضرائب وجعلوهم يبنون سفناً من ذات الطبقات الثلاث ، وأرادوا منهم أن يعملوا أعياداً للشعب (٢)، ثم أكثروا من الغرامات فى الأحكام وحكموا بمصادرة الأموال لأيسر الهفوات . أفى مقدورنا أن نقول كم من الرجال حكم عليه بالنفى لمجرد أنه كان ثرياً ؟ كانت ثروة المنفى تذهب إلى بيت المال ومنه تتسرب فيما بعد لكى يتقاسمها الفقراء فى صورة الثلاثة فلوس (triobole) (٣). لكن ذلك كله لم يعد كافياً : إذ أن عدد الفقراء كان يزداد على الدوام .

---

(١) *Μισθὸς ἐκκλησιαστικός* أرسطوفانيس : مجلس النساء ٢٨٠ وما بعده . — *Μισθὸς δικαστικός.* أرسطو : السياسة ٢ : ٩ : ٣ ؛ أرسطو فانيس : الفرسان ٥١ ، ٢٥٥ ، الزنابير ٦٨٢ .

(٢) Xénophon, *Resp. Ath.*, I, 13: *Χορηγοῦσιν οἱ πλούσιοι, χορηγεῖται δὲ ὁ δῆμος, τριηραρχοῦσι καὶ γυμνασιαρχοῦσιν οἱ πλούσιοι, ὁ δε δῆμος τριηραρχεῖται καὶ γυμνασιαρχεῖται. Ἀξιοῖ οὖν ἀργύριον λαμβάνειν ὁ δῆμος καὶ ᾄδων καὶ τρέχων καὶ ὀρχούμενος, ἵνα αὐτός τε ἔχῃ καὶ οἱ πλούσιοι πενέστεροι γίγνωνται.* قارن أرسطوفانيس : الفرسان البيت ٩٢٣ وما بعده

(٣) كان يعطى لكل أثينى يحضر المجامع ثلاثة فلوس (trioboles) أى حوالى قرشين عن الجلسة الواحدة . — المعرب

وعندئذ انتهى الفقراء فى كثير من البلدان إلى استعمال حقهم فى التصويت لكى يقرروا إلغاء الديون ، أو المصادرة بالجملة والانقلاب التام .

فى الفترات السابقة ، احترموا حق الملك لأن أساسه كان العقيدة الدينية. طالما كان كل ميراث ملازماً لعبادة ما ، ومعتبراً غير منفصل عن الآلهة المنزليين لأسرة ما ، لم يفكر أحد فى أن له الحق فى تجريد شخص من حقله . لكن فى الفترة التى قادتنا إليها الانقلابات ، هجرت هذه العقائد القديمة واختفت ديانة الملك. لم تعد الثروة أرضاً مقدسة مصونة . لم تعد تبدو هبة من الآلهة بل هبة من المصادفة ؛ يود الإنسان أن يستولى عليها بسلبها ممن يحوزها . وهذه الرغبة، التى كانت تبدو إثما فيما مضى ، بدأت تلوح عملا مشروعاً . لم يعودوا يرون المبدأ السامى الذى كان يقدس حق الملك ؛ لم يكن يشعر كل فرد إلا بحاجته هو ذاته ، ويقيس حقه عليها .

سبق أن قلنا أنه كان للمدينة ، عند الإغريق على الأخص ، سلطان لا حد له ، وأن الحرية كانت مجهولة ، وأن الحق لم يكن شيئاً ما أمام إرادة الدولة. وقد نتج عن ذلك أنه كان فى استطاعة أغلبية الأصوات أن تقرر مصادرة أموال الأثرياء ، وأن الإغريق لم يكونوا يرون فى ذلك خروجاً عن القانون ولا ظلماً. فإن ما قررته الدولة هو القانون . وقد كان انعدام الحرية الفردية هذا سبباً للمصائب والفتن فى بلاد الإغريق . أما روما، التى كانت أكثر احتراماً بقليل لحق الإنسان ؛ فقد أصابها أقل من ذلك أيضاً .

يروى پلوتارخوس أنهم قرروا فى ميغارا على أثر فتنة أن تلغى الديون وأن يرد الدائنون الأرباح التى دفعت من قبل، وذلك علاوة على فقدان رأس المال(١).

يقول أرسطو (٢) : «عندما انتزع الحزب الشعبى السلطة فى ميغارا ، وكذلك فى بلدان أخرى ، بدأ بأن حكم على بعض الأسرات الثرية بمصادرة أموالها؛ لكنه بمجرد أن سلك ذلك الطريق لم يعد فى استطاعته أن يقف ، فكان لا بد

---

(١) بلوتارخوس : مسائل إغريقية ١٨ .

(٢) أرسطو : السياسة ٥ : ٤ : ٣ .

من ضحية جديدة كل يوم . وفى النهاية أصبح عدد الأثرياء الذين سلبوهم أموالهم ونفوهم من بلادهم عظيما بحيث كون جيشاً » .

وفى سنة ٤١٢ «أباد شعب ساموس مائتين من خصومه ، ونفى أربعمائة آخرين واقتسم أراضيهم وبيوتهم (١) .»

وفى سيراقوسه لم يكد الشعب يتخلص من الطاغية ديونيسيوس حتى قرر اقتسام الأراضى منذ أول اجتماع (٢).

كلما رأينا حرباً أهلية ، فى تلك الفترة من التاريخ الإغريقى ، رأينا الأثرياء فى حزب والفقراء فى حزب آخر. يريد الفقراء أن ينتزعوا الثروة ، ويريد الأثرياء أن يحتفظوا بها أو أن يستردوها . يقول مؤرخ إغريقى «إن الغرض من كل حرب أهلية لهو نقل الثروة » (٣) . كان كل مثير للشعب يعمل كما عمل مولپاغوراس (Molpagoras) الكيوسى (من كيوس Cios) ، فقد سلم للجمهور من كانت فى حيازتهم أموال وقتل البعض ونفى البعض الآخر ووزع أملاكهم بين الفقراء . وفى مسينه (٤) ، بمجرد أن تغلب الحزب الشعبى نفى الأثرياء واقتسم أراضيهم (٥) .

لم يكن قط لدى الطبقات العالية عند القدماء كفاية من الذكاء ولا كفاية من المهارة لتوجيه الفقراء نحو العمل ومساعدتهم على الخروج من البؤس والفساد بطريق شريف . وقد حاول ذلك بعض رجال من أولى الألباب ولم ينجحوا فيه . وقد نتج عن ذلك أن المدن كانت تتقلب دائماً بين ثورتين إحداهما تسلب الأثرياء والأخرى ترد إليهم حيازة ثروتهم. وقد استمر ذلك من حرب البيلوپونيز إلى استيلاء الرومان على بلاد الإغريق .

كان الثرى والفقير ، فى كل مدينة ، عدوين يعيشان جنباً لجنب ، أحدهما يطمع فى الثروة والآخر يرى ثروته مطموعاً فيها . ليست بينهما صلة تربطهما

---

(١) ثوقيديديس ٨ : ٢١

(٢) بلوتارخوس : ديون ٣٧ ، ٤٨ .

(٣) بوليبوس ١٥ : ٢١ : ٣ : Ἵνα διαιρῶνται τας ἀλλήλων οὐσίας

(٤) كلما تكلم المؤلف عن مسينه فى هذا الكتاب فهو يقصد مسينه التى فى بلاد الاغريق وليست مسينه التى فى صقلية . - المعرب .

(٥) بوليبوس ٧ : ١٠ طبعة ديدو .

ولا خدمة ولا عمل . لا يستطيع الفقير أن يحصل على الثروة إلا بسلب الثرى . ولا يستطيع الثرى أن يدافع عن ثروته إلا بمهارة فائقة أو بالقوة . كان كل منهما يرمق الآخر بعين الحقد . فكانت فى كل بلدة مؤامرة مزدوجة : يتآمر الفقراء بدافع الجشع ، والأثرياء بدافع الخوف . يقول أرسطو إن الأثرياء حلفوا فيما بينهم بهذا القسم «أقسم أن أكون على الدوام عدواً للشعب وأن أنزل به كل ما استطيع من سوء» (١) .

ليس بمستطاع أن نقول أى الفريقين ارتكب من القسوة والجرائم أكثر مما ارتكب الآخر . محت الأحقاد من القلب كل إحساس إنسانى «كانت فى ميليتوس حرب بين الأثرياء والفقراء . وقد تغلب الفقراء أولا وأجبروا الأثرياء على الفرار من البلدة . لكنهم أسفوا فيما بعد لعدم استطاعتهم ذبحهم فأخذوا أطفالهم وجمعوهم فى حظائر وسحقوهم تحت أظلاف الثيران . ثم دخل الأثرياء البلدة مرة أخرى وأصبحوا السادة من جديد . وأخذوا بدورهم أطفال الفقراء ودهنوهم بالقطران وأحرقوهم أحياء.» (٢)

---

(١) أرسطو : السياسة ٥ : ٧ : ١٩ . بلوتارخوس : ليساندروس ١٩ .

(٢) هيراقليديس البنطى فى أثينايوس ١٢ : ٢٦ . - إنه لمن المألوف عادة اتهام حكم العامة الأثينى بأنه كان لبلاد الاغريق القدوة فى هذا الافتئات وهذه الانقلابات . بينما ، على العكس ، تكاد تكون أثينا هى المدينة الاغريقية الوحيدة المعروفة لنا التى لم تر داخل جدرانها هذه الحرب الفظيعة بين الأثرياء والفقراء . لقد فهم هذا الشعب الذكى الحكيم ، منذ اليوم الذى بدأت فيه سلسلة الانقلابات ، أنه يمشى نحو غاية لايستطيع أن ينقذ المجتمع منها غير العمل . ولذلك شجعه وجعله مبجلا. فقد نص صولون على أن كل رجل لا عمل له يحرم من الحقوق السياسية . وأراد بريكليس ألا يضع أى رقيق يده فى الآثار العظيمة التى أقامها ، واحتفظ بكل هذا العمل للرجال الأحرار. هذا وقد كان الملك مجزءاً بحيث أنه كان يحصى، فى نهاية القرن الخامس ، فى إقليم أتيكا الصغير ، أكثر من عشرة آلاف مواطن من الملاك العقاريين مقابل خمسة آلاف فقط لم يكونوا ملاكاً (ديونيسيوس الهاليكارناسى De Lysia, 32) . ولذلك كانت أثينا أقل اضطراباً من بقية بلاد الاغريق ، إذ أنها كانت تعيش فى نظام اقتصادى خير من نظام المدن الأخرى بقليل . كانت حرب الفقراء ضد الأثرياء موجودة فيها كما كانت فى سواها، لكنها كانت فيها أقل عنفاً ولم تنشأ عنها اضطرابات بنفس الخطورة ؛ فاقتصرت على طريقة للضرائب والتكاليف (Litturgies) جلبت الخراب على الطبقة الثرية، وعلى طريقة قضائية أرعدتها وسحقتها ؛ لكنها لم تذهب ، على الأقل ، إلى حد إلغاء الديون واقتسام الأراضى.

ماذا جرى لحكومة العامة عندئذ؟ إنها لم تكن مسؤولة تماماً عن هذه الاعتداءات وهذه الجرائم ، لكنها كانت أول من أصيب بها. لم تعد هناك قواعد ؛ هذا وحكم العامة لا يستطيع أن يعيش إلا بين أدق القواعد وأكثرها حظاً من المراعاة لم يعودوا يرون حكومات حقيقية بل أحزاباً فى يدها السلطان . لم يعد الحاكم يباشر السلطة لمصلحة السلم والقانون ، بل لمصلحة حزبه ومطامعه . لم يعد للإمرة أسانيد شرعية ولا صفة مقدسة ؛ لم يعد فى الطاعة شىء اختيارى ؛ بل كانت قسرية ، تـعدُ نفسها بالثأر دائماً . وكما يقول أفلاطون ، لم تعد المدينة سوى مجموعة من الناس جزء منها سيد والآخر رقيق . كانوا يقولون عن الحكومة إنها حكومة سراة عندما يكون الأثرياء فى السلطة ، وحكومة عامة عندما يكون الفقراء فيها . وفى الحق أن حكم العامة بالمعنى الصحيح لم يعد موجوداً .

وقد تغير حكم العامة وفسد ابتداء من ذلك اليوم الذى تسربت إليه فيه الحاجات والمنافع المادية. فقد أصبح حكم العامة، مع وجود السلطة فى يد الأثرياء، حكم أقلية عنيفاً ؛ وأصبح حكم العامة ، فى يد الفقراء ، هو الطغيان بعينه. نرى فى جميع المدن الإغريقية والإيطالية ، من القرن الخامس إلى القرن الثانى قبل الميلاد ، وفيما عدا روما كذلك ، أن الأشكال الجمهورية معرضة للخطر ، وأنها أصبحت بغيضة لأحد الأحزاب . هذا ويمكن أن نميز بوضوح من هم الذين يريدون أن يهدموها ، ومن هم الذين يريدون المحافظة عليها . بقى الأثرياء ، باعتبارهم أكثر استنارة وأكثر شمماً ، أوفياء للنظام الجمهورى ؛ بينما طاب للفقراء ، الذين تقل لديهم قيمة الحقوق السياسية ، أن يتخذوا طاغية رئيساً لهم . عند ما عرفت هذه الطبقة الفقيرة ، بعد عدة حروب أهلية ، أنه لا جدوى من انتصاراتها ، وأن الحزب المضاد يعود للسلطة دائماً ، وأنه بعد طول تقلبات المصادرة والاسترداد كان لا بد من العودة للنضال دائماً ، تصورت أن تقيم نظاماً ملكياً يتفق مع مصالحها ويضمن لها فى المستقبل فوائد انتصارها بكتم أنفاس الحرب المضاد على الدوام . ولهذا الغرض أقامت الطغاة .

ابتداء من هذه اللحظة غيرت الأحزاب أسماءها . لم يعد المرء من حزب السراة أو حزب العامة ؛ بل حارب من أجل الحرية أو حارب للطغيان . وتحت هذين اللفظين كانت الثروة والفقر هما اللذين يتحاربان . فالحرية معناها الحكومة التى يسود فيها الأثرياء ويدافعون عن أموالهم ؛ والطغيان يدل على عكس ذلك تماماً .

إنه لحدث عام فى تاريخ بلاد الإغريق وإيطاليا ، ويكاد يخلو من الاستثناء ، أن الطغاة يخرجون من الحزب الشعبى ، وأن عدوهم هو حزب السراة . يقول أرسطو : «ليس للطاغية رسالة غير حماية الشعب ضد الأثرياء ؛ إنه بدأ دائماً قائداً للشعب ، ومن جوهر الطغيان محاربة السراة » . ويقول أيضاً : «الوسيلة للوصول إلى الطغيان هى اكتساب ثقة الجمهور ؛ وإنما تكتسب ثقته بإعلان المرء نفسه عدواً للأثرياء . هكذا فعل پيسيستراتيس (Pisistrate) فى أثينا ، وثياغينيس (Théagène) فى ميغارا ، وديونيسيوس فى سيراقوسه . » (١)

يحارب الطاغية الأثرياء دائماً. فى ميغارا ، فجأ ثياغينيس قطعان مواشى الأثرياء فى الريف وذبحها . وفى كومه ، أبطل أرسطوديموس الديون وانتزع الأراضى من الأثرياء ليعطيها للفقراء . وهكذا فعل نيكوكليس فى سيقيوُون ، وأرسطوماخوس فى أرغوس . ويصور لنا الكتاب كل أولئك الطغاة قساة جداً ؛ وليس من المحتمل أنهم كانوا جميعاً كذلك بحكم الطبيعة بل بحكم الضرورة الملحة ، حين وجدوا أنفسهم مضطرين لإعطاء الفقراء أراضى أو أموالا . لم يكن فى استطاعتهم أن يبقوا فى الحكم إلا بقدر إرضائهم لجشع الجمهور ورعايتهم لشهواته .

كان طاغية هذه المدن الإغريقية شخصية لا يستطيع أى شىء فى أيامنا أن يصورها لنا . إنه رجل يعيش بين رعاياه من غير وسيط ولا وزراء وينزل بهم عقابه مباشرة . لم يكن فى ذلك الوضع السامى المستقل الذى يشغله ملك دولة كبيرة . وكانت فيه كل الشهوات الصغيرة التى تكون فى أفراد الناس : ولم يكن خلواً من الإحساس بمنافع المصادرة ؛ كان يدركه الغضب وتستولى عليه

---

(١) أرسطو : السياسية ٥ : ٨ : ٢ - ٣ ؛ ٥ : ٤ : ٥ .

الرغبة فى الانتقام الشخصى ؛ كان يخاف ، ويعلم أن له أعداء قريبين منه وأن الرأى العام يرضى عن الاغتيال عند ما يكون القتيل طاغية . ونستطيع أن نتصور ما يمكن أن تكون حكومة رجل كهذا . ففيما عدا حالتين شريفتين ،أو ثلاث حالات تعد شاذة ، لم يحكم الطغاة الذين قاموا فى جميع البلدان الإغريقية ، فى القرنين الرابع والثالث ، إلا بتملقهم أسوأ شهوات الجمهور ،وبتحطيمهم بالعنف كل ما كان سامياً بحكم المولد أو الثروة أو الجدارة . كان سلطانهم لا حد له . وقد استطاع الإغريق أن يعرفوا إلى أى حد يسهل أن تتحول الحكومة الجمهورية إلى استبدادية عند ما لا تقر للحقوق الفردية باحترام كبير . أعطى القدماء للدولة سلطاناً كبيراً ، فإذا ما قبض طاغية ذات يوم على هذه الهيمنة الشاملة فإنه لم يعد يبقى للناس أى ضمان معه وأصبح هو المسيطر شرعاً على حياتهم وعلى أموالهم .

الفصل الثالث عشر

انقلابات اسـپرطه

يجب ألا نعتقد أن اسپرطه قد عاشت عشرة قرون دون أن ترى الانقلابات بل ، على العكس ، يخبرنا ثوقيديديس «أنها كانت مباءة للفتن أكثر من أية مدينة إغريقية أخرى» (١). حقاً إننا لا نعرف من تاريخ هذه المنازعات الداخلية إلا قليلا ، لكن مصدر ذلك أن حكومة اسپرطه جعلت من سنتها وعادتها أن تحيط نفسها بأعمق الأسرار (٢) . فقد أخفت معظم المنازعات التى أثارت الاضطراب فيها وتركتها للنسيان ؛ لكنا نعرف منها ، على الأقل ، ما يكفى للقول بأنه إذا كان تاريخ اسپرطه يختلف بدرجة محسوسة عن تاريخ البلدان الأخرى فإن ذلك لا يمنع من أنها اجتازت نفس السلسلة من الثورات .

كان الدوريون قد تكونوا فى هيئة شعب عندما غزوا الپيلوپونيز . أى داع دعاهم للخروج من بلادهم ؟ أغزو من شعب أجنبى أم ثورة داخلية ؟ السبب مجهول . إنما يبدو مؤكداً أنه فى تلك الفترة من وجود الشعب الدورى كان نظام الفصيلة القديمة قد اختفى . فلم يعد يميز لديه ذلك النظام العتيق للأسرة . ولم تعد توجد آثار من النظام الأبوى ولا بقايا من طبقة النبلاء الدينيين ولا الولاء الوراثى . لا يُرى غير محاربين متساويين تحت ملك . فمن المحتمل إذن أن ثورة اجتماعية أولى قد تمت ، إما وهم فى إقليم دوريس (Doride) ، وإما فى الطريق الذى أدى بهذا الشعب إلى اسپرطه . وإذا قورن المجتمع الدورى فى القرن التاسع بالمجتمع اليونى فى نفس الفترة تبين أن الأول كان أكثر تقدماً من الثانى فى سلسلة التغييرات ؛ لقد دخل الجنس اليونى فى طريق الانقلاب متأخراً ، لكن من الحق أنه اجتازها بسرعة أكبر من الثانى .

---

(١) ثوقيديديس ١ : ١٨ .

(٢) شرحه ٥ : ٦٨ .

ولو أن نظام الفصيلة لم يعد موجوداً عند الدوريين عند وصولهم إلى اسپرطه إلا أنهم لم يكونوا قد استطاعوا عندئذ أن يتخلصوا منه تماماً بحيث لاتبقى لديهم بعض أنظمة منه ، كعدم تجزئة الميراث وعدم التنازل عنه . ولم تلبث هذه الأنظمة أن أقامت سراة من جديد فى المجتمع الاسپرطى .

ترينا جميع الآثارات أنه فى الفترة التى ظهر فيها ليكورغ كانت توجد طبقتان من الاسپرطيين وأنهما كانتا فى نزاع (١) . كانت الملكية تميل ميلا طبيعياً إلى التحيز للطبقة الدنيا . أما ليكورغ الذى لم يكن ملكاً فقد « وضع نفسه على رأس الأخيار (٢) . وأجبر الملك على أن يُقسِم قَسَماً يقلل من سلطته ، وأقام مجلس شيوخ من الأقلية ، وأخيراً ، جعل الطغيان يتحول إلى سراة ، حسب تعبير أرسطو (٣)

ويجب ألا تغرنا طنطنة بعض القدماء والكثيرين من المحدثين عن حكمة أنظمة اسپرطه ، وعن السعادة التى لا مبدل لها التى كانوا يتمتعون بها فيها ، وعن المساواة والحياة المشتركة . فقد كانت اسپرطه ، من بين جميع البلدان التى وجدت على الأرض ، هى التى تحكمت فيها السراة بأشد قسوة ، والتى عرفت فيها المساواة أقل مما عرفت فى سواها . يجب ألا نتكلم عن اقتسام الأراضى على على أساس المساواة ؛ إذا كانت هذه المساواة قد وجدت فى وقت ما فمن المؤكد أنها لم تبق قائمة . إذ أنه فى زمن أرسطو «كان البعض يملك ممتلكات شاسعة ولم يكن للبعض الآخر شىء أو يقرب من ألا يكون له شىء ؛ فلا يكاد يعد فى جميع لاكونيا ألف من الملاك (٤) . »

لنترك الهيلوتيس واللاكونيين جانباً ولنقتصر على فحص المجتمع الاسپرطى : نجد فيه سلماً من طبقات بعضها فوق بعض . فنجد أولا النيوداموداى (Néodamodes)

---

(١) بلوتارخوس : ليكورغ ٨

(٢) شرحه ٥ : Τούς ἀρίστους προσῆγε

(٣) أرسطو : السياسة ٥ : ١٠ : ٣ (طبعة ديدو ص ٥٨٩) .

(٤) أرسطو : السياسية ٢ : ٦ : ١٨ و١٩ ؛ انظر بلوتارخوس : أغيس ٥

الذين يلوح أنهم أرقاء قدماء قد تحرروا (١) ؛ ثم الإپيوناكتوى (Epeunactes) الذين سمح لهم أن يملؤوا الفراغ الذى أحدثته الحرب بين الاسپرطيين (٢) ؛ وفى مرتبة أعلى من هذه بقليل يظهر الموثاكيس (Mothaces) الذين يشبهون الموالى المنزليين إلى حد ما فيعيشون مع السيد ويحيطون به ويشاركون فى مشاغله وأعماله وأعياده ويحاربون بجواره (٣) . ثم تأتى بعد ذلك طبقة النغلاء νόθοι الذين ينحدرون من اسپرطيين حقيقيين ، وتقصيهم عنهم الديانة والقانون (٤) ؛ ثم بعـد ذلك طبقة كانوا يسمونها الأدنياء (ὑπομειονες) (٥) وربما كانوا صغار الأسرة المحرومين من الميراث . وأخيراً ، فوق كل ذلك ، تقوم طبقة السراة المكونة من الرجال الذين كانوا يسمون الأكفاء (ὅμοιοι) ؛ والواقع أن هؤلاء الناس كانوا أكفاء فيما بينهم لكنهم أعلى بكثير من البقية الأخرى ؛ ولانعرف عدد رجال هذه الطبقة وإنما نعلم فقط أنه كان محدوداً جداً وقد أحصاهم أحد أعدائهم فى الميدان العام ذات يوم فلم يجد غير نحو الستين بين جمهور من ٤٠٠٠ فرد (٦) . وهؤلاء الأكفاء يساهمون دون سواهم فى حكومة المدينة . يقول اكسينوفون «لأن يكون الإنسان خارج هذه الطبقة معناه أنه خارج الهيئة السياسية .» (٧) ويقول ديموستينيس أن الرجل الذى يدخل طبقة الأكفاء يصبح بمقتضى ذلك وحده «واحداً من سادة الحكومة» (٨) ويقول أيضاً «يسمونهم الأكفاء لأن المساواة يجب أن تسود بين أعضاء الأقلية الحاكمة» .

وهؤلاء الأكفاء هم دون سواهم أصحاب حقوق المواطن الكاملة ؛

---

(١) ميرون البرينى (Myron de priène) فى أثينايوس ٦ .

(٢) ثيوبومبوس فى أثينايوس ٦ .

(٣) أثينايوس ٦ : ١٠٢ . بلوتارخوس: كليؤومينيس ٨ . إيليانوس ١٢ : ٤٣

(٤) أرسطو : السياسة ٨ : ٦ (٥ : ٦) . اكسينوفون : هلينيكا ٥ : ٣ : ٩ .

(٥) اكسينوفون : هلينيكا ٣ : ٣ : ٦ .

(٦) اكسينوفون : شرحه ٣ : ٣ : ٥ .

(٧) اكسينوفون : الجمهورية اللاقيديمونية ١٤ .

(٨) ديموستينيس : ضد ليبتينيس ١٠٧ .

ويؤلفون دون سواهم ما كان يسمى فى اسپرطه الشعب أى الهيئة السياسية . ومن هذه الطبقة يخرج الشيوخ الثمانية والعشرون بطريق الانتخاب .

ويطلق على الدخول فى سلك مجلس الشيوخ ، فى اللغة الرسمية فى اسپرطه ، الحصول على جائزة الفضيلة (١) . وإنا لا ندرى ماذا كان يجب من الكفاءة والمولد والثروة لتكوين هذه الفضيلة . ونرى جيداً أن المولد لم يكن كافياً طالما كان هناك على الأقل ما يشبه الانتخاب (٢) ؛ ويجب الاعتقاد بأنه كان للثروة حساب كبير فى بلدة «كانت تحب المال إلى أقصى درجات الحب ، وحيث كان كل شىء مقبولا من الأثرياء » (٣) .

ومهما يكن فإن هؤلاء الشيوخ ، الذين كانوا غير قابلين للعزل كانوا يتمتعون بسلطة عظيمة جداً ، إذ أن ديموسثينيس يقول إنه فى اليوم الذى يدخل فيه رجل إلى مجلس الشيوخ يصبح مستبداً فى نظر الجمهور (٤) . كان مجلس الشيوخ هذا ، الذى كان الملوك مجرد أعضاء فيه ، يحكم الدولة طبقاً لطريقة هيئات السراة المألوفة ؛ وكان هناك حكام حوليون ، يعود إليه حق انتخابهم بطريق غير مباشر ، ويمارسون باسمه سلطة مطلقة . وهكذا كان لاسپرطه نظام جمهورى ، بل لقد كان لها كل مظاهر حكم العامة : ملوك كهنة ، ورجال دولة حوليون ، ومجلس شيوخ له حق المشاورة ، ومجمع للشعب . لكن هذا الشعب لم يكن سوى اجتماع مائتين أو ثلاثمائة رجل .

هكذا كانت حكومة اسپرطه منذ ليكورغ ، وعلى الأخص منذ قيام الإيفورات . كانت هناك سراة تتألف من بعض الأثرياء وتنوء بكلكل من حديد على الهيلوتيس وعلى اللاكونيين بل على السواد الأكبر من الاسپرطيين ،

---

(١) Ἆθλον أو Νικητήριον τῆς ἀρετῆς أرسطو ٢ : ٦ : ١٥ : ديموسثينيس ضد ليبتينيس ١٠٧ . بلوتارخوس : ليكورغ ٢٦ .

(٢) ينعت أرسطو (السياسة ٢ : ٦ : ١٨) هذه الطريقة فى الانتخاب بأنها صبيانية παιδαριώδης وقد وصفها بلوتارخوس : ليكورغ ٢٦ .

(٣) أرسطو : السياسة ٢ : ٦ : ٥ ؛ ٥ : ٦ : ٧ .

(٤) ديموسثينيس : ضد ليبتينيس ١٠٧ . اكسينوفون : حكومة اللاقيديمونيين .

وقد عرفت، بحكم همتها ومهارتها ، وضآلة ذمتها ، وقلة اكتراثها للقوانين الخلقية ، أن تحافظ على السلطة خلال خمسة قرون . لكنها أثارت ضغائن قاسية وكان عليها أن تخمد عدداً كبيراً من الثورات .

ليس لنا أن نتكلم عن مؤامرات الهيلوتيس . وليست كل مؤامرات الاسپرطيين معروفة لنا : فقد كانت الحكومة من فرط المهارة بحيث لم يكن يفوتها أن تحاول أن تخفى حتى ذكراها . بيد أن منها ما لم يستطع التاريخ أن ينساه . نعلم أن المستعمرين الذين أسسوا تارنته كانوا من الاسپرطيين الذين أرادوا أن يقلبوا الحكومة . وقد عرفت بلاد الإغريق من كلمة مارقة من الشاعر تيرتايوس (Tyrtée) أن حزباً تآمر أثناء حروب مسينه للحصول على اقتسام الأراضى (١) .

إن ما أنقذ اسپرطه لهو الانقسام البالغ الذى عرفت كيف تخلقه بين الطبقات الدنيا : لم يكن الهيلوتيس ليتفقون مع اللاكونيين ، وكان الموثاكيس يحتقرون النيوداموداى . لم يكن فى الإمكان أى تحالف . ولقد كانت السراة بفضل تربيتها الحربية والاتحاد الوثيق بين أعضائها على كفاية من القوة دائماً لمقاومة كل واحدة من الطبقات المعادية .

حاول الملوك ما عجزت أية طبقة عن تحقيقه . فكان كل من أراد منهم الخروج من حالة الضعة ، التى وضعهم السراة فيها ، يبحث عن تكأة لدى أهل الطبقة الدنيا . ففى خلال حرب الفرس وضع پوسانياس مشروعاً لرفع الملكية والطبقات الوضيعة معاً بقلب الأقلية الحاكمة فقضى عليه الاسپرطيون باتهامه بأنه عقد صلات مع ملك الفرس . وربما كانت جريمته الحقيقية أنه فكر فى تحرير الهيلوتيس (٢) . ويمكن أن نعد فى التاريخ كم بلغ عدد الملوك الذين نفاهم الإيفورات . وإن سبب هذه الأحكام لمما يسهل التخرص به . وقد قاله

---

(١) أرسطو : السياسة ٥ : ٦ : ٢ .

(٢) شرحه ٥ : ١ : ٥ . ثوقيديديس ١ : ١٣ : ٢ .

أرسطو : «جعل ملوك اسبرطه من أنفسهم قادة للشعب لمقاومة الإيفورات ومجلس الشيوخ (١) .»

فى سنة ٣٩٧ ، كادت مؤامرة تقلب حكومة الأقلية هذه . فإن شخصاً يدعى كينادون (Cinadon) ، لم يكن ينتمى إلى طبقة الأكفاء ، كان رئيساً للمتآمرين ، وعندما كان يريد أن يضم رجلا للمؤامرة كان يقوده إلى الميدان العام ويجعله يعد المواطنين ، وكانوا يبلغون بما فيهم الملوك والإيفورات والشيوخ حوالى السبعين وعندئذ يقول له كينادون : «هؤلاء الناس هم أعداؤنا ؛ أما جميع البقية الذين يملأون الميدان ويزيد عددهم على أربعة الآلاف فإنهم على العكس حلفاؤنا» ويضيف : « عند ما تلتقى اسبرطيا فى الريف اعتبره عدواً وسيداً ؛ أما الرجال الآخرون فإنهم جميعاً أصدقاء » . فاتحد هذه المرة جميع الهيلوتيس واللاكونيين والنيوداموداى والهيبوميبونيس ὑπομείονες وكانوا شركاء لكينادون ؛ وذلك كما يقول المؤرخ « لأنه كان لديهم جميعاً من الحقد على أسيادهم بحيث لم يكن بينهم واحد لا يعترف بأنه يلذ له أن يلتهمهم من غير طهى» لكن حكومة اسبرطه كانت حسنة الخدمة فلم يكن يخفى عليها سر . زعم الإيفورات أن أحشاء الأضاحى كشفت لهم عن المؤامرة فلم يتركوا للمتآمرين وقتاً للعمل . ألقوا القبض عليهم وأهلكوهم سراً . وأنقذت الأقلية الحاكمة مرة أخرى . (٢) .

وبفضل هذه الحكومة استمر التفاوت فى الازدياد على الدوام . وقد أدت حرب البيلوبونيز والغزوات فى آسيا إلى تدفق المال فى اسبرطه . لكنه كان موزعاً بطريقة متفاوتة إلى درجة كبيرة ، ولم يُثْرِ منه إلا الذين كانوا أثرياء من قبل . وفى نفس الوقت اختفت الملكية الصغيرة . فتضاءل عدد الملاك ، الذى كان لا يزال حوالى الألف فى زمن أرسطو ، إلى مائة بعده بقرن (٣) . كانت الأرض بأكملها فى بضع أيد ، ولم تكن هناك صناعة ولا تجارة تتيحان

---

(١) أرسطو : السياسة ٢ : ٦ : ١٤ .

(٢) اكسينوفون : هلينيكا ٣ : ٣ .

(٣) بلوتارخوس : أغيس ٥ .

للفقير عملا ؛ وكان الأثرياء يزرعون أملاكهم الشاسعة بأيدى الأرقاء. فى ناحية، كان بضع رجال يملكون كل شىء ، وفى الناحية الأخرى ، السواد الأكبر لا يملك شيئاً ما. يقدم لنا پلوتارخوس فى ترجمة حياة أغيس وفى ترجمة كايؤومينيس صورة للمجتمع الاسپرطى . نرى فيها حباً هائماً للثروة ، كل شى يعتبر دونها ؛ لدى بضع أفراد الترف والطراوة والرغبة فى زيادة مالهم زيادة لا حد لها ؛ وفيما عدا ذلك ، لا شىء سوى جمهور بائس ، معدم ، ليست له حقوق سياسية ، وليست له أية قيمة فى المدينة ، حسود ، حقود ، تقضى عليه مثل هذه الحالة الاجتماعية بالرغبة فى الثورة .

عند ما دفعت الأقلية الحاكمة الأمور إلى أقصى حدودها الممكنة كان لا بد أن تتم الثورة وأن يحطم حكم العامة حواجزه فى النهاية بعد أن بقى زمناً طويلا معطلا محجوزاً . وإن الإنسان ليحزر أيضاً أنه بعد ضغط كبير كهذا لم يكن فى استطاعة حكم العامة أن يقف عند إصلاحات سياسية بل كان لا بد أن يصل إلى الإصلاحات الاجتماعية بالضربة الأولى .

كانت ضآلة عدد الاسپرطيين الذين كانوا هكذا بحكم المولد (فلم يكونوا يزيدون على أكثر من سبعمائة من مختلف الطبقات) ، وضعف الأخلاق كنتيجة لاضطهاد طويل سبباً فى ألا تأتى الإشارة بالتغييرات من الطبقات الدنيا . ولقد جاءت من ملك . فقد حاول أغيس القيام بهذه الثورة ، التى لم يكن هناك بد من قيامها ، بوسائل مشروعة مما زاد فى صعوبات مشروعه . قدم لمجلس الشيوخ ، أى للأثرياء أنفسهم ، مشروعين بقانون لإلغاء الديون واقتسام الأراضى . ولا مجال للإفراط فى الدهشة من أن مجلس الشيوخ لم يرفض هذه الاقتراحات : إذ ربما اتخذ أغيس إجراءات ما لكى تقبل . لكن بعد التصويت على القوانين بقى تنفيذها . هذا وإن الإصلاحات التى من هذا القبيل تبلغ دائماً من صعوبة التنفيذ ما يجعل أكثر الناس جرأة يفشل فيها . فلما أوقف أغيس عند حد بفعل مقاومة الإيفورات . اضطر إلى الخروج عن الطريق الشرعى : فأقال هؤلاء الحكام وعين سواهم بمحض سلطته ؛ ثم سلح أنصاره وأقام نظاماً من الإرهاب مدة عام . وفى أثناء ذلك استطاع أن يطبق القانون الخاص بالديون وأحرق جميع مستندات الدين فى الميدان العام . لكنه

لم يجد الوقت لتقسيم الأراضى . ولا ندرى إن كان أغيس قد تردد وذعر من عمله أو أن الأقلية الحاكمة قد نشرت ضده اتهامات ماهرة ؛ لكن ما حدث هو أن الشعب انفصل عنه وتركه يهوى ، فذبحه الإيفورات وأعيدت حكومة السراة .

استأنف كليؤومينيس مشروعات أغيس لكن فى لباقة كبيرة وأمانة قليلة . بدأ بسفك دم الإيفورات وأبطل بجرأة هذا المنصب الذى كان بغيضاً عند الملوك وعند الحزب الشعبى ؛ ونفى الأثرياء ثم قام بالثورة بعد هذا الانقلاب فقرر قسمة الأراضى ومنح حق المدينة لأربعة آلاف من اللاكونيين . وجدير بالملاحظة أنه لا أغيس ولا كليؤومينيس اعترف بأنه كان يقوم بثورة ، وأن كلا منهما كان يستمد سلطانه من اسم المشرع العتيق ليكورغ ويدعى أنه يعيد اسپرطه إلى العادات العتيقة . ومن المؤكد أن دستور كليؤومينيس كان بعيداً عنها جداً . كان الملك فى الحقيقة سيداً مطلقاً ؛ فما من سلطة كانت توازن سلطته ؛ كان يحكم على نمط الطغاة الذين كانوا عندئذ فى معظم البلدان الإغريقية . ويلوح أن شعب اسپرطه كان قليل الاهتمام بالحريات العامة ، راضياً بحصوله على الأراضى . لم يدم هذا الموقف طويلا فقد أراد كليؤومينيس أن ينشر نظام حكم العامة فى جميع الپيلوپونيز ، حيث كان أراتوس (Aratus) يعمل فى تلك الفترة تماماً فى إقامة نظام للحرية والسراة الحكيمة . فاضطرب الحزب الشعبى فى جميع البلدان باسم كليؤومينيس آملا أن يحصل ، كما حدث فى اسپرطه ، على إلغاء الديون واقتسام الأراضى . وهذا الهياج غير المنظور من جانب الطبقات الوضيعة هو الذى اضطر أراتوس إلى تغيير كل مشروعاته ؛ لقد اعتقد أنه يستطيع الاعتماد على مقدونيه ، التى كانت سياسة ملكها أنتيغونوس دوسون (Antigone Doson) فى ذلك الوقت ، أن يحارب الطغاة والحزب الشعبى فى كل مكان ، فأدخلها فى الپيلوپونيز . وقد هزم أنتيغونوس والأخيويون (Acthéens) كليؤومينيس فى سيلاسيا (Sellasie) . وبذلك تحطم حكم العامة الاسپرطى مرة أخرى ، وأعاد المقدونيون الحكومة القديمة (سنة ٢٢٢ قبل الميلاد) .

لـكنه لم يعد فى استطاعة الأقلية الحاكمة أن تتساند . فكانت هناك اضطرابات طويلة ؛ ففى سنة من السنين سفك ثلاثة إيفورات موالين للحزب الشعبى دم رصيفهم : وفى السنة التالية كان الإيفورات الخمسة من حزب الأقلية الحاكمة فانتضى الشعب السلاح وذبحهم جميعاً . لم تكن الأقلية الحاكمة تريد ملوكاً ؛ وأراد الشعب أن يتخذ ملوكاً . وقد عينوا واحداً ، واختاروه من خارج الأسرة المالـكة ، وهو ما لم يرقط فى اسپرطه . وقد أنزل هذا الملك المسمى ليكورغ عن العرش مرتين : المرة الأولى أنزله الشعب لأنه رفض أن يقسم الأراضى ، والمرة الثانية أنزلته السراة لأنهم كانوا يتهمونه بأنه أراد أن يقسمها . ولا ندرى كيف انتهى أمره ، لـكنا نرى بعده فى اسپرطه طاغية يدعى ماخانيداس (Machanidas) ؛ وهذا دليل مؤكد على أن الغلبة كانت للحزب الشعبى .

وقد انتصر فيلوپويمين (Philopémen) ، الذى كان على رأس الحلف الأخيوى يحارب طغاة حكم العامة فى كل مكان ، على ماخانيداس وقتله . وسرعان ما اتخذت حكومة العامة الاسپرطية طاغية آخر يدعى نابيس (Nabis) . وقد منح هذا الأخير حق المدينة لجميع الرجال الأحرار ، وبذلك رفع اللاكونيين أنفسهم إلى مرتبة الاسپرطيين ؛ لقد ذهب إلى حد تحرير الهيلوتيس ؛ وجعل من نفسه رئيس الفقراء ضد الأثرياء طبقاً لعادة طغاة البلدان الإغريقية ؛ «ونفى أو أهلك أولئك الذين كانت ترفعهم ثروتهم فوق الآخرين.» (١)

لم تكن حكومة العامة الاسپرطية الجديدة لتخلو من العظمة. فقد أقام نابيس فى لاكونيا نظاماً لم ير فيها منذ زمن طويل. وأخضع لاسپرطه أقليم ميسينه (Messénie) وجزءاً من أركاديا ، والإيليس (Elide) . واستولى على أرغوس. وكون بحرية ، وهو شيء كان بعيداً جداً عن الأثارات القديمة للسراة الاسپرطية ؛ وتغلب بأسطوله على جميع الجزر التى تحيط بالپيلوپونيز ، ونشر سلطانه حتى بلغ أقريطيش (كريت) . وأثار العامة فى كل مكان ؛ وعندما أصبح سيداً على أرغوس كان أول اهتمامه مصادرة أموال الأثرياء وإلغاء الديون وتقسيم الأراضى

(١) بوليبيوس ١٣ : ٦ ؛ ١٦ : ١٢ ؛ تيتوس ليفيوس ٣٢ : ٣٨ : ٤٠ ؛ ٣٤ : ٢٦ : ٢٧ .

ويمكن أن نرى فى پوليبوس كم كان الحلف الأخيوى حاقداً على هذا الطاغية من طغاة العامة ، فحرّض فلامينينوس (Flamininus) على محاربته باسم روما . فانتضى عشرة آلاف لا كونى السلاح علاوة على المرتزقة للدفاع عن نابيس وبعد أن هزم أراد أن يجنح للسلم ؛ لكن الشعب رفض ذلك . إلى هذا الحد كانت قضية الطاغية هى قضية حكم العامة ! وقد انتزع منه فلامينينوس بعد انتصاره جزءاً من قواته لكنه تركه يتملك فى لاكونيا، إما لأن استحالة إعادة الحكومة القديمة كانت جلية جداً ، وإما لأن مصلحة روما كانت فى أن يوازن الحلف الأخيوى ببعض الطغاة . وقد اغتيل نابيس ، فيما بعد ، بيد أحد الأيتوليين لكن موته لم يُعِدْ حكم الأقلية ؛ فقد ظلت التغييرات التى أدخلها على الحالة الاجتماعية باقية بعده ، ورفضت روما ذاتها أن تعيد اسبرطة إلى حالتها القديمة .

[illegible]

(Machanidas) ، وهذا دليل [illegible] على أن الغلبة كانت للحزب الشعبى .

وقد انتصر فيلوبويمين (Philopoemen) ، الذى كان على رأس الحلف الآخى يحارب طغاة حكم العامة فى كل مكان ، على ماخانيداس وقتله . وسرعان ما أحلت حكومة العامة الاسبرطية طاغية آخر يدعى نابيس (Nabis) . وقد منح هذا الأخير حق المدينة لجميع الرجال الأحرار ، وبذلك رفع اللاكونيين أنفسهم إلى مرتبة الاسبرطيين ، فقد ذهب إلى حد تحرير الهيلوتيس ، وجعل من نفسه رئيس الفقراء ضد الأثرياء طبقاً لعادة طغاة البلدان الإغريقية ، ونفى أو أهلك أولئك الذين كانت ترفعهم ثروتهم فوق الآخرين (١) .

لم تكن حكومة العامة الاسبرطية الجديدة لتخلو من العظمة. فقد أقام نابيس فى لاكونيا نظاماً لم ير فيها منذ زمن طويل، وأخضع لاسبرطة إقليم ميسينيه (Messénie) وجزءاً من أركاديا ، والإيليس (Elide) . واستولى على أرغوس، وكوّن بحرية ، وهو شيء كان بعيداً جداً عن الأثارات القديمة للسراة الاسبرطية ، وتغلب بأسطوله على جميع الجزر التى تحيط بالبيلوبونيز ، ونشر سلطانه حتى بلغ أقريطيش (كريت) ؛ وأثار العامة فى كل مكان ؛ وعندما أصبح سيداً على أرغوس كان أول اهتمامه مصادرة أموال الأثرياء وإلغاء الديون وتقسيم الأراضى

(١) بوليبوس ١٣ : ٦ ؛ ١٦ : ١٣ ؛ تيتوس ليفيوس ٣٢ : ٣٨ ، ٤٠ ؛ ٣٤ : ٣٦ ؛ ٣٧ .

الكتاب الخامس

نظام البلديات يختفى

الفصل الاول

عقائد جديدة ؛ الفلسفة تغير قواعد السياسة

رأينا فيما سبق كيف تكون نظام البلديات عند القدماء ؛ فإن ديانة عتيقة جداً قد أسست الأسرة أولا ، ثم المدينة فيما بعد ؛ أقامت أولا الشرع المنزلى وحكومة الفصيلة (*gens*) ، ثم القوانين المدنية والحكومة البلدية . كانت الدولة مرتبطة بالديانة ارتباطاً وثيقاً ؛ فقد أتت منها وكانت ممتزجة بها . لهذا كانت الأنظمة السياسية ، فى المدينة البدائية ، أنظمة دينية ؛ فقد كانت الأعياد احتفالات للعبادة ، والقوانين صيغا مقدسة ، والملوك ورجال الدولة كهنة . ولهذا أيضاً كانت الحرية الفردية مجهولة ، ولم يستطع الرجل أن يخلص ضميره ذاته من هيمنة المدينة ، ثم أنه لهذا بقيت الدولة محدودة بحدود بلدة ، ولم تستطع قط أن تتخطى النطاق الذى خطه آلهتها القوميون فى الأصل . لم يكن لكل مدينة استقلالها السياسى فحسب بل كانت لها أيضاً عبادتها ومجموعة قوانينها . فالديانة والشرع والحكومة ، كل ذلك كان بلدياً . كانت المدينة هى القوة الحية الوحيدة ، لا شىء فوقها ، ولا شىء تحتها ؛ لم تكن هناك وحدة قومية ، ولا حرية فردية .

بقى علينا أن نقول كيف اختفى هذا النظام ، أى كيف تجردت الحكومة والديانة والشرع ، بعد تغيير مبدأ الاجتماع البشرى ، من هذه الصفة البلدية التى كانت لها فى الزمن العتيق .

يمكن أن نرجع انهيار النظام السياسى الذى خلقته بلاد الإغريق وإيطاليا إلى أسباب رئيسية . أحدها من قبيل الأحداث الخلقية والفكرية ، والآخر من قبيل الأحداث المادية . الأول هو تغيير العقائد ، والثانى هو الفتح الرومانى . وهذان الحدثان الكبيران من عصر واحد ، وقد تطورا معاً وتما معاً خلال سلسلة القرون الخمسة التى تسبق التقويم المسيحى .

لقد فسدت وهرمت تلك الديانة البدائية التى كان رمزاها حجر الموقد الثابت وقبر الأسلاف ، تلك الديانة التى أنشأت الأسرة العتيقة ثم نظمت المدينة . وقد ازداد الذهن البشرى قوة وخلق لنفسه عقائد جديدة . فبدأوا بتكوين فكرة الطبيعة غير المادية ؛ واتضحت فكرة الروح البشرية ، وفى نفس الوقت تقريباً انبثقت فى الأذهان فكرة الإدراك الإلهى .

ماذا كان ظنهم عندئذ فى معبودات العصر الأول ؟ وفى هؤلاء الأموات الذين كانوا يعيشون فى القبر ؟ وهؤلاء الآلهة اللاريس (Lares) الذين كانوا بشراً ؟ وفى هؤلاء الأسلاف المقدسين الذين كان لا بد من الدأب على تغذيتهم بالأطعمة ؟ لقد أصبح مثل هذا الإيمان مستحيلا . لم تعد مثل هذه العقائد فى مستوى الروح البشرى . حقاً إن هذه المعتقدات ، مهما بلغت من الخشونة ، لم تكن مما يسهل انتزاعه من ذهن العامة . وقد استمرت تهيمن عليه زمناً طويلا بعد ذلك ؛ لكن المفكرين من الناس تحرروا من هذه الأخطاء منذ القرن الخامس قبل الميلاد . كانو يفهمون الموت فهماً آخر ؛ فكان البعض يعتقد فى الفناء ، والبعض الآخر فى وجود روحى محض فى عالم من الأرواح ؛ وفى جميع هذه الأحوال لم يعودوا يقبلون فكرة أن الميت يعيش فى القبر ويتغذى بالقرابين . كما بدأوا يكوِّنون فكرة عالية جداً عن الشىء الإلهى بحيث لم يعد فى استطاعتهم أن يدأبوا على الاعتقاد بأن الأموات آلهة . بل كانوا على العكس ، يتصورون الروح البشرية ذاهبة تبحث عن ثوابها فى جنات النعيم (Champs Elysées) ، أو ذاهبة توفى عقاباً تكفيراً عن خطاياها . وقد أدى بهم تقدم ملحوظ إلى أنهم لم يعودوا يؤلهون من الناس إلا من كانوا يضعونهم فوق البشرية اعترافاً بجميلهم أو تملقاً لهم .

تبدلت فكرة المعبود شيئاً فشيئاً كأثر طبيعى لزيادة سلطة الذهن . هذه الفكرة ، التى طبقها الإنسان أولا على القوة غير المنظورة التى كان يشعر بها فى نفسه ، نقلها إلى القوى التى تكبرها بما لا يقاس عليه ، تلك التى كان يراها فى الطبيعة ، وذلك انتظاراً للزمن الذى يرتفع فيه إلى فكرة كائن خارج عن الطبيعة وفوق الطبيعة . عندئذ فقد الآلهة اللاريس والأبطال عبادة كل ذى فكر .

أما الموقد ، الذى يلوح أنه لم يكن له معنى إلا بقدر ماكان يلازم عبادة الموتى ، فإنه فقد مكانته كذلك . استمروا يحوزون فى بيوتهم موقداً منزلياً ويحيونه ويعبدونه ويقدمون له السوائل المراقة ؛ لكن ذلك لم يكن سوى عبادة ولدتها العادة ، لا يبعث الحياة فيها أى إيمان .

وقد هوى موقد البلدان أو بيت النار (پريتانيون) تدريجياً فى المهانة التى هوى فيها الموقد المنزلى . لم يعودوا يفهمون ماذا يعنى . ونسوا أن نار بيت النار ، الحية على الدوام ، تمثل حياة الأسلاف الخفية ، حياة المؤسسين ، حياة الأبطال القوميين . لقد استمروا يرعون هذه النار ، ويقدمون الأكلات العامة ، ويرتلون الأناشيد القديمة . احتفالات لا طائل وراءها ، لم يجرؤوا على لتخلص منها ، لكنه لم يعد أحد يدرك معناها .

حتى معبودات الطبيعة التى أشركوها مع الموقد غيرت صفاتها . فبعد أن بدأت معبودات منزلية ، وبعد أن أصبحت معبودات مدنية ، استمرت فى التغيير . وانتهى الأمر بأن رأى الناس أن الكائنات المختلفة التى كانوايسمونها باسم چوبيتر يمكن ألا تكون سوى كائن واحد بذاته ، وكذلك الآلهة الآخرون. وقد حار الذهن فى تعدد المعبودات وشعر بالحاجة إلى اختزال عددها . أدركوا أن الآلهة لا ينتمى كل واحد منها لأسرة أو لبلدة وإنما تنتمى جميعاً للجنس البشرى وتسهر على الكون . كان الشعراء يتنقلون من بلدة إلى بلدة ويعلمون الناس بدلا من أناشيد المدينة القديمة ، أغانى جديدة لا يدور الكلام فيها على آلهة لا ريس ولا معبودات مدنية بل تقرأ فيها أساطير الآلهة العظام ، آلهة الأرض والسماء ؛ ونسى الشعب الإغريقى أناشيده المنزلية والقومية القديمة من أجل هذا الشعر الجديد الذى لم يكن وليد الديانة بل وليد الفن والخيال الحر . وفى نفس الوقت كانت بعض المعابد الكبيرة كمعبد دلفوى ومعبد ديلوس تجذب الناس وتنسيهم العبادات المحلية . وكانت الأسرار والتعاليم التى تنطوى عليها تعودهم احتقار ديانة المدينة الجوفاء التافهة .

وهكذا تمت ببطء وفى الخفاء ثورة فكرية . لم يقاومها أحد ، حتى الكهنة. فطالما كانت القرابين لا تزال تقدم فى الأيام المعينة كان يلوح لهم أن الديانة

سليمة ؛ كان فى الإمكان أن تتغير الآراء وأن تبيد العقيدة على شرط ألا تشوب الشعائر أية شائبة . وبذلك تحولت العقائد وفقدت الديانة المنزلية والبلدية كل سلطان على الأرواح دون أن تتحول الشعائر .

ثم ظهرت الفلسفة وقلبت كل قواعد السياسة القديمة . كان من المحال المساس بآراء الناس دون المساس بمبادىء حكومتهم الأساسية أيضاً . كانت عند فيثاغوروس فكرة مبهمة عن الكائن الأعلى ولذلك ازدرى العبادات المحلية ، وقد كان ذلك كافياً لكى ينبذ نماذج الحكومة القديمة ويحاول تأسيس مجتمع جديد .

أدرك أناكساغوراس (Anaxagore) الإله الذى هو عقل (Dieu-Intelligence) ذلك الذى يهيمن على جميع الناس وعلى جميع الكائنات . وبابتعاده عن العقائد القديمة ابتعد أيضاً عن السياسة القديمة . وحيث أنه لم يكن يعتقد فى آلهة بيت النار فإنه لم يكن يقوم كذلك بجميع واجباته كمواطن ؛ كان يهرب من المجامع ولم يرد أن يكون من رجال الدولة . كان مذهبه يضر بالمدينة ، فحكم عليه الأثينيون بالإعدام .

ثم جاء بعد ذلك السفسطائيون وكان لهم أثر أكبر من أثر هذين المفكرين العظيمين : كانوا قوماً متحمسين لمحاربة الأخطاء القديمة . وفى القتال الذى اشتبكوا فيه ضد كل ما يتعلق بالماضى ، لم يحترموا أنظمة المدينة أكثر مما كانوا يحترمون أخطاء الديانة . ففحصوا القوانين التى كانت لا تزال تحكم الدولة والأسرة ، وجادلوا فيها بجرأة شديدة . كانوا يتنقلون من بلدة إلى بلدة يبشرون بمبادىء جديدة ، لم يكونوا يُعلّمون تماماً عدم الاكتراث بما هو عادل أو غير عادل ، بل كانوا يعلمون عدالة جديدة أقل ضيقاً وأقل صداً من القديمة ، عدالة أقرب إلى الإنسان والعقل ، ومجردة من صيغ العصور الخالية . لقد كانت مهمة جريئة أثارت عاصفة من الأحقاد والضغائن . اتهموهم بأنهم قوم لادين لهم ولا أخلاق ولا وطنية . والحق أنه لم يكن لهم ، فى جميع هذه الأمور ، نظرية محددة ، وكانوا يعتقدون أنهم عملوا ما فيه الكفاية بمحاربتهم

الآراء المبيتة . كانوا يقلقلون ، كما يقول أفلاطون ، ما كان ثابتاً إلى ذلك اليوم. كانوا يضعون قاعدة العاطفة الدينية وقاعدة السياسة فى الضمير الإنسانى ، لا فى عادات الأسلاف ، لا فى الأثارة التى لا تبديل فيها . كانوا يُعلِّمون الإغريق أنه لا يكفى لحكم دولة أن يستند الإنسان إلى السنن القديمة والقوانين المقدسة ، بل كان لا بد من إقناع الناس والتأثير على إرادات حرة . فاستبدلوا بمعرفة العادات العتيقة فنون الجدل والتحدث والكلام والبلاغة . كانت الأثارة فى صف خصومهم ؛ وكانت لهم الفصاحة والفكر .

وعندما استيقظ التأمل بهذه الوسيلة لم يعد الإنسان يريد أن يعتقد فى شىء دون أن يدقق فى عقائده ، ولا أن يحكم دون أن يناقش فى أنظمته . فارتاب فى عدالة قوانينه الاجتماعية القديمة ، وبدت له مبادىء أخرى. يُنْطِقُ أفلاطون بهذه الكلمات الجميلة أحد السفسطائيين : «أنتم جميعاً الذين هنا ؛ إنى أعتبركم أقارب فيما بينكم . فقد جعلتكم الطبيعة مواطنين عند انعدام القانون . لكن القانون ، هذا الطاغية المستبد بالإنسان ، يتعدى حدود الطبيعة فى مناسبات شتى ». إن معارضة الطبيعة بالقانون والعادة ، على هذا النحو ، إنما هى هجوم على أساس السياسة القديمة ذاته . عبثاً طرد الأثينيون پروتاغوراس وأحرقوا مؤلفاته ؛ لقد نزلت النازلة . كانت نتيجة تعليم السفسطائيين عظيمة جداً ، فقد اختفت سلطة الأنظمة مع سلطة الآلهة القوميين واستقرت عادة الفحص الحر فى المنازل وفى الساحة العامة .

كان سقراط من مدرستهم بالرغم من تنديده بمغالاة السفسطائيين فى حق الارتياب . كان يرفض مثلهم سلطان الأثارة ويعتقد أن قواعد السلوك منقوشة فى الضمير الإنسانى . وكان لا يختلف عنهم إلا فى أنه كان يدرس هذا الضمير دراسة دينية وبرغبة صادقة فى أن يجد فيه الإلزام بالعدالة وفعل الخير . كان يضع الحق فوق العادة ، والعدل فوق القانون . خلص الأخلاق من الديانة : كانوا قبله لا يدركون الواجب إلا كقرار من الآلهة القدماء ، فدلل على أن مبدأ الواجب كائن فى روح الإنسان . وفى جميع ذلك كان يحارب عبادات المدينة ، أراد أم لم يرد . عبثاً كان يعنى بحضور جميع الأعياد ويشارك فى القرابين ؛ كانت عقائده وأقواله تكذب سلوكه . كان يؤسس ديانة جديدة

هى نقيض ديانة المدينة . اتهموه بحق بأنه «لم يكن يعبد الآلهة الذين كانت تعبدهم المدينة» . أعدموه لأنه هاجم عادات الأسلاف وعقائدهم أو، كما كانوا يقولون، لأنه أفسد الجيل الحالى.ويمكن تفسير عدم محبة الشعب لسقراط،وسخائم مواطنيه العنيفة ، إذا ما فكرنا فى العادات الدينية لهذا المجتمع الأثينى الذى كان فيه كل هذا القدر من الكهنة ، وكان لهم فيه سلطان عظيم . لكن الثورة التى بدأها السفسطائيون والتى استأنفها سقراط فى كثير من الاقتصاد لم يوقفها موت شيخ هرم.فقد تحرر المجتمع الإغريقى من سلطان العقائد القديمة والأنظمة الهرمة كل يوم أكثر من سابقه .

تناقش الفلاسفة بعده فى حرية تامة فى مبادىء المجتمع الإنسانى وفى قواعده، وكتب أفلاطون وكريتون وأنتيستينيس (Antisthènes) وسوسيپوس (Seusippe) وأرسطو وثيوفراسطوس وكثيرون سواهم مؤلفات عن السياسة . بحثوا وفحصوا ؛ فأصبحت مسائل تنظيم الدولة ، والسلطة والطاعة ،والالتزامات والحقوق ؛ مطروحة أمام جميع الأذهان .

لا ريب أن الفكر لا يمكن أن يتخلص فى سهولة ويسر من الروابط التى خلقتها له العادة . لا زال أفلاطون خاضعا فى بعض النقط لسلطان الآراء القديمة . فالدولة التى يتصورها لازالت هى المدينة العتيقة ؛ إنها ضيقة ، لا ينبغى أن تضم إلا خمسة آلاف عضو . لا زالت الحكومة فيها تنظمها المبادىء القديمة ، والحرية مجهولة فيها . لم يكن الغرض الذى يهدف إليه الشارع هو كمال الإنسان بقدر ما كان أمن المجتمع وعظمته . بل كادت تخنق الأسرة ذاتها كيلا تنافس المدينة. كانت الدولة وحدها مالكة. هى وحدها حرة، هى وحدها لها إرادة،وهى وحدها لها ديانة وعقائد؛وكل من لا يفكر مثل تفكيرها يجب إعدامه. بيد أنه وسط ذلك كله ، بزغت الآراء الجديدة . إذ يعلن أفلاطون ، كما أعلن سقراط ، وكما أعلن السفسطائيون ، أن قاعدة الأخلاق والسياسة كامنة فينا نحن أنفسنا ، وأن الأثارة ليست شيئاً ما ، وأنه يجب الرجوع إلى العقل ، وأن القوانين لا تكون عادلة إلا بقدر ما تتفق مع الطبيعة البشرية .

وهذه الآراء تعد أكثر وضوحاً من ذلك عند أرسطو ، إذ يقول « القانون هو العقل» . ويعلمنا أنه يجب ألا نبحث عما هو متفق مع عادة الآباء بل عما هو حسن فى ذاته . ويضيف أنه كلما تقدم الزمن يجب تعديل الأنظمة . وهو ينحِّى احترام الأسلاف جانباً ، إذ يقول : «إن آباناء الأوائل ، سواء ولدوا من باطن الأرض أو نجوا من طوفان ما ، كانوا يشبهون أكثر الناس اليوم عامية وأعظمهم جهلا ، كما تدل على ذلك جميع الظواهر . ومن السخف الواضح أن نتمسك برأى هؤلاء الناس». كان أرسطو ، كما كان جميع الفلاسفة ، يجهل الأصل الدينى للمجتمع الإنسانى جهلا مطلقاً ؛ فهو لا يتكلم عن بيوت النار (پريتانيا) ؛ ويجهل أن هذه العبادات المحلية كانت أساس الدولة فيقول «الدولة ما هى إلا جماعة من كائنات متكافئة تبحث معاً عن أساس جديد تستطيع أن تقر عليه القوانين الاجتماعية وفكرة الوطن »(١) .

تذهب المدرسة الكلبية (école cynique) إلى أبعد من ذلك. فهى تنكر الوطن ذاته . كان يتباهى ديوغينيس (Diogène) بأنه ليس له حق المواطن فى أى مكان، وكان قراطيس (Cratès) يقول إن وطنه هو إزدراء آراء الآخرين . وكان الكلبيون يضيفون هذه الحقيقة ، التى كانت جديدة وقتذاك ، وهى : أن الإنسان مواطن للعالم ، وأن الوطن ليس هو النطاق الضيق لبلدة ما . كانوا يعتبرون الوطنية البلدية ضلالا ، ويحذفون حب المدينة من بين العواطف .

كان الفلاسفة يبتعدون ، كل يوم أكثر من سابقه ، عن الشؤون العامة إما اشمئزازاً وإما إزدراء . كان سقراط لا يزال يقوم بواجبات المواطن ؛ وحاول أفلاطون أن يعمل للدولة عن طريق إصلاحها ، وكان أرسطو أقل اكتراثاً منه ، واكتفى بدور الملاحظ ، وجعل من الدولة موضوعاً لدراسات علمية . أما الإپيقوريون فقد طرحوا الشؤون العامة جانباً . فكان يقول إپيقوروس «لا تضعوا أيديكم فيها إلا إذا ألزمتكم بذلك سلطة عليا». وأما الكلبيون فإنهم لم يريدوا حتى أن يكونوا مواطنين .

---

(١) أرسطو : السياسة ٢ : ٥ : ١٢ ؛ ٤ : ٥ ؛ ٤ : ٧ : ٢ ؛ ٧ : ٤ (٦ : ٤) .

عاد الرواقيون إلى السياسة. كتب زينون وكليانثيس (Cléanthe) وخريسيبوس مؤلفات عدة عن حكومة الدول. لكن مبادئهم كانت بعيدة جداً عن السياسة البلدية القديمة. وها هي ذى العبارات التى يعرفنا بها أحد القدماء بالمذاهب التى كانت تنطوى عليها مؤلفاتهم: «كان زينون فى مؤلفه عن الحكومة يرمى إلى أن يرينا أننا لسنا سكان هذا الحى أو هذه البلدة ويفصل بعضنا عن بعض شرع خاص وقوانين ما نعة بل يجب أن نرى فى جميع الناس مواطنين كما لوكنا ننتمى جميعاً للحى ذاته وللمدينة نفسها» (١). ومن هنا نرى أى طريق قطعت الآراء من سقراط إلى زينون: كان سقراط لا يزال يعتقد أنه ملزم بعبادة آلهة الدولة بقدرما يستطيع. ولم يكن أفلاطون يتصور حكومة غير حكومة المدينة؛ أما زينون فإنه تخطى هذه الحدود الضيقة للمجتمع الإنسانى، وازدرى التقسيمات التى أقامتها ديانة العصور القديمة. وكما تصور إله الكون فقد كانت عنده أيضاً فكرة دولة يدخل فيها الجنس البشرى بأكمله (٢).

لكن ها هو ذا مبدأ أحدث من ذلك، فقد وسع مذهب الرواقيين المجتمع البشرى، وبذلك حرر الفرد. وما دام يرفض ديانة المدينة، فقد كان يرفض أيضاً استرقاق المواطن. لم يرد بعد اليوم أن يضحى بالشخصية البشرية من أجل الدولة. كان يميز ويفصل بجلاء ما يجب أن يبقى حراً من الإنسان، ويحرر الضمير على الأقل. كان يقول للإنسان إنه يجب عليه أن ينطوى على نفسه وأن يجد فى ذاته الواجب والفضيلة والثواب. لم يكن يحرم عليه أن يشغل نفسه بالشؤون العامة، بل كان يدعوه إليها؛ لكنه كان ينبه إلى أن يكون الهدف الذى يرمى إليه عمله الرئيسى هو تحسين ذاته، وأنه مهما تكن الحكومة، يجب أن يبقى ضميره مستقلا. إنه لمبدأ عظيم، تجاهلته المدينة العتيقة على الدوام، لكن كان مصيره أن يكون ذات يوم قاعدة من أقدس قواعد السياسة.

---

(١) بلوتارخوس المزعوم: حظ الإسكندر ١ ، ٦.

(٢) فكرة المدينة العالمية عبر عنها سنيكا (إلى ماركيا *(Ad Marciam)* ٤؛ راحة البال *(De tranquilitate)* ١٤)؛ وبلوتارخوس (عن النفى)، وماركوس أوريليوس: «باعتبارى أنطونينوس، وطنى روما؛ وباعتبارى إنسان، وطنى العالم».

بدأوا عندئذ يدركون أن هناك واجبات أخرى غير واجباتهم نحو الدولة وفضائل أخرى غير الفضائل الوطنية . تعلقت الروح بأمور أخرى غير الوطن . كانت المدينة القديمة من السلطان والطغيان بحيث جعلها الإنسان هدف كل أعماله وجميع فضائله ، كانت هى القاعدة لما هو جميل وخير ؛ ولم تكن هناك بطولة إلا فى سبيلها . لكن ها هو ذا زينون يعلم الإنسان أن هناك كرامة لا للمواطن بل للإنسان ؛ وأنه زيادة على واجباته نحو القانون فإن عليه واجبات نحو نفسه ؛ وأن الفضل الأكبر ليس فى العيش أو الموت فى سبيل الدولة ، بل فى أن يكون المرء من ذوى الفضيلة وأن يُرضى المعبود. فضائل فيها شىء من الأثرة ، تركت الاستقلال القومى والحرية يهويان ، ولكن الإنسان قد عظم بها. استمرت الفضائل العامة فى الذبول ، لكن الفضائل الشخصية قد انطلقت وظهرت فى العالم . وكان عليها فى البدء أن تناضل، إما ضد الفساد العام ، وإما ضد الاستبداد . لكنها تأصلت شيئاً فشيئاً فى الإنسانية ؛ وأصبحت بمضى الزمن سلطة يجب على كل حكومة أن تحسب لها حساباً،وكان لا بد أن تتغير قواعد السياسة لكى تجد هى مكاناً حراً .

وهكذا تحولت العقائد شيئاً فشيئاً ؛ انقرضت الديانة البلدية التى تأسست عليها المدينة . وكان لا بد أن يسقط معها نظام المدينة كما تصوره القدماء . انفصلوا ، فى تدرج غير محسوس ، عن هذه القواعد الصارمة ، وعن هذه الأشكال الضيقة التى كانت عليها الحكومة . كانت هناك آراء أسمى من ذلك تدعو الناس إلى تكوين مجتمعات أوسع . كانوا مدفوعين نحو الوحدة ؛ تلك كانت الأمنية العامة للقرنين السابقين للميلاد المسيحى . حقاً إن الثمار التى أنتجتها هذه الثورات الفكرية بطيئة النضوج جداً. لكننا سوف نرى عند دراسة الفتح الرومانى أن الحوادث كانت تسير فى نفس الاتجاه الذى كانت تسير فيه الأفكار ، وأنها كانت تتجه مثلها نحو انهيار النظام المدنى القديم ، وأنها كانت تُعِدُّ نماذج جديدة للحكم .

الفصل الثانى

الفـــتح الروماني

يلوح ،لأول وهلة ،أنه من المدهش كل الدهشة أن وجدت بين الألف مدينة ، التى كانت فى بلاد الإغريق وإيطاليا ، مدينة كانت لها القدرة على إخضاع جميع المدن الأخرى . بيد أن هذا الحدث الهام يمكن تفسيره بالأسباب العادية التى تحدد سير الشؤون العامة. كان مضمون الحكمة الرومانية، كمضمون أية حكمة أخرى ، هو الاستفادةمن الظروف المواتية التى تلقاها .

يمكن أن نميز فى عمل الفتح الرومانى فترتين ، إحداهما تتفق مع الزمن الذى كان لا يزال للروح المدنية القديمة قوة كبيرة فيه ، وفى تلك الفترة كان على روما أن تتغلب على العدد الأكبر من العقبات . وتتبع الثانية الزمن الذى ضعف فيه الروح البلدى ضعفاً شديداً ، وعندئذ أصبح الفتح سهلا وتم فى سرعة كبيرة

١ — بضع كلمات عن نشأة روما وسكانها .

نشأة روما وتكوين أهلها جديران بالملاحظة . وهما يفسران الطابع الخاص الذى امتازت به سياستها ، والدور الاستثنائى الذى كان ، منذالبدء ، من نصيبها بين المدن الأخرى .

كان الجنس الرومانى مختلطاً اختلاطاً غريباً . فالطبقة الأساسية منه لاتينية وأصلها من ألبا ؛ لكن أثارات ،لا يسمح لنا أى نقد برفضها، ترينا أن هؤلاء الألبيين أنفسهم كانوا يتكونون من نوعين من الأهالى مشتركين وليسا ممتزجين : أحدهما هو الجنس الأصلى ، وهم لاتينيون حقيقيون ؛ والآخر من أصل أجنبى يقال إنه أتى من طروادة مع إينياس (Enée)، الكاهن المؤسس، وتدل جميع

المظاهر على أنه كان قليل العدد لكنه كان يعتد به من ناحية العبادة والأنظمة التى جلبها معه (١) .

هؤلاء الألبيون ، وهم خليط من الجنسين ، أسسو روما ، فى موضع كانت تقوم فيه من قبل بلدة أخرى ، اسمها پالاّنتيوم (Pallantium) ، كان قد أسسها بعض الإغريق . هذا وقد بقى أهل پالاّنتيوم فى البلدة الجديدة ، وبقيت فيها شعائر العبادة الإغريقية (٢) . كما كانت توجد ، فى المكان الذى وجد فيه الكاپيتوليوم فيما بعد ، بلدة تسمى ساتورنيا (Saturnia) يقال إنه أسسها بعض الإغريق (٣) .

وهكذا تشترك جميع الأجناس فى روما ، وتختلط : ففيها لاتينيون وطرواديون وإغريق ؛ وسيكون فيها قريباً سابينيون وإتروسك . تأمل التلال المختلفة : الپالاتينوس (Palatinus) هو البلدة اللاتينية ، بعد أن كان بلدة إيڤاندروس ؛ الكاپيتولينوس (Capitolinus) ، بعد أن كان مسكن أصحاب هيراقليس ، أصبح مسكن السابينيين أتباع تاتيوس (Tatius) ؛ وقد تلقى الكويريناليس (Quirinalis) اسمه من الكويريتيين السابينيين ، ومن الإله السابينى كويرينوس ؛ ويلوح أن الكويليوس (Coelius) كان يسكنه الإتروسك من الأصل (٤) . لم تكن روما تبدو كبلدة واحدة ، بل كانت تبدو كاتحاد من عدة بلدان ترتبط كل واحدة منها ، بحكم أصلها ، بحلف آخر . كانت المركز الذى يلتقى فيه اللاتينيون والإتروسك

---

(١) كان أصل روما الطروادى فكرة مقبولة حتى قبل أن توجد صلات مستمرة بين روما والشرق . فقد أعطى عراف قديم للرومان لقب *trojugena* فى نبوءة تتعلق بالحرب البونية الثانية ؛ (تيتوس ليفيوس ٢٥ : ١٢) .

(٢) تيتوس ليفيوس ١ : ٥ و ٧ . فرجيلوس ٨ . أوفيديوس : الأعياد ١ : ٥٧٩ . بلوتارخوس : مسائل رومانية ٧٦ . استرابون ٥ : ٣ : ٣ . ديونيسيوس ١ : ٣١ ، ٧٩ ، ٨٩ .

(٣) ديونيسيوس ١ : ٤٥ ؛ ١ : ٨٥ . فارون : اللسان اللاتينى ٥ : ٤٢ . فرجيليوس ٨ : ٣٥٨ . بلينيوس : التاريخ الطبيعى ٣ : ٦٨ .

(٤) اعتقد القدماء دائماً أن من بين أسماء القبائل الثلاث الأصلية ، واحدا لاتينياً والآخر سابينياً والثالث إتروسكيا .

والسابيليون (Sabelliens) (١) والإغريق .

كان أول ملوكها لاتينيا ؛ والثانى ، طبقاً للأثارة ، سابينيا ؛ والخامس ، فيما يقال ، ابن اغريقى ؛ وكان السادس إتروسكيا (٢) .

وكان لسانها مزيجاً من أكثر العناصر تبايناً ؛ كانت اللاتينية تسود فيه ؛ لكن الأصول السابيلية كانت كثيرة العدد فيه . وكانت توجد أصول كلمات إغريقية أكثر مما كانت فى أية لهجة من لهجات إيطاليا الوسطى . أما اسمها ذاته فلا ندرى إلى أية لغة ينتمى . فى رأى البعض أن روما كلمة طروادية ؛ وفى رأى آخرين أنها كلمة إغريقية ، وهناك أسباب للاعتقاد بأنها لاتينية ، لكن بعض القدماء كان يعتقد أنها إتروسكية .

كما تشهد أسماء الأسرات الرومانية باختلاف كبير فى الأصول . ففى عهد أغسطس كانت لا تزال توجد نحو الخمسين أسرة تتصل ، عندما تصعد فى سلسلة أسلافها ، إلى أصحاب إينياس (٣) . وأسرات أخرى تدعى أنها من نسل الأركاديين أتباع إيڤاندروس ، ومنذ زمن لا تعيه الذاكرة كان رجال هذه الأسرات يحملون على أحذيتهم هلالا صغيراً من الفضة كعلامة مميزة (٤) . كانت الأسرتان پوتيتيا (Potitia) وپيناريا (Pinaria) تنحدران ممن كانوا يسمونهم أصحاب هيراقليس ، وتدل عبادة هذا الإله الموروثة على أصلهم (٥) . أما آل توليوس (Tullius) وآل كوينكتيوس (Quinctius) وآل سرڤيليوس (Servilius) فقد جاءوا من ألبا بعد الاستيلاء على هذه البلدة . كان الكثير من الأسرات تضيف إلى اسمها لقباً يذكّر بأصلها الأجنبى ، وهكذا

---

(١) السابيليون هم السابينيون والاسم الأول كثيرا ما يستعمل فى الشعر . — المعرب .

(٢) هؤلاء الملوك الستة هم على الترتيب : روملوس ؛ نومابومپيليوس ، تولوس هوستيليوس ، انكوس مارتيوس ، تاركوينيوس . — المعرب .

(٣) Denys, I, 85: Ἐκ τοῦ Τρωικοῦ τὸ εὐγενέστατον νομιζόμενον, ἐξ οὗ γενεαί τινες ἔτι περιῆσαν εἰς ἐμέ, πεντήκοντα μάλιστα οἶκοι. قارن جوفيناليس ١ : ٩٩ ؛ سرفيوس : Ad Aen. ٥ : ١١٧ ، ١٢٣ .

(٤) بلوتارخوس : مسائل رومانية ٧٦ .

(٥) تيتوس ليفيوس ١ : ٧ ؛ ٩ : ٢٩ .

كان يوجد آل سوليبيسيوس كاميرينوس (Sulpicius Camerinus) وآل كومينيوس أورونكوس (Cominius Auruncus) وآل سيكينيوس سابينوس (Sicinius Sabinus) وآل كلوديوس ريغيلينسيس (Claudius Regillensis) وآل أكويليوس توسكوس (Aquillius Tuscus) . كانت أسرة نوتيا (Nautia) طروادية وآل أوريليوس (Aurelius) سابينيين ؛ وقد جاء آل كيكيليوس (Caecilius) من پرينسته (Préneste) ؛ وأصل آل أوكتاڤيوس (Octavius) من ڤيليتره (Vélitres) .

كان من أثر هذا الخليط المركب من أكثر الشعوب تبايناً أنه كان لروما صلات أصلٍ مع جميع الشعوب التى كانت تعرفها . كانت تستطيع أن تزعم أنها لاتينية مع اللاتينيين ، سابينية مع السابينيين ، إتروسكية مع الإتروسك ، وإغريقية مع الإغريق .

وكذلك كانت عبادتها القومية تجمُّعاً من عدة عبادات متباينة تبايناً لا نهاية له ، وكل واحدة منها تربطها بشعب من هاتيك الشعوب . كانت فيها عبادتا إيڤاندروس وهيراقليس الإغريقيتان ، وكانت تفخر بأن فى حيازتها رمز طروادة الواقى . وكانت آلهتها الپيناتس فى بلدة لاڤينيوم اللاتينية . واتخذت منذ البدء عبادة الإله كونسوس (Consus) السابينية . وقد تأصل لديها إله سابينى آخر ، كويرينوس (Quirinus) ، تأصلا بلغ من شدته أنها أشركته مع رومولوس مؤسسها . كما اتخذت آلهة الإتروسك ، وأعيادهم ، وعرافتهم ، وحتى شاراتهم الكهنوتية .

فى زمن لم يكن لأحد فيه حق الحضور فى الأعياد الدينية لأمة ما إلا إذا كان ينتمى إلى هذه الأمة بحكم المولد ، كان للرومان هذه الميزة التى لا تضارع وهى استطاعتهم أن يساهموا فى الأعياد اللاتينية ، وفى الأعياد الإتروسكية ، وفى الألعاب الأولمبية (١) . هذا وقد كانت الديانة رابطة قوية . عندما كانت

---

(١) تظاهر الرومان منذ وقت مبكر بربط أصلهم بطرواده ؛ انظر تيتوس ليفيوس ٢٧ : ٣٧ ؛ ٢٩ : ١٢ . كما شهدوا منذ وقت مبكر بقرابتهم من بلدة سيغيستا (Ségeste) (سيسرون : ضد فيريس ٤ : ٣٣ ؛ ٥ : ٤٧) ، ومع بلدة ساموثراكى (سرفيوس : *Ad Aen.* ٣ : ١٢) ومع أهالى البيلوبونيز (بوسانياس ٨ : ٤٣) ، ومع الاغريق (استرابون ٥ : ٣ : ٥) .

توجد عبادة مشتركة بين بلدتين كانت كل منهما تدعى أنها قريبة الأخرى ؛ ويجب على كل منهما اعتبار الأخرى حليفة لها ، والتعاون معها ؛ لم يكونوا يعرفون فى ذلك الزمن العتيق ارتباطاً آخر غير ما تقرره الديانة . لذلك حافظت روما بعناية عظيمة على كل ما كان يستطيع أن يقوم دليلا على هذة القرابة القيمة بينها وبين الأمم الأخرى: فكانت تقدم للاتينيين أثاراتها عن رومولوس ، وللسابينيين أسطورتها عن تارپيا (Tarpeia) وتاتيوس ، واحتجت لدى الإغريق بالأناشيد القديمة التى كانت فى حيازتها تمجيداً لأم إيڤاندروس ، وهى أناشيد لم تعد تفهمها لكنها كانت متمسكة بترتيلها . وحافظت أيضاً بأعظم اهتمام على ذكرى إينياس ، إذ أنه إذا كان فى استطاعتها أن تدعى القرابة من أهالى الپيلوپونيز عن طريق إيڤاندروس ، فإنها كانت قريبة عن طريق إينياس لأكثر من ثلاثين قرية منتشرة فى إيطاليا وفى صقلية وفى بلاد الإغريق وتراقيا وآسيا الصغرى. كانت جميعها من مؤسسات إينياس أو مستعمرات لبلدان أسسها إينياس ولذلك كانت تشترك فى العبادة مع روما . ويمكن أن نرى أى نفع جرته من هذه القرابة العتيقة فى الحرب التى شنتها فى صقلية ضد قرطاجة ، وفى بلاد الإغريق ضد فيليپوس .

وإذن فقد كان أهالى روما خليطاً من عدة أجناس ، وعبادتها مجموعة من عدة عبادات ، وموقدها القومى مجموعة من عدة مواقد . كادت تكون المدينة الوحيدة التى لم تفصلها ديانتها البلدية عن جميع المدن الأخرى. كانت تمس بالقرابة جميع إيطاليا وجميع بلاد الإغريق . لم يكد يوجد شعب لا تستطيع أن تقبله على موقدها .

٢ — توسعات روما الأولى (٧٥٣ — ٣٥٠ قبل المسيح)

أثناء القرون التى كانت الديانة البلدية قائمة فيها فى كل مكان ، نظمت روما سياستها على هذه الديانة .

يقال إن أول عمل قامت به المدينة الجديدة كان انتزاع بضع نساء سابينيات : أسطورة تبدو غير مقبولة البتة ، إذا فكرنا فى قداسة الزواج عند القدماء . ولكننا

رأينا، فيما سلف من القول، أن الديانة البلدية كانت تحرم الزواج بين أشخاص من مدن مختلفة، اللهم إلا إذا كانت بين هاتين المدينتين رابطة أصل أو عبادة مشتركة. كان لهؤلاء الرومان الأوائل حق الزواج مع ألبا التى كان أصلهم منها لكنه لم يكن لهم مع جيرانهم الآخرين، السابينيين. إن ما أراد رومولوس أن يستولى عليه أولا، لم يكن بضع نساء بل حق الزواج، أى الحق فى عقد صلات منتظمة مع الأهالى السابينيين. ولذلك كان يجب عليه أن يقيم بينهم وبينه صلة دينية؛ ولهذا اتخذ عبادة الإله السابينى كونسوس (Consus) واحتفل بعيده. وتضيف الأثارة أنه سبى النساء أثناء هذا العيد؛ ولو أنه فعل ذلك لما أمكن الاحتفال بالزيجات طبقاً للشعائر، ما دام أول عمل من أعمال الزواج وألزمه كان الـ *traditio in manum* أى هبة الأب لابنته؛ وإذن كان رومولوس لا يحقق الغرض الذى كان يرمى إليه. لكن حضور السابينيين وأسراتهم فى الاحتفال الدينى ومساهمتهم فى القربان، كان يقيم بين الشعبين رباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن رفض حق الزواج (*connubium*). لم تكن هناك حاجة لخطف مادى؛ لقد عرف رئيس الرومان كيف يحصل على حق الزواج. لذا يؤكد المؤرخ ديونيسيوس، الذى كان يرجع للنصوص والأناشيد القديمة، أن السابينيات تزوجن طبقاً لأكثر الشعائر احتفالا، وهو ما يؤيده پلوتارخوس وسيسرون (١). وجدير بالملاحظة أن أول جهد من جانب الرومان كانت نتيجته إسقاط الحواجز التى كانت تضعها الديانة البلدية بينهم وبين شعب من جيرانهم. لم تصل إلينا أسطورة مماثلة بالنسبة لإتروريا؛ لكن يبدو من المؤكد تماماً أنه كان بين روما وبين هذا القطر نفس العلاقات التى كانت بينها

---

(١) ديونيسيوس ٢: ٣٠؛ بلوتارخوس: رومولوس ١٤، ١٥، ١٩؛ سيسرون: الجمهورية ٢: ٧. إذا لاحظنا بانتباه روايات هؤلاء المؤرخين الثلاثة، والعبارات التى يستعملونها، فاننا نتعرف على جميع مميزات الزواج العتيق؛ لذلك نميل إلى الاعتقاد أن أسطورة السابينيات هذه، التى أصبحت على مضى الزمن قصة سبى، كانت فى الأصل أسطورة الحصول على حق الزواج مع السابينيين. ويلوح أن سيسرون قد فهمها على هذا النحو: *Sabinorum connubia conjunxisse, De Orat.*, I. 9.

وبين اللاتيوم وبلاد السابينيين . فقد كان لها من اللباقة ما جعلها تتحد مع جميع من كانوا يحيطون بها . وكانت متمسكة بأن يكون لها حق الزواج (connubium) مع جميع المدن . ومما يدل على أنها كانت تعرف جيداً أهمية هذا الرباط أنها لم تكن تريد أن يوجد فيما بين المدن الأخرى الخاضعة لها (١) .

ثم دخلت روما فى سلسلة حروبها الطويلة . كانت الأولى منها ضد السابينيين أتباع تاتيوس (Tatius) وانتهت بتحالف دينى وسياسى بين الشعبين الصغيرين (٢) . ثم حاربت ألبا ؛ يقول المؤرخون إن روما جروت على مهاجمة هذه البلدة مع أن روما كانت مستعمرة لها. ولعل كونها مستعمرة لها كان هو السبب الذى جعلها تحكم بأن هدمها لازم لعظمتها هى . إذ أنه كان لكل عاصمة السيادة الدينية على مستعمراتها ؛ هذا وقد كان للديانة عندئذ من السلطان ما لا تستطيع روما معه إلا أن تكون مدينة تابعة وأن تقف مصائرها إلى الأبد ما دامت ألبا قائمة .

فلما دمرت ألبا ، لم تقنع روما بأنها لم تعد مستعمرة . بل زعمت أن ترفع نفسها إلى مرتبة العاصمة بإرثها للحقوق والسيادة الدينية التى كانت تمارسها ألبا ، إلى ذلك اليوم ، على مستعمراتها الثلاثين فى اللاتيوم . وقد شنت روما حروباً طويلة لكى تحصل على رئاسة قربان الأعيان اللاتينية .وتلك كانت الوسيلة الوحيدة للحصول على النوع الوحيد من السيادة والتغلب الذى كان يمكن تصوره فى ذلك الزمن .

أقامت عندها معبداً لديانا (Djana) ؛ وألزمت اللاتينيين بالحضور لتقديم القرابين فيه ، بل اجتذبت إليه السابينيين (٣) . وبذلك عودت الشعبين على أن يتقاسما الأعياد والصلوات ولحوم الأضاحى المقدسة تحت رئاستها : لقد جمعتهما تحت سيادتها الدينية .

---

(١) تيتوس ليفيوس ٩ : ٤٣ ؛ ٢٣ : ٤ .
(٢) *Sacris communicatis* سيسرون : الجمهورية ١١ : ٧ .
(٣) تيتوس ليفيوس ١ : ٤٥ . ديونيسيوس ٤ : ٤٨ ، ٤٩ .

روما هى المدينة الوحيدة التى عرفت كيف تزيد عدد سكانها بالحرب ؛ فقد كانت لها سياسة يجهلها كل باقى العالم الإغريقى والإيطالى ؛ لقد ضمت لنفسها كل من غلبتهم ؛ وأحضرت لديها سكان البلاد المستولى عليها ؛ وجعلت المغلوبين رومانا بالتدريج . وفى نفس الوقت أرسلت مستعمرين فى البلاد المستولى عليها ، وبهذه الطريقة بذرت فى كل مكان روما أخرى . إذ أن مستعمريها حافظوا على المشاركة الدينية مع العاصمة ، فى نفس الوقت الذى كانوا يؤسسون فيه مدناً قائمة بذاتها من الناحية السياسية : هذا وقد كان فى ذلك ما يكفى لإجبارهم على إخضاع سياستهم لسياستها ، وعلى إطاعتها ، ومساعدتها فى جميع حروبها .

ومن صفات السياسة الرومانية الجديرة بالملاحظة أنها كانت تجتذب إليها جميع عبادات المدن المجاورة . كانت متمسكة بقهر الآلهة كما كانت متمسكة بقهر المدن . فقد وضعت يدها على إلهة تدعى چونون فى ڤييس وإله يدعى چوپيتر فى پرينسته (Préneste) وإلهة تدعى مينيرڤا فى فاليريا (Falisques) وإلهة تدعى چونون فى لانوڤيوم ، وأخرى تدعى ڤينوس عند السامنيين ، وآلهة أخرى كثيرة لا نعرفها (١) . «إذ أنها كانت العادة فى روما ، كما يقول أحد القدماء (٢) ، أن تدخل عندها ديانات المدن المغلوبة ؛ فطوراً توزعها بين فصائلها (*gentes*) وطوراً تعطيها مكاناً فى ديانتها القومية » .

يثنى مونتيسكيو على الرومان لأنهم ، من فرط لباقتهم السياسية الماهرة ، لم يفرضوا آلهتهم على الشعوب المغلوبة . لكن ذلك مناف منافاة مطلقة لأفكارهم ولأفكار القدماء جميعاً . استولت روما على آلهة المغلوبين ولم تعطهم آلهتها . احتفظت لنفسها بحماتها ، بل عملت على زيادة عددهم . كانت متمسكة بحيازة عبادات وآلهة حامية أكثر من أية مدينة أخرى .

---

(١) تيتوس ليفيوس ٥ : ٢١ ، ٢٢ ؛ ٦ : ٢٩ . أوفيديوس : الأعياد ٣ : ٨٣٧ ، ٨٤٣ ، بلوتارخوس : الموازنة بين التاريخين الاغريقى والرومانى ٧٥ .

(٢) كنكيوس (Cincius) ، اقتبسه أرنوبيوس (Arnobe) : ضد الأمم (*adv. gentes*) ٣ : ٣٨

هذا وما دامت هذه العبادات وهذه الآلهة قد انتزع معظمها من المغلوبين فقد كانت روما مشتركة بسببها اشتراكاً دينياً مع جميع الشعوب . ولقد كانت روابط الأصل ، والاستيلاء على حق الزواج (*connubium*) ، ورئاسة الأعياد اللاتينية ، والاستيلاء على الآلهة المغلوبة ، وما كانت تزعمه من حق فى تقديم القرابين فى أوليمپيا ودلفوى ، وسائل تمهد بها روما لسيادتها . كان لها ، كما كان لجميع البلدان ، ديانتها البلدية : ينبوع وطنيتها ؛ لكنها كانت البلدة الوحيدة التى كانت تستخدم هذه الديانة لاتساعها . بينما كانت البلاد الأخرى فى عزلة بسبب ديانتها ، كان من لباقة روما ، أو من حسن حظها ، أن تستخدمها لاجتذاب الكل إليها وللتغلب على الجميع .

٣ — كيف حصلت روما على الإمبراطورية (٣٥٠ — ١٤٠ قبل الميلاد)

بينما كانت روما تتسع هكذا ببطء ، بالوسائل التى كانت ديانة ذلك العصر وآراؤه تضعها تحت تصرفها ، جرت سلسلة من التغييرات الاجتماعية والسياسية ، فى جميع المدن ، وفى روما ذاتها ، أدت فى آن واحد إلى تحويل حكومة الناس وطريقتهم فى التفكير . وقد تابعنا ، أعلاه ، سير هذا الانقلاب ؛ أما ما يجدر ملاحظته هنا فهو أنها كانت متفقة مع التطور العظيم للسلطة الرومانية . ولم يكن هذان الحدثان ، اللذان وقعا فى نفس الوقت ، دون أن يكون لأحدهما أثر فى الآخر . فإن فتوحات روما ما كانت تسهل إلى هذا الحد لو لم يكن الروح البلدى القديم قد خمد وقتذاك فى كل مكان ؛ ويمكن الظن أيضاً بأن النظام البلدى ما كان يسقط مبكراً على هذا النحو لو لم يوجه إليه الفتح الرومانى تلك الضربة القاصمة .

وفى خلال التغييرات التى حدثت فى الأنظمة ، وفى الأخلاق ، وفى العقائد ، وفى الشرع ، تغيرت طبيعة الوطنية ذاتها ؛ وكان ذلك مما ساهم بأكبر نصيب فى تقدم روما ذلك التقدم العظيم . ذكرنا آنفاً ما كان عليه هذا الشعور فى العصر الأول للمدن . لقد كان جزءاً من الديانة ؛ فكانوا يحبون الوطن لأنهم كانوا يحبون الآلهة الحماة ، إذ أنهم كانوا يجدون فى الوطن بيتاً للنار ، وناراً مقدسة

وأعياداً ، وأدعية ، وأناشيد ، ولأنه خارج الوطن لن تكون لهم آلهة ولاعبادة. كانت تلك الوطنية إيماناً وتقوى . لكن عندما سحبت السيادة من الطبقة الكهنوتية اختفى هذا النوع من الوطنية مع جميع العقائد القديمة . لم يفْنَ حب المدينة بعد، لكنه اتخذ شكلا جديداً .

لم يعودوا يحبون الوطن من أجل ديانته وآلهته ، بل أحبوه فقط من أجل قوانينه وأنظمته ومن أجل الحقوق والأمن التى يمنحها لأعضائه . انظر ، فى الرثاء الذى أنطق به ثوقيديديس پريكليس ، ما هى الأسباب التى تحبب الناس فى أثينا : هى أن تلك البلدة «تريد أن يكون الجميع متساوين أمام القانون» وأنها «تمنح الناس الحرية ، وتفتح طريق المناصب للجميع ؛ إنها لتحافظ على النظام العام ، وتضمن السلطة لرجال الدولة ، وتحمى الضعفاء ، وتقدم للجميع ملاهى وحفلات تُعدّ تربية للروح ». ويختم الخطيب ذلك بقوله «هذا هو السبب الذى من أجله آثر محاربونا أن يموتوا بشجاعة على أن يسلب منهم هذا الوطن ؛ هذا هو السبب الذى من أجله كان الذين بقوا على قيد الحياة على استعداد تام للتألم من أجله وافتدائه بأنفسهم» . وإذن فقد كانت لا تزال على الإنسان واجبات نحو المدينة ؛ لكن هذه الواجبات لم تعد تستمد من نفس المبدأ الذى كانت تستمد منه فيما مضى . إنه لا يزال يعطى دمه وحياته للوطن ، لكن ذلك لم يعد فى سبيل الدفاع عن معبوده القومى وعن موقد آبائه ؛ بل للدفاع عن الأنظمة التى يتمتع بها والمزايا التى تخلعها المدينة عليه .

هذا ولم يكن لهذه الوطنية الجديدة نفس الآثار تماماً التى كانت لوطنية العصور القديمة . حيث أن الفؤاد لم يعد عالقاً ببيت النار (پريتانيون) والآلهة الحماة ، والأرض المقدسة ، بل بالأنظمة والقوانين دون سواها ؛ وحيث أن هذه الأنظمة والقوانين كانت تتغير على الدوام بالنسبة لحالة التقلقل التى كانت عليها جميع المدن عندئذ، فقد أصبحت الوطنية إحساساً متغيراً ، قُلّباً ، يتوقف على الظروف ، وخاضعاً لنفس التذبذبات

التى تخضع لها الحكومة ذاتها . لم يعودوا يحبون الوطن إلا بقدر ما كانوا يحبون النظام السياسى الذى يسود فيه موقتاً ؛ من كان يجد قوانين الوطن سيئة ، لم يعد له ما يربطه به .

وهكذا ضعفت الوطنية البلدية فى النفوس وبادت . أصبح رأى كل رجل أكثر قداسة لديه من وطنه ، وأصبح انتصار حزبه أعز لديه من عظمة مدينته أو مجدها . وبلغ الأمر بكل فرد ، إذا لم يجد الأنظمة التى يحبها فى البلدة التى ولد فيها ، أن يوثر عليها البلدة الفلانية التى يرى هذه الأنظمة قائمة فيها . بدأوا عندئذ يهاجرون فى رضى كبير ؛ ويخشون النفى أقل مما كانوا يخشونه فيما مضى . ماذا يهم أن يقصى المرء عن بيت النار وأن يحرم من ماء النثار ؟ لم يعودوا يفكرون فى الآلهة الحماة ، وتعودوا بسهولة الاستغناء عن الوطن .

ولم يعد بين ذلك وبين التسلح ضده مدى بعيد . فتحالفوا مع بلدة معادية لكى يحصلوا لحزبهم على النصر فى بلدتهم . اثنان من أهالى أرغوس : أحدهما يتمنى حكومة سراة فيوثر اسپرطه على أرغوس ؛ والآخر يفضل حكم العامة فيحب أثينا . لم يعد هذا ولا ذاك شديد التمسك باستقلال مدينته ولا كثير الاشمئزاز من القول بأنه رعية لبلدة أخرى بشرط أن تؤيد هذه البلدة حزبه فى أرغوس . نرى بجلاء فى ثوقيديديس وفى اكسينوفون أن هذه الحالة التى كانت عليها النفوس هى التى ولدت حرب الپيلوپونيز وجعلتها تدوم زمناً طويلا . فى پالاتيا كان الأثرياء من حزب ثيبه ولاقيديمون ، وكان أنصار حكومة العامة من حزب أثينا . وفى كوركيرا (Corcyre) (١) ، كان الحزب الشعبى لأثينا والسراة لاسپرطه (٢) . كان لأثينا حلفاء فى جميع بلدان الپيلوپونيز ، وكان لاسپرطه حلفاء فى جميع البلدان اليونية . يتفق ثوقيديديس واكسينوفون فى القول بأنه لم تكن هناك مدينة واحدة لم يكن الحزب الشعبى فيها ميالا للأثينيين والسراة للاسپرطيين (٣) . تمثل هذه الحرب جهداً عاماً

---

(١) هى جزيرة كورفو الآن . — المعرب .

(٢) ثوقيديديس ٣ : ٦٩ - ٧٢ : ٤ : ٤٦ - ٤٨ ؛ ٣ : ٨٢ .

(٣) ثوقيديديس ٣ : ٤٧ . اكسينوفون : هلينيكا ٦ .

قام به الإغريق لينشئوا فى كل مكان دستورا واحداً ، مع سيادة إحدى المدن ؛ لكن البعض يريد السراة تحت حماية اسپرطه ، والبعض الآخر يتطلب حكم العامة بمعاونة أثينا . وهكذا كان الأمر فى عهد فيليپوس ، فقد كان حزب السراة فى جميع البلدان يتمنى السيادة المقدونية . وفى عهد فيلوپويمين (Philopémen) انعكست الأوضاع ، لكن الإحساسات بقيت كما كانت ؛ قبل الحزب الشعبى سلطان مقدونية ، وتعلق كل من كان للسراة بالحلف الأخيوى (ligue achéenne) . وهكذا لم تعد المدينة هدف أمانى الناس وعطفهم . لم يكن هناك إلا قليل من الإغريق لم يكونوا على استعداد للتضحية بالاستقلال البلدى لكى يحصلوا على النظام الذى كانوا يفضلونه .

أما من كانوا ذوى أمانة وذمة ، فإن الشقاق الدائم ، الذى كانوا شهوداً عليه ، جعلهم يعافون النظام البلدى . لم يكن فى استطاعتهم أن يحبوا شكلا من أشكال المجتمع يَفرِض عليهم أن يقاتلوا كل يوم ، وكان فيه الفقير والثرى فى حرب دائماً ، ويشهدون فيه تبادلا لا نهاية له بين عنف الشعب وانتقام السراة . أرادوا أن يتخلصوا من نظام أنتج عظمة حقيقية لكنه لم يعد، بعد ذلك، يلد غير آلام وأحقاد . بدأوا يشعرون بالحاجة إلى الخروج من النظام البلدى ، والوصول إلى شكل آخر من أشكال الحكومة غير المدينة . فكر كثير من الناس على الأقل فى أن يقيموا ، فوق المدن ، نوعاً من السلطة المسيطرة ، تسهر على المحافظة على النظام وتجبر هذه المجتمعات الصغيرة المشاغبة على العيش فى سلام . وهكذا كان فوكيون (Phocion) ، وهو مواطن صالح ، ينصح مواطنيه بقبول سلطة فيليپوس ، ويعدهم مقابل ذلك بالوفاء والأمن .

وفى إيطاليا لم تكن الأمور تسير على غير النهج الذى سارت عليه فى بلاد الإغريق . كانت بلدان اللاتيوم والسابينيين وإتروريا مضطربة بفعل هذه الثورات والمنازعات عينها ، واختفى حب المدينة . وكما حدث فى بلاد الإغريق كان كل واحد يرتبط عن طيب خاطر ببلدة أجنبية ، لكى تسود آراؤه أو مصالحه فى بلدته .

حالة الأذهان هذه كانت سبباً فى حظ روما . فإنها أيدت السراة فى كل مكان ، وفى كل مكان أيضاً كانت طبقة السراة حليفة لها . لنذكر بعض الأمثلة : غادرت فصيلة كلوديا *gens Claudia* إقليم السابينيين على أثر خلافات داخلية ، وانتقلت إلى روما لأن الأنظمة الرومانية كانت تروق لها أكثر من أنظمة إقليمها ؛ وفى نفس الفترة هاجر الكثير من الأسرات اللاتينية إلى روما لأنها لم تكن تحب نظام حكم العامة فى اللاتيوم ، ولأن روما كانت قد أعادت عندئذ سيادة البطارقة (١) . فى أرديا (Ardée) ، كان السراة والعامة فى نزاع فدعت السوقة الڤولسك إلى معونتها ، وسلم السراة المدينة للرومان (٢) . وكانت إترووريا مليئة بالشقاق . فقد قلبت ڤييس (Veii) حكومة السراة فيها ؛ وهاجمها الرومان ، فرفضت البلاد الإتروسكية الأخرى ، التى كانت السراة الكهنوتية لا تزال سائدة فيها ، أن تنجد أهالى ڤييس . وتضيف الأسطورة أن الرومان فى هذه الحرب خطفوا متكهنا (aruspice) من أهالى ڤييس ، وتسلموا وحياً يضمن لهم النصر . ألا تشف هذه الأسطورة عن أن الكهنة الإتروسك قد فتحوا أبواب المدينة للرومان ؟

وفيما بعد عند ما ثارت كاپوا ضد روما ، لاحظوا أن الفرسان ، أى هيئة السراة ، لم يساهموا فى هذه الفتنة (٣) . وفى سنة ٣١٣ سلم حزب السراة البلدان أوزونا (Ausona) وسورا (Sora) ومينتورنه (Minturne) ، وڤسكيا (Vescia) للرومان (٤) . إذا رأينا الأتروسك يتحدون ضد روما ، فإنما يرجع ذلك إلى أن الحكومة الشعبية قد استقرت عندهم . لكن بلدة واحدة هى بلدة أرِّتيوم (Arretium) رفضت الدخول فى هذا الاتحاد ؛ ذلك لأن طبقة السراة كانت سائدة فى أرِّتيوم (٥) . عندما كان هانيبال فى إيطاليا ، كانت جميع

---

(١) ديونيسيوس ٦ : ٢ .
(٢) تيتوس ليفيوس ٤ : ٩ ، ١٠ .
(٣) تيتوس ليفيوس ٨ : ١١ .
(٤) تيتوس ليفيوس ٩ : ٢٤ ، ٢٥ .
(٥) تيتوس ليفيوس ٩ : ٣٢ ؛ ١٠ : ٣ .

البلدان مضطربة ؛ لكن الأمر لم يكن متعلقاً بالاستقلال ، فى كل بلدة كان السراة لروما والسوقة للقرطاجيين (١) .

تستطيع الطريقة التى كانت تحكم روما بمقتضاها أن تفسر لنا تفضيل السراة المستمر لها . فقد تتابعت سلسلة الثورات فيها كما تتابعت فى جميع البلدان ولكن ببطء أكبر . فى سنة ٥٠٩ نجح ارتكاس" بطريقى فى روما ؛ وقد كان للمدن اللاتينية طغاة قبل ذلك التاريخ . ثم قام حكم العامة ولكن مع مضى الزمن ومع كثير من الاتزان والاعتدال ؛ وإذن فقد كانت الحكومة الرومانية حكومة سراة زمناً أطول مما كانت عليه أية حكومة أخرى ، واستطاعت أن تكون محط آمال حزب السراة زمناً طويلا .

حقاً لقد استطاع حكم العامة أن يتغلب فى روما . لكن أساليب الحكم وما يمكن أن نسميه حيل الحكومة بقيت ، فى ذلك الوقت ، مطبوعة بطابع السراة . فى لجان الفرق المئينية كانت الأصوات موزعة حسب الثروة ؛ ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك اختلافاً كلياً فى لجان القبائل ، فمن حيث الشرع لم يكن يسمح فيها بأى تفريق ناتج عن الثروة ، أما من حيث الواقع فقد كانت الطبقة الفقيرة محصورة فى القبائل المدنية الأربع ولهذا لم يكن لها سوى أربعة أصوات تعارض بها أصوات طبقة الملاك وهى واحد وثلاثون صوتاً . هذا ولم يكن هناك أهدأ فى العادة من هذه الاجتماعات ؛ لا يتكلم فيها غير الرئيس ، أو من يسمح له الرئيس بالكلام . لم يكونوا يسمعون فيها خطباء ؛ وكانوا قليلا ما يتناقشون فيها ؛ بل كان يقتصر كل شىء فى أغلب الأحيان على التصويت بنعم أو بلا ، وإحصاء الأصوات ؛ وحيث آن هذه العملية الأخيرة معقدة جداً فإنها كانت تتطلب وقتاً طويلا وهدوءاً كثيراً . ويجب أن نضيف على هذا أن مجلس الشيوخ لم يكن يجدد كل عام كما كان فى المدن الإغريقية التى يسود فيها حكم العامة . من الناحية الشرعية ، كان يؤلفه الرقباء كل خمس سنوات ؛ والواقع أن القوائم كانت شديدة التشابه

---

(٢) تيتوس ليفيوس ٢٣ : ١٣ ، ١٤ ، ٣٩ ؛ ٢٤ : ٢ : *Unus velut morbus invaserat omnes Italiae civitates, ut plebs ab optimatibus dissentiret, senatus Romanis faveret, plebs ad Poenos rem traheret.*

من فترة لأخرى من فترات السنوات الخمس ، ومن الشاذ أن يحذف بعض الأعضاء ؛ وبذلك كان مجلس الشيوخ هيئة باقية مدى الحياة . يكاد ينتخب هو أعضاءه ؛ ويمكن أن نلاحظ أن الأبناء كانوا يحلون محل الأباء فى العادة . فكان فى الحقيقة هيئة من أقلية حاكمة .

كانت الأخلاق متشبعة بصفات السراة أكثر من تشبع الأنظمة . كان لأعضاء الشيوخ أماكن محتفظ بها فى المسرح . وكان الأثرياء يخدمون دون سواهم فى سلاح الفرسان . وكان الجزء الأكبر من رتب الجيش محتفظاً به لشباب الأسرات الكبيرة ؛ لم يكن سقيبيو قد بلغ خمسة عشر عاماً عند ما كان يقود أسطولا (٢).

ظلت سيادة الطبقة الثرية متماسكة فى روما زمناً أطول منه فى أية بلدة أخرى. ويرجع ذلك إلى سببين أحدهما أنه حدثت فتوحات كبيرة وأن المنافع كانت تذهب إلى الطبقة التى كانت ثرية من قبل ، فقد دخلت فى حيازتها جميع الأراضى التى انتزعت من المغلوبين . واستولت على تجارة البلاد المغلوبة ، وضمت إليها الأرباح العظيمة من جباية الضرائب وإدارة الولايات . وبذلك كانت هذه الأسرات تزداد ثراء من جيل إلى آخر . وأصبحت مُمَتَّعَمَةً بدرجة لا يقاس عليها ؛ وأصبحت كل واحدة منها سلطة أمام الشعب . والسبب الآخر أن الرومانى ، وحتى أفقر رومانى ، كان يُكِنُّ احتراماً داخلياً للثروة. لقد اختفت طبقة الموالى الحقيقية منذ زمن طويل ؛ لكنه يلوح كما لو كانت قد بعثت فى صورة تمجيد يؤدونه إلى ذوى الثروات الكبيرة ؛ واستقر العرف على أن يذهب المُعْيل كل صباح ليحيى الأثرياء ويطلب إليهم غذاء يومه .

---

(٣) Pline, XIV, 1, 5: *Senator censu legi, judex fieri censu, magistratum ducemque nihil magis exornare quam censum.*

إن ما يقوله بلينيوس لا ينطبق على العصور الأخيرة للجمهورية فحسب، بل كان فى روما دائماً نصاب لكى يكون الانسان شيخاً ، ونصاب لكى يكون فارساً ، بل لكى يكون جندياً فى الفيلق ؛ وبمجرد أن وجدت هيئة من القضاة كان لا بد أن يكون الانسان ثرياً ليكون عضواً فيها ، بحيث كان حق القضاء امتيازاً للطبقات العليا دائماً .

وليس المقصود أن النزاع بين الأثرياء والفقراء لم يُرَ فى روما كما روئى فى جميع المدن . بل إنه لم يبدأ إلا فى عصر آل غراكخوس ، أى بعد أن تم الفتح تقريباً . هذا ولم يكن هذا النزاع فى روما مطبوعاً دائماً بطابع العنف التى كان مطبوعاً بها فى كل مكان آخر . فإن الطبقة المنحطة من الشعب فى روما لم تتطلع إلى الثروة بحماس شديد؛ وقد ساعدت آل غراكخوس مساعدة ليّنة ؛ ورفضت أن تعتقد أن هؤلاء المصلحين كانوا يعملون من أجلها ، وهجرتهم فى اللحظة الفاصلة . فإن قوانين توزيع الأراضى التى كثيراً ما قدمت كتهديد للأغنياء قد تركت الشعب دائماً فى شىء من عدم الاكتراث ، ولم تحركه إلا تحريكاً سطحياً . ومن ذلك نرى جيداً أنه لم يكن يتمنى امتلاك الأرض فى رغبة شديدة ؛ هذا وإذا كانوا قد عرضوا عليه تقسيم الأراضى العامة ، أى أملاك الدولة ، إلا أنه لم يفكر ، على الأقل ، فى تجريد الأثرياء من أملاكهم . فقد كان يحب أن يعيش بجوار الأثرياء وفى ظلهم بدافع من عاطفة شطرها الاحترام الموروث وشطرها الآخر العادة المألوفة .

وقد كان من حكمة هذه الطبقة الثرية أنها قبلت فى نطاقها أهم الأسرات فى البلدان الخاضعة أو المحالفة وقد انتهى الأمر رويداً رويداً بأن دخل كل من كان حراً فى تكوين الطبقة الثرية فى روما . وازدادت أهمية هذه الهيئة على الدوام ، وأصبحت سيدة الدولة . فباشرت وحدها مناصب الدولة إذ أن شراءها كان يكلف كثيراً ؛ وألفت وحدها مجلس الشيوخ إذ كان لا بد من نصاب مرتفع جداً لكى يكون الإنسان شيخاً . وبذلك حدث هذا الأمر العجيب وهو تكوين طبقة من الأشراف بالرغم من القوانين التى كانت مشبعة بحكم العامة . وقد تحمل الشعب ، الذى كان عظيم السلطان ، أن ترتفع هذه الطبقة فوقه ولم يعارضها إطلاقاً .

وإذن فقد كانت روما ، فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ، البلدة التى تحكم بأشد الأنظمة تشبعاً بمبادىء السراة بين جميع بلدان إيطاليا وبلاد الإغريق. ولنلاحظ ، فى الختام ، أنه إذا كان مجلس الشيوخ مضطراً فى الشؤون الداخلية إلى مراعاة الجمهور فإنه كان السيد المطلق فيما يختص بالسياسة الخارجية فهو الذى

كان يستقبل السفراء ، وهو الذى يعقد المحالفات ، ويوزع الولايات والفيالق ، ويصدق على أعمال القواد ، ويحدد الشروط التى تفرض على المغلوبين ؛ وكلها أمور كانت فى كل مكان آخر من اختصاصات المجمع الشعبى . وإذن لم يكن للأجانب فى علاقاتهم مع روما أى شأن بالشعب ؛ لم يكونوا يسمعون الحديث إلا عن مجلس الشيوخ ؛ وكانوا يشبعونهم من هذه الفكرة وهى أنه لم يكن للشعب أية سلطة . وذلك هو الرأى الذى أعلنه إغريقى لفلامينينوس (Flamininus) إذ قال له «فى بلادكم تحكم الثروة ، وكل ما عداها خاضع لها .» (١)

نتج عن ذلك أن طبقة السراة فى جميع المدن شخصت بأبصارها نحو روما واعتمدت عليها ، واتخذتها حامية ، وربطت نفسها بمصيرها . ومما ساعد أكثر من سواه على السماح بهذا أن روما لم تكن بلدة أجنبية لأحد . فقد كان السابينيون واللاتينيون والإتروسك يرون فيها بلدة سابينية أو بلدة لاتينية أو بلدة إتروسكية ، وكان الإغريق يعتقدون أنهم يجدون فيها إغريقاً .

بمجرت ما تراءت روما لبلاد الإغريق (عام ١٩٩ قبل الميلاد) استسلمت لها السراة . ولم يكد يفكر أحد عندئذ أن له الخيرة بين الاستقلال والخضوع ، إذ أن المسألة لم تكن لدى سواد الناس إلا الخيار بين السراة والحزب الشعبى . وقد كان هذا الأخير فى جميع البلدان فى صف فيليبوس أو أنطيوخوس أو پرسيبوس أما الآخر فكان فى صف روما . ويمكن أن نرى فى پوليبوس وفى تيتوس ليڤيوس أنه إذا كانت أرغوس قد فتحت أبوبها للمقدونيين فى سنة ١٩٨ ، فإنما كان ذلك لأن الشعب كان سائداً فيها ، وأن حزب الأثرياء هو الذى سلم فى السنة التالية أوپوس (أوپونت Opunte) للرومان ؛ وأن سراة الأكارنيين (Acarniens) عقدوا معاهدة تحالف مع روما ، لكن هذه المعاهدة أبطلت فى العام التالى لأن حكم العامة تغلب من جديد فى الفترة بينهما ، وأن ثيبه بقيت فى تحالف مع فيليپوس طالما كان الحزب الشعبى هو الأقوى فيها ، وتقربت إلى روما بمجرد أن أصبحت طبقة السراة سيدة فيها ؛ وأن السوقة فى أثينا وفى ديمترياس (Démétriade) وفى فوكايا (Phocée) كانوا معادين للرومان

(١) تيتوس ليفيوس ٣٤ : ٣١ .

وأن نابيس (Nabis) طاغية العامة كان فى حرب معها ؛ وأن العُصبة الأخيوية (ligue achéenne) كانت ميالة لها طالما كانت العصبة تحت حكم السراة ؛ وأن رجالاً من أمثال فيلوپويمين وپوليبيوس كانوا يتمنون الاستقلال القومى، لكنهم مع هذا كانوا يؤثرون السيادة الرومانية على حكم العامة ؛ وأنه فى العصبة الأخيوية ذاتها أتت لحظة بزغ فيها الحزب الشعبى بدوره . وأنه ابتداء من هذه اللحظة كانت العصبة عدواً لروما ؛ وأن ديووس (Diaeos) وكروتولاووس (Crotolaos) هما فى نفس الوقت رؤساء الحزب الشعبى وقواد العصبة ضد الرومان وأنهما حاربا بشجاعة فى سكارفيا (Scarphée) وليكوپتيرا (Leucoptéra) . وربما كان ذلك من أجل انتصار حكم العامة أكثر مما كان من أجل استقلال بلاد الإغريق .

تخبرنا هذه الحوادث بما فيه الكفاية كيف حصلت روما على الإمبراطورية دون أن تبذل جهودا كبيرة . كان الروح البلدى يختفى شيئاً فشيئاً . وأصبح حب الاستقلال شعوراً نادراً جداً ، وكانت الأفئدة منقطعة لمصالح الأحزاب وشهواتها . نسوا المدينة وهم لا يشعرون . فهوى الواحد تلو الآخر من الحواجز التى كانت تفصل البلدان فيما مضى ، وتجعل منها عوالم صغيرة قائمة بذاتها ، يحد أفقها آمال كل فرد وأفكاره . فلم يعد يميز فى جميع إيطاليا وفى جميع بلاد الإغريق غير فئتين من الناس : فى إحدى الناحيتين طبقة السراة وفى الأخرى الحزب الشعبى . تلك تدعو سيادة روما ، وهذا يصدها . ولقد تغلبت طبقة السراة ، وحصلت روما على الإمبراطورية .

٤ — روما تحطم النظام البلدى فى كل مكان

ضعفت أنظمة المدينة القديمة بفعل سلسلة من الثورات ، وبدت كما لو كانت منهوكة القوى . فكانت النتيجة الأولى للسيادة الرومانية هى إتمام تحطيمها ومحو ما يزال باقياً منها . وهو ما نستطيع أن نراه عندما نلاحظ أية حالة هوت إليها الشعوب كلما أخضعتها روما .

يجب أولا أن نبعد عن أذهاننا كل عادات السياسة الحديثة ، وألا نتصور أن الشعوب كانت تدخل الواحد تلو الآخر فى الدولة الرومانية كما تُضم فى أيامنا المقاطعات المستولى عليها إلى مملكة توسع حدودها بقبولها هؤلاء الأعضاء الجدد. لم تكن الدولة الرومانية (*civitas romana*) تتسع بالفتح ؛ فإنها لم تكن تشمل إطلاقاً غير الأسرات التى كانت تُمثل فى احتفال التعداد الدينى. وكذلك لم تكن تتسع الأرض الرومانية (*ager romanus*) بل كانت تبقى محصورة فى الحدود التى لا تتزحزح ، التى خطها الملوك ، والتى كان يقدسها احتفال الأمبارڤاليس (*Ambarvales*) كل عام. شيئان فقط كانا يتسعان عند كل فتح : ألا وهما السيادة الرومانية (*imperium romanum*) والأرض التابعة للدولة الرومانية (*ager publicus*).

طالما كانت الجمهورية قائمة لم يكن يخطر ببال أحد أنه فى استطاعة الرومان والشعوب الأخرى أن يكونوا أمة واحدة . كان فى استطاعة روما أن تتقبل لديها بعض المغلوبين كلا على حدة ، وأن تسكنهم داخل أسوارها وأن تحولهم رومانا على مدى الزمن ؛ لكنه لم يكن فى استطاعتها أن تتمثل شعباً أجنبياً بأكمله فى شعبها ، ورقعة من الأرض فى رقعتها . ولم يكن مرجع ذلك سياسة روما الخاصة ، بل مبدأ كان ثابتاً فى الزمن العتيق ، وهو مبدأ كانت روما تميل للابتعاد عنه أكثر من أية مدينة أخرى ، لكنه لم يكن فى استطاعتها أن تتحرر منه تماماً . فعندما كان يخضع شعب ما ، لم يكن يدخل فى الدولة الرومانية (*in civitate*) بل فى السيادة الرومانية فقط (*in imperio*). لم يكن يتحد مع روما كما تتحد اليوم المقاطعات مع عاصمة ما ؛ لأن روما لم تعرف فيما بين الشعوب وبينها إلا نوعين من الروابط : الخضوع (*dedititii*) أو التحالف (*socii*)

كان يلوح من ذلك أنه لا بد من بقاء الأنظمة البلدية لدى المغلوبين وأنه لا بد من أن يكون العالم مجموعة شاسعة من المدن المتباينة فيما بينها ، وعلى رأسها مدينة سيدة . إلا أن شيئاً من ذلك لم يقع فقد كان من أثر الفتح الرومانى أن أحدث تبديلا حقيقياً فى داخل كل بلدة .

فمن ناحية كان هناك الرعايا (*dedititii*) . وهم أولئك الذين تلوا صيغة التسليم (*deditio*) وبذلك سلموا للشعب الرومانى « أشخاصهم وأسوارهم

وأراضيهم وبيوتهم ومعابدهم وآلهتهم» . فلم يتنازلوا بذلك عن حكومتهم البلدية فحسب ، بل عن كل ما كان يلازمها عند القدماء ، أى عن ديانتهم وعن قانونهم الخاص . وابتداء من تلك اللحظة لم يعد هؤلاء الرجال يكوّنون فيما بينهم هيئة سياسية ؛ لم يعد فيهم شيء من المجتمع المنظم . كانت بلدتهم تستطيع أن تبقى قائمة ، لكن مدينتهم بادت . وإذا استمروا على العيش معاً فإنهم يعيشون من غير أنظمة ولا قوانين ولا رجال دولة . وإنما تحفظ النظام المادى بينهم سلطة تعسفية فى يد محافظ (*praefectus*) ترسله روما (١) .

ومن الناحية الأخرى ، الحلفاء (*socii* أو *foederati*) . كانوا يعاملون معاملة أقل سوءاً فقد شُرِط ، فى اليوم الذى دخلوا فيه تحت السيادة الرومانية ، أن يحتفظوا بنظامهم البلدى ، وأن يبقوا منظمين فى مدن . واستمروا إذن على أن يكون لهم فى كل بلدة دستور خاص بهم ، ومناصب دولة ، ومجلس شيوخ . وبيت نار (پرتانيون) ، وقوانين ، وقضاة ، وكانت البلدة تعتبر مستقلة . ويبدو أنه لم تكن لها صلات أخرى مع روما غير صلة الحليف بحليفه . بيد أن روما كانت تدخل هذه الصيغة *majestatem populi romani comiter conservato* (٢) فى شروط المعاهدة التى كانت تحررها وقت الفتح (٣) . وهذه الألفاظ تقرر تبعية المدينة الحليفة تجاه المدينة ذات السيادة ، وبما أنها كانت مبهمة جداً ، فقد نتج عنها أن مقدار هذه التبعية كان وفق هوى الأقوى دائماً . كانت هذه البلدان ، وهى التى كانت تسمى حرة ، تتلقى الأوامر من روما وتطيع الولاة (proconsuls) وتدفع الضرائب لملتزمى الضرائب ؛ وكان رجال الدولة فيها يؤدون حساباً لحاكم الولاية الذى كان يتلقى أيضاً استئناف أحكام قضاتها (٤) . هذا وقد

---

(١) تيتوس ليفيوس ١ : ٣٨ ؛ ٧ : ٣١ ؛ ٩ : ٢٠ ؛ ٢٦ : ١٦ ؛ ٢٨ : ٣٤ . سيسرون : قانون الأراضى ١ : ٦ ؛ ٢ : ٣٢ ؛ فستوس تحت لفظ . (*praefecturae*) .

(٢) سيسرون : الدفاع عن بالبوس .

(٣) معنى الجملة اللاتينية : معترفة عن إخلاص بهيمنة الشعب الرومانى . — المعرب .

(٤) تيتوس ليفيوس ٤٥ : ١٨ . سيسرون : رسائل إلى أتيكوس ٦ : ١ ؛ ٦ : ٢ . أبيانوس : الحروب الداخلية ١ : ١٠٢ . تاسيتوس (*Tacite*) ١٥ : ٤٥

كانت طبيعة النظام البلدى عند القدماء بحيث كان لا بد له من الاستقلال التام وإلا زال من الوجود . كان هناك تناقض بين الإبقاء على أنظمة المدينة والخضوع لسلطان أجنبى ، تناقض ربما لا يتبين لنظر المحدثين بجلاء ، لكن لابد أنه كان يصدم جميع أهل ذلك العصر . كانت الحرية البلدية وإمبراطورية روما شيئين لا يمكن التوفيق بينهما . فلم يكن فى استطاعة الأولى إلا أن تكون مظهراً وادعاء كاذباً وتسلية جديرة بأن يتلهى الناس بها . كانت كل واحدة من هذه البلدان ترسل كل عام وفداً إلى روما ، وكانت ألصق شؤونها بها وأدقها تنظم فى مجلس الشيوخ. كان لا يزال لها رجال دولتها البلديون ، أراخنة وقواداً ، تنتخبهم هى انتخاباً حراً . لكنه لم يكن للأرخون اختصاصات غير كتابة اسمه على السجلات العامة للدلالة على السنة ، ولم يعد للقائد، الذى كان فيما مضى رئيس الجيش والدولة ، غير العناية بتنظيم الشوارع وتفتيش الأسواق (١) .

وإذن فقد بادت الأنظمة البلدية لدى الشعوب التى كانت تسمى حليفة ، كما بادت لدى الشعوب التى كانت تسمى رعية . ولم يكن بينهما غير هذا الفارق وهو احتفاظ الفئة الأولى بأشكاله الظاهرة . والحق أن المدينة كما عرفتها العصور العتيقة لم تعد ترى فى أى مكان اللهم إلا داخل أسوار روما . (٢) .

هذا وعند ما حطمت روما نظام المدينة فى كل مكان ، لم يحل محله أى شىء . لم تعط نظامها للشعوب التى سلبتها أنظمتها ليكون بديلا منها . بل إنها لم تفكر فى إنشاء أنظمة جديدة تخصص لاستعمالها . إنها لم تضع اطلاقاً دستوراً لشعوب إمبراطوريتها ، ولم تعرف كيف تضع قواعد ثابتة لحكمها . بل إن السلطة التى كانت تحكمها بمقتضاها لم تكن نظامية فى شىء ما . حيث أن هذه الشعوب لم تكن جزءاً من دولتها ، من مدينتها ، فإنه لم يكن لها عليها أى سلطان قانونى . كان

---

(١) فيلوستراتوس: حياة السفسطائيين ، ١ : ٢٣ . Boeckh, *Corp. inscr.*, passim

(٢) أعادت روما فيما بعد النظام البلدى فى كل مكان ؛ لكن يجب أن نفهم أن هذا النظام البلدى فى عهد الإمبراطورية لم يكن يشبه نظام الأزمنة السالفة إلا من حيث المظهر . لم تكن له نفس المبادىء ولا نفس الروح . كانت المدينة الغالية أو الاغريقية فى عصر الأنطونيين شيئاً آخر غير المدينة العتيقة .

رعاياها غرباء بالنسبة لها ؛ ولذلك كان لها عليهم هذه السلطة غير النظامية وغير المحدودة التى كان يتركها الشرع البلدى القديم للمواطن تجاه الأجنبى أو العدو، وعلى هذا المبدأ نُظِّمت الإدارة الرومانية زمناً طويلا وإليك كيف كانت تسير.

كانت روما ترسل أحد مواطنيها فى إقليم ما ؛ وتجعل من هذا الإقليم ولاية (*provincia*) لهذا الرجل ، أى التزامه ، وعمله الخاص ، وشأنه الشخصى ؛ وقد كان ذلك معنى كلمة *provincia* فى اللغة القديمة . وفى نفس الوقت كانت تخلع السلطان (*imperium*) على هذا المواطن ؛ ومعنى ذلك أنها كانت تتجرد لمصلحته ولزمن معين عن السيادة التى كانت لها على الإقليم . ومن تلك اللحظة أصبح يمثل هذا المواطن فى شخصه جميع حقوق الجمهورية ، وبهذه الصفة كان سيداً مطلقاً . كان يحدد رقم الضريبة ، ويباشر السلطة الحربية ، ويقضى بين الناس . ولم يكن هناك دستور ينظم صلاته بالرعايا أو الحلفاء . وعندما يجلس فى محكمته كان يقضى حسب إرادته وحده . وما من قانون يُفرض عليه ، لا قانون أهل الولاية ، إذ أنه رومانى ، ولا القانون الرومانى ، ما دام يقضى بين أهل الولاية . ولكى تكون هناك قوانين بينه وبين الخاضعين لإدارته ، كان لا بد أن يصدرها هو ؛ إذ أنه هو وحده كان يستطيع أن يلزم نفسه . لذلك كان السلطان (*imperium*) الذى يخلع عليه يحوى السلطة التشريعية . ومن هنا جاء أنه كان للحكام الحق فى أن يصدروا ، وقد تعودوا أن يصدروا ، عند دخولهم الولاية مجموعة من القوانين ، يسمونها مرسومهم ، يتعهدون من الناحية الخلقية بالسير بمقتضاها . ولكن لما كان الحكام يتغيرون كل عام فإن هذه المجموعات كانت تتغير أيضاً كل عام ، بسبب أنه لم يكن للقانون مصدر غير إرادة الرجل الذى كان يخلع عليه السلطان (*imperium*) لوقت ما . كان يطبق هذا المبدأ بصرامة ، بحيث أنه إذا أصدر الحاكم حكماً ولم ينفذ تماماً عند رحيله من الولاية فإن مجىء خلفه كان يلغى هذا الحكم إلغاء قانونياً وتبدأ الإجراءات من جديد (١) .

---

(١) غايوس ٤ : ١٠٣ - ١٠٦ .

تلك كانت هيمنة الحاكم . كان هو القانون الحى . أما الاستناد إلى العدالة الرومانية ضد تعسفاته أو جرائمه فإنه لم يكن فى استطاعة أهل الولاية إلا إذا وجدوا مواطناً رومانياً يريد أن يقوم منهم مقام الولى (١) ، إذ لم يكن لهم من تلقاء أنفسهم حق الاحتماء فى قانون المدينة ولا الالتجاء إلى محاكمها . إنهم غرباء عنها ، وكانت اللغة القانونية والرسمية تسميهم *peregrini*(٢) وكل ما يقول القانون عن الـ *hostis* لا يزال ينطبق عليهم .

يظهر المركز القانونى لسكان الإمبراطورية جليا فى كتابات الفقهاء الرومانيين . نرى فيها أن الشعوب كانت تعتبر كما لو لم تكن لها قوانينها الخاصة بها ، ولَمَّا تحصل على القوانين الرومانية . وإذن لا شرع لها من أى طريق كان . فى نظر الفقيه الرومانى لا يُعتبر الفرد من أهل الولاية زوجاً ولا والداً ، أى أن القانون لا يعترف له بالسلطة الزوجية ولا بالسلطة الأبوية . لم يكن له مِلك ؛ بل إن هناك استحالة مزدوجة فى أن يكون مالكاً : استحالة بسبب حالته الشخصية لأنه ليس مواطناً رومانياً ؛ واستحالة بسبب حالة أرضه لأنها ليست أرضاً رومانية ، إذ أن القانون لا يقبل الملكية الكاملة إلا فى حدود الأرض الرومانية (*ager romanus*) (٣) . ولهذا قال الفقهاء . إن أرض الولاية لا يمكن أن تكون ملكاً خاصاً إطلاقاً ، وإنه لا يمكن أن يكون للناس عليها غير الحيازة والتمتع بالاستعمال والثمار (٤) . هذا وما يقولونه عن أرض الولايات فى القرن الثانى من الميلاد كان صحيحاً كذلك فيما يختص

---

(١) عن نظام الأولياء والموالى وعن تطبيقه على البلدان الخاضعة وعلى الولايات ، انظر سيسرون : الواجبات ١ ، ضد كيكيليوس (Caecilius) ٤ ؛ ضد فيريس ٣ : ١٨ ؛ ديونيسيوس ٢ : ١١ ؛ تيتوس ليفيوس ٢٥ : ٢٩ ؛ فاليريوس ماكسيموس ٤ : ٣ ، ٦ ؛ أبيانوس : الحروب الأهلية ٢ : ٤ .

(٢) معناها : « الذين من الخارج » . وكذلك كلمة *hostis* معناها الأصلى « الذى من الخارج » . — المعرب .

(٣) وكذلك كانت ، فيما بعد ، الأرض الإيطالية (*ager italicus*)

(٤) غايوس ٢ : ٧ : *In provinciali solo dominium populi romani est.* انظر سيسرون : الدفاع عن فلاكوس ٣٢ .

بالأرض الإيطالية قبل أن تحصل إيطاليا على حق المدينة الرومانية، كما سنراه قريباً.

من المحقق إذن أنه كلما دخلت الشعوب فى سلطان روما كانت تفقد ديانتها البلدية وحكومتها وشرعها الخاص . ومع ذلك يمكن أن نعتقد أن روما كانت تخفف ، عند التطبيق ، الناحية الهدامة من الرعوية . لذا نرى جيداً أنه إذا كان القانون الرومانى لا يعترف للرعية بالسلطة الأبوية ، إلا أنهم كانوا يتركون هذه السلطة قائمة فى العرف الخلقى ، وإذا كانوا لا يسمحون لمثل ذلك الرجل أن يدعى أنه مالك للأرض فإنهم كانوا يتركون له حيازتها ؛ كان يزرع أرضه ويبيعها ويوصى بها . لم يكونوا يقولون أبداً إن هذه الأرض ملك له . لكنهم كانوا يقولون إنها بمثابة ملك له : *pro suo* . إنها لم تكن ملكاً له (*dominium*) لكنها كانت فى أمواله : *in bonis* (١) وهكذا كانت تتصور روما طائفة من الطرائق الملتوية والحيل اللغوية لمصلحة الفرد من الرعية . حقاً إن العبقرية الرومانية ، إذا حالت آثارها البلدية بينها وبين وضع قوانين للمغلوبين ؛ فإنها لم تكن تستطيع أن تقبل سقوط المجتمع فى الانحلال. من حيث المبدأ كانوا يوضعون خارج الشرع ، أما فى الواقع فإنهم كانوا يعيشون كما لو كان لهم شرع . ولكن فيما عدا ذلك تقريباً ، وفيما عدا تسامح الغالب ، كانوا يتركون جميع أنظمة المغلوبين تمحى وجميع قوانينهم تختفى. وكان السلطان الرومانى (الإمبراطورية الرومانية *imperium romanum*) ، على الأخص فى عهدى النظام الجمهورى ونظام مجلس الشيوخ ، يظهر بهذا المظهر الفذ : بقيت مدينة واحدة قائمة ولها أنظمة وشرع ؛ أما البقية جميعها ، أى ثمانون مليوناً من الأنفس فإما أنه لم يكن لها أى نوع من القوانين ، وإما أنه لم يكن لها على الأقل قوانين معترف بها من المدينة ذات السيادة . لم يكن العالم عندئذ فوضى بالمعنى الدقيق ؛ بل إنه بالنسبة لانعدام القوانين والمبادىء كانت القوة والتعسف والعرف تسند المجتمع دون سواها .

ذلك كان أثر الفتح الرومانى على الشعوب التى أصبحت ، الواحد بعد الآخر ، فريسة لروما . أما المدينة فقد هوى كل شىء فيها : الديانة أولا ، ثم الحكومة ،

---

(١) غايوس ١ : ٥٤ ؛ ٢ : ٥ ، ٦ ، ٧ .

وفى النهاية القانون الخاص ؛ كل الأنظمة البلدية المتداعية منذ زمن بعيد اقتلعت فى النهاية من جذورها وأبيدت. لكن لم يَحِلّ أى مجتمع منظم ولا أى نظام للحكومة محل الذى اختفى فورَ اختفائه. كانت هناك فترة انقطاع بين اللحظة التى يرأى الناس فيها انحلال النظام البلدى واللحظة التى رأوا فيها مولد مجتمع من طراز جديد. لم تكن الأمة هى التى خلفت المدينة أولا، إذ أن السلطان الرومانى (الإمبراطورية الرومانية *imperium romanum*) لم يكن يشبه أمة ما من أية ناحية كانت. بل كان جماعة مبهمة ليس فيها نظام حقيقى إلا فى نقطة مركزية. أما البقية الأخرى فلم يكن لها إلا نظام كاذب وانتقالى، بل إنها لم تحصل عليه إلا مقابل خضوعها. لم تصل الشعوب الخاضعة إلى تكوين نفسها فى هيئة منظمة إلا عندما حصلت بدورها على الحقوق والأنظمة التى أرادت روما أن تحتفظ بها لنفسها؛ وللوصول إلى ذلك كان لا بد لهذه الشعوب من دخول المدينة الرومانية، وإفساح مكان لها فيها، والاحتشاد فيها، وتحويلها هى أيضاً لكى يجعلوا من أنفسهم ومن روما هيئة واحدة. ولقد كان ذلك عملا طويلا، عسيراً.

٥ — الشعوب الخاضعة تدخل فى المدينة الرومانية على التوالى

رأينا كم كانت حال رعية روما يرثى لها، وإلى أى حد كان نصيب المواطن أمنية المتمنين. لم يكن الضرر يحيق بغرور الكبرياء وحده، بل كان ينزل بأكثر المصالح مادية وأعزها على النفس. فإن من لم يكن مواطناً رومانياً، لم يكن يعتبر زوجاً ولا أباً: لم يكن يستطيع شرعاً أن يكون مالكاً ولا وارثاً. كان لقب المواطن الرومانى من القدر بحيث كان الإنسان بدونه يعد خارج الشرع، وبه كان يلج المجتمع المنظم. لذلك أصبح هذا اللقب موضعاً لأشد رغبات الناس. فتطلع اللاتينى والإيطالى والإغريقى، وفيما بعد الإسپانى والغالى، إلى أن يكونوا مواطنين رومانيين: وهى الوسيلة الوحيدة لتكون للإنسان حقوق ولكى يعد شيئاً يذكر. فعملوا جميعاً، الواحد بعد الآخر، وفى الترتيب الذى دخلوا فيه إمبراطورية روما على وجه التقريب، عملوا على الدخول فى المدينة الرومانية، ونجحوا فى ذلك بعد جهود طويلة.

وإدخال الشعوب فى الدولة الرومانية هذا الإدخال البطىء هو آخر عمل فى تاريخ تحول القدماء الاجتماعى الطويل . ولكى نلاحظ هذا الحدث الكبير على على جميع أوجهه المتتالية يجب أن نراه وهو يبدأ فى القرن الرابع قبل الميلاد .

كان اللاتيوم خاضعاً ؛ فقد قضت روما على نصف الشعوب الأربعين الصغيرة التى كانت تقطنه ، وجردت بعضهامن أراضيها ، وتركت للآخرين لقب حلفاء . وفى سنة ٣٤٠ ، لحظ هؤلاء أن المحالفة كانت وبالا عليهم ، وأن عليهم أن يطيعوا فى كل شىء ، وأنه محكوم عليهم أن يبذلوا دمهم وما لهم كل عام لمنفعة روما وحدها ، فتألبوا . وأعلن رئيسهم أنيوس (Annius) مطالبهم فى مجلس شيوخ روما بهذه الصيغة : « فلنعطَ المساواة ؛ ولتكن لنا نفس القوانين . ولنكوّن معكم دولة واحدة فقط (*una civitas*) ؛ وليكن لنا اسم واحد . ولْنُسَمَّ جميعاً روماناً على قدم المساواة » . (١) هكذا أعلن أنيوس ، منذ سنة ٣٤٠ ، الأمنية التى فكرت فيها جميع شعوب الإمبراطورية الواحد تلو الآخر ، والتى لم تكن لتتحقق تماماً إلا بعد خمسة قرون ونصف . أما فى ذلك الوقت فقد كانت مثل هذه الفكرة جديدة وغير متوقعة . وقد أعلن الرومان أنها شيطانية وإجرامية ؛ والواقع أنها كانت مناقضة للديانة القديمة ولحق المدن القديم ، فأجاب القنصل مانليوس أنه إذا حدث أن قُبل مثل هذا الاقتراح فإنه ، هو القنصل ، يقتل بيده أول لاتينى يأتى لكى يجلس فى محل الشيوخ ؛ ثم أدار وجهه نحو المذبح واستشهد بالإله قائلا : « لقد سمعت ، يا چوپيتر ، الكلمات الفاجرة التى خرجت من فم هذا الرجل . أتستطيع أن تسمح ، أيها الإله ، أن يأتى أجنبى ليجلس فى معبدك المقدس كشيخ أو كقنصل ؟ » وهكذا عبر مانليوس عن شعور الكراهية القديم الذى كان يفصل بين المواطن والأجنبى . لقد كان يتكلم باسم القانون الدينى العتيق الذى كان ينص على أنه يجب على الناس أن يكرهوا الأجنبى لأنه ملعون من آلهة المدينة ، كان يبدو له من المستحيل أن يكون لاتينى شيخاً ، لأن

---

(١) تيتوس ليفيوس ٨ : ٣ ، ٤ ، ٥ .

مكان اجتماع مجلس الشيوخ كان معبداً ، ولأنه لم يكن فى استطاعة الآلهة الرومانية أن تحتمل فى معبدها حضور أجنبى (١) .

وتلت ذلك الحرب ؛ وقد غُلِب اللاتينيون فعملوا *deditio* أى أنهم سلموا للرومانيين بلدانهم وعباداتهم وقوانيهم وأرضهم . كان وضعهم قاسياً . قال قنصل فى مجلس الشيوخ إنه إذا لم يكن المراد أن تحاط روما بصحراء مترامية فإنه يتحتم تنظيم مصير اللاتينيين بشىء من الحلم . لم يفسر تيتوس ليفيوس ما عملوه تفسيراً جلياً . وإذا كان لابد من تصديقه فإنهم أعطوا اللاتينيين حق المدينة الرومانية ولكن دون أن يُدخلوا فيه ، من الناحية السياسية ، حق التصويت ، ومن الناحية الدينية ، حق الزواج . ويمكن أن نلاحظ علاوة على ذلك ، أن هؤلاء المواطنين الجدد لم يكونوا معدودين فى نصاب الإحصاء (Cens) . نرى جيداً أن مجلس الشيوخ كان يخدع اللاتينيين بتطبيق اسم مواطنين رومانيين عليهم ؛ كان هذا اللقب يخفى وراءه خضوعاً حقيقياً ، طالما كانت على الذين يحملونه التزامات المواطن دون أن تكون لهم حقوقه . ولقد كان ذلك من الصحة بحيث ثارت عدة بلدان لاتينية لكى يسحب منها هذا الذى ادعوا أنه حق المواطن .

ثم انقضت حوالى مائة عام ؛ ومن غير أن يخبرنا تيتوس ليفيوس بشىء ما ، نرى أن روما قد غيرت سياستها . لقد زالت حالة اللاتينيين الذين كان لهم حق المواطن فيما عدا التصويت وحق الزواج (*connubium*) . لقد استردت روما منهم لقب المواطن أو الأرجح أنها أزالت هذا الكذب ؛ واستقر رأيها على أن ترد للبلدان المختلفة حكوماتها البلدية وقوانينها ومناصبها .

لكن كان من المهارة العظيمة أن فتحت روما بابا ، مهما كان ضيقاً ، فإنه كان يسمح للرعايا بالدخول فى المدينة الرومانية . فسمحت بأن كل لاتينى

---

(١) تيتوس ليفيوس ٨ : ٥ ؛ وتضيف الأسطورة أن واضع هذا الاقتراح ، البالغ فى الإثم والمناقضة للمبادىء القديمة للديانة المدنية ، قد أصابته الآلهة بموت فجائى عند خروجه من المجلس .

شغل منصباً فى البلدة التى ولد فيها يصبح مواطناً رومانياً عند نهاية مأموريته (١). وفى هذه المرة كانت المنحة المتضمنة حق المدينة كاملة وفى غير تحفظ : التصويت والمناصب ،والتسجيل فى سجل الاحصاء ، والزواج ، والقانون الخاص ، كل ذلك كان موجوداً فيها . أذعنت روما لاقتسام ديانتها ، وحكومتها ، وقوانينها ، مع الأجنبى ؛ وكل ما هنالك أن هذه المنح كانت فردية ، ولم تكن موجهة لمدن بأكملها ، بل لبعض الناس فى كل منها . ولم تقبل روما فى نطاقها إلا خير من كانوا فى اللاتيوم وأكثرهم مالا وأوفرهم اعتباراً .

وعندئذ أصبح حق المدينة هذا شيئاً ثميناً ،أولا لأنه كان كاملا ،وثانياً لأنه كان امتيازاً . وعن طريقه أصبح المرء يمثل فى لجان أقوى بلدة فى إيطاليا ؛ كان فى الإمكان أن يكون قنصلا وأن يتولى إمرة الفيالق . وكان فيه أيضاً ما يرضى مطامع أكثر تواضعاً من هذه ؛ فبفضله أصبح فى استطاعة المرء أن يصاهر أسرة رومانية ، وأن يقيم فى روما وأن يكون مالكاً فيها ؛ وفى استطاعته الاتجار فى روما التى أصبحت ، قبل ذلك ، أول سوق تجارى فى العالم . وفى استطاعته الدخول فى شركات التزام الضرائب ، أى المساهمة فى المنافع العظيمة التى كانت تجلبها جباية الضرائب أو المضاربة على أراضى الأملاك العامة (*ager publicus*) . وحيثما سكن الإنسان كان محمياً حماية فعالة جداً ، فلم يكن فى متناول سلطة الحكام البلديين ، بل كان فى حمى من أهواء الحكام الرومانيين أنفسهم . يكفى أن يصبح الانسان مواطناً رومانياً لكى يحصل على المناصب والثروة والأمن .

عندئذ أبدى اللاتينيون حرصاً فى السعى وراء هذا اللقب ، واستعملوا جميع الوسائل للحصول عليه . أرادت روما ، ذات يوم ، أن تظهر بشىء من الشدة فاكتشفت أن ١٢٠٠٠ منهم قد حصلوا عليه خدعة (٢) .

كانت روما ،فى العادة، تغمض عينها ظناً منها أن سكانها يزدادون بهذه الطريقة وأنها تعوض خسائر الحرب . لكن المدن اللاتينية كانت تتضرر ؛ فإن أكثر

---

(١) أبيانوس : الحروب الأهلية ٢ : ٢٦ . انظر غايوس ١ : ٩٥ .
(٢) تيتوس ليفيوس ٣٩ : ٣ .

مواطنيها ثراء كانوا يصبحون رومانيين ، وأخذ اللاتيوم يفتقر وأصبحت الضريبة ، التى كان يعفى منها أكثرهم ثراء باعتبارهم مواطنين رومانيين ، تزداد ثقلا ؛ وأصبحت تكملة فرقة الجنود ، التى كان لابد من تقديمها لروما ، تصبح كل عام أشد عسرا عما كانت عليه فى سابقه . وكلما زاد عدد أولئك الذين حصلوا على حق المدينة ، كلما اشتدت حالة الذين لم يحصلوا عليه ؛ وقد جاء زمن طلبت فيه البلدان اللاتينية ألا يصبح حق المدينة هذا امتيازاً .

كانت المدن الإيطالية ، التى خضعت منذ قرنين ، فى نفس الحالة تقريباً التى كانت عليها المدن اللاتينية ، وكانت ترى أيضاً أكثر أهلها ثراء يهجرونها ليصبحوا رومانيين فطالبت لنفسها بحق المدينة هذا . ومما جعل مصير الرعايا أو الحلفاء أقل احتمالا فى تلك الفترة إن حكم العامة فى روما كان يثير عندئذ المسألة الكبرى ، ألا وهى مسألة قوانين توزيع الأراضى . وقد كان مبدأ جميع القوانين ألا يستطيع فرد من الرعية أو الحلفاء أن يكون مالكاً للأرض اللهم إلا بقرار صريح من المدينة ، وأن الجزء الأكبر من الأراضى تابع للجمهورية ؛ وقد طالب أحد الأحزاب بأن تستعيد الدولة هذه الأراضى التى كان يحتلها كلها تقريباً إيطاليون وتقسمها بين فقراء روما . فكان الإيطاليون مهددون إذن بخراب عام ؛ شعروا شعوراً قوياً بأنهم فى حاجة إلى أن تكون لهم قوانين مدنية ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يحصلوا عليها إلا إذا أصبحوا مواطنين رومانيين .

وقد سميت الحرب التى نتجت عن ذلك بحرب الشركاء (guerre sociale) ؛ إذ أن حلفاء روما هم الذين حملوا السلاح كيلا يكونوا حلفاء بعد ذلك ولكى يصبحوا رومانيين . وبالرغم من انتصار روما فإنها اضطرت : إلى منح ما كان يطلب منها ، وحصل الإيطاليون على حق المدينة . اندمجوا منذئذ فى الرومان ، واستطاعوا أن يصوتوا فى الساحة العامة (*forum*) ؛ أما فى الحياة الخاصة ، فقد أصبحت تحكمهم القوانين الرومانية ؛ واعْتُرِف بحقهم على الأرض ، وأصبح فى الاستطاعة حيازة الأرض الإيطالية حيازة تملك ، على قدم المساواة مع الأرض الرومانية . وعندئذ قام الحق الإيطالى (*jus italicum*) الذى لم يكن حق الشخص

الإيطالى ، ما دام الإيطالى قد أصبح رومانيا ، بل حق الأرض الإيطالية التى أصبحت قابلة للتملك كما لو كانت أرضا رومانية (*ager romanus*) (١) .

ابتداء من ذلك الوقت كونت إيطاليا بأسرها دولة واحدة. لكن بقى إدخال الولايات (*provinciae*) فى الوحدة الرومانية .

يجب التميز بين ولايات الغرب وبين بلاد الإغريق . فى الغرب كانت توجد بلاد الغال واسپانيا التى لم تكن، قبل الفتح، تعرف النظام البلدى الحقيقى. فثابرت روما على خلق هذا النظام عند هذه الشعوب، إما لأنها اعتقدت استحالة حكمها بطريقة أخرى ، وإما أنه كان لا بد لاندماجها فى الأهالى الإيطاليين شيئاً فشيئاً من جعلها تمر بنفس الطريق التى سلكها هؤلاء الأهالى . ومن هنا جاء أن الأباطرة ، الذين أبطلوا فى روما كل حياة سياسية ، قد رعَوْا بعناية صور الحرية البلدية فى الولايات . وهكذا نشأت مدن فى بلاد الغال ؛ وكان لكل منها مجلس شيوخها ، وهيئة سراتها ، ومناصبها الانتخابية ؛ بل أصبح لكل منها عبادتها المحلية وجِنُّها (*genius*) ومعبودها المدنى على نمط ما كان فى بلاد الإغريق القديمة وروما القديمة. هذا وإن النظام البلدى، الذى أقيم على هذا النحو ، لم يمنع الناس من الوصول إلى المدينة الرومانية ، بل على العكس أعدهم لها . وقد كانت هناك درجات بين هذه البلدان مدبرة تدبيراً ماهرا ، وتبين المراتب التى كان لا بد منها لكى تقترب من روما تدريجياً وللاندماج فيها فى النهاية . كانوا يميزون : ١ — الحلفاء الذين كانت لهم حكومة وقوانين خاصة بهم ، ولم تكن بينهم وبين المواطنين الرومانيين أية رابطة شرعية ؛ ٢ — المستعمرات التى كانت تتمتع بحق الرومانيين المدنى

---

(١) ولذا أطلق عليه فى القانون ، منذ تلك اللحظة ، *res mancipi* ، ألبيانوس ١٩ : ١ . أما الحق الايطالى (*jus italicum*) الذى تدل جميع المظاهر على أنه كان موجوداً فى عصر سيسرون فانه لم يذكر للمرة الأولى إلا فى بلينيوس : التاريخ الطبيعى ٣ : ٣ : ٢٥ ؛ ٣ : ٢١ : ١٣٩ ؛ وحتى فى ذلك الوقت كان ينطبق، بدافع التوسع الطبيعى ، على أرض عدة بلدان واقعة وسط الولايات . انظر ديجست ، السفر الخمسين ، الباب ١٥ .

دون أن تكون لهم الحقوق السياسية ؛ ٣ – المدن ذات الحق الإيطالى ، أى تلك التى منحها عطف روما حق التملك التام على أراضيها كما لو كانت هذه الأراضى فى إيطاليا ؛ ٤ – بلدان الحق اللاتينى ، أى تلك التى كان يستطيع سكانها ، بمقتضى العرف القائم فى اللاتيوم فيما مضى ، أن يصبحوا مواطنين رومانيين بعد أن يشغلوا منصباً بلدياً . وقد كانت هذه الفوارق من العمق بحيث لم يكن هناك زواج ممكن ، ولا أية صلة شرعية بين أشخاص من فئتين مختلفتين ؛ لكن الأباطرة قد عنوا بأن ترتقى البلدان ، مع مضى الزمن ، ومن درجة إلى درجة ، من حالة الرعية أو الحليف إلى الحق الإيطالى ، ومن الحق الإيطالى إلى الحق اللاتينى . وعندما تصل بلدة إلى هذا الحد كانت الأسرات الهامة فيها تصبح رومانية الواحدة تلو الأخرى .

وكذلك بلاد الإغريق دخلت فى الدولة الرومانية أيضاً شيئاً فشيئاً . احتفظت كل بلدة فى البدء بأشكال النظام البلدى ودواليبه . فقد أظهرت بلاد الإغريق عند الفتح أنها راغبة فى الاحتفاظ باستقلالها الذاتى ، فَتُرِكَ لها ، وربما ترك لها زمناً أطول مما كانت تتمنى ؛ وبعد أجيال قليلة ، تطلعت لأن تكون رومانية ؛ وقد عمل الغرور ، والطمع ، والمنفعة ، فى هذا السبيل .

لم يكن لدى الإغريق نحو روما هذا الحقد الذى يحمله الناس فى العادة لسيد أجنبى ؛ بل أعجبوا بها ، وكانوا يكنون لها الاحترام . فخصصوا لها عبادة من تلقاء أنفسهم ، وأقاموا لها معابد كما لو كانت إلها . ونسيت كل بلدة معبودها المدنى ، وعبدت مكانه الإلهة روما والإله قيصر ، وخصوهما بأجمل الأعياد . ولم يكن لذوى المناصب الأولى وظيفة أعلى من الاحتفال بالأعياد الأوغسطية بفخامة عظيمة (١) . وهكذا تعود الناس أن يرفعوا أبصارهم الى ما فوق مدنهم ؛ فكانوا يرون فى روما المدينة ولا مدينة مثلها ، الوطن الحقيقى ، بيت نار (بريتانيون) جميع الشعوب . وكانت المدينة التى ولدوا فيها تبدو صغيرة ، ولم تعد مصالحها تشغل الأفكار ، ولا المناصب التى تمنحها ترضى المطامع . ولم يكن الإنسان

---

(١) أقام الاغريق معابد للالهة روما منذ سنة ١٩٥ أى قبل أن تفتح بلادهم . تاسيتوس (Tacite) الحوليات ٤ : ٥٦ ؛ تيتوس ليفيوس ٤٣ : ٦ .

يحسب نفسه شيئاً ما إذا لم يكن مواطناً رومانياً . حقاً إن هذا اللقب لم يعد يخلع على الإنسان حقوقاً سياسية فى عهد الأباطرة ؛ لكن كانت وراءه منافع أكثر ضماناً ، ما دام الرجل الذى كان يحمله كان يحصل فى نفس الوقت على حق الملك الشرعى ، وحق الزواج ، والسلطة الأبوية ، والحق المدنى الرومانى كله. أما القوانين التى كان يجدها كل فرد فى بلدته فقد كانت قوانين متقلبة وعلى غير أساس ، ولم تكن قائمة إلا على مجرد التسامح ؛ كان الرومانى يزدريها ، والإغريقى ذاته لا يقدرها إلا قليلا . فلكى تكون للإنسان قوانين ثابتة ، معترفاً بها من الجميع ، ومقدسة حقاً ، كان لا بد له من الحصول على القوانين الرومانية .

لم يلاحظ أن بلاد الإغريق فى مجموعها ، ولا حتى بلدة إغريقية بمفردها ، قد طالبت بصراحة بحق المدنية ، هذا الحق المرغوب فيه . لكن الناس عملوا على انفراد للحصول عليه ، وقد استسلمت روما لذلك عن طيب خاطر . حصل عليه البعض من عطف الإمبراطور ، واشتراه البعض الآخر ؛ منحوه لمن يهب المجتمع ثلاثة أطفال ، أو من يخدم فى بعض فرق الجيش ؛ وفى بعض الأحيان كان يكفى للحصول عليه أن يبنى الإنسان سفينة تجارية ذات حمولة معينة ، أو أن يحمل قمحاً الى روما . وكانت هناك وسيلة هينة عاجلة للحصول عليه وهى أن يبيع الإنسان نفسه كرقيق لمواطن رومانى ؛ إذ أن العتق بالصور القانونية كان يؤدى إلى حق المدينة (١).

لم يكن الرجل الحائز للقب مواطن رومانى عضواً فى البلدة التى ولد فيها ، لا من الناحية المدنية ، ولا من الناحية السياسية . كان يستطيع أن يستمر على السكن فيها ، لكنه كان يعتبر فيها أجنبياً ؛ لم يعد خاضعاً لقوانين البلدة ، ولم يعد خاضعاً لأهل الحكم فيها ، ولم يعد يتحمل تكاليفها المالية (٢) . كان ذلك نتيجة للمبدأ القديم الذى لم يكن يسمح لرجل أن ينتمى إلى مدينتين فى آن واحد (٣) .

---

(١) سويتونيوس : نيرون ٢٤ . بترونيوس ٥٧ . البيانوس ٣ . غايوس ١ : ١٦ ، ١٧ .

(٢) كان يصبح أجنبياً حتى تجاه أسرته إذا لم تكن حاصلة مثله على حق المدينة ، ولم يكن يرث منها . بلينيوس : مديح (*Panégyrique*) ٣٧

(٣) سيسرون : الدفاع عن بالبوس ٢٨ ؛ الدفاع عن أرخياس ٥ ؛ الدفاع عن كيكينا (Caecina) ٣٦ . قورنيليوس نيبوس : أتيكوس ٣ . وقد هجرت بلاد الإغريق هذا المبدأ منذ زمن بعيد ؛ لكن روما ظلت متمسكة به باخلاص .

وقد كان يحدث بالطبع أن يوجد فى كل بلدة إغريقية ، بعد بضعة أجيال ، عدد لا بأس به من الناس ، هم فى العادة أكثرهم ثراء ، لا يعترفون بحكومة هذه البلدة ولا بقوانينها . وهكذا باد النظام البلدى ببطء ، كما لو كان بفعل الموت الطبيعى . ولقد جاء يوم كانت فيه المدينة إطاراً لا يحوى شيئاً ، ولا تكاد القوانين المحلية تطبق فيه على أحد ، ولا يجد فيه القضاة البلديون من يقضون بينهم .

وفى النهاية بعد أن تطلعت ثمانية أجيال ،أو عشرة ، وراء حق المدينة الرومانية ، وبعد أن حصل عليه كل من كان ذا قيمة ، ظهر عندئذ مرسوم إمبراطورى بمنحه لجميع الناس الأحرار من غير تفريق .

أما الغريب هنا فهو أننا لا نستطيع أن نؤكد تاريخ هذا المرسوم ولا اسم الأمير الذى أصدره ؛ وقد جعلوه ، مع شبهة من الحق ، من مآثر كاراكلا (Caracalla) ، أى أمير لم تكن له قط آراء عالية ؛ لذلك لم ينسبوه إليه إلا باعتباره مجرد إجراء مالى . لا نعثر فى التاريخ إطلاقاً على مراسيم أهم من هذا المرسوم : كان يمحو التمييز الذى كان موجوداً منذ الفتح الرومانى بين الشعب السائد والشعوب الخاضعة بل كان يمحو التمييز الذى وضعته الديانة والشرع بين المدن . بيد أن مؤرخى ذلك العصر لم يلاحظوه ، ولا نعرفه إلا من نصين مبهمين من نصوص الفقهاء وبيان قصير لديون كاسيوس (Dion Cassius) (١). إذا كان هذا المرسوم لم يثر اهتمام

(١) *Antoninius Pius jus romanae civitatis omnibus subjectis donavit* (Justinien, *Novelles*, 78, ch. 5). *In orbe romano qui sunt, ex constitutione imperatoris Antonini, cives romani effecti sunt* (Ulpien, au *Digeste*, lib. I, tit. 5-17).

هذا وإنا لنعلم من اسبارطيانوس (Spartien) أن كاراكلا كان يدع الناس يسمونه فى الأعمال الرسمية انطونينوس . يقول ديون كاسيوس (٤٧:٩) أن كاراكلا منح جميع سكان الامبراطورية حق المدينة الرومانية لكى يعمم ضريبة الجزء من عشرين (٥ فى المائة) على العتق وعلى التركات التى لم يكن الـ *peregrini* يدفعونها . لم يختف التمييز بين الغرباء واللاتينيين والمواطنين اختفاء تاماً ؛ ولا زلنا نجده فى البيانوس وفى مجموعة القوانين (Code) ؛ والواقع أنه يبدو طبيعياً ألا يصبح الأرقاء المعتقون مواطنين رومانيين فوراً ، بل يمرون بجميع الدرجات القديمة التى كانت تفصل العبودية عن حق المدينة . نرى أيضاً من بعض القرائن أن التمييز بين الأراضى الايطالية وأراضى الولايات بقى بعد ذلك زمناً طويلا (مجموعة القوانين ٧ : ٢٥ ؛ ٧ : ٣١ ؛ ١٠ : ٣٩ ؛ ديجست ، السفر ٥ ، الباب الأول) . وهكذا كانت بلدة صور فى فينقيه لا تزال بعد كاراكلا تتمتع بالحق الايطالى بمقتضى امتياز (ديجست ، السفر الخامس ، الباب ١٥) ؛ وبقاء هذا التمييز تفسره مصلحة الأباطرة الذين لم يكونوا يريدون حرمان أنفسهم من الاتاوات التى كانت تدفعها أرض الولايات لبيت المال .

المعاصرين له ولم يلاحظه أولئك الذين كانوا يكتبون التاريخ عندئذ فما ذلك إلا لأن التغيير ، الذى كان ،هو ، التعبير القانونى عنه ، كان قد تم منذ زمن بعيد . فقد راح التفاوت بين المواطنين وبين الرعايا يضعف فى كل جيل ، وزال شيئاً فشيئاً . لقد استطاع المرسوم أن يمر غير ملحوظ تحت ستار اجراء مالى ؛ لكنه أعلن ما كان أمراً واقعاً من قبل ونقله إلى نطاق الشرع .

عندئذ بدأ لقب المواطن يزول من الاستعمال ، أو إذا كان لا يزال مستعملا ، فإنما كان يستعمل للدلالة على حالة الرجل الحر كنقيض لحالة العبد . ابتداء من ذلك الوقت ، كل من كان عضواً فى الامبراطورية الرومانية من اسپانيا إلى الفرات كون فى الحقيقة شعباً واحداً ودولة واحداً . اختفى التمييز بين المدن ، أما التفريق بين الأمم فلم يظهر إلا ظهوراً ضعيفاً . كان سكان هذه الإمبراطورية العظيمة جميعهم رومانيين على قدم المساواة . هجر الغالى اسمه كغالى وتسمى رومانيا فى حماس ؛ وهكذا فعل الاسپانى ؛ وسكان تراقيا أو سوريا . لم يعد هناك غير اسم واحد ، ووطن واحد ، وحكومة واحدة ، وشرع واحد .

نرى إلى أى حد تطورت المدينة الرومانية من عصر إلى عصر . لم تكن تحوى فى الأصل غير بطارقة وموالى ، ثم ولجتها طبقة السوقة ، ثم اللاتينيون ، ثم الإيطاليون ، وأخيراً جاء سكان الولايات . لم يكن الفتح كافياً للقيام بهذا التغيير العظيم ؛ كان لا بد من التبدل البطىء فى الآراء ، والتسامح من جانب الأباطرة بحنكة ولكن من غير انقطاع ، واندفاع المصالح الفردية . عندئذ اختفت جميع المدن شيئاً فشيئاً ؛ وتبدلت المدينة الرومانية ذاتها ، وهى آخر ما تبقى قائماً ، تغييراً تاماً بحيث أصبحت مجموعة من اثنى عشر شعباً من الشعوب الكبيرة تحت رئيس واحد . وهكذا سقط النظام البلدى .

إنه لا يدخل فى موضوعنا أن نقول ما هو نظام الحكومة الذى حل محل هذا النظام ، ولا أن نبحث فيما إذا كان هذا التغيير أكثر فائدة للأهالى ، فى البدء ، أم أكثر ضرراً . يجب علينا أن نقف فى اللحظة التى محيت فيها الأشكال الاجتماعية التى أقامها الزمن العتيق محواً أبدياً .

الفصل الثالث

المسيحية تغير أحوال الحكومة .

كان انتصار المسيحية دليلا على انتهاء المجتمع العتيق . فمع الديانة الجديدة ينتهي هذا التبديل الاجتماعي الذى رأيناه يبدأ قبلها بستة قرون أوسبعة .

لكي نعرف إلى أى حد تبدلت عندئذ المبادىء والقواعد الجوهرية للسياسة ، يكفى أن نتذكر أن المجتمع القديم كونته ديانة قديمة ، كانت عقيدتها الأولى أن كل إله يحمى أسرة أو مدينة دون سواها وأنه لم يوجد إلا من أجلها . كان ذلك عصر الآلهة المنزليين والمعبودات المدنية . ومن هذه الديانة ولد الشرع ؛ فالعلاقات بين الناس ، والملك ، والميراث ، والإجراءات ، كل ذلك لم ينظم عن طريق مبادىء الإنصاف الطبيعى ، بل عن طريق قواعد هذه الديانة ومن أجل حاجات عبادتها . وهى أيضاً التى أقامت حكومة بين الناس : حكومة الأب فى الأسرة ، وحكومة الملك أو الحاكم فى المدينة . جاء ذلك كله من الديانة ، أى من الرأى الذى كونته عن المعبود . اختلطت الديانة والشرع والحكومة فلم تكن سوى شىء واحد ذى ثلاثة مظاهر متباينة .

حاولنا أن نلقى ضوءاً على هذا النظام الاجتماعى للقدماء الذى كان للديانة فيه السيادة المطلقة على الحياة الخاصة والحياة العامة ؛ الذى كانت الدولة فيه جماعة دينية ، والملك حبرا ، ورجل الدولة كاهناً ، والقانون صيغة مقدسة ؛ حيث كانت الوطنية من البر ، والنفى حرماناً من المعبد ؛ حيث كانت الحرية الفردية مجهولة ؛ وحيث كان الإنسان مستعبداً للدولة عن طريق الروح ، وعن طريق الجسم ، وعن طريق المال ؛ حيث كان الحقد على الأجنبى إلزامياً ؛ حيث كانت فكرة الحق ، والواجب ، والعدل ، والمحبة ، تقف عند حدود المدينة ؛ حيث كان المجتمع الإنسانى محدوداً ، بحكم الضرورة ، فى دائرة معينة حول بيت النار ؛ حيث

لم يكونوا يرون احتمالا لتأسيس مجتمعات أوسع من تلك المجتمعات . تلك كانت الصفات المميزة للمدن الإغريقية والإيطالية خلال الفترة الأولى من تاريخها .

لكن المجتمع تبدل شيئاً فشيئاً كما رأينا . فقد تمت تغييرات فى الحكومة وفى الشرع فى نفس الوقت الذى تناولت فيه العقائد . أما من قبل ، وفى القرون الخمسة التى سبقت المسيحية ، فإن الصلة بين الديانة ، من ناحية ، والشرع والسياسة ، من ناحية أخرى ، لم تكن وثيقة بمثل هذه الدرجة . فإن جهود الطبقات المضطهدة وإسقاط الطبقة الكهنوتية ، وعمل الفلاسفة ، وتقدم الفكر ، قد هزت مبادىء المجتمع البشرى القديمة . ولقد بُذلت جهود لا تنقطع للتحرر من سلطان هذه الديانة القديمة التى لم يعد فى استطاعة الإنسان أن يفكر فيها ؛ لقد تخلص الشرع والسياسة ، كما تخلصت الأخلاق ، من روابطها شيئاً فشيئاً .

لكن هذا النوع من الطلاق كان نتيجة لتنحية الديانة القديمة ؛ إذا كان الشرع والسياسة قد ابتدءا يستقلان بعض الشىء فما ذلك إلا لأنه لم يعد للناس عقائد ؛ وإذا كانت الديانة لم تعد تحكم المجتمع فإنما يرجع ذلك على الأخص إلى أنه لم تعد للديانة قوة . هذا ، وقد جاء يوم استعادت فيه العاطفة الدينية حياتها وقوتها ، واستعادت العقيدة سلطانها على الروح . ألسنا نوشك أن نرى من جديد الخلط القديم بين الحكومة والكهنوت ، بين الإيمان والقانون ؟

لم يقتصر الأمر مع المسيحية على بعث الحياة فى العاطفة الدينية من جديد ، بل إنها اتخذت تعبيراً اسمى وأقل مادية . فبينما اتخذوا فيما مضى آلهة من الروح البشرية أو من القوى الطبيعية العظيمة ، إذ بهم قد بدؤوا يدركون الله كذاتٍ غريبة حقاً فى جوهرها عن الطبيعة البشرية من ناحية ، وعن العالم من ناحية أخرى . وقد وضع الشىء الإلهى خارج الطبيعة المرئية وفوقها ، لا رجعة فى ذلك . فبينما كان كل رجل فى الماضى يصنع إلهه ، وكان هناك من الآلهة بقدر ما كان من أسرات ومدن ، إذ بالله يبدو عندئذ كذات واحدة لا حد لها ، عامة ، تبعث الحياة فى العالم وحدها ، وهى وحدها يجب أن تسد الحاجة إلى العبادة الكائنة فى الإنسان . فبدلا من أن تكون الديانة ، عند شعوب بلاد الإغريق وإيطاليا ، كما كانت فى الماضى ، مجرد مجموعة من العبادات ،

أى طائفة من الشعائر يكررونها دون أن يروا فيها أى معنى ، وسلسلة من الصيغ لم يكونوا يفهمونها فى معظم الأحوال لتقادم لغتها ، وأثارة تنقل من عصر إلى عصر ولا تتلقى صفتها المقدسة إلا من قدمها، بدلا من ذلك كله أصبحت الديانة مجموعة تعاليم وموضوعاً عظيما معروضاً للإيمان . لم تعد خارجية ، بل استقرت على الأخص فى فكر الإنسان . لم تعد مادة ، بل أصبحت روحاً . غيرت المسيحية طبيعة العبادة وشكلها : لم يعد الإنسان يعطى الإله المأكل والمشرب ؛ ولم تعد الصلاة صيغة لعزيمة سحرية ، بل أصبحت عملا من أعمال الإيمان والتماساً بتواضع ؛ أصبحت للروح صلة أخرى بالمعبود : حلت محبة الله محل الخوف من المعبود .

جلبت المسيحية مستحدثات أخرى. فإنها لم تكن الديانة المنزلية لأية أسرة ، ولا الديانة القومية لأية مدينة أو لأى جنس . لم تكن تابعة لطبقة ولا لطائفة. فمنذ ابتدائها دعت إليها الإنسانية جمعاء . قال يسوع المسيح لتلاميذه : «اذهبوا وعلموا جميع الشعوب».

كان هذا المبدأ غير عادى ، وغير منتظر ، بحيث تردد التلاميذ الأولون فترة من الوقت . ويمكن أن نرى فى أعمال الرسل أن كثيرين امتنعوا فى البدء عن نشر المذهب الجديد خارج الشعب الذى نشأ فيه . فكر هؤلاء التلاميذ، كما فكر القدماء من اليهود، أن إله اليهود لا يريد أن يعبده الغرباء ؛ كانوا يعتقدون ، كما كان يعتقد الرومان والإغريق فى الأزمنة القديمة ، أن كل جنس له إله وأن الدعوة إلى هذا الإله وإلى عبادته ما هى إلا التنازل عن ملك خاص وعن حام خاص ، وأن مثل هذه الدعوة منافية للواجب وللمصلحة معاً . لكن بطرس رد على هؤلاء التلاميذ : « لا فرق عند الله بين أهل الأمم الأخرى وبيننا». وقد طاب للقديس بولص أن يكرر هذا المبدأ العظيم فى كل مناسبة وعلى جميع الأشكال فيقول « يفتح الله لأبناء الأمم أبواب الإيمان ، هل الله إله اليهود فقط ؟ كلا إنه إله أبناء الأمم أيضا ... إن أبناء الأمم يُدْعَوْنَ لنفس الميراث الذى يدعى إليه اليهود».

كان فى ذلك كله شىء جديد جداً . إذ أنه فى العصر الأول من البشرية ، أدرك الإنسان المعبود باعتباره مرتبطاً بجنس من الأجناس بصفة خاصة . اعتقد اليهود فى إله اليهود ، والأثينيون فى پالاّس الأثينية ، والرومان فى چوپيتر الكاپيتوليني . كان الحق فى ممارسة عبادة ما امتيازاً . صُدّ الأجنبى عن المعابد ؛

لم يستطيع من لم يكن يهودياً أن يدخل فى معبد اليهود ؛ ولم يكن للا قيديمونى الحق فى دعوة پالاّس الأثينية . ومن الحق أن نقول إن كل من كان ذا فكر فى القرون الخمسة التى سبقت المسيحية كان ثائراً على هذه القواعد الضيقة . علمت الفلسفة مراراً منذ أناكساغوراس (Anaxagore) أن إله الـكون يتلقى تحيات جميع الناس بلا تفريق . تقبلت ديانة إلوسيس (Eleusis) من يتعلمونها من جميع البلدان . وتقبلت عبادتا كيبيله (Cybèle) وسيراپيس (Sérapis) عبادا من جميع الأمم بلا تفريق . وبدأ اليهود يقبلون الأجنبى فى عبادتهم ، وقبله الإغريق والرومان فى مدنهم . وقد جاءت المسيحية بعد كل هذا التقدم فى الفكر والأنظمة فقدمت لعبادة الناس جميعا إلها واحداً ، إلها عاماً ، إلها للجميع ، ليس له شعب مختار ولا يميز بين الأجناس والأسرات والدول .

لم يعد هناك أجانب بالنسبة لهذا الإله . لم يعد الأجنبى يدنس المعبد ولا ينجس القربان لمجرد حضوره ؛ وفتح المعبد لـكل من آمن بالله . لم يعد الـكهنوت وراثياً ، لأن الديانة لم تعد ملـكاً موروثاً . لم تعد العبادة سراً محفوظاً ؛ لم تعد الشعائر والصلوات والتعاليم مخبأة . على العكس أصبح هناك منذ الآن تعليم دينى . ولم يكن يعطى فحسب بل كان يعرض ، ويتقدم أمام الأبعدين ، ويذهب للبحث عن أقل الناس اكتراثاً له . حلت روح الدعوة محل قانون الإقصاء .

وكانت لذلك نتائج كبيرة بالنسبة للصلات بين الشعوب بقدر ما كانت لها بالنسبة لحكومة الدول .

ففيما يختص بالشعوب لم تعد الديانة تأمر بالبغضاء . لم تعد تفرض على المواطن أن يبغض الأجنبى ، بل على العكس جعلت من جوهرها أن تعلمه أن عليه نحو الأجنبى ونحو العدو واجبات من العدالة بل ومن العطف . وهكذا خفضت الحواجز بين الشعوب والأجناس ؛ اختفى الحرم (*pomoerium*) ؛ قال الرسول «حطم يسوع الحائط الفاصل ، حائط العداوة .» — وقال أيضاً «هناك أعضاء كثيرة ، لـكنها تؤلف جميعاً جسما واحداً . ليس هناك أممى ولا يهودى ، ولا مختتن ولا أغلف ؛ ولا أعجمى ولا سكيثى (Scythe). كل الجنس البشرى منتظم فى الوحدة ». بل علموا الشعوب أنهم انحدروا جميعاً من أب واحد مشترك.

مع وحدة الإله ، ظهرت وحدة الجنس البشرى للأذهان ؛ وأصبح من الضرورة الدينية منذ ذلك الوقت أن يحرم على الانسان كراهية الآخرين .

أما فيما يختص بحكومة الدول ، فيمكن القول بأن المسيحية قد بدلتها تبديلا جوهرياً ، وذلك تماماً لأنها لم تهتم بها . فى العصور القديمة لم تكن الديانة والدولة إلا شيئاً واحداً ؛ كان كل شعب يعبد إلهه ، وكل إله يحكم شعبه ؛ كانت نفس المجموعة من القوانين تنظم الصلات بين الناس والواجبات نحو الآلهة المدنية ؛ كانت للديانة عندئذ الإمرة على الدولة ، وهى التى كانت تعين لها رؤساءها بطريقة القرعة وبطريق الاستخارات ؛ وكانت الدولة تتدخل بدورها فى نطاق الضمير ، وتعاقب كل من خرج على الشعائر وعلى عبادة المدينة ؛ فبدلا من ذلك ، علّم يسوع المسيح أن سلطانه ليس من هذا العالم ؛ فصل الديانة عن الحكومة ؛ وحيث أن الديانة لم تعد أرضية ، فإنها لم تعد تختلط بأمور الأرض أكثر من الحد الأدنى الذى كانت تستطيعه . أضاف يسوع المسيح : « ردوا لقيصر ما لقيصر . وما لله لله . » وتلك هى أول مرة يميز فيها بين الله والدولة بمثل هذا الوضوح . إذ أن قيصر فى تلك الفترة كان لايزال هو الحبر الأعظم ، أى الرئيس ، والأداة الرئيسية ، للديانة الرومانية ؛ كان هو حارس العقائد ومفسرها : كانت فى يديه العبادة والعقيدة . وكان شخصه ذاته مقدساً وإلهياً ؛ إذ أنها كانت بالضبط إحدى صفات سياسة الأباطرة ، عندما أرادوا أن يتخذوا مميزات الملكية العتيقة من جديد ، أنهم احترزوا من نسيان هذه الصفة الإلهية التى جعلها أهل الزمن العتيق ملازمة للملوك الأحبار والكهنة المؤسسين . ولكن ها هو ذا يسوع المسيح يحطم هذه المصاهرة التى أرادت الوثنية والإمبراطورية أن تعقداها فيما بينهما ؛ إنه يعلن أن الديانة لم تعد هى الدولة ، وأن طاعة قيصر لم تعد هى بذاتها طاعة الله .

أكملت المسيحية قلب العبادات المحلية ؛ أطفأت بيوت النار ، وحطمت المعبودات المدنية تحطيما نهائياً . إنها فعلت أكثر من ذلك : لم تتخذ لنفسها السلطان الذى باشرته هذه العبادات على المجتمع المدنى . بل كانت تعلم أنه لا مشاركة بين الدولة والديانة ؛ وتفصل كل ما كانت تخلطه الأزمنة الخالية . هذا ويمكن ملاحظة أن الديانة الجديدة قد عاشت خلال ثلاثة قرون بعيدة تماماً عن كل أثر للدولة ؛ عرفت كيف تستغنى عن حمايتها بل كيف

تحاربها . فحفرت هذه القرون الثلاثة هوة بين نطاق الحكومة ونطاق الديانة . ولما لم يكن فى الاستطاعة محو ذكرى هذه الفترة المجيدة فقد نتج عن ذلك أن هذا التفريق أصبح حقيقة شائعة لا جدال فيها ، ولم تستطع اقتلاعها جهود فريق من رجال الدين .

كان هذا المبدأ فياضاً بالنتائج العظيمة . فمن ناحية تحررت السياسة بصفة نهائية من القواعد الصارمة التى رسمتها لها الديانة القديمة . وأصبح من المستطاع حكم الناس دون حاجة إلى الخضوع لعادات مقدسة ، دون أخذ رأى الاستخارات والوحى ، دون سعى للتوفيق بين جميع الأعمال وبين العقائد وحاجات العبادة . أصبحت السياسة أكثر حرية فى سيرها . فلم تعد تعرقلها أية سلطة غير سلطة القانون الخلقى . هذا وإذا كانت سيادة الدولة قد ازدادت فى بعض الشؤون فإن أثرها كذلك قد أصبح محدوداً أكثر من ذى قبل . لقد خرج من متناولها نصف الإنسان كاملا . إذ أن المسيحية قد بشرت بأن الإنسان لم يعد يتبع المجتمع إلا بجزء منه ، ولم يعد ملكاً له إلا بجسمه وبمصالحه المادية ، وأنه إذا كان رعية لطاغية فعليه الخضوع ، وإن كان مواطناً لجمهورية فعليه أن يعطى حياته من أجلها ، لكنه حر ، فيما يختص بروحه ، وليس ملكاً لغير الله .

سبق أن بَيَّنَ مذهب الرواقيين هذا الانفصال . فرد الإنسان لنفسه ، وأسس الحرية الداخلية . لكنَّ ما كان جهد طائفة مقدامة ، جعلت منه المسيحية للأجيال القادمة قاعدة عامة لا تتزعزع . فجعلت مما كان تعزية للبعض ملكا مشاعاً للإنسانية .

فإذا تذكرنا الآن ما قلناه آنفاً عن هيمنة الدولة عند القدماء ، وإذا ما فكرنا إلى أى حد كانت المدينة تباشر سلطاناً مطلقاً باسم صفتها المقدسة والديانة الملازمة لها ، رأينا أن هذا المبدأ الجديد كان النبع الذى يمكن أن تأتى منه حرية الفرد . فإنه بمجرد ما تحررت الروح كان قد تم العمل الأصعب وأصبحت الحرية ممكنة فى النظام الاجتماعى .

عندئذ تبدلت الإحساسات والأخلاق كما تبدلت السياسة . ضعفت الفكرة التى كانت لديهم عن واجبات المواطن . لم يعد الواجب الأسمى فى إعطاء

المرء وقته وقواه وحياته للدولة . لم تعد السياسة والحرب كل شىء للإنسان ، لم تعد جميع الفضائل محصورة فى الوطنية ، إذ أنه لم يعد للروح وطن . شعر الإنسان أن عليه التزامات أخرى غير الحياة والموت من أجل المدينة . فقد ميزت المسيحية بين الفضائل الخاصة والفضائل العامة . خفضت هذه الأخيرة فرفعت الأولى ؛ وضعت الله والأسرة والذات البشرية فوق الوطن ، والقريب فوق المواطن .

وكذلك تغيرت طبيعة الشرع . خضع الشرع ، عند جميع الأمم القديمة ، للديانة وتلقى منها جميع قواعده . فعند الفرس والهنود ، وعند اليهود ، وعند الإغريق والإيطاليين والغاليين ، كان القانون ضمن الكتب المقدسة والأثارة الدينية . لهذا عملت كل ديانة القانون على صورتها . وكانت المسيحية هى أول ديانة لم تدَّعِ أن الشرع تابع لها . عنيت بواجبات الناس ، ولم تعن بالعلاقات بين المنافع . فلم تُرَ تنظم حق الملك ولا نظام الوراثة ولا الالتزامات ولا الإجراءات وضعت نفسها خارج القانون ، كما وضعت نفسها خارج كل شىء أرضى محض . وإذن فقد كان الشرع مستقلا ؛ استطاع أن يتخذ قواعده من الطبيعة ، من الضمير البشرى ، من فكرة الحق القوية الكائنة فينا . استطاع أن يتطور بكل حرية ، ويصلح نفسه ويحسنها دون أى عائق ، ويتتبع تقدم الأخلاق ، ويخضع للمصالح وللحاجات الاجتماعية لكل جيل .

ويمكن التعرف جيداً على الأثر الطيب للفكرة الجديدة فى تاريخ الشرع الرومانى ، خلال بضع القرون التى سبقت انتصار المسيحية . فقد عمل الشرع الرومانى منذ ذاك على التخلص من الديانة ، والاقتراب من الإنصاف ، ومن الطبيعة ؛ لكنه لم يكن يسير إلا بطرق ملتوية وحيل كانت تنهك سلطته الخلقية وتضعفها . لم تستطع حركة إحياء الشرع ، التى بشرت بها الفلسفة الرواقية ، والتى استمرت عليها جهود الفقهاء الرومانيين المجيدة ، والتى رسمت خطوطها ألاعيبُ البريتور وحيله ، أن تنجح تماماً إلا بفضل الاستقلال الذى تركته الديانة الجديدة للشرع . كلما استولت المسيحية على المجتمع كلما أمكن أن نرى مجموعات القوانين الرومانية تتقبل القواعد الجديدة ، لا بطريق التمويه بل علانية ، وبدون أى تردد .

لما اطرِحتْ الپناتس المنزلية وأطفئت المواقد ، اختفى دستور الأسرة القديمة إلى الأبد ،واختفت القواعد المستمدة منه . فقد الأب السلطة المطلقة التى منحها له كهنوته فيما مضى ، ولم يحتفظ إلا بالسلطة التى خلعتها عليه الطبيعة ذاتها لحاجة الطفل .وأصبحت المرأة ،التى وضعتها العبادة القديمة فى مكانة دون مكانة الزوج ، مساوية له . تبدل حق الملك فى جوهره ؛ اختفت التخوم المقدسة من الحقول ؛ ولم يعد الـملك مستمداً من الديانة ، بل من العمل ؛ وأصبحت حيازته أكثر سهولة ، ونحيت إجراءات الشرع القديم نهائياً .

وهكذا تبدل دستور الأسرة وشرعها لمجرد أنها فقدت ديانتها المنزلية ، كما تغيرت إلى الأبد قواعد حكومة البشر لمجرد أن الدولة فقدت ديانتها الرسمية .

يجب أن تقف دراستنا عند هذا الحد الفاصل بين السياسة القديمة والسياسة الحديثة . لقد روينا تاريخ عقيدة . عندما استقرت تكوّن المجتمع البشرى ؛ وعندما تبدلت مر المجتمع بسلسلة من الانقلابات ؛ وعندما اختفت تغير وجه المجتمع . ذلك كان قانون الأزمنة العتيقة .

وكذلك تغيرت طبيعة الشرع. خضع الشرع عند جميع الأمم القديمة للديانة، وكانت جميع قواعده [illegible] العرف والتقوى [illegible] وعند اليهود وعند الإغريق والإيطاليين والغاليين [illegible] كان العرف ضمن [illegible] [illegible] [illegible] وضعت نفسها خارج القانون [illegible] . أصبح محض. ولهذا فقد كان الشرع مستقلا، استطاع أن يتحلل قواعده من الطبيعة، من الضمير البشري، ومن فكرة الحق الفردية المكانية فيها، استطاع أن يتطور بكل حرية، وأن يصلح نفسه ويحسنها دون أي عائق، ويتبع تقدم الأخلاق، ويخضع للمصالح وللحاجات الاجتماعية لكل جيل.

ويمكن التعرف جيداً على الآثار الطيبة للفكرة الجديدة في تاريخ الشرع الروماني، خلال بضع القرون التي سبقت انتصار المسيحية. فقد عمل الشرع الروماني منذ ذلك على التخلص من الديانة، والاقتراب من الإنصاف، ومن الطبيعة، لكنه لم يكن يسير إلا بطرق ملتوية وحيل كانت تنهك سلطته الخلقية وتضعفها. لم تستطع حركة إحياء الشرع، التي بشرت بها الفلسفة الرواقية، والتي استمرت عليها جهود الفقهاء الرومانيين الجيدة، والتي رسمت خططها ألاعيب البريتور وحيله، أن تنجح تماماً إلا بفضل الاستقلال الذي تركته الديانة الجديدة للشرع. كلما استولت المسيحية على المجتمع كلما أمكن أن نرى مجموعات القوانين الرومانية تتقبل القواعد الجديدة، لا بطريق الحيل بل علانية، وبدون أي تردد.

جدول تحليلى (١)

---

(١) هذا الجدول مرتب حسب الهجاء العربى . وعندما تكون الكلمة فى الأصل الفرنسى فى صيغة الجمع يجب البحث عنها هنا فى صيغة المفرد إذ هى الصيغة التى اعتمدنا عليها ووضعنا الجمع بجوارها، فيبحث عن كلمة موتى ؛ مثلا ، تحت كلمة ميت ؛ وهناك مصطلحات لاتينية و إغريقية استبقيناها على صورتها الأصلية لاستحالة وجود لفظ مرداف لها بالعربية . - المعرب

جدول المواد

صفحة

الكتاب الثالث

المدينة

الكتاب الرابع

الثورات

صفحة

السفر الخامس

نظام البلديات يختفى

تصويب الأخطاء المطبعية

ملحوظة : اكتفينا فى هذه القائمة بتصويب أهم الأخطاء المطبعية تاركين بعض الأخطاء التى تبدو لناظر القارىء لأول وهلة وبعض الأخطاء التى تتكرر مثل أنظر وصوابها انظر وإثنين وصوابها اثنين والأتروسك وصوابها الإتروسك وذلك حتى لا نثقل على القارىء. ــ المترجم .

هـ = هامش . س = سطر

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	٤	الدكتورا	الدكتوراه
٣	٩	المنشابهة	المتشابهة
	٢١	لحرية	الحرية
٥	٦	قورنته	قورنثه
١٣	هـ١س٣	*rita*	*rite*
	هـ٢ س١	٤٧٩	٤٦٣
١٤	١	كانوا . يفترضون	كانوا يفترضون
	٤	السكائنات	الكائنات
١٩	هـ٤س٣	داراً	دارا
٢٩	١٤	مقبو لاعند	مقبولا عند
٣٣	٤	»	«
٤	٤	ميرائاً	ميراثاً
	٦	البرهمانى	البراهمانى
٥٢	١١	الزوج	الزوج
٥	هـ٣س٣	تيسيوس	ثيسيوس
٦١	هـ٨س٣	القانون	القانون
٦٧	٤	عواقيها	عواقبها
٦٨	هـ١س١	(Thééthète)	(Théétète)
٧٩	١٣	بينه	بينة
٨١	٢	الاله	الإله
٨٣	٥	إثارة	أثارة
٨٦	٢	كانت	كان
٨٩	١	البرد	البَرْد
٩٢	هـ١س١	ثيوفراطوس	ثيوفراسطوس
٩٣	هـ١س ٨	التمبيز	التمييز
٩٥	٢	الزاما	إلزاما

صفحة	سطر	خطأ	صواب
	١٩	*eres*	*heres*
٩٩	١٣	خير	خيراً
١٠٧	٧	الإبن	الابن
١٢٢	٢٠	إغريفى	إغريقى
١٣١	هـ٢س٢	Τριάκοντα ἑκαστοις	τριάκοντα ἑκάστοις
١٣٨	٧	كانو	كانوا
١٥٤	٦	hratrie	phratrie
١٥٨	س ٣	φυλοβασιλεὺς	φυλοβασιλεύς
١٦٢	١٧	جمهة	جمهرة
١٦٤	٦	طويلة	طويلاً
١٧٠	٢١	الوراتى	الوراثى
١٧٣	هـ س ١	أرخثيوس	إرخثيوس
	س ١٠	الراى معه لا	الرأى لا
١٩٢	هـ١س١	المقلقلين	المقلقلون
١٩٤	هـ١ س١٧	أسبرطه	اسبرطه
١٩٨	١٤	قاط	قاطناً
٢٠٠	١٤	Pallas تتلقى	Pallas تحارب للاغريق ولدى الطروادين بلاس أخرى تتلقى
٢٠٢	١٥	سيدتهما	سيدتيهما
٢٠٤	١٣	لمواطليهم	لمواطنيهم
٢٠٦	٢	أن	بأن
٢١٢	١	أوان	أوانى
٢١٧	١٠	بالتأكيد	بالتأكد
٢٢٢	١٧	بالإله	بالآلهة
٢٢٦	٤	Montesquiu	Montesquieu
٢٢٧	١٢	الزامية	إلزامية
٢٢٨	١٦	خارجة	خارجية
٢٣٦	٢٢	ارسطو	أرسطو
٢٣٧	١٧	الملك .	الملك
٢٣٨	١	سيقيون	سيقيؤون
٢٤٠	١	الإله	الآلهة
٢٤٢	١٧	ولا. إيطاليا	ولا فى إيطاليا
	٢٠	غبر	غير
٢٤٨	هـ١س٦	Stéstmbrote	Stésimbrote

صفحه	سطر	خطأ	صواب
٢٥٢	١١	انهـا	إنهـا
٢٥٤	٤	الإعريق	الإغريق
٢٦١	١٨	ان	إن
٢٦٧	٢	نطاق	النطـاق
٢٨٠	٨	ثيسييوس	ثيسيوس
	١٤	؛	؟
٢٨٥	٣	(٢)	(٢).
٢٩٠	١٧	التريبوبيه	التريبوپيه
٣٠٤	٤،٦،٧،٩	ثيسييوس	ثيسيوس
٣٠٥	٢	Panathénéas	Panathénées
٣٠٦	٧	لديونيسيوس	لديونيسوس
٣٠٨	٤	أسست المدينة ديانةونظمت كنيسة	أسست المدينةَ ديانةً ونُظِّمَتْ كنيسةً أو تأسست المدينة على ديانة ونظمت على هيئة كنيسة
٣٢٩	١٧	تكن	يكن
٣٣٢	١٠	الأباء *(patres)*	الأباء *(patres)* ،
٣٣٣	١١	فى البدء أنهم لم يمسوا	أنهم لم يمسوا فى البدء
٣٣٨	٤	ديموستيينس	ديموستينيس
	٢١	سنيسيثيوس	سينيسثيوس
٣٤٠	١١	الثيسموثيت	الثيسموثيتاى
	١٥	أرخوس	أرغوس
٣٤٦	ه١ س ٢	أن	إن
٣٤٩	٢٥	يد	يدر
		كأن	كان
٣٥٠	٧	الحجرية ؛	الحجرية ،
٣٥١	٥	أوبويا	إوبويا
٣٥٧	٩	دنى	أدنى
٣٦٧	١٢	فى	وفى
	ه٢ س ٣	بجيلة	بحيلة
٣٦٩	٣	كانو	كانوا
٣٧١	١	واحدة كمافى أثينادفعة	دفعةواحدة كما فى أثينا
٣٧٧	١٠	سطتها	سقطتها

صفحه	سطر	خطأ	صواب
٣٨٠	٢	موقداً ؛	موقداً ،
	٦	للالهة	للإله
٣٩٩	١٤	وإذ	وإذن
٤٠٢	١٨	القوابين	القوانين
٤٠٤	١٠	الماصى	الماضى
٤١٦	١ه س ١	والسالس والفستالين	والسالين والفستالس
٤١٧	٦	الذين	الذى
٤٢٣	٤	حسسناً	حسناً
٤٢٤	٩	طبقنه	طبقته
٤٣٨	١٦	مصالحة	مصالحه
٤٤٤	١ه س ٦	ه والأمثلة	والأمثلة
٤٥٤	١٢	أنه	إنه
	١٣	أن..... أن	إن...... إن
	١٨	؛	،
٤٥٧	٢٥	الحرب	الحزب
٤٥٨	٨	غيز	غير
٤٦٠	١٧	متساويين	متساوين
٤٦١	٨	الأخبار	الأخيار
٤٦٢	٥	تأنى	تأتى
٤٦٧	٦	نغيضاً	بغيضاً
٤٧٥	١٠	لتخلص	التخلص
	١٩	لا ريس	لاريس
٥٠١	١٢	بيت	بيت
٥٠٦	٤	يرأى	رأى
	٨	سكن	يسكن
٥٠٧	٢-٣	الكبير على على جميع	الكبير على جميع